محمد قطب

دراسات قرآنية

دار الشروق

محمد قطب

دراسات قرآنية

دار الشروق

بسم الله الرحمن الرحيم

« كتابٌ أنزلناهُ إليكَ مُبارك ليدّبّرُوا
آياته وليتذكّر أولُوا الألباب . »

صدق الله العظيم

دراسات قرآنية

© دار الشروق

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ هاتف : ٢٢٣٨٣٨ برقيا : داشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني هاتف : ٥١٢١٤ برقيا : شروق القاهرة

مقدّمة

لي مع القرآن قصة طويلة !

بدأت أقرؤه ـ لنفسي ـ في التاسعة من عمري ، دون موجّهٍ ولا شارح ولا معين ! إنما هي كانت رغبة ذاتية عندي في قراءة كتاب الله ، وحفظه كذلك إن أمكن !

وبالفعل حفظت الربعين الأولين من سورة البقرة ، ولكني لم أصبر للحفظ أكثر من ذلك ، ولم أستطع أن أقاوم الرغبة في قراءة الكتاب كله من أوله إلى آخره .. فقرأته في تلك السنة في عطلة الصيف .

وبديهي أنني لم أفهم الجزء الأكبر مما قرأت ! فما كان أحد يشرح لي ، وما كنت أستعين بأحد لكي يفعل ! ولكن ذلك لم يخذّلني عن متابعة القراءة إلى نهاية المصحف ، بقليل من الإدراك ، وتطلع إلى مزيد .

واستوقفتني في أثناء تلك القراءة مواضع معينة من القرآن ، فعدت أتلوها المرة بعد المرة ، وقد عرفت مكانها من الكتاب .

استوقفتني القصص كلها بصفة عامة ، وقصة سيدنا موسى بصفة خاصة ، في كل موضع ترد فيه . وكان منظر السحرة وثعابينهم وعصا موسى تلقفها وتأتي عليها ، منظراً خلاباً بالنسبة لي ، أظل أتمثله مرة ومرة ومرة .. وكذلك انفلاق البحر « كل فرق كالطود العظيم » .. ولكن منظراً معيناً ظل يشدني إليه شداً ، ينطلق معه خيالي الطفلُ إلى أقصى المدى فلا يقدر على الإحاطة به ـ ومن يقدر ؟! ـ فأعود أتملاه من جديد ، وتهتز نفسي هزة عميقة في كل مرة ، فأقرأ الآية من جديد :

« ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال : رب أرني أنظر إليك ! قال : لن تراني ! ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني ! فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكاً ، وخرَّ موسى صعقاً ، فلما أفاق قال : سبحانك ! تبت إليك وأنا أول المؤمنين»[1] .

---

(١) سورة الأعراف [١٤٣] .

وفي كل مرة أنظر ـ مع موسى ـ إلى الجبل ! ثم أترقب في كل مرة أن يثبت الجبل فيرى موسى ربه !! ثم أرى أنه لم يستقر ! وأتخيل صورة ارتجاج الجبل وهو يندك ، حتى يخر موسى صعقاً ، ويظل هنالك مغشياً عليه فترة حتى يفيق .

لست أدري كم مرة قرأت قصة موسى في القرآن وأنا طفل ، ولا كم مرة عرّجت على سورة الأعراف بصفة خاصة . ولكني أذكر أنه ما من مرة قرأت الآية إلا وتتبعتها بخيالي كأنني أقرؤها أول مرة ! وأروح أترقب أن يثبت الجبل وتتم رؤية موسى لربه ، وأنا أعلم من قراءاتي السابقة أن هذا لم يحدث ! ولكني أظل أترقب حتى تجيء الزلزلة العنيفة التي تدك الجبل فأعلم ان موسى لم ير ربه وإنما خرّ مغشياً عليه !

تلك فترة قد خلت ، بخيالاتها الطفلة ، وإدراكها المحدود !

ثم عدت إلى الكتاب مرة أخرى في مرحلة الصبا ما بين الثالثة عشرة والسابعة عشرة ، بإدراك أكبر هذه المرة ، وعلى نحو جديد !

كنت في هذه الفترة أعيش في جو من « الروحانية » ، ومن الاهتمام بالفن في ذات الوقت .

كنت أعيش في إشراقة روحية دائمة مع الله ، وفي خيالات دائمة كأنها أحلام اليقظة ، وإن كانت لا تشغلني ـ كثيراً ـ عن واقع الأرض المحسوس ! وكنت قد بـدأت أكتب الشعر ، أو ما يخيّل إليّ يومئذ أنه شعر ! وهو في حقيقته ـ وإن كان موزوناً ـ أقرب إلى خيال الأطفال وعواطف الأطفال !

وفي تلك الفترة كان القرآن يهزني كما يهز الصوفيَّ في سبحاته . وخاصة حين كنت أسمع تلاوته من الشيخ محمد رفعت في المذياع .. كنت أحس أنه يقرأ بروحه لا بلسانه . يقرأ من أعماق قلبه . وكان صوته المعبّر الشجيّ يلتقي تماماً بما أحسه يومئذ من أحاسيس ، فيخيل إليّ وأنا أستمع إليه أنني أستمع إلى الملأ الأعلى ، وأن نبرات صوته أطياف من النور . وغلب على وهمي ـ بغير منطق بالطبع ! ـ أن القرآن هكذا أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ! بهذه النغمات الصافية التي يشع منها النور .. وكان من أشد تلاواته تأثيراً في نفسي تلاوته لسورة مريم .. وما تزال !

كنت في هذه الفترة أكثر إدراكاً لمعاني القرآن مما كنت في الطفولة بطبيعة الحال .. ومع ذلك فلم أكن ـ في حالتي تلك ـ أقف طويلاً عند موضوعاته كما كنت أصنع حتى في أيام الطفولة ! كان يهزني ككل ! بصرف النظر عن الموضوع ! وكانت قراءته أو الاستماع إليه ينقلانني نقلاً من عالم الأرض المحدود إلى عالم غير محدود .. عالم لا يهمني ـ وقتئذ ـ تبين ملامحه ! إنه عالم مسحور !

كانت موسيقى النسق القرآني الفريد تهزني وتبهرني ، فأسبح على أنغامها غير ملتفت كثيراً إلى ما ألتقي به ـ في أثناء هذه السباحة الروحية ـ من موضوعات أو « مفاهيم » .. لا لأني ـ يومئذ ـ لا أدركها ، فقد كانت حصيلتي الثقافية قد نمت بقراءة ما قرأت من كتب العقاد وطه حسين والمازني وهيكل وغيرهم .. بحيث أستطيع أن أستوعب من معاني القرآن ومفاهيمه قدراً غير ضئيل .. ولكني مشغول عن ذلك بتلك الانطلاقة الروحية مع القرآن من ناحية ، ثم بالجانب الفني من النسق القرآني من جهة أخرى .. بصرف النظر عن الموضوع ! وإن كانت موضوعات « القدرة الخارقة » ذات صدى خاص في نفسي أكثر من غيرها من الموضوعات !

في تلك الفترة كانت سورة مريم ـ بصفة خاصة ـ تجذبني إليها جذباً قوياً لا أستطيع له دفعاً ، بل لا أحب له دفعاً ! !

كانت فيها القدرة الخارقة من ناحية في ولادة الغلام لزكريا وخلق عيسى بغير أب . وكان فيها النغم الموسيقي العجيب النسق من ناحية أخرى ، فإذا أضيف إليهما تلاوة الشيخ رفعت فقد بلغت في نفسي مبلغاً من التأثير لا يمكن وصفه بالكلمات !

وما زلت أذكر إلى هذه اللحظة تأثير هذه السورة في نفسي من أولها إلى آخرها .. وإن كانت أجزاء معينة منها كان لها في نفسي تأثير أشد . أولها تلك الحروف في مفتتح السورة ، التي لا مثيل لها في كل ما بدئت به السور من حروف .

كٓهيعٓصٓ .. عجيبة في ذاتها ، وأعجب ـ في حسي يومئذ ـ بتلاوتها ، وخاصة العين الممدودة التي تقرأ كالمشددة ! ثم بداية الكلام بعدها هكذا : « ذكر رحمة ربك عبده زكريا » ! ثم الجو المسحور (بالنسبة لي وقتها) الذي توحي به كلمة « نداء خفيا » : « إذ نادى ربه نداء خفيا » . ثم هذا النداء ذاته : « قال : رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ، ولم أكن بدعائك رب شقيا » .. كم كانت تهزني تلك الصورة : « وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا » فأتخيلني ـ وأنا بعد صبي ـ في مثل تلك الصورة فتهتز نفسي هزة لا أستطيع أن أقاومها ! ثم المفاجأة ـ بعد هذا الدعاء مباشرة ـ بإجابة الدعاء : « يا زكريا ، إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى ، لم نجعل لـه من قبل سميا » ! تلك الصلة الخفية بين هذا العبد الصالح وربه ، التي تجعله ينطق بالدعاء فيستجيب الله له على الفور [بحسب ظاهر السياق في الآية] .. كانت تنقلني إلى تلك السبحات الروحية التي تغمر روحي بأطياف من النور ! ثم .. القدرة الخارقة : «كذلك قال ربك هو عليّ هين ، وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً ! » والآية .. « قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليالٍ سويا » كلها .. كلها .. في ذلك الجو

السابح في النور ! وخاصة ختام القصة : « وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً » ! !

ثم قصة مريم كلها .. بما فيها من خوارق .. وما في نسق التعبير من موسيقى .. روعة تأخذ بحسي لا يشابهها شيء على الإطلاق ! ووقفات عند : « فناداها مِنْ تحتِها .. » أو على القراءة الأخرى : « فناداها مَنْ تحتَها .. » كلتاهما تهز النفس بالمفاجأة التي تبدو فيها القدرة الخارقة .. وكلام عيسى للناس : « قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً ... » وختام القصة مرة أخرى : « والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا » !

ولم يكن يفوتني ـ يومئذ ـ من الناحية الفنية ذلك الفرق بين الختامين : « وسلام عليه .. » « والسلام عليّ .. » هناك « سلام » ، وهنا « السلام ».. وكان يوحي ذلك إليّ يومئذ بأن المقصود هو إعطاء أهمية خاصة لعيسى ، ورفعه فوق يحيى درجات !

كما لم يكن يفوتني ـ من الناحية الفنية ـ ذلك التغيّر الموسيقي في نهاية قصة عيسى ، في قوله تعالى : « ذلك عيسى ابن مريم ، قول الحق الذي فيه يمترون » والآيات الست التي تتلوها ، حيث يختلف الرويّ مرة واحدة في السورة كلها عما قبله وما بعده ، إذ تنتهي الآيات بالياء الممدودة « .. يوم أبعث حيا » أو الهمزة المفتوحة « ولم تك شيئا » إلا هذه الآيات السبع من السورة كلها (غير أحرف الابتداء : كهيعص) .. لم يكن يفوتني ، لشدة اشتغالي بالناحية الفنية إلى جانب الجو الروحي ، فكنت أحاول أن أعللها بأنها لفت نظر إلى شيء هام يراد لفت النظر إليه ، وهو في الوقت ذاته خارج عن سياق القصة ذاتها ، وهو التقرير الرباني بأن هذه هي حقيقة عيسى ابن مريم الذي امترى فيه الممترون .. حتى إذا انتهى التعليق ـ أو التقرير ـ وعادت السورة تروي قصص عدد آخر من الأنبياء ، عاد الرويّ الأصلي الذى استخدم في القصص من أول السورة : « واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبيا ... » .

ولأمرٍ مّا كانت هاتان الآيتان من السورة تهزانني : « واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد ، وكان رسولاً نبيا ، وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا » ولا أذكر الآن لماذا على وجه التحقيق ! وإن كان لا بد من سبب معين أو أسباب .. وربما كان انشغالي وقتها بنسب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى إسماعيل ، وإنكار أهل الكتاب النبوة في فرع إسماعيل واحداً من هذه الأسباب !

وأذكر كذلك تأثري العميق بهذه الآيات : « وقالوا اتخذ الرحمن ولداً . لقد

جئتم شيئاً إدًّا ، تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا ، أن دعوا للرحمن ولدا » .

ثم هذه الآية : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن **ودا** » .. ويلفتني فيها بشدة أن النعيم هنا ليس نعيماً حسياً .. إنما هو **الود** .. الود من الرحمن .. وكانت هذه ـ في الجو الروحي الذي أعيشه ـ ذات رنين خاص .

أما الآية الأخيرة فكان الجانب الفني فيها يصل بي إلى الغاية : « وكم أهلكنا قبلهم من قرن ، هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا » .. ورغم أنني لم أكن أعلم على وجه التحديد معنى كلمة « ركزا » فقد كان يتمثل لي « الراوية » في المسرحيات القديمة الذي يعقّب على الأحداث بعد انتهائها ليعطي العبرة للمستمعين .. المسرح خالٍ من آثار هاتيك القرون .. ثم يجيء السؤال كأنه همس في ذلك الصمت المطبق ، صمت الفناء : « هل تحس منهم من أحد ؟ أو تسمع لهم ركزا ؟ » ويجيب الصمت بالنفي .. ويسدل الستار !

في تلك الفترة كذلك كانت تجذبني سور بعينها في القرآن ـ لا من ناحية موضوعها ! ولكن لأنها تختلف في الرويّ عن الغالب في سور القرآن [وهو الياء الممدودة أو الواو الممدودة وبعدها الميم أو النون] . وكان من بين هذه السور سورة طه ، وسورة الفرقان ، وسورة ص ، وسورة الفتح ، وسورة ق ، وسورة النجم ، وسورة القمر .. ولكن « النجم » كانت هي القمة في حسي يومئذ من حيث التنغيم الموسيقي بعد مريم ، فكانت لها في نفسي جاذبية خاصة ..

أما هذه الآية من سورة القمر : « .. فالتقى الماء على أمر قد قدر » فكانت روحي تسبح فيها سبحات .. « ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيونا ، فالتقى الماء على أمر قد قدر » ! إنه ليس ماءً إذن هذا المنهمر من السماء والمتفجر من الأرض .. إنه قدر ! قدر يتم .. صورته الحسية ماء .. وهو في حقيقته قدر .. والصورة الحسية ذاتها ! ماء منسكب من السماء ، وماء يخرج من الأرض .. وحين يمس الماء المنسكب من السماء ماء الأرض المتفجر .. يتم القدر ! كما تحدث الشرارة حين يتلامس سلك الكهرباء الموجب وسلكها السالب .. وإن كانت هنا لا توجد شرارة .. وإنما يُقَدَّر قدر !

تلك فترة أخرى قد خلت .. بكل سبحاتها الروحية ، وكل انشغالها بالجانب الفنيّ من الحياة !

* * *

ثم كانت فترة الشباب الباكر ، وكانت جولة أخرى مع الكتاب .. جوله مختلفة تماماً عن السابقة !

فإن كان هناك الجو الحالم ، وسبحات الروح ، وموسيقى النغم ، وجمال الفن ... فهنا صحوة ذهنية كاملة ، قلما تحلم ! وبحث عن الأفكار المجردة ، والمفاهيم الكلية .. بحث أقرب إلى التجريد الفلسفي .. لا يرى الأشياء في صورتها المحسوسة ، إنما يراها مبلورة في « فكرة » ، ومصورة في « مفهوم كلي » !

كنت في هذه الفترة أدرس في الجامعة ؛ ورغم أني كنت أدرس « الأدب » الانجليزي ، أي أنه ينبغي أن أعيش في جو الأدب والفن ، والموسيقى والحلم .. إلا أني كنت قد عَبَرتُ هذه الفترة من عمري من قبل ! وكما كنت في الفترة السابقة مشغولاً بالفن لحسابي الخاص لا لحساب الدراسة ، إذ كنت في دراستي الثانوية في القسم العلمي لا القسم الأدبي ! فكذلك شعرت اليوم أنني « أتفلسف » لحسابي الخاص ، ولا أعيش كثيراً في جو الدراسة ، إلا بمقدار ما يمكن أن يدخل من هذا « التفلسف » في بعض الدروس أو بعض الدراسات !

وفي هذه الفترة عكفت على القرآن أبحث فيه عن « فكرة » الله سبحانه ، مقارنة بفكرة الله في اليهودية المحرفة والمسيحية المحرفة ، وبالنرفانا الهندية ، والديانات الوثنية الأخرى من آلهة الفراعنة إلى أساطير اليونان إلى أساطير الفرس .. إلى البوذية وغيرها من الديانات ..

وما أزعم أنني أدركت يومئذ من تلك القضايا ما أدركه اليومَ مثلاً ، بصرف النظر عن صحته أو خطئه ، وعمقه أو ضحالته .. ولكني أقول فقط إن هذا هو الذي كان يشغلني في عكوفي على القرآن .. الله .. صفاته .. هل يمكن تصوره ؟ هل يمكن تصور كيف يُجْرِي قدره في الكون ؟ وهيمنته سبحانه على الكون كله .. هل يمكن تصورها أو تصويرها بالألفاظ ؟

ثم .. المخلوق البشري .. أي شيء هو ؟! ما حدوده ؟ ما دوره ؟ ما قيمة وجوده في هذا الكون ؟!

ثم ..

الخير والشر .. والجمال والقبح .. هل هي قيم مطلقة أم قيم نسبية ؟ وهل القيم الإسلامية فاضلة لأن الله فرضها وسماها ؟ أم فاضلة « في ذاتها » ! وما المقياس ؟ هل هناك مقياس نقيس إليه هذه القيم ؟ وما هو ؟ ومن صنع من ؟ ومن الذي يحق له أن يضع المقياس ؟

والحياة الأخرى .. ضرورة هي ؟ لها دور معين تؤديه في الحياة الدنيا ؟ أم هي فقط محل القصاص الرباني الكامل والجزاء العادل ؟

والعبادات .. أهي لأن الله فرضها ؟ أم التعبد رغبة فطرية في البشر حتى ولو لم يأمرهم به الله ؟

والوحي .. ما هو ؟ بأي طريقة يتم ؟ أي جهاز في هذا الكيان البشري يتلقاه ؟ وأين تلك الأجهزة الخفية من كيان الإنسان ؟ هل لها « مكان » معين فيه ؟ أم كيف تعمل .. وكيف تتلقى .. وكيف تعي ؟

إلى آخر تلك الأمور التي علمت ـ فيما بعد ! ـ أن علماء الكلام خاضوا فيها ، وأنهم قالوا ـ في معظم الأحيان ـ كلاماً لا يسمن ولا يغني من جوع ! وعلمت كذلك ـ فيما بعد ! ـ أنه ـ في صورته التجريدية البحتة ـ لون من التفكير الضائع لا يستحق أن يبذل الجهد فيه !

حقيقة أنني لم أخض موضوعاً واحداً من هذه الموضوعات بروح الشك الذي كنت أسمع عنه عند « الفلاسفة » .. وأمقته كذلك ! وحقيقة أنه كان أقرب إلى التأملات منه إلى التفكير المضني .. تأملات هادئة ، ولكنها ذهنية .. تعيش في عالم التجريد لا في عالم المحسوس ..

وانقضت تلك الفترة لأعود إلى القرآن من جديد !

* * *

فن مرة أخرى ؟

نعم ولكن من نوع آخر ، وعلى مستوى جديد !

كان الشقيق يعدّ كتابه « التصوير الفني في القرآن » ويتحدث إليّ في بعض جوانبه فتستهويني وتفاجئني مفاجأة تامة .. على كل ما عشته من قبل مع القرآن في جو الفن ! أو على الأقل تفسر لي أسباب تأثرات سابقة لم أكن أدري كنهها .. وتضع يدي على مفاتيح الجمال الفني في التعبير القرآني فأروح أراجعه مرة أخرى بوعي جديد ..

يمكن أن نقول إنه تأثر فنيّ واعٍ ، غير ذلك التأثر المبهم الذي كان من قبل ، والذي كانت تطويه في جنباتها سبحة الروح !

وحين تكون في يدك المفاتيح .. وحين تعود إلى الأماكن التي رُدْتَهَا من قبل فلم تستطع فتح مغاليقها ، فتجرب أن تفتح فتنفتح بين يديك .. إنها متعة هائلة ، وفسحة هائلة .. وثروة هائلة !

وعدت « أستمتع » بالقرآن من جديد ، على ضوء هذا النور الكاشف الجديد !

ولا أستطيع اليوم أن أقول أين كانت تقودني قدماي في صحبتي للقرآن لو لم يحدث هذا المنعطف بكتاب « التصوير » . ولكن الذي لا شك فيه أن كتاب « التصوير » قد أعطاني دفعة هائلة في اتجاه معين لم أكن لأتجه إليه بغير ذلك الكتاب ..

* * *

ومع كتاب آخر من كتب الشقيق ، تبدأ جولة جديدة مع القرآن !

ذلك هو كتاب « العدالة الاجتماعية في الإسلام »[1] .

لم يكن الحديث عن « العدالة الاجتماعية » في الإسلام جديداً على حسّي ولا على تفكيري .. بل لقد كنت في مجادلاتي مع الشيوعيين من قبل أقول لهم – عن إيمانٍ واعٍ – إن الإسلام هو النظام الأفضل ، لأنه يعطي العدل الاقتصادي الذي تحصر الشيوعية نفسها فيه ، ثم لا ينحصر مثلها في حدوده ، ولا يجرد الإنسان من كيانه الروحي الأصيل فيه ، بل يعطيه جانب الروح وجانب المادة في آن معاً ، لا يغفل هذا ولا ذاك .. وإن كان بسط الموضوع في كتاب « العدالة » كان أوسع ولا شك من كل ما فكرت فيه أو وصلت إليه من قبل .

ولكن الجديد حقاً هو فكرة « التوازن » في الإسلام !

لقد كان شيء غامض منها يطوف في فكري وأنا أتحدث مع المجادلين عن الروح والجسد .. والروح والمادة .. والجانب الاقتصادي والجانب الخلقي أو الإنساني ..

ثم كانت ومضة عابرة خطرت لي وأنا أتلقى محاضرة في علم النفس في معهد التربية عن فرويد ، فخطر لي يومها أنه بينما تبالغ المسيحية الكنسية في فرض « الكبت » على دوافع الإنسان الفطرية ، ويبالغ فرويد في المطالبة بالانفلات من كل قيد .. يقف الإسلام موقفاً « متوازناً » في نقطة الوسط ، فلا يكبت الدوافع الفطرية كما تصنع الكنيسة ، ولا يطلق الإنسان من عقاله كما يصنع فرويد .. ثم كانت تأملات عابرة كذلك في القرآن حول هذا الخاطر السريع .

ولكن كتاب « العدالة الاجتماعية في الإسلام » أبرز فكرة « التوازن » إبرازاً واضحاً كأصل من أصول الإسلام العامة الشاملة ، بصورة لم تكن تخطر لي من قبل على بال !

ومن هنا عدت إلى القرآن من جديد .. أبحث فيه عن فكرة « التوازن » على خطِّي الخاص الذي أتجه إليه ، وهو خط « الدراسات النفسية » ..

---

(١) يرى الشقيق أن هذا الكتاب قد فات أوانه ، ولم يعد من كتبه الصالحة للقراءة .. ولكني هنا أتحدث عن تأثراتي الخاصة في فترات معينة من العمر .

عدت إلى دراسة قرآنية من نوع جديد .. دراسة لمحاولة استخلاص نظرية إسلامية عن النفس الإنسانية !

لقد كان يعز عليّ أن أسمع سخافات فرويد عن النفس الإنسانية تلقى على طلبة معهد التربية كأنها كلام منزل لا تنبغي مناقشته ! ثم يعز عليّ أنه ليس في يدي ـ ولا في أيدينا ـ تصور متميز ، نقدمه بدلاً من هذه السخافات ! وتمنيت لو أن إنساناً ما ، استطاع أن يقدم يوماً هذه النظرية الإسلامية المتميزة ، التي كانت خيوط متفرقة منها تخطر في ذهني دون أن تتجمع في شكل واضح مبلور .. ولكن الموضوع كان يشغلني دائماً لا أستطيع أن أكف عن التفكير فيه .

وكان كتاب « العدالة الاجتماعية » نقطة تحول في تفكيري ..

لقد بدأت الخيوط المتفرقة تتجمع في ذهني حول نواة معينة محددة واضحة .. هي « التوازن » .

وبدأت أدرس القرآن بحثاً عن مزيد من هذه الخيوط ، وشواهد جديدة على « التوازن » الأصيل في بنية الإسلام ..

وعلى الرغم من أنني وقتها لم أفكر أبداً في الكتابة ولا التأليف .. ولا أن أكون أنا الذي يقدم للناس شيئاً عن الإسلام على الإطلاق .. فإن الفكرة ظلت تشغلني مشغلة جادة .. حتى دفعتني دفعاً إلى تسجيلها في كتابي الأول « الإنسان بين المادية والإسلام » .

* * *

ثم بدأت صحبتي للقرآن تأخذ منحىً آخر ..

لقد فرغت ـ أو هكذا بدا لي ـ من رسم الخطوط العريضة لنظرة الإسلام إلى النفس الإنسانية ..[1]

وبدأت أتجه وجهة جديدة .. وإن كانت بذورها متضمنة في كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام » .

إن هذا القرآن هو « منهج الحياة » لكل البشرية .. فعلينا إذن أن نستخلص هذا « المنهج » من بين ثنايا الكتاب ..

وقد تحدث الشقيق من قبل عن منهج « العدالة الاجتماعية في الإسلام » ..

فلنبحث عن بقية « المناهج » التي تؤلف في مجموعها « منهج الحياة » ..

---

(١) عدت إلى الموضوع فيما بعد بصورة أكثر تفصيلاً في كتاب « دراسات في النفس الإنسانية » .

وبغير ترتيب مقصود جاء « منهج التربية الإسلامية » ثم « منهج الفن الإسلامي » ثم « التطور والثبات في حياة البشرية » الذي يمكن أن يكون « منهجاً » لجانب من الدراسة الاجتماعية ، فيما يتعلق بالجوانب الثابتة والجوانب المتغيرة من الحياة .. [1]

بغير ترتيب مقصود .. إنما كانت كل دراسة تنضج في نفسي تأخذ طريقها إلى كتاب ..

ولكن الصحبة مع القرآن كانت متجهة كلها في تلك الفترة إلى التنقيب عن تلك « المناهج » التي يتألف من مجموعها « منهج الحياة » .

* * *

خاطر آخر .. قد يكون نابعاً من ذات الاتجاه ولكنه أخذ صورة خاصة من التعبير .. أعادني إلى صحبة جديدة مع الكتاب ..

ذلك هو خاطر الجاهلية التي يعيش فيها الناس اليوم .. جاهلية القرن العشرين !

إن البحث عن تفصيلات « منهج الحياة » القرآني في الاقتصاد والاجتماع ، والتربية وعلم النفس ، والفن والفكر .. هو ذاته الذي أدى إلى هذا الخاطر .. أن الناس يعيشون في جاهلية « جذرية » شاملة ، أكبر وأعم من هذه التفصيلات .. سببها الأصيل هو **رفض** اتباع ما أنزل الله ، ورفض تسيير الحياة بمقتضى منهج الله .

وهذا ـ بالذات ـ هو الجاهلية .. ! هذا الرفض المتعمد لمنهج الله ، ولتحكيمه في الحياة !

ومن هنا كانت تلك الجولة الجديدة في صحبة القرآن .. جولة البحث عن « جوهر » الجاهلية ، الذي هو المقابل الحقيقي « لجوهر » الإسلام .. ثم دراسة أحوال الجاهليات التاريخية التي أفضت في النهاية إلى جاهلية القرن العشرين .. ودراسة العلاج الوحيد لتلك الجاهلية ، وهو الرجوع إلى الإسلام ..

* * *

ثم كنا في المعتقل على أثر ذلك فترة طالت إلى سنوات ..

ولم يكن معنا ـ في معظم تلك الفترة ـ إلا هذا الكتاب ! ثم لم يكن شيء أحب إلينا في تلك الفترة من ذلك الكتاب ! نعكف عليه للتلاوة ، ونعكف عليه للحفظ ، ونعكف عليه للتأمل ، ونعكف عليه للعبادة ، ونعكف عليه للعبرة ، ونعكف عليه

---

(١) هناك بحث آخر عن « منهج الإسلام الأخلاقي » ألقيته في صورة محاضرات على طلبة معهد الدراسات الإسلامية سنة ١٩٦٤–٦٥ ولم يأخذ بعد صورة الكتاب .

للخلاص من ضيق القيد إلى سعة العيش في رحاب الله .. مع كتاب الله !

ورغب إليّ الإخوة ـ حين « استقر » بنا المقام في المعتقل ـ أن تكون لنا دروس في القرآن !

وقبلت المهمة مشفقاً على نفسي من جسامتها ! .. فكل دراستي في القرآن من قبل كانت من زوايا محددة اخترتها لنفسي .. زاوية نفسية أو زاوية تربوية أو زاوية فنية .. الخ . أما القرآن ككتاب شامل ، فأمر لم أفكر في التعرض له قط ، وما كنت في حاجة إلى التعرض إليه في وجود من يقوم بهذه المهمة بالفعل ويخرجها « في ظلال القرآن » .

ولكن إلحاح الإخوة هو الذي دفعني إلى التعرض لشيء ليس في خط تفكيري أن أتعرض له بحال ..

ثم كانت ـ من خلال تلك الدروس ـ جولة جديدة مع القرآن .. جديدة عليّ فعلاً ! وإن كان ينبغي أن تكون من البديهيات ! ولكن كم من البديهيات لا يراها الإنسان على حقيقتها حتى يمارسها بالفعل ، أو يتيقظ لها لِسبب من الأسباب ؟!

لقد درست القرآن من قبل ، من تلك الزوايا المحددة ، فكنت أخرج بنتائج محددة في كل مرة : أن هذا الدين المعجز ، الذي كتابه القرآن ، عملاق ضخم في كل زاوية يدرس منه ..

عملاق ضخم في منهجه الاقتصادي .. عملاق ضخم في منهجه التربوي .. عملاق ضخم في نظرته للنفس البشرية .. عملاق ضخم في منهجه الأخلاقي .. عملاق ضخم في نظام الأسرة .. عملاق ضخم في منهجه السياسي .. وهكذا وهكذا في كل مجال ، بحيث تبدو المناهج البشرية إلى جواره أقزاماً ضئيلة ، فوق أنها ممسوخة الكيان ..

هذا بدا لي واضحاً وضوحاً كاملاً من قبل ، وصار عندي من البديهيات ومن المسلّمات ..

وكانت تتمثل له في خاطري صورة مجسمة [وتلك عادتي مع كثير من الأفكار !] : صورة دائرة ذات مركز ومحيط . في مركزها تقف على التوالي أقدام مجموعة من العمالقة رءوسهم واصلة إلى المحيط ، موزعة على ذلك المحيط ، كل يحتل مساحة من الدائرة ، هذا يمثل المنهج الاقتصادي ، وهذا يمثل المنهج السياسي ، وهذا يمثل المنهج الاجتماعي .. كلهم متساوون في الحجم . كلهم متشابهون في السمات ! بحيث لو أدرت الدائرة في أي وضع لبدا أمامك عملاق واقف على الدوام !

ولكن شيئاً جديداً بالمرة تبين لي في أثناء هذه الدروس .. كان ينبغي أن يكون مسلمة من المسلمات .. ولكنه ـ بالحق ـ لم يكن كذلك في حسّي حتى تبينت حقيقته

لي .. ففوجئت بها تماماً .. كما فوجئت من قبل مرات وأنا أصاحب هذا الكتاب !

إنه عملاق **واحد** مجتمع مترابط ، ملء الصورة .. ملء المساحة .. وليس هو أولئك العمالقة المتفرقين الذين وجدتهم من قبل ، كل على حدة ، كأنه كائن منفصل الحدود !

عملاق **واحد** شامل ! لا تستطيع أن تقتطع قطعة منه فتقول : هذه سياسة . وهذه اقتصاد . وهذه تربية . وهذه فن . وهذه عقيدة . وهذه شريعة !

إن ضرورة البحث العلمي ـ أو العقلي ـ وحدها التي جعلتنا نضع تلك الفواصل ونقيم تلك الحدود بين ما هو عبادة وما هو معاملات من قبل في الفقه الإسلامي ، ثم بين ما هو سياسة ، وما هو اقتصاد ، وما هو اجتماع ... الخ ، في تفكيرنا الحديث !

ولا شيء من هذه الفواصل موجود في الحقيقة !

إنما هو كتاب **واحد** شامل ! تتداخل فيه هذه وتلك تداخلاً كاملاً لا يمكن فصل بعضه عن بعض ، كما لا يمكن فصل جزء من الجسم الحيّ عن جزء ! إلا لضرورة البحث العلمي فحسب !

صحيح أنك ـ في الجسم ـ تقول : هذه يد . وهذه ذراع . وهذه عين . وهذه سن .. ولكنها متصلة اتصالاً وثيقاً رغم تميزها الظاهر .. بحيث لا يمكن أن **تقطع** إحداها وحدها وتقول : هذه يد ، وهذه ذراع ، وهذه عين ، وهذه سن .. إلا أن تنتزعها من الجسم الحيّ ، وعندئذ تموت !

هناك وشائج تجمّع الكل .. هناك دم يسري في الكل .. هناك أعصاب تربط الكل وتعطي كل جزء إحساسه بالجزء الآخر .

القرآن كذلك ! ولله المثل الأعلى .

كتاب **واحد** شامل !

صحيح أنك تقول : هذه آية من آيات الأحكام . هذه آية تنظم روابط الأسرة . هذه آية تتحدث عن نعم الله على الإنسان . هذه آية تلفت الحس إلى تدبر آيات الله في الكون ..

وأنت في كل ذلك صادق ولا شك ..

ولكن اقرأ القرآن جيداً ، وتدبره كما تدبرناه في صحبة هذه الدروس .. لن تجد شيئاً من ذلك كله منفصلاً عن شيء ، بحيث تستطيع ـ إلا في ضرورة البحث العلمي ـ أن تفصله وحده كأنه كيان مستقل !

هناك وشائج تجمّع الكل .. هناك رباط يربط الكل .. هناك سياق موحد يشمل الكـل ..

وذلك هو القرآن !

كم كان ذلك جديداً ـ في حسي على الأقل ـ بينما ينبغي أن يكون بديهياً في حس كل دارس لهذا الكتاب !

وكم فوجئت ـ وأنا في تلك الدروس ـ أن صحبتي الطويلة لهذا الكتاب منذ الطفولة تتجمّع كلها لتعطي الصورة الموحدة الشاملة !

حتى وقفات الطفولة .. حتى سبحات الصبا .. حتى لمسات الفن .. حتى أبحاث العقل المجرد .. حتى الدراسات « الإنسانية » من اقتصاد واجتماع وعلم نفس وتربية وفن.

هذه كلها يمكن أن تَرِدَ الآن .. ولكنها ترد مجتمعة متساوقة متواكبة لتأخذ مكانها في الصورة الموحدة الشاملة ، لا أجزاءً ولا تفاريق . وعندئذ تكون دلالتها أوضح وأعمق وأدق !

* * *

تلك قصتي الطويلة مع « الكتاب » ..

والصفحات التالية هي « الخلاصة » من هذه القصة الطويلة ..

أقدمها .. على تردد !

فما زلت بعد على غير اقتناع كامل بأن فيها غناءً للقارئ .. أي غناء !

وما زلت أرى أنه حسب من شاء أن يعيش « في ظلال القرآن » .. فيجد فيه غناءً عني ، وعن مثل هذا الكتاب !

وما قصدت بهذه الصفحات على أي حال أكثر من أن تكون « مفاتيح » .. قد تعين قارئاً من القراء على تدبر القرآن .

« وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب » .

محمد قطب

القرآن مكّي ومدَني

من المعروف بطبيعة الحال أن هناك سوراً مكية وسوراً مدنية في القرآن ، بحسب مكان نزولها في مكة أو المدينة .

ولكن هناك ظاهرة تلفت نظرنا بادئ ذي بدء ، هي وجود آيات مدنية في سور مكية ، وآيات مكية في سور مدنية . أي أن هناك آيات نزلت في المدينة ولكنها ألحقت بسور مكية ، وآيات نزلت بمكة ولكنها ألحقت بسور مدنية [1] .

والذي يلفت نظرنا في هذه الظاهرة أن مكان نزول الآية لم يكن هو الذي حدد موضعها في المصحف ، ولا زمان نزولها كذلك ! فقد تنزل آية في المدينة ثم تلحق بسورة مكية قبل ذلك بعشر سنوات أو أكثر ، كالآية الأخيرة من سورة المزمل المكية :

« إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه ، وطائفة من الذين معك ، والله يقدر الليل والنهار ، علم أن لن تحصوه فتاب عليكم ، فاقرأوا ما تيسر من القرآن . علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله ، وآخرون يقاتلون في سبيل الله ، فاقرأوا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً حسناً . وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً ، واستغفروا الله إن الله غفور رحيم » [المزمل : ٢٠] .

وقد تنزل آيات في مكة ولكنها تلحق بسورة مدنية نزلت بعد ذلك كهذه الآيات من سورة الأنفال :

---

(١) هناك آية في سورة القصص ـ المكية ـ نزلت بالجحفة في أثناء الهجرة : « إن الذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد . » [القصص : ٨٥] وآية في سورة محمد ـ المدنية ـ نزلت في الطريق في أثناء الهجرة : « وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم » [محمد : ١٣] وآية في سورة البقرة نزلت بمنى في حجة الوداع : « واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » [البقرة : ٢٨١] وجزء من آية في سورة المائدة نزل بعرفات في حجة الوداع : « اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون . اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » [المائدة : ٣] .

« وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين . وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا ، لو نشاء لقلنا مثل هذا ، إن هذا إلا أساطير الأولين . وإذ قالوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم . وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون . وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه . إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون . وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءً وتصدية . فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، فسينفقونها ، ثم تكون عليهم حسرة ، ثم يغلبون ، والذين كفروا إلى جهنم يحشرون » [الأنفال : ٣٠ - ٣٦] .

هناك شيء آخر إذن غير مكان نزول الآية وزمان نزولها هو الذي حدد موضعها في المصحف ..

وأول ما يخطر في البال إزاء هذه الظاهرة أن هناك وحدة موضوعية لكل سورة من سور القرآن . وإلا فلو كان القرآن مختلط الموضوعات بلا رابطة كما يقول الذين لا يتدبرون القرآن ولا يفهمونه من المستشرقين وتلامذتهم من « المسلمين ! » ما كان هناك معنى لإلحاق آية مدنية بسورة مكية ، ولا آية مكية بسورة مدنية ؛ ولكان الأولى أن توضع حيث نزلت ، في أية سورة متجانسة معها في الزمان والمكان !

بل إن وضعها في سورة غير متحدة معها في الزمان والمكان في موضع معين منها بالذات لهو أشد دلالة ! فقد كان جبريل عليه السلام يتنزل بالوحي ثم يخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن مكان الآية أو الآيات هو في سورة كذا ، بعد آية كذا .. فهي إذن توضع في مكانها المقرر لها في اللوح المحفوظ ، بصرف النظر عن مناسبة نزولها من حيث الزمان والمكان .. وهي من جهة أخرى لا بد أن تكون ذات صلة موضوعية بالسورة التي ألحقت بها وإن كانت لم تتنزل معها !

ولقد عني صاحب « الظلال » بهذه الوحدة الموضوعية في كل سورة بذاتها ، فبيّنها بما لا يحتاج منا إلى مزيد ، ولكنّا فقط نشير إليها هنا ونسجلها ، ثم نعود إليها إن شاء الله مرة أخرى ونحن نبسط بعض النماذج من السور المكية والمدنية لنؤكدها ، وخاصة في السور الطوال : البقرة وآل عمران والنساء التي قد تبدو في حس الذين لا يتدبرون القرآن خليطاً من الموضوعات لا يربط بينها رباط !

* * *

ظاهرة أخرى لا بد أن تلفت نظر القارئ لكتاب الله ، هي الاختلاف الواضح بين السور المكية والسور المدنية في طريقة التعبير وبناء الآيات . فالسور المكية ـ في الغالب ـ قصيرة الآيات ، سريعة الحركة ، سريعة النبض ، مثيرة للوجدان . والسور المدنية ـ في

الغالب ـ طويلة الآيات ، متأنية الحركة ، أقرب إلى إثارة التأمل الفكري منها إلى إثارة الوجدان . ذلك هو الغالب ، وإن كانت هناك في الحقيقة استثناءات غير قليلة لهذه القاعدة العامة . فإنك لا تستطيع ـ مثلاً ـ أن تميز سورة الأحزاب عن السور المكية إلا بموضوعها ، لا بجرسها ، ولا بطول الآيات فيها . كما أنك لا تستطيع تمييز سورة الزلزلة عن السور المكية لا بموضوعها ولا بجرسها جميعاً !

وقد قال الذين لا يتدبرون القرآن ولا يفهمونه كلاماً في هذه الظاهرة كذلك !

والأمر واضح لا غرابة فيه . فحين يكون الموضوع الرئيسي في السور المكية هو العقيدة ـ بتفصيلاتها التي سنتكلم عنها فيما بعد ـ يكون الأسلوب المناسب هو الحركة السريعة والنبض السريع ومخاطبة الوجدان ، مكمن العقيدة . وحين يكون الموضوع الرئيسي في السور المدنية هو التشريعات والتنظيمات ، وبناء المجتمع المسلم وإقامة الدولة المسلمة وتثبيت أركانها إزاء الكيد الذي يكيده لها أعداؤها ، يكون الأسلوب المناسب هو الحركة المستأنية ، والمخاطبة العقلية التي تدع المجال للتدبر والتفكير . ومع ذلك فهو ليس ذلك الأسلوب العقلي الجاف الذي تستخدمه البحوث العلمية ، ولا هو التجريد الذهني البحت الذي تستخدمه الفلسفة . إنما هو نسق فريد من التعبير لا مثيل له فيما يكتب البشر أو يتحدثون لا يفقد النبض الحيّ ولا الجرس الموسيقي حتى في آيات التشريع البحت ، ولا يخاطب عقل الإنسان وحده دون بقية كيانه ، كما سنرى في شيء من التفصيل عند عرض نماذج من السور المدنية .

* * *

أما الظاهرة التي تهمنا أكثر من غيرها في هذا التمهيد القصير فهي تلك التي أشرنا إليها في الفقرة السابقة : أن السور المكية مشغولة كلها بالعقيدة ـ ولا شيء غير العقيدة ـ خلال ثلاثة عشر عاماً من الزمان . وأن التشريعات والتنظيمات لم يتنزل منها شيء في مكة إلا توجيهات عامة . بينما السور المدنية هي المشغولة بالتشريعات والتنظيمات ، وإن كانت لا تخلو بحال من الأحوال من حديث العقيدة الذي لا ينقطع الحديث عنه في كتاب الله من أوله إلى منتهاه !

وفي الفصول القادمة نتحدث عن السور المكية والسور المدنية : ما موضوعاتها التفصيلية؟ وكيف يتناولها القرآن ؟

ثم نعرض نماذج من هذه وتلك تبين الموضوعات والطريقة على السواء .

السُّوَرُ المكّيَّة

الموضوع الرئيسي في السور المكية كله هو العقيدة ، هو « لا إله إلا الله » بكل موجباتها في الآفاق والأنفس ، وكل تفصيلاتها وتفريعاتها ، وكل مقتضياتها في واقع النفس وواقع الحياة .

بل نستطيع أن نقول في الحقيقة إن العقيدة هي الموضوع الرئيسي في القرآن كله ، مكيّة ومدنيّة على السواء . ولكنها في السور المكية تستغرق المساحة كلها ، وتستوعب الحديث كله ، بينما هي في السور المدنية أشبه بالتيار الجاري تستنبت على شاطئيه الحياة من كل جانب ، لتترعرع وتزدهر بعد أن تشبعت بها النفس ، فتجيء التنظيمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والروحية والفكرية التي تنظم حياة المجتمع المسلم فتشغل معظم المساحة ، ولكنها تجيء مرتبطة بالعقيدة ، مستمدة منها ، نابتة في ظلها ، آوية في النهاية إليها ..

ولقد نحسب لأول وهلة أن هذا الاهتمام البالغ بموضوع العقيدة في السور المكية ، والتركيز الشديد عليها بحيث تشغل المساحة كلها ، إنما كان لأن العرب في الجاهلية لم يكونوا يؤمنون بالله الواحد ، فاقتضى الأمر أن يخاطبوا في شأنها ، ويتكرر الخطاب إليهم حتى يصل إلى هذا الحد !

ولكن نظرة سريعة إلى السور المدنية ترينا غير ذلك !

في المدينة كان المجتمع المسلم قد قام ، وقامت الدولة المسلمة كذلك . وكان قد تربى على العقيدة الصحيحة جيل كامل ، بعضه تربى في مكة من قبل ، خلال ثلاثة عشر عاماً من الدعوة ، وبعضه تربى في المدينة قبل الهجرة وبعدها . بل كان قد تربى لهذه العقيدة جنود « يقاتلون في سبيل الله فيَقْتلون ويُقتلون » .. وليس بعد تقديم النفس فداءً لهذه العقيدة والموت في سبيلها دليل على مدى تأصلها في نفوس أصحابها ، وصدقهم في اعتناقها ، والتجرد لله فيها . ومع ذلك فقد كان هؤلاء المؤمنون المجاهدون أنفسهم يخاطبون في أمر العقيدة في العهد المدني من أول سورة إلى آخر سورة ! وذلك دليل واضح على أن هذا الاهتمام البالغ بأمر العقيدة في القرآن لم يكن سببه إنكار العرب في جاهليتهم ، إنما لا بد أن يكون سببه الأهمية الخاصة للموضوع ذاته ، حتى وإن كان المخاطَبون به مؤمنين .

كذلك نستدل من تكرر الحديث عن العقيدة في السور المدنية للمؤمنين لا للذين لم يؤمنوا بعد[1] ، أن حديث العقيدة ليس درساً يُعطَى ثم يُمضَى عنه إلى غيره ! إنما هو درس يُعطَى على الدوام ثم يُمضَى **معه** إلى غيره ! بحيث لا ينقطع الحديث عنه في يوم من الأيام !

والله أعلم بخلقه : « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟ »[2] . ولو كان يعلم سبحانه أن درساً عابراً في العقيدة يكفي ، أو جملة دروس وتنتهي ، لما ظل القرآن يتحدث عنها في السور المدنية بلا انقطاع حتى آخر آية نزلت من القرآن ، وهي قوله تعالى : « واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون »[3] . إنما يعلم سبحانه أنه لا بد من التذكير الدائم بالعقيدة حتى للمؤمنين : « وذكّر فإن الذكرى تنفع **المؤمنين** »[4] .

ولقد نحسب لأول وهلة كذلك أن القرآن يعطي هذه العناية البالغة للعقيدة ــ سواء في العهد المكي أو المدني ــ لأنه كتاب دين !

وهذا من جهة حق لا شك فيه !

ولكن هذا الكتاب هو المنزل من عند الله لتقويم الحياة البشرية وإقامة الحق والعدل في الأرض : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان **ليقوم الناس بالقسط** .. »[5] .

فإذا كان الكتاب الذي يحوي المنهج الرباني لإصلاح الحياة البشرية وإقامتها بالقسط يخصص هذا الحيّز الواسع للحديث عن العقيدة ، فلا بد إذن أن تكون العقيدة هي محور ذلك الإصلاح كله ، وأن يكون اهتمام القرآن بها آتياً من أنها هي الوسيلة للغاية المطلوبة . ولو كانت هناك وسيلة أخرى غيرها ــ أو مثلها ــ تؤدي إلى الإصلاح ، كالتنظيم الاقتصادي أو السياسي أو الاجتماعي .. الخ لأولاها القرآن هذه العناية . فإن الله سبحانه وتعالى وهو ينزل على عباده منهج إصلاحهم لن يضنّ عليهم بالوسيلة المثلى لذلك الإصلاح .

ولقد حدثهم بالفعل في كتابه المنزل عن التنظيمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .. فهي ليست موضوعاً بعيداً عن القرآن ولا غير وارد فيه . وإنما أعطى القرآن الأولوية

---

(١) من أوضح الأمثلة على ذلك قوله تعالى في سورة النساء : « يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ، والكتاب الذي نزل على رسوله .. » [آية ١٣٦] وقوله تعالى في سورة الحديد : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته .. » [آية ٢٨] .

(٢) سورة الملك [١٤] .

(٣) سورة البقرة [٢٨١] .

(٤) سورة الذاريات [٥٥] .

(٥) سورة الحديد [٢٥] .

العظمى لموضوع العقيدة قبل كل شيء آخر لأن الله يعلم ـ سبحانه ـ أن هذا **وحده** هو السبيل الحقيقي لإصلاح البشرية ، وكل ابتداء بغيره ، أو مُضِيٍّ بدونه ، عمل باطل لا يؤدي إلى شيء !

* * *

هناك أسئلة تلح على الفطرة ـ بوعي أو بغير وعي ـ لا تستطيع الفطرة أن تتخلص من ضغطها عليها وإلحاحها ..

من خالق هذا الكون ؟

من مدبر الكون ومدبر الأحداث ؟

من أين جئنا ؟

إلى أين نذهب بعد الموت ؟

لأي غاية نعيش ؟

وهذه الأسئلة ـ قبل التنظيم الاقتصادي أو السياسي أو الاجتماعي ـ هي التي تحدد مسار الإنسان في الأرض ، وصورة وجوده عليها ! كما تحدد له الإجابة على سؤال أخير من تلك الأسئلة التي تلح على الفطرة ، وهو : على أي صورة وعلى أي منهج نعيش ؟

ولقد زعمت المادية الجدلية والتفسير المادي للتاريخ أن الذي يشكل وجود الإنسان على الأرض ويغطيه صورته هو الوضع الاقتصادي أو الوضع المادي !

« في الإنتاج الاجتماعي الذي يزاوله الناس تراهم يقيمون علاقات محدودة لا غنى لهم عنها ، وهي مستقلة عن إرادتهم .. فأسلوب الإنتاج في الحياة المادية هو الذي يحدد صورة العمليات الاجتماعية والسياسية والمعنوية في الحياة . ليس شعور الناس هو الذي يعين وجودهم ، بل إن وجودهم هو الذي يعين مشاعرهم » [كارل ماركس] .

« تبدأ النظرية المادية من المبدأ الآتي : وهو أن الإنتاج وما يصاحبه من تبادل المنتجات هو الأساس الذي يقوم عليه كل نظام اجتماعي . فحسب هذه النظرية نجد أن الأسباب النهائية لكافة التغيرات أو التحولات الأساسية لا يجوز البحث عنها في عقول الناس ، أو في سعيهم وراء الحق والعدل الأزليين ، وإنما في التغيرات التي تطرأ على أسلوب الإنتاج والتبادل » [فردريك إنجلز] .

والمادية الجدلية تغالط نفسها أو تغالط الناس بهذه المقالة وتلك ، وتهرب من الواقع حين تزعم أنها « فيزيقية » بحتة ، أي مادية خالصة ليس لها علاقة « بما وراء الطبيعة » أو « الميتافيزيقا » كما يسمونها في اصطلاحاتهم !

إنهم ـ وهم يضعون نظريتهم لتفسير الحياة وتفسير التاريخ ـ قد أجابوا بالفعل على تلك الأسئلة « الميتافيزيقية » التي تلح على الفطرة البشرية ولا تستطيع الفطرة أن تتخلص من ضغطها وإلحاحها !

أجابوا بقولهم : « لا إله . والكون مادة » !

وأجابوا بقولهم : إن الحتمية المادية والحتمية الاقتصادية والحتمية التاريخية هي التي تدبر أمور الكون وتدبر الأحداث .

وأجابوا بقولهم : إن الإنسان نتاج المادة ، وإليها يعود !

وأجابوا بقولهم : إننا نعيش لنؤدي دورنا المرسوم بحسب وضعنا المادي والاقتصادي ، أي دورنا الذي تفرضه علينا « الحتميات » المادية والاقتصادية والتاريخية !

وبصرف النظر ـ مؤقتاً ـ عما في هذه الإجابات كلها من ضلالة وانحراف ، فإن الذي يعنينا الآن منها أنها ـ رضيت أم أبت ـ تقدم « تصوراً » معيناً للكون والحياة والإنسان وعلاقاتها كلها « بالخالق »[1] وعلاقات بعضها ببعض ، كما تقدم إجابات للأسئلة التي تلح على الفطرة ـ بوعي أو بغير وعي ـ وهذا كله **قبل** أن تقدم الصورة التطبيقية والحل العملي الذي تظن أنه يصلح الحياة البشرية ويقومها !

ومهما حاولت المادية الجدلية أن تزعم أنها ضد « الميتافيزيقا » ولا علاقة لها بالإطلاق لأنها مادية بحتة أو « علمية ! » بحتة ، فستظل دعواها قائمة على غير أساس واقعي ، ما دامت « فلسفتها » تتعرض للإجابة على هذه الأسئلة بالذات ، وتحاول أن تعطي « تفسيراً » شاملاً للحياة ، مبنياً على « تصور » شامل لعلاقاتها بعضها ببعض .

وكون هذه الإجابات مادية بحتة ـ كما هو ظاهر ـ لا ينفي أنها في أصلها إجابات على أسئلة **غير مادية** ، وأنها « تَصَوُّرٌ » معنوي يسبق التطبيق الواقعي ويضع له القواعد والمفسرات !

وهذا هو الجوهر الحقيقي للموضوع .

إن الإنسان ـ بحكم تكوينه ، وبوعي منه أو بغير وعي ـ لا بد أن تكون له عقيدة !

وهذه العقيدة ، التي هي تَصَوُّرٌ شامل للكون والإنسان ، وعلاقاتها بالخالق ، وعلاقات بعضها ببعض ، هي الأساس الذي تنبني عليه الصورة التي يكون عليها وجود الإنسان في الأرض ، سواء وجوده المادي أو وجوده المعنوي ، وسواء وجوده السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي ..

وليس من الضروري أن يكون كل إنسان واعياً لهذا التصور الشامل أو أصيلاً فيه . فقد يعيشه على غير وعي كامل منه ، وقد يكون فيه مقلداً للآخرين وخاصة أصحاب السلطان في المجتمع ، الذين يشكلون في العادة أنماط التفكير والسلوك في مجتمعاتهم ،

---

(١) هم ينكرون « الإله » بمعناه الديني الذي نعرفه ، ولكنهم يقولون إن « الطبيعة » هي التي خلقت الكون ، وإن للطبيعة قوانين حتمية هي التي تدير الكون !

ثم تتبعهم « الجماهير » مختارة ، أو مقهورة على التقليد !

ولكن هذا كله لا يغيّر الحقيقة الواقعة ، وهي أن هذه العقيدة أو هذا التصور الشامل هو الذي يضع دستور الحياة ويشكل أنماطها وقوالبها ، وهو الذي يرسم للإنسان أفكاره ومشاعره وأنماط سلوكه ، ويحدد له علاقته بالخالق ، وعلاقته بالكون والحياة والإنسان .

* * *

ليس اهتمام القرآن بالعقيدة إذن ناشئاً من إنكار العرب في الجاهلية ، ولا ناشئاً من أنه كتاب « دين » !

إنما سببه أن الله اللطيف الخبير الذي يعلم حقيقة النفس البشرية وتكوينها ، يعلم كذلك أن العقيدة هي محور ارتكاز الإنسان كله وموجِّه ألوان نشاطه . وأن نوع الحياة التي يحياها الإنسان في الأرض ـ فضلاً عن مصيره في الآخرة ـ مرهون كله بنوع العقيدة التي يعتقدها ويسير ـ من ثم ـ بمقتضاها . مرهون بالإجابة على تلك الأسئلة التي تلح على الفطرة وتتطلب إجابات محددة عليها :

من خالق هذا الكون ؟

من مدبر الكون ومدبر الأحداث ؟

من أين جئنا ؟

إلى أين نذهب بعد الموت ؟

لأي غاية نعيش ؟

ومن حصيلة ذلك كله تجيء الإجابة على السؤال الأخير : على أي صورة وعلى أي منهج نعيش ؟

فإذا أَوْلَى القرآنُ العقيدةَ هذا الاهتمام كله فهذا هو الأمر الطبيعي ، وهذا هو المتوقع من كتاب يرسم للناس منهج الحياة .

* * *

يهتم القرآن اهتماماً بالغاً بأمر **تصحيح** العقيدة ..

وإلا فإن العقيدة بمعناها المطلق ، أي الإيمان بوجود خالق لهذا الكون ، ثم وجود مجموعة من التصورات في أذهان الناس حول ذلك الخالق تطبع بطابعها واقع الحياة في الأرض .. هذا كله لا يحتاج إلى كتاب منزل ولا إلى رسول !

وما نزل القرآن ليقول للناس إن هناك إلهاً ، فإنهم يعرفون ذلك بغير قرآن ! : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله ! »[1] بل إنهم ليعرفون معلومات

(١) سورة لقمان [٢٥] .

معينة عن ذلك الإله : « قل : لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله ! قل : أفلا تذكّرون ؟! قل : من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم ؟ سيقولون لله ! قل : أفلا تتقون ؟! قل : من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله ! قل : فأنّى تسحرون ؟! »[1] .

بل ما نزل القرآن ـ ولا أي كتاب سابق ـ ليقول للناس إن هناك إلهاً فاعبدوه ! فهم يعرفون ذلك ويقومون بالعبادة من ذات أنفسهم ، على صورة من الصور يصنعونها لأنفسهم !

إنما نزلت الكتب السماوية كلها وأرسل الرسل كلهم ـ بما فيهم خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم ـ ليحدثوا الناس عن العقيدة الصحيحة . ليقولوا لهم : لا إله إلا الله . اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ..

ولم تكن مشكلة البشرية ـ من أول التاريخ إلى آخر التاريخ ـ أنهم لا يعرفون وجود الله ولا يعبدونه بصورة من الصور ، إنما مشكلتهم أنهم لا يعرفونه المعرفة الحقة ، ومن ثم لا يعبدونه كما تنبغي له العبادة سبحانه : « وما قدروا **الله حق قدره** »[2] « كلا ! لما يقض ما أمره ! »[3] .

إن الفطرة البشرية تتجه إلى الله من تلقاء ذاتها بغير كتاب منزل ولا رسول ..

فلقد أودع الله فيها هذا التوجه إلى الخالق بطريقة لا نعلمها : « وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ! شهدنا ! »[4] .

كيف أشهدهم ؟ لا نعرف ! ولكنا نرى في عالم الواقع أن البشر يتجهون توجهاً فطرياً إلى الخالق ، ولو لم يدلهم عليه أحد . ويتوجهون ـ فطرةً ـ إلى عبادته ، ولو لم يأمرهم بذلك أحد أو يوجههم إليه . ولكنهم كثيراً ما يضلون في تصورهم للخالق سبحانه ، فيتصورونه على غير حقيقته ، ويتصورون وجود آلهة أخرى معه ؛ ثم يعبدونه على هوى أنفسهم بغير ما تعبّدهم به ، ويشركون معه في العبادة تلك الآلهة المتوهمة ليقربوهم إليه زلفى كما يزعمون : « والذين اتخذوا من دونه أولياء : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى »[5] أو يعبدون تلك الآلهة المزعومة وحدها ـ في الواقع ـ من دون الله .

---

(١) سورة المؤمنون [٨٤ – ٨٩] .
(٢) سورة الزمر [٦٧] .
(٣) سورة عبس [٢٣] .
(٤) سورة الأعراف [١٧٢] .
(٥) سورة الزمر [٣] .

وعندئذ ينزل الله الكتاب ويرسل الرسول **ليصحح** للناس عقيدتهم لا لينشئها ـ فهي موجودة بأصل الفطرة ـ وليقول لهم : لا إله إلا الله . اعبدوا الله ما لكم من إله غيره .

ولقد يخيل إلينا أحياناً أن الجاهلية المعاصرة استثناء من هذه القاعدة ، لأن فيها شعوباً بأسرها لا تعرف الله البتة ، ولا تعبده البتة . بل تدرس الإلحاد في المدارس ، وتخرّج ملحدين لا يعرفون الله ولا يؤمنون بوجوده .

كما أن بعض المفسرين قالوا عن « الدهريين » الذين يحكي القرآن قولهم : « وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر .. »[1] إن هؤلاء القوم ينكرون وجود الله ويؤمنون ـ بدلاً منه ـ بالدهر .

فأما بالنسبة لهذه الآية فليس فيها ما يقطع بأنهم حتماً ينكرون وجود الله ! إن الآية تقرر فقط أنهم ينسبون الإماتة إلى الدهر بدلاً من الله ، وأنهم ينكرون البعث . وليس هناك على الإطلاق ما يمنع من أن يكونوا مؤمنين بوجود الله ولكنهم ينفون صلته سبحانه بما يحدث لهم من حياة وموت ، كما ينفون قدرته على البعث ، وينفون البعث جملة لأن الدهر ـ الذي ينسبون إليه الأمر ـ يُهْلِكُ فقط ، وليست له قدرة على الإحياء !

أما الشيوعيون فليسوا ـ برغم إلحادهم ـ استثناء من القاعدة ! إنما الإلحاد مفروض عليهم فرضاً بالحديد والنار كالنظام الشيوعي ذاته ! ولو خلّي بينهم وبين أنفسهم لكان ضلالهم في أمر العقيدة كضلال بقية الضالين من البشرية ! يعرفون الله ولكن على غير حقيقته ، ويعبدونه ولكن على هوى أنفسهم !

وإن إصرار الدولة على تدريس الإلحاد في المدارس لهو ذاته دليل على خشيتهم من العقيدة المفطورة في الفطرة وإن ضلت ـ وكثيراً ما تضل ! ـ فهم يلاحقونها دائماً بالتوجيه المضاد في برامج الدراسة ، خشية أن تظهر تلقائياً فتفسد عليهم ـ برغم كونها ضالة ـ أصلاً هاماً من أصول مذهبهم الشرير ، المخطط لإفساد البشرية !

وتكفي هذه الحادثة لتثبت أن الشيوعيين ليسوا استثناء من القاعدة :

فجاجارين رائد الفضاء الأول شاب ربّي في الشيوعية والإلحاد منذ مولده إلى يوم انطلاقه إلى الفضاء في داخل الصاروخ . ومع ذلك فقد اهتزت فطرته حين نظر إلى الكون من خلال الصاروخ ، لأنه رأى صورة لم يشهدها من قبل ، وكان أول تصريح له حين هبط إلى الأرض : « حين صعدت إلى الفضاء أخذتني روعة الكون فمضيت أبحث عن الله ! »

تلك هي استجابة الفطرة التلقائية إزاء الكون الهائل الذي خلقه الله . لم تستطع كل الشيوعية التي تفرضها الدولة ، وكل الإلحاد الذي تبثه في الدروس ، أن تحول دون انطلاقها حين هزتها روعة الكون !

---

(١) سورة الجاثية [٢٤] .

ومن الطريف أن « الدولة » غضبت من هذا التصريح ، لأنه يهدم كل ما أنشأته خلال خمسين عاماً من الإلحاد ! لذلك أمرت « جاجارين » بتصحيح ذلك التصريح الخطير ، فأضاف إليه في القراءة الثانية : « .. أخذتني روعة الكون فمضيت أبحث عن الله فلم أجده ! » ونشرت وكالات الأنباء هاتين القراءتين المختلفتين للتصريح الواحد .. بغير تعليق !

* * *

نعم .. لا تحتاج الفطرة إلى رسول ولا كتاب منزل ليدلها على وجود الله ، أو يدعوها لعبادة الله ..

ولكنها في حاجة ماسة للرسول والكتاب المنزل ، لتعرف الله على حقيقته ، وتقدره حق قدره ، وتعبده العبادة الحقة . وتلك كانت مهمة الرسل جميعاً إلى أقوامهم ، عليهم صلوات الله وسلامه ، كما كانت تلك مهمة الكتب المنزلة جميعاً .. حتى جاء الرسول الأخير صلى الله عليه وسلم ، ليخاطب البشرية كافة ، وجاء الكتاب الأخير مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه .

جاء ـ قبل كل شيء ـ ليعرفهم بالله ..

أو لم يكونوا يعرفونه ؟!

بلى ! ولكنها معرفة ناقصة من ناحية . ومعرفة ذهنية باردة من ناحية أخرى ، لا ينبض بها القلب ، ولا تتحول إلى وجدان حيّ ولا سلوك عملي في واقع الأرض .

ومما يلفت النظر كثيراً أن القرآن سجل على العرب معرفتهم بالله : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله »[1] ثم سماهم ـ مع ذلك ـ « الذين لا يعلمون » ! : « كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم »[2] .

فلم يعتبر معرفتهم السابقة علماً . ولم يجعل هذه المعرفة السابقة رصيداً لهم يضيف إليه بيانات جديدة عن الله . إنما محاها محواً ، واعتبرها جهلاً وجهالة ، وبدأ معهم من نقطة الصفر ، باعتبار أنهم « لا يعلمون » !

بل الأعجب من ذلك أنه حين بدأ معهم من نقطة الصفر ، بدأ بذات « المعلومات » و« البيانات » التي كانت لديهم بالفعل !

« اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق »[3] .

---

(١) سورة لقمان [٢٥] .

(٢) سورة البقرة [١١٣] .

(٣) سورة العلق [١-٢] .

وكون الله هو الخالق للإنسان كان معروفاً لديهم ، وسجله القرآن عليهم : « ولئن سألتهم من **خلقهم** ليقولن الله »[1] !

وكون الإنسان مخلوقاً من علق كان معروفاً لهم كذلك ، وسجله القرآن عليهم : « كلا إنا خلقناهم **مما يعلمون** »[2] .

فإلى هنا لم تكن « البيانات » و« المعلومات » جديدة .. وإن كانت قد جدّت فيما بعد أشياء لم يكونوا يعلمونها أو كانوا منكرين لها .. إنما المهم أنه عند الابتداء من نقطة الصفر ، بدأ بالمعلومات الموجودة لديهم بالفعل .. فما الفرق إذن بين تلك المعرفة السابقة التي محاها محواً واعتبرها غير موجودة أصلاً ، وسماهم بها « الذين لا يعلمون » وبين هذه المعرفة ذاتها تقدم من جديد ؟!

الفرق ليس في « المعلومات » ذاتها ، ولكنه في **طريقة المعرفة** ..

هنالك كانت معلوماتٍ باردة ميتة لأنها قائمة في محيط الذهن وحده . وهنا يراد لها أن تكون معلومات حية نابضة ، لأنها لا تستكنّ في الذهن ، إنما تنتقل إلى القلب ، فتنبض في وجدان حيّ ، فتتحول إلى سلوك إيماني :

« اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم . كلا ! إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى . إن إلى ربك الرجعى ... » .

هنا لا يجيء خلق الإنسان من علق مجرد « معلومات » .. ولا كذلك تعليم الله للإنسان ما لم يعلم .. إنما يجيئان لتحريك وجدان الإنسان نحو الله الخالق واهب العلم ، بما ينبغي من الشكر على نعمة الخلق ، ونعمة التعليم .. وربما كانت الثانية أفعل ، لأن الإنسان يجد نفسه وقد خلق بالفعل ، فينسى ! ينسى أن الله هو الذي خلقه وأنه لم يخلق هكذا تلقائياً بغير خالق . ولكن التعليم يتم والإنسان مدرك ، وينتقل الإنسان أمام عين نفسه من حالة الجهل إلى حالة العلم ، فهو حري أن يحس بالنعمة ويقدرها .. وهذا الإيحاء الذي تعطيه الآيات الأولى من السورة ، وهو تحريك الوجدان لشكر الله ، يتبين واضحاً حين نصطدم بحالة ذلك الإنسان المنعم عليه بتلك النعم ، لا في حالة شكر كما ينبغي ، بل في حالة طغيان : « كلا ! إن الإنسان ليطغى ! » ولماذا يطغى ؟ لأن الله أعطاه ! ! أي أن ذات السبب الذي كان ينبغي أن يؤدي إلى الإيمان والشكر ، صار يؤدي إلى الطغيان والكفر ! وهذه المفارقة بين الحالة القائمة بالفعل ، والحالة التي كان ينبغي أن تكون ،

---

(١) سورة الزخرف [٨٧] .

(٢) سورة المعارج [٣٩] .

هي التي تحرك الوجدان للإحساس بقيمة النعمة الربانية وواجب الإنسان السليم الفطرة إزاءها .. ثم يجيء ختام هذا المقطع الأول من السورة ليحرك الوجدان حركة أخرى ، بالإضافة إلى السابقة : « إن إلى ربك الرجعى » فيبدو هذا الطاغية الصغير ، المنتفش في الأرض بغير الحق وقد قُطِعَ عليه الطريق فجأة ! إن يداً جبارة قد قطعت طريقه وهو سائر منتفش متعالٍ على الخلق ، ثم أمرته بالرجوع ! والرجوع إلى أين ؟ إلى الله .. إلى « ربك » الذي منحك ذلك كله فكفرت به وطغيت ! وهنا يزول عنه انتفاشُه الباطلُ ، وطغيانه المفتون ، فيأخذ مكانه الحق : ذليلاً أمام الرب الذي خلق وأعطى ، فما قدر حق قدره .

هكذا يتبين لنا كيف انتقلت تلك « المعلومات » من حالتها الآسنة الميتة الباردة ، لتصبح نبضاً حياً في القلب ، لتتحول من ثم إلى سلوك واقعي ! ويتبين لنا كذلك الفرق بين معرفة الرجل الجاهلي بأن الله موجود وخالق ، والتي قال الله عنها : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله »[1] وبين معرفة الرجل المؤمن بهذه الحقيقة ذاتها ، فندرك لماذا سمّى الله عرب الجاهلية «الذين لا يعلمون » رغم معرفتهم بتلك المعلومات التي سجلها عليهم ، ولماذا قال سبحانه : « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ »[2] كلا ! إنهم لا يستوون !

وإذا تتبعنا كل ما كان عند العرب من « معلومات » عن الله سبحانه ، نجد القرآن قد عاملها ذات المعاملة . سجل عليهم علمهم بها ، لا ليعتبره علماً ، ولا ليبدأ منه ثم يكمل .. كلا ! بل ليمحوه محواً ، ويبدأ من جديد .. من ذات المعلومات ، ولكن بطريقته الخاصة التي تحولها إلى نبض حيّ وسلوك واقعي ! إنه في الواقع يستنبت بذرة جديدة في قلوبهم ، قد تكون فيها مشابه من البذرة الأولى التي كانت موجودة من قبل ، ولكنها غيرها على وجه التأكيد ! إن القديمة أسنت وتعفنت فما عادت تصلح للاستنبات ! وهذه غيرها .. جديدة تماماً .. تستنبت من جديد .. بعد تحريك القلب لينبض ، ليمد البذرة الجديدة بالقوة والنماء ..

لذلك .. فما أضل الذين يكتبون مدافعين عن العرب في الجاهلية بقولهم إنه كانت عندهم حضارة و« معلومات » ! يريدون ليقولوا – بل بعضهم يقول بالفعل – إنهم لم يكونوا جاهليين !

ما أضلهم إذ يقيسون الأمر بالمعلومات !

---

(١) سورة لقمان [٢٥] .

(٢) سورة الزمر [٩] .

فهل كان عند العرب من المعلومات ما عند أوربا اليوم في القرن العشرين ؟! ومع ذلك فأوربا اليوم في قمة الجاهلية ، عن طريق هذه المعلومات بالذات ! لأنهم ، كما يقول القرآن ، « فرحوا بما عندهم من العلم » [1] و« نسوا الله فأنساهم أنفسهم » [2] وأضلهم وأشقاهم .. بعلمهم الذي يتيهون به ، فيتيهون فيه !

إنها ليست المعلومات كما أسلفنا .. ولكنها طريقة المعرفة .. طريقة تؤدي إلى عبادة الله ؟.. أم تؤدي إلى عبادة الشيطان ؟! .

* * *

قلنا إن العقيدة هي الموضوع الرئيسي أو الموضوع الوحيد في السور المكية كلها .

والباب الأكبر للعقيدة هو التعريف بالله ، بالطريقة القرآنية التي تحول المعلومات إلى نبض حيّ وسلوك .. وسنتحدث إن شاء الله بشيء من التفصيل عن طريقة القرآن في التعريف بالله ، والأوتار التي يوقع عليها في القلب البشري ليوقظه إلى حقيقة الألوهية وحقيقة الربوبية ، فيتوجه إلى الله بالعبودية الحقة ، ويستقيم على أمر الله .

ولكنا هنا نقول في مقدمة الفصل : إن التعريف بالله سبحانه ، وإن كان أكبر أبواب العقيدة ، إلا أنه ليس الباب الوحيد الذي يستخدمه القرآن لتثبيت العقيدة وتمكينها . فهناك إلى جانب ذلك : الإيمان باليوم الآخر ، والإيمان بالكتب والرسل والنبوات والوحي .. ، وهناك قصص الأنبياء ، وهناك قصة آدم وقصة الشيطان مع آدم ، وهناك الأخلاق الإيمانية التي ينبغي التخلق بها بدلاً من الأخلاق الجاهلية التي ينبغي نبذها .. وكل أولئك يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالعقيدة ، ويؤكدها ويرسخها ، بحيث يعتبر باباً من أبوابها .

وفيما يلي من الحديث تفصيل لتلك الأبواب الستة الكبرى من أبواب العقيدة ، وبيان الارتباط بين كل منها وبين العقيدة الصحيحة التي جاء القرآن ليبينها للناس ...

---

(١) سورة غافر [٨٣] .

(٢) سورة الحشر [١٩] .

الإيمان بالله

إذا كانت العقيدة هي الموضوع الرئيسي في القرآن كله ، مكيّة ومدنيّة ، فقضية الألوهية هي الموضوع الرئيسي في العقيدة ، وهي التي تشمل الحيز الأكبر من مجموع الكتاب .

وهذا هو الأمر الطبيعي الذي لا غرابة فيه .. فحقيقة الألوهية ـ من جهة ـ هي الحقيقة الكبرى في هذا الوجود كله ، التي يقوم الكون كله بها ، ومن جهة أخرى هي الركيزة الكبرى التي تقوم عليها عقيدة « الإنسان » .

وإذا كنا قد قلنا من قبل إن حديث القرآن المتكرر عن العقيدة ليس ناشئاً من إنكار العرب في الجاهلية ، ولا ناشئاً من أن القرآن كتاب « دين » ، إنما هو الأمر الطبيعي بالنسبة لتكوين الإنسان ذاته ، وبالنسبة للأهمية الذاتية للموضوع ، فكذلك نقول هنا مرة أخرى إن الحديث المسهب عن الألوهية في القرآن ليس سببه انحراف الجاهلية العربية ـ والجاهليات كلها ـ في تصورها لله ، فإن السور المدنية التي نزلت للمؤمنين ـ لا للمشركين ـ ظلت تتحدث عن الألوهية باستفاضة وإسهاب ، وتلمس أوتار القلب البشري بهذه القضية من كل جانب وفي كل مناسبة ، بحيث لا يعود لدينا شك في أن القرآن يولي قضية الألوهية تلك الأهمية العظمى لا لذلك السبب العارض وهو انحراف الجاهلية العربية ، ولكن لسبب يتعلق « بالإنسان » ذاته في كل حالاته ، وأن المؤمنين ـ وإن كانوا مؤمنين ـ لا يزالون في حاجة دائمة إلى التذكير ..

والقرآن يخاطب في قضية الألوهية مجموع « الإنسان » كله ، لا عقله وحده ولا وجدانه وحده ؛ ويخاطبه في جميع حالاته ، ويتحدث عنه كذلك في جميع حالاته : مقبلاً ومدبراً ، صاعداً وهابطاً ، حيّ الوجدان ومتبلد الحس ، متفتح البصيرة ومغلق البصيرة ، مستثاراً وهادئاً ، متطلعاً وخائفاً ، ضاحكاً وباكياً ، مستكبراً ومستسلماً ، يقظاً وغافياً ، مستقيماً على أمر الله وجانحاً عن السبيل .. كما أنه ـ وهو يخاطبه ـ يحيط به من كل جانب ويدخل إليه من كل أقطار نفسه : من صفحة الكون المعروضة أمامه ، من الأحداث الجارية حوله ، من نفسه وما يجري فيها ، من مشاهد الدنيا ومشاهد الآخرة ، مما تدركه الحواس وما لا تدركه الحواس ... كما يواجهه بحقيقة نفسه : عاجزاً ضعيفاً

محتاجاً ، مقراً بعجزه في ساعة الكرب ملتجئاً إلى الله ساعة الشدة ، مستكبراً طاغياً حين تنتهي الشدة وتمر ، ويظن أنه استغنى عن الله ! إلا المصلين .. !

وبهذه المواجهة الدائمة الشاملة المحيطة يظل بالقلب البشري حتى يتفتح لحقيقة الألوهية ، ثم يؤمن بها ، ثم يستقر الإيمان في القلب ، ثم يستقيم على الإيمان !

* * *

قلنا إن الله أودع في الفطرة أن تبحث عنه ، وتتجه إليه ، وتتعبده : « وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ! شهدنا ! » [1]

ولسنا نعرف ـ كما أسلفنا ـ كيف تم ذلك الإشهاد .. ولكننا نلاحظ أشياء تدلنا على أن الفطرة تتيقظ ، فتتجه باحثة عن الله الذي أُشْهِدَتْ عليه في عالم الذر ، وقد تهتدي فتعرفه على حقيقته وتعبده حق عبادته ، وقد تضل .. فتتصوره على غير حقيقته ، وتتصور معه آلهة أخرى ، ثم تعبده على غير ما ينبغي لله سبحانه من إخلاص العبودية والطاعة له ، فتشرك معه في العبادة تلك الآلهة الأخرى .. ولكنها في الحالين تبحث عن الله ، وتتوجه إليه ، وتمارس لوناً من العبودية له .

هنالك أوتار في القلب البشري أعدها الله سبحانه لتتلقى إيقاعات معينة فتهتز .. فإذا اهتزت انطلقت الفطرة تبحث عن الله . وقد تهتدي في بحثها وقد تضل .. ولكنها في كل حال تنطلق إذا اهتزت الأوتار ، والإيقاعات التي تهزها لا تنقطع في ليل أو نهار !

الكون أعظم إيقاع يوقع على أوتار القلب البشري ..

الكون بضخامته الهائلة ..

والكون بدقته المعجزة ..

كلاهما توقيع هائل لا يمكن أن ينجو منه قلب إنسان ..

الكون بضخامته الهائلة التي لا تصل إلى مداها العيون .. بل لا تصل إلى مداها الأفكار !

كان الإنسان ينظر بعينه المجردة فلا يصل إلا إلى أبعاد قريبة من الأرض ، وأبعاد قريبة من السماء .. وكانت هذه وتلك تهوله بضخامتها !

ثم بدأ يصنع المناظير ، فامتدت رؤيته في الأرض ، وأوغل ببصره في السماء .. فزادت ضخامة الكون في حسه ، وظلت تتزايد مع كل منظار جديد ، يكشف له من أغوار السماء خاصة ما لم يكن يراه من قبل ..

ثم تعدت الضخامة المحسوس .. وتحولت إلى أرقام !

---

(١) سورة الأعراف [١٧٢] .

هذا نجم يبعد عنا أربعة آلاف سنة ضوئية .. ويراه المنظار !

والحسبة التي تساوي أربعة آلاف سنة ضوئية حسبة لا يتصورها العقل .. إلا عن طريق الأرقام !

ثم جاء المنظار الإلكتروني .. إنه يسجل أبعاداً لا تُرَى ! إنما تكتب فقط في لوحة الأرقام !

ضخامة لا يمكن أن ينجو من وقعها الحس ، ولو أراد أن يتفلت ، ولو كابر أمام الناس !

ويهتز وتر في القلب .. على هذه الضخامة الهائلة .. فتنطلق الفطرة تبحث : مَنْ وراء هذه الضخامة المعجزة ؟ من الخالق ؟

ثم تهتدي .. فتعرف الخالق على حقيقته .. أو تضل فتسميه « الطبيعة » .. أو تسميه كائناً من كان !

* * *

ومع الضخامة الهائلة دقة معجزة كذلك !

هذا الكون الضخم الهائل لا يتحرك خبط عشواء ..

إنه يسير في حركة دقيقة تبلغ حد الإعجاز ..

هذه الملايين ، بل ملايين الملايين ، من النجوم في الكون لا يلتقي اثنان منها في هذا الكون العريض ، ولا يقع بينهما صدام .. إلا أن يشاء الله ..

كل في فلك يسبحون !

وتربطها جميعاً تلك الطاقة المعجزة التي تسمى « الجاذبية » ..

تربطها بحيث تتحرك كلها في حركة منتظمة .. لا هي تتوقف ولا هي تصطدم .. إلا أن يشاء الله !

والشمس والقمر بحسبان !

حسبان دقيق لا يخطئ !

تستطيع أن تنشئ جداول فلكية تحسب فيها الكسوف والخسوف لألف عام .. ما لم يغيّر الله نظام الكون !

بل الكون هو الساعة العظمى التي تضبط عليها الساعات الفلكية الدقيقة .. التي تحسب الوقت بالساعة والدقيقة والثانية والثالثة (واحد من ستين من الثانية) .. بل هناك اليوم ساعات تحسب بجزء من مائة ألف جزء من الثانية .. مضبوطة كذلك على الأفلاك !

ثم ..

هذا العصفور الجميل الذي يسقسق في الفضاء !

هل سمعت هذه السقسقة ذات الأنغام الدقيقة البالغة الدقة ؟!

وهذا الطائر الملون الريش ..

هل رأيت كل ريشة مفردة كيف لُوِّنت ؟ كيف تداخلت الخطوط والألوان على مئات أو ألوف من الشعيرات كلٌ تأخذ مكانها في اللوحة الدقيقة البالغة الإعجاز ؟!

والزهرة الدقيقة الملونة .. والكائن الدقيق الذي لا يكاد يرى بالعين وهو حيّ مكتمل الحياة !

أي إعجاز في تلك الدقة البالغة في ذلك الكون الضخم الذي يروع بضخامته الحس والأبصار ؟!

وأي قلب يمكن أن ينجو من توقيعات تلك الدقة المعجزة ولا ينبعث يبحث عن الله .. سواء ضل بعد ذلك أم وصل إلى هداه ؟!

* * *

الموت والحياة كذلك من الإيقاعات المؤثرة في أوتار القلب البشري ..

في مرحلة الطفولة ذات الحيوية الفائقة والخيال الذي لا يميز الحقيقة ، يتصور الطفل الحياة في كل شيء بغير تمييز .. حتى الحائط .. حتى الأرض .. فضلاً عن اللعبة المصورة على شكل حيوان أو إنسان .. وحين يقع على الأرض أو يصطدم بالحائط وتؤلمه الصدمة يتصور أن الأرض هي التي ضربته ! ولذلك يرضى رضاً حقيقياً حين تأتي أمه فتنتقم له بأن تضرب الأرض بيدها ! ويتصور أن ضربة الأم لها قد أوجعتها كما أوجعته هي .. فيكف عن البكاء !

وحين يكبر قليلاً يبدأ يميز بين الأشياء ، فيعرف أن القطة والكلب والكتكوت والعصفور أحياء حقيقية ، لأنها تأكل وتشرب وتتحرك مثله .. أما اللعبة والعصا وغيرها فليست حية حقيقة .. ولكنه مع ذلك ـ لفرط حيويته وسعة خياله ـ يضفي على هذه الكائنات الجامدة حياة من عنده .. ثم يصدقها ! فهو حين يكلم اللعبة أو يضربها أو يربت عليها لا يتعامل معها على أنها جامدة .. إنما هي حية أو شبه حية ، في خيال لا يميز تماماً بين الحقيقة والخيال .. وحتى حين يكبر عن ذلك ويركب العصا على أنها حصان ، ويضربها لتجري ، ويعلم أنه هو الذي يجري في الحقيقة لا العصا .. حتى عندئذ فهو يعلم الحقيقة ولكنه يحب أن يخلع الحياة على هذه العصا الجامدة ويحبّ أن يرى الخيال كأنه حقيقة !

ولكنه يفاجأ يوماً بحادثة الموت .. حادة عنيفة في حسه ..

يفاجأ بها في موت القطة التي يلعب بها ، أو في عصفور ميت .. أو في أحد أقربائه ..

يفاجأ بأن القطة أو العصفور لا يتحرك .. ويحاول أن يطعمه أو يسقيه فلا يستجيب ..

ويسأل عندئذ : لماذا لا يتحرك ولا يأكل ولا يشرب ؟ فيقال له : إنه مات ..

عندئذ تحدث المفاجأة الضخمة !.. مات ؟! وما معنى الموت ؟

ويتعلم أن معناه فقد الحركة والقدرة على أن يأكل ويشرب وينطق .. ومعناه أنه سيغيب عن عالمه فلا يعود ..

هذه الصدمة الحادة التي تحزنه حزناً بالغاً لا تغيب عن حسه بعد ذلك أبداً .. لأنها تتكرر ـ ولا بد أن تتكرر ـ فتغيّب عن عالمه أشخاصاً أو أشياء عزيزة عليه .. ويظل في كل مرة يلدغه الألم على فراقها ..

ويكبر الطفل ويكبر .. فلا تزول عنه هذه الآثار بل تتعمق .. وكلما كبر وازدادت روابطه توثقاً مع الأشخاص والأشياء زاد تأثره بمن يغيب منها عن الوجود ..

هذه الظاهرة ، ظاهرة الموت والحياة ، عميقة الأثر جداً في حياة البشر ومشاعرهم .. لا ينجو منها حتى أبلدهم حساً .. ولا يمكن أن تمر في حياتهم بغير اهتزاز يطول أو يقصر ..

ثم لا يمكن أن تمر دون أن توقظ في حسهم سؤالاً عما وراء هذه الظاهرة العميقة التأثير ..

كيف تحدث الحياة ؟ تلقائية ؟ وكيف تكون تلقائية ؟ أليس لا بد لها من موجد يمنح الحياة ؟

ولماذا تتوقف ؟ لماذا يحدث الموت ؟ لماذا لا تعيش الأحياء إلى الأبد محتفظة بكل حيويتها ؟

وماذا وراء الموت ؟ هل هي النهاية ؟ ألا تعود الحياة إلى الكائنات أبداً .. في أية صور من الصور ؟

تلك التساؤلات التي لا ينجو من وقعها الكائن البشري ، هي توقيعات مؤثرة في أوتار القلب ، تبعثه يبحث عن الخالق المحيي المميت .. الذي يمنح الحياة ويأخذ الحياة .. ثم يهتدي فيعرف الله على حقيقته ، أو يضل فيتصوره قوة من القوى ، أو شيئاً من الأشياء ...

* * *

الأحداث الجارية التي لا تكف عن الحدوث والتتابع .. هي أيضاً ذات توقيعات على أوتار القلب البشري ..

كيف تحدث الأحداث ؟ ماذا وراءها ؟ ومَنْ وراءها ؟

تحدث خبط عشواء ؟ أم تحدث بتدبير ؟ وما سر التدبير وما حكمته ؟

هذا الطفل الوليد الذي يموت وأهله في لهفة حادة إلى وليد .. وذلك الشيخ الذي وصل إلى أرذل العمر ولمّا يتزحزح بعد !

هذا الشاب الذي مات في عنفوان شبابه ووراءه أسرة كان يعولها لا عائل لها ـ في

المنظور ـ غيره .. وذلك المريض الذي لا يقوى على الحركة ولا يأتيه الموت بعد !

هذا الحادث الذي أصاب السيارة فنجا منه فلان .. وفلان إلى جواره تماماً لم يبق منه جزء على جزء !

هذا الغنيّ الذي لا يعرف لأمواله حصراً ولا لإنفاقه حدوداً .. وهذا الفقير الذي لا يجد قوت يومه ..

هذا الذي يُرزق الأولاد والأحفاد حتى تفيض عن طاقة مشاعره .. وذلك الذي يتلهف على ولد واحد يخلفه في الحياة ..

هذا المُلْك الذي هوى .. والملك الذي احتل مكانه ..

تلك الأيام المتداولة بين الناس ..

هل هي خبط عشواء ؟ هل وراءها سر ؟ هل يحكمها تدبير .. ؟

ومن صاحب التدبير ؟!

ألا إنها لشيء محيرّ .. حتى أبلد الناس حسّاً لا ينجو من الحيرة منه .. والتفكير فيه ..

ثم يروح يتساءل : مَنْ وراء الأحداث ؟ وماذا وراء الأحداث .. ثم يهتدي إلى الله الحق ، أو يضل في التيه ..

* * *

عجز الإنسان الدائم يلجئه إلجاءً إلى التفكير في القدرة التي لا يعجزها شيء ..

يولد الطفل عاجزاً عن كل شيء .. ولولا أمه ترضعه ، وتأخذه في حضنها ، وتقضي له حوائجه كلها ما أمكن أن يعيش ..

ثم يبدأ يحس بالقدرة على بعض الأشياء ..

يبدأ يحرك أصابعه .. ويحرك يده .. ويحرك عضلات ساقيه وأصابع قدميه .. ويحرك رأسه .. ولكن هذا كله داخل حضن الأم ما يستطيع أن يغادره بعد ..

ثم يحس بمزيد من القدرة .. فهو الآن في خارج الحضن يتحرك بعض الحركات ..

ويفرح فرحاً هائلاً ولا شك بمقدرته تلك .. ولكنه يتطلع إلى المزيد ..

ويأتي يوم يحبو فيه على الأرض .. إنه يتطلع إلى الوقوف والمشي !

ثم يقف ويمشي يترنح ويسقط ثم يعود فيقوم .. إنه يتطلع إلى الوقوف الثابت والمشي المتمكن ..

ويصل إلى ذلك ذات يوم .. إنه يريد أن يطول النافذة وأكرة الباب ..

ويطول هذه وتلك ذات يوم .. ثم يتطلع إلى مزيد من القدرة ومزيد من القوة ومزيد من التمكن ..

ويكبر .. كما شاء الله أن يكبر .. ويبلغ من القوة مداه .. فهل يتوقف عن التطلع

لحظة ، ويكتفي بما وصل إليه من التمكين ؟

كلا إنه ليحس بمزيد من العجز كلما بلغ مزيداً من القدرة ! !

إن تطلعاته لا تقف عند حد . وكلما توصل إلى شيء من القدرة أغراه ذلك بالتطلع إلى المزيد ، فيحس بالعجز عن ذلك المزيد .. ويحاول من جديد.. ويصل إلى شيء مما يريد .. فيتطلع .. فيحس بالعجز ..

لقد فجر الطاقة النووية .. ووصل إلى القمر .. وقد يصل غداً إلى أغوار جديدة في الكون الفسيح ما كان يحلم بها من قبل .. فهل أشبعه ذلك كله فكف عن التطلع ؟ أو أرضاه فلم يعد يحس بالعجز ؟ ..

كلا ! إنه في الحقيقة يريد ألا يعجز أبداً ! يريد أن تكون له السيطرة الكاملة على كل شيء.. يريد أن يقول للشيء كن .. فيكون ! ولكنه يعرف أن ذلك لن يكون !

لذلك فما فتئ يحس بالعجز ، مهما وصل إلى الأفلاك ، ومهما سخّر من الطاقات !

وعجزه الدائم ذلك يلجئه إلجاءً إلى التفكير في تلك القدرة التي لا يعجزها شيء، من وراء هذا الكون الهائل الذي لا يقدر هو على شيء منه .. إلا فُتَاتاً من القدرة لا يغنيه .. ولا يرضيه ..

عندئذ ينطلق يبحث عن تلك القدرة القادرة .. فيهتدي .. أو يمعن في الضلال البعيد ..

* * *

الرغبة في استكناه الغيب رغبة حادة ملحة لا ينجو منها بشر في الأرض ..

والعجز عن استكناه الغيب أمر لا مفر من الشعور به في القلب البشري ..

ويروح الناس ـ منذ القدم ـ يحتالون على معرفة الغيب ، ويحاولون استشفاف ما يأتي به الغد القريب أو البعيد ..

لجأوا إلى الكهانة والعرافة والتنجيم .. وراحوا يستلهمون الرؤى .. ويستلهمون الأحاسيس الباطنة في داخل النفس ، التي لا تعتمد على منطق واضح ولكنها تشير ..

لجأوا إلى كل وسيلة يحاولون بها إزاحة الستر عن الغيب المحجوب عن الأعين .. المغلف بالأستار ..

ولم يصلوا قط إلى يقين ..

كل ما يصلون إليه تكهنات تخطئ أو تصيب ..

ويظل العجز باقياً كما هو .. حاداً كما هو .. واللهفة لا تريم ..

إنه ليس عجزاً عن استكناه الغد البعيد وحده .. ولا الغد القريب وحده .. بل هو عجز عن استكناه ما يحدث بعد ساعة واحدة من الزمان .. بل بعد لحظة .. بل في هذه اللحظة التي أطل جزء منها من عالم الغيب ، وبقيتها مغلفة بالأستار !

ويعود الإنسان من رحلته الملهوفة وراء الغيب ، وعجزه الكامل عن استكناهه .. يعود إلى الله ! المحيط بهذا الغيب المطّلع على كل خفاياه .. سواء عرف الله على حقيقته أم ضل عنه إلى سواه !

* * *

تلك أوتار فطرية في القلب البشري ، أودعها الله في الفطرة ، لتتلقى إيقاعات الكون والحياة والوجود .. لتهتز بما تتلقى من إيقاعات ، فتنطلق تبحث عن الله .. إنها ـ كما نستطيع أن نقول ـ موحيات العقيدة في القلب البشري .

والقرآن ـ وهو يعّرف الناس بالله ـ يوقع على ذات الأوتار المودعة في الفطرة .. ليهزها فتستيقظ .. ويحركها فتنفعل .. وفي لحظة انفعالها يقول لها : إنه الله ! .. ثم يقول لها : « ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه ! »[1]

« إن الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحيّ من الميت ومخرج الميت من الحي . ذلكم الله فأنى تؤفكون ؟ فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر . قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع . قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء ، فأخرجنا منه خَضِراً نخرج منه حباً متراكِباً ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان ، مشتبهاً وغير متشابه . انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه . إنّ في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون . وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم . سبحانه وتعالى عما يصفون . بديع السماوات والأرض أنىّ يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم . ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه . وهو على كل شيء وكيل . لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير »[2]

« وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين »[3] .

« فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد في السماوات والأرض وعشياً وحين تظهِرون . يخرج الحيّ من الميت ويخرج الميت من الحيّ ، ويحيي الأرض بعد موتها .

---

(١) سورة الأنعام [١٠٢] .
(٢) سورة الأنعام [٩٥ – ١٠٣] .
(٣) سورة الأنعام [٥٩] .

وكذلك تُخْرَجون . ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون . ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها . وجعل بينكم مودة ورحمة . إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم . إن في ذلك لآيات للعالمين . ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله . إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون . ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماءً فيحيي به الأرض بعد موتها . إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون . ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون . وله من في السماوات والأرض كل له قانتون . وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى في السماوات والأرض ، وهو العزيز الحكيم »[1] .

« لله ما في السماوات والأرض. إن الله هو الغني الحميد . ولو أنّ ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله . إن الله عزيز حكيم . ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة . إن الله سميع بصير . ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ، وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى ، وأن الله بما تعملون خبير ؟ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل ، وأن الله هو العلي الكبير »[2] .

« والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً . وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه . وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب . إن ذلك على الله يسير . وما يستوي البحران : هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج . ومن كلٍّ تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها ، وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ، وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى . ذلكم الله ربكم له الملك . والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير »[3] .

« أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، وكانوا أشد منهم قوة . وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض ، إنه كان عليماً قديراً »[4] .

« أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ؟ وضرب لنا مثلاً ونسي

---

(١) سورة الروم [١٧ – ٢٧] .
(٢) سورة لقمان [٢٦ – ٣٠] .
(٣) سورة فاطر [١١ – ١٣] .
(٤) سورة فاطر [٤٤] .

خلقه . قال : من يحيي العظام وهي رميم ؟ قل : يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون . أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى ! وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن ! فيكون ! فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون »[1] .

« هو الذي خلقكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم يخرجكم طفلاً ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ثم لتكونوا شيوخاً ، ومنكم من يتوفى من قبل ، ولتبلغوا أجلاً مسمىً ولعلكم تعقلون . هو الذي يحيي ويميت ، فإذا قضى أمراً فإنما يقول له : كن . فيكون »[2] .

« لله ملك السماوات والأرض ، يخلق ما يشاء ، يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور . أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً . ويجعل من يشاء عقيماً . إنه عليم قدير »[3] .

* * *

إن الحس البشري ليتبلد على المنظر المكرور والتجربة المكرورة ، فلا تعود تهزه كما هزته أول مرة .. ولا يستشعر لها الوجيب والحركة الوجدانية التي صاحبتها أول مرة وهي تلقي بشحنتها الكاملة للحس المتفتح المتوفز .. ومن هنا تفقد دلالتها ، فلا تعطي توقيعها الصحيح على أوتار القلب البشري .. لأن هذا القلب قد « ران » عليه ما جعله لا يستجيب ..

وهنا يأتي القرآن بطريقته الفذة فيمسح تلك القشرة الصلدة التي رانت على الحس فتبلد ، ورانت على القلب فلم يعد يستجيب ..

ولكأنه – حين يزيل تلك القشرة الجاسية – يصل إلى العصب الحيّ ، فيطلق له الشحنة فيتلقاها بكاملها .. كأنما يتلقاها أول مرة .. فيهتز لها اهتزاز التجربة الجديدة .. وينفعل بها كمن يعيشها أول مرة .. وحين يبلغ الاهتزاز ذروته ، والانفعال بالتجربة أشده ، يقول له : إنه الله ! إنه الله الخالق المبدع المصور .. إنه الله الرزاق .. إنه الله المحيي المميت .. إنه الله مدبر الكون كله بما فيه .. إنه الله عالم الغيب والشهادة .. إنه الله القادر الذي لا يعجز قدرته شيء ..

« ألم تر إلى ربك كيف مدَّ الظل ، ولو شاء لجعله ساكناً ، ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً . ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً .. »[4]

---

(١) سورة يٰس [٧٧ – ٨٣] .

(٢) سورة غافر [٦٧ – ٦٨] .

(٣) سورة الشورى [٤٩ – ٥٠] .

(٤) سورة الفرقان [٤٥ – ٤٦] .

تُرَى هل أنت هنا مع الظل الذي تراه كل يوم ، لا يلفت حسك ولا يثير انتباهك ؟
وهل تستطيع أن تقرأ الآيتين السالفتين ثم يظل إحساسك بالظل كما كان من قبل ؟
إنه هنا كائن جديد ولا شك . وقد تدخلت جملة عناصر لتمنحه هذه الجدة التي تعطي الحس شحنتها ، فتعطيه دلالتها !
فأنت ترى حركة الظل الرتيبة كل يوم ، وترى انتقاله من مكان إلى مكان ، ولكنك لا تخرج به في حسك عن أسبابه القريبة الظاهرة ، ومن أجل ذلك لا يعود يشغل حسك ، ولا تلتفت إليه إلا حين تتفيؤه هروباً من الحر ، أو تنظر إليه لتقدير الوقت ، وفي هذه وتلك لا يشغل من نفسك ولا مشاعرك إلا اللمحة العابرة التي تنطفئ من توها وتروح !
ولكنك هنا ـ مع الآيتين ـ في جوٍّ آخر ، مختلف تمام الاختلاف .

إنك بادئ ذي بدء مع حقيقة قد تفجؤك لأول وهلة ! إن الظل ليس متحركاً من تلقاء نفسه ، ولا تلقائياً من حركة الشمس الظاهرية التي يفسرها العلم بأنها ناشئة من حركة الأرض حول الشمس ..
إنه متحرك لأن **الله** هو الذي حركه !
« ألم تر إلى **ربك** كيف مدَّ الظل ، ولو شاء لجعله ساكناً ! »
فحركته إذن ليست وليدة هذه الأسباب الظاهرة التي تجعل تحركه أمراً « حتمياً » حسب « قوانين الطبيعة » ! وإنما لأن الله هو الذي مدّه وحركه . ولو شاء الله أن يجعله ساكناً لسكن ، ولما استطاعت قوة في الوجود أن تحركه من سكونه الذي أراده له الله ..
وكون الله سبحانه وتعالى هو الذي أودع الكون تلك الصفات التي تنشأ منها في النهاية حركة الظل ، هذه حقيقة . ولكن التعبير القرآني يصلك رأساً بالمشيئة الإلهية التي حركت الظل ، متخطياً الأسباب الظاهرة ـ وإن كانت هي ذاتها من قدر الله ومشيئته ـ لأن وقوف الإنسان عند الأسباب الظاهرة هو الذي يفتنه عن رؤية الحقيقة الكبرى من ورائها ، وهي إرادة الله التي تقول للشيء كن فيكون ، فيروح ينسب المشيئة لتلك الأسباب ، ويسميها « قوانين الطبيعة » ويقول إنها « حتمية » ، فيتبلد حسه من جراء ذلك ويبعد قلبه عن الله .
والتعبير القرآني يأخذه من هناك ، من حيث تبلد حسه وبَعُد ، فيرده مرة أخرى إلى الله !
ومرة أخرى تستوقفنا الآية ، لتردنا إلى الله ..
« ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً » !

إن « العلم » يقول لنا ـ بحسب ما يرى من الأسباب الظاهرة ـ إن وجود الشمس ، وحركة الأرض حولها ، هما السبب في حركة الظل .. ولكن التعبير القرآني يقول لنا إن

إرادة الله هي التي حركت الظل ابتداء ، « **ثم** » جَعَلت الشمس دليلاً على الظل ! فليست الأسباب الظاهرة هي الأصل ، ولكنها تجيء تالية ، بل تجيء على التراخي بلفظ « ثم » ، بعد تقرير الله للأمر بمشيئته ، التي تقول للشيء كن فيكون !

ثم نتحرك مع السياق حركة جديدة ..

« ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً » .

إن التعبير يصور حركة الظل الوئيدة التي تراها العين فلا تلتفت إليها ، أو لا تلتفت إليها بكليتها . ولكن الخيال هنا ـ مع التعبير القرآني ـ لا يملك أن يفلت من أسر الصورة التي تصورها تلك الكلمات القلائل في إبداع معجز ! إن الظل هنا لا يتحرك راجعاً من تلقاء نفسه ، ولا من أثر الأسباب الظاهرة التي نعرفها .. إننا مع السبب الحقيقي مرة أخرى . ولكنا نقف مبهورين ننظر إلى الظل وهو يقفل راجعاً بعد ما امتد .. لماذا ؟! لأن يداً خفية هي التي تطويه في حركة وئيدة كحركة الظل .. إنها يد الله ! وهكذا نجدنا مع الله مرة أخرى ، نرقب ـ من خلال حركة الظل ـ قدرته القادرة ، ويده الخفية ـ سبحانه ـ التي لا تدركها الأبصار !

على أن أروع ما في التعبير القرآني في الآية هو هذه اللفظة .. « إلينا » : « ثم قبضناه **إلينا** قبضاً يسيراً » .

أتدري ماذا فعلت هذه اللفظة المفردة في كيان الصورة كله ؟!

لقد كنت ـ بخيالك ـ تتتبع حركة الظل الوئيدة في ذهابه وأوبته ، هنا ! هنا في الأرض ! ويمتد بك البصر ـ أو الخيال ـ إلى الشمس حين تقرأ : « ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً » وينتهي بك الخيال هناك . ولكنك ـ فجأة ـ حين تصل إلى كلمة « إلينا » تجد إطار الصورة قد امتد وامتد ، وجاوز الشمس والأرض .. إلى .. ؟ إلى غير حدود ! « إلينا » !

وليصنع خيالك ما يشاء !

« لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » [1] .

* * *

« وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يَعْرِشون . ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً ، يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس . إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون » [2] .

نحن هنا مع النحل ، وهي كائنات متحركة دءوب لا تكاد تكف عن الحركة

---

(١) سورة الأنعام [١٠٣] .

(٢) سورة النحل [٦٨ ـ ٦٩] .

والنشاط . ولقد تلفت حِسَّنا بالفعل بحركتها ونشاطها حين نراها تطير من زهرة إلى زهرة ، وتحط عليها ترشف من رحيقها فترة ثم تطير .. ولكنا ننساها بعد لحظة ونمضي لأننا نرقبها في إطارها القريب الذي تدركه حواسنا فحسب . وقد تثير تأملنا ، وعجبنا وإعجابنا ، ولكنا حتى في ذلك لا نخرج بها من إطارها الذاتي الذي نتأملها من خلاله .. وهو في النهاية قريب !

ولكنا مع السياق القرآني من أول لحظة في محيط آخر !

إننا لسنا مع النحل ، ولكننا مع الله !

« وأوحى ربك إلى النحل .. »

فليس النحل إذن هو الذي يتحرك من تلقاء نفسه تلك الحركة العجيبة التي قد تستوقفنا عندها في بعض الأحيان بضع لحظات أو حتى ساعات ! إنما هو الله « أوحى » إليه ، بمعنى ألهمه : « ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه **ثم هدى** »[1] .

ومن هنا لا تنتهي حركة النحل في حسِّنا من قريب ، لأنها ـ بادئ ذي بدء ـ خرجت في حسِّنا من إطارها القريب واتصلت بوحي الله وإلهامه ، واتصلت ـ من ثم ـ بتدبير الله لأمور الكون بكل ما فيه وكل من فيه ، فدخلت في إطار واسع عميق ممتد في الآفاق !

ثم إن الحركة التي ترسمها الألفاظ في الصورة حركة حية كذلك ، وأوسع مدى في الحقيقة من الحركة التي تراها العين لأول وهلة .. مما يمد في أبعاد الصورة في حسنا ويعمقها .

فالنحل تتلقى الإلهام من الله أن تتخذ بيوتاً لها من الجبال ومن الشجر ومما يعرشون ، أي مما يزرع البشر من نبات ذي عروش كالكروم .. ثم هي ـ كما توحي الصورة إلى خيالنا ـ تنفذ الأمر فتتخذ بيوتها هناك !

وهناك فارق واضح في « عمق » الصورة في حسِّنا بين رؤية العين للنحل تبني عشوشها هنا وهناك ، وبين رؤيتها في الإطار الذي ترسمه ألفاظ الآية ، تتلقى من الله الوحي ثم تصدع بالتنفيذ !

وبُعْدٌ آخر يمتد في الصورة من قوله : « ومما يعرشون » !

إنها علاقة الأحياء بالأحياء !

فالوحي يصدر إلى النحل ـ وهي كائنات حية ـ أن تتخذ بيوتاً مما يعرش البشر ـ وهم كائنات حية ـ فيبدو هناك نوع من التعاون والتآزر بين هذه الأحياء يقدره الله ويريده فيتم في واقع الحياة !

---

(١) سورة طه [٥٠] .

ويستمر السياق يفصّل الوحي الصادر إلى النحل :

« ثم كلي من كل الثمرات ، فاسلكي سبل ربك ذللاً » .

ومرة أخرى نرى الاختلاف في عمق الصورة بين أن تكون النحل من تلقاء نفسها تأكل من كل الثمرات كما يبدو لظاهر أعيننا حين نحصر الصورة في أبعادها القريبة ، وبين أن تكون هذه الحركة ذاتها تلبية للوحي الصادر إليها من الله . ثم بين أن تكون حركة النحل حركة عشوائية كما تبدو في ظاهرها ، أو حتى منسقة على وتيرة معينة يمكن للعلم أن يكتشفها ويسجلها ، وبين أن تكون سالكة في حركتها سبل ربها المذللة لها بأمره سبحانه ومشيئته ! فأنت في الصورة الأولى تتعامل مع النحل ، بينما أنت في الصورة القرآنية تتعامل — في كل جزئية من جزئياتها — مع الله ! والنحل موجود في الصورتين .. ولكنه في الأولى نهاية المنظر ، ونهاية المطاف ، بينما هو في الثانية بداية المنظر ، وبداية المطاف !

* * *

هل تغيرت « معلوماتك » عن الظل أو عن النحل حين قرأت هذه الآيات ؟!

كلا ! إن « المعلومات » في ذاتها ليست جديدة . لقد كانت معلومة من قبل ، ولكنه ذلك العلم الميت البارد الساكن الذي لا يتحرك . ولكن القرآن يحيي هذه المعلومات حين يعرضها في جوّه الوجداني بطريقته المعجزة فتنتفض حية كأنها ليست هي التي كنا نعرفها من قبل ! وما تغيرت هي ! إنما نحن الذين تغيّرنا ! حين زال عن حسّنا التبلد للتجربة المكرورة والمنظر المكرور ..

* * *

وكما يصنع القرآن هذه العجيبة في مشاهد الكون المنظورة فهو يصنعها كذلك مع أحداث الماضي الذي مرّ ، والمستقبل الذي سيجيء !

« نحن نقص عليك نبأهم بالحق : إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى . وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا : ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً ، لقد قلنا إذاً شططا . هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بيّن ؟! فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ؟ وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقاً . وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه ، ذلك من آيات الله ، من يهدِ الله فهو المهتدِ ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً . وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ، ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد . لو اطلعت عليهم لولّيْتَ منهم فراراً ولملئت منهم رعباً . وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم . قال قائل منهم : كم لبثتم ؟ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ! قالوا : ربكم أعلم بما لبثتم .

فابعثوا أحدكم بِوَرِقِكُم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه ، وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا . إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ، ولن تفلحوا إذاً أبداً . وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها ، إذ يتنازعون بينهم أمرهم ، فقالوا : ابنوا عليهم بنياناً ، ربهم أعلم بهم . قال الذين غلبوا على أمرهم : لنتخذن عليهم مسجداً »[1] .

تلك قصة من قصص الماضي .. فهل تحس أنها « قصة » تروى ؟ أم واقع تشهده أمامك اللحظة وتنفعل بأحداثه ؟

إن السياق ليحيي المشهد إحياءً فإذا هو شاخص أمامنا نرقبه ونعيش معه منظراً منظراً ولحظة لحظة ..

وتبدأ القصة في الماضي كما هو ظاهر ، وتُستخدم صيغة الفعل الماضي لتؤكد ذلك . ولكن يحدث ذلك فقط ريثما نتمثل أشخاص القصة وموضوعها وجوها العام حتى نستطيع أن نعيش معها في ذلك الجو .. وعندئذ يتحول السياق !

« وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف » .

ماذا تحس من التعبير ؟ هل هي رواية عن الماضي أم إن الخطاب يوجه اللحظة إلى الفتية فيقال لهم ـ الآن ـ اؤوا إلى الكهف ما دمتم قد اعتزلتم قومكم وما يعبدون إلا الله ؟

إن تغييراً طفيفاً في السياق هو الذي غيّر المشهد من الماضي المروي إلى الحاضر المشهود . فهو لم يقل : وإذ اعتزلوهم وما يعبدون إلا الله قلنا لهم اؤوا إلى الكهف .. إنما قال : « وإذ اعتزلتموهم .. » ثم قال : « فأووا إلى الكهف » فالسياق يخاطبهم ولا يروي عنهم . يخاطبهم كأنهم حضور في هذه اللحظة يستمعون الخطاب ويتلقون التوجيه !

ثم يستمر السياق في الحاضر باستخدام الفعل المضارع :

« وترى الشمس .. » « تزاور عن كهفهم .. » « تقرضهم .. » « وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود » « ونقلبهم .. »

حتى إذا وصلت القصة نهاية المرحلة التي تصور فترة الرقود ، وبدأت مرحلة جديدة هي بعثهم من رقادهم ، عاد استخدام الفعل الماضي : « وكذلك بعثناهم .. » ولكنه هنا كذلك لا يُستخدم للرواية عن الماضي بقدر ما يستخدم لتقديم حلقة جديدة ، أي لتغيير « الجوّ » وتهيئة المشاعر لمشاهدة هذه الحلقة الجديدة المغايرة للسابقة بكل أحداثها ، والتي تعرض هي بدورها كأنها حاضر مشهود وذلك باستخدام أسلوب أقرب إلى الحوار المسرحي منه إلى الرواية القصصية ، فنعيش مع الحوار كأنه واقع نراه أمامنا اللحظة ، ونتابعه في ذات اللحظة التي يدور فيها بين أصحاب الحوار ! وبهذا كله تظل القصة حية في خواطرنا .

---

(١) سورة الكهف [١٣ - ٢١] .

لأننا « شهدناها » تعرض أمامنا ولم نسمع عنها مجرد سماع !

على أن القصة بكل حيويتها تلك لا تأتي في السورة هنا من أجل المتاع الفني ، وإن كان المتاع الفني يتحقق بكامله ، وإنما هي ـ ككل شيء في القرآن ـ تأتي مرتبطة بقضية الألوهية ، نابعة منها ، ومؤدية إليها . وهذه الحيوية الملحوظة ، المبثوثة في كل كيان القصة ، إنما هي وسيلة مقصودة لإحياء هذا الارتباط بقضية الألوهية في قلب الإنسان .

فالمقدمة المباشرة التي جاءت القصة لبسطها وتجليتها هي هذه :

« فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا »[1] .

وهي ـ كما ترى ـ تتضمن حقيقتين : الأولى أن القوم مكذبون ، لا يؤمنون بالقرآن وما يرد فيه من ذكر البعث . وذلك بالرجوع إلى ما تضمنته الآيات الأولى من السورة : « الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً ، قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً ، ماكثين فيه أبداً . وينذر الذين قالوا : اتخذ الله ولداً ... »[2]

والحقيقة الثانية أن الرسول صلى الله عليه وسلم مهتم لهذا الأمر أشد الهم ، قد اشتد به الأسف لتكذيب القوم .

ثم تستمر المقدمة لتصرف عن قلب الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الأسف العميق بتقرير شيء من الحقائق الكونية أو السنن الربانية التي يتضح من خلالها موقف القوم ، وتقويمه في ميزان الله ، ثم مصيرهم هم في نهاية المطاف :

« إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً . وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً »[3] .

فكل « ما على الأرض » قد جعل « زينة لها » لابتلاء البشر : أيهم تفتنه هذه الزينة فتصده عن طريق الله وتبعده عنه ، وأيهم يلتزم من هذه الزينة بالطيب الحلال الذي أحله الله ، ثم يشكر النعمة بالاستقامة على أمر الله فيما أمر به ونهى عنه . ثم إن ما على الأرض كله يأتي عليه حين من الدهر ينقلب فيه ـ بأمر الله ـ « قاعاً صفصفاً » أو « صعيداً جرزا » خالياً من الزينة التي كانت تفتن الناس ، ويعقب ذلك البعث الذي يكذب به المكذبون ، حيث يجزى الناس بأعمالهم في الحياة الدنيا : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً ، يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً ، يره »[4] .

---

(١) سورة الكهف [٦] .

(٢) سورة الكهف [١ – ٤] .

(٣) سورة الكهف [٧ – ٨] .

(٤) سورة الزلزلة [٧ – ٨] .

ثم يستمر السياق ليقول إنه إن كان هناك مكذبون بالبعث فليستمعوا إذن لهذه القصة ، التي تؤكد قدرة الله على البعث والإحياء ، وهي ليست « عجباً » من أمر الله ، إنما هي مجرد مظهر من مظاهر قدرته سبحانه .

وهكذا تجيء القصة في معرض إثبات القدرة الالهية .. مرتبطة بقضية الألوهية .. تلك القضية الكبرى في القرآن !

* * *

« واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ، فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً . قالت : إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً . قال : إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً . قالت : أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ، ولم أك بغياً ؟ ! قال : كذلك قال ربك هو عليّ هيّن ، ولنجعله آية للناس ورحمة منا ، وكان أمراً مقضياً ، فحملته ، فانتبذت به مكاناً قصياً ، فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت : يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً ، فناداها من تحتها : ألا تحزني ، قد جعل ربك تحتك سرياً ، وهزّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيًّا ، فكلي واشربي وقري عينا ، فإما تَرَيِنَّ من البشر أحداً فقولي : إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسيًّا . فأتت به قومها تحمله . قالوا : يا مريم ! لقد جئت شيئاً فريًّا ! يا أخت هرون : ما كان أبوك امرأ سَوْءٍ وما كانت أمك بغيًّا ! فأشارت إليه ، قالوا : كيف نكلم من كان في المهد صبياً ؟! قال : إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيًّا ، وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيًّا ، وبرًّا بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقيًّا ، والسلام عليّ يوم ولدت ، ويوم أموت ، ويوم أبعث حيًّا » [1] .

هذه قصة أخرى من قصص القرآن الحية المؤثرة التي يسوقها القرآن لتحقق أهدافه الخاصة ، وإن كانت المتعة الفنية متحققة فيها كأية قصة منشأة للمتعة الفنية خاصة !

والغالب في القصص القرآني ـ لأنه كتاب تربية وليس كتاب قصة ـ أن تُعْرَضَ « لقطات » بعينها من حياة الشخصية التي تتحدث عنها القصة ، تكون هي موضع العبرة وموضع التأثير ، ولا تُسْرد كل وقائع القصة ولا كل ملابساتها لأن ذلك لا يناسب الأهداف الخاصة للقرآن . وإن كانت هذه الطريقة ذاتها ـ طريقة عرض لقطات بعينها ـ تعطي القصة القرآنية حيوية خاصة ، لأنها تدع للخيال أن يملأ الفجوة ما بين اللقطة واللقطة ، فيكون للخيال عمل مزدوج : متابعة المشهد المعروض ، وإكمال ما بين المشهد والمشهد من فجوات .

---

(١) سورة مريم [١٦ - ٣٣] .

وقصة مريم من أبرز نماذج القصص القرآني الذي يسير على هذا النهج « الفني » !

فها هي ذي اللقطة الأولى تصور مريم العذراء البتول في خلوتها ، وبينها وبين أهلها حجاب يمنع دخول أحد إليها ، وهي المعروفة منذ طفولتها بالتبتل والانقطاع للعبادة ، إذ نذرتها أمها للمعبد كما جاء في سورة آل عمران : « إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبل مني إنك أنت السميع العليم . فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى ـ والله أعلم بما وضعت ـ وليس الذكر كالأنثى ، وإني سميتها مريم ، وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ، فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً وكفّلها زكريا ، كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً ، قال : يا مريم أنى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله . إن الله يرزق من يشاء بغير حساب »[1] .

وفي خلوتها تلك الآمنة الطاهرة يفجؤها وجود رجل لا تعرفه ، ولا ينبغي له بحال أن يوجد في مكانها هذا وعلى حالها التي كانت عليها في خلوتها ! ويُتْرَك للخيال أن يتصور فزعها من المفاجأة المذهلة أولاً ، وفزعها من وجود رجل معها في خلوتها ثانياً وهي العفيفة النقية الطاهرة . وحين تلتقط أنفاسها من هذا الفزع وذاك ، تلتفت إلى هذا الرجل الغريب تستنجد بتقواه ، وتذكّره بالله لعله يتركها في خلوتها وينصرف دون أن يمسها بسوء . ولكنه يفاجئها بمفاجأة أكبر من الأولى وأشق ! إنه يحدد مهمته ، فكأنها هي ذات الشيء الذي كانت تحذره فيما بينها وبين نفسها وتخشاه ! إنه جاء ليهب لها غلاماً ! وعندئذ لا تجد مفراً من المواجهة الصريحة بالعبارة الصريحة فقد انكسر حاجز الحياء ولم يعد في إمكانها أن تتستر به بعد أن اقتحمه عليها هذا الرجل الغريب . وعندئذ يبيّن لها مهمته كاملة ، ويشرح لها الأمر الرباني الذي هو مكلف به ، ودورها في حمل هذا النبي الذي سيكون رحمة للناس وآية ..

ثم تجيء فجوة في السياق يملأها الخيال ..

مشاعرها المختلفة المتداخلة . الفزع الذي يهدأ تدريجياً وتحل محله الطمأنينة إلى قدر الله ، والخوف مع ذلك من نتائج هذا القدر المنظورة ، من مواجهة أهلها بغلام تحمله من غير زواج معلن معروف !

وتستمر الفجوة حتى يفجأها المخاض ، ويفجؤنا نحن مشهدها في حالة المخاض !

ومرة أخرى تواجه الفزع .. وحيدة بغير تجربة .. يلجئها الألم إلى جذع النخلة ، لا تدري ماذا تصنع بغير معين ، ويستولي عليها الخوف من المواجهة والفضيحة المتوقعة .. كل ذلك في آن واحد ، فتتمنى أن لو كانت ذهبت من الوجود وصارت نسياً منسياً ..

---

(١) سورة آل عمران [٣٥ – ٣٧] .

ومرة أخرى تنزل عليها الطمأنينة من عند الله ، يناديها جبريل (أو عيسى عليه السلام) ألا تخافي ولا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً .. فهذا هو الماء تشرب وتغتسل ، وهذا هو الرطب يتساقط ، وهذا هو الأنس بالمتكلم إليها يسري عنها ويزيل عنها جزعها ووحشتها.

وتمر فجوة أخرى تجيء بعدها مفاجأة المواجهة .. وإن كنا نرى مريم هنا ـ كما نتوقع ـ ثابتة الجنان وقد اطمأنت إلى رحمة الله وآياته السابقة معها ، فلم تعد تخاف .

وينتهي المشهد بالمفاجأة الأخيرة في الموقف .. الطفل الوليد يتكلم ويقول : « إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً ... »

هذه الطريقة في العرض التي تجمع بين الحوار والسرد ، وترسم اللقطات البارزة وتترك الفجوات للخيال ، تعطي القصة كلها حيوية واضحة ، وتجعل أثرها في المشاعر عميقاً لا يزول .

ولكن فيم كانت القصة التي يبلغ تأثيرها في الوجدان هذه الأعماق ؟

إنها ـ هنا ـ تجيء في معرضين متداخلين متكاملين [1] .

فهي من ناحية قصة قائمة بذاتها تَرِدُ رداً على قول النصارى إن عيسى ابن الله ، حيث يجيء التعقيب عليها هكذا :

« ذلك عيسى ابن مريم ، قول الحق الذي فيه يمترون . ما كان لله أن يتخذ من ولد ، سبحانه ، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون . وإن الله ربي وربكم فاعبدوه . هذا صراط مستقيم . فاختلف الأحزاب من بينهم ، فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم . أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا . لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين . وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون . إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون » [2] .

وهي من هنا تتعلق تعلقاً مباشراً بقضية الألوهية وبيان حقيقة الواحدانية ، وحقيقة وضع البشر جميعاً بما فيهم **عيسى عليه السلام** : أنهم كلهم عبيد لله ، وما ينبغي لهم أن يكونوا غير ذلك . فعيسى يجيء على لسانه : « إني عبد الله » . والتعقيب يجيء فيه : « ما كان لله أن يتخذ من ولد ، سبحانه ، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » .

ثم هي ـ من ناحية أخرى ـ تجيء ضمن مجموعة من قصص الأنبياء من الذين أنعم الله عليهم نعماً كبيرة ظاهرة ، منها نعمة الاصطفاء بالرسالة والوحي ، ونعمة المعجزات التي أيدهم الله بها لتكون عوناً لهم في أداء الرسالة ، بالإضافة إلى نعمه المباركة لهم في

---

(١) تحدثنا في مكان آخر من هذا الفصل عن الأغراض التي يجيء القصص من أجلها في القرآن .

(٢) سورة مريم [٣٤ – ٤٠] .

الأهل والذرية ، ورفع مكانتهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة . وتبدأ السورة بذكر زكريا : « كهيعص . ذكر رحمة ربك عبده زكريا .. » ثم تتوالى القصص بعد قصة زكريا مبدوءة بقوله تعالى : « واذكر في الكتاب .. » فيجيء على التوالي : « واذكر في الكتاب مريم .. » « واذكر في الكتاب إبراهيم .. » « واذكر في الكتاب موسى .. » « واذكر في الكتاب اسماعيل .. » « واذكر في الكتاب إدريس .. »

ثم يجيء التعقيب الأخير عليها جميعاً : « أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ، وممن حملنا مع نوح ، ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ، وممن هدينا واجتبينا ، إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجّداً وبكيّاً . فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيّاً . إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً ... » [1]

وهو سياق متصل بقضية الألوهية كذلك من أكثر من جانب

فالمعجزات ـ وأبرزها هنا خلق عيسى بغير أب ـ هي من آيات القدرة الربانية ، التي تجيء في القرآن في سياق تعريف الناس بربهم : أنه هو القادر سبحانه ، الذي لا تقف قدرته عند حد ، والذي لا يعجزه شيء في الكون ، لأنه يقول للشيء كن ، فيكون .

والنعم التي أنعمها الله على الرسل والأنبياء المذكورين في السورة كالإنعام بالولد على زكريا في كبرته وامرأته عاقر (وهو يدخل في باب المعجزة كذلك) والإنعام على مريم بحمل واحد من الرسل المكرمين (وهو داخل في باب المعجزة كما أسلفنا) والإنعام على إبراهيم في كبرته كذلك بإسحاق وبرؤية يعقوب بن إسحاق في حياته ، وجعلهما كليهما نبيين ، والإنعام على موسى بمناجاة ربه له في جانب الطور الأيمن وإرسال هرون معه نبياً ، والإنعام على إسماعيل بالرسالة وبالمقام المرضيّ عند الله ، والإنعام على إدريس بالمكانة العالية .. كل هذه النعم تسرد كذلك في مقام تعريف الناس بربهم : أنه هو المنعم الوهاب .

وأخيراً يجيء موقف هذه الطائفة المصطفاة من عباد الله ، كيف كانوا يقفون في مقام العبودية الحقة لله : « إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجّداً وبكيًّا » وكيف خَلَفَ من بعدهم خَلْفٌ خرجوا على مقام العبودية واتبعوا الشهوات ، وتختمُ الآيات ببيان مصير هؤلاء يوم القيامة ، ومصير من يتبع الحق ويتوب إلى الله .

وهكذا نجد هذا العرض الأخاذ في القصة سائرا كله في خدمة القضية الكبرى .. قضية التعريف بالله .

* * *

---

(١) سورة مريم [٥٨ – ٦٠] .

وكما يتحدث الكتاب عن أحداث الماضي فيبث فيها هذه الحيوية المبدعة يتحدث كذلك عن أحداث المستقبل .

« فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكةً واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ، والمَلَكُ على أرجائها ، ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية . يومئذ تُعْرَضُون لا تخفى منكم خافية . فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول : هاؤم اقرأوا كتابيه ! إني ظننت أنّي ملاقٍ حسابيه . فهو في عيشة راضية ، في جنة عالية ، قطوفها دانية : كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية . وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول : يا ليتني لم أوت كتابيه ! ولم أدر ما حسابيه ! يا ليتها كانت القاضية ! ما أغنى عني ماليه ! هلك عنّي سلطانيه ! خذوه فغلوه ! ثم الجحيم صلُّوه ! ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه ! إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ، ولا يحضّ على طعام المسكين . فليس له اليوم ها هنا حميم ، ولا طعام إلا من غسلين ، لا يأكله إلا الخاطئون ! » [1]

ذلك مشهد من مشاهد القيامة الكثيرة في القرآن .. يبدأ بنفخة الصور يجيء بعدها حمل الأرض والجبال ودكّها دَكَّة واحدة فإذا هي تصبح بهذه الدكة الواحدة « قاعا صفصفا ، لا ترى فيها عوجاً ولا أمْتاً » كما جاء في سورة طه [2] . ويُتْرَكُ للخيال أن يتصور القبضة الهائلة التي تحمل الأرض بما عليها من الجبال فتدكها دكة واحدة فتسوي أعلاها بأسفلها ! كما يترك للخيال كذلك أن يتصور مدى الدويّ الذي تحدثه هذه الدكة الجبارة ، ومدى الغبار الذي تثيره في الفضاء !

إن منظر انهيار بيت واحد أو جدارٍ واحد من بيت ليثير الفزع في النفوس ، سواء بالدويّ الذي يحدثه ، أو الغبار الذي يثيره ، أو بحركة الانهيار ذاتها ، وهي حركة مفزعة لكل الكائنات الحية على السواء ! فما بالك بجبل كامل ينهار ! وما بالك بجبال الأرض كلها تنهار في لحظة واحدة على غير انتظار ؟!

إن الخيال ليحاول أن يرسم الصورة ، وأن يتخيل اليد الجبارة التي يمكن أن تحدث هذه الدكة الهائلة ، ولكنه لن يستطيع ذلك إلا بجهد ، فإن أقصى المعهود — في عالم البشر — أن يتمكن الإنسان من حمل بضع عشرات من الكيلوجرامات أو بضع مئات . والقرآن يقول : « وما قدروا الله حق قدره **والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة** والسماوات مطويات بيمينه . سبحانه وتعالى عما يشركون » [3] .

---

(١) سورة الحاقة [١٤ — ٣٧] .

(٢) سورة طه [١٠٦ — ١٠٧] .

(٣) سورة الزمر [٦٧] .

ونعود إلى سياق الآيات من سورة الحاقة ..

ماذا يحدث إذا نفخ في الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ؟ ماذا بعد هذا الدويّ المفزع والدمار الشامل المرعب للوجدان ؟!

« فيومئذ وقعت الواقعة » !

ويكفي هذا البيان المختصر بعد ما كان من تلك المقدمات !

ولكن الهول ليس في الأرض وحدها ، فهو شامل للكون كله بما في ذلك السماء التي انشقت وتهاوت :

« وانشقت السماء فهي يومئذ واهية » .

ثم إن الرهبة تحيط بالموقف من كل جانب :

« والمَلَكُ على أرجائها ، ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » .

وماذا يحدث عندئذ ، في هذا الهول الشامل ، والرهبة الرهيبة التي تقطع الأنفاس ، والتي تصفها سورة طه : « وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً » [1] « وعنت الوجوه للحيّ القيوم » [2] ...

« يومئذ تُعْرَضُونَ لا تخفى منكم خافية » !

ترى أي الهولين أشق على النفس ؟! هول المشهد الرهيب من خارج ؟ أم هول العرض الذي تنكشف فيه خبايا النفوس فلا يملك أصحابها أن يخفوا شيئاً مما بداخلها ، أو يكتموا دليلاً واحداً يدينها أمام بارئها ؟!

إن انكشاف الإنسان في أمر واحد من أمور الدنيا يحاول إخفاءه ليحدث في نفسه رجة عنيفة ويهزها هزاً .. وهو انكشاف أمام بشر مثله . فكيف بالانكشاف أمام الله .. وفي الموقف الذي يترتب عليه كل شيء .. فإما إلى الجنة وإما إلى النار ؟!

وتجيء بعد ذلك صورتان متقابلتان : صورة المؤمن الذي تجاوز الخطر وأدخل النعيم ، والكافر الذي وقع في الخطر فزج به إلى النار .. كلتاهما صورة حية شاخصة حافلة بالحركة والحياة . المؤمن ــ في فرحته ــ يقول : هاؤم اقرأوا كتابيه ! ثم إذا هو في الجنة العالية ذات القطوف الدانية يتمتع بذلك النعيم . والكافر ــ في هلعه وندمه الذي لا يغني ــ يقول : يا ليتني لم أوت كتابيه ! ثم يقف يولول على ما فاته وما صار إليه ، وتطول ولولته لحظة .. ثم إذا أمْرٌ صادر من أعلى ، يقطع عليه ولولته فجأة : « خذوه فغلّوه » ! وعندئذ يؤخذ أخذاً فيقذف به إلى النار !

* * *

---

(١) سورة طه [١٠٨] .

(٢) سورة طه [١١١] .

« وبرزوا لله جميعاً فقال الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنّا من عذاب الله من شيء؟ قالوا : لو هدانا الله لهديناكم ! سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ! ما لنا من محيص ! وقال الشيطان لما قُضِيَ الأمر : إن الله وعدكم وعد الحقِّ ووعدتكم فأخلفتكم ! وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي ! فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ! ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخيّ ! إني كفرت بما أشركتمونِ من قبل ! إن الظالمين لهم عذاب أليم ! وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم ، تحيتهم فيها سلام »[1] .

هذا مشهد آخر من مشاهد القيامة يصف موقف طائفة من الناس كانوا مستضعفين في الدنيا ، يطيعون سادتهم وكبراءهم في المخالفة عن أمر الله ، وتبدو أوامر سادتهم في حسهم أثقل من أوامر الله ، كأنما يتوهمون أنهم في حِمىً من سادتهم هؤلاء لا يستطيع أحد أن يطولهم أو يمتد إليهم بمكروه !

ثم هم أولاء في الآخرة وقد برز الناس جميعاً لربهم . والتعبير يصور الناس وقد قاموا من قبورهم لملاقاة الله فلا يقول : جاءوا .. أو نهضوا .. وإنما يقول « برزوا » وهي لفظة يبدو فيها الجهد من ناحية ، ومن ناحية أخرى عدم إمكان استخفائهم ، فهم جميعاً « بارزون » أرادوا أو لم يريدوا ! بما يتضمنه ذلك من بروز ما في داخل أنفسهم كذلك وعدم إمكان استخفائه على الله : « وبرزوا لله جميعاً » !

ثم ها هم أولاء الضعفاء وقد رأوا الهول المذهل يتوجهون لكبرائهم ـ بحكم العادة ! ـ يحاولون الانطواء فيهم والاحتماء بهم :

« فقال الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنّا لكم تبعاً ، فهل أنتم مغنون عنّا من عذاب الله من شيء» ؟!

وفي موقف الضيق الذي لا يستطيع فيه هؤلاء الكبراء أن ينقذوا أنفسهم فضلاً عن غيرهم تأتي إجابتهم للضعفاء ضيقة مريرة : « لو هدانا الله لهديناكم » !

ثم يجيء تعقيب ساخر منهم ، يشملون فيه بالسخرية أنفسهم وأتباعهم في آن واحد : « سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص ! »

ويبدو الموقف منتهياً عند هذا الحد بين الضعفاء والذين استكبروا ، وقد شملهم الخزي جميعاً والمهانة واليأس والضيق ، وعلموا أنهم لا محيص لهم من العذاب ..

ولكن عنصراً جديداً يبرز في الموقف يفجؤهم جميعاً ! إنه الشيطان الذي أغوى هؤلاء وهؤلاء في الدنيا . أغوى « السادة » فأمرهم بمعصية الله وكفره ، وأغوى الضعفاء بطاعة السادة فيما يأمرونهم به من كفرٍ بالله .

---

(١) سورة إبراهيم [٢١ – ٢٣] .

إنه هنا « يبرز » لهم من حيث لم يحتسبوا ، في الموقف الذي يبرز فيه كل شيء، ويفاجئهم بمقالة تزيدهم حسرة على حسرات :

« وقال الشيطان لما قضي الأمر : إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم » !

هكذا ! وفي هذه اللحظة بعد فوات الأوان يكشف لهم عن هذه الحقيقة ، حيث لا مجال للتوبة ولا للعودة من جديد !

ويمضي الشيطان في « شيطنته » إلى آخر المدى ، فيقف يعظهم ! حيث لا يزيد وعظه نفوسهم إلا ألماً وحزناً وحسرة !

« وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي ! »

وهذه في ذاتها حقيقة ! فأي سلطان كان للشيطان عليهم ؟! هل هو قد أمسك بتلابيبهم وأكرههم على عمل من الأعمال ؟ إنما هو أغواهم فقبلوا الغواية ! فليتحملوا تبعة عملهم كما يقول لهم :

« فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ! »

ولكن هل تخلّى هو عن شيطنته وصار يقول الحق من أجل الحق ؟ كلا ! إنما يقوله لإيلامهم وليزداد شماتة فيهم !

« ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخيّ ! »

حقيقة ! فلن يستطيع أحدهما بالفعل أن ينجد الآخر أو ينقذه من العذاب .. ولكنه يقولها لهم بكل شيطنة الشيطان ! فهو الذي أوقعهم بالغواية والخديعة والمكر ، واليوم يسحب نفسه من الموقف كأنه لم يصنع شيئاً على الإطلاق ، بل يزيدهم دهشة وألماً وحسرة حين يتخلى تماماً عن كل كلامه السابق :

« إني كفرت بما أشركتمونِ من قبل ! »

وليته يتخلى فقط ! بل هو يلقي التبعة عليهم بما هو « بريء » منه ! فهم الذين أشركوا به ! وهو يتبرأ الآن من ذلك !

ثم تختم الآية بهذه العبارة : « إن الظالمين لهم عذاب أليم » . وسواء كانت تكملة لكلام الشيطان من قبل ، زيادة منه في إيلامهم وإغاظتهم في الموقف الحرج ، أو كانت من كلام رب العالمين تعقيباً على الموقف كله ، فهي الحقيقة النهائية التي تحسم الموقف كله بالنسبة لأولئك الظالمين ..

وفي الوقت الذي ينال فيه الظالمون جزاءهم من العذاب الأليم ، يكون للمؤمنين جزاؤهم في اتجاه آخر :

« وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم .. »

والتعبير هنا يجمل القول بالنسبة للمؤمنين ، ويجمعه كله في آية واحدة ، قصيرة نسبياً ، معدودة الكلمات .. ولكنه في الحقيقة يأخذ مساحة أكبر في الحس ، بمقدار ما كان طول العرض بالنسبة للكافرين ! لأن الإنسان ـ بوعي « فني » منه أو بغير وعي ـ يعقد مقارنة كاملة بين الموقفين ، بمقدار ما أخذ الموقف الأول المطول من مشاعره ، وهو يتتبع الحوار المؤلم بين الضعفاء والذين استكبروا ، وبينهم جميعاً وبين الشيطان ، فإن الموقف الآخر المقابل ـ وإن اختصرت كلماته ـ يأخذ مساحة مساوية ، تبعث في النفس الراحة والطمأنينة والهدوء والسكينة ، وخاصة حين تجيء الخاتمة :

« تحيتهم فيها سلام » !

وذلك من روائع الطريقة القرآنية في التعبير وفي التصوير .

* * *

بهذه الطريقة الفذة يعالج القرآن الواقع المشهود ، والماضي الذي مرّ ، والمستقبل المنظور .

وبهذه الطريقة ينفذ إلى القلب البشري من جميع منافذه فيستولي عليه ..

ولقد صنع القرآن ذلك في قلوب الذين تلقوه أول مرة .. سواء منهم من أسلم وجهه لله وآمن ، ومن كابر وجحد : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم » [1] كالوليد بن المغيرة الذي نزل في حقه هذه الآيات :

« ذرني ومن خلقت وحيداً ، وجعلت له مالاً ممدوداً ، وبنين شهوداً ، ومهدت له تمهيداً ، ثم يطمع أن أزيد ! كلا إنه كان لآياتنا عنيداً . سأرهقه صعوداً . إنه فكر وقدر ، فقتل ! كيف قدر ؟! ثم قتل ! كيف قدّر ؟! ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر ! إن هذا إلا قول البشر . سأصليه سقر ... » [2]

وكذلك ظل القرآن يصنع في قلوب الأجيال المتتالية خلال أربعة عشر قرناً .. وسيظل كذلك حتى تقوم الساعة ، يبعث ذات الهزة في وجدان الذين يتلونه ببصيرة متفتحة : « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » [3] .

* * *

ولكن القرآن وهو يوقع على أوتار القلب الفطرية تلك التوقيعات المؤثرة العميقة ، بعد أن يزيل عنها « الران » الذي علق بها من آثار تبلد الحس .. لا يصنع ذلك من أجل تكوين « معلومات » جديدة عن الله سبحانه .. إنما من أجل « الإيمان بالله » .. وفرق هائل بين إنشاء معلومات عن أية قضية من القضايا وبين الإيمان بتلك القضية ..

---

(١) سورة النمل [١٤] .

(٢) سورة المدثر [١١ – ٢٦] .

(٣) سورة قٓ [٣٧] .

إن « المعلومات » مهما كانت حية في حينها ، جديدة ولامعة ، لا بد أن ينطفئ لمعانها بعد فترة ، وتنطمس معالمها .. فتموت ! ولا تعود تعطي ذلك الإشعاع المشرق الذي يمكن أن تعطيه في مبدإ الأمر . فضلاً على أنها عرضة ـ دائماً ـ أن تنحصر في محيط الذهن ، فتصبح قضايا ذهنية لا علاقة لها بالواقع .. يدور الذهن فيها ويدور .. ثم يخرج من الدورة حيث كان ! ويظل السلوك البشري سائراً في طريقه لا يتأثر بتلك القضايا الذهنية ولا يتغير ..

ولكن « الإيمان » شيء آخر مختلف تماماً .. إنه يستند إلى تلك المعلومات .. نعم .. ولكن يستند إليها لينطلق منها ، لا ليبقى جاثماً عندها ولا منحصراً فيها ..

الإيمان حركة ..

الإيمان طاقة ..

حركة تجيش في القلب فتحركه بوجدانات شتى ، وتبعث فيه انفعالات حية متدافعة لا تسكن ولا تهمد .. ولا تموت .

وطاقة تتفجر في محيط النفس كلها فتحرك منها أدق ذراتها ، فَتُلْمَسُ آثارُها في داخل النفس وفي خارجها .. عملاً وسلوكاً .. وأفكاراً ومشاعر .. كما تُلمس آثار الطاقة المغنطيسية والكهربية .. في الآلة الدائرة والمصباح المنير ..

والذي كان القرآن ينشئه في القلوب هو الإيمان بالله ، وليس مجرد المعرفة الذهنية بالله .. والذين يعرفون الله على طريقة الإيمان هم الذين يسميهم القرآن : « الذين يعلمون » ويصفهم بأنهم « أولو الألباب » :

« أفمن يعلم أن ما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ؟ إنما يتذكر أولو الألباب ، الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق . والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب . والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ، ويدرأون بالحسنة السيئة . أولـئك لهم عقبى الدار ... » [1]

وهكذا يتحول « العلم » بأن ما أنزل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم من ربه هو الحق ، إلى عمل وسلوك ومشاعر ، لأنه يتحول من « معلومات » إلى « إيمان » ..

* * *

هذا « الإيمان » بالله هو الموضوع الرئيسي في القرآن كله . وهو بطبيعة الحال الموضوع الرئيسي في العقيدة ..

---

(١) سورة الرعد [١٩ - ٢٢] .

وحين كان القرآن في العهد المكي يتنزل خلال ثلاثة عشر عاماً من الزمان لا يتحدث إلا في العقيدة ، كان التركيز الأكبر ولا شك على الإيمان بالله ، لأنه هو الركن الأول والأكبر في العقيدة ، ثم في بناء الإسلام كله فيما بعد.. في التنظيمات والتشريعات والتوجيهات ...

والقرآن يوثّق هذا الإيمان في القلب بأن يربط ذلك القلب بالله في جميع أحواله .. لأنه يربط الأحوال كلها والوجود كله بالله .. والقلب البشري ــ في أي حالة من حالاته وفي أي لحظة من لحظاته ــ لا بد أن يكون مرتبطاً بشيء ما في هذه الحياة ، وشيء ما في ذلك الوجود ! فإذا كانت الحياة كلها والوجود كله مرتبطاً في كل لحظة وفي كل حالة بالله ، فقد ارتبط القلب البشري بالله عن ذلك الطريق : خوفاً أو طمعاً .. رجاء أو خشية ..

فالمولد والممات بيد الله ..

والرزق بيد الله .. سواء كان الرزق مالاً أو جاهاً أو صحة أو أبناء أو أي لون من ألوان الرزق .. كلها بيد الله ..

والأحداث الجارية بالنفع والضر كلها بيد الله ..

والغيب المغلف بالأستار متعلق بعلم الله .. لأنه من صنع الله ..

هذا كله في الدنيا ..

ثم البعث والحساب بيد الله ..

والثواب والعقاب بيد الله ..

فأي شيء يمكن أن يتعلق به القلب البشري في أية لحظة من لحظاته ليس بيد الله ؟

وأي لحظة من لحظات هذا القلب في الدنيا أو الآخرة خارجة عن علم الله أو عن ملكوت الله وتدبير الله ؟

ومن ثم يعيش القلب البشري في هذا القرآن حياته كلها مع الله ، حين يطمع وحين يخاف . حين يرجو وحين يخشى . حين يحب وحين يكره . حين يكون في واقعه وحين يكون في خياله . حين يعيش في دائرة الحس وحين يستشرف ما وراء الحس . حين يكون وحده وحين يكون في الجماعة . حين يؤدي شعائر التعبد وحين يكدح في فجاج الأرض .

وتلك هي « بذرة الإيمان » التي يبذرها القرآن في القلب لتؤتي ثمارها على الطريق .. طريق الإيمان !

* * *

هذه البذرة التي يتعهدها وينميها بالمزيد من التوقيعات على أوتار القلب .. من لفت الحس البشري إلى ضخامة الكون الهائلة ، إلى دقته المعجزة ، إلى الإحياء والإماتة ، إلى الأحداث الجارية وما وراءها من تدبير .. إلى بيان قدرة الله التي لا يعجزها شيء في

السماوات ولا في الأرض .. إلى علم الغيب ...

هذه البذرة تنمو بالتعهد الدائم لها فتتكون منها نبتة ذات ثمار ..

تتكون منها عبادة لله .. وطاعة لله ..

إن مقتضى شعور القلب البشري الحق بألوهية الله وربوبيته أن يشعر بالعبودية الحقة لذلك الإله الذي عرفه على حقيقته ، وعرفه في جميع صفاته .. فتكون العبودية الحقة مقابل الألوهية الحقة والربوبية الحقة ..

ويشعر القلب المؤمن بكرامته كلها في تلك العبودية الحقة لله .. وبمقدار ما يخضع ذاته لذات الله ، ويسلم قياد ذاته لذات الله يكون أنسه وبشره وفرحه وانطلاقه وشعوره بالرضا .. وشعوره بالوجود ! لأنه بكل ذلك يقترب من الله فيشمله النور الرباني فيتغلغل في ذرات كيانه .. فيحس بحقيقة الحياة ..

ولكن هذه المشاعر .. مشاعر العبودية .. والأنس بها والفرح والرضا والانطلاق ، ليست هي الغاية الأخيرة ولا القرار الأخير[1] .

لا بد من الطاعة لله .. وتلك هي الثمرة .. ثمرة العبادة لله ، والإيمان بالله ..

الطاعة لله فيما أمر به وما نهى عنه من أمر ..

الطاعة في التكاليف « التعبدية » كالتكاليف « التشريعية » كتكاليف « الجهاد » في الأرض .. كلها سواء ..

وبغير هذه الطاعة تظل المشاعر معلقة لا وزن لها في واقع الأرض .. وتظل « العبادة » كذلك غير محققة في واقع الأمر !

« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون »[2] .

ولا تتم العبادة إلا بالطاعة .. ولا تتم الطاعة حتى تتمثل في عمل وسلوك لا في المشاعر فحسب ..

* * *

ولم تكن في العهد المكي الذي استغرقه كله الحديث عن العقيدة ، ومعظمه في الحديث عن الإيمان بالله .. لم تكن هناك « تكاليف » بالمعنى الذي جاء فيما بعد في العهد المدني ، سواء التكاليف التعبدية (فيما عدا الصلاة) أو التكاليف التشريعية والتنظيمية أو

---

(١) عند هذه الغاية تقف معظم خطوات الصوفية ! وهم يصلون في هذا الطريق ، طريق « تربية الروح » إلى مجالات شفافة رائقة مضيئة جميلة ولا شك. ولكن الطريق في حقيقته لا ينتهي عند هذه الغاية ما لم يصحبها « العمل » الذي يترجم هذه المشاعر إلى واقع سلوكي في **كل** مجالات الحياة التي أمر بها الله ، وإلا فسيظل كل هذا الجمال الروحي قاصراً عن بلوغ الغاية من العبادة : « كلا ! لما يقض ما أمره » !

(٢) سورة الذاريات [٥٦] .

الجهاد بالأنفس والأموال .. ولكن كان هناك الإعداد النفسي والروحي لهذه التكاليف .. كان الوصول بالبذرة الإيمانية إلى مرحلة التسليم لله والطاعة لله .. الطاعة من حيث المبدإ .. الطاعة في الكبيرة كالصغيرة .. الطاعة حباً لله .. وخشية لله .. وعبادة لله ..

وحين تمت تربية هذه القلوب على الطاعة لله ، وعلم الله منها صدقها وتجردها .. جاءت التكاليف .. فجاءت على قلوب قد استعدت لها من قبل .. فلم يكن هناك جهد في الطاعة ، حتى وإن كانت التكاليف مجهدة كالصوم والقتال ، ولقد احتاجت بعض التكاليف إلى مجاهدة النفس ولا شك ، ولكن لتقوى على التكليف ذاته لا لتقرير مبدإ الطاعة الذي كان قد تقرر من قبل واستقر في هذه القلوب !

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون . أياماً معدودات . فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر . وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ، فمن تطوع خيراً فهو خير له . **وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون** »[1] .

« كتب عليكم القتال **وهو كره لكم** . وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم . والله يعلم وأنتم لا تعلمون »[2] .

« ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول ، وهم بدأوكم أول مرة ؟ **أتخشونهم** ؟! فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين »[3] .

وهكذا .. وهكذا .. كانت بعض هذه التكاليف في حاجة إلى المجاهدة المستمرة لتقوى النفوس عليها ، ولكن مبدأ الطاعة لم يكن موضع مراجعة من المؤمنين ، حتى وهم ينكلون أحياناً عن التكليف ، ويتلقون على ذلك النذير :

« يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثّاقلتم إلى الأرض ؟ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟ فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل . إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً ... »[4]

« قل : إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله ، وجهاد في سبيله ، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره . والله لا يهدي القوم الفاسقين »[5] .

* * *

---

(١) سورة البقرة [١٨٣] .

(٢) سورة البقرة [٢١٦] .

(٣) سورة التوبة [١٣] .

(٤) سورة التوبة [٣٨ - ٣٩] .

(٥) سورة التوبة [٢٤] .

وهكذا كانت التربية القرآنية على الإيمان بالله .. التي بدأت بقوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق . أقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم .. »[1] ثم طوفت بالقلب البشري في مجالات الكون الواسع الفسيح .. في السماوات والأرض والأفلاك .. في المطر النازل من السماء ليحيي الأرض بعد موتها .. في النبات المختلف الألوان والأشكال والمذاق .. في الليل والنهار .. والقمر والنجوم .. في أطوار الخلق من النطفة والعلقة والمضغة .. في علم الله الشامل الذي يعلم الحبة في ظلمات البر والبحر ، والورقة الساقطة من غصنها والثمرة المتفتحة في كمها .. في تدبير الله المحكم .. في بسط الرزق وقبضه .. في الإنسان وعجائب خلقه .. في تأييد الرسل بالمعجزات ونصرهم على المكذبين .. في كل ما حول الإنسان مما يقع بصره عليه وما لا يستطيع أن يراه .. طوفت به في تلك المجالات كلها ليرى الله أمامه في كل شيء ، ومعه في كل لحظة ، ورقيباً عليه في كل عمل أو فكر أو هاجسة أخفى من السر .. ثم لتقول له إن هذا الإله القادر هو الذي سيحاسبه يوم القيامة وليس من لقائه مفر ، ولا من حسابه مفر .. وأن له على خلقه الذي خلقه حق العبودية وحق الطاعة له وحده دون شريك .. لأنه هو الله الواحد الذي ليس له شريك ..

تلك هي الثمرة ..

توحيد الألوهية والربوبية .. لتوحيد الطاعة وتوحيد العبودية ..

إله واحد .. ومعبود واحد ..

لا إله إلا الله .. أي لا معبود إلا الله .. ولا طاعة إلا لله .. وإلا فهي عبادة الشيطان ، وطاعة الشيطان ..

وذلك هو المعنى الحقيقي للاإله إلا الله ، الذي كان القرآن في العهد المكي كله يتنزل لتثبيته في القلب وترسيخه وتوثيقه .. لأنه المعنى الذي تقوم عليه الحياة الإيمانية كلها : فلا تعبد إلا الله في عقيدة القلب ، ولا تعبد إلا الله في شعائر التعبد ، ولا تعبد إلا الله في التشريعات والتنظيمات التي تنظم علاقات البشر بعضهم ببعض ..

وما كان هذا الجهد كله الذي بذل في العهد المكي ـ واستمر في العهد المدني ـ ليعلم الناس أن هناك إلهاً ، فهم يعرفون ذلك بالفطرة بلا كتاب ولا رسول ، ولا ليعبدوا ذلك الإله بأي نوع من أنواع العبادة ، فهم يقومون بذلك من تلقاء أنفسهم !

إنما كان ليعلموا أنه إله واحد لا شريك له ، فيعبدوه وحده بلا شريك .. ويعبدوه

---

(١) سورة العلق [١ - ٥] .

كما أمرهم هو سبحانه أن يعبدوه .. لا على هوى أنفسهم ثم يزعموا أنهم عبّاد .. ومخلصون !

« اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء . قليلاً ما تذكرون »[1] .

فالعبادة الطاعة .. والطاعة اتباع ما **أنزل الله** ..

(١) سورة الأعراف [٣] .

الإيمان باليوم الآخر [٧]

يولي القرآن أهمية بالغة للإيمان باليوم الآخر حتى ليلحقه في كثير من المواضع بالإيمان بالله مباشرة ، إثباتاً ونفياً .. فيوصف المؤمنون بأنهم هم الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويوصف الكافرون بأنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، كما يوصف المنافقون بأنهم يزعمون بأنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر .

جاء في وصف المؤمنين :

« ليس البرَّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين .. » [١]

« ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر » [٢] .

« يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات ... » [٣]

« لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً » [٤] .

وجاء في شأن الكفار :

« قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله .. »

وجاء في شأن المنافقين :

« ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين » [٦] .

« والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر . ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قرينا » [٧] .

---

(١) سورة البقرة [١٧٧] .
(٢) سورة البقرة [٢٣٢] .
(٣) سورة آل عمران [١١٤] .
(٤) سورة الأحزاب [٢١] .
(٥) سورة التوبة [٢٩] .
(٦) سورة البقرة [٨] .
(٧) سورة النساء [٣٨] .

وهكذا يجيء الإيمان باليوم الآخر مرتبطاً ارتباطاً مباشراً بالإيمان بالله ومتمماً له [1] .

ولا عجب في ذلك في الحقيقة ، حين ننظر إلى الثمرة النهائية للإيمان بالله كما رأيناها فيما سبق ، وهي الطاعة الكاملة لله .. ولقد علم الله ـ وهو العليم بمن خلق ـ أن هذه الطاعة لا يتم تمامها ـ عند كثير من الناس على الأقل إن لم نقل كلهم ـ بمجرد الإيمان بالله ، إنما بالإيمان الراسخ بأن هناك بعثاً وحساباً ، وثواباً وعقاباً .. فيتجه المؤمن إلى الأعمال التي تقربه من الله اتقاء لعذابه وطمعاً في ثوابه .. فإذ كانت الطاعة ـ وهي ثمرة الإيمان بالله ـ ترتبط بعقيدة اليوم الآخر ، فلا عجب إذن أن يلحق الإيمان باليوم الآخر مباشرة بالإيمان بالله ..

* * *

ولقد نحسب لأول وهلة أن الحديث المستفيض عن اليوم الآخر في السور المكية كان سببه إنكار العرب البات للبعث والحساب والجزاء :

« وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد ؟! أفترى على الله كذباً أم به جنة ؟! » [2]

« أإذا متنا وكنا تراباً ؟ ذلك رجع بعيد » [3] .

وحقاً لقد كان هذا الإنكار البات الجازم في حاجة إلى حديث مستفيض حتى يزول عنه إصراره العنيد ..

ولكن استمرار الحديث عن اليوم الآخر في السور المدنية بعد أن قام المجتمع المسلم والدولة المسلمة ، ووجد جيل من الناس يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويجاهد في سبيل الله فيقتل ويقتل نتيجة إيمانه بالله واليوم الآخر كما وصفهم القرآن : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ـ ومن أوفى بعهده من الله ؟ ـ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به . وذلك هو الفوز العظيم » [4] .

---

(١) يلاحظ أن هذه الآيات كلها مدنية . أما في السور المكية فقد جاء حديث مستفيض عن اليوم الآخر : عن البعث والمساءلة والثواب والعقاب ووصف الجنة ووصف النار . ومعظم مشاهد القيامة هي في الحقيقة في السور المكية . ولكن لم يرد فيها ذلك الربط الجازم بين الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر لأن عقيدة البعث والجزاء كانت ما تزال تنشأ إنشاء في قلوب العرب المنكرين لها من قبل أشد الإنكار ، فجاء الحديث عنها مستقلاً في غالب الأحيان . أما في المدينة فكانت قد استقرت في وضعها النهائي ، وأبرزت كذلك في ميزانها النهائي ، وهي أنها هي المتممة للإيمان بالله ..

(٢) سورة سبأ [٧ – ٨] .

(٣) سورة قٓ [٣] .

(٤) سورة التوبة [١١١] .

استمرار الحديث عن اليوم الآخر بعد هذا دليل على أن الحديث المستفيض عن اليوم الآخر في السور المكية لم يكن كله بسبب إنكار المنكرين للبعث ، ولا كان كله موجهاً إلى أولئك المنكرين ! إنما كان جزء منه على الأقل موجهاً للذين آمنوا بالفعل بالله واليوم الآخر .. ثم هو دليل كذلك على أن الذين آمنوا بالفعل ليسوا في غنى عن التذكير باليوم الآخر ، إنما هم في حاجة دائمة إلى ذلك التذكير .. والله هو العليم بخلقه . فلو علم سبحانه أن مجرد حدوث الإيمان باليوم الآخر يكفي ، لما عاد القرآن لتذكيرهم المرة بعد المرة .. إنما علم الله أنه لا بد من التذكير .. وإعادة التذكير ! ولا بد إذن من سبب دائم يدعو إلى التذكير !

* * *

إن في النفس البشرية كما خلقها الله دوافع فطرية قوية متأصلة :

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث . ذلك متاع الحياة الدنيا ... » [1]

وقد كان لا بد ـ في تقدير الله وعلمه ـ أن تكون الدوافع قوية ومتأصلة ، لتكون حوافز للعمل والنشاط والإنتاج ، ودافعاً لعمارة الأرض . وهي جزء من عملية الخلافة التي خلق من أجلها الإنسان :

« وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة » [2] .

« هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » [3] .

فلو كانت هذه الدوافع ضعيفة بحيث يمكن إسكاتها أو التغاضي عن إلحاحها بسهولة لوقفت العقبات الكثيرة في الأرض بين الإنسان وبين القيام بمهمة العمارة والاستخلاف .. وإنما كانت قوتها لتستطيع **الصمود** لهذه العقبات والتغلب عليها ، والتمكن في النهاية من تحقيق ما كتبه الله من تسخير طاقات الكون للإنسان ، أو تحقيق الفائدة المتحصلة من ذلك التسخير :

« وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه » [4] .

ولكن الله الخالق العليم يعلم ـ سبحانه ـ أن هذه الدوافع إذا تركت وشأنها بغير ضابط فإنها تنقلب إلى « شهوات » :

(١) سورة آل عمران [١٤] .
(٢) سورة البقرة [٣٠] .
(٣) سورة هود [٦١] .
(٤) سورة الجاثية [١٣] .

« زين للناس حب الشهوات ... »

وعندئذ تصيب الإنسان بالعطب أو الهلاك .. وبدلاً من أن تكون عوناً له على عمارة الأرض والقيام بمهمة الخلافة الراشدة فيها ، فإنها تصبح قيداً يعوّق عن الانطلاق ، وشاغلاً يشغل عن مهام الخلافة الحقة ..

لذلك وضع الله في الفطرة ضوابط تضبط هذه الشهوات ، وتحدد منطلقها وتنظف مجراها ، وتردها من « شهوة » طاغية لا يملك الإنسان نفسه إزاءها ، إلى « رغبة » منضبطة ممكنة القياد ، ورسم حدوداً لتحقيق هذه الدوافع ، يتحقق بها قسط معقول من المتاع ، وتحول في الوقت ذاته دون العطب والهلاك ، للفرد والجماعة سواء :

« تلك حدود الله فلا تعتدوها »[1] .

« تلك حدود الله فلا تقربوها »[2] .

ثم علم الله أن هذه الضوابط الفطرية في داخل النفس في حاجة إلى معين يعينها على القيام بمهمتها ، وينميها ، ويشد من أزرها إزاء طغيان الشهوات ، فوضع لذلك العبادات التي تذكّر بالله ، وتدعو إلى تقواه :

« إن الصلاة **تنهى عن الفحشاء والمنكر** . ولذكر الله أكبر . والله يعلم ما تصنعون »[3].

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم **لعلكم تتقون** »[4] .

لكنه يعلم كذلك ـ سبحانه ـ أن تلك الدوافع أو الشهوات لها ثقلة تجذبها إلى الأرض .. وأنه لا بد من ثقل من الناحية الأخرى يعادل هذه الجاذبية العنيفة التي تثقل الإنسان إلى الأرض .. وذلك هو الإيمان باليوم الآخر ..

إنه لا شيء يمكن أن يقنع الإنسان بالتنازل عن المتاع الزائد عن الحد ، المدفوع إليه بفطرته ، والالتزام بالحدود التي رسمها الله لهذه الدوافع وأمر الناس ألا يعتدوها لكي لا يعطبوا ولا يهلكوا .. لا شيء يمكن أن يقنع الإنسان بذلك إلا الإيمان الجازم بأن ما يتركه هنا في الدنيا ـ من أجل طاعة الله ـ يلقاه في الآخرة مضاعفاً لا في الدرجة فحسب .. بل في النوع كذلك ، حيث النعيم الخالد الذي لا يزول ، والجنة التي فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . وأن ما يعصي الله فيه في الدنيا ـ اندفاعاً وراء شهواته ـ يعذب عليه عذاباً لا تطيقه النفوس والأبدان . وتصبح الموازنة حينئذ بين متاع

---

(١) سورة البقرة [٢٢٩] .

(٢) سورة البقرة [١٨٧] .

(٣) سورة العنكبوت [٤٥] .

(٤) سورة البقرة [١٨٣] .

هنا في الدنيا زائف زائل ، ليس أقل عيوبه ما يشوبه من القلق الدائم على انتهائه وزواله ، ومتاع هناك خالد لا يزول ، ومن نوع أجمل وأعمق وأمتع وأصفى .. وموازنة كذلك بين ألم من عدم تحقيق القدر الزائد من المتاع ، وهو محتمل في جميع أحواله ، وألم في الآخرة يفوق طاقة الاحتمال ..

وحين توضع الموازنة في هذه الصورة يكون من الحماقة الشديدة ولا شك إضاعة النعيم الخالد بالنعيم الزائل ، والدخول في العذاب الأليم الذي لا يطاق اتقاء لألم مؤقت لا يلبث أن يزول !

لذلك كان التركيز الشديد على عقيدة اليوم الآخر .. لأنها هي الثقل الذي يعادل جاذبية الشهوات ..

ثم إن العجينة البشرية عجينة عصية لا تستقر بسهولة في داخل القالب الذي تتحقق به سلامتها في الدنيا والآخرة . وإنما هي دائمة التلوّي والتحرك مندفعة خارج حدود القالب ، تريد أن تنفلت مع الشهوات .. ومن ثم فهي لا تنضبط مرة واحدة وينتهي الأمر ويستقر بها المقام ! إنما هي في حاجة إلى عملية ضبط دائمة لا تكل ولا تفتر ، لأنها هي لا تفتر عن الاندفاع والاندلاع [إلا أن تستقيم بعد طول المجاهدة وتطمئن إلى طريق الله] .. لذلك لا يكفي أن يذكّر الإنسان بالآخرة مرة ثم ينتهي الأمر ! إنما يحتاج الأمر إلى التذكير الدائم باليوم الآخر وحسابه ، وثوابه وعقابه .. وذلك ما يفعله القرآن !

* * *

هذا كله في الحياة العادية الآمنة المطمئنة التي يتاح لك فيها أن تستمتع بالقسط المباح من هذه الرغبات .. أو سمها الشهوات !

ولكن حياة الإنسان ـ المؤمن ـ لا تستقر على هذه الصورة السهلة الهينة اللينة التي يتاح فيها المتاع !

إن المؤمن مكلف في الأرض تكاليف ..

مكلف بإقرار منهج الله في الأرض ، لتكون كلمة الله هي العليا ، ويكون النظام الرباني هو القائم بين الناس :

« لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط . وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب . إن الله قوي عزيز »[1] .

---

(١) سورة الحديد [٢٥] .

ولكن الجاهلية لا تترك هذا الأمر يتم في يسر .. لم تصنع ذلك مرة واحدة خلال التاريخ !

ولا بد من جهاد لإقرار منهج الله ..

جهاد يحرم الإنسان حتى من المتاع المباح .. ويعرضه لأن يفقد ماله أو راحته أو أمنه أو أهله .. بل قد يعرّضه للتعذيب والتشريد .. وقد يعرضه للموت بوسيلة من وسائل القتل .. وذلك غير القتال في سبيل الله وما يصاحبه من المشقة والحرمان الذي يصل إلى الموت في ساحة القتال ..

فماذا يعوض المؤمن عن ذلك كله ، ويغريه بتحمل العذاب في الحياة الدنيا بشتى صنوفه ، إلا ذلك الإيمان الجازم بأن كل حرمان يتعرض له في الأرض ـ في سبيل مرضاة الله ـ جزاؤه النعيم الخالد الذي لا ينفد ؟ .. وماذا يمنعه من التقاعس ـ خوفاً من عذاب الأرض ـ إلا الإيمان الجازم بأن عذاب الله عن هذا التقاعس هو العذاب الأشد ، والذي يجل عن الاحتمال ؟!

« قل : إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها ، أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله ، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره . والله لا يهدي القوم الفاسقين » [1] .

« يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض ؟ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟ فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل . إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير » [2] .

« يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره ـ إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة ـ فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير » [3] .

« ولا تهنوا في ابتغاء القوم . إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله ما لا يرجون . وكان الله عليماً حكيماً » [4] .

« ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ،وقالوا : ربنا لم

---

(١) سورة التوبة [٢٤] .

(٢) سورة التوبة [٣٨ - ٣٩] .

(٣) سورة الأنفال [١٥ - ١٦] .

(٤) سورة النساء [١٠٤] .

كتبت علينا القتال ؟ لولا أخرتنا إلى أجل قريب ؟! قل متاع الدنيا قليل . والآخرة خير لمن اتقى ، ولا تظلمون فتيلا »[1] .

لذلك كان التذكير الدائم ـ للمؤمنين ـ باليوم الآخر ، لكي يتقووا على الجهاد ، ولا تقعد بهم مشقاته وعذاباته وحرمانه عن المضي فيه ابتغاء مرضاة الله .. ولهم على ذلك الجنة والنعيم المقيم ..

« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن . ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم »[2] .

* * *

تحفل السور المكية بمشاهد القيامة ، والحديث عن البعث والحساب ..

وقد كان بعض السبب كما قلنا إنكار العرب البات للبعث . وبعضه الآخر لضرورة تقرير هذه العقيدة وترسيخها في نفوس المؤمنين حتى تستقيم حياتهم في الأرض ، لأنها ـ كما علم الله ـ لا تستقيم بغير هذه العقيدة مستقرة راسخة عميقة ..

فأما العرب المنكرون للبعث فقد جادلهم أحياناً وواجههم أحياناً بأسلوب آخر أفعل في التأثير ، هو تصويرهم هم أنفسهم في نار جهنم يشتوون فيها ، أو بين يدي الله يوم البعث يسألهم فيجيبون والخزي يلفهم ويشملهم : إنهم كانوا كافرين ، وكانوا خاطئين ! أو يضرب عنهم صفحاً ، ويمضي يستعرض مشاهد القيامة غير ملتفت إليهم ، وإن كان المقصود في النهاية هو التأثير عليهم !

فأما الجدل فهو جدل منطقي ولكنه ليس منطق الذهن المجرد الذي يجعلها قضية ذهنية باردة لا تخرج من نطاق الذهن ولا تحرك الوجدان .. ذلك أن الذهن كثيراً ما « يقتنع » أو على الأقل يعجز عن المواجهة ومع ذلك لا يغير الإنسان موقفه ! إما عناداً ـ وهو أمر نفسي وحالة نفسية ـ وإما لأنه لم يقتنع « وجدانياً » بالقدر الذي يحركه من موقفه الجامد إلى موقف جديد !

وإن كثيراً من الناس ـ وخاصة الذين فتنتهم « العقلانية » الغربية في القرن التاسع عشر والقرن العشرين ـ ليمضون يبحثون عن « الدليل العقلي » في القرآن ، حتى إذا وجدوه مضوا فرحين به كأنما عثروا على الكنز الذي لا يقدر ! أو كأنما عثروا على الردّ المسكت ، الذي يردون به على أعداء الإسلام ، الذين يهاجمون القرآن بأنه لا يحوي

---

(١) سورة النساء [٧٧] .

(٢) سورة التوبة [١١١] .

أدلة عقلية ، وأنه لا يصمد للنقد العقلي ! !

وهؤلاء إن كانوا مخلصين ـ ولا نحسبهم إلا كذلك ـ فالله يأجرهم على إخلاصهم .. ولكن القضية ـ بعد ـ في حاجة إلى دراسة من ناحية أخرى لا تتأثر بتيارات الفكر الجاهلي .. سواء كان هو الفكر اليوناني الفلسفي القديم أو خلفاؤه في الجاهلية المعاصرة من عقلانية وما إليها .. [1]

إن كون القرآن لا يناقض العقل ولا ينافيه هذه قضية .. وكون « الدليل العقلي » في أمر الدين هو الجدير بالإكبار والتعظيم ، والتفضيل على غيره من الوسائل ، قضية أخرى مختلفة .. وجديرة بالمراجعة ..

إن القرآن كتاب تربية وتوجيه .. مهمته إنشاء الأمة المؤمنة التي تقوم بالخلافة الراشدة عن الله في الأرض ، والتي يتحقق فيها قوله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس . تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله .. » [2] وقوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » [3].

ولقد دعا القرآن إلى إعمال العقل على نطاق واسع شامل في جملة مهام **من أولها** التعرف على الله بتدبر آياته في الكون ، والتعرف على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم بدراسة احواله . وقال : « إن في ذلك لآية لقوم **يعقلون** » [4] . « إن في ذلك لآية لقوم **يتفكرون** » [5] « أفلا **يتدبرون** القرآن ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » [6]. « قل : إنما أعظكم بواحدة : أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم **تتفكروا** : ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد » [7] . « أو لم **يتفكروا** ؟ ما بصاحبهم من جنة . إن هو إلا نذير مبين » [8] .. الخ .. الخ .. ثم كلفه بعد ذلك بمهام تعطيه « عملاً كاملاً » لا بطالة فيه أبداً ، حيث كلفه بتدبر آيات الله في الكون مرة أخرى للتعرف على السنن التي يُجْري بها الله هذا الكون ، ليتمكن من استخلاص طاقاته ويحقق معنى

---

(١) يقرر سارتر في كتابه الذي يدافع فيه دفاعاً حاراً عن اليهود « تأملات في المشكلة اليهودية Reflections Sûr La Question Juive » الصادر سنة ١٩٤٨ بأن اليهود هم الذين أنشأوا العقلانية المعاصرة ليحاربوا بها العقيدة .. فما أحرانا أن نلتفت إلى ذلك !

(٢) سورة آل عمران [١١٠] .

(٣) سورة البقرة [١٤٣] .

(٤) سورة النحل [٦٧] .

(٥) سورة النحل [٦٩] .

(٦) سورة النساء [٨٢] .

(٧) سورة سبأ [٤٦] .

(٨) سورة الأعراف [١٨٤] .

تسخير السماوات والأرض من الله للإنسان ، ويبحث عن رزق الله المكنون في هذا الكون بالعلم النظري والتطبيقي . وكلفه بتدبر حكمة التشريع ليحسن تطبيقه في الأرض وكلفه بالتدبر في الوسائل والأسباب التي يصل بها إلى إقامة المجتمع الراشد ، بعد أن وعّاه سياسياً واقتصادياً واجتماعياً .. الخ . وكلفه أخيراً بتدبر سنة الله في الذين خلوا من قبل ، حتى يتحاشى ما أصابهم من سوء نتيجة بعدهم عن طريق الله .. وهي مهام أضخم بكثير وأشمل مما يخصصه أي نظام بشري للعقل البشري !

ولكن القرآن مع هذا كله لم يكل أمر الإيمان كله للعقل وحده سواء الإيمان بالله أو الإيمان باليوم الآخر .. وهذه هي القضية التي نلفت النظر إليها !

إن الإيمان يشمل الإنسان **كله** . والعقل واحد من جوانب الإنسان فحسب ، وليس هو كل الإنسان !

ولقد خاطب القرآن العقل ـ في شأن الإيمان ـ بما يمكن أن يدخل في نطاقه . ولكنه لم يكن ليقصر خطابه على العقل ، كما يريد « العقلانيون » سواء في أول التاريخ الإسلامي أو في آخره .. لأن معنى ذلك إهمال جوانب أخرى من الإنسان تتصل بالإيمان ، لا تقل أصالة عن العقل ، إن لم نقل إنها ـ في مجال الإيمان ـ أكثر وأعمق وصولاً إلى الله !

ولا ينبغي أن تفزعنا صيحات العقلانيين ، القدماء منهم أو المحدثين ، بأن الأمر ينبغي أن يعرض **كله** على العقل فيجيزه ، وإلا فهو خرافة لا تليق « بالإنسان » ! !

إن العقل نفسه قاصر عن أن يعرف كيف يعمل هو ذاته ! ! وتلك حقيقة « علمية » قد تفاجئنا لأول وهلة ، ولكنها حقيقة ! فالعقل لم يعرف بعد كيف تتم عملية التفكير في العقل البشري ، وكيف تتم عملية التذكر وإن كانت هذه وتلك من « الروتين » اليومي لذلك العقل !

أفإن كان بهذا القصور .. فهل يريد أن يستحوذ على عملية الإيمان كلها .. فإما أن تتم كلها عن طريقه وإما أن يرفضها ؟! !

كلا ! والله !

وإن الله الخالق العليم ليعلم أن للإيمان مداخل في القلب البشري غير العقل ، فلا يقصر الأمر على العقل وحده ، إنما يخاطب الروح بلغتها ويخاطب الوجدان ، بالطريقة الربانية المعجزة التي تصل إلى مكامن العقيدة كلها ولا تهمل واحداً منها يؤدي إلى الإيمان !

ذلك استطراد ، ربما طال بعض الشيء! ولكنا اضطررنا إليه بمناسبة الحديث عن طريقة القرآن في مجادلة العرب المنكرين للبعث ، فلم يجادلهم بالمنطق الذهني المجرد ، الذي لا يحرك الإنسان من موقفه الجامد ، إنما صاحب هذا المنطق دائماً حركة في الوجدان ليكون التأثير مضاعفاً ، ويكون ذلك أدعى للإيمان ..

* * *

« وقال الذين كفروا : هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد ؟ ! أفترى على الله كذباً أم به جنة ؟ ! بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد . أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ؟ إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كِسَفاً من السماء . إن في ذلك لآية لكل عبد منيب » [1] .

« وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه ! قال : من يحيي العظام وهي رميم ؟ ! قل : يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون . أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى ! وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون » [2] .

« بل قالوا مثل ما قال الأولون . قالوا : أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ؟ لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ! إن هذا إلا أساطير الأولين ! قل : لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله ! قل : أفلا تذكّرون ؟ ! قل : من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم ؟ سيقولون لله ! قل : أفلا تتقون ؟ قل : من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله ! قل : فأنّى تسحرون ؟ ! » [3]

« وقالوا : أإذا كنا عظاماً ورفاتاً أئناً لمبعوثون خلقاً جديداً ؟ ! قل : كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر في صدوركم ! ! فسيقولون : من يعيدنا ؟ ! قل : الذي فطركم أول مرة ! فسينغضون إليك رءوسهم ويقولون : متى هو ؟ قل : عسى أن يكون قريباً ! يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده ، وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً ! » [4]

« قٓ والقرآن المجيد . بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب ! أ إذا متنا وكنا تراباً ؟ ! ذلك رجع بعيد ! قد علمنا ما تنقص الأرض منهم ، وعندنا كتاب حفيظ . بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج . أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها ، وزيّناها ، وما لها من فروج ؟ والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماءً مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً . كذلك الخروج » [5] .

---

(١) سورة سبأ [٧ – ٩] .
(٢) سورة يٓس [٧٨ – ٨٣] .
(٣) سورة المؤمنون [٨١ – ٨٩] .
(٤) سورة الإسراء [٤٩ – ٥٢] .
(٥) سورة قٓ [١ – ١١] .

هذه ــ ومثلها في السور المكية كثير ــ نماذج من الجدل مع المكذبين بالبعث . إنه يورد الدليل العقلي الذي قوامه أن الله الذي خلق السماوات والأرض أول مرة ، والذي يحيي الأرض الموات فتزخر بالحياة والأحياء بعد أن كانت مقفرة ، والذي خلق هذا الإنسان المعقد التكوين أشد التعقيد من النطفة البسيطة .. قادر على أن يعيد الحياة للعظام وهي رميم ، ويبعث الناس من رقدتهم مرة أخرى .. ولكنه لا يورده قضية منطقية جافة ، ولا يحصره في محيط الذهن ، إنما يثير معه الوجدان بالتوقيع على أوتار القلب الفطرية التي أوردنا ذكرها من قبل في الحديث عن « الإيمان بالله » فينفعل الوجدان ويقتنع الذهن جميعاً في آن ..

أما الطريقة الثانية في مواجهتهم فهي رسم صورهم هم أنفسهم في العذاب يوم القيامة ! وهي طريقة مفزعة لهم ! تتجاوز أذهانهم المنكرة ، لا تخاطبها أصلاً ولا تدخل في جدل معها ، إنما تقتحم عليها إنكارها ، وتعرض عليها الصورة في جهنم ، وكأنما تقول لهم : أنتم تكذبون بالبعث والحساب ؟ إذن فانظروا إلى أنفسكم في مرآة الغد .. إنكم هؤلاء في جهنم ! !

وكونهم يوم القيامة في جهنم إذا أصروا على الكفر ، هذه حقيقة ولا شك . والقرآن يعرضها على أنها حقيقة مقررة . ولكنا هنا بصدد المكذبين أنفسهم ، وطريقة مخاطبتهم ..

إنهم منكرون للبعث أصلاً ، لا تصدقه عقولهم ولا نفوسهم .. ولكن القرآن ــ هنا ــ لا يجادلهم ليثبت لهم بالمنطق ــ أي نوع من المنطق ــ حقيقة البعث ، وإنما يلجأ إلى التأثير عليهم من جانب آخر ــ وجداني على الأكثر ــ وهو عرض صورهم عليهم وهم في نار جهنم ، لتنفعل وجداناتهم ــ بصرف النظر عن أذهانهم ــ فتقتنع اقتناعاً وجدانياً بحقيقة البعث :

« قتل الخراصون ، الذين هم في غمرة ساهون ، يسألون أيان يوم الدين ؟ يوم هم على النار يفتنون . ذوقوا فتنتكم ! هذا الذي كنتم به تستعجلون ! »[1]

« إن عذاب ربك لواقع ، ماله من دافع ، يوم تمور السماء موراً ، وتسير الجبال سيراً ، فويل يومئذ للمكذبين ، الذين هم في خوض يلعبون . يوم يدعّون إلى نار جهنم دعاً : هذه النار التي كنتم بها تكذبون ! أفسحر هذا ؟! أم أنتم لا تبصرون ! ! اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم ! إنما تجزون ما كنتم تعملون ! »[2]

« أكفاركم خير من أولئكم ؟ أم لكم براءة في الزبر ؟ أم يقولون : نحن جميع

---

(١) سورة الذاريات [١٠ – ١٤] .

(٢) سورة الطور [٧–١٦] .

منتصر ؟! سيهزم الجمع ويولون الدبر . بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمرّ ! إن المجرمين في ضلال وسعر ، يوم يسحبون في النار على وجوههم : ذوقوا مسّ سقر ! » [1]

« قل : إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم . ثم إنكم أيها الضالون المكذبون ، لآكلون من شجر من زقوم ، فمالئون منها البطون ، فشاربون عليه من الحميم ، فشاربون شرب الهيم . هذا نزلهم يوم الدين » [2] .

« إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين . يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون ، إلا من رحم الله ، إنه هو العزيز الرحيم . إن شجرة الزقوم ، طعام الأثيم ، كالمهل يغلي في البطون ، كغلي الحميم . خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم . ذق إنك أنت العزيز الكريم ! إن هذا ما كنتم به تمترون » [3] .

وأما الطريقة الثالثة فهي كذلك تعرض صورهم يوم القيامة في جهنم [وصور المؤمنين في الجنة] ولكن بغير خطاب مباشر للمنكرين لحقيقة البعث . فكأنما هي تتجاهلهم ــ في الظاهر ــ ولا تفرض لهم وجوداً ولا تلتفت إليهم ، وإنما تعرض الحقائق قائمة بذاتها ، فمن شاء أن يؤمن فليؤمن ، وهو خير له . ومن أصر على إنكاره فلينظر ماذا يُفعل بأمثاله يوم القيامة ! وهي طريقة كذلك من طرق التأثير الوجداني القوي المفعول . فإن الإنسان بطبعه يعقد بين نفسه وبين « بطل » القصة المعروضة مقارنة خفية ــ واعية أو غير واعية ــ فإن ناله خير تمنى أن يكون مكانه ، وإن ناله شر تمنى أن يكون هو في نجوة منه ! ومن هنا يدخل التأثير في قلوب أولئك المعاندين حين يرون « أمثالهم » يعذبون في نار جهنم ، ويرون المؤمنين ناجين في النعيم ، فتهفو قلوبهم إلى المشاركة في ذلك النعيم ، والفرار من ذلك الجحيم ، وينسون في غمرة التأثير إنكارهم للبعث أو على الأقل يهتز موقفهم منه [وذلك يحدث أيضاً في الطريقة السابقة] فتلين قلوبهم للتسليم :

« يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته ؟ أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا : أيـن ما كنتم تدعون من دون الله ؟ قالوا : ضلوا عنا ! وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين . قال : ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار . كلما دخلت أمة لعنت أختها ، حتى إذا ادّاركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم : ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً

---

(١) سورة القمر [٤٣ – ٤٨] .

(٢) سورة الواقعة [٤٩ – ٥٦] .

(٣) سورة الدخان [٤٠ – ٥٠] .

من النار ! قال : لكل ضعف ولكن لا تعلمون ! وقالت أولاهم لأخراهم : فما كان لكم علينا من فضل ! فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ! إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتّح لهم أبواب السماء ، ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سَمِّ الخياط ! وكذلك نجزي المجرمين ، لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش ! وكذلك نجزي الظالمين . والذين آمنوا وعملوا الصالحات ـ لا نكلف نفساً إلا وسعها ـ أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . ونزعنا ما في صدورهم من غل ، تجري من تحتهم الأنهار ، وقالوا : الحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . لقد جاءت رسل ربنا بالحق . ونودوا : أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون . ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن : قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ قالوا : نعم ! فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين ، الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة كافرون . وبينهما حجاب ، وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم ، ونادوا أصحاب الجنة أن : سلام عليكم ! لم يدخلوها وهم يطمعون ! وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا : ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ! ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم ، قالوا : ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون ؟ أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ؟! ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ! ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن : أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ! قالوا : إن الله حرمهما على الكافرين ، الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا . فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون » [1] .

إنه شريط حافل بالحركة والحوار والمشاهد المتقابلة .. ولعله أطول « عرض » في القرآن كله لمشاهد القيامة .. وإنه ليعرض صور المكذبين وصور المؤمنين يوم القيامة على « المتفرجين » هنا في الدنيا ليرى المكذبون صور « أمثالهم » في عذاب جهنم ـ بل صورهم هم في الحقيقة ، وإن كان هنا لا يقول لهم ذلك ويدعهم يتفرجون ليتأثروا بالعرض عن طريق غير مباشر ـ ويروا صور المؤمنين المصدقين رافلين في النعيم ، فتتأثر وجداناتهم وتلين قلوبهم للتصديق !

* * *

على هذا المنوال تجري « مشاهد القيامة » في السور المكية [2] .. ويلفت نظرنا فيها ثلاثة أمور بصفة خاصة :

---

(١) سورة الأعراف [٣٥ – ٥١] .

(٢) انظر بالتفصيل ـ إن شئت ـ كتاب « التصوير الفني في القرآن » و« مشاهد القيامة في القرآن » لسيد قطب .

الأول : أنها في الغالبية العظمى منها ـ باستثناءات قليلة جداً ـ تجمع بين مشاهد العذاب ومشاهد النعيم في سياق واحد ، وذلك يجيء على خطين مختلفين يلتقيان في النهاية كأنهما شيء واحد !

فهذا الحديث أولاً ليس موجهاً للكافرين المكذبين وحدهم ، ولكنه موجه للمؤمنين كذلك . وإذا كان المكذبون وحدهم قد اختصوا بالجانب الأول من الحديث ، وهو الجدل المنطقي الوجداني لإثبات أن الله قادر على بعث الموتى ومساءلتهم يوم القيامة [إذ المؤمنون مصدقون بذلك وليسوا في حاجة إلى إثبات] إلا أنهم ـ أي المؤمنين ـ حتى في هذا الجانب مدعوون للمشاهدة ! ليروا تلك النماذج العجيبة من البشر ويتعجبوا من انطماس بصيرتها ، فيزيدهم ذلك ـ بوعي أو بغير وعى ـ تثبتاً وإيماناً بقضية البعث ، على نمط ما جاء في سورة المدثر :

« وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ، وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ، ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ، ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون . وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون : ماذا أراد الله بهذا مثلاً ؟ ! كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء .. » [1]

أما المواضع التي تعرض فيها مشاهد تعذيب الكافرين المنكرين مع توجيه الخطاب المباشر إليهم ليروا أنفسهم مباشرة في عذاب جهنم ، وتلك التي تعرض فيها مشاهدهم دون التفات مباشر إليهم .. في كليهما تجيء صور المؤمنين في النعيم ـ إلى جانب صور العذاب ـ سواء وجه الخطاب المباشر إلى المؤمنين أم حكى السياق عنهم مجرد حكاية ، لأن الخطاب موجه في الحقيقة ـ بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ـ للفريقين معاً : المؤمنين والمكذبين . ولذلك تجيء مشاهد النعيم إلى جانب مشاهد العذاب ، فيجد كل فريق ما يخصه من هذه المشاهد .

هذا هو الخيط الأول في نسيج العرض ..

أما الخيط الثاني ، المتداخل معه في نسيج الصورة ذاتها ، فهو أن مشاهد النعيم والعذاب واردة لكل شخص بمفرده ، في ذات الوقت الذي يختص فيه كل فريق بجانب من جوانبها !

إن القرآن يربي النفس البشرية من جميع جوانبها ، وينفذ إليها من جميع منافذها . والخوف والرجاء هما أعمق خطوط النفس البشرية وأعظمها أثراً في حياتها ..

فكل نفس بشرية تولد وفي أعماقها هذان الخطان الفطريان : خط ينفعل بالخوف ،

---

(١) سورة المدثر [٣١] .

وخط يتحرك بالرجاء . وهما متجاوران ومتقابلان في بنية النفس ، يتحركان ــ في الغالب ــ معاً ، ويؤثران معاً في تحديد مسار الحياة ؛ فعلى قدر ما يخاف الإنسان ويرجو ، وبنوع ما يخاف ويرجو ، تتحدد قيمه وسلوكه ومنهج حياته كله .. [1] .

والقرآن ــ في منهجه الشامل المتكامل ، المتوازن في ذات الوقت [2] ــ يوقع على الخطين معاً : : خط الرجاء وخط الخوف ، بما نسميه أحياناً : الترغيب والترهيب .. فيأخذ كل خط حظه من التوقيع ، وينفعل الخطان معاً فيؤثران في أعماق النفس ..

فالشخص ــ المؤمن ــ تعرض عليه مشاهد النعيم والعذاب معاً على سبيل الترغيب والترهيب ، ليتطلع إلى نعيم الجنة فيسعى إليها سعيها ، ويفزع من صور العذاب فيخاف أن يقع فيها ، فيبتعد جهده عن كل عمل يعرضه للوقوع فيها ..

وهكذا يلتقي الخطان في النسيج الواحد ، كلٌّ يؤدي مهمة خاصة ، ثم يجتمعان في صورة واحدة فلا تكاد تحس أنهما خطان مختلفان .. وذلك من الإعجاز ..

* * *

الأمر الثاني الذي يلفت النظر في مشاهد القيامة في عمومها ، سواء المكي منها والمدني ، أنها تعرض ألواناً من النعيم والعذاب تشمل الحسيات والمعنويات ..

إن الحسية والمعنوية كلاهما خط من الخطوط المتقابلة في النفس البشرية .. والقرآن الذي يوقع على كل خطوط النفس وينفذ إليها من جميع منافذها ، يستخدم الحسيّ والمعنوي معاً في الترغيب والترهيب .

فالعذاب تارة حسيّ بحت :

« إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق » [3] .

« أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم ؟ إنا جعلناها فتنة للظالمين . إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم . طلعها كأنه رءوس الشياطين . فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون . ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم . ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم » [4] .

« إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب . إن الله كان عزيزاً حكيماً » [5] .

---

(١) انظر فصل « خطوط متقابلة في النفس البشرية » من كتاب « منهج التربية الإسلامية » الجزء الأول .

(٢) انظر فصل « خصائص المنهج » في الكتاب السابق .

(٣) سورة البروج [١٠] .

(٤) سورة الصافات [٦٢ – ٦٨] .

(٥) سورة النساء [٥٦] .

وتارة هو عذاب معنوي بحت :

« .. ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون » [1] .

« ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا . يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلا . لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني . وكان الشيطان للإنسان خذولا» [2].

« يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه . لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » [3] .

وتارة هو حسيّ ومعنوي في ذات الوقت ، وهو الأغلب في مشاهد العذاب :

« والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة . ما لهم من الله من عاصم . كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلما . أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » [4] .

« بل كذّبوا بالساعة ، وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا . إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً . وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا . لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا » [5] .

« وبرزت الجحيم للغاوين . وقيل لهم : أين ما كنتم تعبدون من دون الله ؟ هل ينصرونكم ؟ أو ينتصرون ؟ فكبكبوا فيها هم والغاوون ، وجنود إبليس أجمعون . قالوا وهم فيها يختصمون : تـالله إن كنا لفي ضلال مبين ، إذ نسويكم برب العالمين . وما أضلنا إلا المجرمون ! فما لنا من شافعين ، ولا صديق حميم . فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين ! ! » [6] .

« وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب ! قالوا : أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟ قالوا : بلى ! قالوا : فادعوا ! وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » [7] .

« هذان خصمان اختصموا في ربهم ، فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رءوسهم الحميم ، يصهر به ما في بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد ، كلما

---

(١) سورة فصلت [١٦] .
(٢) سورة الفرقان [٢٧ — ٢٩] .
(٣) سورة عبس [٣٤ — ٣٧] .
(٤) سورة يونس [٢٧] .
(٥) سورة الفرقان [١١ — ١٤] .
(٦) سورة الشعراء [٩١ — ١٠٢] .
(٧) سورة غافر [٤٩ — ٥٠] .

أرادوا أن يخرجوا منها من غـم أعيدوا فيها ، وذوقوا عذاب الحريق » [1] .

والنعيم كذلك .. تارة حسيّ بحت (أو حسّي غالب) :

« وأصحاب اليمين ، ما أصحاب اليمين ؟ في سدر مخضود ، وطلح منضود ، وظل ممدود ، وماء مسكوب ، وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة . وفرش مرفوعة . إنا أنشأناهن إنشاء ، فجعلناهن أبكاراً ، عربا أترابا لأصحاب اليمين » [2] .

« فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً ، وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا ، متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا . ودانية عليهم ظلالها ، وذللت قطوفها تذليلا ، ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا ، قوارير من فضة قدروها تقديرا ، ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلا ، عينا فيها تسمى سلسبيلا . ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثورا ، وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا . عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق ، وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهورا . إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا » [3] .

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا . أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار ، يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق ، متكئين فيها على الأرائك ، نعـم الثواب وحسنت مرتفقا » [4] .

وتارة معنوي بحت :

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا » [5] .

« وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا ، حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها ، وقال لهم خزنتها : سلام عليكم ! طبتم ! فادخلوها خالدين . وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء . فنعم أجر العاملين . وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم ، وقضي بينهم بالحق ، وقيل الحمد لله رب العالمين » [6] .

---

(١) سورة الحج [١٩ – ٢٢] .

(٢) سورة الواقعة [٢٧ – ٣٨] .

(٣) سورة الإنسان [١١ – ٢٢] .

(٤) سورة الكهف [٣٠ – ٣١] .

(٥) سورة مريم [٩٦] .

(٦) سورة الزمر [٧٣ – ٧٥] .

« إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون . لا يسمعون حسيسها ، وهم في ما اشتهت أنفسهم خالدون . لا يحزنهم الفزع الأكبر ، وتتلقاهم الملائكة : هذا يومكم الذي كنتم توعدون »[1] .

وتارة حسي ومعنوي في ذات الوقت ، وهو الأغلب في مشاهد النعيم :

« إن المتقين في جنات ونعيم ، فاكهين بما آتاهم ربهم ، ووقاهم ربهم عذاب الجحيم . كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون . متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين . والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء . كل امرئ بما كسب رهين . وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون ، يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم ، ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون . وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قالوا : إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين ، فمنّ الله علينا ووقانا عذاب السموم . إنا كنا من قبل ندعوه . إنه هو البرّ الرحيم »[2] .

« جنات عدن يدخلونها ، يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ، ولباسهم فيها حرير . وقالوا : الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ، إن ربنا لغفور شكور . الذي أحلنا دار المقامة من فضله ، لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب »[3] .

* * *

ولقد كان فريق من « المثقفين ! » لا يعجبه أن ترد مشاهد العذاب في القرآن ! لأن هذه قسوة لا يطيقها « الضمير الإنساني » الراقي ! وفريق آخر لا يعجبه أن يرد ذكر النعيم الحسي والعذاب الحسي لأن هذا يناسب الإنسان البدائي .. أما « الإنسان الراقي » فيناسبه النعيم النفسي والعذاب النفسي ! وتكفيه الإشارة !

« إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه . فاستعذ بالله . إنه هو السميع البصير »[4] .

ولا نسأل أولئك « المثقفين » أين هو الضمير الإنساني الراقي في تلك الأرض التي تسفك فيها الدماء وتسفح الأعراض وتسرق الأموال وتغتصب كرامة « الإنسان » في كل مكان ، ويأكل القوي الضعيف كوحوش الغاب ، بغير « نظافة » الوحش ، الذي يقتل ــ جائعاً ــ ليأكل ، وهذا « الإنسان الراقي » يقتل وهو شبعان !

---

(١) سورة الأنبياء [١٠١ – ١٠٣] .
(٢) سورة الطور [١٧ – ٢٨] .
(٣) سورة فاطر [٣٣ – ٣٥] .
(٤) سورة غافر [٥٦] .

لا نسألهم عن ذلك لأن القرآن يبين لنا حقيقة أمرهم : « إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه » .

ونقول فقط إن هذا القرآن للبشرية كافة ، على اختلاف مستوياتها النفسية والروحية والاجتماعية والحضارية . وأن كل مستوى من البشر يجد فيه حاجته ، ويجد انعكاس نفسه فيه كما ينظر في المرآة .. ويتفاعل معه بقدر ما يفتح قلبه وبصيرته إليه .

ثم نقول إنه لا يوجد الإنسان الواحد في البشرية كلها الذي يعيش بمعنوياته وحدها دون حسياته .. وإنه إذا كان الإنسان ـ في أرقى حالاته ـ يستطيع أن يرفرف في عالم الروح لحظة ، ويهوم في عالم المعنويات لحظات ، فإن هذا لا يمكن أن ينسيه جسده وحواسه ، وإلا فقد بشريته وأصبح شيئاً آخر غير « الإنسان » .. إنما « الإنسان » هو ذلك المزيج المترابط من الجسد والروح ، الذي يعيش بحسياته ومعنوياته معاً .. يجنح أحياناً إلى جانب الحس أكثر ، ويجنح أحياناً أخرى إلى جانب الروح أكثر ، ولكنه دائماً هو هذا المزيج المترابط من الجسد والروح ، من الحسيّ والمعنويّ .. لا ينفصلان .

والقرآن ـ بواقعية منهجه في معالجة النفس الإنسانية ـ يأخذ الإنسان كما هو ، ويخاطبه بالطريقة التي يعلم الله سبحانه أنها هي التي تؤثر فيه ، وتصل إلى أعماق قلبه . وتهزه فيستجيب .. ومن هنا يحدثه عن النعيم الحسي والعذاب الحسي مرة ، وعن النعيم النفسي والعذاب النفسي مرة .. ويزاوج بينهما مرات !

والله هو العليم ببواطن النفوس .. بما فيها نفوس أولئك « المثقفين » الذين يزعمون الترفع على المتاع الحسي وهو نظيف ، ثم يغرقون في المتاع الدنس إلى الأذقان !

* * *

والأمر الذي يلفت نظرنا أخيراً في حديث القرآن عن الآخرة ، أنه ـ بطريقته التعبيرية المعجزة ـ يحيي مشاهد القيامة حتى لكأن الإنسان يراها معروضة أمامه اللحظة ، وينفعل بها كأنه يراها في عالم العيان بالفعل ، وليست أموراً يتصور حدوثها في المستقبل .. بل يصل الإعجاز البياني في التعبير القرآني إلى حد أن تصبح الآخرة ـ التي لم تأت بعد ـ كأنها الحاضر الذي يعيشه الإنسان ، ويصبح الحاضر الذي يعيشه بالفعل كأنه ماض سحيق تفصله عن الإنسان آماد وأبعاد :

« إنا **كنا** من قبل ندعوه . إنه هو البر الرحيم » [1] .

« إنهم **كانوا** قبل ذلك مترفين . **وكانوا** يصرون على الحنث العظيم . **وكانوا** يقولون : أإذامتنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ؟ أو آباؤنا الأولون ؟! » [2]

---

(١) سورة الطور [٢٨] .

(٢) سورة الواقعة [٤٥ – ٤٨] .

إن الذين **كانوا** من قبل يدعون الله .. والذين **كانوا** قبل ذلك مترفين .. هم هم الأحياء الذين يخاطبهم القرآن في وقت تنزله عليهم . ولكن السياق القرآني يسحب شريط الزمن كله ، حتى ليصبح حاضرهم الذي يعيشونه بالفعل هو الماضي السحيق الذي يتذكرونه اليوم مجرد تذكر ، ويصبح المستقبل البعيد المغلف بأستار الغيب هو الحاضر المشهود الذي يرونه بأعينهم .. وذلك هو ذات المقصود من التعبير القرآني .. فالهدف المطلوب هو أن يَبْرُزَ للناس وهم يقرأون القرآن مصيرهم يوم القيامة مجسماً واضحاً بحيث يستيقنون من هذا المصير .. فيؤثر ذلك بالتالي في سلوكهم الحاضر ، فيؤمنون ويعملون الصالحات لينعموا بهذا النعيم الذي يرونه مجسماً أمامهم ، ويتركون ما يجر عليهم العذاب الذي يشاهدونه مجسماً كذلك .. والإعجاز البياني يصل إلى هذا التأثير بكلمات قليلة ، تحمل من النبض والإيقاع والصور الحية الشاخصة ما يطوي الزمن كله في لحظات .. أو في كلمات !

هذا التصوير المبدع لمشاهد القيامة ، هو الذي جعل الجيل الأول من المسلمين يعيش بوجدانه في الآخرة وهو يخطو بجسده على الأرض . وأوجد في نفوسهم تلك الحساسية الهائلة في كل تصرف يتصرفونه ، خشية أن يحرمهم من النعيم ويؤدي بهم إلى النار ..

وهو الذي جعلهم كذلك يعيشون بوجدانهم في الآخرة فيستبطئون خطواتهم على الأرض ، شوقاً للقاء الجنة ، ولقاء الله .. حتى ليقول أحدهم في ساحة القتال : أليس بيني وبين الجنة إلا أن أقتل هذا الرجل أو يقتلني ؟! ويندفع إلى القتال كأنه ذاهب إلى عرس . ويأخذ آخر تمرات يتقوت بها وهو مقدم على المعركة ، ثم يحركه الشوق للقاء الجنة ولقاء الله فيلقي التمرات من يده ويقول : لئن بقيت حتى آكلها إن هذا لأمر يطول !

وكذلك يفعل الإيمان باليوم الآخر حين يستقر في النفس ويرسخ ، فيعيش الإنسان بوجدانه في الآخرة ، بينما هو بكل طاقته يعمل في الأرض !

الإيمان بالملائكة والكتاب والنبيّين .. والقدر خيره وشرّه

لا تكتمل عقيدة المسلم حتى يؤمن بوجود الملائكة [والجن كذلك] ويؤمن بالقرآن والكتب المنزلة من قبله ، ويؤمن بالوحي والنبوة ، ويؤمن كذلك بالقدر خيره وشره ، أنه من عند الله ، وأنه لا متصرف فيه سوى الله ..

« ليس البرَّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ... » [١]

« وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا : أنصتوا ، فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين » [٢] .

« قل : أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا : إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحدا » [٣] .

« وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير » [٤] .

« وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا رادّ لفضله ، يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم » [٥] .

وتلك كلها من « الإيمان بالغيب » الذي وصف الله به عباده المؤمنين :

« آلٓمٓ . ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين **الذين يؤمنون بالغيب** ... » [٦]

* * *

تتحدث السور المكية عن هذه الموضوعات كلها كجزء متمم للعقيدة بعد الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر ، اللذين يستغرقان ــ من حيث الحجم ــ أكبر مساحتين في

---

(١) سورة البقرة [١٧٧] .
(٢) سورة الأحقاف [٢٩] .
(٣) سورة الجن [١ – ٢] .
(٤) سورة الأنعام [١٧] .
(٥) سورة يونس [١٠٧] .
(٦) سورة البقرة [١ – ٣] .

السور المكية بهذا الترتيب : الإيمان بالله أولاً ، ثم الإيمان باليوم الآخر .

وقد كانت هناك ولا شك ملابسات معينة في الفترة المكية استدعت الحديث عن هذه الموضوعات ..

فقد كان العرب يؤمنون بالملائكة ولكن على أنها بنات الله ثم يعبدونها على هذا الأساس ! فلزم تصحيح هذا الاعتقاد الفاسد :

« وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ! أشهدوا خلقهم ؟ ستكتب شهادتهم ويسألون . وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ! ! ما لهم بذلك من علم . إن هم إلا يخرصون » [1] .

« فاستفتهم : ألربك البنات ولهم البنون ؟! أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ؟ ألا إنهم من إفكهم ليقولون : ولد الله ! وإنهم لكاذبون . أصطفى البنات على البنين ؟ ما لكم ! كيف تحكمون ! أفلا تذكّرون ؟! » [2] .

كذلك كانوا يجعلون بينه سبحانه وتعالى وبين الجن نسبا ، ثم يعبدونهم بناء على ذلك ! فلزم كذلك تصحيح هذا الاعتقاد :

« وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ! ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون . سبحان الله عما يصفون » [3] .

« وجعلوا لله شركاء ، الجن ، وخلقهم ! وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ، سبحانه وتعالى عما يصفون . بديع السماوات والأرض ، أنّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شيء ، وهو بكل شيء عليم » [4] .

ثم كانوا لا يؤمنون بالقرآن ولا بالكتب المنزلة من قبله :

« وقال الذين كفروا : لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه » [5] .

وكانوا ينكرون الوحي أصلاً :

« وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء » [6] .

كما كانوا بطبيعة الحال ينكرون نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ونبوة موسى وعيسى عليهما السلام إذ لم يتبعوهما وإن كانوا يستخدمون اسميهما في الجدل فقط مع الرسول صلى الله عليه وسلم :

---

(١) سورة الزخرف [١٩ – ٢٠] .

(٢) سورة الصافات [١٤٩ – ١٥٥] .

(٣) سورة الصافات [١٥٨ – ١٥٩] .

(٤) سورة الأنعام [١٠٠ – ١٠١] .

(٥) سورة سبأ [٣١] .

(٦) سورة الأنعام [٩١] .

« فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا : لولا أوتي مثل ما أوتي موسى ! أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل ؟! قالوا : سحران تظاهرا ! وقالوا : إنا بكل كافرون ! » [1] .

« ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يَصِدّون . وقالوا : أآلهتنا خير أم هو ؟ ما ضربوه لك إلا جدلا ! بل هم قوم خصمون » [2] .

أما القدر فمع إيمانهم النظري بأنه من عند الله ، فقد كانوا يرون أن آلهتهم ـ أو كهنتهم ـ قادرون على رد هذا القدر وتغييره والتصرف فيه كيف يشاءون ..

وهذه الانحرافات الاعتقادية كلها كانت في حاجة إلى تصويب .. فضلاً على كونها في الحقيقة متصلة كلها بأصل العقيدة في الله ، وبالتصور الصحيح لله ..

* * *

لا يستقيم التصور الصحيح لله سبحانه إذا لم ينزه عن كل لون من ألوان الشرك على الإطلاق . سواء الشرك في الاعتقاد أو الشرك في الاتباع ، وهما متصلان في الحقيقة .

وكل تصور بأن لله بنين أو بنات ، أو شركاء من أي نوع يشاركونه ـ سبحانه ـ في تدبير الأمر وتصريفه ، هو ـ بالإضافة إلى مخالفته للحقيقة الربانية ـ فساد في العقيدة لا تستقيم به حياة البشر على الأرض . ومن ثم فهو يخطئ خطيئتين ، أو خطيئة ذات شقين : خطيئة في حق الله الواحد المنزه عن الشريك ، وخطيئة في حق الإنسان الذي يتصور ذلك التصور الفاسد ، فتضطرب حياته في الدنيا ، وهو في الآخرة من الخاسرين : « خسر الدنيا والآخرة . ذلك هو الخسران المبين » [3] .

وفي سبيل تصحيح الاعتقاد ، بما ينبغي لله سبحانه وتعالى من الإقرار الكامل بالألوهية والربوبية ، والتنزيه الكامل عن الشريك تحدث القرآن في السور المكية في كثير من المواضع عن الأولاد والبنات المنسوبين لله سبحانه من جن وملائكة ، كما تحدث عن الآلهة المزعومة الأخرى التي يعبدها أصحابها لتقربهم ـ في وهمهم ـ إلى الله زلفى :

« تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ، الذي له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديرا . واتخذوا من دونه آلهة لا يَخْلقون شيئاً وهم يُخْلقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشورا » [4] .

« ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول : أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء ؟ أم

---

(١) سورة القصص [٤٨] .

(٢) سورة الزخرف [٥٧ – ٥٨] .

(٣) سورة الحج [١١] .

(٤) سورة الفرقان [١ – ٣] .

هم ضلوا السبيل ؟ قالوا : سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ، ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بورا . فقد كذبوكم بما تقولون ، فما تستطيعون صرفا ولا نصرا . ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً » [1] .

« ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا : سبحانك أنت ولينا من دونهم . بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون . فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ولا ضرا . ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون » [2] .

« وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ــ سبحانه ! ــ بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ، وهم من خشيته مشفقون . ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم ، كذلك نجزي الظالمين » [3] .

« ألا لله الدين الخالص . والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ! إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون . إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار » [4] .

وكان هذا كله وارداً في سياق التعريف بالله سبحانه ، وبيان حقيقة الوحدانية التي لا يدخل فيها شريك .

وتحدث القرآن في السور المكية كذلك في كثير من المواضع عن القرآن والوحي والنبوة إزاء تكذيب العرب لذلك كله ، واستكثارهم على بشر أن يوحي الله إليه ، ثم استكثارهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون هو المختار للوحي ــ على فرض تسليمهم بحقيقة الوحي ــ وقولهم إن القرآن كلام شاعر أو وحي كاهن أو رئى من الجن ! !

« وقال الذين كفروا : إن هذا إلا إفك افتراه ، وأعانه عليه قوم آخرون ! فقد جاءوا ظلما وزورا . وقالوا : أساطير الأولين اكتتبها ، فهي تملى عليه بكرة وأصيلا ! قل : أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض ، إنه كان غفورا رحيما » [5] .

« ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ! لسان الذي يلحدون إليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين » [6] .

---

(١) سورة الفرقان [١٧ – ١٩] .
(٢) سورة سبأ [٤٠ – ٤٢] .
(٣) سورة الأنبياء [٢٦ – ٢٩] .
(٤) سورة الزمر [٣] .
(٥) سورة الفرقان [٤ – ٦] .
(٦) سورة النحل [١٠٣] .

« وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين ، على قلبك ، لتكون من المنذرين ، بلسان عربي مبين . وإنه لفي زبر الأولين . أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل ؟ ولو نزلناه على بعض الأعجمين ، فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين . كذلك سلكناه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم ، فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون »[1] .

« والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى . علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى . ما كذب الفؤاد ما رأى . أفتمارونه على ما يرى ؟! ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى . ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى »[2] .

« فلا أقسم بما تبصرون ، وما لا تبصرون ، إنه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر . قليلا ما تؤمنون . ولا بقول كاهن ، قليلا ما تذكّرون . تنزيل من رب العالمين . ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين »[3] .

« ولما جاءهم الحق قالوا : هذا سحر ، وإنا به كافرون . وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ؟! أهم يقسمون رحمة ربك ؟! نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخريا ، ورحمة ربك خير مما يجمعون »[4] .

« وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ! ويقولون إنه لمجنون ! وما هو إلا ذكر للعالمين »[5] .

« فلا أقسم بالخنس ، الجوارِ الكنس ، والليل إذا عسعس ، والصبح إذا تنفس ، إنه لقول رسول كريم ، ذي قوة عند ذي العرش مكين ، مطاعٍ ثم أمين . وما صاحبكم بمجنون . ولقد رآه بالأفق المبين ، وما هو على الغيب بضنين . وما هو بقول شيطان رجيم . فأين تذهبون ؟! إن هو إلا ذكر للعالمين ، لمن شاء منكم أن يستقيم ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين »[6] .

* * *

(١) سورة الشعراء [١٩٢-٢٠٢] .
(٢) سورة النجم [١ – ١٨] .
(٣) سورة الحاقة [٣٨ – ٤٧] .
(٤) سورة الزخرف [٣٠ – ٣٢] .
(٥) سورة القلم [٥١ – ٥٢] .
(٦) سورة التكوير [١٥ – ٢٩] .

على هذا النسق الذي ذكرنا نماذج منه يجري الحديث في السور المكية عن البنين والبنات والشركاء ، وعن القرآن والوحي والنبوة .. وكلها كما ذكرنا متصلة بأصل العقيدة في الله . وكلها يجيء في سياق التعريف بالمعنى الحقيقي للا إله إلا الله .

إن الاعتقاد بوجود آلهة أخرى مع الله ـ صغيرة أو كبيرة ـ فوق مخالفته للحقيقة الربانية ، يحدث سلوكاً غير إيماني في واقع الأرض . فالسلوك دائماً مرتبط بالتصور . وحين يتصور الإنسان أن هناك آلهة مع الله ، تشاركه في أي صفة من صفاته ، وتشاركه في تدبير الأمر وتصريفه ، فسيكون الولاء موزعاً دون شك بين الله وبين هذه الآلهة المدعاة ، والطاعة والاتباع موزعين كذلك بين الآلهة وبين الله .

بل حقيقة الأمر أنه على الرغم من التسليم النظري لدى أولئك المشركين بأن الله هو « رب الأرباب » ، أو بلغة الوثنية اليونانية هو « كبير الآلهة » .. إلا أنه في السلوك الواقعي كان الولاء والطاعة لهذه الآلهة أكبر من الولاء والطاعة لله ، هذا إن بقيت ثمة طاعة لله من أي نوع بعد هذا الشرك القائم في الاعتقاد والسلوك :

« وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ، فقالوا : هذا لله بزعمهم ، وهذا لشركائنا ! فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ! وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ! ! ساء ما يحكمون » [1] .

وبصرف النظر عن تعليلهم هم لهذا السلوك بأن الله أغنى من الشركاء فلا بأس من تحويل نصيبه إليهم ! ! فإنه من الواضح أن الولاء الحقيقي ـ والخوف الحقيقي كذلك ـ موجه لأولئك الشركاء أكثر مما هو موجه إلى الله . وذلك ما يحدث دائماً في قلب المشرك ، حتى ولو أقر بذهنه أن الله هو رب الأرباب ! فليس الذهن هو الذي يقرر القضية بقدر ما يقررها الوجدان !

وبناء على هذا التصور المنحرف ، وما يصاحبه من توزيع الولاء ـ بنسب شتى ـ بين الله والآلهة ، فإن البشر يحرمون ويحلون ، ويستقبحون ويستحسنون ، ويمنعون ويبيحون بما يمليه عليهم هوى أنفسهم ـ أو هوى السادة المتحكمين فيهم ـ بما يخالف ما قرره الله من حلال وحرام ، وحسن وقبيح ، ومباح وممنوع .. ومن ثم يتحول التصور إلى سلوك ، وتؤدي العقيدة المنحرفة ـ دائماً ـ إلى الحكم بغير ما أنزل الله ، واتباع غير منهج الله .

وإذ كانت القضية الأولى في القرآن كله هي بيان العقيدة الصحيحة ، أي بيان المعنى الحقيقي للا إله إلا الله ، في الاعتقاد والاتباع ، أي في التصور وفي السلوك ، فقد

---

(١) سورة الأنعام [١٣٦] .

كان أمراً طبيعياً أن تعرض السور المكية لما كان قائماً من انحرافات التصور في الوثنية العربية الجاهلية ، وما يتبعها كذلك من انحرافات في السلوك .

أما قضية الوحي والقرآن والنبوة فهي من جهة متصلة بالتصور الصحيح لحقيقة الألوهية ، فإنه لا يكون إنسان قد تصور الله على حقيقته إن تصور أنه ـ سبحانه ـ لا يستطيع أن ينزل الوحي على من يشاء من عباده ، ولا أن يبعث رسولا ، ولا أن ينزل عليه كتاباً من عنده .. ولكنها قد تكون أكثر اتصالاً بالجانب السلوكي أو الاتباعي من قضية لا إله إلا الله .. ذلك أن الإيمان الحق بلا إله إلا الله معناه طاعة الله ، واتباع أوامره ونواهيه ، وتحكيم شريعته فيما يحرّم وما يحلّ . ووسيلة ذلك كله هي الرسول الذي يبعثه الله ليبين للناس ما فرض الله عليهم من تكاليف ، وما ألزمهم به من عبادات[1] .. فلا يستقيم الجانب السلوكي من الإيمان بلا إله إلا الله ، إلا بالإيمان بالوحي والنبوة والكتاب المنزل . ولذلك كانت شهادة المسلم : « أشهد ألا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله » .. وبغير ذلك لا يستقيم الإيمان في التصور ولا في السلوك ..

* * *

ذلك ما كان من شأن ما يتنزل من القرآن في مكة في هذه القضايا مع العرب المشركين ..

ولكنا نرى أن هذه الأمور جزء من العقيدة ذاتها .. بصرف النظر عن أولئك العرب المشركين ! فإنه يقال للمؤمنين في المدينة ، بعد أن زال عنهم التصور المنحرف ودخلوا في التصور الصحيح والسلوك الصحيح :

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ، والملائكة والكتاب والنبيين » [2] .

إذن فالإيمان بالملائكة والكتاب والنبيين (والقدر خيره وشره) .. تذكر لذاتها ، لأنها جزء من العقيدة ، كالإيمان بالله واليوم الآخر سواء .. فأي دور تؤديه هذه الأشياء في عقيدة المسلم ؟

فأما الإيمان بنبوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، والإيمان بالوحي المنزل عليه ، والكتاب الذي نزل عليه من عند الله .. فبديهي أنها كلها من ضرورات الإيمان ؛ فبغير الإيمان بالقرآن ، وأنه هو كلام الله الموحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، لن يكون هناك « سلوك إيماني » محدد . لأن القرآن هو الذي يحدد معالم ذلك السلوك [والسنة مكملة وشارحة] . والإيمان ـ كما علمنا ـ ليس مشاعر فقط ـ ولو كانت مشاعر توحيد خالص ـ

---

(١) « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون » [النحل : ٤٤] .

(٢) سورة البقرة [١٧٧] .

وإنما هي ، إلى جانب المشاعر ، سلوك واقعي واتباع عملي لمنهج محدد منزل من عند الله .

وأما الإيمان بالرسالات السابقة والكتب المنزلة من قبل القرآن ، فقد ورد ذكره أكثر من مرة بوصفه شرطاً ضرورياً من شروط الإيمان :

« يا أيها الذين آمَنوا آمِنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل . ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا »[1].

« قولوا : آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحدٍ منهم ونحن له مسلمون . فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق .. »[2] .

« آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله . وقالوا : سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا وإليك المصير »[3] .

« قل : يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون ؟ »[4] .

ثم جاء في حق أهل الكتاب :

« إن الذين يكفرون بالله ورسله ، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقا ؛ وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا . والذين آمنوا بالله ورسله ، ولم يفرقوا بين أحد منهم ، أولئك سوف يؤتيهم أجورهم ، وكان الله غفوراً رحيما »[5] .

إنه لا بد للمؤمن إذن أن يدخل في « الأمة المؤمنة » من لدن آدم إلى نوح .. إلى محمد صلى الله عليه وسلم . ويحس أنه واحد من هذه الأمة المتجانسة على مدى التاريخ وإن اختلفت ألوانها وألسنتها وأمكنتها وأزمنتها . ولا بد له كذلك أن يؤمن بوحدة الطريق الذي سلكته هذه الأمة في أطوارها المتوالية وأجيالها المتعاقبة .. إنه طريق واحد : طريق الله . وأن الرسل جميعاً أرسلوا من عند الله ، وبلغوا ما أوحي إليهم من عند الله .. إله واحد ، وعقيدة واحدة ، وطريق واحد ، وإن اختلف الرسل : كلٌّ بلسان قومه وكل في مكان بعينه .. ولكن وجهتهم جميعاً واحدة ، كلهم يلتقون في الله ، وأممهم كلها تلتقي كذلك في الله ..

---

(١) سورة النساء [١٣٦] .
(٢) سورة البقرة [١٣٦ – ١٣٧] .
(٣) سورة البقرة [٢٨٥] .
(٤) سورة المائدة [٥٩] .
(٥) سورة النساء [١٥٠ – ١٥٢] .

من تمام الإيمان إذن أن يشعر المؤمن بتلك الأخوة مع المؤمنين السابقين ، وبتلك الوحدة على طريق الإيمان .. المؤدي إلى الله .

ولكن هذه الأمة الخاتمة بصفة خاصة يلزمها ذلك الإيمان بالرسالات السابقة والرسل السابقين !

إنها الأمة الخاتمة والأمة المهيمنة .. كما أن كتابها هو الكتاب الأخير والكتاب المهيمن : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه .. » [1] .

ومن واجب الأمة الخاتمة والمهيمنة ألا يكون في صدرها حرج من الكتب السابقة ولا من الأقوام المؤمنين بتلك الكتب ، الذين علم الله أنهم سيدخلون في ولاية هذه الأمة وسلطانها .. لأن دور الهيمنة والقيادة الذي خلقت له هذه الأمة : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » [2] ذلك الدور يستدعي أن تفسح صدرها للأمم السابقة كلها ، التي ستدخل تحت سلطانها ، فتعاملها بالتسامح اللائق بالأمة الرائدة القائدة .. وبالتسامح الذي يرغبها في حكم الإسلام ، إن لم يرغبها ـ كذلك ـ في عقيدة الإسلام !

ولقد كان كذلك بالفعل تاريخ هذه الأمة مع من دخل في ذمتها من اليهود والنصارى ، إذ لقوا من التسامح الديني ما لم يلقوه قط في التاريخ ، وما لم يلقه بعضهم من بعض في كل التاريخ !

وتلك مزية حبا الله بها تلك الأمة الخاتمة ، وكان طريقها هو ذلك الإيمان بالرسالات السابقة والرسل السابقة ، فتعاملت مع أتباعهم بذلك التسامح الكريم برغم علمها بما حرفوا في دينهم وكتبهم .. ولكن تنفيذاً لأوامر الله التي ميزت « أهل الكتاب » بمعاملة خاصة وهم في ذمة المسلمين .

ولقد كان مكان ذلك الحديث هو الكلام عن السور المدنية وعرض نماذج منها .. ولكنا آثرنا أن نستكمل الحديث عن العقيدة هنا ، ثم نشير إليه بعد ذلك مجرد إشارة حين يقتضي السياق .

* * *

أما الإيمان بالملائكة فهو يؤدي مهمة مزدوجة أو جملة مهام في وقت واحد ..

فجبريل عليه السلام هو الذي نزل بالوحي على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . ومن ثم فالإيمان بجبريل ـ وهو أحد الملائكة ـ والشعور بالحب والمودة له ، جزء من

---

(١) سورة المائدة [٤٨] .

(٢) سورة البقرة [١٤٣] .

الاعتقاد اللازم للمؤمن ، كالإيمان بصدق القرآن سواء ، حتى لا يداخله شك في الطريق الذي وصل به إلينا القرآن .

ثم إن الملائكة عامة ذات صداقة ومودة للمؤمنين في الحياة الدنيا وفي الآخرة :

« الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به . ويستغفرون للذين آمنوا : ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، إنك أنت العزيز الحكيم . وقهم السيئات . . ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته ، وذلك هو الفوز العظيم » [1] .

« إن الذين قالوا : ربنا الله ، ثم استقاموا ، تتنزل عليهم الملائكة : ألا تخافوا ولا تحزنوا ، وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة . ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ، ولكم فيها ما تدعون ، نزلا من غفور رحيم » [2] .

« . . أولئك لهم عقبى الدار : جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب : سلام عليكم بما صبرتم ، فنعم عقبى الدار » [3] .

ثم إن منهم الحفظة الذين يسجلون على الإنسان أعماله :

« وهو القاهر فوق عباده ، ويرسل عليكم حفظة ، حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا ، وهم لا يفرطون » [4] .

« سواء منكم من أسر القول ، ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار . له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه ، من أمر الله . . » [5] .

« وإن عليكم لحافظين ، كراماً كاتبين ، يعلمون ما تفعلون » [6] .

ومعرفة ذلك كله تؤنس قلب المؤمن بتلك المودة النورانية التي تحسها الملائكة نحوه . كما أنه يحاول أن يلتزم بالسلوك الذي يفرضه عليه الإيمان ، حتى لا يسجل الحفظة عليه إلا كل طيب من الأفكار والمشاعر والسلوك . .

ومن هنا فإن الإيمان بالملائكة يؤدي « مهمة إيمانية » في حياة المؤمن ، تتصل بالإيمان

---

(١) سورة غافر [٧ – ٩] .
(٢) سورة فصلت [٣٠ – ٣٢] .
(٣) سورة الرعد [٢٢ – ٢٤] .
(٤) سورة الأنعام [٦١] .
(٥) سورة الرعد [١٠ – ١١] .
(٦) سورة الانفطار [١٠ – ١٢] .

بالله ، في الاعتقاد والسلوك سواء ، بالإضافة إلى تلك السعة النفسية التي يكتسبها الإنسان حين ينفسح أمامه عالم الكائنات ، فلا يقتصر منها على ما تدركه حواسه فحسب .. وإنه على قدر سعة العالم الذي يرتاده الإنسان بخواطره تكون فسحة نفسه وقدرته على المشاعر العالية التي لا تنحصر في حدود الأرض الضيقة ، ولا في حدود الحياة الدنيا ، ولا في حدود ذات الإنسان .. وإن تلك السعة ذاتها لمن إرادة الله للمؤمن الذي يحمل الأمانة ليحسن حملها ويكون أقدر على تصور أبعادها ..

وبالإضافة كذلك إلى الإحساس بعظمة الخالق الذي يخلق هذه الكائنات العلوية الشفيفة :

« الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع . يزيد في الخلق ما يشاء . إن الله على كل شيء قدير » [1] .

* * *

وأما الإيمان بالقدر خيره وشره فهو كذلك يؤدي في حياة المؤمن عدة مهام ..

فهو من ناحية يتصل بالإيمان بذات الله سبحانه ، وبأنه هو المدبر لكل أمر ، المتصرف فيه بلا شريك .. أي أنه متصل بالجانب الاعتقادي من الإيمان ..

ومن ناحية أخرى يتصل بسلوك المؤمن في واقع الأرض إزاء الأحداث ..

وهذا أمر ذو أهمية بالغة ، ويستحق منا وقفة لبيان حقيقته ، بعد أن شوهها واقع المسلمين المنحرف من جهة ، وكلام أعداء الإسلام من جهة ثانية ، ثم ــ من جهة ثالثة ــ كلام الجهال من المسلمين ، سواء كانوا من الجهال حقيقة ، أم من الذين ينقلون كلام أعداء الإسلام ثم يصفون أنفسهم بأنهم « مثقفون » !

إن السلوك الإيماني الصحيح هو « التسليم » لقدر الله .

فما معنى التسليم ؟

هل هو ــ كما يقول أولئك الجهال ــ القعود عن العمل والقعود عن تغيير الواقع السيّئ لأنه « قدر من عند الله » لا تنبغي مقاومته ؟

ومن أين جاء أولئك الجهال بهذا المعنى الغريب على الإسلام ؟!

وهل هذا المعنى كان غائباً عن الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يتلقى الوحي من الله ، ويتعلم الإسلام الصحيح من عند الله ؟

وفيم إذن كان جهاده المتواصل لتغيير الواقع السيّئ الذي كانت عليه الجزيرة العربية والأرض كلها وقتذاك ؟!

---

(١) سورة فاطر [١] .

ألم يكن ذلك الواقع السيّئ قدراً من عند الله ؟ فكيف تجوز مقاومته إذن إذا كان معنى التسليم لقدر الله هو هذا المعنى المنتكس الذي لم تعرفه الأمة الإسلامية إلا في عصر انحدارها وتدهورها ؟

سيقول قائل منهم : إنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قاومه وسعى إلى تغييره بأمر من الله !

ونقول : نعم ! وهذا الأمر من الله قائم من ذلك الحين ومستمر إلى أن تقوم الساعة .. لم يطرأ عليه تعديل ولا تبديل ! ولم يقل الله سبحانه وتعالى : إن هناك أمداً معيناً يطالب الناس فيه بالتغيير ، ثم يبطل بعد ذلك الأمر ، ويجيء بدلا منه « التسليم » للواقع السيّئ والقعود عن تغييره !

لم يقل الله ذلك ، وإنما قال سبحانه :

« وقل **اعملوا** ، فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » [1] .

وقال :

« ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله . وتلك الأيام نداولها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء . والله لا يحب الظالمين » [2] .

والله هو الذي يندد بالكفار الذين يشركون ثم يقولون إننا مشركون بقدر من الله ! ومستسلمون في شركنا لقدر الله ! :

« سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ، ولا آباؤنا ، ولا حرمنا من شيء ! كذلك كذّب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ! قل : هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون ! » [3] .

إنما التسليم لقدر الله معنى آخر مختلف تماماً .. فهمه الرسول صلى الله عليه وسلم وفهمه منه الصحابة رضوان الله عليهم ، فكانت منهم تلك الأمة الفريدة التي وصفها خالقها بقوله سبحانه : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » [4] والتي صنعت بإيمانها بالله وقدر الله ذلك التاريخ الفذ في تاريخ البشرية كله ..

فهم منه الرسول صلى الله عليه وسلم أنه يجاهد ويجاهد ويجاهد .. ثم حين لا يؤمن كفار قريش بعد هذا الجهاد كله ، فذلك قدر من الله لا حيلة له فيه ، ولا مسئولية عليه !

---

(١) سورة التوبة [١٠٥] .

(٢) سورة آل عمران [١٣٩ - ١٤٠] .

(٣) سورة الأنعام [١٤٨] .

(٤) سورة آل عمران [١١٠] .

« ولو شاء الله لجمعهم على الهدى . فلا تكونن من الجاهلين » [1] .
« إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء .. وهو أعلم بالمهتدين » [2] .
ولقد كان صعباً على نفس الرسول صلى الله عليه وسلم أن يدعوهم فيعرضوا ، وهو الذي يحب لهم الخير ، وكان الأسى يملأ قلبه الكريم عليهم حتى ليواسيه الله تعالى :
« فلا تذهب نفسك عليهم حسرات . إن الله عليم بما يصنعون » [3] .
« لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين » [4] .
« واصبر وما صبرك إلا بالله . ولا تحزن عليهم ، ولا تك في ضيق مما يمكرون » [5] .
« ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون . فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين . واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » [6] .

ولكنه في النهاية يعلم أنه قدر من الله فيستسلم لهذا القدر .. بمعنى ماذا ؟ بمعنى أن يكف عن الجهاد والدعوة ؟ إن هذا لم يحدث قط .. والتاريخ معروف ، وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم معروفة .. إنما بمعنى أن يخف الألم الذي يسببه له إعراض المعرضين ، فلا يعود ذلك الألم القاتل : « لعلك **باخع** نفسك ألا يكونوا مؤمنين » ثم يمضي في طريقه لا يكف لحظة عن الجهاد ..

كذلك فهم منه الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجاهد ويجاهد ويجاهد .. ثم يتلقى الأذى من قريش وغيرهم من كفار العرب ، ويتلقى أتباعه المؤمنون به التشريد والتعذيب الذي يفوق الطاقة دون أن يستطيع تغيير الوضع ، ولا كف الأذى عن المؤمنين .. فيعلم أن هذا قدر من الله فيستسلم له .. بمعنى ماذا ؟ بمعنى أن يكف عن الجهاد والدعوة ، أو يكف أتباعه ـ معاذ الله ـ عن الإيمان ؟! كلا ! إنما بمعنى أن ترضى نفوسهم وهم يتلقون الأذى والتعذيب ، ويعلمون أن الله قادر على نصرهم إذا شاء ، ولكن قدره شاء الآن أن يبتليهم .. فليصبروا .. ولا تتحطم أرواحهم تحت الضغط .. ولا يتخلوا عن عقيدتهم ، ولا عن التصميم عليها ، حتى يغير الله ما بهم بقدر جديد ، فينصرهم على الكافرين ..

وكيف نَفَذَ القدر الجديد ؟

---

(١) سورة الأنعام [٣٥] .
(٢) سورة القصص [٥٦] .
(٣) سورة فاطر [٨] .
(٤) سورة الشعراء [٣] .
(٥) سورة النحل [١٢٧] .
(٦) سورة الحجر [٩٧ – ٩٩] .

إنه قدر من عند الله نعم هو الذي نصرهم ببدر وهم أذلة .. ولكن كيف كان تصرفهم مع هذا القدر ؟

هل قعدوا في بيوتهم وقالوا : إذا كان الله قدر لنا النصر فسينصرنا .. ولا حاجة بنا إلى العمل والجهاد والمشقة ؟!

هل ذكر التاريخ شيئاً من ذلك في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه ؟ أم ذكر التاريخ لهم الجهاد المتواصل لنصرة الحق ، وهم الذين وُعدوا وعداً صريحاً بالنصر ، **فعلموا** أن قدر الله لهم هو النصر ؟!

« وأخرى تحبونها : **نصر من الله** وفتح قريب » [1] .

« وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه .. » [2] .

انظر هاتين الآيتين من سورة الأنفال :

« ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا . إنهم لا يعجزون . وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ، الله يعلمهم ... » [3] .

إن الآية الأولى تقرر قدر الله في الأمر : إن الذين كفروا لن يسبقوا . ولن يعجزوا الله . أي أنهم **لن ينتصروا** . والآية التالية مباشرة تأمر المؤمنين بأن يعدوا للكفار ما استطاعوا من قوة لكي يتم هذا النصر **المقرر في قدر الله** . فعلى الرغم من أنه قدر مقدور ، فإنه لا بد من هذا الجهد البشري لكي يتحقق وينفذ .

« إن تنصروا الله ينصركم » [4] .

على هذا النحو كان المسلمون الأوائل يفهمون عقيدة القضاء والقدر ويمارسونها .. إنها السعي الدائم لتنفيذ أوامر الله .. ثم التسليم **بما يقع بالفعل** على أنه قدر من الله ، لأنه لا يتم في الكون كله إلا ما أراده الله وقدّره . وليس معنى التسليم الكف عن المضي في الطريق . بل معناه أن الصدمات لا تحطم قلوب المؤمنين ، حين يصطدمون بقدر من عند الله لا يجلب لهم الخير الذي يحبون ، إنما يجلب لهم ـ في تقديرهم ـ الشر (بمعنى الضر) وإنما يقومون من صدمتهم بذات العزيمة فيمضون في الطريق ، في انتظار قدر جديد من عند الله .. كذلك فعلوا حين وقعت بهم هزيمة أحد ـ بقدر من الله ـ فلم يستسلموا للهزيمة ، إنما استسلموا لقدر الله بالهزيمة . وفرق هائل بين الاثنتين . استسلموا

---

(١) سورة الصف [١٣] .

(٢) سورة الفتح [٢٠] .

(٣) سورة الأنفال [٥٩ – ٦٠] .

(٤) سورة محمد [٧] .

لقدر الله بالهزيمة أي لم يتحطموا إزاءها .. ثم لم يستسلموا للهزيمة لأنهم خرجوا للقتال بعدها مباشرة وهم مثخنون بالجراح :

« الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح ، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم . الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ! فزادهم إيمانا ، وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله . والله ذو فضل عظيم »[1] .

وهكذا يكون الاستسلام لقدر الله ـ في معناه الإسلامي الصحيح ـ حافزاً لمزيد من الجهد ، لأنه يصون الطاقة أن تتحطم إزاء الأحداث ، ويصون النفوس أن تنكسر من الحزن والغم فتقعد عن المسير :

« لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم .. »[2] .

كذلك لم يفهم المسلمون أن الاستسلام لقدر الله معناه إعفاء أنفسهم من التبعة إذا كان قدر الله قد أصابهم بسبب خطأ وقع منهم . إنما يستسلمون لقدر الله أي يرضون نفسياً بوقوعه ما دام قد وقع بالفعل ، ثم يدركون مسئوليتهم في وقوعه ، فلا يعودون لهذا الخطإ مرة أخرى ، ثم يحاولون أن يمحوا آثاره بجهد يبذلونه من عند أنفسهم ، ليستحقوا قدراً جديداً من عند الله ، يغير الشر إلى خير ..

« أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم : أنّى هذا ؟! قل : **هو من عند أنفسكم** . إن الله على كل شيء قدير . وما أصابكم يوم التقى الجمعان **فبإذن الله** ، وليعلم المؤمنين ، وليعلم الذين نافقوا ... »[3] .

وهكذا يلتقي في نسيج الأحداث خطان متوازيان ، بل ملتحمان ، دون تعارض في حس المسلم بين هذا وذاك : هو **من عند أنفسكم** . وهو **بإذن الله** لحكمة يريدها الله .. كانت في هذا الحادث بالذات تمييز المؤمنين من المنافقين ، وكشف أولئك الأخيرين في الموقف العملي ، ليعلم حقيقتهم من كان ينخدع فيهم من المؤمنين ..

ويجري الأمران معاً بلا تعارض : تتبين للمؤمن حكمة الحدث .. وقد لا تتبين له في لحظتها كما حدث في أحد ، وقد تمر أجيال حتى تتبين الحكمة .. ولكن يعرف المؤمن دائماً أن هناك حكمة وراء قدر الله ، فيرضى به ويستسلم له ، بمعنى ألا يقضي الحدث على روحه ، ولا يحطم مشاعره ، ولا يبدد عزيمته ، ولا يقعده عن المضي في الطريق ؛ ويعرف في ذات الوقت مسئوليته هو الذاتية عن وقوع هذا القدر إن كان قد وقع بسبب

---

(١) سورة آل عمران [١٧٢ – ١٧٤] .

(٢) سورة آل عمران [١٥٣] .

(٣) سورة آل عمران [١٦٥ – ١٦٧] .

خطإ منه أو تقصير ، فيسعى إلى إصلاح الخطأ ، ويبذل مزيداً من الجهد ليعوض التقصير ..

ذلك هو المعنى الصحيح للإيمان بقدر الله ، خيره وشره ؛ وذلك هو أثره في نفوس المؤمنين به : دفعة هائلة للحركة والجهاد في واقع الأرض ، هي التي كتبت ذلك التاريخ الزاخر لأمة الإسلام ..

فأما حين بدأت هذه الأمة تنحرف عن التصور الصحيح للإسلام ، وتنحرف كذلك عن السلوك الصحيح ، فقد وقع ذلك الانحراف في عقيدة القضاء والقدر .. الذي يحسبه الجهال هو الإسلام ! !

* * *

ذلك هو الجانب من العقيدة المختص بالإيمان بالغيب : الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين .. والقدر خيره وشره .

وبقي جانب آخر تتحدث عنه السور المكية ، متصل بالعقيدة كذلك ومرتبط بها ، وإن كان يتعلق أكثر بالواقع المشهود لا بالغيب المحجوب ، إلا من حيث صلته بذات الله سبحانه : ذلك هو : قصص الأنبياء ، وقصة آدم والشيطان ، والأخلاق الإيمانية بدلاً من الأخلاق الجاهلية .

قصص الأنبياء

يحتل قصص الأنبياء جانباً غير قليل من السور المكية ويتركز بصفة خاصة في مجموعة من السور يحمل بعضها اسم واحد من الأنبياء ، بالإضافة إلى سورة « الأنبياء » التي يشير اسمها إلى موضوعها . وتلك السور هي : الأعراف ويونس وهود ويوسف وإبراهيم والكهف ومريم وطه والأنبياء والشعراء والنمل والقصص والعنكبوت والصافات وص .. غير إشارات عديدة جداً في كثير من السور المكية .

ويجيء القصص في القرآن لأهداف شتى ..

منها إثبات صدق الوحي المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« نحن نقص عليك أحسن القصص **بما أوحينا إليك هذا القرآن** ، وإن كنت من قبله لمن الغافلين » [1] .

« تلك من أنباء الغيب **نوحيها إليك** ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ، فاصبر إن العاقبة للمتقين » [2] .

« كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق ، وقد آتيناك من لدنا **ذكرا** ، من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً » [3] .

« وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر ، وما كنت من الشاهدين ، ولكنا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر . وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ، **ولكنا كنا مرسلين** . وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن **رحمة من ربك** لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون » [4] .

ومنها التسرية عن الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يلقاه من قومه من تكذيب وأذى واتهام بالسحر والجنون ، فقد كُذِّب الرسل من قبل ووُجِّه لهم نفس القول ، ثم صبروا حتى جاءهم نصر الله وإهلاك المكذبين :

---

(١) سورة يوسف [٣] .

(٢) سورة هود [٤٩] .

(٣) سورة طه [٩٩ - ١٠٠] .

(٤) سورة القصص [٤٤ - ٤٦] .

« ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا ، وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ، **ولا مبدل لكلمات الله . ولقد جاءك من نبأ المرسلين** »[1] .

« تلك القرى نقص عليك من أنبائها ، ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات **فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل** . كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين . **وما وجدنا لأكثرهم من عهد** ، **وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين** »[2] .

« وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل **ما نثبت به فؤادك** ، وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين »[3] .

« حتى إذا استيأس الرسل **وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا** فنجّي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين »[4] .

« وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين . وكفى بربك هادياً ونصيرا »[5] .

« وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة إلهاً واحدا ؟! ! إن هذا لشيء عجاب ! وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد ! ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ! إن هذا إلا اختلاق ! ! أأنزل عليه الذكر من بيننا ! ! بل هم في شك من ذكري ، **بل لما يذوقوا عذابِ !** أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب ؟ أم لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما فليرتقوا في الأسباب . **جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب . كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد ، وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة ، أولئك الأحزاب . إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب . وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق** »[6] .

« **ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك** . إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم»[7] .

« كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا **قالوا : ساحر أو مجنون** . أتواصوا به ؟! بل هم قوم طاغون »[8] .

ومع التسرية عن الرسول صلى الله عليه وسلم التسرية عن المؤمنين كذلك وهم يلقون

---

(١) سورة الأنعام [٣٤] .

(٢) سورة الأعراف [١٠١ – ١٠٢] .

(٣) سورة هود [١٢٠] .

(٤) سورة يوسف [١١٠] .

(٥) سورة الفرقان [٣١] .

(٦) سورة ص [٤ – ١٥] .

(٧) سورة فصلت [٤٣] .

(٨) سورة الذاريات [٥٢ – ٥٣] .

العنت والتشريد والعذاب بسبب إيمانهم ، فيعرض عليهم قصص الأمم السابقة ليعلموا أن هناك مؤمنين قبلهم أذيقوا ألوان العذاب والتشريد ثم صبروا على عقيدتهم ، ثم يخبرهم أن العاقبة للمتقين ، إما بنصر في الحياة الدنيا يقدره الله ، وإما بالجزاء الأوفى في الآخرة . وهنا ترد ـ كثيراً ـ قصة قوم موسى مع فرعون وهو يسومهم سوء العذاب ، يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ، ثم مَنَّ الله عليهم بالنجاة والتمكين جزاء ما صبروا . وترد كذلك ـ مرات كثيرة ـ قصة السحرة الذين آمنوا لموسى ، فقضى عليهم فرعون بالصلب والقتل فثبتوا على عقيدتهم رغم التهديد ، ورغم التنفيذ .. كما ترد قصة أصحاب الأخدود ، النموذج الأعلى في الصبر على العقيدة إزاء الفتنة التي تفوق كل احتمال ، فتنة الحرق بالنار . والنماذج كثيرة ومتعددة نجتزئ ببعضها :

فهؤلاء قوم موسى يقولون له في سورة الأعراف : « أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا » فيقول لهم : « عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون » . ثم ينتهي السياق بقوله تعالى : « .. وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها ، وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون » [1] .

وتبدأ سورة القصص هكذا :

« طسٓمٓ . تلك آيات الكتاب المبين . نتلو عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق **لقوم يؤمنون** . إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح ابناءهم ويستحيي نساءهم. إنه كان من المفسدين . **ونريد أن نمن على الذين استضعفوا** في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم في الأرض ، ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » [2] .

ويجيء في سورة طه :

« فألقي السحرة سجداً قالوا : آمنا برب هرون وموسى . قال : آمنتم له قبل أن آذن لكم ؟ إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ! فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبنكم في جذوع النخل ، ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى ! قالوا : لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا ، فاقض ما أنت قاض . إنما تقضي هذه الحياة الدنيا . إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر . والله خير وأبقى » [3] .

ويجيء في سورة القمر ، بعد سرد قصص نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم لوط :

---

(١) سورة الأعراف [١٢٩ - ١٣٧] .
(٢) سورة القصص [١ - ٦] .
(٣) سورة طه [٧٠ - ٧٣] .

« أكفاركم خير من أولئكم ! أم لكم براءة في الزبر ؟ أم يقولون : نحن جميع منتصر ؟ سيهزم الجمع ويولون الدبر . بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر . إن المجرمين في ضلال وسعر ، يوم يسحبون في النار على وجوههم : ذوقوا مسّ سقر . إنا كلَّ شيء خلقناه بقدر . وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر . ولقد أهلكنا أشياعكم ، فهل من مدكر ؟ وكلُّ شيء فعلوه في الزبر . وكل صغير وكبير مستطر . **إن المتقين في جنات ونهر ، في مقعد صدق عند مليك مقتدر** » [1] .

كذلك من أهداف القصص القرآني إبراز حقيقة عقيدية هامة تُبْرَزُ من خلال السرد التاريخي ، هي أن الأنبياء والرسل جميعاً عليهم صلوات الله وسلامه جاءوا بكلمة واحدة وقضية واحدة على تتابع الأجيال . كلمة واحدة هي : لا إله إلا الله . وقضية واحدة هي : اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ..

هذا الهدف من أهم أهداف القصص القرآني في الحقيقة . ويبدو بارزاً شديد البروز من خلال السرد القرآني ، وتتخذ له وسائل شتى . فأحياناً يُوَحِّد أسلوب القصص [مع التنويع الواضح في القرآن] [2] بحيث تجيء العبارة موحدة على لسان كل رسول ، في الشريط المتتابع للرسل : كل رسول يقول الكلمة ويمضي ، ويأتي مَنْ بَعده بنفس الكلمة بلا تغيير . وتارة يقال عن قوم معينين إنهم كذبوا « الرسل » مع أنهم لم يرسل إليهم إلا رسول واحد ، ليوحي التعبير بأن تكذيب الرسول الواحد هو بمثابة تكذيب الرسل كلهم ، لأنهم كلهم يقولون ذات الشيء بلا تغيير . فمن كذب واحدا منهم فقد كذبهم جميعاً .. وتارة يقال عن أقوام متعددين إنهم عصوا « رسول » ربهم ، فيوضح ذلك أن كل أمة كذبت رسولها ، ويوحي في ذات الوقت أنه كأنما هو رسول واحد الذي بعث إلى هذه الأقوام جميعاً ، لأنهم ـ على اختلاف أقوامهم ، وأزمانهم وأماكنهم ولغاتهم ـ قد قالوا ذات الكلمة ، وعرضوا ذات القضية .. ومن هنا فالرسل جميعاً كأنهم رسول واحد يتكرر لكل قوم من الأقوام !

فمن أمثلة النوع الأول ما جاء في سورة الأعراف ، وسورة هود ، وسورة الشعراء بصفة خاصة :

« لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ... وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، أفلا تتقون ؟ .. وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم ، هذه ناقة الله لكم آية ... وإلى مدين أخاهم شعيبا

---

(١) سورة القمر [٤٣ — ٥٥] .

(٢) انظر بشأن التنويع فصل « ظاهرة التكرار في القرآن » فيما يلي من فصول الكتاب .

قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ... »[1]

« ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إني لكم نذير مبين ، ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم ... وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، إن أنتم إلا مفترون ... وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ... وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، ولا تنقصوا المكيال والميزان ... »[2]

« كذبت قوم نوح **المرسلين** ، إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون ؟ إني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعونِ . وما أسألكم عليه من أجر ، إن أجري إلا على رب العالمين ... كذبت عاد **المرسلين** ، إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون ؟ إني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر ، إن أجري إلا على رب العالمين ... كذبت ثمود **المرسلين** ، إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون ؟ إني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين ... كذبت قوم لوط **المرسلين** ، إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون ؟ إني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين ... كذب أصحاب الأيكة **المرسلين** ، إذ قال لهم شعيب ألا تتقون ؟ إني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر ، إن أجري إلا على رب العالمين ... »[3]

ومن أمثلة النوع الثاني سورة الشعراء ذاتها ، التي جمعت بين الوسيلتين ، إذ وحدت قول الرسل كلهم في عبارة واحدة يكررها كل رسول ، ثم جعلت كل قوم بمفردهم يكذبون « المرسلين » جميعاً ، بتكذيبهم للرسول الخاص الذي أرسل إليهم . وكذلك ما جاء في سورة الفرقان عن قوم نوح من أنهم كذبوا « الرسل » مع أنهم كذبوا رسولهم الخاص وحده وهو نوح . ولكن ذلك بمثابة تكذيب الرسل جميعاً :

« وقوم نوح لما كذبوا **الرسل** أغرقناهم ، وجعلناهم للناس آية . وأعتدنا للظالمين عذاباً أليما »[4] .

ومن أمثلة النوع الثالث ما جاء في سورة الحاقة :

« كذبت ثمود وعاد بالقارعة . فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية . وأما عاد فأهلكوا بريح

---

(١) سورة الأعراف [من ٥٩ إلى ٨٥] .

(٢) سورة هود [من ٢٥ إلى ٨٤] .

(٣) سورة الشعراء [من ١٠٥ إلى ١٨٠] .

(٤) سورة الفرقان [٣٧] .

صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية ؟ وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة ، فعصوا **رسول** ربهم ، فأخذهم أخذة رابية » [1] .

والتعبير ـ وإن كان يفهم منه كما قلنا أن كل فرقة من هؤلاء قد عصت رسولها ـ إلا أن اللفتة فيه واضحة ، أن الرسل كلهم الذين أرسلوا إلى فرعون ، ومَنْ قبله ، والمؤتفكات ، قد جُمِعُوا في رسول واحد ، لأن مهمتهم كلها واحدة ، وقضيتهم كلها واحدة .. فكأنهم رسول واحد تكرر بعثه لكل فرقة منهم في حينها .

وكذلك ما جاء في سورة الشعراء عن موسى وهرون معا أنهما « رسول » رب العالمين :

« قال : كلا ! فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون . فأتيا فرعون فقولا إنا **رسول** رب العالمين ، أن أرسل معنا بني إسرائيل » [2] .

وليس هناك لبس على الإطلاق في أن المتكلم اثنان معاً لا واحد ، لأن الأمر صادر إليهما معا : « فقولا » ، ولأنهما يقولان : « أن أرسل **معنا** بني إسرائيل » فموسى وهرون يتكلمان معا .. وحتى لوفرضنا أن موسى وحده هو الذي يتكلم باسميهما معا فهو يقول « إنّا » ولا يقول « أنا » .. أي أنه يتكلم بضمير المثنى لا المفرد ، ومع ذلك يقول « إنا رسول رب العالمين » لأنهما ـ وهما شخصان ـ يقومان بمهمة واحدة ورسالة واحدة فكأنهما رسول واحد !

هذه القضية كما قلنا ذات أهمية خاصة في القرآن ؛ وهي فضلا على أهميتها العقيدية في تقرير وحدة الرسالة ، ووحدة الألوهية ، وأن توحيد الألوهية هو القضية الكبرى في حياة البشرية ، بحيث يرسل الرسل المتتابعون من أجلها وحدها ، وكل شيء بعد ذلك مترتب عليها ..

فضلاً على هذا الجانب الاعتقادي ، فإنه يعطي شعوراً « بالانتماء » إلى أمة كبيرة موحدة على تتابع الأجيال :

« إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » [3] .

ويبدو الذين لم يؤمنوا برسلهم ، أو كذبوا أي واحد من أمة الرسل المتتابعة الموحَّدة ، نشازا في هذا الخط المتتابع المتصل الموحّد .. نشازا لا وزن له وإن كثر ، ولا اعتبار له وإن تعدد .. لأنه خارج على « النظام » !

---

(١) سورة الحاقة [٤ - ١٠] .

(٢) سورة الشعراء [١٥ - ١٧] .

(٣) سورة الأنبياء [٩٢] .

ومن الأهداف الهامة كذلك ، الموازية في أهميتها لقضية وحدة الرسالة ووحدة الرسل إبراز الموقف الموحد الذي تقفه الجاهليات جميعاً من رسلها الذين أرسلوا إليها !

فكما أنها رسالة واحدة مكررة ، وإن اختلف الأشخاص واللغات ، والزمان والمكان ، فهي كذلك جاهلية واحدة مكررة ، وإن اختلف الأشخاص واللغات ، والزمان والمكان.. !

« كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا : ساحر أو مجنون ! أتواصوا به ؟! بل هم قوم طاغون ! » [1]

إن موقف الجاهلية واحد من كل رسول : التكذيب والإعراض .. ثم التشهير بالرسول حين يتضح أنه مصرّ على دعوته لم يثنه عنها إعراض ولا تكذيب .. ثم التهديد بالأذى له وللذين آمنوا معه .. ثم تنفيذ التهديد أحياناً أو الحيلولة دون ذلك بقدر من الله ..

قصة مكرورة لم تتخلف مرة .. إلا مرة واحدة في التاريخ كله سجلها القرآن للعبرة :

« فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس **لما آمنوا** كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين » [2] .

والآية مع ذلك لم تنف موقف الإعراض الأول الذي كان من قوم يونس .. إنما تسجل فقط أنهم ـ في النهاية ـ آمنوا ! **فلما آمنوا** كشف الله عنهم ما هددوا به من عذاب الخزي في الحياة الدنيا ...

ما السر يا ترى في هذا الموقف الواحد المكرر الذي تقفه الجاهلية من رسلها :

« لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين !... وإلى عادٍ أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ؟ قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين !... وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم : هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم .. قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم : أتعلمونَ أن صالحا مرسل من ربه ؟ قالوا : إنا بما أرسل به مؤمنون . قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون ... وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم ، فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد اصلاحها . ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين .. قال الملأ الذين استكبروا

---

(1) سورة الذاريات [٥٢ – ٥٣] .

(2) سورة يونس [٩٨] .

من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا ! قال : أو لو كنا كارهين ؟ »[1] .

« كذبت قوم نوح المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون ؟ إني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون ... قالوا : لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين !... كذبت عاد المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون ؟ إني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون .. قالوا : سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين ! إن هذا إلا خلق الأولين ، وما نحن بمعذبين ، فكذبوه ... كذبت ثمود المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون ؟ إني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون .. قالوا : إنما أنت من المسحرين ! ما أنت إلا بشر مثلنا ... كذبت قوم لوط المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون ؟ إني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون .. قالوا : لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين ! كذب أصحاب الأيكة المرسلين ، إذ قال لهم شعيب ألا تتقون ؟ إني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون .. قالوا : إنما أنت من المسحرين ! وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين ! فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين »[2] .

وحتى حين طلب شعيب من قومه المهادنة حتى يحكم الله بينهم لم يقبلوا منه ذلك وأصروا على إخراجه :

« وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين . قال الملأ الذين استكبروا من قومه : لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا ! »[3] .

ما السر في هذا الموقف الموحد من الجاهلية تجاه الرسول الذي يدعوها للا إله إلا الله ؟

نلحظ في الآيات دائماً أن **الملأ** هم الذين يبدأون بالتكذيب .. ثم هم الذين يتحرشون ويهددون ..

وفي كل مجتمع جاهلي لا بد أن يوجد « ملأ » هم السادة و« شعب » من العبيد .. والملأ في المجتمع الجاهلي هم الذين « يملكون » و« يحكمون » .. وهم بطبيعة الحال الذين يشرعون من عند أنفسهم ، بما يحفظ سلطانهم على أولئك « العبيد » ، يسخرونهم لمصالحهم ، ويستعبدونهم لأنفسهم .. كان ذلك في كل جاهلية من جاهليات التاريخ بلا استثناء ..

---

(١) سورة الأعراف [من ٥٩ إلى ٨٨] .

(٢) سورة الشعراء [من ١٠٥ إلى ١٨٧] .

(٣) سورة الأعراف [٨٧ – ٨٨] .

وهؤلاء الملأ المستولون على السلطة بهذه الصورة يكرهون ـ دائماً ـ دعوة لا إله إلا الله ، ولا يطيقونها ، ويتصدون لحربها ، ويصرون على القضاء عليها بكل وسيلة في أيديهم .. إلا أن يتدخل قدر حاسم من عند الله فيهلكهم وينقذ المؤمنين منهم . فأي شيء في دعوة لا إله إلا الله يهيجهم إلى هذا الحد .. إلى حد أن يرتكبوا كل جريمة بما في ذلك جرائم القتل والاغتيال للقضاء على هذه الدعوة ، فضلاً على تسخير طاقتهم كلها في التشنيع عليها وعلى داعيتها ، وتنفير الجماهير منها ، بل كذلك استغلال « الدهماء » في الحرب ضدها ومحاولة القضاء عليها ؟!

إنه لا يتبين لنا السر في ذلك الموقف العجيب ، الذي يتكرر بصورة أعجب .. إلا إذا أدركنا المعنى الحقيقي لهذه الكلمة التي يبعث بها كل رسول : لا إله إلا الله .. اعبدوا الله مالكم من إله غيره ..

لو أنها كانت « كلمة » تقال ، فماذا يضير الملأ منها فيحشدوا طاقتهم لحربها بهذه الصورة العصبية التي لا تقبل توقفا ولا تفاهما ولا مهادنة ؟

إنّما مدلول هذه الكلمة البسيطة غاية البساطة ، الخطيرة غاية الخطورة ، هو الذي يهيج الملأ في الجاهلية إلى هذا الحد !

إن مدلولها ببساطة أن الولاء لله وحده ، والعبادة لله وحده ، والطاعة لله وحده ..

والملأ في الجاهلية يريد ببساطة أن يكون الولاء له وحده ، والطاعة له وحده ومن ثم فالعبادة له وحده ، حتى وإن لم يصحبها في كل حالة شعائر التعبد التي كانت توجه إلى فرعون .. وإنما هي عبادة الطاعة وعبادة الولاء .. [1]

ومن ثم يقع الصدام ـ الحتمي ـ بين الملأ وبين دعوة لا إله إلا الله ..

لا إله إلا الله معناها أن « السلطة » لله وحده .. وأن الذي يحق له أن « يحكم » ، وأن يحلّ ويحرم ، ويحسِّن ويقبِّح ، ويبيح ويمنع .. هو الله .

والملأ يريد أن تكون السلطة بيده ، وأن يكون هو الذي يحكم ، ويحل ويحرم على هواه ..

ومن هنا لا يطيق الملأ أن يرى ذلك الرجل الذي يقول : لا إله إلا الله (عليه صلوات الله وسلامه) . إن مجرد رؤيته يثير أعصابهم ! ويحفزهم لمحاربته ..!

إنهم كاللص الذي يرى رجل الشرطة ! إنه يتصور في الحال أنه جاء ليسترد ما في يديه من المال المغصوب !

---

(١) تقول الشيوعية إن البشرية كانت في عبودية مستمرة ـ وإن اختلفت صورها ـ في جميع عهود العبودية الأولى ثم الإقطاع ثم الرأسمالية . ونحن نضيف : ثم الشيوعية كذلك ! ولسنا نوافقهم على حصر العبودية في لاستغلال الاقتصادي ، فهو لون واحد من ألوان العبودية وليس هو وحده الذي يلغي كرامة « الإنسان » .. إنما تلغيها العبودية لغير الله أياً كانت . إنما نحن نسجل فقط ظاهرة « العبودية » في كل جاهلية في التاريخ .

وهم قد تحلو لهم السلطة فينسون فترة أنها مسروقة ! وما دام لا يوجد من يطالب بها فهي آمنة في أيديهم ! ولكن ظهور هذا الرجل الذي يقول لا إله إلا الله ، يردهم في الحال إلى الحقيقة ، إن كانوا نسوها أو تناسوها .. يردهم إلى أن صاحب السلطة التي في أيديهم هو الله . وأنهم إنما اغتصبوا هذه السلطة من صاحبها الحقيقي وهو الله ..

واللص العادي قد يتوارى ويهرب .. ولكن مغتصب السلطة هذا يغريه ما في يده من سلطة مغتصبة بمقاتلة ذلك النذير الذي جاء ليعلن رد السلطة إلى صاحبها .. ويرى النذير أعزل من كل سلاح .. جاء فقط بشخصه ، وبالكلام الذي يتكلم به .. فيحاول أن يهون من شأنه ، وإن كان يعلم في دخيلة نفسه أنه خطير ! ومن ثم يلجأ إلى « تشويه سمعته » في بادئ الأمر : ساحر .. مجنون .. كذاب .. أو .. يريد أن يستولي على الحكم ! ! كما قال ملأ فرعون لموسى وهرون :

« قالوا : أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا ، **وتكون لكما الكبرياء في الأرض**؟ ! ! »[1]

ولكن الرسول المبعوث من عند الله ، المطمئن إلى الحق الذي يدعو إليه ، المستوثق من حقيقة الألوهية ، لا تثنيه تلك « الدعاية » التي يقيمها الملأ ضده .. فيمضي في الدعوة .. ويؤمن به نفر من الناس قليلون في بادئ الأمر .. ولكن هذا النفر - رغم قلته - يزعج أصحاب السلطان إزعاجاً يفقدون معه أعصابهم !

إن الأمر لو ترك على هذه الصورة فسوف يتفلت « العبيد » من بين أيديهم واحدا إثر واحد .. **ويتحررون** من ربقتهم .. فهل يسكتون على هذا الأمر الجلل ؟ وماذا يبقى لهم من السلطة إذا استمر هذا الأمر ؟ وكيف يتحقق لهم « الكبرياء في الأرض » إذا لم يبق من يتكبرون عليه ؟!

لا بد من إجراء ليقف هذا الأمر ..

فليكن البدء هو محاولة تنفير « الدهماء » من هذه الدعوة ..

إنها دعوة جاءت لتفريق وحدة الشعب ! ألستم ترون أن الذين يعتنقونها يكونون لأنفسهم فريقاً متميزاً عنكم ؟! ألستم ترون أنهم يفسدون عليكم أبناءكم فلا يعودون يطيعونكم ؟ ثم إنهم يفسدون في الأرض ! !

ولكن الحق له جاذبيته .. ومهما شوه فسيظل يجذب الناس ..

لا بد من إجراء أشد حسماً .. التهديد !

كل من يقترب من هذه الدعوة فهو « خارج » علينا .. وسنعامله بأقصى درجات العنف !

وي ! ! لكأن التهديد لا يجدي ! فالذين آمنوا باقون على ما هم عليه ، ويتزايدون !

---

(١) سورة يونس [٧٨] .

إذن لا بد من تنفيذ التهديد !

وهنا يبدأ الاضطهاد بشتى صنوفه وصوره .. يختلف من جاهلية إلى جاهلية ولكنه في جوهره واحد ! يبدأ « بإخراج » المؤمنين من أموالهم وديارهم وأمنهم وراحتهم .. وينتهي بأمر فرعون : « لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين » .

دورة واحدة ودور واحد تقوم به الجاهلية دائماً إزاء هذه الدعوة البسيطة غاية البساطة ، الخطيرة غاية الخطورة .. دعوة لا إله إلا الله !

والقرآن يبرز هذا الدور إبرازاً شديداً في قصص الأنبياء ..

وقد كان من أهداف هذا الإبراز ولا شك أن يقال للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين : إن ما تفعله بكم جاهلية قريش من اضطهاد وتعذيب ، هو هو الذي صنعته كل جاهلية من قبل في التاريخ .. ثم كانت النهاية دائماً هي انتصار الحق والتدمير على المكذبين :

« فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمين » [1] [نوح] .

« فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين » [2] [هود] .

« فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ، فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين » [3] [صالح] .

« فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ، وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين » [4] [لوط] .

« فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين . الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها . الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين . فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم ، فكيف آسى على قوم كافرين ؟ » [5] .

كان هذا هدفاً قائماً بالنسبة للمؤمنين إزاء اضطهاد قريش لهم وقت نزول هذا القرآن .. ولكنه هدف قائم أبداً طالما كانت في الأرض جاهلية من أي نوع ، ودعاة يدعون للا إله إلا الله ، فيضطهدون ويعذبون ويقتلون ...

* * *

---

(١) سورة الأعراف [٦٤] .

(٢) سورة الأعراف [٧٢] .

(٣) سورة الأعراف [٧٨ – ٧٩] .

(٤) سورة الأعراف [٨٣ – ٨٤] .

(٥) سورة الأعراف [٩١ – ٩٣] .

هدف أخير من القصص القرآني ربما لم يكن منصوصاً عليه في القصص ذاته ، ولكنه مفهوم من سياق القصص أولاً ، ومنصوص عليه كذلك في مواضع أخرى من القرآن ، كما جاء في أول سورة العنكبوت :

« الٓمٓ . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا ، وهم لا يفتنون ؟ ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » .

إنها إذن سنة دائمة ، وليست حادثاً عارضاً يحدث لبعض المؤمنين !

الابتلاء **لا بد** أن يحدث للمؤمنين ! لا بد أن تواجههم الجاهلية بالإيذاء بشتى صنوفه .. ثم يبقون في هذا الإيذاء فترة لا ينصرهم فيها الله ، إنما يملى للطغاة فينتفشون ، ويزيدون طغيانا بما يحدث لهم من الغلبة على المؤمنين !

والله هو القادر على كل شيء !

ولو شاء الله سبحانه أن يدمر على الطغاة منذ أول لحظة يتعرضون فيها لدعوته .. لفعل . لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض ..

ولكنه ـ سبحانه ـ لا يشاء ذلك !

وليس في مرة عارضة ، ولكن في كل مرة !

في كل مرة يترك المؤمنين يلقون من صنوف العذاب ما يلقون .. ثم لا ينصرهم وهم على الحق ، وإنما ينصر الطغاة وهم على الباطل !

نعم .. ولحكمة يصنع الله ذلك .. لا مفارقةً للمؤمنين من عباده ولا قِلًى لهم :

« ما ودعك ربك وما قلى ! »[1] .

وإنما رحمة بهم ورعاية ! !

نعم ! إنه يعدّهم لأمر جسيم .. يعدهم لحمل دعوته .. يعدهم لأخطر مهمة في هذا الكون كله .. لحمل الأمانة !

وليس من الرحمة ولا الرعاية أن يحملهم الحمل وهم بعد في غضاضتهم وليونة عضلاتهم !

لا بد من تدريب ..

إنه تدريب خشن نعم ! ولكن العبرة بالخواتيم ! فكيف هم بعد التدريب ؟! تعال فانظر إليهم ! هل تعجبك اليوم متانة تركيبهم وقوة بنيانهم ؟! هل تطمئن إلى قوة تحملهم ؟!

نعم .. تلك رحمة الله ورعايته . .

---

(١) سورة الضحى [٣] .

يصبهم صبًّا متيناً ليقيم البناء فوقهم ، فلا البناء يتهدم ولا هم يستثقلون الحمل فوق أكتافهم فقد تدربوا عليه !

وفي الوقت ذاته يزداد الطغاة طغيانا : « ليحملوا أوزارهم **كاملة** يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم » ! [1] .

وبقدر واحد يزداد الذين آمنوا إيماناً والذين طغوا طغياناً وكفراً ..

ويكون لأولئك النعيم الخالد الذي لا ينفد ، ولهؤلاء عذاب لا يفتر ..

أهي صفقة خاسرة في النهاية ؟

وهب أن إنساناً قد احتمل من العذاب ثم وافاه أجله قبل أن يرى النصر .. فهل هي صفقة خاسرة في النهاية ؟

« يؤتى بأشد أهل الأرض شقاء يوم القيامة فيغمس غمسة في النعيم فيقال له : هل رأيت شقاء قط ؟ يقول : لا يا رب ! »

وهذا من أول غمسة .. ولم يتذوق بعد حلاوة النعيم !

« ويؤتى بأشد الكفار نعيماً يوم القيامة فيغمس غمسة في النار فيقال له : هل رأيت نعيماً قط ؟ يقول : لا يا رب ! » [2] .

وهذا من أول غمسة .. ولم يتذوق بعد مرارة العذاب !

إن القصص القرآني يقول لنا ـ من خلال السياق ـ إن الابتلاء هو سنة الله للمؤمنين .. ثم يقول إن الله هو الذي يضع المؤمنين في الابتلاء بقدر منه .. ويضع الطغاة في موضع الغلبة بقدر منه .. حتى إذا جاء أمر الله جاء النصر للمؤمنين بقدر من الله ، ووقع الهلاك بالمكذبين بقدر كذلك من الله ..

إن الله هو الذي يدبر هذه وتلك .. ولا يحدث في الكون إلا ما يريده الله ..

ومن هنا تتعلق القلوب التي يربيها القرآن دائماً بالله ..

في الشدة تتعلق قلوبهم به لأنه هو وحده الذي يكشف الشدة ولا أحد سواه ..

وفي الرخاء تتعلق قلوبهم به شكراً له على نعمائه ، وحرصاً على رضاه ..

ومن ثم يكون القصص القرآني دروساً في العقيدة .. دروساً في حقيقة لا إله إلا الله .. وإن كان ثوبه ثوب القصة ، وإن كان فيه من الجمال التعبيري والتصوير الفني ما يأخذ بالألباب ...

---

(١) سورة النحل [٢٥] .

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد .

آدَم وَالشَّيطان

تجيء قصة خلق آدم من قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله في أكثر من موضع في السور المكية . كذلك ترد قصة الشيطان مع آدم في أكثر من موضع .. أحياناً تجيء بكل تفصيلاتها كما في سورة الأعراف ، وأحياناً تجيء ببعض هذه التفصيلات كما في سورة الحجر والإسراء وطه وصّ ، وأحياناً تجيء في صورة إشارة عابرة ، وهذا كثير جداً في القرآن ، وتنفرد سورة إبراهيم بذكر موقف الشيطان يوم القيامة من بني آدم الذين استجابوا له في الدنيا ، وتنصله الكامل من تبعتهم !

جاء في سورة الحجر :

« ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون . والجانّ خلقناه من قبل من نار السموم . وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمإ مسنون ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين . قال يا إبليس ما لك ألا تكون مع الساجدين ؟ قال : لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون . قال : فاخرج منها فإنك رجيم ، وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين . قال : رب فأنظرني إلى يوم يبعثون . قال : فإنك من المنظرين ، إلى يوم الوقت المعلوم . قال : رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ، ولأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين . قال : هذا صراط عليّ مستقيم . إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين . وإن جهنم لموعدهم أجمعين لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم » [1] .

وجاء في سورة الإسراء :

« وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس قال : أأسجد لمن خلقت طينا ! قال : أرأيتك هذا الذي كرمت عليّ ؟ لئن أخرتنِ إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا . قال : اذهب ! فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا . واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد ، وعدهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا . إن عبادي ليس لك عليهم سلطان : وكفى بربك وكيلا » [2] .

---

(١) سورة الحجر [٢٦ – ٤٤] .

(٢) سورة الإسراء [٦١ – ٦٥] .

وجاء في سورة الأعراف :

« ولقد خلقناكم ثم صورناكم ، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين . قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ؟ قال : أنا خير منه ! خلقتني من نار وخلقته من طين ! قال : فاهبط منها ، فما يكون لك أن تتكبر فيها ! فاخرج إنك من الصاغرين . قال : أنظرني إلى يوم يبعثون ! قال : إنك من المنظرين ! قال : فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ، ومن خلفهم ، وعن أيمانهم ، وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين ! قال : اخرج منها مذءوما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين . ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ! وقاسمهما : إني لكما لمن الناصحين ! فدلاهما بغرور ! فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما : ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ؟! قالا : ربنا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ! قال : اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين . قال : فيها تحيون وفيها تموتون ، ومنها تخرجون . يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم وريشا . ولباس التقوى ذلك خير . ذلك من آيات الله لعلهم يذّكّرون . يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما . إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم . إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون » [1] .

وجاء في سورة إبراهيم :

« وبرزوا لله جميعاً فقال الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعا ، فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ؟! قالوا : لو هدانا الله لهديناكم ! سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص ! وقال الشيطان لما قضي الأمر : إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم ! وما كان لِيَ عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي ! فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ! ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخيّ ! إني كفرت بما أشركتمونِ من قبل ! إن الظالمين لهم عذاب أليم » [2] .

* * *

---

(١) سورة الأعراف [١١ – ٢٧] .

(٢) سورة إبراهيم [٢١ – ٢٢] .

لا يأتي القصص في القرآن للمتعة الفنية .. وإن كان فيه ولا شك متعة فنية هائلة لمن أراد !

إنما يأتي القرآن كله للتربية والتوجيه .. لبناء الأمة الراشدة التي تقوم بمهمة الخلافة الراشدة في الأرض . ويجيء القرآن في الفترة المكية بصفة خاصة ـ كما ذكرنا ـ لتأسيس العقيدة الصحيحة وترسيخها ، لتكون بعد ذلك الأساس الذي يقوم عليه البناء كله .. السياسي والاقتصادي والاجتماعي والحربي والمدني والخلقي والفكري والتعليمي ... إلى آخر ما يقوم عليه نظام في حياة الناس ...

والقصص الوارد في السور المكية [والمدنية كذلك كما سنرى فيما بعد] هو جزء من هذه التربية وهذا التوجيه .. وجزء في الوقت ذاته من البناء العقيدي للإنسان المسلم .. وقد رأينا ذلك من قبل في قصص الأنبياء مع أقوامهم ، ونراه الآن في قصة آدم والشيطان...

إنه مما يهم البشر ولا شك أن يعرفوا تاريخهم .. ولكن يعرفوه للعبرة لا لمجرد التسلية ..

وقصة آدم والشيطان قصة ذات دلالة خاصة بين القصص القرآني كله ، فهي تحدد للبشر مبدأهم ومنتهاهم ودورهم في الأرض وخطة سيرهم فيها ، والعقبات التي تقابلهم في أثناء رحلتهم ، وطريقة تجنب هذه العقبات وتخطيها !

الإنسان مكون من قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله .. هذان هما العنصران المكونان له .. ولهذا التكوين دلالة في طبيعته المتفردة ، ودوره المتفرد كذلك :

« ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات ، **وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** »[1] .

إنه مخلوق ذو طبيعة مزدوجة : مادية وروحية في ذات الوقت .

قبضة الطين تمثل جانبه المادي ، ونفخة الروح تمثل جانبه الروحي . ولكنهما غير منفصلين ..

« إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين »[2] .

فالتسوية أعطته **شكله** الآدمي . ولكن النفخة العلوية التي امتزجت بهذا الكيان المادي هي التي أعطته صورته النهائية التي أمر الملائكة بالسجود لها .. صورة « البشر » المكتملة التكوين ..

ومنذ هذا المولد في التاريخ السحيق ، والبشر هم كما خلقهم الله : كيان مادي

---

(١) سورة الإسراء [٧٠] .

(٢) سورة ص [٧١-٧٢] .

وكيان روحي ممتزجان في كيان واحد ، مترابطان لا ينفصلان .. وحياة الإنسان ـ منذ تلك اللحظة إلى هذه اللحظة ، وفي كل لحظة ـ ذات طابع مادي روحي في ذات الوقت .

إن نسيج نفسه ، ونسيج حياته كذلك ، يتكون من خيطين معاً في وقت واحد ، خيط مادي وخيط روحي . ولا توجد رقعة في النسيج كله ، ولا توجد لحظة في الحياة كلها ، مكونة من أحد الخيطين دون الآخر ..

هنالك رقعة في النسيج ولحظة في الحياة يكون الخيط المادي فيها أكثف وأغزر ، فتكون أكثر عتامة .. ورقعة أخرى يكون فيها الخيط الروحي أبرز وأظهر فتكون أشف .. ولكن لا هذه ولا تلك يتكون نسيجها من خيط واحد منفرد ، ولو بدا ذلك للنظرة السريعة التي لا تتفحص ولا تنعم النظر في الأشياء !

لحظة المتاع الحسي الغليظ ، من طعام أو شراب أو جنس ، تبدو ـ عند بعض الناس على الأقل ـ كأنها لحظة جسد خالصة ؛ رقعة نسيج مادي معتمة لا ينفذ منها النور ..

ولحظة العبادة الخاشعة ، ولحظة السياحة الروحية المرفرفة في ملكوت الله ، ولحظة العاطفة المستعلية ، التي يستعلي بها الإنسان على ذاته ، ويستعلي بها على متاع الأرض ، فيؤثر أخاه على نفسه ، ويضحي بنفسه أو ماله أو أمنه أو راحته في سبيل شيء أكبر من ذاته .. لحظة تبدو كأنها لحظة روح خالصة ، شفيفة ورائقة .. لا أثر فيها لقبضة الطين !

والحقيقة أنها مبالغة تعبيرية لا تمثل الواقع !

فحتى تلك الرقعة المعتمة لم تخل من عنصر الروح .. وحتى تلك اللحظة الشفيفة لم تخل من قبضة الطين !

إن امتزاج هذين العنصرين في كيان واحد مترابط متكامل لا ينفصل منه جزء عن جزء ، قد أعطى الإنسان صورة متفردة في أعماله وأحواله تتميز عن الكائنين المماسين له من هذا الجانب وذاك ـ الملك والحيوان ـ وإن تشابه في نقطة التّمَاس مع هذا وذاك .. مجرد تشابه فقط ، ولكنه ليس تماثلا هنا أو هناك ..

في لحظة الطعام والشراب والجنس **قد** يشبه الحيوان .. ولكنه لا يكون حيوانا ابداً .. إلا على سبيل المجاز !

الحيوان يأكل حين يجوع ، ويكفّ حين يشبع .. **والغريزة** هي التي تحدد له وقت جوعه ، وتتحدد له نقطة شبعه التي يكف عندها عن الطعام ، كما تحدد له أنواعاً معينة من الطعام لا يتعداها ..

والإنسان يأكل حين يجوع .. نعم ، في الغالب ! ولكنه قد يأكل كذلك ـ بإرادته ـ وهو شبعان ! وقد يمتنع عن الطعام ـ بإرادته ـ وهو جائع ، لأمر من الأمور الصحية أو التعبدية .. أو الاقتصادية ! وهو الذي يحدد لنفسه وقت طعامه ، والقدر الذي يأكله من الطعام ، سواء كان معتدلاً أو زائداً عن الحد أو أقل من اللازم .. كما أن أنواع

الطعام أمامه غير محدودة ، وما زال يستحدث منها كل جديد ..

وذلك كله هو أثر النفخة العلوية في قبضة الطين : الوعي والإرادة الضابطة والقدرة على الاختيار ..

والجنس كذلك .. هو عند الحيوان دفعة الغريزة . هي التي تحدد له الموسم المعين للإخصاب . وهي التي تحدد نقطة الانطلاق ونقطة السكون والكفّ عن النشاط .. لا وعي له في ذلك ولا إرادة ولا اختيار .. وهو عند الإنسان دفعة شبيهة بدفعة الغريزة كذلك . ولكنه حتى في أدنى حالاته ذو هدف محدد ـ ولو كان المتاعَ الجسدي ـ ويصحبه الوعي للهدف المحدد ولطريقة الحصول عليه والتدبير له ، ويصحبه الاختيار .. وهو في أعلى حالاته عواطف نفسية ومودة ورحمة تصاحب الرغبة الجسدية ، والتزام روحي بالحلال والحرام ، وهدف واعٍ هو الإحصان من جانب ، والذرية الصالحة من جانب .. وهو اختيار دقيق بمواصفات معينة .. وهو في النهاية شيء يذكر عليه اسم الله ...

وذلك كله هو أثر النفخة الروحية في قبضة الطين .. حتى في أقرب اللحظات لصوقاً بقبضة الطين !

والعبادة الروحية الشفيفة من جانب آخر **تشبه** عبادة الملك ولكنها لا تماثلها ، ولا تستطيع أن تماثلها !

الملائكة « يسبحون الليل والنهار **لا يفترون** » [1] « لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون » [2] .

والإنسان لا يطيق ذلك ولا يقدر عليه .. وإنما يفتر عن العبادة ـ ولو رغب فيها ـ حين يفتر جسده ويكل من الجهد ، ثم هو عرضة دائما للخطإ والنسيان والعصيان : «**كل بني آدم خطّاء** ! وخير الخطائين التوابون » [3] ..

وذلك هو أثر قبضة الطين في نفخة الروح .. حتى في أشد اللحظات اقتراباً من نفخة الروح !

إنما نقول على سبيل المجاز فقط إن فلانا حيوان أو كالحيوان ، حين يشتد لصوقه بالطين حتى ينبهم في ملامحه أثر نفخة الروح .. وحين نقول إن فلانا ملك أو مثل الملك ، حين يشتد علوه حتى ينبهم في ملامحه أثر قبضة الطين .. ولكنه في كلا حاليه « إنسان » .. لا ملك ولا حيوان ..

غير أنه في اللحظة التي يشتد فيها لصوقه بالطين حتى نقول إنه كالحيوان يكون في الواقع أسوأ من الحيوان : « أولئك كالأنعام ، **بل هم أضل** » لأن الحيوان لا إرادة

---

(١) سورة الأنبياء [٢٠] .

(٢) سورة التحريم [٦] .

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب القيامة

له ولا وعي فيما يفعل ، وليس له إلا طريق واحد يسلكه هو طريق الجسد ودفعة الغريزة ، ولكن الإنسان له سمع وبصر « وفؤاد » .. سمع يسمع به **ليعقل** ، وبصر يبصر به **ليعي** ، وفؤاد أي عقل وإرادة ضابطة يتحكم بها في تصرفاته .. فحين لا يُعْمِل هذه الأدوات كلها يكون أضل من الحيوان : « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها . أولئك كالانعام . بل هم أضل . أولئك هم الغافلون » [1] .

وحين يشتد علوه حتى نقول عنه إنه مثل الملك يكون في الواقع **أفضل** من الملك : « وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » [2] لأن الملك يعبد الله دون أن يملك عصيانه ! وليس له إلا طريق واحد يسلكه هو طريق الروح والعبادة والطاعة .. أما الإنسان ففي كيانه دوافع لا تفتر ، ورغبات لا تكفّ ، وله طريقان يمكن أن يسلكهما لا طريق واحد : « وهديناه **النجدين** » [3] « ونفس وما سواها ، **فألهمها فجورها وتقواها** ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » [4] فحين يعمل ـ بإرادته ـ على تزكية نفسه حتى تستقيم على الطاعة ، يكون في مرتبة أعلى من الملك الذي يطيع ، وهو لا يستطيع ألا يطيع ، ولا يجد في كيانه ما يدفعه إلى العصيان !

* * *

ذلك من حيث خلق آدم ، وطبيعته المزدوجة الناشئة من دخول عنصرين اثنين في تكوينه : قبضة الطين ونفخة الروح ، وما نشأ عن ذلك من وجود طريقين اثنين أمامه لا طريق واحد : طريق الطاعة وطريق العصيان ، طريق التزكية وطريق التدسية ، طريق الهدى وطريق الضلال .. أولهما يكون حين تكون الروح ـ في الكيان الموحد المترابط ـ هي صاحبة السلطان ، والآخر يكون حين يكون الجسد ـ في الكيان الموحد المترابط ـ هو صاحب السلطان .. ولكنه في كل حالاته روح وجسد مترابطان لا ينفصلان !

أما من حيث الهدف من خلق آدم فيبينه القرآن بوضوح :

« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » [5] .

فالإنسان إذن مخلوق ليعبد الله .. وليست له مهمة غير ذلك ! فالنفي والاستثناء : « **وما خلقت** الجن والإنس **إلا** ليعبدون » معناه القصر : قصر الهدف من خلق الإنس والجن على العبادة وحدها ولا شيء إلى جانبها ! وتلك آكد صيغ القصر في اللسان العربي .

---

(١) سورة الأعراف [١٧٩] .

(٢) سورة الإسراء [٧٠] .

(٣) سورة البلد [١٠] .

(٤) سورة الشمس [٧ – ١٠] .

(٥) سورة الذاريات [٥٦] .

ولكنا نرى ـ في القرآن كذلك ـ أهدافاً لخلق الإنسان قد تبدو لنا لأول وهلة متعارضة مع هذا القصر الذي تحدثنا عنه ، أو خارجة عنه !

« هو أنشأكم من الأرض **واستعمركم فيها** »[1] أي كلفكم بعمارتها ويسّر لكم طريق عمارتها .

« هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا **فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه** »[2] .

« وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا **وتستخرجوا منه حلية تلبسونها** ، وترى الفلك مواخر فيه **ولتبتغوا من فضله** ولعلكم تشكرون »[3] .

« ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر **لتبتغوا من فضله** . إنه كان بكم رحيما »[4] .

فمتى يقوم الإنسان بعمارة الأرض ـ إذا كانت عمارة الأرض خارجة عن معنى العبادة التي اقتصر عليها الهدف من خلق الإنسان ـ وهي تستغرق الوقت والجهد ، وتشغل الإنسان مشغلة جمة ، سواء في استخراج الطاقات المكنونة في الكون واستخدامها في عمارة الأرض ، أو في « تنظيم » شئون هذه العمارة ، وهي محتاجة إلى تنظيم سياسي وتنظيم اقتصادي وتنظيم اجتماعي وتنظيم فكري ؟!

ومتى يمشي الإنسان في مناكب الأرض أو يخوض البحار ليبحث عن الرزق كما يأمره القرآن ، مرة بقوله : « وكلوا من رزقه » ومرة بقوله « لتبتغوا من فضله » .. وابتغاء فضل الله هو البحث عن الرزق سواء ..

بل متى يسعى إلى « الزينة » التي أحلها الله لعباده وقررها لهم بوصفها لوناً من ألوان نشاطهم المشروع :

« وتستخرجوا منه حلية تلبسونها »[5] .

« والخيل والبغال والحمير لتركبوها **وزينة** »[6] .

« **قل : من حرم زينة الله التي أخرج لعباده** والطيبات من الرزق .. »[7] .

« يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد »[8] .

---

(١) سورة هود [٦١] .
(٢) سورة الملك [١٥] .
(٣) سورة النحل [١٤] .
(٤) سورة الإسراء [٦٦] .
(٥) سورة النحل [١٤] .
(٦) سورة النحل [٨] .
(٧) سورة الأعراف [٣٢] .
(٨) سورة الأعراف [٣١] .

بل إن في الكون والحياة والأحياء « جمالا » يلفت الله نظر عباده إليه ، ويمن عليهم بخلقه لهم :

« والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها **جمال** حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس . إن ربكم لرءوف رحيم » [1] .

فمتى يتذوق الإنسان هذا « الجمال » إن كان خارجاً عن معنى العبادة التي خلق الإنسان من أجلها .. ومن أجلها وحدها !

بل إن نبياً من الأنبياء هو داود عليه السلام يُعَلَّم « صنعة » من الصنائع فيمن الله بها على عباده :

« وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم . فهل أنتم شاكرون ؟! » [2] .

فما وضع هذه الصنعة ـ أو غيرها من الصنائع ـ من « العبادة » ؟ هل هي داخلة فيها أم خارجة منها ؟ وهل هي ملتقية أم متعارضة معها ؟ وأين « وقتها » من هذه العبادة التي تستغرق حياة الإنسان **كلها** كما هو المفهوم من سورة « الذاريات » ؟

لا بد إذن ـ ما دامت هذه كلها أوامر ربانية ، أو مباحات أو مندوبات ربانية ـ أن تكون كلها داخلة في العبادة التي خلق الله الإنسان من أجلها ، ومن أجلها وحدها ! وإلا كان معنى ذلك ـ وحاشا لله أن يكون ـ أن الله يخلق الإنسان للعبادة وحدها ، ويعلنه بذلك ويكلفه به ، ثم يكلفه أن يصنع أشياء تخرج به عن عبادته ، فيقع في معصية الله حين يطيع أمر الله !

كلا ! لا يكون ذلك أبدا ..

إنما الذي تبينه آيات القرآن مجتمعة أن عمارة الأرض جزء من عبادة الله ، وابتغاء الرزق جزء من عبادة الله ، واستخدام الزينة الطيبة جزء من عبادة الله ، وتذوق الجمال والبحث عنه في ملكوت الله جزء من عبادة الله ، وتعلم الصنائع المختلفة جزء من عبادة الله .. جزء أصيل منها لا على هامشها ـ فضلا عن أن يكون متعارضاً معها ـ ما دام تكليفاً من عند الله ، أو أمراً ندبه الله أو أباحه الله ..

ولكن كيف نوفق إذن بين هذا التعارض الذي يسبق إلى وهمنا بين « العمل » و« العبادة »؟

إن القرآن هو الذي يبيّن لنا ، ويجيب على تساؤلنا :

---

(١) سورة النحل [٥ – ٧] .

(٢) سورة الأنبياء [٨٠] .

« **اعملوا** آل داود **شكرا** ، وقليل من عبادي الشكور ! » [1]

« قل إنني هداني ربي **إلى صراط مستقيم دينا قيما** ملة إبراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين . قل : **إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي** لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين » [2] .

ذلك هو التفسير الرباني للعبادة التي خلق الإنسان من أجلها ، ومن أجلها وحدها : « اعملوا آل داود شكرا » « قل : إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين » ..

إن العبادة ليست فقط كما يتبادر إلى وهمنا أحياناً هي الشعائر التعبدية التي يقوم بها الإنسان في أوقات محددة من النهار والليل كالصلاة ، أو أوقات محددة من العام كالصيام والزكاة ، أو مرة واحدة في العمر لمن استطاع كالحج !

وما يمكن أن تكون هذه الشعائر المحدودة ، التي تستغرق ذلك الوقت المحدود ، هي كل « العبادة » التي خلق الله الإنسان من أجلها .. وإلا فما حكم بقية الوقت الذي لا يقوم فيه الإنسان بهذه الشعائر ؟

إنما العبادة هي العمل شكراً لله ـ أي بتقوى لله وذكر لله ـ وهي أن تكون الصلاة والنسك والحياة والممات كلها لله !

بذلك يستقيم معنى العبادة ، ويتضح معنى التكليف !

كل عمل .. كل عمل على الإطلاق يقوم به الإنسان وقلبه متوجه إلى الله ، شاكر لأنعمه التي تفضل بها عليه .. فهو هو العبادة لله !

الصلاة والنسك .. والحياة بما حوت من العمل والحركة والنشاط .. إلى آخر قطرة من الحياة حين يجيء الموت .. حين يتوجه بها القلب لله ، ويبتغي بها رضاه .. وحده دون شريك ، أي حين يلتزم فيها بأوامر الله .. فهذه هي العبادة لله .. وهذا هو الدين القيم والصراط المستقيم ، الذي هُدِيَ إليه الأنبياء من قبل ، وأمرنا نحن باتباعهم فيما هداهم الله إليه ..

وبذلك تتضح رحمة الله بالخلق .. إنه لا يكلفهم فوق طاقتهم ! إنه يكلفهم شيئاً واحداً تتحقق به العبادة الصحيحة التي طلبها منهم وكلفهم بها حين خلقهم : أن يكونوا في كل أعمالهم ذاكرين لله شاكرين لله ، ملتزمين بأوامر الله سواء كان هذا العمل نسكا وصلاة ، أو مالاً تقوم به الحياة ، أو صنعة تتقدم بها الحياة ، أو علما ييسر الحياة ،

---

(١) سورة سبأ [١٣] .

(٢) سورة الأنعام [١٦١ – ١٦٣] .

أو زينة طيبة مباحة تجمل بها الحياة !

ما أيسر التكليف !.. وما أصعبه في آن !

فلننظر من أين جاءت الصعوبة في ذلك التكليف البالغ اليسر .. أو بعبارة أخرى فلننظر لم لا يشكر الإنسان ؟!

* * *

نمضي مع قصة الخلق ، تفسرها بقية الآيات في القرآن ، فنجد أن الله حين نفخ في هذا الإنسان من روحه قد وهب له مواهب جمة ، لم يهبها لمخلوق آخر :

« وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون »[1] .

والسمع ليس مجرد الأذن التي تسمع ــ وإن كانت هذه من نعم الله ولا شك ــ ولكنها التي تسمع وتعي . والأبصار كذلك ، ليست مجرد الأعين التي تبصر ، وإن كان مجرد الإبصار نعمة من نعم الله الكبرى ، ولكنها الأعين التي تبصر فتعي ما تبصر ، وتدرك دلالته وما وراءه من حكمة ..

والأفئدة – وكذلك القلوب – تذكر دائماً في القرآن بمعنى القوة الواعية المدركة ، والإرادة الضابطة كذلك .

« لهم قلوب **لا يفقهون بها** »[2] .

« أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب **يعقلون بها** أو آذان يسمعون بها ؟ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور »[3] .

ثم ، كما جاء في سورة العلق ، « علم الإنسان ما لم يعلم » .

ثم .. أمر الملائكة أن يسجدوا لهذا الإنسان الذي خلقه الله وصوره ، ومنحه ما منحه من المواهب التي منها تلك القدرة على التعلم[5] ، ومنها الوعى والإدراك والقدرة على الاختيار.. فسجدوا ..

« إلا إبليس لم يكن من الساجدين ! »[6]

وإبليس لم يكن من الملائكة بل من الجن :

---

(١) سورة النحل [٧٨] .

(٢) سورة الأعراف [١٧٩] .

(٣) سورة الحج [٤٦] .

(٤) سورة العلق [٥] .

(٥) جاء في سورة البقرة « وعلم ادم الأسماء كلها » .

(٦) سورة الأعراف [١١] .

« إلا إبليس **كان من الجن** ففسق عن أمر ربه »[1] .

ولكن السياق يذكره مع الملائكة لأنه كان حاضراً في ذلك المشهد ، وتلقى الأمر كما تلقاه الملائكة :

« قال : ما منعك ألا تسجد **إذ أمرتك** ؟ »[2]

وإنما يستثنى بإلا : « فسجدوا **إلا** إبليس » لا بمعنى أنه واحد منهم ، ولكن « استثناءً منقطعا » كما يقول النحويون بمعنى « ولكن » . أي : فسجدوا ولكن إبليس لم يكن من الساجدين (هذا على أحد التفاسير) .

وهنا تبدأ العقدة الهائلة في قصة آدم ..

لقد طرد إبليس من الجنة التي كان ينعم فيها ، جزاء عصيانه وتبجحه بالعصيان :

« قال : أنا خير منه ! خلقتني من نار وخلقته من طين ! »[2]

طرد مذءوما مدحورا .. ولكن بعد أن طلب إنظاره إلى يوم يبعثون وأجيب إلى طلبه :

« قال : أنظرني إلى يوم يبعثون . قال : إنك من المنظرين »[3] .

فهل خرج صاغراً في صمت .. أم إن الضغينة التي ملأت قلبه حسداً وحقداً قد تفجرت وهو يُخْرَج ، فتناثر منها الوعيد لآدم وبنيه ؟

« قال : فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ! ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، **ولا تجد أكثرهم شاكرين !** »[4]

هنا نفهم ــ بصورة مبدئية ــ لماذا **لا يشكر** الإنسان ! لماذا لا يؤدي ذلك التكليف الميسر ، وهو العبادة ، بمعنى الشكر ، للرحمن !

ولكن كيف استطاع الشيطان أن يتسلل إلى قلب آدم ــ وبنيه من بعده ــ فيصرفهم عن الشكر الواجب .. « ولا تجد أكثرهم شاكرين » ؟

هنا تبين لنا القصة نقطة الضعف في كيان آدم ، التي يتسلل منها الشيطان :

« ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما ، وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ، وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين ، فدلاهما بغرور ... ! »[5]

---

(١) سورة الكهف [٥٠] .

(٢) سورة الأعراف [١٢] .

(٣) سورة الأعراف [١٤ – ١٥] .

(٤) سورة الأعراف [١٦ – ١٧] .

(٥) سورة الأعراف [١٩ – ٢٢] .

هذه هي مسألة المسائل في حياة آدم .. وبنيه .. وتلك هي « نقطة الضعف » العظمى في ذلك الكيان الموهوب بشتى المواهب والقدرات !

إن « الممنوع » يتحول في الحال إلى « شهوة » .. ومن الشهوة يتسلل الشيطان !

لقد أبيح لآدم وحواء **كل** ثمار الجنة ما عدا شجرة **واحدة ممنوعة** ..

ولكن هذه الشجرة الواحدة الممنوعة صارت هي موضع التطلع والرغبة .. وصغرت إلى جانبها كل الثمار !

وهنا تسلل الشيطان في فرصته السانحة لينفذ ما توعد به آدم من قبل .. ليخرجه مثله من الجنة !

تتطلعان إلى هذه الشجرة ؟ فما يمنعكما أن تأكلا من ثمارها الشهية ؟ أوامر الله ؟! ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا ليحرمكما مما فيها من خير ومتعة ! إنكما إن أكلتما منها تصبحان ملكين ، تطيران في خفة كالملائكة ، وتكون لكما قدرات الملائكة ! ثم إنكما لن تموتا أبداً ! بل ستكونان خالدين ، ويكون لكما ملك لا يبلى !

يا له من إغراء !

« فدلاهما بغرور ! فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ... »[1] .

انكشفت لعبة الشيطان عن مأزق محرج أوقعهما فيه ولا زيادة !

« وناداهما ربهما : ألم أنهكما عن تلكما الشجرة ، وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ؟ »[1]

بلى ! ولكن وقعت الواقعة !

« قالا : ربنا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين »[2] .

ولقد غفر الله لهما وتاب عليهما من المعصية التي ارتكباها :

« وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى »[3] .

ولكنهما هبطا من الجنة كما دبر لهما الشيطان ! هبطا إلى الأرض .. ومعهما ذلك الشيطان !

« قال : اهبطوا بعضكم لبعض عدو . ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين »[4] .

وأي عداوة متبادلة أكبر من تسبب كليهما في إخراج الآخر من الجنة ؟! إبليس بحقده على آدم ، وآدم بطاعته للشيطان !!

* * *

(١) سورة الأعراف [٢٢] .

(٢) سورة الأعراف [٢٣] .

(٣) سورة طه [١٢١ – ١٢٢] .

(٤) سورة الأعراف [٢٤] .

تلك حلقة من القصة .. ولكن القصة لم يتم تمامها بعد ..

لقد هبط الفريقان .. كل بما هو عليه !

الشيطان بكل حقده وتربصه .. والإنسان بكل مواهبه وقدراته ، ونقطة الضعف المتأصلة في كيانه التي يتسلل منها الشيطان !

« قال فيها تحيون ، وفيها تموتون ، ومنها تُخْرَجون »[1] .

هنا ستكون حياة آدم وبنيه ..

وهنا سيتلقى التكليف :

« قال : اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو[2] ، فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى »[3] .

والتكليف هو عبادة الله وحده بلا شريك . العبادة بمعناها الواسع ، الذي تدخل فيه شعائر التعبد ، وعمارة الأرض ، والسعي في مناكب الأرض ، والابتغاء من فضل الله ، والزينة الحلال .. والجمال الحلال ...

ولكن .. هنا كذلك مجال الشيطان !

« إنا جعلنا ما على الأرض **زينة** لها ، لنبلوهم أيهم أحسن عملا »[4] .

زينة فيها الطيب الحلال .. وفيها الخبيث الممنوع ..

فأما التكليف الرباني ــ الذي يتمثل في الهدى الآتي من عند الله ــ فهو يأمر بالطيب ويمنع الخبيث . وأما إغراء الشيطان فهو بذلك الخبيث عينه ، **يزينه** للناس ليقعوا فيه :

« قال : رب بما أغويتني **لأزينن** لهم في الأرض ، ولأغوينهم أجمعين ! إلا عبادك منهم المخلصين »[5] .

وتلك هي معركة الحياة .. أو هي الملحمة العظمى التي يخوضها الإنسان ..

يتخذ طريقه في الأرض فتبرز له المغريات من كل جانب ، يقف إلى جانبها الشيطان يزينها ويغري بها ويهتف بالناس إليها :

« واستفزز من استطعت منهم بصوتك ، وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد ، وعدهم ! وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ! »[6] .

---

(١) سورة الأعراف [٢٥] .

(٢) اهبطا أي آدم والشيطان .

(٣) سور طه [١٢٣] .

(٤) سورة الكهف [٧] .

(٥) سورة الحجر [٣٩ – ٤٠] .

(٦) سورة الإسراء [٦٤] .

فمن حانت منه التفاتة إلى المغريات فقد أوشك أن يقع في الفخ ! إن لم يقع بالفعل !
بل إن الشيطان لا يقف ساكتاً ينتظر من يقع ! إنه دائم الحركة « الشيطانية » لا يفتر :
« ثم لآتينهم من بين أيديهم ، ومن خلفهم ، وعن أيمانهم ، وعن شمائلهم .. » [1] .
تلك عقبات الطريق .. عقبات يزينها الشوق ، وتدفع إليها الرغبة ، ويؤز إليها الشيطان ..
ومع ذلك فما أضعف كيد الشيطان للذين يستعصمون منه بهدى الله ، ويلجأون منه إلى حماه :

« إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ، إلا من اتبعك من الغاوين ! » [2]

« إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه ، والذين هم به مشركون ! » [3]

فتلك هي عدة الإنسان في الطريق ، التي ينجو بها من عقبات الطريق !

وليس معنى النجاة من عقبات الطريق ، باتباع هدى الله ، والإيمان به والتوكل عليه .. ليس معناها « الراحة » بمعناها الحسّي القريب !

كلا ! « يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه ! » [4]

فالحياة كلها كدح .. سواء منها الكادح في سبيل الله ، والكادح في سبيل الشيطان ! والفارق ليس في الكدح ذاته ولا في درجته ! إنما الفارق في نوع الكدح ونتيجته :

« فأما من أوتي كتابه بيمينه ، فسوف يحاسب حسابا يسيرا ، وينقلب إلى أهله مسرورا . وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا ، ويصلى سعيرا » [5] .

* * *

هنا تأتي الحلقة الأخيرة من القصة .. أخطر الحلقات في الحقيقة !

إن الحياة الدنيا مجرد حلقة من حلقات القصة ولكنها ليست نهايتها !

« أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا ، وأنكم إلينا لا ترجعون ؟! » [6]

إن انتهاء القصة في الحياة الدنيا يجعلها قصة عابثة لا تليق بجلال الله الخالق العظيم .. هذا الشتات المتناثر المتنافر من أحداث الأرض .. هذا الظلم والبغي بغير الحق ..

---

(١) سورة الأعراف [١٧] .
(٢) سورة الحجر [٤٢] .
(٣) سورة النحل [٩٩ - ١٠٠] .
(٤) سورة الإنشقاق [٦] .
(٥) سورة الإنشقاق [٧ - ١٢] .
(٦) سورة المؤمنون [١١٥] .

هذه الدماء التي تسفك والأموال التي تغتصب والأعراض التي تنتهك والكرامات التي تهان...
هل هي نهاية الصورة ؟

يظل الظالم يظلم حتى آخر قطرة من حياته وتنتهي الصورة ؟ يظل المظلوم واقعا في العسف والاضطهاد والتشريد إلى آخر قطرة من حياته وتنتهي الصورة ؟

ويكون ذلك عدلا صادرا عن إله عادل ؟!

كلا ! كلا ! .. « إن إلى ربك الرجعى »[1] .

« ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها . وكفى بنا حاسبين ! »[2]

هنا تكتمل القصة إلى نهايتها :

« كما بدأكم تعودون : فريقا هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة . إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون »[3] .

* * *

تلك قصة آدم .. إنها قصة القصص في القرآن !

فالقرآن كله هو الكلمة الأخيرة لأبناء آدم منذ هبوطهم إلى الأرض .. وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ..

وكل ما فيه من القصص والمواعظ ، والأوامر والتكاليف ، هو لهداية بني آدم ، ومعاونتهم في معركتهم الطويلة مع الشيطان ..

وإن في هذه القصة لدروساً عديدة جدير بنا أن نقف عندها ونتدبرها ..

فمن حقيقة خلق آدم من قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله ، يتبين لنا ــ كما ذكرنا ــ أنه لا يمكن فصل عنصر في حياة الإنسان عن عنصر ، لأنهما ممتزجان مترابطان ..

ومن ثم فكل نظام أو فكرة أو تصور يتصور الإنسان مادة فحسب ، أو روحاً فحسب .. فهو مخطئ من حيث أهمل الجانب الآخر في كيان الإنسان ، ويسري الخطأ في كل خطوطه وتخطيطاته ، سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو فكرية أو تربوية .. أو علمية أو فنية .. لأنها من البداية تقوم على أساس تصور خاطئ لحقيقة الإنسان .

ومن ثم كذلك فأي محاولة لفصل أعمال الإنسان عن دلالتها الخلقية ، أو الزعم

---

(١) سورة العلق [٨] .
(٢) سورة الأنبياء [٤٧] .
(٣) سورة الأعراف [٢٩ – ٣٠] .

بأن السياسة لا علاقة لها بالأخلاق ، أو أن الاقتصاد لا علاقة له بالأخلاق ، أو أن علاقة الجنسين لا علاقة لها بالأخلاق (! !) أو أن الفن لا علاقة له بالأخلاق .. كلها محاولات خاطئة وتصورات خاطئة ، لا تستقيم إلا حين يكون للإنسان طريق واحد لا يملك إلا أن يسير فيه . فأما إن كان له طريقان ، وله القدرة على أن يختار أيًّا من الطريقين ، فقد تحددت إذن دلالة خلقية مصاحبة لكل عمل : فهذا حسن وهذا رديء . وهذا صواب وهذا خطأ .. وهذا عالٍ وذلك دنيء ...

ومن ثم أيضاً فإن كل محاولات علم النفس التحليلي لتبرير الجريمة ـ بصرف النظر عما وراءها من تخطيط شرير لا نتعرض له هنا ـ فهي قائمة كلها على أساس تصور ـ أو تصوير ـ خاطئ للنفس الإنسانية ، يلغي الإرادة الضابطة التي تختار طريقا من الطريقين ، ويسد طريق الخير كله ، طريق الله ، ولا يدع إلا طريقا واحدا هو طريق الشيطان !

ومن تدبر المعنى القرآني للعبادة يتبين لنا مدى ما وقع فيه المسلمون في انحدارهم من تحريف لمعنى العبادة حتى قصرت على شعائر التعبد .. وألغى منها إلغاء تاماً كل من العمل والسلوك [1] .. ويتبين لنا الجهد الواجب في إعادة المسلمين إلى الفهم الصحيح للعبادة ، الذي فهمه الرسول صلى الله عليه وسلم والجيل الأول من الصحابة .. فصنعوا « بعبادتهم » ذلك التاريخ الفذ في كل تاريخ البشرية ، في كل مجال من مجالات الحياة البشرية !

ومن تدبر معصية آدم ومعصية الشيطان نجد فرقا جذرياً بين المعصيتين : الأولى معصية الشهوة التي تعمي بصيرة الإنسان لحظة فيقع فيما نهاه الله عنه .. ثم يفيق من قريب ، فيعرف أنه أخطأ في حق ربه فيتوب .. والثانية معصية التكبر على طاعة الله ، وإبداء « وجهة نظر » تخالف ما أمر به الله ، أو هي بعبارة أخرى الحكم في أمر من الأمور بغير ما أنزل الله من تعاليم .. وهذه هي التي سماها الله كفرا بالنسبة لإبليس ، وكفرا كذلك بالنسبة للإنسان الذي يقع في ذات ما وقع فيه إبليس ، فيخالف الله تكبرا على طاعته ، أو يبدي « وجهة نظر » له تخالف ما أمر به الله ، أو يحكم في أمر من الأمور بغير ما أنزل الله لأنه لا يعتبر أن ما أنزل الله واجب التنفيذ !

ولكن يلفت نظرنا ـ بالإضافة إلى ذلك ـ أن القرآن سمى ذلك الكفر عبادة للشيطان :

« ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ؟ وأن اعبدوني ، هذا صراط مستقيم ؟ ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون ؟! » [2]

---

(١) نتحدث عن السلوك فيما بعد .

(٢) سورة يس [٦٠ – ٦٢] .

وليست هنا عبادة للشيطان بمعنى إقامة المعابد له ، وإقامة الشعائر التعبدية له في تلك المعابد !

ولكنها العبادة بمعنى الطاعة والاتباع ..

وعبادة الله كذلك معناها الطاعة والاتباع ..!

هو معنى واحد هنا وهناك ..

فمحاولة تحوير العبادة بالنسبة لله سبحانه وتعالى إلى مجرد الإقرار بوحدانيته وتقديم شعائر التعبد إليه ، دون الطاعة والاتباع فيما أمر به من تشريعات وتنظيمات تنظم حياة البشر على الأرض ، هي مغالطة « لغوية » للمعجم القرآني ، فضلا عن زيغها العقيدي وضلالها السلوكي ! ولكنها مغالطة مكشوفة حين نرجع إلى معنى العبادة بالنسبة للشيطان !

ومن ثم فإن لا إله إلا الله لا ينتهي مدلولها ـ ولا مفعولها ـ عند الإقرار بوحدانية الله وتقديم الشعائر التعبدية فحسب . إن معناها هو الطاعة لله ، والحكم بما أنزل الله ، واتباع منهج الله .. وإلا فإنها ليست لا إله إلا الله ! !

ومن تدبر وضع « عمارة الأرض » في المنهج الرباني يتبين لنا أمران في وقت واحد :

الأمر الأول أن عمارة الأرض في ظل منهج الله تختلف اختلافاً رئيسياً عن عمارة الأرض في ظل منهج الشيطان .. كلا المنهجين يستخدم قدرات الإنسان ومواهبه وقدرته على الإبداع ، فيستخلص بذلك كله طاقات مكنونة في الكون ، ويسعى بالعلم النظري والتطبيقي إلى تسخير هذه الطاقات لتعمير الأرض وتيسير الحياة للإنسان .

ولكنهما ـ منذ البدء ـ يختلفان في الهدف ، فيختلفان في النتيجة .

أولهما ينظر إلى الأمر على أنه عبادة .. عبادة لله .. فيتقي الله فيما يصنع . لا يظلم ليسيطر . لا يظلم ليثري . لا يظلم ليقيم « حضارة » . لا يظلم ليستمتع بثمار « حضارته » على حساب الآخرين . ثم .. مرة أخرى .. يتقي الله فيما يصنع ، فلا يفسد « الأخلاق » ليسيطر ، ولا يفسد الأخلاق ليثري ، ولا يفسد الأخلاق ليقيم حضارة ، ولا يفسد الأخلاق ليستمتع بثمار حضارته . أو لا يجعل ثمرة ذلك كله فساد الأخلاق ، بمعناها الواسع الذي يشمل الجنس ويشمل كل تعامل بين البشر بعضهم وبعض ، بما في ذلك تعامل السياسة وتعامل الاقتصاد وتعامل الفكر والفن .. ثم .. يتقي الله مرة ثالثة فيما يصنع ، فلا يفسد « الفطرة البشرية » ليسيطر أو يثري أو يقيم حضارة أو يستمتع بثمار الحضارة . وإفساد الفطرة أبعد مدى من إفساد الأخلاق .. فطرة الذكر الذي خلقه الله ذكرا ، والأنثى التي خلقها الله أنثى ، وفطرة الإنسان عامة ، الذي خلقه الله من قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله فلا ينبغي حصره في عالم المادة وعالم الحس بحجة تعمير الأرض وإقامة الحضارات ..

وأما الثاني فلا يبالي شيئاً من هذا كله .. إنه يعمر الأرض .. نعم .. ولكن لشيء واحد فقط : هو الاستمتاع ! ومن ثم تهون في نظره القيم كلها أو تُنْفَى ، لأن القيم كلها ـ منذ البدء ـ قيد على المتاع !

حقيقة إنه قيد مقصود به رفع هذا المتاع عن أن يكون متاعا حيوانياً ، وتطهيره ليكون خليقا بالإنسان ، دون كبته ولا مصادرة منابعه . ولكن حين يكون الهدف هو المتاع ولا زيادة ، فإن القيد كله يصبح شيئاً كريهاً في ذاته ، ولو كان نابعاً من ذات الفطرة ، ولو كان هو القيد الذي يجعل الإنسان إنساناً ويحول بينه وبين الهُوِيِّ إلى عالم الحيوان !

ومنهج الشيطان هو « تزيين » الأرض للمتاع .. « لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين ! » وهو هو منهج الجاهلية في تعمير الأرض .. تبدع في تعميرها وتفتنّ .. ولكنها تحطم « الإنسان » الذي تُعَمَّر الأرض من أجله ، وتنتكس به دائماً إلى حمأة يعف عنها الحيوان ! ! وأوقع مثال ذلك هو جاهلية القرن العشرين ، التي « عمرت » الأرض كما لم تعمّر في تاريخها كله ، و« خربت » الإنسان بما لم يحدث له مثيل في التاريخ !

والأمر الثاني الذي يتبين لنا من تدبر وضع « عمارة الأرض » في المنهج الرباني ، أن هذا المنهج لا يضع فارقا بين « العمل للدنيا » و« العمل للآخرة » ! ليست هناك أعمال تعمل من أجل الدنيا ، وأعمال أخرى تعمل من أجل الآخرة .. وإنما هي كلها أعمال من « نوع » واحد وإن اختلفت « أشكالها » لأنها كلها « عبادة » .. العمل في الحقل عبادة . والعمل في المصنع عبادة . والعمل في المدرسة عبادة . والزواج عبادة . والسعي إلى الرزق عبادة .. وشعائر التعبد عبادة ! وكلها للدنيا وكلها للآخرة في آن ! حتى شعائر التعبد التي يظن أنها للآخرة وحدها ، فهي للدنيا كذلك ، لأنها « تنهى عن الفحشاء والمنكر » في الدنيا ، وتبعث على التقوى في الدنيا .. فتستقيم معاملات الناس بعضهم مع بعض في الحياة الدنيا ، في ذات الوقت الذي يقصد بها وجه الله في الآخرة ..

وكما لا تغني عبادة الزواج عن عبادة العمل في المصنع ـ والعكس ـ فكذلك لا تغني عبادة الشعائر عن عبادة العمل في المصنع .. والعكس ! كل العبادات مطلوبة .. كلٌّ في مكانها ووقتها المطلوب .. وكلها للدنيا والآخرة في آن ..

تلك بعض الدروس من قصة آدم .. وكثير غيرها لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد !

ولعله قد تبين لنا أنها كلها دروس في « العقيدة » .. وليس شيء منها عن العقيدة ببعيد !

أخلاقيات لا إله إلا الله

الموضوع السادس من موضوعات السور المكية ـ ولا نقول الأخير ! ـ هو أخلاقيات لا إله إلا الله .. الأخلاقيات الإيمانية التي ينبغي أن يكون عليها المؤمنون بلا إله إلا الله ، والأخلاقيات الجاهلية التي ينبغي أن ينبذها المؤمنون .

والحقيقة أن التنديد « بأخلاقيات » الجاهلية قد بدأ منذ اللحظة الأولى ، مع التنديد بفساد تصوراتهم الاعتقادية ، واستمر معه حتى النهاية .. وفي ذلك دلالة معينة لا ينبغي أن تغيب عن أذهاننا ، وهي أهمية العنصر الأخلاقي في هذا الدين ، وتعمقه إلى الجذور .. الجذور العقيدية ذاتها .. وارتباط التصور الاعتقادي بالسلوك الأخلاقي في شتى مناحى الحياة .

إن الأخلاق ليست شيئاً ثانوياً في هذا الدين . وليست كذلك محصورة في نطاق معين من نطاقات السلوك البشري . إنما هى ركيزة من ركائزه ، كما أنها شاملة للسلوك البشري كله .

يندد القرآن بأخلاقيات الجاهلية منذ السورة الأولى .. سورة العلق .. بل يندد بها **قبل** أن يتحدث عن الفساد العقيدي ذاته . وكأنه ينبهنا بذلك إلى أن الفساد العقيدي ليس فسادا « نظرياً » ولا فسادا في « التصور » المكنون في داخل الضمير فحسب ، بل إن له آثاراً سلوكية عملية يعرف بها ويتميز ..

« كلا ! إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى ! »[1]

والطغيان « خلق » .. خلق جاهلي ينشأ من فساد عقيدي تصوري : « أن رآه استغنى» ! فحين يتصور الإنسان ـ بالوهم ـ أنه قد استغنى بما في يده من المال والبنين والسلطان الممدود في الأرض ، فإنه يطغى ويتجبر ..

ولكن ما هي حقيقة « الاستغناء » هنا ؟ إن الآية تقول « استغنى » وتترك مفهومها يُفهم من بقية السياق . وواضح أنه قد « استغنى » عن الله سبحانه وتعالى ! فإنه حين يكون محتاجاً يتذكر الله ويدعوه ! فإذا أعطاه الله نسي ! نسي أن هذا الرزق الذي بين يديه

---

(١) سورة العلق [٦ ـ ٧] .

هو من عند الله ! ثم نسي حقيقة أخرى : أن الله الذي أعطى ما أعطى قادر على أن يسترد ما أعطى ، ويعيده إلى حالته قبل هذا العطاء !

كلا ! إن الإنسان لينسى هذه الحقائق فيطغى ..

يتوهم أن ما بين يديه من الرزق هو من صنع نفسه ولا يد لله فيه ! ويتوهم أنه باق بين يديه لا يزول ، وليس لله عليه سلطان .. فيجره هذا الوهم وذاك إلى تصور خاطئ ، هو أنه قد استغنى عن الله سبحانه ولم يعد في حاجة إليه .. ومن ثم يطغى فلا يلتزم حدا من الحدود ..

وهذه الأوهام كلها ناشئة عن فساد في التصور الاعتقادي ..

فلو أن هذا الطاغية عرف الله على حقيقته لقدر الله حق قدره .. ولعلم أنه لا يمكن أن « يستغني » عن الله لحظة واحدة .. لأنه هو وكل ما يملك داخل في ملكوت الله سبحانه وتعالى ، خاضع لسلطانه ، ورهن لمشيئته .. إن شاء أبقاه وإن شاء أزاله .. ولا تستطيع قوة في السماء ولا في الأرض أن تمنعه من الله ..

لو أنه عرف هذا على حقيقته لزال عنه وهم « الاستغناء » عن الله .. وزال عنه بالتالي ذلك الطغيان الذي أحدثه وهم الاستغناء .. ولاستقام سلوكه في الأرض نحو الله ونحو الناس ..

وهكذا ينبع السلوك من التصور ، ويؤدي التصور إلى السلوك ..

وإن السياق ليلفتنا إلى هذه الحقيقة حتى قبل أن يشير إشارة مباشرة إلى الفساد العقيدي :

« أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى ؟! أرأيت إن كان على الهدى ، أو أمر بالتقوى ؟! أرأيت إن **كذّب** وتولى ؟ ألم يعلم بأن الله يرى ؟! »[1]

فالأصل في ذلك الانحراف كله أنه «كذّب وتولى» .. كذب بالألوهية الحقة والربوبية الحقة ، وأدار ظهره للهدى الرباني الذي يأمر بالتقوى .. فصار ينهى عبدا إذا صلى ، وصار يطغى لأنه يظن نفسه استغنى !

وهكذا يربط القرآن هذا السلوك الجاهلي بالتصور الجاهلي الفاسد .. ويبرز ذلك السلوك الفاسد ابتداءً ليصل منه في النهاية إلى الأصل الذي نبع منه وهو التصور الفاسد للألوهية والربوبية ..

* * *

(١) سورة العلق [٩ – ١٤] .

فإذا انتقلنا إلى سورة تالية بعد « العلق » وهي سورة « القلم » وجدنا نفس التوكيد على المعنى ذاته :

« نٓ والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون ، وإن لك لأجراً غير ممنون . **وإنك لعلى خلق عظيم** . فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون ! إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين . فلا تطع المكذبين . ودوا لو تدهن فيدهنون ! ولا تطع **كل حلاف مهين ، هماز مشاءٍ بنميم ، مناعٍ للخير معتد أثيم ، عتل بعد ذلك زنيم** . أن كان ذا مال وبنين ، إذا تتلى عليه آياتنا قال : أساطير الأولين . سنسمه على الخرطوم ! »[1]

فهنا ـ كما هناك ـ إبراز واضح للعنصر الأخلاقي من الجانبين : جانب الإيمان وجانب الكفر .

فالرسول صلى الله عليه وسلم يقال له : « وإنك لعلى خلق عظيم » . وقد تكون هذه خصوصية للرسول صلى الله عليه وسلم **من حيث الدرجة** : « على خلق **عظيم** » أما من حيث كونه صلى الله عليه وسلم على خلق ، فذلك من خصوصيات الإيمان التي يبرزها السياق القرآني في مواجهة « أخلاقيات » الكفر في الجانب الآخر : « حلاف مهين ، هماز مشاء بنميم ، مناعٍ للخير معتد أثيم ، عتل بعد ذلك .. »

وكأنما يقدم السياق القرآني مواجهة كاملة بين أخلاقيات الإيمان وأخلاقيات الكفر ، ممثلة في شخصين : شخص الرسول صلى الله عليه وسلم ممثلاً للإيمان ، وشخص الوليد بن المغيرة الذي نزلت فيه هذه الآيات ممثلا للكفر ، أحدهما في القمة من الأخلاق لأنه في القمة من الإيمان ، والآخر في الحضيض من الأخلاق لأنه في الدرك الأسفل من الكفر ..

وواضح أن هناك مقابلة بين الإيمان ذاته وبين الكفر :

فمن جانب : « ما أنت بنعمة ربك بمجنون » [أي أنك مؤمن بربك على وعي وإدراك . والرسالة حق ، والوحي حق ، والبعثة حق ، وليس قولك للناس إنك نبي مرسل أثراً من آثار الجنون ، إنما هو حقيقة] .

ومن الجانب الآخر : « فلا تطع المكذبين » .

ولكن هذه المقابلة العقيدية لا تعرض من خلال تصور اعتقادي فحسب ـ على أهمية التصور الاعتقادي في ذاته ـ وإنما تعرض في صورة سلوك خلقي في ذات الوقت ، وبتوسع ملحوظ في جانب الكفر ، الذي يركز عليه السياق .

وأحياناً نتصور أن هناك ملابسات محلية في سير الدعوة هي التي تطلبت هذا العرض في السياق أو ذاك .. كتعرض أحد كبار المشركين للرسول صلى الله عليه وسلم

---

(١) سورة القلم [١ – ١٦] .

بالأذى ، وتصدي القرآن للمنافحة عنه ، أو تكتل قريش كلها لعملية الإيذاء وتصدي القرآن للرد عليها ..

ولا شك أن الملابسات المحلية كان لها في علم الله السابق مقتضيات .. وأن الله قد أنزل آيات معينة بشأنها .. ولكن الملابسات العارضة قد انتهت ، وبقي القرآن ! بقي كما هو في اللوح المحفوظ ، لم تنسخ منه تلك الآيات التي نزلت بشأن الملابسات العارضة .. وإذن فهي أصل دائم ، لا يتعلق بالمناسبة المعينة التي نزلت فيها الآيات ، إنما يتعلق بحالات دائمة في حياة البشرية .. يتعلق بالكفر والإيمان ، وأخلاقيات الكفر وأخلاقيات الإيمان .

ومهما يكن من أمر الملابسات العارضة ، فإن كون القرآن يندد بالمكذبين من جهة سلوكهم الأخلاقي ، ويبرز من المؤمنين جانبهم الخلقي ، هو ذاته الشيء الذي له دلالة في الموضوع .. ودلالته أن هذا الدين يربط ربطا كاملا بين التصور الاعتقادي والسلوك الخلقي ، سواء من جانب الكفر أو من جانب الإيمان .

* * *

فإذا انتقلنا إلى سورة أخرى مما نزل في السنوات الأولى للدعوة ، كسورة « الفجر » ، وجدنا استمراراً لنفس الخط :

« والفجر ، وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل إذا يسر . هل في ذلك قسم لذي حجر ؟! ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد ، التي لم يخلق مثلها في البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذي الأوتاد ، الذين طغوا في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، فصب عليهم ربك سوط عذاب . إن ربك لبالمرصاد . فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول : ربي أكرمن ! وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول : ربي أهانن ! كلا ! بل لا تكرمون اليتيم ، ولا تحاضون على طعام المسكين . وتأكلون التراث أكلا لما ، وتحبون المال حباً جماً . كلا !... »[1] .

إن مقدمة السورة ـ بعد القسم الذي يمهد للإشعار بأهمية ما يجيء بعده ـ تتحدث عن مصارع الأمم السابقة المكذبة : عاد وثمود وفرعون ، الذين طغوا في البلاد ، **فأكثروا فيها الفساد** ، فصب عليهم ربك سوط عذاب .. وذلك من باب التهديد لقريش ، المستعلية في الأرض ، المستكبرة على الإيمان ، الطاغية كطغيان عاد وثمود وفرعون ، وإن كان ما بيدها من متاع الحياة الدنيا ، الذي يُنْسِي فيُطْغِي ، لا يقاس بشيء إلى ما كان عند هؤلاء كما جاء في سورة سبأ :

---

(١) سورة الفجر [١ – ٢١] .

« وكذّب الذين من قبلهم ، وما بلغوا معشار ما آتيناهم ، فكذبوا رسلي فكيف كان نكير » [1] .

وكما يوحي السؤال الاستنكاري في سورة القمر ، بعد الحديث عن عاد وثمود وقوم لوط وقوم فرعون :

« أكفاركم خير من أولئكم ؟! » [2]

هذا التهديد يأخذ صورته الصريحة في قوله تعالى : « إن ربك لبالمرصاد » .. أي إنه بالمرصاد لقريش ، يفعل بها ما فعل بالمكذبين من قبل ، المعروف تاريخهم ـ إجمالاً على الأقل ـ عند العرب ، بحيث يكفي التذكير : « ألم تر كيف فعل ربك .. » .

والمفروض بطبيعة الحال أن التهديد يأتي بسبب التكذيب العقيدي الذي تمارسه قريش وتصر عليه .. ولكن كيف يقول السياق ؟

إنه يعرض قضية تبدو ـ في ظاهرها ـ بعيدة الصلة بقضية الاعتقاد في الله الواحد ، التي هي المشكلة الأصيلة بالنسبة لقريش التي تقول : «أجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟! إن هذا لشيء عجاب ! » [3]

القضية هي موقف الإنسان ـ الجاهلي ـ من عطاء الله إن وسع عليه في الرزق وإن قدر عليه رزقه :

فأما الإنسان إذا ما **ابتلاه** ربه فأكرمه ونعمه وبسط له في الرزق فإنه كما يقول عنه القرآن في سورة « هود » : فرح فخور ! لا ينظر إلى النعمة على أنها ابتلاء من عند الله ، كما أحس العبد المؤمن سليمان عليه السلام فقال : « هذا من فضل ربي **ليبلوني** : **أأشكر أم أكفر** . ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربي غنيّ كريم » [4] .

إنما « يفرح » بما بين يديه من الرزق (وتعبير القرآن بالفرح لا يعني السعادة إنما يعني الخيلاء والاستكبار في الأرض بغير الحق) وينسى أنه ابتلاء ، ويتوهم أن الله أعطاه لأنه راضٍ عنه « فيقول : ربي أكرمنِ ! » وإذاً فلا عليه أن يتصرف في ماله كما يشاء ! يعيث به في الأرض فسادا ، ويرصده لخدمة الشيطان .. ويطغى ما دام توهم أنه استغنى ! «كلا ! إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى » [5] .

وأما إذا ما **ابتلاه** فقدر عليه رزقه فهو كما يصفه القرآن في سورة « هود » أيضاً :

---

(١) سورة سبأ [٤٥] .

(٢) سورة القمر [٤٣] .

(٣) سورة صٓ [٥] .

(٤) سورة النمل [٤٠] .

(٥) سورة العلق [٦ - ٧] .

«يئوس كفور .. » « فيقول ربي أهانن ! » ولا يصبر للضائقة حتى تمر ، ولا يتوجه إلى الله ليرفعها عنه ، بل يولي ظهره لله قانطاً من رحمته كافرا به ..

إنه في كلا الحالين إذاً **يتصرف** تصرفاً معيناً مبنياً على تصور خاطئ . والسياق يبرز الجانب السلوكي المنحرف الذي يترتب على التصور المنحرف ، وإن كان التصور الفاسد هنا لا يتعلق بوحدانية الله إنما بتدبير الله والحكمة الكامنة وراء التدبير .

ثم يمضي السياق فيندد بالسلوك الجاهلي تجاه المال ، المتسم بالشح على الضعفاء والمساكين ، والافتئات على أصحاب الحق في هذا المال :

« كلا ! بل لا تكرمون اليتيم ، ولا تحاضون على طعام المسكين ، وتأكلون التراث أكلا لمًّا ، وتحبون المال حبا جمًّا » .

وكلها **انحرافات أخلاقية** ، تنبع من قلب لا يخشى الله ولا يتقيه ، ولا يحس أن المال مال الله ابتداء ، وأن الله يمنحه لخلقه ـ على سعة أو ضيق ـ ليبلوهم فيما آتاهم ، وينظر كيف تكون مشاعرهم وسلوكهم تجاه ما أعطاهم . إنما يجعل المال هدفاً في ذاته ، فيتحول الاستحواذ عليه إلى شهوة متسلطة تستعبده وتفسد مشاعره وسلوكه .

فالأصل في هذه التصرفات جميعا هو انحراف في التصور الاعتقادي ، ولكن القرآن يبرزه من خلال الجانب السلوكي الأخلاقي ، ليؤكد أن انحراف التصور يتبعه انحراف حتمي في السلوك .

* * *

فإذا جئنا إلى آخر سورة نزلت في مكة ، وهي سورة « المطففين » وجدنا نفس التوكيد على الجانب السلوكي :

« ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون . ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ؟ يوم يقوم الناس لرب العالمين ؟ كلا ! إن كتاب الفجار لفي سجّين . وما أدراك ما سجّين ! كتاب مرقوم . ويل يومئذ للمكذبين ، الذين يكذبون بيوم الدين . وما يكذب به إلا كل معتد أثيم ، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ! » [1]

تبدأ السورة بالتنديد بهذا السلوك الأخلاقي المنحرف الذي يزاوله المطففون الذين يستوفون حقوقهم كاملة إذا كانوا هم المشترين . أما إن كانوا هم الذين يبيعون فإنهم يُخْسِرون الكيل والميزان ليأخذوا ما ليس حقاً لهم ، ويستحوذوا بالباطل على مزيد من المال ..

---

(١) سورة المطففين [١ - ١٣] .

إنه مرة أخرى سلوك جاهلي منحرف إزاء المال ، يتسم بالجشع والافتئات على حقوق الآخرين من أجل تضخيم الثروات . ونابع كذلك من انحراف في التصور الاعتقادي ، إذ لا يخطر في بال هؤلاء أنهم مبعوثون لذلك اليوم العظيم الذي يقوم فيه الناس لرب العالمين فيحاسبهم على أعمالهم في الدنيا . بل إنهم ليكذبون صراحة بيوم الدين ، ويقولون عن الآيات التي تذكرهم به إنها أساطير الأولين ! وهذا هو انحرافهم العقيدي الأصيل الذي يبرزه السياق ، ولكنه يبرزه بادئ ذي بدء من خلال سلوك أخلاقي منحرف ، ويصل في النهاية إلى جذوره العقيدية الفاسدة ..

* * *

هذه العناية الواضحة بإبراز الجانب السلوكي الأخلاقي للعقيدة المنحرفة ، يقابلها عناية واضحة كذلك بإبراز السلوك الأخلاقي الصحيح ، المصاحب للعقيدة الصحيحة :

« قد أفلح المؤمنون ، الذين هم في صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ، فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم على صلواتهم يحافظون . أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس ، هم فيها خالدون » [1] .

فالسورة تبدأ بتقرير الفَلَاح للمؤمنين بهذا التوكيد : « **قد** أفلح المؤمنون » ثم تصف هؤلاء المؤمنين ذلك الوصف المطول المفصل الذي يُعْنَى بإبراز الجانب السلوكي لأولئك المؤمنين ، موحيا إيحاء واضحاً أن هذه الأخلاقيات من جهة هي ثمرة الإيمان ، وأن الإيمان ـ من جهة أخرى ـ هو سلوك عملي ملموس يترجم عن العقيدة المكنونة .

إنهم بادئ ذي بدء خاشعون في صلاتهم . فذلك أول مظهر للمؤمن الصادق : أن تكون صلاته ـ وهي اللحظة التي يقف فيها متعبداً لربه ، ذاكراً له في قلبه ، متصلاً به بروحه ـ تكون صلاته هذه خاشعة بما ينبئ عن صدق الصلة بالله ، التي يرتفع نبضها وحرارتها في أثناء الصلاة .

ثم تثني الصورة بصفة سلوكية أخرى ذات دلالة ، هي أنهم عن اللغو معرضون . فاللغو لا ينبئ عن نفس جادة . والإيمان الصحيح يورث النفس الجد ، بما يشعرها من ثقل التكليف وجديته . والجد ليس تقطيباً دائماً ولا عبوسا . ولكن اللغو من جانب آخر لا يستقيم مع جدية الشعور بعظم الأمانة التي يحملها الإنسان أمام خالقه .

ثم إن هؤلاء المؤمنين لا بد أن تكون في قلوبهم الحساسية لحق الله في أموالهم ، وهو

---

(١) سورة المؤمنون [١ - ١١] .

الزكاة ، وهو الحق الذي تعبر عنه سورة المعارج أيضاً : « والذين في أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم »[1] وذلك في مقابل : «كلا ! بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين ، وتأكلون التراث أكلاً لما ! »[2]

ولا بد أن يكونوا ملتزمين بأوامر الله في علاقات الجنس فلا يتعدون حدود الله . وملتزمين بأوامره في علاقاتهم « الاجتماعية » فيحفظون الأمانة ويرعون العهد .

ثم يعود السياق للصلاة مرة أخرى ، من ناحية المحافظة عليها في مواعيدها هذه المرة ، بعد أن ذكر صفتها الواجبة من قبل .

وينتهي السياق ببيان مكان أولئك المؤمنين يوم القيامة : في الفردوس ، **يرثونها** ، كأنها حق لهم محفوظ !

إن هذه المظاهر السلوكية كلها ، ذات الصبغة الخلقية الواضحة ، هي الترجمة العملية للإيمان . فالإيمان ليس مشاعر مكنونة في داخل الضمير فحسب .. إنما هو عمل سلوكي ظاهر كذلك ، بحيث يحق لنا حين لا نرى ذلك السلوك العملي ، أو حين نرى عكسه ، أن نتساءل : أين الإيمان إذن ؟ وما قيمته إذا لم يتحول إلى سلوك ؟!

* * *

« وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما . والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما . والذين يقولون : ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما ، إنها ساءت مستقرا ومقاما . والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما . والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرّم الله إلا بالحق ولا يزنون . ومن يفعل ذلك يلق أثاما . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ، إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات . وكان الله غفورا رحيما . ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا . والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما . والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا . والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما . أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما ، خالدين فيها ، حسنت مستقرا ومقاما »[3] .

« .. وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . والذين يجتنبون كبائر

---

(١) سورة المعارج [٢٤ – ٢٥] .

(٢) سورة الفجر [١٧ – ١٩] .

(٣) سورة الفرقان [٦٣ – ٧٦] .

الإثم والفواحش ، وإذا ما غضبوا هم يغفرون . والذين استجابوا لربهم ، وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ، ومما رزقناهم ينفقون . والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون . وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله . إنه لا يحب الظالمين . ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل . إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق . أولئك لهم عذاب أليم . ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور »[1].

« .. إنهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلا من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون . وفي أموالهم حق للسائل والمحروم »[2].

إنها مجموعات مختلفة من الصفات تتألف من مجموعها الصورة الصحيحة للإيمان . وهي صورة تجمع بين العقيدة المستقرة في القلب ، والسلوك الأخلاقي المصاحب لها في الواقع المشهود . ولكنها ــ كما نرى ــ تبرز السلوك الأخلاقي إبرازا واضحا ، وتعطينا ذلك الإيحاء القوي بأن الإيمان ــ الذي كثيراً ما نجنح إلى اعتباره عقيدة فحسب ــ هو في الحقيقة سلوك واقعي ، وإلا .. فلا قيمة لهذا الإيمان !

* * *

شيء هام في الأخلاقيات الإسلامية يلفت النظر لأول وهلة ، حين نقابل بينها وبين السلوك التهذيبي الذي تحرص عليه الجاهلية المعاصرة ، ويخدع الناس كثيرا فيظنونه هو « الأخلاق » !

إن الجاهلية المعاصرة تحرص على كثير من الصفات السلوكية القريبة جدا ــ في صورتها الظاهرة ــ من الأخلاقيات الإسلامية ، حتى لينبهر بها كثير من الناس ، خاصة وهم يرون الخواء الحالي الذي يعيش فيه الذين يسمون أنفسهم مسلمين ، دون أن يعنّوا أنفسهم بالتزام شيء من الأخلاقيات الإسلامية على الإطلاق ! فيكذبون ويغشون ويسرقون وينهبون ويظلمون ويطففون ويخلفون الوعد ويأكلون حقوق الناس .. ثم تصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى ! ! بينما يرى الناس في تلك الجاهلية الغربية قوما يحرصون على نظافة التعامل : لا يكذبون ولا يغشون ولا يخلفون الوعد .. وإذا عملوا عملا أتقنوه وأتموه .. فيقولون في أنفسهم ، هذه والله أخلاقيات الإسلام ، تخلينا نحن عنها وتمسك بها القوم !

فأما أننا تخلينا عنها .. فنعم ولا شك ! وأما أن هؤلاء يتمسكون بها .. فهنا موضع البيان !

إن الأخلاق في المفهوم القرآني شيء شامل يشمل **كل** تصرفات الإنسان وكل مشاعره

---

(١) سورة الشورى [٣٦ – ٤٣] .

(٢) سورة الذاريات [١٦ – ١٩] .

وكل تفكيره .. حتى الهاجس الذي يهجس داخل الضمير . فهي ليست محددة بمساحة معينة ولا بعمل معين .. ولا يوجد ـ في الإسلام ـ عمل واحد يمكن أن يخرج عن دائرة الأخلاق . فالصلاة ـ كما رأينا في الآيات ـ لها أخلاق هى الخشوع . والكلام له أخلاق هى الإعراض عن اللغو . والجنس له أخلاق هي الالتزام بحدود الله وحرماته . والتعامل مع الآخرين له أخلاق هي الوفاء بالأمانة ورعاية العهد . والإنفاق له أخلاق هي التوسط بين التقتير والإسراف . والحياة الجماعية لها أخلاق هي أن يكون الأمر شورى بين الناس . والغضب له أخلاق هي العفو والصفح . ووقوع العدوان من الأعداء يستتبعه أخلاق هي « الانتصار » أي رد العدوان .. وهكذا .. وهكذا لا يوجد شيء واحد في حياة المسلم ليست له أخلاق تكيّفه ، ولا شيء واحد ليست له دلالة أخلاقية مصاحبة ..

هذا أمر .. والأمر الآخر ـ وهو الأهم ـ أن الأخلاق في المفهوم القرآني هي **لله** وليست للبشر ، ولا لأحد غير الله !

الصدق .. لله . والوفاء بالعهد .. لله . واتقاء المحرمات في علاقات الجنس .. لله . والزكاة .. لله . والعفو والصفح .. لله . والانتصار من الظلم .. لله . وإتقان العمل .. لله . كلها كلها **عبادة** لله .. تقدم له وحده .. خشية وتقوى .. وتطلعاً إلى رضاه :

« إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه » [1]

إنها ليست صفقة بشرية للكسب والخسارة .. إنما هي صفقة تعقد مع الله :

« قل : تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم : ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق . ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا . ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون . **وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله . ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون** » [2] .

ذلك هو الميثاق الأخلاقي الشامل الذي يلتزم به المؤمن اتباعا لصراط الله المستقيم **فهو إذن جزء من العقيدة** ، مرتبط بها ارتباطاً أساسياً لا ينفصل عنها بحال ..

وإذ عرفنا هذين الأمرين عن الأخلاق الإسلامية فلننظر في « أخلاقيات » الجاهلية المعاصرة ..

---

(١) أخرجه النسائي ـ كتاب الجهاد .

(٢) سورة الأنعام [١٥١-١٥٣] .

لقد كان لأوربا في وقت من الأوقات ـ وقت دخول المسيحية إليها ـ مفهوم شامل للأخلاق .. ولكنه لم يعش طويلا ، أو قل إنه لم يطبق أبداً في واقع الأمر ! ثم جاء مكيافيللي فابتدع مبدأ « الغاية تبرر الوسيلة » تعبيراً عن أعماق الضمير الأوربي ! وسارع الساسة إلى اتباع ذلك المبدأ وقال القائلون : إن السياسة لا علاقة لها بالأخلاق !

ثم جاءت الثورة الصناعية مع مولد الرأسمالية الربوية .. وقامت اعتراضات على استخدام الربا وهو محرم من عند الله ، فقامت الصيحات تقول : إن هذه أمور اقتصادية .. والاقتصاد لا علاقة له بالأخلاق !

ثم جاءت حركة التحلل الجنسي البشعة التي تعم وجه الأرض اليوم .. وقال الغرب : هذه مسألة بيولوجية ! وليس لها علاقة بالأخلاق !

فماذا بقي عندهم من « الأخلاق » ؟

بقي هذا التعامل السمح ، والصدق في القول ، وأمانة الأخذ والعطاء ، والوفاء بالمواعيد ، واتقان العمل ...

وهذه كلها أشياء جميلة ولا شك .. ولكن أوربا لا تصنعها بوازع **أخلاقي** ! كلا ! إنما هي « أخلاق تجارية » إن صح التعبير .. هدفها الحرص على الزبون ، والربح المتوقع من وراء ذلك السلوك !

أما إذا كان الزبون « فريسة » مضمونة ، أو رأى الأوربي أن الربح ممكن بطريق آخر .. فلا أخلاق إذن .. بل لا إنسانية على الإطلاق ! وانظر إلى « أخلاق » أمريكا مع الزنوج ، و« أخلاق » البيض في جنوب إفريقيا ، وعشرات غيرها من صور « الأخلاق » التي تكشف عن المعدن الحقيقي لهذه الجاهلية الموغلة في الظلم والظلمات !

* * *

أما نحن .. فمسئوليتنا أكبر !

نحن نملك هذا المنهاج الرباني الشامل ، ثم نعيش في جاهلية أكثر ظلاما من جاهلية الغرب الذي ليس له منهاج رباني ، ولا صراط مستقيم يفيء إليه .. منذ رفض في القرون الوسطى أن يدخل في هدى الله . .

نحن نخالف في حياتنا العملية كل تعاليم الإسلام .. ثم نزعم أننا ـ نحن ـ أمة محمد ! وأننا مسلمون !

ثم نروح نتساءل : ما بال « المسلمين » هكذا ، يتناوشهم الذل والهوان في كل الأرض ، ولا معين لهم ولا نصير ؟

مسلمون بلا أخلاق ؟!

كيف بالله ذلك يكون ؟

ومتى .. متى كان هذا الدين مشاعر مكنونة في القلب ، ليس لها رصيد سلوكى في واقع الأرض ؟

حين كان المسلمون يترجمون إسلامهم إلى سلوك عملي ذي طابع خلقي .. كانت لهم الغلبة في الأرض ، وكان لهم قياد البشرية ..

وحين صار « المسلمون » يرون أنهم يستطيعون أن يكونوا مسلمين بلا سلوك عملي ولا أخلاق إسلامية .. أصابهم ما أصابهم من الهوان والذل في الأرض .. وتداعت عليهم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها .. كما حدّث رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ ألف وأربعمائة عام !

« يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها . قالوا : أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ! قال : بل أنتم كثير ! ولكنكم غثاء كغثاء السيل ! » [1]

إننا في حاجة لأن نتعرف على ديننا من جديد ..

نتعرف عليه من مصادره الصافية الأصيلة : كتاب الله وسنّة رسوله صلى الله عليه وسلم .

ثم نحتاج أن نربي أنفسنا على الإسلام من جديد ..

إن الإسلام ليس أمانيّ .. وليس كلمة تقال باللسان :

« ليس بأمانيكم ولا أمانيّ أهل الكتاب ! مَن يعمل سوءاً يُجزَ به ولا يَجِدْ له من دون الله وليا ولا نصيرا . **ومن يعمل من الصالحات** من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا » [2] .

عقيدة في القلب ، وعمل صالح في واقع الحياة ..

هذا الذي يعطى الإسلام صورته الحقيقية .. وهذا الذي يرفع عن المسلمين ما وقعوا فيه من مذلة وهوان في يد عدو لا يرقب فيهم إلاًّ ولا ذمة كما ورد في القرآن :

« لا يرقبون في مؤمن إلاًّ ولا ذمة » [3] .

« ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا » [4] .

« .. ودّوا ما عنتّم . قد بدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفي صدورهم أكبر » [5] .

ولن يتم الأمر بغير تربية .. فالسلوك العملي والأخلاق التي هي حقيقة الإسلام وثمرته لا تتم بغير تربية عملية يبذل فيها كل الجهد لكى تؤتي ثمارها المرجوة بتوفيق من الله .

---

(١) أخرجه أبو داود ـ كتاب الملاحم .

(٢) سورة النساء [١٢٣ – ١٢٤] .

(٣) سورة التوبة [١٠] .

(٤) سورة البقرة [٢١٧] .

(٥) سورة آل عمران [١١٨] .

إنك لا تستطيع أن تنشّئ طفلك على الصدق والأمانة والوفاء بالعهد والاستقامة في التعامل والجد في العمل ـ وتلك **بعض** أخلاقيات الإسلام ـ بمجرد أن تقول له بفمك : كن صادقاً . كن أمينا . كن وفياً بالعهد ... الخ .

إنما يحتاج الأمر إلى المثابرة الطويلة حتى **تعوّده** على الصدق والأمانة والوفاء بالعهد... الخ . مع التذكير الدائم برقابة الله وثواب الله وعقاب الله ..

كذلك كان يفعل الرسول صلى الله عليه وسلم ـ معطياً من نفسه القدوة والأسوة ـ حتى ربّى الجيل الأول من المؤمنين .. صحابته رضوان الله عليهم .

وبهذه **التربية** صنعوا ما صنعوا في التاريخ . وتفتحت للإسلام قلوب البشر حين رأوا سلوكه العملي وأخلاقياته العالية ممثلة في تصرفات هؤلاء القوم وأفكارهم ومشاعرهم .

والطريق هو الطريق .. لا يتغير ولا يتبدل ..

وحين يحدثنا القرآن عن أخلاقيات الجاهلية الكريهة ، وعن أخلاقيات الإيمان العالية ، يوحى إلينا أن الجاهلية تكون بتلك الأخلاق ، وأن الإسلام يكون بهذه الأخلاق ..

وبذلك يكون درس الأخلاق جزءاً من درس العقيدة .. وثيق الصلة بلا إله إلا الله ..

نَمَاذِج مِنَ السُّوَرِ المَكِّيَّة

نماذج من السور المكية

تحدثنا فيما سبق عن الموضوعات الستة الكبرى التي تتناولها السور المكية ، وكيف إنها كلها متصلة بالعقيدة ، وكلها وسائل لتوضيح العقيدة الصحيحة وترسيخها في النفوس ، سواء منها ما يتصل بالإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، أو يتصل بقصص الأنبياء أو قصة آدم والشيطان أو أخلاقيات لا إله إلا الله .

ولكن ينبغي أن نعرف بادئ ذي بدء أن هذه التقسيمات الموضوعية التي نقسمها هي من ضرورات البحث فقط ، وليس لها وجود على هذه الصورة المبوبة المعنونة في القرآن ! أي أنه لا يوجد باب مستقل في القرآن للإيمان بالله ، وباب آخر للإيمان باليوم الآخر .. وهكذا . إنما نحن نضطر لهذه التقسيمات والتجريدات لضرورة البحث ، ولا بد أن نعود بعد ذلك إلى القرآن ذاته ، نتلوه على صورته الواقعية كما أنزل ، ونأخذ تأثراتنا مباشرة منه . وسنجد حينئذ أن التنزيل الرباني الحكيم مزاج محكم من هذه العناصر كلها التي تحدثنا عنها ، يوقع في كل مرة توقيعاً متكاملاً على أوتار القلب البشري ، يعلم اللطيف الخبير مدخله إلى هذا القلب وتأثيره فيه ..

وليس من الضروري أن تتحدث كل سورة مكية عن هذه الموضوعات الستة التي أشرنا إليها من قبل وإن كان من المؤكد أن تتناول واحداً منها على الأقل . كما أنه ليس من الضروري حين تتناول السورة أحد الموضوعات أن تتناوله بكل تفصيلاته التي تحدثنا عنها في القسم الأول من هذا الكتاب ، ولكنها لا بد أن تتناول بعضها على أقل تقدير . وهذا الأمر ذاته هو لون من ألوان التنويع الملحوظ في القرآن ، بحيث لا تتماثل سورتان اثنتان من سور القرآن وإن تشابهتا في بعض الجزئيات . بل حتى حين تكون الجزئيات واحدة في سورتين أو أكثر ، فإن طريقة عرضها تختلف في كل مرة ، بحيث تعطى جواً خاصاً في كل مرة ، كما تعطى لوناً من التخصص لكل سورة من السور تميزها عن السور الأخرى . ولأهمية هذه الظاهرة أفردنا لها فصلا خاصاً من الكتاب .

وإذا تتبعنا السور المكية بترتيبها في المصحف فسنجد سورة الأنعام متخصصة – على طولها – في قضية الألوهية . ولا ينفي ذلك ورود إشارات عن مشاهد القيامة ، وعن الرسل السابقين ، وعن أخلاقيات لا إله إلا الله ، وغيرها .. ولكن المساحة الكبرى مخصصة لقضية الألوهية من جميع جوانبها .

وأما سورة الأعراف فتحتوي على أطول عرض لقصة آدم والشيطان ولمشاهد القيامة . ثم تجيء بعد ذلك مجموعة من قصص الأنبياء مع تفصيل مطول لقصة موسى وفرعون . ولا ينفي ذلك أن يرد فيها حديث مباشر عن الألوهية وإشارات إلى الجن والملائكة . . الخ .

وسورة يونس تتحدث في القسم الأكبر منها عن قضية الألوهية وموقف مشركى العرب منها ، ثم تعرج على نوح ، ثم تعرض جزءاً من قصة موسى وفرعون ينتهي بغرق فرعون وتنجيته بجسده ثم تعود إلى قضية الألوهية وموقف المشركين منها .

وسورة هود متخصصة في قصص الأنبياء مع تفصيل في الحوار بين الرسل والمكذبين من قومهم . وبهذه المناسبة نذكر أن سورة الأعراف وسورة هود وسورة الشعراء تورد ذات القصص : قصص نوح وعاد وثمود ولوط وشعيب ، ومع ذلك فهناك فرق واضح بين صور العرض في كل من السور الثلاث في الجو العام والتفصيلات ونقط التركيز . وهكذا تتشابه السور ولا تتماثل مهما تكرر ورود الموضوعات ذاتها في القرآن[1] .

ثم تأتي بعد ذلك سور أقصر ، فيها ذات المزاج من الموضوعات المتعلقة بالعقيدة بنسب مختلفة في كل مرة ، وبعرض جديد في كل مرة . بحيث يحس الإنسان دائماً مع القرآن أنه في جو متجدد على الدوام ، وأنه يعيش مع الله في كل لحظة وفي كل عرض جديد !

وسوف نستعرض هنا بعض النماذج من السور المكية لنرى كيف يعالج القرآن قضايا العقيدة « على الطبيعة » لا على طريقتنا العقلية التجريدية التي تقسم الموضوع إلى عناصر ومفردات ! وكيف تتجمع التوقيعات لتعطي لحناً متوافقاً متكاملاً يختلف في كل مرة ، ولكنه يصل في النهاية إلى نفس الغاية . . يصل إلى الله .

وليس المقصود من عرض هذه النماذج ــ ولا النماذج المدنية حين تأتي في موضعها ــ إعطاء أي لون من ألوان « التفسير » . فمن أراد التفسير فليرجع إليه في مصادره المعروفة . ولكني أعرضها فقط كنماذج لبيان طريقة القرآن في معالجة الموضوعات التي يتناولها ، وبيان اختلاف طرائق العرض وإن اتحد الهدف واتحد الموضوع .

ولقد اخترت في مقدمة ما اخترت من النماذج سورة الرعد . وفي السورة خلاف بين المفسرين في كونها مكية أو مدنية . وقد رجّح صاحب الظلال أنها مكية . وهناك من الدلائل ما يرجح هذا الظن ، وإن كان القطع الكامل غير ممكن . وقد اخترتها ــ مع النماذج الأخرى المتفق على كونها مكية ــ لأنها ، مع صغر حجمها نسبياً ، تشتمل على حشد رائع من التوقيعات المتصلة بالعقيدة قد لا يتجمع في صورته هذه في السور الأخرى

---

(١) انظر الفصل التالي .

المساوية لها في الطول ، بالإضافة إلى أن لها في نفسي إيقاعات خاصة أحببت أن أشرك القارئ فيها معي !

فإذا تبين في أي يوم من الأيام أنها سورة مدنية على سبيل القطع [وكونها مكية هو الأرجح عندي حتى هذه اللحظة] فإن ذلك لن يغير شيئاً في الوضع . فقد قلنا من قبل إن حديث العقيدة لم ينته بانتهاء الفترة المكية ، بل ظل القرآن في الفترة المدنية يتحدث عن العقيدة حتى آخر آية نزلت من القرآن !

واخترت كذلك سورة لقمان وسورة فاطر لتأثرات خاصة عندي لا يتحتم أن تكون موجودة عند كل قارئ ! ولكن القرآن كله قرآن ! وحيثما أردت فستجد النماذج التي تعطيك ما تريد . بل تعطيك بقدر ما تطيق أنت أن تأخذ ، ويظل فيها دائماً جديد لكل مستزيد . فهي البحر الزاخر تذهب إليه لتغترف منه فيعطيك على قدر الإناء الذي أتيت به ، ولو جئت بإناء أكبر لأعطاك !

بل ينفد البحر ولا تنفد كلمات الله :

« قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا »[1] .

« ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله . إن الله عزيز حكيم »[2] .

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول في وصف القرآن « .. لا تبلى جدته ولا تنفد عجائبه »[3] أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

---

(١) سورة الكهف [١٠٩] .

(٢) سورة لقمان [٢٧] .

(٣) أخرجه الدارمي ــ كتاب فضائل القرآن .

سورة الرعد

بسم الله الرحمن الرحيم

« المر . تلك آيات الكتاب . والذي أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون . الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى . يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذي مدّ الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يغشي الليل النهار ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفي الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب ، وزرع ونخيل صنوانٌ وغير صنوانٍ يسقى بماءٍ واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل . إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون . وإن تعجب فعجبٌ قولهم : أإذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد ؟! أولئك الذين كفروا بربهم ، وأولئك الأغلال في أعناقهم ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

القضايا الرئيسية التي تعالجها هذه السورة هي إنكار العرب المشركين للوحي والرسالة ، وإنكارهم للبعث ، ثم طلبهم الملحّ من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بآية وتعليق إيمانهم على نزول تلك الآية .

وهذا هو الذي يرجح أنها سورة مكية . فقد كان الإلحاح في طلب الآية ، واهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الطلب وتمنيه لو أن الله استجاب لهم فأنزل لهم الآية التي يريدونها .. كل هذا كان في العهد المكي كما تشير إليه هذه الآيات المكية على سبيل المثال :

« وإن كان كبر عليك إعراضهم ، فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية ! ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ، فلا تكونن من الجاهلين . إنما يستجيب الذين يسمعون . والموتى يبعثهم الله ثم إليه يُرْجَعون . وقالوا : لولا نزل عليه آية من ربه ! قل : إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون ! » [1]

---

(١) سورة الأنعام [٣٥ – ٣٧] .

« طسٓمٓ . تلك آيات الكتاب المبين . لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين . إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين » [1] .

« وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذّب بها الأولون ... » [2]

* * *

على أية حال فتلك هي القضايا التي تعالجها السورة وتتصدى للرد عليها ، سواء كانت مكية أو مدنية .. فكيف عالجتها ؟

إن للقرآن طريقته الخاصة في معالجة هذا القضايا . طريقة لا تخاطب الذهن المجرد ولكنها تخاطب « الإنسان » كله . وتخاطبه ــ أول ما تخاطبه ــ من طريق الوجدان . ولا يمنع هذا أن تدعو عقله للمشاركة في الأمر ، ولكنها لا تخاطبه منفردا ، إنما تخاطبه دائماً والوجدان مستجاش ، فيأخذ دوره في التلقي منفعلا بالقضية ، متحركاً للإيمان بها ، لا مجرد مُسَاجِلٍ فيها بالمنطق والبرهان !

والقرآن حين يصنع ذلك فهو يستجيب للفطرة البشرية كما خلقها الله . فالله الذي خلق هذه الفطرة هو الذي نزّل هذا القرآن مفصلاً على قدها ، مستجيباً لها ، ومحيياً لها وباعثاً ومقوّماً في آن .

والعقل جزء من هذه الفطرة ولا شك ، وله دوره في قضية الإيمان .. ولكن الله يعلم الشروط اللازمة لهذا العقل حين يتناول قضية من قضايا « الحياة » .

إنه يمكن أن يعمل وحده ــ بل ينبغي أن يعمل وحده ــ حين يكون دوره هو التعرف على سنّة من سنن الكون . فهنا لا ينبغي أن يكون للوجدان مجال ، لأن الإنسان لا يتخذ « موقفا » معيناً تجاه هذه القضية ! إنما هي حقائق كونية لا دخل للإنسان فيها ، ولا يستطيع تغييرها أو التأثير عليها . إنما « يتعرف » عليها فحسب .

الماء يتجمد في درجة أربعة تحت الصفر (-4°) .

الماء يتكون من قدر من الأوكسيجين وقدرين من الإيدروجين (ايد٢) .

ما دور الإنسان في هذه القضية أو تلك إلا دور المعرفة التي تهيئ له ــ إن أراد ــ أن يستخدمها في عمارة الأرض ؟

ولكن موقف الإنسان من قضايا « الحياة » مختلف عن ذلك . إنه هنا يتعرف **ليختار** : « إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا » [3] « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها

---

(١) سورة الشعراء [١ – ٤] .

(٢) سورة الإسراء [٥٩] .

(٣) سورة الإنسان [٣] .

وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » [1] .

والله خالق هذه الفطرة يعلم أن العقل ليس هو في الحقيقة الذي يختار ! أو ليس وحده الذي يختار ! إنما يختار « الإنسان » في مجموعه . وأن لحظة الاختيار ، أو لحظة اتخاذ القرار ، هي اللحظة التي يصل فيها الوجدان إلى قمة انفعاله ، والعقل عندئذ خادم يخدم اتخاذ القرار ! !

وأنا أعلم بطبيعة الحال أن هذا الكلام لا يعجب « العقلانيين » الذين يجعلون للعقل مكان الصدارة في كل قضايا الحياة . ولكن فليقل لنا العقلانيون إن استطاعوا أين كان العقل والبشرية تتخبط في جاهلياتها من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال ، وتقدم في كل مرة من البراهين ما تبرر به تخبطها من هنا ومن هناك ؟! « وكان الإنسان أكثر شيء جدلا » كما يقرر القرآن [2] ، والعقل هو أداة الجدل ، التي تسوق له الحجة والبرهان ! !

إنما الوجدان المتحرك هو الذي يقرر في الحقيقة موقف الإنسان من قضايا الحياة . أو هو العقل المنفعل مع الوجدان .. في الهدى وفي الضلال سواء !

ولذلك يهتم القرآن بأن يكون الوجدان مستقيماً على طريق الهدى ، فيستقيم ـ من ثم ـ موقف الإنسان من قضية الإيمان .

والباب الأكبر لتحريك الوجدان ـ وتحريك العقل كذلك لينفعل مع الوجدان ـ هو عرض آيات القدرة الربانية في كل مجال : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » [3] .

وعلى هذا المنهج الذي تبينه هذه الآية تعالج السورة التي بين أيدينا قضايا الوحي والرسالة ، والبعث ، والآية التي يعلق المشركون عليها قضية الإيمان !

« آلمـر . تلك آيات الكتاب ، والذي أنزل إليك من ربك الحق ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون » .

الكتاب مكون من هذه الأحرف التي تنطقون بها وتصوغون كلامكم منها [4] . من نفس الخامات التي تستخدمونها . فما بالها ـ على ألسنتكم ـ غيرها في هذا الكتاب ؟ ألا يدلكم ذلك على شيء ؟ ألا يدلكم على أن القائل لهذا القرآن ليس أحداً من البشر ؟

---

(1) سورة الشمس [٧ ـ ١٠] .
(2) سورة الكهف [٥٤] .
(3) سورة فصلت [٥٣] .
(4) هذه هي الدلالة التي أستريح إليها في تفسير الأحرف التي تجيء في مفتتح بعض السور ، وتجيء بعدها مباشرة إشارة إلى « القرآن » أو « الذكر » أو « الكتاب » أو « آيات الكتاب » .. وهو دليل ظني على أي حال ، واليقين يعلمه الله .

إن الإعجاز في هذا القرآن ليس نابعاً من أنه استخدم حروفاً أخرى غير التي يتكلم بها العرب المخاطبون به أول مرة . إنما هو نابع من « الاستخدام الرباني » لهذه الحروف ذاتها الموجودة في لسانهم ، فإذا من نفس الخامة بناء فريد معجز لا يتسنى لبشر أن يأتي بمثله . فهو إذن منزل إليك « من ربك » وهو « الحق » « ولكن أكثر الناس لا يؤمنون » مع بداهة القضية وعدم حاجتها إلى مزيد من البرهان !

بهذا الأسلوب الهادئ الحاسم في ذات الوقت ، يقرر القضية الأولى التي ينكرها المشركون وهي قضية الوحي ، ويقرر كذلك موقفهم منها ، وهو أنهم « لا يؤمنون » بها .

ثم بدلا من أن « يناقشهم » في موقفهم ذلك ليبين لهم ـ بالدليل العقلي ـ أنهم مخطئون وأنهم ليسوا على شيء ، إذا به كأنه يترك القضية جملة وينتقل إلى قضية أخرى جديدة بالمرة ! قضية الخلق ، والاستواء على العرش ، وتسخير الشمس والقمر ..

« الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى » .

ولكن أهي حقاً قضية جديدة مختلفة ؟ وهل ترك القضية الأولى معلقة بغير رد ؟!

كلا ! إنها القضية ذاتها في الحقيقة ولكن القرآن يعالجها على طريقته !

إن الآية الثانية تبدأ بلفظ الجلالة : « الله » .. وذلك هو مفتاح القضية ! فالقضية في ظاهرها هي إنكار العرب للوحي . ولكنها في حقيقتها ـ كما يعلمها الله ـ هي جهلهم بحقيقة الألوهية ! فلو أنهم عرفوا الله حق المعرفة ما استغربوا أن ينزل الله كتابا على أحد من خلقه بطريق الوحي ، وما أنكروا كل ذلك الإنكار ..

وما دامت القضية في جوهرها هي جهلهم بحقيقة الألوهية ، فالجدل ـ أو حتى البيان ـ في جانبها الجزئي المتعلق بالوحي لا يغني الغناء الكامل ، الذي يغنيه الحديث عن الألوهية ، وبيان القدرة الربانية المعجزة التي لا يعجزها شيء في السماوات ولا في الأرض .

ومن ثم فابتداء الآية بلفظ الجلالة : « الله » ـ في معرض الرد على إنكار الوحي ـ ليس غريباً ولا مفاجئاً ، إنما هو يلفت حسنا ـ وحسَّ أولئك المنكرين كذلك ـ إلى جوهر القضية ، وإلى سبب ذلك الإنكار .

ثم يمضي السياق يعرّف بالله سبحانه وتعالى ..

« الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها .. » .

وقيام السماوات مرفوعة بغير عمد ـ أو بغير عمد منظورة ـ حقيقة مشهودة . ولكن الحس يتبلد عليها بدافع الإلف والعادة فلا يعود يأخذ منها دلالتها الحقيقية على عظمة الخالق التي لا تقف عند حد ..

ولكن القرآن يَبْدَهُ بها الحس فيزيل عنه الركام الذي يغشيه فيمنعه من تلقي الشحنة الكاملة لهذه الحقيقة .

والمفاجأة التي تلقيناها لأول وهلة هي واحد من عوامل الإيقاظ التي يوقظ بها القرآن الحس المتبلد : مفاجأة الرد على قضية إنكار الوحي بلفظ الجلالة : الله !

لقد علمنا الآن سرها ، وعلمنا أنها ليست مفاجأة في الحقيقة ، ولكنها لفت نظر إلى الجوهر الحقيقي للقضية . ولكن ذلك لا ينفي أنها فاجأتنا لأول وهلة .. وذلك أمر مقصود في السياق ، ليستيقظ الإنسان من غفلته ، ويتدبر القضية بقلب مفتوح .

« الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش .. » .

ونحن لا نعلم كيف استوى على العرش . ولا المخاطبون المنكرون يعلمون . وليس المقصود من إيراد هذه الحقيقة أن نعرف أو يعرفوا كنهها . ولكنها حقيقة غيبية تجيء بعد الحقيقة الأولى المشهودة ، وتعطي شحنتها من خلال إيحائها ، فهي توحي بالتمكن الكامل والسيطرة الكاملة والإشراف التام على كل الخلق .

« وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى .. » .

وجريان الشمس والقمر حقيقة مشهودة كذلك ، ولكنها من الحقائق الكونية الكثيرة التي يتبلد عنها الحس بالإلف والتكرار .

ولكن التعبير القرآني يزيل عنها إلفها ، ويمنحها الجدة التي تجعلها تعطى للحس شحنتها . إنه لا يقول إن الشمس والقمر يجريان ، ولكنه يضع قبل هذه الحقيقة المشهودة حقيقة أخرى هي التي ينساها القلب الغافل فيتبلد عن دلالتها : « **وسخر** الشمس والقمر .. » فالشمس والقمر لا يجريان من تلقاء نفسهما كما يخيل إلينا في حالة الغفلة والتبلد . وما كان لهما ــ بأي قوة ــ أن يجريا ، لو لم يتلقيا الأمر من الله الذي سخرهما لأمر يريده سبحانه .

وإذن فالأمر كله مرده إلى الله .. والمطلوب من الإنسان الغافل أن يتيقظ الآن لهذه الحقيقة لكي لا يعود إلى الغفلة التي تؤدي إلى الإنكار .

« كل يجري لأجل مسمى .. » .

الإشارة إلى الأجل المسمى عند الله ، الذي تتوقف فيه حركة كل الأفلاك ، وهي مما يساعد على إيقاظ الحس وإزالة التبلد عنه ، لأنه يلفت النظر إلى شيء زائد على مجرد الحركة التي تراها العين فتألفها وتنساها !

« يدبر الأمر .. » .

عود إلى التعريف بالله . إنه هو الذي رفع السماوات بغير عمد ثم استوى على العرش . وهو الذي سخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى . ثم هو يدبر الأمر .

هل المقصود هو مجرد الإعلام بأنه يدبر الأمر ؟ أو ــ بعبارة أخرى ــ هل هي مجرد « معلومات » جديدة في سبيل التعريف بالله ؟

إنني ألمح من ورائها معنىً آخر ..

فالسياق قد ذكر أموراً حدثت في الماضي السحيق لا يعلم مداها إلا الله ، من رفع السماوات والاستواء على العرش وتسخير الشمس والقمر ..

ولقد يخيل للحس الغافل أن ذلك قد تم ـ ذات مرة ـ وانتهى الأمر ! ثم أصبح الكون من تلقاء نفسه يسير ، مدفوعاً بتلك الدفعة الأولى بغير إرادة مباشرة من الله ! ومن ثم يصبح الله « غائبا » في ذلك الحس الغافل ، لا يتنبه لوجوده ، ومن ثم لا يتوجه إليه ، أو لا يتوجه إليه التوجّه الحقيقي المطلوب ..

والسياق يرده إلى الحقيقة .. أن الله « حاضر » في تدبير الكون في هذه اللحظة ، كحضوره في ذلك الأزل الذي لا يستوعبه إدراك البشر ، وفي الأبد الذي لا تستوعبه الأفهام . وعندئذ فلا مجال للنسيان ! فتدبير الله للكون أمر يتم في كل لحظة ، وفي هذه اللحظة ، وقدر الله حاضر دائماً في كل حدث يتم في هذا الكون ..

« يفصّل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون » .

وقد كان الله سبحانه وتعالى يملك أن يرفع السماوات بغير عمد ، ويستوي على العرش ، ويسخر الشمس والقمر ، ويدبر الأمر .. ثم لا يفصّل للناس الآيات ، ويلزمهم مع ذلك أن يعبدوه ويطيعوه ، وهو ربهم المتصرف فيهم كيف يشاء . ولكن من رحمته بالناس يفصّل لهم الآيات ولا يتركهم لشأنهم فيضلوا . يفصل لهم الآيات لعلهم يوقنون بلقاء ربهم ، وبحسابه وثوابه وعقابه ، فيطيعوه فيما يأمر من أمر ، فيصلح أمرهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة .. فلمصلحتهم هم إذن يفصّل الآيات ، ويُعْلِمُهُمْ بخلقه للسماوات ، واستوائه على العرش ، وتسخيره الشمس والقمر ، وتدبيره الأمر .. لعلهم أن تتفتح بصيرتهم فيبصروا .

وهذا الكتاب المنزل الذي يجادلون فيه هو هو تفصيل الآيات .. الذي أنزل لتعريف الناس بربهم .. ليوقنوا بلقائه فيعبدوه ..

ويستوقفنا التعبير : « يدبر الأمر يفصل الآيات .. » .

إنه لا يقول يدبر الأمر ويفصل الآيات ، بل يقول بغير عطف : « يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون » وكأنما الأمران لهدف واحد : يدبر الأمر لعلكم بلقاء ربكم توقنون .. و .. يفصّل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون ! ولذلك يجمع بينهما السياق بغير فصل ، لأن بينهما ـ كما يقول البلاغيون ـ تمام الاتصال .

ثم يستمر السياق يفصل الآيات :

« وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يغشي الليل النهار . إن في ذلك لآيات لقوم **يتفكرون** » .

والقوم الذين « **يتفكرون** » لهم في هذه الآية مجال واسع ..

وربما لم يكن العرب الذين خاطبهم القرآن بهذه الآيات أول مرة مدركين لكل ما فيها من آيات . ومع ذلك فهي تهز وجدانهم إذ تعرض على حسهم هذه « الموجودات » : الأرض الممدودة ، والرواسي والأنهار ، والثمرات ذات الزوجين أي النباتات ذات أعضاء التذكير والتأنيث التي يتم فيها الإخصاب فتخرج الثمرة .. يعرضها على حسهم بكل جدتها ، بعد أن يزيل تبلد حسهم إزاءها بتكرر المشاهدة ، فتعطي شحنتها الكاملة في وجدانهم ، ثم يذكرهم بأن الله هو الذي صنعها : « **وهو** الذي مد الأرض ... » فتتيقظ الفطرة لخالقها ، وتتوجه إليه ، **وحده** ، ما دام **هو** الذي صنع هذه الأشياء كلها بغير شريك ..

ولكننا اليوم ربما كنا أكثر « علما » بالآيات المفصلة في هذه الآية ، لأن البشرية خلال قرون طويلة قد عرفت من شأن هذه الأمور أشياء لم تكن معروفة للمخاطبين الأوائل بهذا القرآن ، أو لم تكن معروفة لهم بهذا الوضوح . ويتبين لنا اليوم أن السياق في الآية ، لم يكن مجرد سرد للموجودات بعضها مع بعض ، أو بعضها تلو بعض ، ولكنها جاءت متوالية في ترتيب « علمي » مقصود ، وضعت المفردات فيه في تسلسل معين لغاية معينة !

فالأرض الممدودة ــ سواء كان معناها الكرة الأرضية التي تبدو ممتدة لاتساعها ، أم كان معناها الجزء المنبسط من الكرة الأرضية ــ جُعِلَتْ فيها رواسي ، وهي الجبال الشامخة ؛ وعلى إثر الجبال تذكر الأنهار . ونحن نعلم اليوم أن الجبال ذات صلة مباشرة بتكون الأنهار ، لأنها هي التي تصدم السحب فتسقط ما فيها من ماء ، فتتكون منها الأنهار . ومن الماء الجاري ينبت النبات في الأرض ، فالصلة إذن موصولة بين الأنهار وبين الثمرات التي تجيء تالية لها في الآية ، والتي يلفت السياق الحس إلى ظاهرة الأزواج فيها : « ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين » كما قال في سورة يس [آية ٣٦] :

« سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ».

فيؤكد على ظاهرة الزوجية في بناء الكون كله ، ويلفت الحس إلى عظمة الله القادر الذي خلق هذه الأزواج .

ولكن السياق يضيف هنا بعد ذكر الثمرات : « يغشي الليل النهار » .. ولم يكن الناس أيام نزول هذه الآيات يعرفون أن هناك صلة على الإطلاق بين الثمرات وبين غشيان الليل النهار .. ثم تبينت لهم هذه الحقيقة منذ عهد قريب . وتبين لهم على وجه التحديد أن نمو الزهرة ــ التي تنتج الثمرة ــ يحدث في الليل .. في الفترة التي يُغْشِي الله فيها الليل النهار . بل حدثت قصة طريفة في منتصف هذا القرن كشفت عن حقيقة أدق لم تكن معروفة للبشرية طوال هذه القرون . فقد أقامت إحدى الشركات إعلاناً مضيئاً لها في وسط مزرعة أرز في اليابان ، فلاحظ صاحب المزرعة أن أرزه يذبل ولا يؤتي محصوله الذي كان من قبل ، فرفع قضية على الشركة صاحبة الإعلان يطالبها فيها بالتعويض عما لحق أرزه من نقص في المحصول بسبب وجود هذا الإعلان المضيء ! ودخل النزاع في مرحلة من

البحوث العلمية لإثبات الدعوى أو نفيها .. فتقدمت الدوائر العلمية لإجراء البحوث .. وكانت النتيجة العجيبة التي وصلوا إليها أن هذا الإعلان المضيء قد « أقلق راحة » النبات بالفعل ، لأنه « يؤرقه » في الليل ، وهو فترة راحته ! والفترة التي تتكون فيها الزهرة كذلك وتنمو ! ثم اكتشفوا ما هو أدق : أن كل زهرة من زهور النباتات المختلفة تحتاج إلى فترة إظلام معينة لكي تولد وتنمو ! فإذا نقصت فترة الإظلام خرجت الزهرة ضعيفة أو لم تخرج على الإطلاق ! كما اكتشفوا أن توزيع النبات على ظهر الأرض ليس تابعاً للرطوبة والجفاف ، والحرارة والبرودة فحسب ، كما كان معروفاً من قبل ، ولكن تابع كذلك لطول الليل والنهار ، لأنه لا بد لكل نبات من فترة إظلام معينة لكي يثمر ! وأن قصب السكر مثلا يحتاج إلى فترة الإظلام الموجودة في المنطقة الاستوائية لكي يخرج زهرته التي تحمل حبوب اللقاح ، ولذلك ينمو هناك نمواً طبيعياً ، فإذا نقل إلى بلاد في الشمال ـ كمصر مثلا ـ حيث فترة الإظلام مختلفة ، فإنه ينبت ولكنه لا يخرج زهرة ! ولذلك يزرعونه بطريق « التعقيل » فإذا بعد أكثر من ذلك لم ينبت على الإطلاق !

وهذه الحقائق الطريفة والعجيبة في ذات الوقت لم تكن كلها معروفة وقت نزول هذه الآية ، ولا كانت الصلة بين الثمرات وإغشاء الليل النهار معروفة .. وإن من معجزات هذا الكتاب أن يعثر الناس على أسرار خفية فيه كلما زادت معلوماتهم عن الكون [1] .. وإذا كانت الآية قد هزت مشاعر سامعيها من قبل ، وهم لا يعرفون كل أسرارها ، فأحرى بها أن تهز وجدانهم اليوم أكثر ، وقد تكشف من أسرارها ما لم يكن معروفاً من قبل : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » [2] حقاً .. « إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

ويمضي السياق يعدد عجائب الأرض التي كان ينبغي أن تلفت الإنسان إلى عظمة الله الخالق .. لولا تبلد حسه عليها :

---

(١) هذه الظاهرة ـ وهي تكشّف مزيد من الأسرار كلما تقدمت معرفة الإنسان بالكون ـ تغري بعض الناس المفتونين بالعلم أن ينشئوا تفسيرات علمية للقرآن . وهذا اتجاه خطير وخاطئ في نفس الوقت . ففي القرآن إشارات كونية لا شك فيها ، وبعضها يحمل أسراراً لم يكشف العلم عنها حتى اليوم . ولكن هذا ليس معناه أن نعامل القرآن على أنه كتاب نظريات علمية ، ونمضي نقول إنه تنبأ بتفجير الذرة ، وبالصعود إلى القمر ! ونجري نلهث وراء كل نظرية علمية جديدة لنقول إن القرآن تنبأ بها ؛ فما موقفنا غداً إن تبين أن النظرية لم تكن صحيحة ؟! كلا ! لا يجوز أن نربط الظواهر الكونية التي يشير إليها القرآن بتلك النظريات المتقلبة . أما ما ثبت صحته من المعلومات العلمية التي تفيدنا في فهم آية معينة فلا بأس بالاستشهاد به على سبيل توسيع تصوراتنا لمعنى الآية فحسب !

(٢) سورة فاطر [٢٨] انظر كتاب « العلم يدعو للإيمان » .

« وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعنابٍ وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل . إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

في الأرض قطع متجاورات ولكنها مختلفة بعضها عن بعض . هذه رملية وهذه طينية وهذه صخرية .. هذه سوداء اللون وهذه صفراء وهذه حمراء .. الخ والسياق يلفت الحس هنا إلى ظاهرة الاختلاف ذاتها بوصفها دليلاً على عظمة الخالق سبحانه .. فما يصنع هذا التنوع العجيب إلا إله قادر عظيم ..

والتنوع ليس في القطع المتجاورات من الأرض ، المختلفة الطبيعة واللون فحسب ، بل في أنواع الزرع كذلك : «وجنات من أعناب وزرع ونخيل » .. ويسرح الخيال في الرقعة الممتدة التي ترسمها الآية ، ينظر إلى أنواع النبات ، المختلف الألوان والأحجام والأشكال .. وكلما امتد البصر وجد أنواعاً مختلفة « متجاورات » كقطع الأرض ، ومختلفات كاختلاف الأرض ..

وحتى النخيل مختلف ما بين صنوان وغير صنوان ! أي أن السياق يلفت النظر إلى الاختلاف لا بين الأنواع فحسب ، بل في داخل النوع الواحد كذلك [1] !

ثم هذه العجيبة .. هذا الزرع المختلف كله « يسقى بماء واحد » ! ومع ذلك يختلف هذا الاختلاف ويتنوع ذلك التنوع .. ألا إنها القدرة القادرة التي تنشئ هذا الحشد من التنوع والاختلاف ..

بل إن التنوع ليصل إلى الدقة المعجزة .. إن الاختلاف ليس في النوع واللون فحسب .. إنه في الطعم كذلك « ونفضل بعضها على بعض في الأكل » .. وتلك وحدها آية معجزة .. أن يخلق الطعوم المختلفة ، ثم يخلق للإنسان الأعصاب التي تحس بالطعوم المختلفة ، ثم يجعل بعض الطعوم أفضل من بعض ، ثم يجعل الناس يختلفون في تفضيل تلك الطعوم بعضها على بعض .. ! ألا إنه إعجاز الخلق .. وكذلك إعجاز التعبير !

« إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون » !

إن العجب في سياق هذه الآيات لا يقف عند هذه الدقة العجيبة في السرد ، والقدرة

---

(١) هذا الاختلاف في الأنواع هو الذي لفت دارون بشدة ، وحفزه أن يكتب كتابه الشهير « أصل الأنواع The Origin of Species » . ولكن بصيرته المطموسة لم تتفتح إلى ما كان ينبغي أن تدركه في هذا المجال الدقيق بالذات من عظمة الخالق المدبر وراء هذا الاختلاف العجيب ، بل مضى يقول إنها الطبيعة ! ثم يقول في سذاجة أو في جحود عجيب : إن الطبيعة تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها ! سبحان الله ! وما الله إذن ؟! ألا إنها الغفلة وانطماس البصيرة أو العناد الكافر الذي يدفع الإنسان أن يستكبر عن ذكر الله حيث ينفعل وجدانه من الداخل بعظمة الخلق !

العجيبة على « الإحياء » التي تجعل هذه المشاهد كلها حية في الوجدان ، تهزه من أعماقه ليشعر بعظمة الله الخالق الذي أنشأ كل هذه العجائب ..

إن هناك عجيبة أخرى تلتقي التقاء كاملا مع جمال « الفن » .. والتعبير القرآني المعجز كله جمال .. وكله فن ! أليس الفن هو التعبير الجميل عن المعنى الجميل بطريقة موحية توقظ الوجدان ؟! وهل الأسلوب القرآني غير ذلك ؟ بل القمة المعجزة في ذلك ؟!

انظر إلى السياق متتبعاً إياه منذ البدء ، والْحظْ « الجانب الفني » من العرض :

رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر ..

مدّ الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ..

وفي الأرض قطع متجاورات ..

وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان ..

ونفضل بعضها على بعض في الأكل ..

ألا تلاحظ نسقاً معيناً في العرض ؟!

انظر مرة أخرى !

بدأ بالسماوات والشمس والقمر .. أجرام كبيرة .. خطوط عريضة .. ولكنها تتدرج نحو الدقة : السماوات ، ثم الشمس ، ثم القمر ..

ثم أخذ الأرض من بين هذه الأجرام الكونية ، أي أنه بدأ بخط أدق مما بدأ به المرحلة السابقة من اللوحة ، ثم أخذ يفصلها متدرجاً من الكبير إلى الصغير .. الأرض المنبسطة الممدودة والجبال .. ثم الأنهار الأصغر حجماً .. ثم الثمرات .. ثم الأزواج داخل النبات الواحد .. وكل ذلك ملفوف في رداء الليل والنهار فكأن الليل والنهار هما اللوحة : لوحة الأبيض والأسود ، ترسم عليها تلك الخطوط الدقيقة المتدرجة في الدقة واحدا إثر الآخر ..

ثم أخذ جانباً واحداً من الأرض ، التي بدأ بها خطوط المرحلة السابقة ، أي أنه بدأ بخط أدق مما بدأ به المرحلة السابقة ، ثم أخذ يتدرج منه إلى ما هو أدق : جنات من أعناب وزرع ونخيل .. حتى وصل إلى غاية الدقة في الطعوم التي فضل بعضها على بعض ، وهي شيء خفي في مظهره ، لا تتبينه إلا أعصاب الذوق ، وهي من أدق ما في تكوين الإنسان !!

هذا التدرج الملحوظ من الكبير إلى الصغير في الخطوط المتوالية عامة ثم في كل خط على حدة .. أهو محض صدفة ؟ وهل هكذا تكون الصدف .. فضلاً على أنه لا صدفة في الوجود كله على الحقيقة .. لأن كل ما في الوجود قدر من عند الله مقدور !!

كلا ! إنها ليست « صدفة » حتى على المجاز ! فسنجد بعد آيات قليلة أن النسق ذاته قد روعي في اللوحة التالية ! !

ونمضي الآن مع السياق حتى نصل إلى تلك الآيات ..

« وإن تعجب فعجب قولهم : أإذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد ؟! أولئك الذين كفروا بربهم ، وأولئك الأغلال في أعناقهم ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

في اللحظة المناسبة ، بل في أنسب لحظة ، وقد انفعل الوجدان بتلك الآيات المعجزة كلها ، يعجّب من أمر الذين ينكرون البعث ، فتعجب منهم حقا ، وتستهجن موقفهم حقاً !

أَبَعْدَ هذه الآيات كلها ، التي تهز الوجدان هزاً بعظمة الخالق وقدرته المطلقة الدقيقة المعجزة .. بعد هذا كله يسأل سائل : أإذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد ؟

يا له من سؤال شديد السخف بعد هذه الآيات ! ويا لها من غفلة عجيبة تلك التي ينشأ عنها السؤال !

وفي أنسب لحظة ينطق بالحكم الحاسم عليهم ويحدد مصيرهم : « أولئك الذين كفروا بربهم ، وأولئك الأغلال في أعناقهم ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » !

ولا تجد نفسك إلا مُؤَمِّناً تماماً على هذا الحكم .. بل منفعلاً معه تمام الانفعال : نعم ! هذا هو الجزاء الذي يستحقون !

إنه لإعجاز في منهج العرض ، فوق الإعجاز في دقة التعبير ..

لو قدم قضية البعث ـ أو إنكار البعث ـ قبل إيراد هذه الآيات المعجزات ، وقبل أن ينفعل بها وجدانك كل هذا الانفعال ، فلربما مرت عليك القضية « باردة » لا تثير انفعالك ولا عجبك ولا استنكارك !

ولو عالجها علاجاً منطقياً ذهنياً على أنها قضية فلسفية فقال : كيف ينكرون البعث وإن قدرة الله لا تحد لأنه هو الذي خلق السماوات والأرض والشمس والقمر وأجرى الأنهار وأنبت الثمار ... الخ فلن يعجزه أن يبعث الموتى .. وهو الكلام الذي نستخدمه نحن بصورة أو أخرى في حديثنا البشري عن قضايا العقيدة .. فلربما مرت باردة كذلك ، يتحرك بها الذهن ليناقشها وينظر في « أدلتها العقلية » ومدى سلامة المنطق المحتوية عليه .. !

فأما في صورتها القرآنية الفريدة ، وفي مكانها هذا من السياق ، فحين يقول لك : « وإن تعجب فعجب قولهم ... » فإن انفعال العجب والاستنكار ينبعث مع السياق حقاً ، ويصل معه في النهاية إلى استحقاق هؤلاء الكامل لما وصفوا به ، وما حكم عليهم به ..

و« الدليل العقلي » كما ترى موجود .. إذا شاء العقل أن يتدبره فسيجد فيه مجاله الكامل للتدبر ..

ولكن المسألة ليست هي وجود الدليل العقلي أو عدم وجوده .. إنها أهم من ذلك .

إنها « الجهاز » الذي يتحرك لتلقي الإيمان .. أهو العقل !.. أو .. هل هو العقل بادئ ذي بدء ؟.. أو .. هل هو العقل وحده ؟!

كلا ! فليتحرك العقل كما يشاء .. و« ليناقش » من القضايا على مهل ما يشاء .. ولكنه ليس المخاطَبَ الأول بهذا السياق ! لا لأن القرآن لا يخضع للعقل ! أو لأن فيه ما لا يتفق مع العقل ! ولكن لأن فيه ما هو **أشمل** من العقل . فيه ما يخاطب **كل** كيان الإنسان !

* * *

ويمضي السياق يعجّب من أحوال هؤلاء القوم وسلوكهم ، بعد أن دمغهم في أنسب لحظة بوصفهم الحقيقي ، ودفعهم إلى مصيرهم الذي يستحقونه بجدارة ، و« المتفرجون » يعلنون موافقتهم التامة على الحكم والمصير ..

« ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات ، وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ، وإن ربك لشديد العقاب » .

هؤلاء القوم العجيبون ، الذين دعى « المتفرجون » من قبل إلى العجب من حالهم ، يستعجلون الرسول صلى الله عليه وسلم أن يهلكهم إن كان صادقاً حقاً !

« وقالوا : لن نؤمن لك حتى تفجّر لنا من الأرض ينبوعاً ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ...»[1] .

« وإذ قالوا : اللهم إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذابٍ أليم ! »[2] .

وذلك بدلاً من أن يطلبوا « الحسنة » وهي الهدى والنعيم الرباني الخالد للمهتدين : « ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة » .

ولو أنهم أول قوم يرسل لهم رسول ، فربما يكون لهم حينئذ عذر ! أَمَا وقد خلت من قبلهم «المثلات» ! فإن أمرهم عجيب حقاً ! إنهم يعلمون من تواريخ الأمم السابقة أنهم طلبوا من رسلهم مثلما طلبوا هم من رسولهم .. فكان عاقبتهم أن دمر الله عليهم بالفعل :

« وإلى عاد أخاهم هودا قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ... قالوا : أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ؟! فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ... فأنجيناه والذين معه برحمة منا ، وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين »[3] .

---

(١) سورة الإسراء [٩٠ – ٩٢] .

(٢) سورة الأنفال [٣٢] وهي من الآيات المكية في سورة الأنفال المدنية .

(٣) سورة الأعراف [٦٥ إلى ٧٢] .

«وإلى ثمود أخاهم صالحا قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم ، هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم ... فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ، وقالوا : يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ، فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ... »[1] .

«كذب أصحاب الأيكة المرسلين ، إذ قال لهم شعيب ألا تتقون ؟ إني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون ... قالوا : إنما أنت من المسحرين ! وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين . فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين ! قال ربي أعلم بما تعملون . فكذّبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة ، إنه كان عذاب يوم عظيم »[2] .

تلك بعض المثلات التي خلت من قبلهم والتي يعرفونها .. أفليس من العجب إذن أن يرتكبوا ذات الحماقة التي ارتكبها مَنْ قبلهم فوقع عليهم الهلاك بالفعل ؟!

« وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم » .. يمهلهم لعلهم يتوبون « وإن ربك لشديد العقاب » حين يصرون ولا يثوبون !

« ويقول الذين كفروا : لولا أنزل عليه آية من ربه ! إنما أنت منذر ، ولكل قوم هاد».

تلك هي القضية التي أشارت إليها الآية السابقة من خلال ذكر « السيئة قبل الحسنة » .

إنهم يريدون آية تنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويعلقون إيمانهم ـ في زعمهم ـ بنزول تلك الآية .. ولو جاءتهم الآية ما آمنوا ! :

« وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها . قل : إنما الآيات عند الله ؛ وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ، ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ؟ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ، ولكن أكثرهم يجهلون ! »[3] .

ولكن السياق هنا يجيبهم إجابة غير مباشرة تعرفهم بطبيعة الرسالة ودور الرسول .

إن الرسول ـ كل رسول ـ ليست مهمته أن ينزل الآيات ، ولا ذلك من شأنه : « إنما أنت منذر » .. تلك هي مهمتك : الإنذار ..

ولكننا نقف وقفة عند لفتة « فنية » في السياق :

« إنما أنت منذر ، ولكل قوم هاد » ..

إن الإنذار والهداية ـ بمعنى الدعوة إلى الهدى ـ هما ـ معاً ـ مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم كما أنهما مهمة كل رسول :

---

(١) سورة الأعراف [٧٣ إلى ٧٨] .

(٢) سورة الشعراء [١٧٦ إلى ١٨٩] .

(٣) سورة الأنعام [١٠٩ – ١١١] .

« إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون »[1] .

« يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً **ونذيراً** ، **وداعياً إلى الله** بإذنه وسراجاً منيراً »[2] .

فكان المتوقع أن يقول السياق : إنما أنت منذر وهاد لهؤلاء القوم . ولكن الذي يقوله بالفعل هو : « إنما أنت منذر . ولكل قوم هاد » !

وكأنما السياق يوحي بأنهم لن يتلقوا من الرسول صلى الله عليه وسلم إلا الإنذار فقط ! وأن قوماً آخرين هم الذين سيكون نصيبهم الهداية على يد الرسول صلى الله عليه وسلم ! وفي ذلك إنذار لهم خفيّ وهم الذين يدركون من أسرار اللغة ما يدركون !

ثم تبدأ الجولة الثانية من عرض آيات الله المعجزة ، التي لو تدبرها القوم ما طلبوا تلك الآية الخارقة التي يعلقون إيمانهم عليها !

« الله يعلم ما تحمل كل أنثى ، وما تغيض الأرحام وما تزداد . وكل شيء عنده بمقدار » .

وليعمل الخيال جاهداً لتتبع ما تحمله هذه الكلمات القليلة من معجزات ..

« الله يعلم ما تحمل كل أنثى .. » هكذا على الاتساع .. اتساع الأرض التي نعيش عليها على الأقل !

كل أنثى .. فليعمل الخيال جاهداً لإحصاء كل أنثى .. إذا استطاع .

إن « كل أنثى » لا تشمل إناث الإنسان وحده ، فالسياق أشمل ! إنما تشمل كما يحدد اللفظ بالضبط « كل أنثى » ! إناث الإنسان وإناث الحيوان وإناث الطير وإناث الأسماك وإناث الحشرات .. وكل أنثى تخطر أو لا تخطر على البال ..

فليجرِ الخيال لاهثاً لا لإحصاء كل أنثى .. فذلك محال . بل لإحصاء الأجناس والأنواع فقط ، التي لها إناث ! وليتخيل هذه الإناث مجموعاتٍ مجموعاتٍ كل مجموعة تحمل اسم الجنس الذي تتبعه أو النوع ..

ثم ليركز الخيال على خط من اللوحة أدق .. على أرحام هذه الإناث ، لا على الإناث بكاملها !

ثم ليركز على خط أدق .. على ما تحمل هاتيك الأرحام !

وليجر لاهثاً مرة أخرى لا للإحصاء فذلك محال .. بل لتصور تفصيلات ما تحمل كل أنثى في رحمها ..

تفصيلات كل نوع على حدة .. هذه إناث تحمل أجنة أناسيّ .. وهذه إناث تحمل أجنة حيوان .. وهذه إناث تحمل أجنة طير .. وهذه .. وهذه .. وهذه ..

---

(١) سورة الأعراف [١٨٨] .

(٢) سورة الأحزاب [٤٥ – ٤٦] .

ثم انتقل إلى خط أدق .. خذ عالم الأناسي .. وارقب التفصيلات :

هذه أنثى تحمل ذكراً .. وهذه تحمل أنثى .. تتبع بخيالك هذه الجزئية وامض بها في أرجاء الأرض !

تعال إلى خط أدق .. هذه تحمل جنيناً أبيض اللون .. وهذه تحمل أصفر .. وهذه تحمل أسود ..

تعال إلى خط أدق .. هذا الجنين كبير الحجم .. وهذا متوسط الحجم .. وهذا ضئيل الحجم ..

تعال إلى خط أدق .. هذا جنين أزرق العينين .. وهذا عسلي .. وهذا أسود ..

هل تعب خيالك ؟ إن التفصيلات ما زال فيها مزيد ..

تعال إلى خط أخفى ! هذا جنين ذكي .. وهذا متوسط الذكاء .. وهذا بليد الذهن .. ولسنا نحن الذين نرى ذلك أو نعلمه ، الآن وهو جنين .. ولكننا نتحدث عن علم الله ! ونتابع بخيالنا قول الآية « الله **يعلم** ما تحمل كل أنثى ... » .

تعال إلى خط أكثر خفاء ! هذا جنين كتب له في اللوح المحفوظ أنه طويل العمر .. وهذا ينقص من عمره .. وهذا شقي .. وهذا سعيد ... !

هل ما يزال في خيالك بقية من قدرة يتتبع بها ذلك العالم الهائل المعجز الذي فتحته تلك الألفاظ الستة من الآية ؟

فلتبق بقية تتبع بها بقية الآية : « الله يعلم ما تحمل كل أنثى ، وما تغيض الأرحام وما تزداد » ! !

كل رحم تنتفخ بالحمل .. وتغيض بالوضع .. **كل** رحم من ملايين الملايين من الأجناس والأنواع .. كلها .. كلها .. في علم الله الشامل الذي لا يند عن علمه شيء ..

هل أصابك الدوار وأنت تطلق خيالك هنا وهناك وهنالك يتابع كل أنثى ويتابع حملها ويتابع نمو كل حمل ويتابع وضع كل حمل ويتابع كل رحم وهي تغيض ؟ !

خذ هذه البقية الباقية من الآية قبل أن يكف خيالك عن المتابعة عجزاً ولهثاً وعجباً كذلك !

« وكل شيء عنده بمقدار » !

وعد من جديد إلى **كل شيء** .. لتتابعه مرة أخرى .. في مجال آخر !

« بمقدار » ..

وسواء كان المقدار أي القَدَر : « إنا كل شيء خلقناه بقدر »[1] بمعنى أن هناك قدراً

---

(١) سورة القمر [٤٩] .

خاصاً مفرداً لخلق كل شيء .. أو كانت الإشارة إلى المقادير بمعنى الكميات والأحجام ، بمعنى أن لكل شيء من المخلوقات حجماً معيناً ، موزوناً في تقدير الله :

« والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي ، وأنبتنا فيها من كل شيء موزون » [1] .

سواء كان هذا المعنى المقصود أم ذاك .. أم كلاهما معاً .. فليحاول الخيال أن يمضي يتابع كل شيء بقدره ومقداره .. حتى إذا ارتد عاجزاً عن متابعة شيء على الإطلاق .. فهناك علم الله الشامل ، الذي يشمل ما عجز الخيال عن تصوره مجرد تصور ، ولا نقول عده وأحصاه !

« عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال » ..

ويا له من إله كبير .. ويا له من إله متعال .. يقر الوجدان بعظمته وتعاليه ، بعد أن يعود من تلك الرحلة الشاقة .. الممتعة في آن !

ولكن على أي شيء يعود .. أو إلى أي شيء يعود ؟!

« سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار : له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ... » .

أرأيت إلى علم الله الشامل ذلك إلى أين ينتهي ؟ إنه ينتهي إليك أنت ! إنه يشير إليك أنت بالذات ! « سواء **منكم** ... » .

ولن تكون في وقت من الأوقات إلا واحداً من المشار إليهم : « منكم » .. لأنك لا بد أن تكون في أية لحظة إما مُسِرًّا بالقول وإما جاهراً به ، إما مستخفياً بالليل وإما سارباً بالنهار .. !

وتخيل يداً جبارة قد انتقتك فجأة من بين الناس وأشارت إليك وقالت : أنت ! قف مكانك ! نحن نسجل عليك !

« له معقبات من بين يديه ومن خلفه » في أي وضع له أو أي ساعة له « معقبات » من الملائكة تتعقبه !

« يحفظونه » أي يسجلون عليه أفعاله : « وإن عليكم لحافظين ، كراماً كاتبين ، يعلمون ما تفعلون » [2] .

« من أمر الله » أي بأمر الله .. أي أن هذا الحفظ ـ بمعنى التسجيل ـ هو من أمر الله للملائكة .

إنه لشعور رهيب أن تحس فجأة بأنك موضوع تحت المراقبة .. المراقبة الدقيقة

---

(١) سورة الحجر [١٩] .

(٢) سورة الانفطار [١٠ – ١٢] .

التي لا تترك صغيرة من عملك ولا كبيرة إلا أحصتها وسجلتها عليك ..

وإن هذه الجولة الواسعة في علم الله الشامل ، حين تنتهي إلى هذه النهاية ، لتهز الوجدان هزة عميقة غير كل ما انفعل به الوجدان من قبل ! فإن تتبع علم الله الشامل في الكون الواسع ، في ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد .. هذا كله شيء ، وأن تكون أنت بالذات ، وفي كل لحظة ، موضوعاً تحت هذه المراقبة الدائمة الدقيقة شيء آخر ! الأول قد يهتز له وجدانك عجبا ، وإقراراً بعظمة الله .. أما الآخر فيهتز له وجدانك رهبة وخشية .. وكأن علم الله الشامل هذا كان نوراً كشافاً تستمتع به وهو يجول بك في أرجاء الكون يكشف لك عن مخبآته وأسراره .. ولكنه فجأة يسلط عليك أنت ، وأنت واقف تتفرج ، فتحس أنك منكشف تماماً في هذا النور ..

وتأمل ـ مرة أخرى ـ النسق « الفني » الذي جرى به السياق في هذه الجولة الثانية أو اللوحة الثانية .. هل ترى فيه شبهاً مما كان في الجولة الأولى ؟

إن الشبه يظهر أحياناً ويدق ويخفى أحياناً أخرى ..

هناك شبه ظاهر في بدء السياق بخطوط عريضة تنتهي إلى خطوط دقيقة :

« الله يعلم ما تحمل كل أنثى » .. خط عريض شامل يتدرج إلى « ما تغيض الأرحام وما تزداد » وهو خط أدق .

ثم .. « عالم الغيب والشهادة » .. خط عريض شامل يتدرج إلى « سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ... » وهو خط أدق .

وهناك شبه دقيق خفي ، في أن الخط العريض ذاته محتوٍ على خطوط دقيقة ! فإن « ما تحمل كل أنثى » خط عريض يحمل في طياته مئات أو آلافاً من الخطوط الدقيقة المتناهية في الدقة ، هي « تفصيلات » ما تحمل كل أنثى : من نوع ولون وشكل وخواص !

وهكذا تتداخل الخطوط العريضة والدقيقة في اللوحة الواحدة ، وتمتزج الضخامة المعجزة مع الدقة المعجزة كلها في آن !

* * *

ولكن هذه الآية تحمل ثلاث قضايا مختلفة يبدو كل منها لأول وهلة كأنه منفصل تماماً عن القضية الأخرى :

« له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله . إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال » .

فما الصلة يا ترى بين أجزاء الآية الثلاثة ، أو بين تلك القضايا الثلاث المتوالية في الآية ؟

إن هناك جسراً خفياً يربط بينها جميعاً ، وإن لم يبد واضحاً من أول وهلة .

فهذا علم الله الشامل يطلع على ما في القلوب . هذه هي القضية الأولى . والقضية

الثانية أنه بمقتضى هذا العلم الشامل يعلم الله ما بأنفس الناس ، فيعلم أنهم غيروا ما بأنفسهم. فإذا علم أنهم غيروا فإنه يغير لهم حالهم . ولا يغير الله الحال إلا إذا علم أن الناس قد غيّروا ما بأنفسهم سواء إلى الخير ، فيغير لهم بخير ، أو إلى الشر فيغير لهم بشر . وهنا تأتي القضية الثالثة متصلة بما قبلها تماماً : « وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال » إذا علم أنهم غيروا بشر غير لهم بشر ، وعندئذ ـ عندما يريد بهم سوءاً جزاء ما غيروا بالسوء ـ فلا مرد لإرادته ، وما لهم من دون الله من ولي يحميهم من إرادة الله .

وهكذا تنتهي الجولة مع علم الله الشامل إلى هذا التهديد للذين « يستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة » ذلك أنهم إذا أصروا على موقفهم فإن الله سيريدهم بسوء لا مرد له ، ولن يكون هناك من يحميهم مما أراده لهم الله .

وهنا تبدأ جولة ثالثة مع قدرة الله المعجزة .. كانت الأولى في الخلق المعجز ، والثانية في علم الله الشامل إلى الدرجة المعجزة ، ثم تجيء هذه في لون جديد من القدرة ، تتضح لنا مناسبته حين نتلو الآيات :

« هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينشئ السحاب الثقال . ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ؛ ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء . وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال » .

هل أحسست جو العنف والرهبة معاً في البرق والرعد والصواعق .. والملائكة التي تسبح من خيفته ؟!

إن هذه الجولة تجيء في جو التهديد ، فيرتفع نبضها وترتفع حدة الأصوات فيها حتى ليصبح التسبيح صوتاً يصم الآذان ، فما بال الوعيد !! وتعرض الملائكة مذعورة خائفة تسبح من الخوف في هذا الجو المائج بالبرق والرعد والصواعق التي يرسلها الله فيصيب بها من يشاء ! وبينما ذلك كله حادث .. إذا هم يجادلون في الله !

والجدل في الله ، وقدرته سبحانه وتعالى على البعث والإحياء ، وقدرته على إنزال آية حين يشاء ، وقدرته على تنزيل ما ينزل من الوحي ، هذا الجدل كله أمر سخيف بالغ السخف بعد الآيات المعجزة التي جاءت في الجولة الأولى والثانية . ولكنه أشد سخفاً وأشد ضياعاً كذلك في جو البرق والرعد والسحاب الثقيل الذي يحمل في طياته الصواعق المنقضة التي يمكن أن تصيبهم في أية لحظة !

« وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال » شديد القوة لا يُغْلَب ولا ينجح من يغالبه ..

ثم تتجسم صورة الضياع الكامل في الآية التالية :

« له دعوة الحق . والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ! وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » .

أرأيت إلى الضياع الكامل ؟ هؤلاء القوم يتركون الله الذي له دعوة الحق .. الله الخالق

القادر المدبر ، الذي خلق هذا الكون الهائل ، والذي علمه هو ذلك العلم الشامل ، والذي يرسل البرق والرعد والصواعق .. يتركون دعوة الله ويدعون من لا يستجيبون لهم بشيء .. فأي ضلال بعد هذا ؟!

ولكن السياق يستدرجهم !

« لا يستجيبون لهم بشيء » .. هل انتهى الأمر ، وانتهت الصورة التي يصورهم بها ؟

كلا ! إنه يقول عنهم : « لا يستجيبون لهم بشيء إلا ... » .

وهنا تنفتح العيون وتُرْهِفُ الآذان السمع .. هل ستحدث استجابة من نوع ما ؟

نعم ! و لا ! .. إنها استجابة أسوأ من عدم الاستجابة !

« إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ! » .

إنها صورة عجيبة حقاً .. هذا شخص عطشان يريد أن يشرب .. ولكنه لا يشرب أبداً .. لأنه لا يتجه الاتجاه الصحيح الذي يوصله للشرب رغم وجود الماء ! إنه يبسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه .. ولكن بسط الكفين بهذه الصورة لا يرفع الماء إلى فمه أبداً .. فيظل واقفاً هكذا .. الماء في متناوله وهو عطشان ولكنه لا يتجه الاتجاه الصحيح إليه .. فيظل على الدوام عطشان !

هل زادت هذه الصورة « الفنية » شيئاً على المعنى ؟

لو قال : « لا يستجيبون لهم بشيء » وانتهى السياق هنا ، ألم يكن ذلك يؤدي المعنى ؟

بلى ! ولكن الزيادة أضافت معنى جديداً ولا شك ..

إن هذا الاستدراج الذي يستدرجه لهم السياق لَيُصَوِّرُ معنى نفسياً دقيقاً في صورة حسية ..

فكأنما يطمعهم في الاستجابة حين يقول : « لا يستجيبون لهم بشيء **إلا** ... » فإذا طمعوا استدرجهم إلى هذه الصورة البائسة : كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه !

إنها تصور طمعهم في أن تستجيب لهم تلك الأصنام التي يعبدونها من دون الله ، وَتَوَهُّمَهم أن من وراء اتباعها خيراً يروي غلة الظمآن ـ والإنسان في الحياة الدنيا يظمأ دائماً إلى متاع الأرض ! ـ فإذا بها تنتهي بهم في النهاية إلى الحرمان !

« وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » ...

* * *

وفي الوقت الذي يقف فيه الكافرون هذا الموقف الضال العابث ، إذا بنا أمام منظر خاشع مستسلم لله :

« ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال » .

فيتبين لنا أن أولئك الحفنة من الكافرين هم وحدهم الشاذون في الكون كله عن عبادة

الله ، يقفون وحدهم في استكبارهم الزائف ، بينما الكون كله ومن فيه خاضع مستسلم لله بإرادته أو قهراً عنه :

« ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً ، قالتا : أتينا طائعين ! »[1]

وهل يملك أحد إلا أن يخضع لإرادة الله ومشيئته ؟

أما تلك الحفنة من البشر الضالين المستكبرين فإنهم يظنون أنهم يستطيعون أن يعجزوا الله ويخرجوا على سلطانه ! وينسون أن إمداد الله لهم إلى حين ليس عجزاً من الله سبحانه عن سحقهم لساعتهم ! إنما تلك مشيئته ـ سبحانه ـ أن يملي للكافرين زمناً ما : « ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ! »[2] ثم يأخذهم « أخذة رابية »[3] فيدمرهم تدميرا ..

كلا ! إنهم في شذوذهم ذلك ليسوا خارجين على إرادة الله ومشيئته ، وإن توهموا ذلك لفترة من الزمان !

أما بقية الكون فستسلم كله ، وراض عن عبادة الله ، فمن لم يرض فسيقهر قهرا فيستجيب !

ولكن الآية تعرض لنا صورة عجيبة تفاجئنا مفاجأة تامة ! إنه ليس « من في السماوات والأرض » وحدهم هم الساجدين لله في هذا المشهد الفريد . وإنما ظلالهم أيضاً ساجدة ! وما يخطر للإنسان ـ عادة ـ أن الظل له وجود قائم بذاته ! فهو أبداً تابع لصاحبه ، يصحبه قهرا .. لأنه ظله ! بل لا يتصور الإنسان أن الظل وإن كان متحركاً ، هو « كائن » منفصل له حركة ذاتية يمكن أن يسجد بها لله ! ولكن السياق يحيي الظل ، ويمنحه الحركة الذاتية المستقلة ، ويفجؤنا بأنه ساجد لله كأنما لحسابه الخاص ! لأن تبعيته هي لله مباشرة وليست لصاحبه الذي يحركه معه حيث يتحرك !

ألا إنها لصورة مبدعة ! إنها بلفظة واحدة « وظلالهم » تضاعف عدد الساجدين لله في الكون كله ! فبعد أن كانوا هم وحدهم الساجدين كما يتبادر إلى أذهاننا ، إذا هما اثنان ساجدان : الشخص وظله ! والشيء وظله !

بل إنه لم يتضاعف مرة واحدة ! فالحركة الدائمة للظل ما بين الغدو والآصال تجعل الظل شخوصاً كثيرة جداً وإن كان صاحب الظل لم يزد عن واحد ! وتجعل السماوات

---

(١) سورة فصلت [١١] .
(٢) سورة النحل [٢٥] .
(٣) سورة الحاقة [١٠] .

والأرض مسرحاً هائلاً لسجود الظلال في كل لحظة ، حتى ما يوجد مكان في السماوات والأرض قد خلا لحظة من الساجدين !

وذلك كله بكلمات معدودة لا تزيد على ثلاث أو أربع : « وظلالهم بالغدو والآصال » .

ثم يعود السياق إلى أولئك المكذبين يوجه الخطاب إليهم لا بقصد إقناعهم وإنما لتبكيتهم .. فإن من لم يقتنع بكل تلك الآيات المحشودة من أول السورة لا يستحق أن يُقْنَع !

« قل : من رب السماوات والأرض ؟ قل : الله . قل : أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ؟ قل : هل يستوي الأعمى والبصير ، أم هل تستوي الظلمات والنور ؟! أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟! قل : الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار » .

إنه يسألهم ولا ينتظر إجابتهم ! « قل : من رب السماوات والأرض ؟ قل : الله ! » وهم لم يكونوا ينكرون أن الله هو رب السماوات والأرض : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله ! »[1] « قل : من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم ؟ سيقولون : لله ! »[2] ولكن السياق لا ينتظر عليهم حتى يأخذهم باعترافهم ! إنه يسألهم للتبكيت فقط ولبيان سخف تصرفهم القائم على غير منطق ولا برهان ! « قل : أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرا ؟ » .

ثم تنديد أشد : « قل : هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور ؟! » هل يستوي هذا الموقف الضال وموقف المؤمن الذي يرى الآيات فتتفتح لها بصيرته فيؤمن ويستجيب ، أم هل تستوي ظلمات الكفر ونور الإيمان ؟

ثم يصل التبكيت والتنديد إلى نغمة السخرية ! « أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟! » وحتى هم لم يكونوا يزعمون أن هناك خالقاً مع الله ! إنما كانوا يشركون مع الله في صفات أخرى غير الخلق . ولكن السياق يسخر بهم لأنهم عموا عن الحقيقة الكبرى ، وهي أن الخالق وحده هو الذي ينبغي أن يعبد .. وأنه ما دام هو الخالق فهو المتصرف وهو صاحب الأمر : « ألا له الخلق والأمر »[3] . فهم لا ينكرون أنه سبحانه هو الخالق وحده ، ومع ذلك لا يرتبون على ذلك نتيجته المنطقية ، وهي أن يعبدوه وحده دون شريك . ومن هنا تجيء السخرية الحادة بهم ، كأنما يقول لهم إنه لا ينبغي لهم أن يقفوا موقف الشرك والتكذيب إلا في حالة واحدة ، هي أن يكون لله شركاء يخلقون كخلقه فيتشابه عليهم الخلق ، ولا يستطيعون أن يميزوا بين ما خلقه الله

---

(١) سورة لقمان [٢٥] .
(٢) سورة المؤمنون [٨٦ – ٨٧] .
(٣) سورة الأعراف [٥٤] .

وما خلقه الشركاء فيعبدوهم جميعاً على سواء ! وما داموا هم لا يزعمون أن هناك خالقاً غير الله ، فشركهم إذن ليس له مبرر ، وليس له برهان .

وهذا ـ إذا شاء العقلانيون ـ دليل عقلي ! ويستطيع العقل أن يجعل منه قضية عقلية منطقية ذات مقدمات وبراهين ! ولكن السياق لا يسوقه من هذه الزاوية .. إنما يجعله سخرية لاذعة تثير الضحك من موقفهم الشاذ دون تجريد ذهني لا يغني شيئاً في الموقف ، ولا يقدم ولا يؤخر !

ومرة أخرى يسألهم ولا ينتظر إجابتهم ، فما سألهم لكي يجيبوا أصلاً ، وإنما ليسخر من تصوراتهم الفاسدة :

« قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار » .. وهكذا تحسم القضية رضوا أم لم يرضوا .. واقتنعوا أم ظلوا في ضلالهم المقيم .

* * *

ثم يأتي هذا المثل ، وهو من أجمل الأمثال المضروبة في القرآن :

« أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ، فاحتمل السيل زبداً رابياً ، ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله . كذلك يضرب الله الحق والباطل : فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض . كذلك يضرب الله الأمثال » .

ونسأل أولاً : هل هو مثل يضرب ؟

والجواب : نعم ولا شك ! فقد نصت الآية نصاً على أنه مثل يضرب « كذلك يضرب الله الأمثال » .

ولكن مما يعطي هذا المثل جمالاً خاصاً لفتة « فنية » ربما لم ترد في موضع آخر بهذه الصورة ..

إن للأمثال في ذاتها جاذبية ليست لغيرها من أنواع التعبير . والناس تحب المثل وتتأثر به أكثر من الصور المباشرة في التعبير لأن فيه جمالاً « فنياً » زائداً .. فبدلاً من أن يُعرض المعنى مباشرة ، فإنه يُعرض معكوساً من خلال مرآة خاصة لا كالمرايا العادية ! فالمرآة العادية تعكس الشيء في نفس صورته بلا فرق . ولكن هذه المرآة ذات خصيصة غير عادية ! فهي لا تعكس الشيء على صورته الأصلية ، وإنما على صورة أخرى مشابهة .. ولكنها أبهى رونقاً وأكثر وضوحاً وأشد جاذبية .. ومن ثم تعين على تذوق المعنى الأصلي بعقد المقارنة بين الأصل والصورة .. ثم إن هناك متاعاً فنياً ونفسياً في هذه العملية ذاتها : عملية عقد المقارنة بين الأصل والصورة ! ومن ثم يتضاعف المعنى في الحس حين يصبح أصلاً وصورة ، كل منهما قائم بذاته ، ومتصل بالآخر في ذات الوقت ، ويجد الإنسان متعة في تملي المعنى بخياله بدلاً من أن يتملاه بذهنه فحسب ..

هذا بالنسبة للأمثال جميعاً .. ولكن هذا المثل بصفة خاصة له جمال زائد !

إنه يبدأ وكأنه ليس مثلاً ! وإنما هو امتداد للسياق في الآية السابقة !

« قل : الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار . أنزل من السماء ماءً فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ... » .

إلى هنا هل تحس أنه مثل يضرب ؟ كلا ! إنما تحس أنه استمرار للحديث عن قدرة الله ، كما يرد في كثير من آيات القرآن ، خلق كل شيء ، وأنزل من السماء ماء !.. أو تحس أنها قصة واقعية حدثت ذات يوم : أنزل من السماء ماءً ، في بقعة معينة من الأرض ، فسالت أودية بقدرها ، فاحتمل السيل زبداً رابياً ! ولكنه حين يقول : « ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاعٍ زبد مثله » تبدأ تحس أنها ليست قصة واقعية تروى .. ولكنك لا تعرف بعد ما هي ! ثم هذه الثانية حقيقة قائمة بذاتها لا تعرف بعد فيم تساق ، إلا في أنها مشتركة مع الأولى في وجود الزبد .. وفجأة يقال لك إنه مثل يضرب ! « كذلك يضرب الله الحق والباطل ! » وعندئذ تعود تراجع من جديد ، لتفصل بين ما ظننته متصلا من السياق ، ثم لتتملى الأصل والصورة في المثل المضروب !

ولكن هل ينفصل السياق إذا فصلته ؟ « قل : الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار ، أنزل من السماء ماءً ... » .

كلا ! إنه متصل ما يزال ! وتلك هي اللفتة الفنية التي تعطي جمالا زائداً لهذا المثل بالذات !

إنه من ذات الخيط الذي نسجت منه الآية السابقة « قل : الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار » يبدأ ينسج الصورة الجديدة ، دون أن يشعرك في مبدإ الأمر أنه نسيج جديد وصورة جديدة .. حتى تفاجأ بالصورة بعد اكتمالها فإذا هي حقاً قائمة بذاتها ، ولكن الخيط الذي نسجها يظل متصلاً بما قبله بغير انقطاع !

ثم نأخذ في تملي الأصل والصورة ، فنزداد تذوقاً لتلك اللفتة الفنية الجميلة ..

إن الصورة القائمة بذاتها المعكوسة من خلال المرآة ذات الخاصية الفنية الخاصة ، هي الماء النازل من السماء حتى تفيض به الوديان .. كل وادٍ يحمل بقدره . فهذا وادٍ عميق فيمتلئ امتلاءً ، وذلك وادٍ ضحل لا يمكث فيه الماء ، إنما يمر عليه مروراً ولا يمكث فيه .. ثم إن السيل يحمل في طريقه زبداً رابياً ، مما كان في الوديان من أوساخ ورواسب ، فيظهر الزبد على السطح فترة فيغطي على الماء ، فإذا رأى الرائي فإنه يرى ذلك الزبد الفوار الجياش على السطح . ثم يستقر السيل بعد فترة ، فإذا الزبد المنتفش الفوار الجياش قد اختفى .. ويبقى الماء مستقراً في الأرض ، صافياً رائقاً ، فينتفع به الناس ..

أما المعنى الأصلي ، المراد التمثيل له فهو هكذا : أن الله ينزل من السماء هدى ربانياً على القلوب البشرية ــ الهدى يقابل الماء ، والقلوب تقابل الوديان ــ فيأخذ كل

قلب حسب طبيعته . قلب يمتلئ بالإيمان ، وقلب ينزل عليه الهدى فيطرده فلا يتلبث فيه .
ثم إن الباطل الذي لا يؤمن بالله ينتفش ويفور فترة من الزمن في صراعه مع الحق النازل من السماء .. ثم لا يلبث أن يستقر أمر الله في الأرض ، فإذا هذا الباطل المنتفش قد دمر الله عليه ، فذهب بدداً بعد أن كان يبهر الناس بقوته الزائفة ، ويبقى الإيمان مستقراً ممكّناً في الأرض ...

هذا هو الأصل وتلك هي الصورة المنعكسة من خلال تلك المرآة « الفنية » الخاصة . وإنها لصورة جميلة في ذاتها يتملاها الخيال فيتحرك معها وينشط لها . فإذا برزت الصورة الأصلية ، وعقدت المقارنة بين الأصل والصورة زادت الأولى وضوحاً وجمالاً ، وتضاعف إحساس الإنسان بها ، وهو ينظر في الأصل ثم ينظر في المرآة !

ثم الآن .. يتبين لنا الجمال الخاص في هذا المثل بصورة أوضح ..

إنه في المثل يقول : « أنزل من السماء ماء » .. ولا ينبه هنا ، كما ينبه في مواضع أخرى إلى بداية المثل [1] ، لأن الخيط مشترك بين الأصل والصورة ! إن الله ينزل من السماء ماءً على وجه الحقيقة . والله ينزل من السماء هدىً في كتاب منزل ! ومن ثم استخدم السياق ذات الخيط ، فرسم به الأصل والصورة على السواء !

ثم إن هذا المثل أيضاً يضيف جمالاً آخر .. إن المرآة تعكس صورتين للمعنى المقصود لا صورة واحدة : « ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاعٍ زبد مثله » .. فتلك صورة أخرى يتملاها الخيال وينشط لها ويعقد المقارنة بينها وبين الأصل . فهنا ذهب ثمين أو فضة مما يستخدم في الحلي والزينة .. ولكنه لا بد أن يُفتَن في النار ، أي يوقد عليه حتى ينصهر فينفصل عنه الخبث الذي كان محتوياً عليه أو كان مصاحباً له .. ويتميز هذا عن ذاك .. ولكنه في أثناء الفتنة يعلو الخبث ـ الذي يأخذ اسم الزبد هنا كذلك ـ فيغطي على المعدن الحقيقي ، حتى إذا هدأت الأمور واستقرت كان الزبد قد نُحِّي وحده وألقى بعيداً ، ويظل المعدن الثمين يتحلى به الناس ويتزينون .

ومع أن الصورتين هما انعكاس لأصل واحد ، ويضرب المثلان لشيء واحد : « كذلك يضرب الله الحق والباطل » ، إلا أن كل صورة تُعكس من زاوية غير الأخرى وإن كانتا في النهاية تؤديان إلى غاية واحدة . فهنا الصورة هي صورة النار التي يفتن فيها المعدن . والإشارة إلى الفتنة التي يبتلى بها المؤمنون :

---

(١) يقول في سورة البقرة مثلاً : « إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها » ويقول في سورة النحل : « ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستوون ؟ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون » فتعرف منذ البداية أنه مثل مضروب .

« أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ؟ ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين »[1] .

في أثناء الابتلاء يكون الباطل هو المنتفش المتحرك الفوار ، والحق مغموراً تحت سطوة الباطل لا يظهر .. حتى إذا انتهت حكمة الابتلاء ، وتميز الخبيث من الطيب ، ذهب الخبيث بدداً وبقي الطيبون في الأرض ..

أرأيت إلى إبداع الصورة .. بل الصور المتعددة الموحية المعبرة الجميلة ؟

ألا إنه لإعجاز ...

* * *

كان المثل المضروب يصور الهدى الرباني المنزل في القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويصور القلوب التي تستجيب والتي لا تستجيب :

« للذين استجابوا لربهم الحسنى . والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به ! أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد » .

وهنا وقفة فنية كذلك تبين لنا جمال التعبير بالتصوير .. لو قال : والذين لم يستجيبوا له لن ينفعهم شيء يوم القيامة .. لأدى التعبير معناه . ولكن أين هذا المعنى الذهني من تلك الصورة : « لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به ! » ؟

إن الخيال هنا يعمل في تتبع الصورة : صورة إنسان يمتلك ما في الأرض جميعاً .. وذلك مستحيل في عالم الواقع لأنه يفوق قدرة الإنسان على التملك ، ولو لم يمنعه أحد ولم ينافسه أحد .. ولكن الصورة تزيد الأمر استحالة .. « ومثله معه ! » ومن أين يأتي بالمثل حتى لو أراد ! ثم الافتداء ذاته .. كيف يقوم به ! كيف يتقدم إلى الله بملء الأرض ومثله معه ؟! إن الخيال ليرسم صورة إنسان يحاول أن يتأبط الكرة الأرضية جميعها ــ فضلاً عن مثلها معاً ! ــ ليحاول تقديمها إلى الله فدية عن نفسه لكي لا يدخل جهنم ! فيتجسم معنى الاستحالة بأضعاف ما يتمثله الذهن المجرد الذي يتعامل مع المعاني التجريدية للألفاظ !

* * *

ثم يمضي السياق في جولة جديدة يعقد فيها مقارنة بين الفئتين من البشر اللتين ذكرهما من قبل « الذين استجابوا لربهم » « والذين لم يستجيبوا له » واللتين ضرب لهما المثل من قبل بالأودية التي تحتمل السيل كل بقدره :

« أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ؟ إنما يتذكر أولو الألباب ».

إنهما فريقان : أحدهما يعلم أن ما أنزل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم هو الحق .

---

(١) سورة العنكبوت [٢ - ٣] .

والثاني يوصف بأنه أعمى . ومقتضى المقابلة أن يكون الفريق الأول هو البصير ، كما قال من قبل « قل : هل يستوي الأعمى والبصير » . ولكنه لا يصفه هنا بصفته إنما يصفه بحالته : يعلم أن ما أنزل هو الحق . ثم يطلق عليه وصفاً آخر : « أولو الألباب » ومقتضى المقابلة أن يكون الفريق المكذب لا ألباب له ، أو كما يصفهم القرآن في غير هذا الموضع : « لهم قلوب لا يفقهون بها »[1] .

وهنا يأخذ السياق يصف لنا أولي الألباب هؤلاء :

« الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق . والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب . والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار : جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم . والملائكة يدخلون عليهم من كل باب : سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » .

وإن هذا الوصف الرائق الجميل الشفاف ليستوقفنا في أكثر من موضع منه ، بل في كل موضع !

إن أولي الألباب هؤلاء هم الذين وصفهم السياق من قبل بأنهم الذين يعلمون أن ما أنزل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم هو الحق . ثم هم الذين يوصفون هنا بأنهم « الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق » والذين .. والذين .. والذين ...

فأول ما يلفت حسنا هنا أن هذا « العلم » بأن ما أنزل الله هو الحق ، ليس ذلك العلم الذهني البارد الذي لا يتحرك .. ولكنه علم متحرك مشع ، ينتج آثاراً معينة في سلوك أولي الألباب ..

فعلمهم بأن ما أنزل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم هو الحق ، قد انتقل من الذهن الذي علم ، إلى القلب الذي ينبض بالوجدان الحيّ ، لكي يتحول منه إلى سلوك : « يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ... » .

« يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق » أي ميثاق هو ؟ أهو الميثاق الذي أخذ على بني آدم في عالم الذر : « وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ! شهدنا ! » أم الميثاق الذي عقدوه مع الرسول صلى الله عليه وسلم إذ شهدوا ألّا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، بما معناه ألا يعبدوا إلهاً آخر غير الله ، ولا يطيعوا أحداً غير الله [والرسول المبلغ عن الله] ولا يستمدوا من أحد غير الله ؟

---

(١) سورة الأعراف [١٧٩] .

هذا وذاك ميثاق .. أو هو ذات الميثاق ..

وإن التعبير إذ يقول : « عهد الله » ويقول « الميثاق » ليعني كل عهد مع الله ، وكل ميثاق مع الله .

تلك أول صفة يوصف بها أولو الألباب . وأول أثر من آثار هذا « العلم » الذي علموه ، فتحول إلى سلوك .

« والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ... » .

إن « ما » بهذا التعميم لتعني **كل** ما أمر الله به أن يوصل . وإن هذا التعميم بالنكرة هنا ليعطي مساحة واسعة للمعنى يدخل فيها أمور لا تحصى . والسياق هنا لا يحصيها ، ليبقيها هكذا عامة شاملة موحية ! فاتصال القلب بالله في الصلاة والذكر مما أمر الله به أن يوصل . والاتصال بذوي القربى بالمودة وبالإنفاق عليهم مما أمر الله به أن يوصل . واتصال الزوجين بالمودة والرحمة مما أمر الله به أن يوصل . واتصال القلوب المتآلفة المتحابة في الله مما أمر الله به أن يوصل .. وغيرها .. وغيرها مما يشمل كل أعمال الإنسان !

« ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب » .

إن العلم بأن ما أنزل من الله هو الحق لا بد أن يؤدي في القلب المؤمن إلى الخشية من الله ، وإلى الخوف من سوء الحساب ، وإلا فإنه يظل علماً معلقاً ، لا رصيد له في المشاعر ، التي تؤدي إلى السلوك . ولكن أولي الألباب الموصوفين هنا يدركون من هذا العلم جلال ربهم فيخشونه ، ويؤمنون باليوم الآخر وما فيه من حساب فيخافون سوء الحساب .

« والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة ... » .

وهذا كله **سلوك** عملي نشأ من تلك **المشاعر** الخاشعة لله ، التي نشأت بدورها عن ذلك **العلم** بأن ما أنزل الله هو الحق .

إنه لا بد أن يصل هذا العلم في النهاية إلى سلوك ، بعد أن يتحول إلى مشاعر .. وإلا فهو علم كعلم الجاهلية الذي لا يقدم ولا يؤخر ، والذي من أجله سمى الله العرب في جاهليتهم « الذين لا يعلمون » .. أما هنا فصفات « الذين يعلمون » وسلوكهم ، تبين لنا الفرق بين العلم الإيماني والعلم الجاهلي .. وشتان ما بين علم وعلم ..

« صبروا ابتغاء وجه ربهم .. »

إنها صورة شفيفة للصبر .. كلها نور .. وكأنما النور الرباني من « وجه ربهم » يتألق في قلوبهم وعلى قسمات وجوههم فتضيء ! أليسوا قد صبروا ابتغاء « وجه ربهم » ؟

يا لها من شفافية !.. لم يقل هنا صبروا ابتغاء نعيم الجنة .. وهو من حقهم ! إنما

يقول « صبروا ابتغاء وجه ربهم » .. إنها أشف صورة للصبر .. وأروع صورة للإيمان ..

« وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية » .

إنها تكملة الصورة الشفيفة الوضاءة السامية .. أقاموا الصلاة ، يصلون بها ما بين قلوبهم وبين الله . وأنفقوا سراً وعلانية لا يبتغون بإنفاقهم إلا وجه الله .. ولفظة « سراً » هنا تشارك في رسم الصورة الوضيئة لأولئك المنفقين ابتغاء وجه الله .

« ويدرءون بالحسنة السيئة » .

وتلك قمة الشفافية .. وقمة الصبر .. وقمة الارتفاع .. يتلقون السيئة فيدرءونها .. ولكن كيف ؟ بتقديم الحسنة إلى المسيئين !

إنها صورة شفيفة ولا شك .. ولكنها تستوقفنا هنا في هذا المجال لنقول إنها من بين الأمور التي ترجح أن السورة مكية لا مدنية !

فقد كان كف الأيدي ، ومقابلة السيئة بالحسنة هو أمر الله للمسلمين في مكة . فأما في المدينة فقد أمرهم برد العدوان ، ثم أمرهم بعد ذلك بأن يبدأوا هم بالقتال حتى يدرأوا الفتنة : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » [1] .

ولكلٍ مكانه .. درء السيئة بالحسنة له مكان ومجال ، ودرء السيئة بالقتال له مكان ومجال .. ولّا يصلح لهذا ما يصلح لذاك . والله أعلم حيث ينزل وحيه وأوامره ..

إنما الذي يهمنا هنا أن هذه الآية ـ مع غيرها ـ ترجح أن السورة مكية .. والعلم اليقين عند الله .

ويختم السياق تلك الصورة الشفيفة الوضاءة بالجزاء الذي يستحقه هؤلاء عند الله ..

« أولئك لهم عقبى الدار » .

لهم العقبى الحسنة في الدار الخالدة :

« جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم .. » .

فهنا نعيم نفسي مضاعف .. نعيم دخول الجنة ، ونعيم التلاقي مع الآباء والأزواج والذريات الصالحة .. هناك في الجنة . وليس هذا فقط .. فإنما تكمل صورة هذا النعيم الروحي الشفاف بدخول الملائكة من كل باب مرحبين :

« والملائكة يدخلون عليهم من كل باب : سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ! »

أي نور يغمر الصورة كلها في نهاية المطاف !

إن الصورة كلها مضيئة شفافة رائقة .. بكل صفة فيها وكل تصرف وكل شعور .. ثم تتلاقى الأضواء كلها فتغمر الصورة غمراً بهذا النور الملائكي ، والملائكة يدخلون

---

(١) سورة الأنفال [٣٩] .

عليهم من كل باب .. من **كل** باب ! إنها صورة أخاذة للترحيب « بالضيوف » وإنهم لضيوف الرحمن حقاً في تلك الدار الخالدة ذات النعيم المقيم ...

وهل لنا أن نقف وقفة فنية سريعة إزاء هذه اللوحة الرائقة قبل أن ننتقل إلى اللوحة المقابلة ..

أرأيت إلى هذا التنسيق في اللوحة !

يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق . ويصلون ما أمر الله به أن يوصل .. خطوط عريضة !

يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب .. خطوط أدق !

أقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة .. خطوط أدق !

نسق ملحوظ في كل لوحات السورة من البدء إلى الختام !

* * *

ثم تأتي الصورة المقابلة ..

« والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار » .

إنها الصفحة المقابلة تماماً ولا شك .. ولكن أرأيت إلى صورة العرض وإيحاءاتها ؟!

هناك عرض متمهل ، يصف أولي الألباب بأوصافهم الجميلة الشفيفة وصفاً تفصيلياً ، مع العناية الفائقة بهم والاحتفال التام بوصفهم ، الذي يتبدى في تقديمهم من جديد في كل مرة : الذين .. والذين .. والذين .. بينما هنا يقدمهم دفعة واحدة بكل أعمالهم السيئة في سياق واحد سريع بغير احتفال ! وفي آية واحدة يصفهم ، ثم يلعنهم ، ثم يوصلهم إلى جهنم !! بينما هناك وصفوا في ثلاث آيات متواليات ، ثم أعطيت لهم البشرى في الآية الثالثة ، وفصلت في آيتين بعد ذلك !

والعناية هناك مقصودة .. والإهمال هنا مقصود !

* * *

« الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر . وفرحوا بالحياة الدنيا . وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع ! » .

آية تجيء مفاجئة – في الظاهر – بعد وصف الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه .. كأنما تقطع السياق !

كلا ! إن هناك جسراً خفياً يربط الآيتين برباط وثيق . إنما يحتاج الأمر إلى إنعام النظر لكي نرى الجسر الوسيط .

إن هؤلاء الكفار يكفرون حرصاً على متاع الحياة الدنيا ! يخافون أن يحرمهم الإيمان من متاعهم ! لأنهم يرون المؤمنين في محنة وابتلاء ، لا مال عندهم ولا متاع ! وينسون أن الله هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ! إنه ليس الإيمان هو الذي يضيع المال والمتاع ، ولا الكفر هو الذي يبقي على المال والمتاع كما يظن الجاهليون دائماً في كل جاهلية ! إنما الله هو الذي يوزع الرزق ، ولحكمة يريدها .. وفي النهاية ـ سواء بسط الرزق للإنسان في الدنيا أو قدر عليه ـ فإنه متاع زائل زائف ، لا وزن له في الآخرة .. والمتاع الحق هو ذلك المتاع الأخروي .. الذي لا ينشئه تملك المتاع في الدنيا .. إنما ينشئه الإيمان ! ومن ثم فإن هذه النظرة التي ينظر بها الكفار إلى الأمر فيكفرون ، إنما هي نظرة غبية لا تستحق الاحترام !

ثم يعود إلى تسجيل ما يطلبه الكفار من تنزيل آية .. وهذه هي المرة الثانية في السورة التي يسجل فيها طلبهم ، بما يدل على إلحاحهم الشديد في ذلك [جاء ذكر الطلب مرة ثالثة في السورة] كما يدل على اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم بالأمر [وهذا ما يرجح عندنا كذلك أن السورة مكية لا مدنية ، فإن هذا كله كان يقع في مكة لا في المدينة] . ولكنه لا يرد عليهم بالاستجابة :

« ويقول الذين كفروا : لولا أنزل عليه آية من ربه ؟! قل : إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب . الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله . ألا بذكر الله تطمئن القلوب . الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب » .

إن الله لن ينزل عليهم الآية التي يطلبونها لحكمة يراها الله سبحانه . ولكنه لا يرد عليهم بذلك مباشرة ، بل يرد بذكر حقيقة لا يجعلون بالهم إليها ! إن الإيمان ليس متعلقاً بتنزيل آية ! إنما يهدي الله الذين يتوجهون إليه متطلعين إلى الحق ، ويضل الذين تنصرف قلوبهم عن الحق ..

« قل : إن الله يضل من يشاء » .

والله يهدي من يشاء ويضل من يشاء .. إن المشيئة الربانية طليقة لا يقيدها قيد .. ولا يوجد من يفرض عليها القيد .. تلك حقيقة قائمة بذاتها ، وتسجلها الآية . ولكن السياق يوحي في ذات الوقت ـ عن طريق المقابلة مع « من أناب » أن الذين يضلهم الله هم الذين لا ينيبون إلى الله ولا يتوجهون إليه . أما « من أناب » فأولئك هم الذين يهديهم الله.

« الذين آمنوا **وتطمئن** قلوبهم بذكر الله . **ألا** بذكر الله تطمئن القلوب » .

نعم .. إنها الطمأنينة إلى الله .. إنها قمة المشاعر الإيمانية وأروع ثمارها .. الطمأنينة إلى الله وقدره .. وإلى كل ما يأتي من عند الله . الطمأنينة إلى معية الله . الطمأنينة إلى أن الله مع المؤمن في كل لحظة لا ينساه ولا يقلاه .. حتى في ساعة العسرة .. حتى في ساعة

المحنة .. حتى في ساعة العذاب .. يحس المؤمن الحق بالطمأنينة إلى الله . وعلى قدر إيمانه وتأصل هذا الإيمان يكون إحساسه بالطمأنينة إلى الله .. « **ألا** بذكر الله تطمئن القلوب » .. ألا بهذا التنبيه .. الذي يفيد القصر أيضاً .. أي أن الطمأنينة الحقيقية لا تستمد إلا من ذكر الله ! لا تستمد من القوى المادية ولا القوى البشرية ولا أي ستار ولا أي تحصن ! إنما تستمد من ذكر الله . لأنه هو الذي يمنح الطمأنينة الحقة .. وهو الذي يملك الأمان الحق .. وهو أكبر .. أكبر من القوى والحصون والبشر والأموال والسلاح !

« الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب » ..

نعم .. الذين آمنوا **وعملوا الصالحات** .. لقد ذكر الإيمان وحده في الآية السابقة ليصف أثر الإيمان في **مشاعر** الإنسان ، ثم أردفها بهذه الآية ليبين أثر الإيمان في **السلوك العملي** ..

أولئك طوبى لهم .. الطيبات لهم .. والمآب الجميل إلى الله ..

* * *

«كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك ، وهم يكفرون بالرحمن . قل : هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب . ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى ! بل لله الأمر جميعاً . أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ؟ ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم حتى يأتي وعد الله . إن الله لا يخلف الميعاد . ولقد استهزئ برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب ؟! » .

« كذلك » ..

بالإضافة إلى ما سبق في السورة كله من تفصيل للآيات .. « أرسلناك » .

لقد سبق في أول السورة قوله تعالى : « .. يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون » .

وإلى جانب تفصيل الآيات الذي كانت السورة تعرضه حتى الآن ، يرسل الله رسولا إلى هذه الأمة ليقوم بالتبليغ عن الله ويقوم بالبيان :

«كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك » .

وقد كان مقتضى هذا كله أن تؤمن هذه الأمة ــ وقد خلت من قبلها أمم أرسل إليها رسل ، فليست هي أول أمة أرسل إليها رسول حتى تنكر الرسالة والوحي وتنكر الكتاب المنزل ــ ولكنهم مع ذلك لا يؤمنون !

« وهم يكفرون بالرحمن . قل : هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب » .

إن نغمة الحديث قد تغيرت هنا بعد البيان الطويل والعرض والتفصيل ، وبعد الإنذارات الموجهة للكفار باللعنة وسوء الدار . إنها تعلن المفاصلة بين الرسول صلى الله

عليه وسلم وبين الكفار : « قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب » كما قال من قبل : « لكم دينكم ولي دين » .

وللمفاصلة التي تعلن نفض الأيدي من الكفار لإصرارهم على كفرهم نغمة متميزة حيثما أتت في سياق القرآن ، لا هي بالحادة كلهجة التهديد ، ولا هي بالهادئة تماماً كلهجة التقرير :

« وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ! قل : من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً ، وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا اباؤكم ؟! **قل** : **الله** . **ثم ذرهم في خوضهم يلعبون** ! »[1] .

« قل : يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم : ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله . **فإن تولوا فقولوا** : **اشهدوا بأنا مسلمون** »[2] .

وهنا كذلك يقول لهم : « قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب » .

ويستوقفنا أمر الله سبحانه وتعالى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول : « عليه توكلت وإليه متاب » ! فإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : إلى الله متابي ، فكيف ينبغي أن يصنع البشر العاديون الذين لم يرتفعوا إلى مستوى الأنبياء فضلاً عن خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام ؟!

ثم يعود إليهم ، مشيراً إلى طلبهم الآية ، ومشيراً إلى أن القرآن هو آية الرسول العظمى ، عليه الصلاة والسلام ، ولكن غفلتهم هي التي تعميهم عن ذلك فيصرون على طلب الخارقة الحسية .. ولكن الحديث ليس موجهاً في هذه المرة إليهم ، إنما هو موجه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين الذين ما زالوا يطمعون في إيمان الكفار ، ويتمنون أن لو نزلت آية فتشجع أولئك الكفار على الإيمان أو تقنعهم بالحق ..

« ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى ... » ؟!

والكلام له تكملة مقدرة لم يذكرها النص ، كأنه قال : لو أن قرآناً كان يمكن أن تسير به الجبال أو تقطع به الأرض أو يكلم به الموتى لكان هو هذا القرآن !

والنص بصورته المعجزة هذه يحمل عدة معانٍ في وقت واحد :

أن القرآن هو المعجزة التي شاءت إرادة الله أن ينزلها على الرسول صلى الله عليه وسلم دون غيره من المعجزات (لا يمنع هذا وجود معجزات أخرى للرسول غير القرآن ، ولكن معجزة التحدي هي القرآن كما هو واضح من سياق الآيات) .

---

(١) سورة الأنعام [٩١] .

(٢) سورة آل عمران [٦٤] .

أن الله سبحانه وتعالى لن ينزل خارقة حسية !

أن القرآن : المعجزة المختارة ـ لحكمة ربانية ـ بدلاً من الخوارق الحسية التي أرسل بها الرسل من قبل ، ليس من شأنه أن يصنع خوارق حسية كتسيير الجبال أو تقطيع الأرض أو تكليم الموتى .. إنما هو معجزة معنوية تخاطب القلوب والعقول لتصل بها إلى الرشد عن طريق الوعي والإدراك والتفهم لا عن طريق الإخضاع للخارقة الحسية [« إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين ! »[1]] .

هذه هي المعاني المتضمنة مباشرة في النص .. ولكن النص مع التكملة المقدرة يوحي بمعنى آخر :

إن هذا القرآن لا يصنع خوارق حسية كتسيير الجبال وتقطيع الأرض وتكليم الموتى ولكن الخارقة المعنوية التي يصنعها هي كتسيير الجبال وتقطيع الأرض وتكليم الموتى ، بل هي أعظم وأخطر ! إنه يصنع الإيمان في القلوب ! والإيمان ـ وهو قوة معنوية ـ أعظم خطراً من القوى الحسية ، ثم إنه ـ بما يولده في قلوب البشر من طاقة ـ ينتج آثاراً حسية في الأرض تشبه تسيير الجبال !

وتلك المعاني كلها تحملها ألفاظ معدودة محدودة يفهمها جيداً أولئك المخاطبون الأوائل بهذا القرآن ، فقد كانوا يعرفون أسرار لغتهم .. ويعرفون كذلك مدى الإعجاز في تلك الكلمات !

« بل لله الأمر جميعاً » .

هو الذي يختار نوع المعجزة التي ينزلها على رسوله ، إن كانت حسية أو معنوية . وليس للبشر جميعاً ـ بما فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أن يقترح على الله صورة معينة للمعجزة .. والله ـ سبحانه ـ أعلم بما يريد . « والله أعلم بما ينزل »[2] .

« أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو شاء الله لهدى الناس جميعاً ؟! » .

لقد كان المؤمنون ما يزالون يطمعون في أن يؤمن الكفار ، ويتمنون أن ينزّل الله آية تقطع حجة المكذبين . ولكن الله يقول لهم إن الله لم يرد لهم الهدى ، لأنهم أصموا آذانهم عن الحق . فليست المسألة أن تنزّل الآية أو لا تنزل .. ولو نزلت الآية لبقوا كذلك على كفرهم : « ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله . ولكن أكثرهم يجهلون ! »[3] ولو شاء الله لهدى الناس

---

(١) سورة الشعراء [٤] .

(٢) سورة النحل [١٠١] .

(٣) سورة الأنعام [١١١] .

جميعاً ، فخلقهم ـ كالملائكة ـ كلهم مؤمنين . ولكن مشيئته قد اقتضت ـ سبحانه ـ أن يجعل الإنسان مختاراً لطريقه : « وهديناه النجدين » [1] وترتب على ذلك أن يختار فريق طريق الهدى ، ويختار فريق آخر طريق الضلال .. وهؤلاء قد اختاروا فريق الضلال .

« ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم حتى يأتي وعد الله . إن الله لا يخلف الميعاد » .

وهذه الآية بالذات يمكن أن تكون مدنية .. وكثيراً ما تأتي آيات مدنية في سور مكية .. وسواء كانت مدنية أو مكية ففيها تهديد للكفار بأنهم سيلاقون مصائب تحل بهم أو قريبة منهم حتى تأتي الهزيمة الساحقة الأخيرة التي تقضي عليهم .

ثم يتوجه بالحديث إلى الرسول صلى الله عليه وسلم مواسياً له عن تكذيب المكذبين . إن هذا أمر تعرض له الرسل من قبل . وفي كل مرة كان يحدث شيء معين ـ هو الذي يحدث الآن مع الرسول صلى الله عليه وسلم ـ لحكمة يريدها الله ، وهي أنه يملي للكافرين فترة !

« ولقد استهزئ برسل من قبلك ، فأمليت للذين كفروا ، ثم أخذتهم ، فكيف كان عقاب » .

إن الإملاء للكفار لا بد أن يحدث ! وبالتالي فإن الامتحان للمؤمنين لا بد أن يحدث ! وفي فترة الإملاء يكون الباطل منتفشاً جياشاً ، وظاهراً على السطح ، كالزبد الذي يعلو السيل ، وكالزبد الذي يعلو الذهب والفضة حين يفتنان في النار ! وفي تلك الفترة يتم امتحان المؤمنين و « فتنتهم » بما يشبه النار ! « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ؟ ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » [2] .

ولكن هذه الصورة : صورة الباطل المنتفش المستعلي الجياش ليست هي الصورة الأخيرة !

« ثم أخذتهم فكيف كان عقاب ؟! » .

إن الزبد يذهب جفاء ! سواء زبد السيل أو زبد المعادن النفسية .. وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض .. ويأخذ الله الكفار بعذاب أليم : « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة . إن أخذه أليم شديد » [3] .

---

(١) سورة البلد [١٠] .

(٢) سورة العنكبوت [٢ – ٣] .

(٣) سورة هود [١٠٢] .

فإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يلقى الإيذاء والاستهزاء من الكافرين اليوم ، فسيؤخذ هؤلاء الكفار بالعقاب الأليم كما فعل بغيرهم من قبل .. ولن يمضوا في طغيانهم بغير عقاب ..

ثم عود إلى مناقشة الكفار :

« أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ؟ وجعلوا لله شركاء . قل : سموهم ! أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض ؟! أم بظاهر من القول ؟! بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل . ومن يضلل الله فما له من هاد . لهم عذاب في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق ، وما لهم من الله من واق » .

مناقشة شبيهة بالمناقشة التي مرت من قبل : « قل : من رب السماوات والأرض ؟ قل : الله ! قل : أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرا ؟ قل : هل يستوي الأعمى والبصير ، أم هل تستوي الظلمات والنور ؟ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟! قل : الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار » .

شبيهة بها في أنها لا ترد للمناقشة الحقيقية ولكن للتبكيت والسخرية بمفهوماتهم الضالة القائمة على غير أساس . ولكنها هنا تختلف عن السابقة في أنها تبين السبب في أقوالهم الضالة التي يقولونها ، وتصوراتهم المنحرفة التي يتصورونها ، ثم تزيد على ذلك بيان نهايتهم في الآخرة .

« أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ..؟ » .

قائم على كل نفس بما كسبت ، أي مسجل عليها أعمالها ، ورقيب عليها ، ومحاسب إياها بما كسبت . وللكلام تتمة مقدرة ، كأنه يقول : أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت مثل أولئك الشركاء الذين لا يعلمون شيئاً ولا يملكون حسابا ؟

« وجعلوا لله شركاء ! قل سموهم ! » .

وهو تحدٍ لهم أن يسمّوا أولئك الشركاء .. ولكن المقصود ليس التسمية اللفظية .. وإلا فقد كان لأولئك الشركاء أسماء ! كان منها اللات والعزى ومناة : « أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ! »[1] وكان منها الجن ، وكان منها الملائكة ، إلى غيرها من المعبودات التي يزعم أولئك المشركون أنها تشفع لهم عند الله أو تقربهم عنده زلفى !

فليس المقصود إذن هو التسمية اللفظية .. إنما هو يتحداهم أن يسموا أحداً من هؤلاء أو من غيرهم له **ألوهية حقيقية** ! قائم بذاته [قيوم] أو خالق أو رازق أو محيٍ أو مميت أو مدبر لشئون الكون ! أو قائم على كل نفس بما كسبت !

---

(١) سورة النجم [١٩ – ٢٠] .

« أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض ؟! » .

وتلك قمة السخرية بهم ! فهو يقول لهم إن الله يعلم أنه لا شركاء له سبحانه في ملكه .. فهل هم يعلمون أكثر مما يعلم ؟! وهم لم يكونوا يزعمون أنهم يعلمون أكثر مما يعلم الله ! ومع ذلك فسلوكهم العملي المنحرف كأنه يقول ذلك ، إذ يصرون على كون هؤلاء شركاء لله ، بينما الله سبحانه ـ « صاحب الشأن » ـ يقول إنه ليس له شريك !

« أم بظاهر من القول » ؟

أم هي مجرد أسماء لا رصيد لها من الواقع ؟ « إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان »[1] .

أم ماذا ؟! كلا ! إن الأمر ـ في حقيقته ـ ليس ذلك كله :

« بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ! ومن يضلل الله فما له من هاد » .

تلك هي الحقيقة الكامنة وراء تصرفهم الضال كله ، وتصورهم المنحرف كله .. لقد زين الشيطان لهم مكرهم ! ومكرهم هنا هو كفرهم .. هو انصرافهم عن الهدى وإصرارهم على التكذيب ، وعلى الالتفاف حول أولئك الشركاء المزعومين . ولقد زين الشيطان لهم ذلك وصدهم عن سبيل الهدى . وكأن السياق يصورهم قد دعوا إلى الإيمان فالتفتوا يستمعون إلى الداعي ، فجاء الشيطان « فصدهم » وأبعدهم وسار بهم في الطريق الآخر .. وإذ فعلوا ذلك فقد أضلهم الله فما عادوا يهتدون أبداً .

« ومن يضلل الله فما له من هاد » .

ثم يبين ما سوف يصيبهم في الدنيا والآخرة ، تهديداً واقعاً بهم هنا وهناك :

« لهم عذاب في الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشق ، وما لهم من الله من واق » .

وانطق كلمة « أشق » وخاصة إذا وقفت على آخرها بالسكون ، مع القلقلة التي تشبه التشديد : « أَشَقّْ » . إنها لفظة معبرة ، مصورة للمشقة حتى في نطقها .. وذلك من الإعجاز !

وإذ تحدث عن مصير الكفار فهو يبين ـ للمقارنة ـ مصير المؤمنين :

« مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار ، أكلها دائم وظلها ، تلك عقبى الذين اتقوا . وعقبى الكافرين النار » !

وما أبعد الفرق بين العذاب الأشقّ ، وبين الظل الظليل والأكل الدائم في الجنة التي تجري من تحتها الأنهار .

* * *

(١) سورة النجم [٢٣] .

« والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه . قل : إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به . إليه أدعو وإليه مآب . وكذلك أنزلناه حكماً عربياً ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا واق » .

والآية الأولى قد تكون مدنية ، إذ أنها تتحدث عن أهل الكتاب ، ومع ذلك فهي ذاتها مما يرجح عندي أن تكون مكية . لأن أهل الكتاب لم يعودوا يفرحون بما أنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن انتقل المسلمون إلى المدينة وقامت الدولة الإسلامية ! جاء في سورة البقرة : « وكانوا **من قبل** يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به »[1] وجاء في سورة النساء : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ! »[2] إلا أن يكون المقصود هو المؤمنين من أهل الكتاب ، الذين آمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم وهم قلة قليلة ، والباقون هم « الأحزاب » التي تنكر بعضه . وعلى أي حال فهنا إعلان آخر للمفاصلة بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين المكذبين من كل نوع ، يزيد على المفاصلة الأولى أنه يتحدث عن الدعوة إلى الله : « إليه أدعو .. » .

والآية الثانية كذلك قد تكون مدنية لأن القرآن فيها يسمي « حكماً » عربياً مما قد يشير إلى احتوائه على « أحكام » والأحكام أو التشريعات نزلت في المدينة . ولكن السور المكية جاء فيها : « وما اختلفتم فيه من شيء **فحكمه** إلى الله »[3] كما وصف القرآن ذاته بأنه « حكيم » وهو ذات المعنى الذي تتضمنه كلمة « حكم » : « إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون . وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم »[4] فيكون المقصود بقوله تعالى « حكماً عربياً » أي حكمة منزلة باللسان العربي .

والآية فيها تنبيه شديد للرسول صلى الله عليه وسلم يصل إلى حد التحذير ، بل النذير :

« ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا واق » .

وما كان الرسول صلى الله عليه وسلم متبعاً هوى أحد منهم ، وإن رغب أشد الرغبة في أن يؤمنوا ويتبعوا ما أنزل الله . إنما الإنذار في الحقيقة للمؤمنين ، أن تميل قلوبهم إليهم بسبب صلة القربى أو أية مصلحة من مصالح الأرض كما قال لهم في سورة التوبة : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان

---

(١) سورة البقرة [٨٩] .

(٢) سورة النساء [٥١] .

(٣) سورة الشورى [١٠] .

(٤) سورة الزخرف [٣ - ٤] .

ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون . قل : إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله ، وجهاد في سبيله ، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره . والله لا يهدي القوم الفاسقين »[1]

* * *

« ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية . وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله . لكل أجل كتاب . يمحو الله ما يشاء ويثبت ، وعنده أم الكتاب . وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب . أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ؟ والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب . وقد مكر الذين من قبلهم ، فلله المكر جميعاً . يعلم ما تكسب كل نفس . وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار . ويقول الذين كفروا : لست مرسلاً . قل : كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ، ومن عنده علم الكتاب » .

هذه هي الآيات الأخيرة في السورة ولها جو خاص ونغم خاص كذلك .

إنها « تلخص » موضوع السورة كلها ، بعد أن عرض تفصيلاً من قبل !

تلخص القضايا المثارة من جانب الكفار ، ثم ترد عليها رداً سريعاً حاسماً ، لا يفتح مجالاً للجدل والمناقشة ، فقد انتهى زمن المناقشة من قبل !

إنها أشبه شيء بقاض يقضي في قضية شرحت تفصيلاتها ، وذكرت فيها الأقوال المطولة من قبل ، وآن أوان تلخيص موضوع القضية لإصدار الحكم الأخير .. بل لقد وردت في هذا « التلخيص » الأخير جزئية لم تذكر من قبل ، وهي اعتراض الكفار على أن يكون للرسول صلى الله عليه وسلم أزواج وذرية .. وكأنما هذا الاعتراض لم يستأهل أن يذكر مع « القضايا الرئيسية » التي هي إنكار الوحي والرسالة ، وإنكار البعث ، وطلبهم للآية .. ولا أن يناقش تفصيلاً ، فجاء ذكره في « الملخص » الأخير فحسب !

« ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية » .

فلا غرابة إذن في أن يكون للرسول صلى الله عليه وسلم أزواج وذرية ! ولا موضع للاعتراض على ذلك ، ولا لرفض الإيمان بهذا السبب ! إنما هي مماحكة فارغة من الكفار يبررون بها موقفهم . ومما يلفت النظر أن السياق لم يُعْنَ حتى بإيراد الاعتراض ذاته ،

---

(١) سورة التوبة [٢٣ – ٢٤] .

إنما أَشْعَرَ بالرد عليه أنه وارد في « ملف القضية » فحسب ! وذلك منتهى الإهمال لاعتراضهم والإشعار بأنه لا يستحق حتى مجرد الذكر !

« وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله » .

وهذه هي المرة الثالثة التي يرد فيها ذكر الآية ذكراً صريحاً في السورة ، بخلاف الإشارة الرابعة الضمنية في قوله تعالى : « ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى .. » وفي ذلك دلالة على شدة إلحاح الكفار في طلب الآية وشدة اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بهذا الأمر .

ولكن السياق هنا يرد رداً مباشراً على الاعتراض ، لأنه بصدد إصدار الأحكام الأخيرة في الأمور كلها .

في المرة الأولى جاء قوله تعالى : « ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه . إنما أنت منذر ولكل قوم هاد » .

وفي المرة الثانية جاء قوله تعالى : « ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه . قل : إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب » .

وفي كلا القولين تعليم وبيان . أما هنا فرد مباشر يحسم الأمر : « وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله » فلا قيمة إذن لطلب الآية من الرسول صلى الله عليه وسلم ، لأنه لا يملك ذلك ولو أراد .. إنه ليس « جهة اختصاص » في هذا الشأن !

« لكل أجل كتاب . يمحو الله ما يشاء ويثبت ، وعنده أم الكتاب » .

ولقد قال بعض المفسرين إن الحديث هنا عن اللوح المحفوظ الذي فيه « سجلات » الخلق كلهم ، وما سجل لهم من رزق وعمر في الحياة الدنيا ، وما سجل لهم من نهاية في الآخرة ، أهم من الذين شقوا أم من الذين سعدوا ..

وبهذه الصورة يكون مفاجأة تامة في السياق ليس لها صلة بما قبلها . إنما الأرجح عندي ـ والله أعلم ـ أنه استمرار للحديث عن الآية التي يطلبها الكفار ، وإشارة إلى ما كان ينزل على الرسل السابقين من آيات ، فقد جاء في سورة القصص : « فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا : لولا أوتي مثل ما أوتي موسى ؟! »[1] وجاء في سورة الأنبياء : « بل قالوا : أضغاث أحلام ، بل افتراه ، بل هو شاعر ! فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ! »[2]

فالسياق يرد عليهم بأن كل عهد له كتابه وله معجزاته . وقد انتهى عهد المعجزات الحسية التي كانت تنزل على الرسل السابقين ، وجاء أوان هذه المعجزة المعنوية التي اختارها

---

(١) سورة القصص [٤٨] .

(٢) سورة الأنبياء [٥] .

الله سبحانه وتعالى لرسوله الأخير خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم . والله سبحانه وتعالى ينسخ ما يشاء من الرسالات والآيات ويثبت ما يشاء . وعنده أم الكتاب ؛ الأصل الذي ينزل الله منه ما يشاء حين يشاء ..

« وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب » .

وقد تكرر ذكر هذا المعني في السور المكية .. مما يرجح كذلك أن هذه السورة أيضاً مكية ..

وإن هذه الآية وأمثالها في السور المكية الأخرى [1] لتلقي على الدعاة بصفة خاصة درساً عميقاً لا بد لهم من الالتفات إليه .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم ، المكلف الأول بالدعوة ، والمؤيد بالوحي ، لا يُعْطَى ــ في العهد المكي ، عهد بناء العقيدة وترسيخها ــ وعداً بأن يرى هو بشخصه تمكن العقيدة في الأرض والقضاء على الكافرين ! إنما يؤمر بالبلاغ فقط ! ولا شأن له بالنتائج ! ولا ضمانة له أن يرى النتائج في عمره البشري المحدود على الأرض !

فما بال الدعاة إذن ؟! أيحق لأحد أن يقول : إما أن أرى النتيجة المرتقبة في حياتي وإما فلا دعوة ولا جهاد ؟!

كلا ! إن عمر الداعوت لا يقاس بعمر الأفراد . وما ينبغي لفرد أن يشترط على الله أن يريه نتائج جهاده في الحياة الدنيا ! فليس أحد من الخلق أكرم على الله من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذي يقال له : « وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ ... » ! إنما ينبغي على الدعاة أن يعملوا لا يرجون شيئاً إلا أجر الآخرة .. فأما إن جاء النصر من عند الله وهم أحياء ، فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .. ولكنه ليس شرطاً مسبقاً للجهاد في سبيل الله !

ولكن النتيجة مؤكدة في جميع الحالات ، سواء شهدها الرسول صلى الله عليه وسلم في عمره المحدود أم لم يشهدها :

« أو لم يروا أنّا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ؟ » .

أو لم يروا أنا نديل الدول ونزيل سلطان ذوي السلطان ؟

« والله يحكم لا معقب لحكمه » .

فإذا حكم على قوم بالدمار لتكذيبهم بالحق فلا معقب لحكمه : « وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال » .

« وهو سريع الحساب » .

---

(١) راجع سورة غافر [٧٨] وسورة الحجر [٩٧ – ٩٩] .

وذكر الحساب السريع يأتي أحياناً إشارة إلى الجزاء السريع في الحياة الدنيا ، كما يأتي أحياناً أخرى إشارة إلى جزاء الآخرة . وكلاهما سريع بالقياس إلى الله سبحانه وتعالى ، وإن اختلف القياس بالنسبة للبشر في الجولة السريعة . أما في الجولة الآخرة فالبشر أنفسهم يحسون أنه سريع ! « قال : كم لبثتم في الأرض عدد سنين ؟ قالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم ! فاسأل العادّين ! »[1] « ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة ! »[2] .

فالحساب السريع إذن يستوي فيه في النهاية أن يكون هنا في الدنيا أو هناك في الآخرة !

« وقد مكر الذين من قبلهم » .

إن هذا يرد في « التلخيص » لتلخيص ما يقوله الكفار من تكذيب بالرسالة وتكذيب بالبعث وإلحاح في طلب الآية وتعليق الإيمان عليها . والسياق يختصره في كلمة واحدة « مكر » لأننا بصدد تلخيص القضية ! ثم يقول إن الذين من قبلهم قد مكروا كمكرهم هذا .

« فلله المكر جميعاً » ..

إن كانوا يظنون أنهم بمكرهم يعجزون الله سبحانه وتعالى ، فالتدبير كله لله . التدبير المحكم الذي لا يقف أمامه ذلك المكر « الصغير » الذي يمكره الكفار ..

والمكر في اللغة هو التدبير .. ولكنها تطلق ـ في حسّنا ـ عادة على المكر السيئ . ومن باب « المشاكلة اللفظية » يأتي وصف تدبير الله بأنه مكر : « ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين »[3] وإن كان لا يخالف المعنى اللغوي الأصيل .

« يعلم ما تكسب كل نفس » .

ويحصي على كل نفس ما تكسب ، فيجازيها به . فليس العلم لمجرد التسجيل ، إنما للجزاء أيضاً .

« وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار » .

وهذا التهديد يجيء في نهاية السورة كأنه إعلان الحكم الأخير على الكفار جزاء مكرهم .

ثم ينتهي السياق بذكر القضية الرئيسية التي جاءت السورة كلها للرد عليها :

« ويقول الذين كفروا لست مرسلا .. » .

ولكن السياق لا يوردها هنا لمناقشتها ، فقد مضى أوان المناقشة . بل لإصدار الحكم فقط :

---

(١) سورة المؤمنون [١١٢ – ١١٣] .

(٢) سورة الروم [٥٥] .

(٣) سورة الأنفال [٣٠] .

« قل : كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب » !

وكأنما انتهى عرض القضية ، وأصدر الحكم ، فطويت الأوراق ، وختمت الجلسة ، ومضى كل فريق في طريقه : الرسول صلى الله عليه وسلم ليدعو .. والكفار لتنفيذ الحكم الذي أصدر عليهم ..

« والمتفرجون » الذين يتتبعون القضية من أولها إلى حين إصدار الحكم فيها ، قد وعوها كلها ، وانفعلت أفئدتهم بها ، ثم أحسوا بالراحة النفسية لصدور الحكم ، فانصرفوا كذلك إلى حال سبيلهم ، ولكن نفوسهم حافلة بالمشاعر المطمئنة إلى الله ، المتطلعة إلى رضاه !

سورة لقمان

بسم الله الرحمن الرحيم

« الٓمٓ . تلك آيات الكتاب الحكيم ، هدىً ورحمة للمحسنين ، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدىً من ربهم وأولئك هم المفلحون . ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً ، أولئك لهم عذاب مهين . وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كأن لم يسمعها ، كأن في أذنيه وقرا ! فبشره بعذابٍ أليم . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم ، خالدين فيها وعد الله حقاً ، وهو العزيز الحكيم . خلق السماوات بغير عمد ترونها ، وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم ، وبث فيها من كل دابة ، وأنزلنا من السماء ماءً فأنبتنا فيها من كل زوج كريم . هذا خلق الله ! فأروني ماذا خلق الذين من دونه ! بل الظالمون في ضلال مبين » .

هذه السورة ككل السور المكية تعالج قضايا العقيدة .. تتحدث عن الألوهية ، وتناقش المشركين في موقفهم من الألوهية لتبين انحراف تصوراتهم وانحراف سلوكهم ، وتدعوهم إلى الإيمان بالله الواحد الذي لا شريك له .

ولكن لكل سورة من سور القرآن كما أسلفنا جوها الخاص ، وإن **تشابهت** مع غيرها في الموضوع ، بل حتى في بعض المفردات[1] . وسنجد هنا بعض المتشابهات مع سورة الرعد ، في السماوات المرفوعة بغير عمد[2] ، والرواسي والأنهار والأحياء الموجودة في الأرض ، ولكن الجو العام أولاً يختلف في كل منهما عن الأخرى اختلافاً كاملاً ، ثم إن المفردات ذاتها تختلف في طريقة العرض . يضاف إلى ذلك أن « التخصصات » في كل سورة مختلفة عن الأخرى ولو كان العنوان العريض الشامل لها جميعاً هو « قضايا الألوهية » !

* * *

« الٓمٓ . تلك آيات الكتاب الحكيم » .

ونكتفي هنا بما قلناه في سورة الرعد عن الأحرف الموجودة في مفتتح السورة ، يتلوها

(١) انظر الفصل التالي « ظاهرة التكرار في القرآن » .

(٢) سورة الرعد وسورة لقمان هما اللتان يرد فيهما ذكر السماوات المرفوعة بغير عمد في القرآن كله .

ذكر « آيات الكتاب » .. ونذكر بهذه المناسبة أن كل المواضع التي جاءت فيها هذه الأحرف في مفتتح السورة ، جاء بعدها ذكر الكتاب وآياته أو كلمة « ذكر » وحدها كما في سورة مريم . وأنه لا يوجد سوى موضعين اثنين لم يذكر فيهما الكتاب مباشرة هما سورة العنكبوت وسورة الروم :

« الّـمّ . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا ، وهم لا يفتنون ؟ » [العنكبوت] .

« الّـمّ . غلبت الروم في أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون » [الروم] .

وهاتان يمكن أن تحملا على المواضع الأخرى التي يرد فيها ذكر آيات الله بعد هذه الأحرف ، لأنها قاعدة مطردة في القرآن .

هذا الكتاب من نوع هذه الأحرف التي تنطقون بها ، ولكنه نسق فريد متميز ، معجز لأنه من عند رب العالمين :

« هدىً ورحمة للمحسنين » .

هدىً لأنه يهديهم إلى الحق ـ سبحانه ـ وإلى طريق الحق . ورحمة لأنه ـ إذ يهديهم الطريق ـ ينقذهم من الهلاك في نار جهنم .. وأي رحمة أكبر من الوقاية من ذلك العذاب ؟ وذلك فوق أنه رحمة في الحياة الدنيا لأنه يعرض للناس المنهج الصحيح الذي تصلح به حياتهم على الأرض وتستقيم . ولكنه ـ وهو رحمة في الحقيقة للناس كافة ـ لا يظل بظله الرحيم إلا المحسنين :

« الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون » .

وهذه بذاتها هي صفات « المؤمنين » ولكنه هنا يسميهم « المحسنين » إشارة إلى أن « الإحسان » في القول والعمل هو حقيقة الإيمان[1] . ولا بد للإيمان ـ الذي يوصف هنا بالإحسان ـ من واقع عملي ، وسلوك واقعي ، فهو ليس كلمة تقال باللسان ، ولكنه حقيقة في الوجدان وحقيقة موازية في العيان . فهؤلاء المحسنون هم الذين يقيمون الصلاة فَيَصِلُون قلوبهم بالله ، ويؤتون الزكاة ، فيؤتون حق الفقير الذي أمرهم به الله ، ويوقنون بالآخرة يقيناً فينبني على هذا اليقين أنهم « يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب » كما وصفتهم سورة الرعد[2] .

« أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

أفلحوا في الدنيا باتباع المنهج الحق ، الذي يطهر القلوب ويطهر السلوك ، ويرفع

(١) جاء الإسلام والإيمان والإحسان في حديث « هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم » على أنها درجات متوالية أعلاها الإحسان .. وهذه الألفاظ الثلاثة تجيء في القرآن أحياناً بمعنى واحد وتجيء أحياناً على أنها درجات متفاضلة .

(٢) سورة الرعد [٢١] .

الإنسان فوق الدنس الذي تعيش فيه الجاهلية كالمستنقع الآسن ، ومع ذلك لا يحسون بالنتن الذي يعيشون فيه ..

وأفلحوا في الآخرة الفلاح الأكبر ، حين تتهاوى أجسام الكافرين في جهنم تلتهمها النار ، وينجون هم بأجسامهم وأرواحهم من العذاب ، تتلقاهم الملائكة بالترحيب ، ويرفلون في جنات النعيم .

وفي مقابل هذه الصورة الوضيئة توجد صورة أخرى ضالة مظلمة كريهة :

« ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً » .

ونقف وقفة عند « يشتري » ..

إنه ليس من الضروري أن يكون الشراء بالمال .. فليس المال هو الشيء الوحيد في الحياة ..

إنه شراء تدفع فيه المشاعر والأفكار والاهتمامات والنوايا بدلاً من المال ! فهذه كلها أشياء « تنفق » ليشترى بها الحق أو يشترى بها الباطل .. فضلاً على كون الإنسان يعمل في الدنيا « فيشتري » بعمله نصيبه في الآخرة .. في الجنة أو الجحيم !

فهذا الذي « يشتري » لهو الحديث ، يشتريه بانصراف مشاعره واهتماماته إليه ، وبنيته الخبيثة أن يفتن الناس عن الوحي المنزل من عند الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويقول لهم إنه هو الآخر قد أوحي إليه ، ويقص عليهم ما « اشتراه » من لهو الحديث ![1]

« ليضل عن سبيل الله **بغير علم** ويتخذها هزواً » .

وكل من كفر ـ لأي سبب من الأسباب ـ فهو « بغير علم » ! ولو كان عالما ! « واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان ، فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه . فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ! ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون »[2] « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله **على علم** وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ... ؟! »[3] .

ليست المسألة هي « المعلومات » التي يعلمها .. ولو كانت متعلقة بالله سبحانه وتعالى .. ولو كانت « نظريا » صحيحة ! إنما هي سلوكه العملي بهذه المعلومات ! فهذا الذي « آتيناه آياتنا » قد عرف حقيقة الألوهية وعمل بمقتضى علمه هذا فترة من عمره ثم

---

(١) نزلت هذه الآيات في النضر بن الحارث .

(٢) سورة الأعراف [١٧٥ – ١٧٦] .

(٣) سورة الجاثية [٢٣] .

انسلخ منها .. تجرد منها وعمل بغير مقتضاها .. فكيف صار « علمه » السابق ؟! فأما « المعلومات » فقد بقيت كما هي في ذهنه لم تتغير .. وأما المشاعر والسلوك فقد مضت في طريق آخر .. ومن ثم أصبح « بغير علم » . وهذا الآخر الذي اتخذ إلهه هواه .. إنه لم يكن يجهل حقيقة الألوهية فقد كان « على علم » بها .. ولكنه على علمه هذا أبى أن يسير في الطريق الذي رسمه الله ، واتخذ إلهه هواه .. أي أنه صار **يتبع** هوى نفسه **ويطيعه** بدلاً من الله .. ومن ثم أصبح كذلك « بغير علم » !

فيستوي إذن ـ حين لا يتبع الإنسان ما أنزل الله ـ أن تكون « معلوماته » عن الله صحيحة أو غير صحيحة . إنه في الحالين من « الذين لا يعلمون » . ثم قد يكون بعد ذلك ضالاً في نفسه فحسب ، أو يكون ضالاً مضلاً كهذا الذي تتحدث عنه الآية :

« ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً » . .

« أولئك لهم عذاب مهين » .

وترسم الآية التالية صورة لهذا الإنسان في ضلاله وإضلاله ، تشخِّصه بجميع حركاته ، وتصور حركات نفسه وحركات جسده سواء :

« وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كأن لم يسمعها . كأن في أذنيه وقرا .. ! » .

وإنك لتقرأ الآية فتتمثل صورة هذا الشخص يسمع آيات القرآن تتلى فيقوم شامخاً بأنفه مستكبراً ، يملأ الحقد قلبه من الداخل ولكنه يتظاهر بالعظمة التي لا تطيق أن تستمع لمثل هذا القول .. ثم يتولى بكبريائه الزائفة هذه متظاهراً بأنه لم يسمع ـ وقد خرق الكلام أذنيه ـ « كأن في أذنيه وقرا » ولا وقر في الحقيقة ولكنه التعاظم الكاذب والكبر على الله .

« فبشره بعذاب أليم » .

والتبشير أصلاً هو ما اقترب حتى لامس البشرة ، فيستوي ـ في الأصل اللغوي ـ أن يكون حسناً أو سيئاً . ولكن العرف اللغوي جرى باستخدام البشرى والتبشير للشيء الطيب . فالسياق يستخدمها هنا للسخرية بهذا المستكبر المنتفخ الأوداج حتى يذوق العذاب المذل الذي يذهب عنه كبرياءه الزائفة ويحطمها .. وإن كان التعبير ـ مع ذلك ـ لا يفارق الأصل اللغوي !

وفي مقابل صورة الكفر التي تنتهي إلى العذاب الأليم تجيء صورة الإيمان التي تؤدي إلى النعيم المقيم :

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم ، خالدين فيها وعد الله حقاً وهو العزيز الحكيم » .

إنه وعد حق ممن يملك التنفيذ .. « العزيز الحكيم » .. الذي خلق كل شيء ولم يشاركه أحد في الخلق :

« خلق السماوات بغير عمد ترونها ، وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماءً فأنبتنا فيها من كل زوج كريم . هذا خلق الله . فأروني ماذا خلق الذين من دونه ! بل الظالمون في ضلال مبين ! » .

والسماوات القائمة بغير عمد [أو بغير عمد مرئية] والجبال القائمة في الأرض ، والحياة المبثوثة في أرجائها ، والماء النازل من السماء يخرج به الزرع .. كل هذه مرئيات مشاهدة يراها الناس كل يوم فتتبلد حواسهم عليها ، ولا يعودون يرون معناها ودلالتها ، ولا ينفعل وجدانهم بوجودها . وإنها كلها لعجائب لو لم نكن نراها كل يوم لشدهت حسّنا وأيقظتنا ! بل لو كانت في كوكب آخر نراه لأول مرة لهزت وجداننا هزاً ولو كانت مثل ما تبلدت حواسنا عليه في كوكبنا الأرضي !

أرأيت إلى رحلات الفضاء كم هزت وجدان الناس ؟! أرأيت حين هبط الرواد على القمر ورأوا أرضاً كأرضنا ! ! كم هز وجدانهم ـ ووجدان الناس ـ أول خطوة خطوها على أرض القمر ؟! ! وإنهم ليخطون مئات الخطوات وألوفها كل يوم على أرضهم فلا تهز من وجدانهم ولا وجدان الناس شيئاً على الإطلاق !

ولو أن واحداً من سكان الكواكب ـ إن كان هناك من يسكنها ـ هبط مرة على الأرض .. كم تروعه وتذهله ؟ كم تَشْدَهُ حسّه ؟ كم يرى فيها من غرائب وعَجائب يذهل لها فكره ويتحرك لها وجدانه ؟ ولكننا نحن نمر عليها كأننا لا نراها .. لا لأنها لا تستحق العجب ، ولا تثير الوجدان ، وإنما لأننا تعودنا رؤيتها فتبلد حسّنا عليها !

والقرآن يأتي إلى هذه الأشياء المألوفة ، التي تبلد حسّنا من ناحيتها لشدة إلفنا لها ، فيزيل عنها إلفها .. أو يزيل عنا بلادتنا نحوها .. ويردها جديدة كأنما نراها اللحظة .. كأننا هبطنا هذا الكوكب لأول مرة .. ومن ثم تعطي للحسّ شحنتها الكاملة التي تعطيها له وهي جديدة لم تؤلف بعد .. وحين ينفعل الحس بها يقول له : إنها خلق الله !

« .. وهو العزيز الحكيم ، خلق السماوات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم » .

وهنا مشابه من سورة الرعد في إقامة السماوات بغير عمد مرئية وإقامة الجبال الرواسي في الأرض .. ولكن صورة التعبير مختلفة [1] . وهنا أضاف بالنسبة للرواسي « أن تميد بكم » . وهذا أمر لا بد أن المخاطبين الأوائل بهذا القرآن قد فهموه بصورة ما .. ولكن معلومات الإنسان المتزايدة عن الكون قد حددت المعنى الدقيق لهذه العبارة ، إذ أثبتت

(١) انظر الفصل التالي .

أن هذه الجبال الشامخة هي التي تحفظ التوازن في الكرة الأرضية ، وأنه لولا هذا التوازن لمادت الأرض من الزلازل أو البراكين ..

« وبث فيها من كل دابة .. » .

والتعبير يوحي كأنما يد خفية هي التي تمسك بهذه الدواب فتبثها هنا وهناك في كل مكان على الأرض .. وإنه لكذلك بالفعل ! فمن ذا الذي يبث هذه الدواب كلها في أماكنها إلا الله ؟! إنها تبدو للذين لا يعلمون كأنها تنبعث من ذات نفسها في أرجاء الأرض .. أو يقول أولئك الجاهلون إنها « الطبيعة » !

وما الطبيعة ؟! تلك التي يقول عنها دارون إنها تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها ؟ أشيء هي غير الله وقدرة الله ؟!

« وأنزلنا من السماء ماءً فأنبتنا فيها من كل زوج كريم » .

وما يمكن أن نمر بذلك التعبير العجيب الموحي : « من كل زوج **كريم** » دون أن يستوقفنا .. وقد يخطر في قلب البشر أن يوصف النبات بأي وصف .. من كل زوج بهيج كما جاء في سورة الحج وسورة ق : « .. وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج »[1]. « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج »[2] أو « .. حباً ونباتاً ، وجنات ألفافا »[3] أو : « .. حباً ، وعنباً وقضبا ، وزيتوناً ونخلاً ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا »[4] .. الخ . أما ذلك الوصف « من كل زوج كريم » فما أظنه خطر على قلب بشر قبل أن ينزل هذا القرآن ! وما زال القرآن يتلى كل يوم ، وما زال هذا الوصف يوقظ الحس كل مرة كأنه جديد !

« كريم » لأنه من عمل أيدٍ كريمة : « وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون ، وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ، ليأكلوا من ثمره **وما عملته أيديهم** . أفلا يشكرون ؟ »[5] « أو لم يروا أنا خلقنا لهم **مما عملت أيدينا** أنعاماً فهم لها مالكون ؟ »[6]

وكريم لأنه طيب طاهر ..

---

(١) سورة الحج [٥] .

(٢) سورة قٓ [٧] .

(٣) سورة النبأ [١٥ – ١٦] .

(٤) سورة عبس [٢٧ – ٣١] .

(٥) سورة يٓس [٣٣ – ٣٥] .

(٦) سورة يٓس [٧١] .

وكريم لأنه يعطي .. يعطي أضعاف ما يأخذ ! الحبة تنبت سبعمائة حبة ! !
« هذا خلق الله » .
« هذا » .. على الاتساع .. من أول السماوات إلى الأرض .. إلى الجبال .. إلى « كل دابة » .. إلى « كل زوج كريم » .. « هذا خلق الله » ! وما يشك أحد من قبل أن هذا خلق الله .. وما كان العرب المشركون ينكرون ذلك .. ولكن التعبير مع ذلك يفاجئ الحس كأنه جديد ! ويزيل عن الوجدان تبلده المعهود .. ويهزه ـ بهذه المفاجأة ـ ليتأمل هذا الكون من جديد ! وإذ يبلغ الانفعال هذا المدى ، يفاجأ الحس بحقيقة أخرى :
« فأروني ماذا خلق الذين من دونه ! » .
حقاً ! ماذا خلق الذين من دونه ؟! وما كان العرب يزعمون أن هناك خالقاً من دون الله ـ وإن كانوا يغفلون عن دلالة ذلك ـ ومع ذلك فإن التعبير له هزة لا ينجو الحس منها ! ويروح الإنسان يتفقد الكون كأنما يبحث حقاً عن شيء في هذا الكون خالقه « الذين من دونه » ! والنتيجة معروفة سلفاً .. ولكن التعبير يعمق إحساس الإنسان بالحقيقة الأولى : « هذا خلق الله » ويبرزها بكل جلائها **لتعمل** عملها في داخل النفس . ولا تكون مجرد « معلومات » في الذهن ، بل وجدانات متحركة في القلب ، تشعر بعظمة الخالق ، وتفرده سبحانه بالخلق .. وبما ينبغي لعظمته وجلاله من خشوع وطاعة وتسليم .
« بل الظالمون في ضلال مبين » .
فما يغفل عن هذه الحقائق كلها .. وما يُصِمّ قلبه عن إيقاعاتها .. إلا شخص مطموس البصيرة .. وإلا شخص « في ضلال مبين » .

* * *

« ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ، ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه . ومن كفر فإن الله غني حميد . وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم. ووصينا الإنسان بوالديه ، حملته أمه وهناً على وهن ، وفصاله في عامين : أن اشكر لي ولوالديك . إليّ المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً ، واتبع سبيل من أناب إليّ ثم إليّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون . يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل ، فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله . إن الله لطيف خبير . يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور . ولا تصعّر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا ، إن الله لا يحب كل مختال فخور . واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » .
إن قصة لقمان الحكيم ، الذي سميت السورة باسمه ، تستغرق جزءاً رئيسياً من السورة ..

ولكنها تجيء في مكانها من السورة مرتبطة تماماً بما قبلها ، كأنها امتداد له ..

إن السياق من قبل يعرض صوراً من الكون يهز بها القلب البشري ، ليرى عظمة الخالق ، فيخبت له ويخشع .. ولكن « الظالمين » لا تتفتح بصيرتهم لآيات الله في الكون ، ولا لنعم الله السابغة ، في خلق السماوات والأرض والرواسي التي تحفظ توازن الأرض فلا تميد ، والدواب المبثوثة ، والماء النازل من السماء لينبت من كل زوج كريم .. لأنهم في ضلال مبين ..

فهذه قصة واحد من خلق الله لا كأولئك الظالمين .. تفتحت بصيرته لتلك الآيات وهذه النعم فاستجاب لله فشكر .. وراح يوصي ابنه كذلك أن يكون من العابدين الشاكرين ، ولا يكون من الظالمين ..

إنه نموذج مقابل .. يعرض ـ في مكانه من السياق ـ ليعطي شيئين في آن واحد : يعطي الصورة الصحيحة التي ينبغي أن يكون عليها عباد الله ، مخبتين لله عابدين شاكرين ..

ويظهر المفارقة الضخمة في سلوك أولئك الذين لا يقدرون الله حق قدره ، ولا يعبدونه حق عبادته ، وبصفة خاصة ذلك الذي يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً ، وإذا تتلى عليه آيات الله ولى مستكبراً كأن لم يسمعها !

إنهما صورتان متقابلتان تماماً ..

هذا « يشتري » الهدى الرباني .. وهو الحديث الجادّ الحكيم الموصل إلى كل خير .. وذاك يشتري لهو الحديث ..

وهذا يشتري الهدى ليهدي ابنه ، وغيره ، وذاك يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله ..

وهذا يتخذها موعظة وحكمة .. وذاك يتخذها هزواً ..

وهذا تتلى عليه الآيات فيقبل عليها بكل قلبه مخبتاً خاشعاً مطيعاً .. وذاك تتلى عليه الآيات فيولي مستكبراً كأن لم يسمعها !

هل بقي شيء في الصورتين لم يوضع موضع التقابل الكامل التفصيلي ؟!

« ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله » .

إن هذه هي خلاصة الحكمة : أن اشكر لله ..

والقرآن كثيراً ما يعبر عن العبادة بالشكر .. وإنها لكذلك .. فلن يشكر قلبٌ لله حق شكره حتى يكون قد عبده حق عبادته .. ولن يعبده حق عبادته حتى يكون قد شكره على كل نعمة أنعمها عليه ..

وهنا يخطر على البال ما قاله الشيطان متوعداً بني آدم : « قال : فبما أغويتني لأقعدن

لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، **ولا تجد أكثرهم شاكرين !** »[1] .

فالشكر والإيمان صنوان . والكفر وعدم الشكر صنوان ..

وليس الشكر كلمة تقال باللسان : شكراً لك يا رب ! كما أن الإيمان ليس كلمة تقال باللسان : أشهد ألا إله إلا الله !

كلا ! إن الشكر سلوك عملي ، كما أن الإيمان سلوك عملي : « **اعملوا آل داود شكرا** ، وقليل من عبادي الشكور ! »[2]

إن الله قد منح الإنسان جسداً . وشكر هذه النعمة أن يعمل بجسده في طاعة الله لا في معصيته .

والله قد منح الإنسان عقلاً مفكراً . وشكر هذه النعمة أن يعمل بفكره في طاعة الله لا في معصيته .

والله قد منح الإنسان بصراً . وشكر هذه النعمة أن يستخدم بصره في طاعة الله لا في معصيته .

والله قد منح الإنسان سمعاً . وشكر هذه النعمة أن يستخدم سمعه في طاعة الله لا في معصيته .

والله قد منح الإنسان مالاً . وشكر هذه النعمة أن يستخدم ماله في طاعة الله لا في معصيته .

وهكذا .. وهكذا .. مئات وألوف من النعم « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها »[3] .. ومئات وألوف من الطاعات هي الشكر على هذه النعم .. وفي النهاية يصبح الشكر هو العبادة الحقة ، وهو اتباع ما أنزل الله !

ومن هنا نفهم خطورة التهديد الشيطاني لبني آدم : « ولا تجد أكثرهم شاكرين » أي لا تجد أكثرهم عابدين .. أي لا تجد أكثرهم متبعين لما أنزل الله .. وتفهم كذلك الجهد الشيطاني الضخم المبذول لهذه الغاية : « لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم **لآتينهم من بين أيديهم** ، **ومن خلفهم** ، **وعن أيمانهم** ، **وعن شمائلهم** ، ولا تجد أكثرهم شاكرين » .

« ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن الله غني حميد » .

---

(١) سورة الأعراف [١٦ - ١٧] .

(٢) سورة سبأ [١٣] .

(٣) سورة النحل [١٨] .

إن الله غني عن عبادة العباد وعن شكرهم ! ومن تولى عن عبادة الله وعن شكره فلن يضر الله شيئاً . ومن أقبل عليه شاكراً عابداً فلن يفيد الله سبحانه بشيء ! « ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين »[1] .

إنما يشكر الإنسان لنفسه ، ويعبد لنفسه .. لأنه هو الكاسب في النهاية حياة مستقيمة نظيفة طيبة في الدنيا ، وحياة منعمة في الخلد يوم القيامة : « ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه . إن الله لغني عن العالمين . والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ، ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون »[2] « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون »[3] .

وقد وعى لقمان الحكيم هذه الحكمة وعيا عميقاً ، فاستقامت نفسه على شكر الله وعبادته ، وقام يعظ ابنه بما وعظه به ربه ووعاه قلبه :

« وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله ، إن الشرك لظلم عظيم » .

إن الظلم والكفر في اللغة من معني واحد هو التغطية والستر . ثم غلب استخدام الكفر بمعنى ستر الحق الرباني والتغطية عليه .. أي الكفر بعبادة الله . والظلم بمعنى الافتئات على الحق بصفة عامة . والقرآن يستخدمه في كثير من المواضع بمعنى الكفر سواء .

والشرك هو أعظم الظلم سواء بمعنى التغطية على الحق الرباني وحجبه ، أو بمعناه الاصطلاحي وهو الافتئات على الحق ، فالمشرك يظلم نفسه أول ما يظلم ، إذ يوردها مورد الهلاك في النار .

ثم يستمر السياق ، كأنما يكمل الآية الأولى التي أوتي فيها لقمان حكمة الشكر لله :

« ووصينا الإنسان بوالديه ، حملته أمه وهنا على وهن ، وفصاله في عامين ، أن اشكر لي ولوالديك إليّ المصير » .

إنه استمرار للموعظة التي لُقِّنها لقمان .. ولكنها هنا توجه للإنسان كافة : أن يبر والديه . ولكن يستوقفنا في الوصية أمران :

الأمر الأول هو الجملة المعترضة : « حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين » .. لقد كانت الوصية للوالدين معاً ، ولكن الأم وحدها هي التي سميت من بين الوالدين ! ولذلك دلالته الواضحة بطبيعة الحال . فلئن كانت الوصية لكلا الوالدين ، أن يبرهما الإنسان ، فإن الأمر ببر الأم أشد ، لأنها هي التي خصها السياق بالتسمية ، وبالحديث

---

(١) سورة الذاريات [٥٧ – ٥٨] .
(٢) سورة العنكبوت [٦ – ٧] .
(٣) سورة النحل [٩٧] .

المفصل ، وبذكر موجبات البر ، فقد حملته وهنا على وهن ـ والتعبير يشير إلى الوهن المتزايد كلما تقدم الحمل ـ ثم أرضعته عامين كاملين ، وفي ذلك من الجهد المضني ما فيه ، مما يستوجب زيادة البر . ولقد ذهب رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله : من أولى الناس بحسن صحابتي ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ : قال : أمك . قال : ثم من : قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أبوك [1] . والحديث يفسر الآية أدق تفسير .

أما الأمر الثاني ـ بصرف النظر عن هذه الجملة المعترضة ـ فهو أن السياق يبدأ بقوله تعالى : « ووصينا الإنسان بوالديه » ولكنه عندما ينص على الوصية يقول : « أن اشكر لي ولوالديك » ! أي أن السياق يمضي هكذا بغير الجملة المعترضة : ووصينا الإنسان بوالديه ، أن اشكر لي ولوالديك . إليّ المصير ..! وكأنما الوصية بالوالدين هي شكر الله أولاً ثم شكر الوالدين !

إن هذا من لطائف التعبير القرآني ذات الدلالة !

في سورة الإسراء قال مباشرة : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا... » [2]

وهنا يقول نفس المعنى ولكن بهذه الطريقة الموحية ، التي تجعل الوصية بالوالدين تمر بشكر الله أولاً قبل شكر الوالدين . وفي ذلك دلالة واضحة بطبيعة الحال على أن شكر الله ينبغي أن يسبق كل عمل على الإطلاق ؛ ولكن هناك دلالة أخرى ينبغي أن تكون واضحة لنا ، هي أن كل « أخلاقيات » الإسلام ، هي ميثاق بين الإنسان وبين الله مباشرة . فهي تصل للآخرين من خلال صلة الإنسان بالله . فأخلاقيات الإنسان نحو والديه ـ وهي البر بهما ـ تصل إلى الوالدين من خلال شكر الإنسان لربه ـ أي عبادته . وكذلك أخلاقيات أي أمر من الأمور . فالصدق مع الناس هو لله أولاً ثم للناس . والوفاء بالعهد هو لله أولاً ثم للناس .. وهكذا وهكذا كل عمل يتصل فيه الإنسان بالآخرين ، فهو صلة بالله أولاً ثم بالآخرين ..

« إليّ المصير » .

وما دام المصير لله لا لأحد آخر ، فإليه تقدم العبادة وإليه يقدم الشكر . وعن طريق الصلة به يمر الشكر للوالدين !

وفي آية واحدة دقيقة التركيب ، يذكر شكر الله مقدماً على شكر الوالدين ، وشكر الأم مقدماً على شكر الأب ، بطريقة « فنية » موحية ، لا باللفظ المباشر .. وذلك من الإعجاز ..

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأدب .

(٢) سورة الإسراء [٢٣] .

« وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما » .

وهذا أمر جازم لا سبيل إلى مخالفته .. ومهما يكن من أمر البر بالوالدين ، الذي يتكرر كثيراً في القرآن ، فإن البر بهما يأتي دائماً تالياً لعبادة الله .. فعبادة الله وعدم الإشراك به مقدمة على كل شيء على الإطلاق . ولا يطاع في مخالفتها أي أحد على الإطلاق . ولكن السياق هنا في مكة يأمر باستمرار مصاحبتهما بالمعروف رغم ذلك .

« .. فلا تطعهما ، وصاحبهما في الدنيا معروفا » .

ويلفت نظرنا أن الأمر المشابه لذلك ، الوارد في الآيات الأولى من سورة العنكبوت ، وهي آيات مدنية في سورة مكية ، لم تأمر ـ في المدينة ـ بهذه المصاحبة ! « ووصينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما . إليّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون »[1] فالأمر بالمصاحبة بالمعروف كان في المجتمع المكي ، الذي لم ينفصل فيه المسلمون انفصالاً حسياً ، إنما كانت مفاصلة شعورية فحسب . أما في المدينة فقد انفصل المجتمع المسلم انفصالاً كاملاً وصار له تميزه الحسي والمعنوي ..

« .. واتبع سبيل من أناب إليّ ، ثم إليّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » .

لا تطعهما حين يأمرانك بالشرك ، واتبع سبيل من أناب إليّ .. فهذا السبيل هو الذي ينبغي اتباعه ، مهما جاء الأمر بمخالفته من أقرب الأقربين .. وفي النهاية تكون إلى الله الرجعى ، فينبئ الإنسان بما كان يعمل ، ويحاسبه بمقتضى عمله في الحياة الدنيا .. وتلك الرجعى هي التي تقرر مصير الإنسان ، فهي الأولى بالاتباع ..

ثم تحدث مفاجأة في السياق قد نمر عليها كثيراً دون أن نلحظها للطفها ودقتها !

« يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل ، فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله . إن الله لطيف خبير » .

إن المتكلم هنا هو لقمان .. عاد ليكمل موعظته لابنه بعد أن أوصاه بعدم الشرك لأن الشرك ظلم عظيم .. ولكن الكلام يأتي متصلاً بعد قوله تعالى : « ثم إليّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » بطريقة قد لا نلحظ معها تغير المتكلم في الآيتين ! فالمتكلم في الآية الأولى هو الله سبحانه وتعالى ، والمتكلم في الثانية هو لقمان .. ولكن الكلام يجري جرياناً واحداً كأنه سياق واحد لمتكلم واحد !

مثل هذا تجده في سورة طه : « قال : فمن ربكما يا موسى ؟ قال : ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . قال : فما بال القرون الأولى ؟ قال : علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى . الذي جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلا ،

(١) سورة العنكبوت [٨] .

وأنزل من السماء ماء **فأخرجنا** به أزواجاً من نبات شتى »[1] .

فأين انتهى كلام موسى لفرعون ، وأين بدأ الكلام الموجه من الله سبحانه وتعالى للبشر جميعاً ؟ إنك لا تحس بتغير المتكلم حتى تصل إلى لفظة « فأخرجنا » التي يتضح فيها أن المتكلم هو الله سبحانه وتعالى .

كذلك هنا .. لولا كلمة « يا بني » ما شعرت أن المتكلم في السياق قد تغيّر ! لأن لقمان يبدأ من حيث انتهى السياق السابق تماماً ، فيتحدث عن إنباء الله للبشر بما كانوا يعملون ، ولو كان مثقال حبة من خردل !

ما دلالة هذا ؟!

لقد سار السياق هكذا : ولقد آتينا لقمان الحكمة ... وإذ قال لقمان لابنه ... ووصينا الإنسان بوالديه ... يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل ....

أي أن هناك انتقالاً مستمراً ـ حتى الآن ـ من سياق يكون المتكلم فيه هو الله سبحانه وتعالى ، إلى سياق يكون المتكلم فيه هو لقمان .. فما دلالة ذلك ؟

أما أنها من الوجهة الفنية جميلة ، فلا شك في ذلك ! ولا شك في أن المشهد هكذا أحفل بالحركة والإيحاء .

أما الدلالة فالذي يحضرني الآن منها ـ والله أعلم بما يريد ـ أن ما ينطق به البشر من حكمة ، سواء كانوا أنبياء كما في قصة موسى ، أو مجرد حكماء كما في قصة لقمان ، هو من إيحاء الله .. فيستوي أن ينزله الله مباشرة أو يُنْطِقَ به بعض خلقه .. ومن ثم يجيء الكلام متداخلاً ، لأن هذا وذاك من عند الله ، ومن مراد الله الذي يريد ـ سبحانه ـ أن يبلغه لعباده ..

ونعود إلى الصورة ذاتها التي ترسمها الآية .. إنها من أروع الصور في القرآن ..

« يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل ، فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله .. » .

إن علم الله الشامل الدقيق الذي لا يند عنه شيء في السماوات ولا في الأرض ، يأتي مصوراً في صور رائعة في القرآن تهز الحس البشري هزاً وتوقظه من سباته . وهذه من أروع الصور جميعاً .. تصور مثقال حبة من خردل ! أي ثقل لها وأي حجم ؟! وهي ليست مكشوفة حتى تراها العين المدققة ـ ولو بمنظار مكبر ! ـ إنها في صخرة ! وكم من ملايين الملايين من الصخور في الأرض ؟! ففي واحدة من هذه الصخور التي لا تحصى توجد حبة الخردل ! أو في السماوات ! هكذا على إطلاقها ! في سماء من السماوات ..

---

(١) سورة طه [٤٩ – ٥٣] .

وما أوسع السماوات ! إن السماء الدنيا وحدها ، المزينة بالمصابيح ، يلهث العلم حتى اليوم وراء أبعادها فيعد من نجومها الملايين .. ثم يقول هذا نجم تفصل بيننا وبينه أربعة آلاف سنة ضوئية ! أي أن الضوء ـ البالغ السرعة[1] ـ يقطع المسافة بيننا وبينه في أربعة آلاف سنة .. ثم يقول العلم إن هذا آخر ما وصل إليه الإنسان ولكنْ في الكون مزيد ! وحبة الخردل في واحدة من السماوات ! أو في الأرض ! مختفية في الأرض غير ظاهرة للنظر إطلاقاً .. وانظر إلى حجم الأرض وحجم حبة الخردل .. وانظر كم من ملايين الملايين من مثل حبة الخردل يمكن أن يختفي في الأرض فلا يبين .. ولكن الله يأتي بها يوم القيامة ..

« إن الله لطيف خبير » لطيف أي يحيط علمه بأدق الأشياء وأخفاها ..

وهل بقي لديك شك في هذه الحقيقة بعد الإتيان بحبة الخردل من الصخرة أو من السماوات أو من الأرض ؟!

كلا ! ما يطيق الوجدان بعد هذه الروعة الهائلة أن يشك ، إلا أن يكون مطموس البصيرة مغلق الروح ...

ويستمر السياق ـ من هنا ـ على لسان لقمان يعظ ابنه :

« يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ، واصبر على ما أصابك ، إن ذلك من عزم الأمور . ولا تصعّر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا . إن الله لا يحب كل مختال فخور . واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » .

إنها « أخلاقيات لا إله إلا الله » يعظ بها لقمان المسلم ابنه .. إنه لا إسلام بغير أخلاقيات .. ولا إيمان بغير سلوك عملي في واقع الحياة .. سلوك ينظر إليه الناس فيقولون : هذا من أثر الإيمان !

يلفت نظرنا أن من وصايا لقمان لابنه « واصبر على ما أصابك ، إن ذلك من عزم الأمور » .. إن هذه أيضاً من أخلاقيات لا إله إلا الله ، بجانب الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وهو لا يحدد « ما أصابك » إن كان بسبب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، (وإن كان ذكره بعدهما يوحي بذلك) .. أو كان عامًّا ، من قضاء الله وقدره ، فهذا وذاك هما من قضاء الله وقدره ، والصبر على القضاء هو من أخلاقيات لا إله إلا الله . ولكن السياق يعطينا إيحاء واضحاً : إنه ليس الصبر الخانع الذي يستذل الإنسان ويهده فيقعد عن العمل والجهاد ! كلا ! إنه يقول : « إن ذلك من **عزم الأمور** » فهو الصبر الذي يعطي العزيمة ويقويها ، وليس هو الذي يوهن العزيمة ويضعفها .

* * *

(١) سرعة الضوء هي ٣٠٠٠٠٠ كيلومتر في الثانية !

وينتقل السياق مرة أخرى من وعظ لقمان لابنه إلى حديث مباشر من الله سبحانه وتعالى للبشر كافة ، أو للمكذبين من قريش خاصة :

« ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض ، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ؟ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير . وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا : بل نتبع ما وجدنا عليه اباءنا ! أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ؟! ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى ، وإلى الله عاقبة الأمور . ومن كفر فلا يحزنك كفره . إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا . إن الله عليم بذات الصدور . نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذابٍ غليظ . ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن : الله ! قل : الحمد لله . بل أكثرهم لا يعلمون ! » .

« ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ؟ » .

« ألم تروا ؟ » يعني أن الأمر واضح .. وإنه كذلك .. فما من أحد يعمى عن تسخير ما في السماوات والأرض للإنسان إلا أن تكون قد عميت بصيرته وانطمست .. وهذه النعم السابغة ظاهرة وباطنة .. يعجز الإنسان عن إحصائها « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها »[1] .

ويستوقفنا التعبير : « وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » كأنه ثوب يكسو الإنسان من أوله لآخره .. ولكنه ثوب عجيب يكسو الظاهر والباطن أيضاً في ذات الوقت ! ومع ذلك فالناس لا يشكرون الله ولا يعبدونه حق عبادته :

« ومن الناس من يجادل في الله **بغير علم** ولا هدى ولا كتاب منير » .

والعلم الحق بالله لا بد أن يؤدي إلى الإيمان . فهؤلاء الذين يجادلون في الله يجادلون بغير علم ولا هدى ، ولا يستندون إلى كتاب رباني يستخرجون منه الحقائق ..

« وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا .. » .

الإيمان إذن هو اتباع ما أنزل الله . وهو الذي يقتضيه العلم الحق بالله . فأما هؤلاء الذين يجادلون بغير علم فيرفضون اتباع ما أنزل الله ، ويقولون : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ! فمن المعبود إذن ؟! ألله أم آباؤهم ؟!

وهنا يفاجئنا السياق ، ونحن ننظر إليهم وإلى آبائهم على أنهم الوحيدون في الصورة ، فإذا الحقيقة أنهم ليسوا وحدهم !

« أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ؟! » .

---

(١) سورة النحل [١٨] .

يا للمفاجأة ! إن إصرارهم إذن على رفض اتباع ما أنزل الله ، وقولهم : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، هو في الحقيقة استجابة لنداء الشيطان ، الذي برز في الصورة فجأة ، ولم يكن ظاهراً من قبل ! وإلى أين يدعوهم ، وهم مستسلمون هكذا ومستجيبون ؟ إنه يدعوهم إلى عذاب السعير !

يا للعجب ! ويا للسخرية ! الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير فيستجيبون له بهذه السهولة ؟! والله يدعوهم إلى الجنة فيرفضون ؟!

« ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى . وإلى الله عاقبة الأمور . ومن كفر فلا يحزنك كفره ... » .

إن هناك من يؤمن . من يسلم وجهه إلى الله وهو محسن . ذلك هو الإيمان والإسلام . التسليم الكامل لله ، والإحسان .. الذي جاء ذكره في أول السورة بأوصافه : « هدى ورحمة للمحسنين ، الذي يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون » . وأولئك يستمسكون بالعروة الوثقى ، فلا يلتفتون لنداء الشيطان ، ولا يستطيع الشيطان أن يستزلهم منها .. لأنه لا يقدر على من استمسك بالعروة الوثقى ، ويعلم أن كيده بالنسبة إليه ضعيف ! أما من كفر – والخطاب موجه للرسول صلى الله عليه وسلم – فلا تحزن على كفره .. إن أمده قريب . إنه راجع إلى ربه فموفيه حسابه بعذاب « غليظ » ، فلا ينفعه ذلك المتاع القليل الذي أتيح له في الدنيا !

« ومن كفر فلا يحزنك كفره . إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا . إن الله عليم بذات الصدور . نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ » .

نضطرهم .. فهم لن يذهبوا إلى العذاب مختارين ! ومن ذا الذي يرى العذاب ثم يرغب أن يدخل فيه ؟! ولكنهم يدفعون إليه دفعاً يضطرهم إلى الذهاب ! ثم إنه عذاب « غليظ » ! والمفارقة واضحة بين النعيم الذي يتمتعون به في الأرض – إملاءً من الله – والعذاب « الغليظ » الذي ينتظرهم هناك !

« ولئن سألتهم : من خلق السماوات والأرض ليقولن الله ! » .

إذن فهم يعرفون أن الله هو الخالق ! ولكنها المعرفة الذهنية الباردة الميتة التي لا تنشئ شعوراً ولا سلوكاً .. ومن ثم فمعرفتهم والجهل سواء .. وهم « لا يعلمون » !

« قل الحمد لله . بل أكثرهم لا يعلمون ! » .

* * *

« لله ما في السماوات والأرض . إن الله هو الغني الحميد . ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله . إن الله عزيز حكيم . ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة . إن الله سميع بصير . ألم تر أن الله يولج

الليل في النهار ويولج النهار في الليل ؟ وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى ؟ وأن الله بما تعملون خبير ؟! ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلي الكبير . ألم تـر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته ؟ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور . وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد . وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور » .

إن الحديث في هذه الآيات كلها عامّ للناس جميعاً .. ولكنه في الحقيقة مناقشة للمكذبين المنكرين ، الذين يرفضون أن يتبعوا ما أنزل الله ويقولون ، بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا .. مناقشة لا يشتركون فيها هم ! إنما يناقشون غيابياً ! ليقتنع بقية الناس ــ الحاضرين ــ ويؤمنوا ، وليزداد المؤمنون منهم إيماناً . أما هم ــ المكذبون ــ فهم موجودون قطعاً بين المستمعين ! ولكن السياق يتجاهل وجودهم ، ويناقشهم ــ كما قلنا ــ غيابياً .. أي يعرض قضيتهم ، ويقدم الردود الحاسمة القاطعة عليها ، دون توجيه كلام مباشر إليهم . وتلك طريقة من طرق التوجيه ذات مفعول تربوي مثمر ! يكون من نتيجتها أن بعض هؤلاء المعاندين على الأقل يغير موقفه الداخلي ، ويقتنع بالحق ، ما دام أن اصبع الاتهام ليست موجهة إليه هو بالذات !

« لله ما في السماوات والأرض . إن الله هو الغني الحميد » .

وهذا تقرير يراد به أن ينشئ مشاعر إيمانية .. إنه ليس « كمعلوماتهم » الباردة التي يعلمونها : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله ! » وإنما هو تأسيس جديد ، لبناء العقيدة الصحيحة الراسخة .

« ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله . إن الله عزيز حكيم » .

إنها صورة رائعة يحاول الخيال أن يتملاها !

نقول « يحاول » لأنه لن يستطيع ذلك أبداً .. وسيكف بعد قليل عن المتابعة !

وإلا فجرب أن تطوف بخيالك في كل الأرض ، تنتزع منها شجرة شجرة حتى تأتي على **كل** ما فيها من أشجار ، ثم تصنع من كل شجرة ما يمكن أن يصنع منها من أقلام .. ثم تجيء إلى البحر ، فتجعله مداداً للكتابة .. ثم تجد أن البحر ليس وحده ، إنما وراءه سبعة أبحر تمده ..

هل استطعت أن تستوعب الصورة وتحصيها ؟! أم إن خيالك قد اكتفى ببضع شجرات رمزاً للشجر كله ، وبضع مرات من غمس الأقلام في البحر رمزاً للاستمداد كله؟

ثم ماذا بعد أن يطوف خيالك ذلك الطواف الواسع ، يقلم الأشجار جميعاً ، ويصنعها أقلاماً ، ويستمد مداده من البحر الذي وراءه سبعة أبحر ؟

« ما نفدت كلمات الله ! » .

إن المعنى أن كلمات الله من الكثرة بحيث لا تحصى .. ولكن هل هذا التعبير الذهني التجريدي يحرك من نفسك ما تحركه تلك الصورة المبدعة للأشجار والأقلام والمداد والبحار ..؟!

كلا بلا شك ! إن الصورة لتعطي المعنى حياً واسع المساحة ، يتملاه الخيال والوجدان ، فيتحرك ويصحو ، ولا يبقى راكداً كما يركد المعنى التجريدي في الذهن ، وينتهي هناك بلا حراك !

وما كلمات الله ؟

إن القرآن بالطبع من كلام الله . ولكنه من حيث عدد الألفاظ محدد ومُحْصىً ومعروف . فليس هذا إذن هو المقصود . ولا بد أن يكون المقصود شيئاً آخر ، فوق الإحصاء وفوق الحصر ..

إن كلمات الله هي أقداره التي يخلق بها الأشياء : « إنا كل شيء خلقناه بقدر »[1] والتي يقول بها للشيء كن : فيكون . فهي دلائل قدرته التي لا تحدّ .

وكلماته هي مشيئته الأزلية في اللوح المحفوظ .. الأبدية التي لا تنتهي ولا تنفد .. ولذلك لا يحصيها العد ، ولا يكفي لكتابتها البحر الذي تمده سبعة أبحر .. إنما ينفد البحر ولا تنفد الكلمات ..

« إن الله عزيز حكيم » .

ومن قدرته التي لا تحدّ هذه الآية :

« ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة . إن الله سميع بصير » .

إن هذه هي القضية التي تشغل المشركين ، ويضعونها أمام أنفسهم عقبة تصدهم عن الإيمان ! كيف يبعث الله من يموت ؟ « وقال الذين كفروا : هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد ؟! أفترى على الله كذباً أم بـه جنة ؟! »[2] « .. فقال الكافرون هذا شيء عجيب ! أإذا متنا وكنا تراباً ؟! ذلك رجع بعيد ! »[3]

والقرآن يرد عليهم في مواضع كثيرة يقول لهم إن الذي خلق أول مرة قادر على أن يعيد الخلق . بل هو أهون عليه ! : « وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ! وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم »[4] « أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى ! وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئاً

---

(١) سورة القمر [٤٩] .
(٢) سورة سبأ [٧ – ٨] .
(٣) سورة قٓ [٢ – ٣] .
(٤) سورة الروم [٢٧] .

أن يقول له كن فيكون . فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون »[1] .

ولكنه هنا في سورة لقمان يفاجئهم بصورة أخرى للقضية لم ترد في القرآن إلا في هذا الموضع :

« ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ! إن الله سميع بصير » .

وهي مفاجأة تهز الوجدان حقاً وتبهر النفوس ! هؤلاء الخلق كلهم .. ملايين الملايين من البشر على مدار الأجيال .. خلقهم كخلق نفس واحدة ؟!

نعم ولا شك ! لأنه يقول للشيء كن فيكون ! إنه ـ سبحانه ـ لا يتعب مثلنا في إنشاء الشيء وتركيبه قطعة قطعة ! إنما بتوجه المشيئة يتم الخلق .. كن .. فيكون ! فيستوي أن يكون خلقاً واحداً مفرداً أو يكون عدة ملايين ! كلاهما يتم بطريقة واحدة .. بلا تعب ولا جهد : « وسع كرسيه السماوات والأرض **ولا يئوده** حفظهما وهو العلي العظيم »[2] .

وإنه حين يتضح لنا الأمر بهذه الصورة ، ونتبين هذه الحقيقة الواضحة ، نعود فنعجب لأنفسنا ! كيف عجبنا حين فاجأتنا هذه الآية ، كأن القضية جديدة على حسنا !!

نعم .. إننا ـ بغير وعي منا ـ ومع إيماننا بقدرة الله التي لا تحدّ ـ نتوهم أن الخلق المفرد في مئات الألوف من السنين المتوالية أيسر من الخلق الجماعي في اللحظة الواحدة ! لأننا ـ بغير وعي منا ـ نقيس على قدرتنا نحن البشرية الضئيلة المحدودة ! فمن اليسير علينا ـ مثلاً ـ أن نبني ألف بيت في سنة ، بيتاً وراء بيت ، وطابقاً بعد طابق . أما أن ننشئ الألف كلها دفعة واحدة في لحظة فهذا مستحيل ! وبهذا القياس غير الواعي نفاجأ لأول وهلة حين نسمع قوله تعالى بأن خلق الأنفس كلها كخلق نفس واحدة ! ولكن عجبنا يزول لتوه حين نتيقظ إلى هذه الحقيقة : أن الله يقول للشيء كن فيكون ..

ولكن .. أو تزول الهزة من الوجدان حتى بعد أن يزول منا العجب ونتيقظ إلى الحقيقة ؟!

كلا ! إن هذه الهزة وجدت لتبقى ! ولنستشعر على الدوام عظمة الله وجلاله ، وقدرته التي لا تحدّ !

أو لم يمهد السياق لهذه المفاجأة الضخمة بقوله تعالى : «ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ؟! » .

وحين يطمئن الوجدان إلى هذه الحقيقة : أن خلق الأنفس المتعددة ـ في لحظة ـ كخلق النفس الواحدة ، يكون مهيئاً لتقبل الحقيقة الأخرى : أن بعث الأنفس كلها

---

(١) سورة يس [٨١ – ٨٣] .

(٢) سورة البقرة [٢٥٥] .

ـ في لحظة ـ كبعث نفس واحدة .. وبطريقة واحدة : كن .. فيكون !

ثم آيات أخرى تزيد حقيقة القدرة الربانية المعجزة رسوخاً في النفس :

« ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ، وسخر الشمس والقمر كلٌّ يجري إلى أجلٍ مسمى ، وأن الله بما تعملون خبير ؟ ذلك بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه الباطل ، وأن الله هو العلي الكبير » .

وولوج الليل في النهار وولوج النهار في الليل ظاهرة نشاهدها يومياً في غسق الليل وغسق الفجر ، حيث يتداخل النور والظلام تدريجاً حتى يغلب أحدهما على الآخر .. وإنها لعجيبة من العجائب الدالة على قدرة الله التي لا تحد .. والعلم يعلمنا أن ظاهرة الليل والنهار منشؤها اجتماع المجموعة الشمسية على ما هي عليه من نظام .. فهي ليست ظاهرة « محلية » في محيط الأرض ، ولكنها كونية .. ومع ذلك فإن الإلف والعادة يفسدان تذوقنا لهذه العجيبة الضخمة ، وخاصة لدقة انتظامها بحيث يمكن أن نحسبها ـ فلكياً ـ بالساعة والدقيقة والثانية والثالثة (جزء على ستين من الثانية) .. بل بجزء على مائة ألف من الثانية بالحساب الإلكتروني ! ومع ذلك تمر هينة على حسنا لأن حسنا تبلد عليها . ولو نظرنا إليها ـ كما ينبغي ـ على أنها دليل من دلائل القدرة الربانية المعجزة ، لظلت جديدة في حسنا لا يفسدها الإلف ، ولتجدد معها على الدوام شعورنا بعظمة الله وقدرته ..

والقرآن على أي حال يلفتنا إليها ، ليُذْهِبَ عنا تبلدنا عليها ، ويوقظنا إلى دلالتها .. فتطلق شحنتها لحسنا بكاملها ..

ويستوقفنا السياق لحظة .. إن إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل وتسخير الشمس والقمر آيات ظاهرة ومعلومة ، ومسلّمة عند أولئك العرب المشركين ، بصرف النظر عن عدم تأديتها ـ في حسهم ـ إلى مقتضاها الطبيعي وهو الإيمان بالله الواحد دون شريك .. أما قوله تعالى : « وأن الله بما تعملون خبير » فلم يكن على ذات الدرجة من التسليم في حسهم ! فالقرآن يحكي عنهم : « .. ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون . وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم ، فأصبحتم من الخاسرين »[1] وقال عنهم : « أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم ؟ بلى ! ورسلنا لديهم يكتبون »[2] وقال كذلك : « ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ! ! ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور »[3] .

فلم يكونوا إذن مسلّمين تمام التسليم بأن الله بما يعملون خبير .. ولكن السياق كما

---

(١) سورة فصلت [٢٢ - ٢٣] .

(٢) سورة الزخرف [٨٠] .

(٣) سورة هود [٥] .

قلنا يتجاهل وجودهم ، ولا يناقشهم مباشرة .. إنما يخاطب المستمعين عامة : « ألم تر ... » وإن المكذبين لمن بين المستمعين ، ولكنه الآن لا يخاطبهم بأعيانهم .. ومن أجل ذلك يسوق هذه الحقيقة « وأن الله بما تعملون خبير » بوصفها حقيقة .. سواء كانوا هم مسلّمين بها ، أم كان المسلّمون بها هم المؤمنين وحدهم من بين المستمعين !

ثم آيات أخرى للتوكيد :

« ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته ؟ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور » .

وإن في جريان الفلك في البحر لآية من آيات الله المعجزة ، ما كان يمكن أن تتم لولا ما أودعه الله من خواصّ في المواد المختلفة التي يتألف منها الكون وتتألف منها الأرض .. فهي ككل شيء آخر في هذا الوجود ناشئة من قدرة الله القادر سبحانه ، الذي خلق كل شيء بمقدار .. وهي نعمة من النعم التي لا تحصى ، التي أنعم الله بها على الإنسان ليبسر له حياته على الكوكب الأرضي ..

ثم نقف وقفتين عند هذه الآية ..

« ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله **ليريكم من آياته** » ..

وفي غير هذا الموضع قال : « وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه **ولتبتغوا من فضله** ولعلكم تشكرون »[1] وقال : « .. وترى الفلك فيه مواخر **لتبتغوا من فضله** ولعلكم تشكرون »[2] وقال : « ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر **لتبتغوا من فضله** إنه كان بكم رحيما »[3] .

أما هنا فيقول : « ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته » فكأن الهدف هنا هو أن يريكم من آياته .. ولا تعارض بطبيعة الحال بين أن تكون الفلك تجري في البحر لتبتغوا من فضله ، وبين أن تكون تجري ليريكم من آياته .. فهذه وتلك متكاملتان : « لتبتغوا من فضله » وأيضاً « ليريكم من آياته » .. وفي جميع الحالات : « لعلكم تشكرون » . إنما الذي يلفت النظر هنا أن إجراء الفلك في البحر ، الذي يأتي في المواضع الأخرى بصدد تعديد نعم الله على الإنسان لعله يشكر ، يأتي هنا بصدد طلبهم آية ، وتعليق إيمانهم بأن تنزل عليهم آية .. فهنا ترد بوصفها آية .. « إن في ذلك **لآيات** لكل صبار شكور » .. ويجيء الابتغاء من فضل الله متضمَّناً في السياق في كلمة « بنعمة الله » وبذلك يذكر السياق الأمور كلها ولكنه يبرز الآية بصفة خاصة ، لأنه بصدد الرد على

---

(١) سورة النحل [١٤] .

(٢) سورة فاطر [١٢] .

(٣) سورة الإسراء [٦٦] .

طلبهم الآية .. وذلك من بدائع التنسيق « الفني » في القرآن الكريم ..

أما الوقفة الثانية فعند قوله تعالى : « إن في ذلك لآيات لكل **صبار شكور** » .

والمقصود : إن في ذلك لآيات لكل مؤمن متعبد .. وقد مر بنا تسوية القرآن بين الشكر والعبادة ، وبين الشكر والإيمان .. وهنا تجيء صفة جديدة هي الصبر ، مرادفة للإيمان والعبادة ..

جاء في موضع آخر قوله تعالى : « إلا الذين **صبروا** وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير »[1] فكأنما وضع الصبر مكان الإيمان ، ودليلاً عليه ، حيث جرت العادة أن يقول القرآن : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات .. »

ولكن تعبير « إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور » يرد مرة أخرى في القرآن بمناسبة الحديث عن السفن في البحر كذلك : « ومن آياته الجوارِ في البحر كالأعلام ، أن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره . إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور »[2] .

فكأنما هناك علاقة معينة بين السفر في البحر وبين هاتين الصفتين : الصبر والشكر .. وكأنما من أجل ذلك يجعل الصبار الشكور هو الذي يحس بعظم الآية الربانية في إجراء الفلك في البحر بنعمة الله .. ففي البحر بأهواله : في الموج الهادر والريح العاصفة ورجات الفلك ـ حتى أضخم السفن التي تنشأ اليوم .. في وسط ذلك كله يلجأ الإنسان ـ حتى الكافر ـ إلى الله !

« وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين ! »

ولكن المؤمن فقط هو الذي يصبر على الهول ، ثم يشكر الله عند النجاة :

« .. فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد . وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور » .

وأما الختار[3] الكفور فإنه بمجرد وصوله إلى البر ينسى ! ينسى نعمة الله بالنجاة ، وينسى أنه دعا الله في وقت كربته ! « هو الذي يسيركم في البر والبحر ، حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين : لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ! فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق ! »[4] « وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسّه ! »[5]

* * *

---

(١) سورة هود [١١] .

(٢) سورة الشورى [٣٢ – ٣٣] .

(٣) ختار بمعنى : غدار ـ من الغدر . والختر أقبح الغدر .

(٤) سورة يونس [٢٢ – ٢٣] .

(٥) سورة يونس [١٢] .

وفي النهاية يجيء ختام السورة المؤثر الشديد التأثير :

« يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً . إن وعد الله حق ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغَرور . إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام ، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدري نفس بأي أرض تموت . إن الله عليم خبير » .

هل يستطيع الإنسان أن يقرأ ذلك الختام دون أن يتأثر ؟!

« يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا » .

إن علاقة الأبوة والبنوة لهي من أعمق العلاقات البشرية كافة ، ومن أشدها تأصلاً في النفس . ولو أن أحداً قدم نفسه فداء لأحد ، فربما كان ذلك هو الوالد يفدي ولده .. أو الولد يفدي والده .. ومع ذلك فهناك .. في ذلك اليوم الرهيب تتفكك العلاقات كلها ، وينتفي الفداء كذلك .. « وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء **ولو كان ذا قربى** »[1] « يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه »[2] .

فأي هول في ذلك اليوم وأية رهبة !

ألا يستحق ذلك اليوم الرهيب أن يعمل الإنسان حسابه ويعد له عدته ؟ ألا يستحق أن يخشاه ، فيعمل على النجاة من هوله ؟ ولا نجاة إلا بطاعة الله ؟

« إن وعد الله حق . فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور » .

إن هذا اليوم الرهيب الذي يحدث فيه كل ذلك الهول .. إنه حق ! كذبتم به أو لم تكذبوا .. إنه حق ! فلا تغرنكم الحياة الدنيا .. لا يغرنكم ذلك المتاع الزائل الزائف الذي يصدكم الحرص عليه عن سبيل الله .. إنه كله ، بكل ما فيه ، لا يستحق لحظة واحدة من ذلك الهول الرهيب الذي يلف الناس في ذلك اليوم ، فيفصل بين الولد وأبيه ، وبين الرجل وصاحبته وبنيه ! ولا يغرنكم الشيطان الذي يخدعكم ، فيصدكم عن الإيمان بالله .. إنه « غَرُور » .. لقد توعد بأن يفتن بني آدم .. أن يغرهم بمتاع الحياة الدنيا .. أن يزين لهم في الأرض لينساق الناس مع شهواتهم وينسوا ربهم وخالقهم ، ولا يكونوا « شاكرين » ..

ألا تشعر بجو معين في هذه الآية ؟

إنه جو حزين بلا شك ! ولكن .. ألا تحس أنه هو ذاته جو « الموعظة » التي وعظ بها لقمان ابنه ؟!

---

(١) سورة فاطر [١٨] .

(٢) سورة عبس [٣٤ – ٣٧] .

اقرأ الموعظة مرة أخرى .. ثم عد إلى هذه الآية .. هل تحس التناسق بين جوّ هذه وتلك ؟

ثم اختيار الولد والوالد في وصف الهول الهائل يوم الحساب : « لا يجزي والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا » ألا تحس فيه تنسيقاً مع جو السورة الذي جاء فيه لقمان وهو يعظ ابنه من ناحية ، وتوصية الإنسان بوالديه من ناحية أخرى ؟!

وهل تظن أن ذلك التنسيق يأتي بغير قصد ؟

ثم هذه الآية الأخيرة :

« إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما في الأرحام . وما تدري نفس ماذا تكسب غدا . وما تدري نفس بأي أرض تموت » .

إنها تذكر اختصاص الله بعلم الغيب ..

ألا ترى فيها تناسقاً مع ما جاء في السورة من قبل : « يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل ، فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله . إن الله لطيف خبير » .. كأنما هو نسيج واحد يشمل السورة من البدء إلى الختام ؟

ثم الآية في ذاتها .. كم تهز النفس ؟

إن هذا الحشد من « تفصيلات » علم الله للغيب الذي تختم به السورة لمؤثر في ذاته ، وخاصة في جو الآية السابقة التي تتحدث عن هول ذلك اليوم الرهيب .. ولكنه وهو يتحدث عن علم الساعة ، وتنزيل الغيث ، وعلم ما في الأرحام ، قد يمر عادياً على النفس ، يثير فيها التأمل في علم الله الشامل الدقيق فحسب .. حتى إذا جاء إلى قوله تعالى : « وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت » ارتجت **كل نفس** .. ولم تستطع نفس أن تنجو من التأثير ..

« وما تدري نفس » نفس على إطلاقها .. وكل نفس هي داخلة في هذه النفس التي تتحدث عنها الآية .. وينظر الإنسان حوله : هل تدري نفس ماذا تكسب غدا ؟ هل تدري نفس بأي أرض تموت ؟!

كلا ! وما أشوق كل نفس أن تدري ماذا تكسب غداً .. وما أشوق كل نفس أن تدري بأي أرض تموت ..

ولكنه الغيب المغلف بالأستار .. الذي تتعلق به القلوب في أعماقها .. وترتج له كلما ذكر الغد المجهول .. وكلما ذكر الموت ، المجهول الساعة ، المجهول المكان .. والذي يعرفه الله وحده .. « إن الله عليم خبير » ..

وفي جو الموعظة .. وفي هذا اللحن المؤثر العميق التأثير .. تختم السورة التي يعظ فيها لقمان ابنه .. ويعظ الله فيها كل البشرية !

سورة فاطر

بسم الله الرحمن الرحيم

« الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع . يزيد في الخلق ما يشاء ، إن الله على كل شيء قدير . ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم . يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم : هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ؟ لا إله إلا هو فأنّى تؤفكون ! وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك ، وإلى الله ترجع الأمور . يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور . إن الشيطان لكم عدوٌّ فاتخذوه عدوا ، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير . الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير . أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا ؟! فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات . إن الله عليم بما يصنعون » .

السورة ـ ككل السور المكية ـ تتحدث عن العقيدة ، وعن المكذبين الذين يكذبون بالوحي والرسالة والبعث والحساب والجزاء .. ولكن لكل سورة جوها الخاص ، وطريقة عرضها الخاصة .

« الحمد لله فاطر السماوات والأرض .. » .

ولقد جاء الاستفتاح بالحمد لله في أكثر من سورة في القرآن :

« الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور . ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » [1] .

« الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا » [2] .

« الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض ، وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير » [3] .

---

(١) سورة الأنعام [١] .
(٢) سورة الكهف [١] .
(٣) سورة سبأ [١] .

وكلها تدعو إلى حمد الله على نعمه التي أنعمها على الإنسان ، والتي كان مقتضاها أن يشكر الإنسان ويؤمن ، لا أن يكفر بالله المنعم ، ويتبع الشيطان فلا يشكر ..

ومع تماثل الاستفتاح بحمد الله ، فإن كل سورة تذكّر بالله الذي ينبغي حمده وعبادته وشكره ، في صورة خاصة تتميز بها عن الأخرى ، كما هو ظاهر من نصوص الآيات السالفة . وهنا في سورة فاطر يتميز السياق بوصف الله سبحانه وتعالى بأنه « فاطر السماوات والأرض » أي منشئها أول مرة على غير مثال سابق ، وأنه « جاعل الملائكة رسلا .. » .

« الحمد لله فاطر السماوات والأرض ، جاعل الملائكة رسلا أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع . يزيد في الخلق ما يشاء . إن الله على كل شيء قدير » .

هذا الاستفتاح الأخاذ هو المقدمة للرد على المكذبين .. « وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك ... » .

وهو استفتاح يروع الحس لأول وهلة ويهز الوجدان هزاً .. ولا شك أن ذكر الملائكة هنا مما يشارك في إيجاد هذا الجو الخاشع بالحمد لله ، المتطلع إلى قدرة الله المعجزة التي لا يحد قدرتها شيء ..

ولا شك أن من بين مقاصد السياق الرد على المكذبين الذين يكذبون بإرسال جبريل عليه السلام بالوحي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولذلك قال : « جاعل الملائكة رسلا .. » ولكن الصورة في ذاتها ، والجو الذي تثيره في النفس ، بصرف النظر عن تكذيب المكذبين ، هي صورة أخاذة ، تحرك الوجدان لينفعل بقدرة الله .. فالملائكة خلق شفيف ، يتمثل للإنسان دائماً في صورة أطياف رقيقة شفيفة من النور . ولكن السورة هنا تزيد أنهم عالم واسع متعدد الهيئات ، بعضهم من ذوي الجناحين ، وبعضهم من ذوي الثلاثة الأجنحة ، وبعضهم من ذوي الأربعة الأجنحة .. وحين يتصورهم الإنسان على هذه الصورة ـ أو هذه الصور المتعددة ـ أطيافاً من النور ، هابطة صاعدة تسبح بحمد الله ، وحين ينفعل الوجدان بتلك الصور من أولي الأجنحة « مثنى وثلاث ورباع » يجيء السياق بهذه الحقيقة في موضعها : « يزيد في الخلق ما يشاء » فتنفسح الصورة ، ولا تقف في الوجدان عند المثنى والثلاث والرباع ، ولا عند الملائكة أنفسهم ، بصورهم المتعددة هذه .. إنما تنفسح الصورة فتشمل « الخلق » كله ، والقدرة التي تزيد في « الخلق » بما تشاء ، لا تحدها حدود ، ولا يقفها عجز .. فإذا وصل الوجدان مع السياق إلى قوله تعالى « إن الله على كل شيء قدير » كان قد تهيأ بالفعل لتلقي هذه الحقيقة الهائلة ، والانفعال بها بما تستحقه من شعور بعظمة الخالق وجلاله ، التي تستدعي أن يتوجه القلب لله بالحمد ، ويتوجه بالطاعة ، ويتوجه بالإيمان ..

« ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم » .

وهذه الآية أيضاً تأتي في سياق الرد على المكذبين بالوحي والنبوة .. ولكنها كسابقتها أعم وأشمل من مجرد الرد على المكذبين . إنها تواجه الوجدان البشري بحقيقة هائلة ، يتملاها الوجدان مهتزاً لها ، منفعلاً معها ، لا يملك نفسه من التأثر بها ..

« ما يفتح الله للناس .. » هكذا ، بهذا التعميم الشامل .. الذي يشمل كل شيء ؛ يشمل كل رحمة منزلة من عند الله .. والتعبير بلفظة « ما » يعطي في الحس شمولا يفوق الحصر .. فمع أن معناها « أي شيء » و« كل شيء » إلا أن كل واحد من التعبيرات الثلاثة يعطي ظلاً معيناً لا يعطيه الآخران . « فكل شيء » تفيد الحصر . و« أي شيء » تفيد مفرداً معيناً وإن كان غير محدد .. ولكن « ما » تفيد المعنيين معاً أي : كل شيء بغير تحديد ، ومن هنا تعطي في الحس ظلاً للشمول الذي يفوق الحصر !

« ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ! » وحين ينفتح الحس مع « ما » فيسيح معها إلى كل مجالٍ من مجالات رحمة الله ، التي لا يمسكها الحصر .. فعندئذ يتمم السياق الصورة في الحس . هذه الرحمات التي تمتد في كل مجال ، وتشمل كل شيء بغير تحديد.. هذه .. لا ممسك لها ! وكأنما السياق يلاحق خيالك وأنت منطلق تعدد مجالات رحمة الله ، أو تحاول أن تعددها ، فيقول لك : انظر ! هذه لا يستطيع أحد أن يمسكها أو يتعرض لها في طريقها .. ولا هذه .. ولا هذه .. ولا هذه ..! فكلها تجري بإرادة الله العزيز الحكيم ، القادر الذي لا يتعرض لقدرته أحد ولا يقف في طريقها !

ثم يمضي معك السياق فيردك إلى عكس الصورة ! « وما يمسك فلا مرسل له من بعده ! » .

ويروح خيالك يجري الشوط الجديد كما جرى الشوط الأول .. هذه الرحمة أمسكها الله ، لحكمة يريدها ، « وهو العزيز الحكيم » .. فلتجتمع كل قوى السماوات والأرض ، لتنتزعها من حيث أمسكها الله ، وترسلها في أي وجهة تريدها !.. فهل تستطيع ؟! كلا ! لقد حبست وانتهى الأمر .. ولن تستطيع كل القوى أن ترسلها من محبسها !

وهكذا يمضي الخيال هذين الشوطين المتعاقبين ، وراء قدرة الله القاهرة ، سواء في إرسال الرحمة للناس أو إمساكها عنهم .. ويهتز الوجدان وينفعل بتلك الحقيقة الهائلة .. فيتوجه لله بالحمد .. ويتوجه بالطاعة .. ويتوجه بالإيمان .

إن الحس البشري كثيراً ما يتبلد إزاء انفتاح الرحمة أو إمساكها ، فلا يراها في صورتها الحقيقية ، ولا يردها إلى مصدرها الحقيقي ، وهو الله .. لأنه ينظر إلى الأسباب القريبة المباشرة من قوىً طبيعية أو قوى بشرية ، فيظنها هي التي تدبر الأمر ، وهي التي

تمنح وتمنع ! أو تنطمس بصيرته فلا يرى فيها إلا المنح والمنع .. ويغفل عن أن لله حكمة وراء ذلك .

فهو تارة كما يصوره القرآن : « ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور . ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن : ذهب السيئات عني ! إنه لفرح فخور »[1] .

وتارة : « فأما الإنسان إذا ما **ابتلاه** ربه فأكرمه ونعمه فيقول : ربي أكرمن ! وأما إذا ما **ابتلاه** فقدر عليه رزقه فيقول : ربي أهانن ! كلا ! »[2]

والآية هنا ترد عن الحس البشري تبلده إزاء هذه الحقيقة الهائلة .. حقيقة إطلاق الرحمة وإمساكها ، فتبين له أنها من عند الله ، لا من عند الأسباب الظاهرة من قوى الطبيعة أو من قوى البشر . وأنها لحكمة يريدها الله « وهو العزيز الحكيم » .. ولكن ذلك لا يتم بطريق التلقين الذهني المجرد .. إنما برحلة هائلة يقوم بها الخيال وينفعل بها الوجدان ..

وإنعام الله على رسوله صلى الله عليه وسلم بالنبوة والوحي هو من بين تلك الرحمات التي يفتحها الله فلا ممسك لها ، رداً على تكذيبهم ، وعلى قولهم : « وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ؟! أهم يقسمون رحمة ربك ؟! »[3]

ولكن الصورة أكبر وأشمل من مجرد الرد على المكذبين .. إنها تخاطب الناس عامة .. المؤمنين وغير المؤمنين .. وينفعل بها الوجدان عامة .. بصرف النظر عن تكذيب المكذبين !

« يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم : هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ؟ لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ؟ » .

وبعد الجولة الأولى مع خلق السماوات والأرض ، والملائكة أولي الأجنحة مثنى وثلاث ورباع .. والجولة الثانية مع رحمة الله في حالتي إرسالها وإمساكها .. وكلتاهما قد أطلقت الخيال يتملاها ، والوجدان ينفعل بها ، يقترب من القلب البشري في جولة ثالثة تحملها ــ كالسابقتين ــ آية مفردة !

إنه يذكّر الناس بنعمة الله : « يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم » والنعم ظاهرة وباطنة كما جاء في سورة لقمان ، مسبغة على الناس إسباغاً .. فهل من رازق يرزق الناس من السماء والأرض غير الله ؟! ألا يستحق الرازق ــ سبحانه ــ أن يتوجه له القلب بالحمد ، ويتوجه بالطاعة ، ويتوجه بالإيمان ؟!

---

(١) سورة هود [٩ – ١٠] .
(٢) سورة الفجر [١٥ – ١٧] .
(٣) سورة الزخرف [٣١ – ٣٢] .

ولكن السياق ـ كما نرى ـ لا يقول : هل من **رازق** غير الله يرزقكم من السماء والأرض ؟ إنما يقول : « هل من **خالق** غير الله يرزقكم من السماء والأرض ؟ » . وأقرب ما يرد على الخاطر أن السياق يذكّر الناس بالله الخالق والرازق في ذات الوقت .. ولكن السياق إذ يجمع بين الخلق والرزق هكذا يشير إلى معنى معين .. أن الرزق هو **خلق** يخلقه الله الخالق سبحانه وتعالى ! فالله ليس فقط **مرسل** الرزق ولكنه **خالقه** أيضاً ! والرزق ليس موجوداً من ذات نفسه ، فتنحصر قدرة الله في إرساله للناس ، بل هو ـ ككل شيء في الوجود ـ يُخلَق بقدر من الله : « إنا كل شيء خلقناه بقدر » [1] ثم يرسل إلى الناس ، نعمة من عند الله . ومن ثم تلفتنا الآية إلى هذه الحقيقة بهذه اللفتة اللطيفة : « هل من **خالق** غير الله **يرزقكم** .... »

ويجول القلب البشري تلك الجولة الثالثة مع رزق الله من السماء والأرض .. ويبحث الخيال مع كل رزق هابط من السماء أو خارج من الأرض : هل من خالق غير الله يخلق هذا الرزق وينعم به على الناس ؟!

« لا إله إلا هو ، فأنى تؤفكون » .

هل بقي شك بعد تلك الجولات الثلاث المتوالية في أنه إله واحد ، هو الذي يخلق وهو الذي يرزق ، وهو الذي ينعم .. وهو القادر وحده الذي لا حد لقدرته ؟! « فأنى تؤفكون ؟! » .

* * *

« وإن يكذبوك فقد كُذِّبت رسل من قبلك وإلى الله ترجع الأمور » .

إن يكذبوك بعد هذه الآيات كلها ، التي عرضها السياق في ثلاث جولات متتابعة ، فما كنت وحدك الذي كذبه قومه . بل ذلك ما حدث للرسل من قبلك . والأمر كله مرجعه إلى الله ، هو الذي يدبر ، وهو الذي يقرر . وهو الذي يعلم من يهتدي ومن يضل .

« يا أيها الناس إن وعد الله حق ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور . إن الشيطان لكم عدوٌ فاتخذوه عدوا ، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » .

إن الله يبذل الموعظة للناس حتى لا يقعوا في فخاخ الشيطان : « يا أيها الناس إن وعد الله حق » وعده بالبعث والحساب ، والثواب والعقاب .. « فلا تغرنكم الحياة الدنيا » فتغرقوا في متاعها الزائل وتنسوا ذلك الوعد الحق ؛ فمن طبيعة الاستغراق في المتاع أن يُلَهِّي .. فينسى الإنسان كل شيء وراء لحظته الراهنة التي يستمتع فيها بذلك المتاع . بل إن من طبيعته أن يُلَهِّيَ أحياناً عن بعض مطالب الدنيا ذاتها ! ولو كانت ضرورية للمعاش !

---

(١) سورة القمر [٤٩] .

فكيف بالآخرة البعيدة عن الحس ؛ كيف يتيقظ لها ذلك القلب الغارق في المتاع ؟

بل إن هذا هو العمل الرئيسي للشيطان ! تزيين الأرض لتستغرق الحس : « قال : رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ، ولأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين »[1] ومتى استغرق الحس في متاع الأرض فما أسهل على الشيطان أن ينزع الآخرة نزعاً من ذلك الحس ، فلا يعمل حسابها وإن أقر ـ نظرياً ـ بوجودها .. أو لا يؤمن بها على الإطلاق !

لذلك يقول : « فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور » فينسيكم الله ، وينسيكم وعد الله .

« ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا » !

إن الله يعلم حقيقة نوايا الشيطان .. فهو الذي توعد أمام الله أن يغوي بني آدم ويحول بينهم وبين الرجوع إلى الجنة .. لذلك فهو ـ سبحانه ـ يعظ بني آدم ألا يغتروا بالصداقة الخادعة التي يبذلها الشيطان لهم ، إذ يتمسح فيهم في صورة المحبّ الناصح الأمين ، الذي يرجو لهم الخير ويدلهم عليه : « وقاسمهما : إني لكما لمن الناصحين ، فدلاهما بغرور .. »[2]

« .. قال : يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ؟! »[3]

والله سبحانه وتعالى يُعْلِمُ البشر بأن الشيطان لهم عدو .. فماذا ينبغي للعدو ؟ أيجوز أن تتخذ عدوك الذي يكرهك ويتمنى لك الشر صديقاً ؟ أمن الحكمة أن تستمع لوسوسة عدو لا يألوك عنتاً ولا خبالاً ؟! إنما ينبغي أن تتخذه عدواً كما هو في حقيقته ..

« إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ! »

ويا لها من دعوة !

ولو أنها كانت دعوة مكشوفة إلى النار ، فلربما أحجم كثير من الناس عن تلبية الدعوة .. أو بعضهم على الأقل ! أَمَا وهي دعوة مغلفة بالنصيحة الحلوة ، وبالمتاع الحاضر ، وباللذائذ القريبة .. فإن حس البشر ليتغشاه الضباب ، فلا يحسن الرؤية .. ويدخل في روعه أن اللحظة الراهنة ـ أو الحياة الدنيا ـ هي نهاية المطاف .. وأنْ ليس وراء الضباب شيء يستحق أن ينعم النظر فيه ! .. ومن أجل ذلك يأتي النذير :

« الذين كفروا لهم عذاب شديد ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير » .

الذين استمعوا إلى غواية الشيطان ، ولبوا دعوته الخادعة .. أولئك « لهم عذاب

(١) سورة الحجر [٣٩ – ٤٠] .
(٢) سورة الأعراف [٢١ – ٢٢] .
(٣) سورة طه [١٢٠] .

شديد » . أما الذين استمعوا إلى الموعظة الربانية فآمنوا وعملوا الصالحات فأولئك « لهم مغفرة وأجر كبير » .

ثم يتوجه الحديث إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، الذي كانت نفسه الكريمة تذهب حسرات على الذين كفروا وأصروا على كفرهم ، ولم يستمعوا إلى دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومضوا في تكذيبهم للوحي والرسالة والبعث والحساب .. يتوجه الحديث إليه صلى الله عليه وسلم ليقول إن إصرار هؤلاء على ما هم فيه من كفر وتكذيب ليس عن تقصير منه في الدعوة والبيان .. وليس كذلك عن قصور في البيان الرباني عن توضيح الحق ، وإنما لسبب آخر في أنفسهم هم ، لا يرجى معه صلاح مهما نزل من عند الله من الآيات البينات ، ومهما جاهد الرسول صلى الله عليه وسلم لإقناعهم بالحق الرباني ..

« أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا ؟! فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء » ..

إن هذه هي المسألة : زين لهم سوء أعمالهم .. فهم يرون هذا الكفر والتكذيب هو الحَسَنَ وهو الصواب ! لقد فتحوا قلوبهم للشيطان فوسوس إليهم وزين لهم سوء أعمالهم فأصروا عليها .. فماذا يمكن أن يصنع لهم الرسول صلى الله عليه وسلم وقد أوصدوا قلوبهم عن الحق وفتحوها لغواية الشيطان ؟!

كلا ! « فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء .. » يضل أولئك الذين يرون الكفر حسنا ، ويهدي الذين يفتحون قلوبهم للإيمان .

« فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ! » .

إنهم من ناحية لا يستحقون هذا الأسى الممض الذي يحس به الرسول صلى الله عليه وسلم من أجلهم .. ومن ناحية أخرى فإن ذلك لن يجدي شيئاً ! لقد كتب عليهم أن يمضوا في هذا الطريق الذي يرونه حسناً إلى نهايته المحتومة :

« إن الله عليم بما يصنعون » .

وبمقتضى هذا العلم سيحاسبهم يوم الحساب على ما يصنعون .. فقضيتهم ـ كأفراد بأعيانهم ـ منتهية ! ولا داعي للأسى عليهم بعد اليوم ، وقد تبين سبب موقفهم ، وتبين اتجاههم الذي يسيرون فيه !

أما قضية الإيمان .. لمن شاء أن يؤمن .. لمن كان في حاجة إلى مزيد من البيان .. فهذا مزيد من البيان !

« والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا ، فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها . كذلك النشور ! » .

هذا مشهد متكرر .. يتبلد الحس عليه بسبب الإلف والعادة ، فلا يلتفت إلى دلالته الحقيقية ، ولا يتلقى الوجدان شحنته كاملة ..

الله هو الذي أرسل الرياح .. هو الذي أرسلها أصلاً .. فهي ليست مرسلة من ذات نفسها ! وليست « قوى الطبيعة ! » هي التي أرسلتها ! وإلا .. فمن خلق قوى الطبيعة هذه وجعلها ترسل الرياح ؟! وهل كانت « الطبيعة » لولا ما أودع الله في فطرتها من سنن وقوانين ـ وهو « فاطر » السماوات والأرض ـ ولولا إجراؤه كل شيء فيها بقدر معين موزون ، من حرارة وجاذبية وأوضاع محددة ينشأ عنها الليل والنهار والحر والبرد .. الخ .. هل كانت « الطبيعة » من تلقاء ذاتها ، لولا هذا الإجراء الرباني الدقيق ، تستطيع أن ترسل الرياح وتحدد لها مساراتها ؟!

كلا ! إن الله هو الذي أرسل الرياح ابتداء بقدر منه .. « فتثير سحابا » أي فجعلها تثير سحاباً .. واستخدام الفعل المضارع بعد الفعل الماضي ، ثم العودة إلى استخدام الماضي ، لا بد أن تكون له دلالته .. فكل شيء بميزان !

أرسل الرياح بقدرته ومشيئته ، وجعل من شأنها أن تثير سحاباً .. « فسقناه إلى بلد ميت » باستخدام الفعل الماضي مرة أخرى .. أي فسقناه بقدرتنا ومشيئتنا ، وبقدر خاص منا ، إلى بلد ميت « فأحيينا به الأرض بعد موتها » .

ذلك هو المشهد المكرور الذي يتبلد الحس عليه فلا يلتفت إلى دلالته .. إما بغفلة تامة عن حدوثه ، وإما بنسبته إلى الأسباب الظاهرة من « قوى الطبيعة ! » ونسيان المسبب الحقيقي وهو الله ..

والسياق يحيي المشهد بإعطائه الدلالة المنسية .. « **والله** الذي أرسل الرياح » .. « فسقناه » .. « فأحيينا .. » .

ثم يصل إلى دلالة خاصة ، مطلوبة هنا بالذات ، ومن أجلها يسوق هذا المشهد بصفة خاصة ، ويزيل عنه إلفه المكرور ..

« كذلك النشور .. » .

إن المكذبين بالبعث يكذبون لأنهم يستهولون الأمر جداً ويستعظمونه ! ويستكثرون على قدرة الله أن تبعث الموتى . ومن ثم يلفتهم إلى ظاهرة « الإحياء » التي تتم أمامهم ، هنا في الأرض ، ويرونها على الدوام ، ثم لا يدركون ما وراءها من قدرة معجزة ، أو لا يلتفتون إليها بحس منفتح .. أليست هذه الأرض « ميتة » فأحياها الله بالمطر النازل بقدرته ومشيئته ؟ فلماذا يجوز في حسهم أن يقدر الله على إحياء الأرض الميتة ، ثم لا يجوز أن يقدر على إحياء الموتى يوم القيامة .. والإحياء هو الإحياء .. والمحيي هو المحيي في الحالتين !

ولنا هنا وقفة مع « المثقفين » أو « المتعالمين » في عالم اليوم .. إذ يقولون إن الأرض ليست « ميتة » في الحقيقة ! وإن المطر لا « يحيي » الأرض على الحقيقة . لأن البذور التي يسقيها المطر حية حياة كامنة في جنينها ، وإنه لو مات الجنين فإن المطر لا يستطيع

إحياءها . وكذلك « النطفة » التي يمثل بها القرآن للإحياء هي حية في الحقيقة وليست ميتة ! ولذلك لا يجوز الاحتجاج بهذه ولا تلك على قدرة الله على بعث « الموتى » الحقيقيين يوم القيامة !

وهؤلاء « المتعالمون » يثيرون قضية جانبية لا قيمة لها في الحقيقة .. فإذا كانت البذور والنطفة تحتوي على حياة « كامنة » فمن الذي أودع فيها هذا القدر من الحياة الكامنة ؟ ومن الذي أودع في جنين البذرة أن « يحيا » بمعنى ينمو ويتحرك حين يصيبه الماء ، وأودع في النطفة أن « تحيا » بمعنى تنمو وتتحرك حين يتم الإخصاب ؟

فالأمر كله مرده إلى معجزة « الخلق » ابتداء .. سواء كانت الحياة التي يعاد بعثها كامنة أو غير كامنة .. لذلك يقول في مواضع أخرى : « أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى ! وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون »[1] ويقول : « أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى ؟ بلى ! إنه على كل شيء قدير »[2] .. فيردهم بذلك إلى أصل القضية : قضية القدرة التي لا يعجزها شيء .

ثم يتحول السياق إلى قضية أخرى من القضايا التي تصد الناس عن الإيمان في تلك الجاهلية العربية وفي كل جاهلية :

« من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً . إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه . والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ، ومكر أولئك هو يبور » .

« من كان يريد العزة فلله العزة جميعا ... » .

إن الجاهلية تأبى الدخول في الإيمان حرصاً على « العزة » التي في أيديها والتي تظن أن الإيمان سيضيعها عليها بصورة من الصور !

فأما « السادة » أو « الملأ » كما يسميهم القرآن ، ففي أيديهم بالفعل سلطة وسيادة مغتصبة من صاحبها الحقيقي ، وهو الله سبحانه وتعالى . سلطة يتحكمون بها في رقاب الناس ، أي في رقاب « العبيد » الذين يستعبدونهم لأنفسهم ولأهوائهم ، ولو كان ذلك تحت شعار « الحرية والإخاء والمساواة » ! كما تصنع الرأسمالية منذ القرن الماضي ، فتستعبد ملايين البشر لأهوائها ومصالحها ، وهي ترفع ذلك الشعار الخدّاع .. أو تحت شعار « الديمقراطية الحقيقية ! » كما تصنع الشيوعية منذ أوائل هذا القرن ، فتستعبد ملايين البشر « للدولة » و« للنظام » و« للزعيم » ، وهي ترفع شعار الديمقراطية .. أو

---

(١) سورة يس [٨٠ – ٨١]
(٢) سورة الأحقاف [٣٣]

تحت أي شعار مما تفنن « الملأ » دائماً في رفعه ليستعبدوا به العبيد !

هؤلاء « السادة » يرفضون الدخول في الإيمان حرصاً على هذه « العزة » التي في أيديهم ، والتي يحسون أنهم سيفقدونها حين يرضخون لعبادة الله الواحد ، الذي تتساوى في العبودية له جميع النفوس وجميع الرءوس !

ولا شك أنهم بالفعل سيفقدون ذلك السلطان المغتصب الذي يتحكمون به في رقاب الناس بالباطل .. ولكن نفوسهم الملتوية وفطرتهم المنكوسة لا تستطيع أن تدرك جملة الحقائق الإيمانية التي يدركها ـ بالفطرة السوية والنفس المستقيمة ـ كل من دخل في دين الله .

أول هذه الحقائق وأعظمها أن العزة لله جميعاً ..

هو ـ سبحانه ـ وحده العزيز بحق ، المالك للعزة بحق .. وأما هذه السلطة المغتصبة التي يعتز بها الملأ في الجاهلية وتصدهم عن الإيمان بالله ، فهي سلطة زائفة [فضلاً على أن الله هو الذي أمدهم بها إملاءً واستدراجاً « ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة »[1]] وهي سلطة موبقة لأنها تؤدي بهم إلى جهنم وبئس المهاد : « والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور » وليست العبرة ببضعة أيام على الأرض يستمتع فيها هؤلاء الملأ بالسلطة الزائفة ، المعطاة لهم من عند الله استدراجاً .. إنما العبرة بالخواتيم .. وبالحياة الدائمة بعد ذلك في عذاب المذلة ومذلة العذاب : « أفرأيت إن متعناهم سنين ، ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ؟ ! ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ! ! »[2] .

أما الذين آمنوا فلهم في مقابل ذلك النعيم الخالد ، لأن الله يسجل أعمالهم الطيبة في الدنيا ويرفعها إليه ، فيجزيهم بها في الآخرة ما تستحقه عنده من نعيم : « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » .

ولا يفوتنا هنا أن نقف عند هذه الإشارة الدالة : فالإيمان كما تعبر عنه الآية « كلم طيب » و « عمل صالح » وليس واحداً منهما دون الآخر ..

تلك هي الحقيقة الأولى بشأن « العزة » التي يغفل عنها الملأ في كل جاهلية ..

أما الحقيقة الثانية المستمدة من الحقيقة الأولى فهي : أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين !

وتلك حقيقة أخفى على الفطر المنكوسة والنفوس الملتوية من الحقيقة الأولى ! ذلك أنهم يرون المؤمنين ـ في أول عهد الدعوة ـ لا حول لهم ولا قوة ، مشردين في الأرض ، معذبين بأيدي الملأ أنفسهم ، لا سلطان لهم في الأرض ، ولا وزن لهم في مجرى الأمور ..

---

(١) سورة النحل [٢٥] .

(٢) سورة الشعراء [٢٠٥ – ٢٠٧] .

فيغشّي ذلك بصيرتهم عن حقيقتين كبيرتين : أن المؤمنين ـ حتى في عذابهم ذلك وانعدام « السلطة » في أيديهم ـ **أعز** بما لا يقاس من جبابرة الأرض المتمكنين في الأرض بالباطل .. لأنهم يعتزون بالله ، وبالإيمان بالله ، فيرخص في نفوسهم كل متاع الأرض الزائل ، الذي يستعبد الجبابرة فيذلون له ، ويبيعون آخرتهم من أجله .. ويستعلي في قلوبهم الإيمان فيحسون في قرارة أنفسهم أنهم أكبر من كل ذلك الباطل المستعلي بجبروته ، وأنهم أعظم في واقع الأمر من معذبيهم ، لأنهم يملكون « الحق » وأولئك يملكون « الباطل » .. ولأن معذبيهم لا يملكون منهم إلا أجسادهم الفانية ، أما أرواحهم فهي طليقة معتزة .. معتزة بالإيمان بالله .

وأما الحقيقة الثانية التي يغفل عنها الملأ فهي أن « ميزان السلطة » لا يظل إلى الأبد في أيديهم ! وأن هذه الفترة التي يستعلون فيها بالباطل ، ويذيقون المؤمنين العذاب ، هي فترة يقدرها الله لحكمة عنده ، وليست ناشئة من سلطة ذاتية في يد الملأ غير قابلة للزوال ! إنما هي فترة يتمحص فيها المؤمنون بالابتلاء ، ليتم تجردهم لله ، وليُعَدّوا لحمل الأمانة الضخمة ، وهي إقامة الحق والعدل بين الناس في الأرض .. وعندئذ ينتقل « ميزان السلطة » بقدر الله الغالب ، من أيدي الجبابرة المتحكمين بالباطل ، إلى أيدي المؤمنين الذين أعدّهم الله على عينه ـ في فترة الابتلاء ـ لتسلم « السلطة » من أولئك المتجبرين .. وعندئذ تتحقق « العزة » واقعاً ملموساً للمؤمنين ، بعد أن تحققت من قبل مشاعر مستعلية بالإيمان ..

تلك قضية « العزة » بالنسبة « للملأ » في كل جاهلية .. أما « العبيد » فقد كان المظنون أن يسارعوا إلى الإيمان لأنه هو الذي يخلصهم من ذل العبودية للعبيد ، حين ينقلهم إلى عزة العبودية الحقة لله .. ومع ذلك فإنهم هم كذلك قلما يستجيبون في مبدإ الأمر ! إنهم عبيد جاهلية ! وليس معنى كونهم مستضعفين ومستذلين ومظلومين أنهم على الحق .. كما تحاول أن تقول لهم الدعوات الخادعة لتستميلهم إلى جانبها ، ريثما تستعبدهم من جديد لحسابها !

إنهم عبيد جاهلية .. يستهويهم السلطان الجاهلي فيرتضون العبودية له .. وينخدعون بظاهر السلطة الموقوتة فيحسبون أنها دائمة ، ويرفضون الخروج عليها خوفاً منها : « وقالوا : إن نتبع **الهدى** معك نتخطف من أرضنا !! »[1] فيعلمون أنه الهدى ، ومع ذلك يأبون الدخول فيه خوفاً من سلطان الأرض الزائف ، ولا يصدقون أن العزة لله جميعاً ، وأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .. وينسون أن الملأ لم يصيروا أصحاب سيادة وتجبر ، إلا

---

(١) سورة القصص [٥٧] .

لأنهم هم ـ العبيد ـ قد ارتضوا أن يكونوا عبيداً لهم ، ورفضوا أن يكونوا عبيداً لله ، أعزة بالإيمان ! !

من أجل ذلك يقول السياق القرآني لهم جميعاً ، سادة وعبيداً : « من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً » فلا ترتجى العزة الحقيقية إلا بالالتجاء إليه ، سبحانه ، ولا يتذوقها إلا الذين يؤمنون بالله حق الإيمان ، فيستعلون بالإيمان على أولئك العبيد ، الذين يسمون أنفسهم سادة ذوي سلطان .. أو سادة ذوي جبروت !

* * *

ويعود السياق إلى قضية الإيمان .. لمن شاء أن يؤمن .. لمن كان في حاجة إلى مزيد من البيان :

« والله خلقكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم جعلكم أزواجاً ، وما تحمل من انثى ولا تضع إلا بعلمه ، وما يعمّر من معمّر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب . إن ذلك على الله يسير » .

تذكرنا هذه الآية بأختها في سورة الرعد : « الله يعلم ما تحمل كل انثى ، وما تغيض الأرحام وما تزداد . وكل شيء عنده بمقدار »[1]. وتجول بنا مثل الجولة التي طوّف فيها الخيال والوجدان هناك ..

ولكن القرآن جديد دائماً ولو تكررت الإشارة ذاتها في أكثر من موضع[2]. إنه هنا يبدأ قصة الخلق من أولها ، ويجيء علم ما في الأرحام حلقة من حلقات الخلق : « والله خلقكم من تراب » وهذه وحدها آية . « ثم من نطفة » وتلك آية أخرى . « ثم جعلكم أزواجاً » وهذه آية ثالثة .. فما تستطيع غير القدرة القادرة أن تخلق الإنسان ابتداء من التراب . وما تستطيع غير القدرة القادرة أن تجعل نسله بعد ذلك من نطفة . وما تستطيع غير القدرة القادرة أن تجعل هذه النطفة ، الناتجة في كيان ترابي الأصل ، تصبح « أزواجاً » ذكوراً وإناثاً يتم بينهم التزاوج ليخرج النسل ! وليس شيء من ذلك « حتمية » من حتميات الخلق ! ولا حتى صادراً صدوراً تلقائياً من الخلق في صورته الأولى بعد تسويته من التراب ! إنما هي القدرة ، التي تخلق كل شيء بمشيئتها ، « وكل شيء عنده بمقدار » ..

وما أتفه ما يقوله قلب جاحد كقلب دارون ، إذ يقول مرة : « إن **الطبيعة** تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها ! » ثم يقول مرة أخرى : « إن الطبيعة تخبط خبط عشواء (!) ولا تسير في خط منتظم في تطورها ! » وذلك بدلاً من أن يرد معجزة الخلق للخالق القدير

---

(١) سورة الرعد [٨] راجع سورة الرعد فيما مضى من الكتاب .

(٢) انظر الفصل التالي « ظاهرة التكرار في القرآن » .

سبحانه ، وأن يقر بعجزه عن فهم ما لم يستطع فهمه من شئون الخلق !

« والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً » .. فإذا جاء ذكر الأزواج والتزاوج تحدث عن الحمل والوضع وعن علم الله المحيط به .. ولكن أهي ذات الصورة التي وردت في سورة الرعد ؟ فلننظر :

« وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه » !

إنها جولة واسعة يطوف فيها الخيال مع **كل** أنثى تحمل **وكل** أنثى تضع .. فإن « ما » و« مِن » : « **وما** تحمل **من** أنثى .. » تفيدان الشمول والحصر .. ومع ذلك فهي صورة مختلفة وإن بدا لأول وهلة أنهما متماثلتان !

هناك تحدث عن علم الله بما في داخل الأرحام من حمل : بالأجنة على اختلافها . وهنا يتحدث عن عملية الحمل ذاتها وعملية الوضع : « وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه .. » ويجري الخيال مع السياق يستعرض ـ إن استطاع ـ كل أنثى تحمل وكل أنثى تضع .. وما يستطيع الخيال أن يحصي ، حتى لو حصر نفسه في نطاق الإنسان ، الذي يوحي السياق هنا بأن الحديث خاص به .. لا يستطيع أن يحصي كل حمل وكل وضع .. ثم يربط كل حمل وكل وضع بعلم الله الشامل الدقيق ..

غير أن السياق هنا يستوقفنا لنتملى الصورة .. إنه لا يقول في صورة الإثبات : إن كل أنثى تحمل وكل أنثى تضع يعلم الله حملها ووضعها .. إنما يجيء التوكيد في صورة النفي والاستثناء : « **وما** تحمل من أنثى **ولا** تضع **إلا** بعلمه » ..

هل اختلف المعنى بين صورة الإثبات ، وصورة النفي والاستثناء ؟!

نعم .. كثيراً جداً !

ربما لا يتغير « المعنى الذهني » كثيراً .. ولكن المعنى النفسي أو الوجداني .. أو قل : الصورة التي تتكون في الحس والوجدان تتغير كثيراً ما بين الصيغتين .

إن الأولى تقرر مجرد علم الله الشامل بكل أنثى في حالة حملها وحالة وضعها ..

أما الثانية فهي تنفي أن تحمل أي أنثى أو تضع إلا بعلمه !

زيادة في التوكيد ؟ نعم .. هذا أول أثر للصيغة الثانية في النفس .. ولكن أثرها لا ينتهي عند زيادة التوكيد .. إنها تعطي معنىً متخيلاً : أن أية أنثى **لا تستطيع** أن تحمل ولا أن تضع إلا بعلم من الله ! وكأنما العلم هنا هو الإذن ! فلا تستطيع أنثى أن تحمل إلا أن تستأذن القدرة القادرة ، ولا أن تضع حملها إلا أن تستأذن القدرة القادرة ! « وكل شيء عنده بمقدار » !

ويمضي السياق مع حلقات الخلق ، بعد الحمل والوضع ، فيتحدث عن العمر ، ما يُمَدّ منه وما يُنْقَصُ : « وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب » لا شيء

يذهب بلا إحصاء ! لا تفلت حالة واحدة من هنا ولا من هنا دون تسجيل ! في عمر البشر كله منذ خلقه من التراب إلى آخر إنسان تطأ قدماه ظهر الأرض :

« إن ذلك على الله يسير ! » .

* * *

ثم مزيد من البيان ..

« وما يستوي البحران : هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج . ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها . وترى الفلك فيه مواخر . لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ، وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى . ذلكم الله ربكم له الملك . والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير . إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم . ويوم القيامة يكفرون بشرككم . ولا ينبئك مثل خبير » .

هذه آية أخرى مما يتبلد عليه الحس بحكم الإلف والعادة .. البحر العذب والبحر الملح . وهي عجيبة من عجائب الخلق ننساها لأننا ـ في أحسن أحوالنا ـ نردها إلى الأسباب الظاهرة .. إلى « قوى الطبيعة » ! وننسى أن قوى الطبيعة المزعومة هذه لا تخلق ! ولا تعمل شيئاً من تلقاء ذاتها ، إنما بما أودع في الكون من سنن ربانية يجري الكون عليها . ومن حصيلة هذه السنن يوجد ماء عذب يجري في الأنهار [يسميها هنا بحاراً للمشاكلة اللفظية ، وإن كان لا يخرج عن معنى اللفظ في اللسان العربي] وماء ملح تعج به البحار والمحيطات . وهذا وذاك من خلق الله ، ويتم بمشيئة الله . واختلافهما وهما من مصدر واحد كان كفيلاً أن يوقظ الحس لحقيقة القدرة الكامنة وراء وجودهما ووراء اختلافهما . ثم هناك مع هذا الاختلاف عجيبة أخرى .. « ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها » وهي ـ لولا تبلد الحس عليها ـ عجيبة مذهلة ، ككل شيء في هذا الكون المعجز العجيب . وإلا .. فكيف ـ لولا قدرة الله المعجزة ـ يوجد السمك مثلاً ـ وهو من اللحم الطري المقصود في الآية ـ في الماء العذب والماء الملح ؟ وكيف ألهم الإنسان ، وكيف استطاع ، أن يستخرج هذا اللحم الطري ويأكله ؟ والحلية ـ في اللؤلؤ الموجود في الماء ـ شأنها كذلك .. إنها من عجائب الخلق التي لا ينتبه إليها الحس المتبلد ، فيوقظه إليها السياق ليذهب عنه تبلده ، ويحسها بكل دلالتها .. والفلك التي تمخر الماء بكلا نوعيه : العذب والأجاج ، والتي يركبها الناس ليبتغوا من فضل الله .. كلها .. كلها .. شواهد على القدرة المعجزة التي تدعو الإنسان ليحمد الله .. ويؤمن بالله .. ويشكر الله .. « ولعلكم تشكرون » .

والليل والنهار والشمس والقمر ..

كلها من آيات القدرة التي يتبلد عليها الحس لتكررها وإلف الحس لها .. ولو حدثت أمام الإنسان أول مرة لاهتز لها وجدانه اهتزازاً ، لأنه يومئذ يتلقى شحنتها الكاملة ويتيقظ

لدلالتها .. فالسياق هنا يعطيه الهزة الواجبة ، ليتلقى الشحنة كاملة .

« ذلكم الله ربكم له الملك . والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ! » .

« ذلكم الله » .. فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولي أجنحة .. الذي يفتح للناس من رحمته فلا يمسكها أحد ، ويمسكها فلا يرسلها أحد من بعده .. الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فتحيا به الأرض بعد موتها .. الذي يملك العزة الحقيقية وحده ويهبها للمؤمنين وحده .. الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة .. ويعلم ما تحمل كل أنثى وما تضع ، ويسجل عمر من يعمر وعمر من ينقص من عمره .. الذي خلق البحر العذب والبحر الأجاج وأخرج منه لحماً طرياً وحلية وأجرى فيه الفلك .. الذي يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ..

« ذلكم الله ربكم له الملك » ..

إن السياق مستمر من أول السورة ، سياقاً واحداً متصلاً لا انقطاع فيه .. يجول بالوجدان البشري هذه الجولات المتلاحقة في آيات القدرة الربانية المعجزة .. ليحصره أمام هذه النتيجة : « ذلكم الله ربكم له الملك » .. فكيف تدعون أحداً من دونه « والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير » وهو الغشاء الرقيق الذي يغطي النواة داخل التمرة .. أي .. أحقر شيء في هذا الوجود ؟!!

أي منطق سخيف ذلك الذي يسول للفطرة المنتكسة بعد هذا البيان المفصل كله ، أن تدعو أحداً من دون الله لا يملك ـ فضلاً على أن يخلق ـ أتفه شيء في الكون ؟

« إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم » .. فهم أصنام لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ..

« ولو سمعوا ما استجابوا لكم » .. إنها استحالة كاملة يرسمها السياق .. ولكنه يتدرج بها كأنما يستدرجهم ليستنفد آخر ما في خيالهم المريض من تصورات .. فهم يعلمون أنها لا تسمع الدعاء ومع ذلك يخادعون أنفسهم ويتصورون في داخلها أرواحاً تسمع وتبصر وتقدر .. فكأنما يمضي السياق مع تصوراتهم الخاوية هذه ليستدرجهم ويخرج بهم إلى الخواء ! « ولو سمعوا ما استجابوا لكم ! » .

ثم المفاجأة التي لا يتصورونها إطلاقاً ولا يعلمون عن حقيقتها شيئاً :

« ويوم القيامة يكفرون بشرككم ! » .

وإنها لمفاجأة من كل جانب ! فهذه الأصنام التي يكلمونها اليوم ولا تكلمهم ، لأنها لا تنطق ، هي التي تنطق يوم القيامة وهم إزاءها مشدوهون من هول المفاجأة !

وتنطق لتقول ماذا ؟! تنطق لتكذّبهم ! لتقول لهم : إنكم ما كنتم تعبدوننا ! فما كنا نحس بعبادتكم ! « ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا : مكانكم أنتم وشركاؤكم ! فزيلنا بينهم . وقال شركاؤهم : ما كنتم إيانا تعبدون ! فكفى بالله شهيداً

بيننا وبينكم . إن كنا عن عبادتكم لغافلين ! »[1] « ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول : أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل ؟ قالوا : سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء . ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بورا . فقد كذبوكم بما تقولون ، فما تستطيعون صرفاً ولا نصراً ... »[2] وما أشد المفاجأة حين يتخلى المدعو عن داعيه الذي يعتمد عليه الاعتماد كله ، ويقول له إن دعاءك لم يصلني قط !

وهم بطبيعة الحال لا يصدقون ذلك ! فهو يؤكد لهم :

« ولا ينبئك مثل خبير ! » .

* * *

« يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد ، إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ، وما ذلك على الله بعزيز . ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى . إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ، ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير . وما يستوي الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور . وما يستوي الأحياء ولا الأموات . إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور . إن أنت إلا نذير . إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ، وإن من أمة إلا خلا فيها نذير . وإن يكذبوك فقد كذّب الذين من قبلهم : جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير . ثم أخذت الذين كفروا ، فكيف كان نكير ؟! » .

بعد الآيات السابقة كلها ، التي مضى السياق بها من أول السورة في تتابع متصل ، يتحول الحديث إلى « الناس » من البيان إلى الموعظة والنذير :

« يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ، والله هو الغني الحميد » .

إن الله لا يدعوكم إلى الإيمان لأنه في حاجة إليكم ولا إلى إيمانكم ! فأنتم الفقراء إلى الله ، وليس الله هو الفقير إليكم ، سبحانه ، بل هو الغني الحميد .. أنتم الفقراء المحتاجون .. الذين لا تستطيعون شيئاً على الإطلاق إلا بإذن الله ومشيئته . وجودكم ذاته كان بمشيئة الله وقدره وقدرته . وكل مطالب حياتكم التي تحصلون عليها تتم بمشيئة الله وقدره وقدرته .. لا شيء منها يتم من تلقاء ذاته ولا بقدرتكم أنتم .. بينما الله هو الحيّ القيوم ، القائم بذاته الغني بذاته ، وليس في حاجة إلى أحد من خلقه ولا إلى شيء من خلقه ..

---

(١) سورة يونس [٢٨ – ٢٩] .
(٢) سورة الفرقان [١٧ – ١٩] .

فإذا دعاكم إلى الإيمان فليس لمصلحته هو سبحانه ! إنما يدعوكم لمصلحتكم أنتم ، ليثيبكم على الإيمان به في الآخرة جنات تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها .. وفي الدنيا نظافة وطهارة وعزة واستعلاء واستقامة وتمكيناً في الأرض بالطيبات الصالحات ..

فأما إن أصررتم على كفركم وتكذيبكم فلستم بمعجزين في الأرض :

« إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ، وما ذلك على الله بعزيز » .

فإن الذي خلق السماوات والأرض بقدرته ، وخلق فيهما من الآيات ما مر بيانه من قبل ، لا يعجزه أن يذهب بكم ويستخلف من بعدكم من يشاء .. ولا يعز عليه ذلك وهو القادر الذي لا يحد قدرته شيء .. هذا في الدنيا . فأما في الآخرة فحساب آخر ، تحاسب فيه كل نفس مفردة بما كسبت ، ولا تزر فيه وازرة وزر أخرى ، ولا يحمل أحد حمل أحد ..

« ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى ! » .

وإن الوجدان ليهتز تأثراً من هذه الصورة : « وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى ! » .

إن منظر الإنسان الذي يحمل حملاً ثقيلاً ينوء به فيدعو الآخرين إلى التخفيف عنه منظر مألوف في الدنيا .. وفي المعتاد يخف الناس لمساعدته وتخفيف الحمل عنه .. فأما إن تصورناه واقفاً بحمله ، ينوء به ظهره ، ثم يدعو الناس في ضراعة أن يحملوا عنه شيئاً ليخف عنه الحمل فلا يستجيب له أحد .. ولو كان من ذوي قرباه .. إنها لصورة مؤثرة حقاً .. ومع ذلك فهي صورة الواقع يوم القيامة ، حيث كل إنسان مشغول بنفسه ، وبحسابه الخاص ، لا يلتفت إلى غيره من الناس : « يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه : لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه »[1] « يبصرونهم : يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه ، وصاحبته وأخيه ، وفصيلته التي تؤويه ، ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه . كلا ! »[2] .

ويستوقفنا التعبير هنا بالمؤنث : « وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى » .

المقصود بطبيعة الحال هو « النفس » مذكرة أو مؤنثة : وإن تدع نفس مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء .. ولو كان المدعو ذا قربى .. ولكن التعبير يعطي ظلاً معيناً

---

(١) سورة عبس [٣٤ – ٣٧] .

(٢) سورة المعارج [١١ – ١٥] .

حين يسمعه الإنسان لأول وهلة . إنه يعطي صورة الحامل المثقلة بحملها ! وهو منظر أشد تأثيراً في النفس من منظر الرجل المثقل بحمله ! ثم يعطي صورة استحالة تخفيف الحمل ! فمهما كانت الحامل مثقلة بحملها ، فمن ذا الذي يملك أن يخفف عنها حملها ، ولو كان ذا قربى ؟! ومن هذه الصورة المؤثرة ، التي يستحيل فيها تخفيف الحمل ، ينتقل إلى « النفس » المثقلة بحملها يوم القيامة ، والتي يستحيل تخفيف حملها ، لأن كل إنسان مشغول بذاته ، ولأنه لا يحق لأحد أن يحمل حمل أحد ولو كان راغباً في ذلك !!

وهذا الحديث موجه « للناس » كافة : « يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ... » ولكن الذي يستمع إليه ويعيه ويعمل به هم المؤمنون وحدهم :

« إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب ، وأقاموا الصلاة ، ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه . وإلى الله المصير » .

و « الإنذار » في حقيقته موجه للناس جميعاً . ولكن المقصود أن الذين يستجيبون للنذير ويتأثرون به هم المؤمنون « الذين يخشون ربهم بالغيب » والذين أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة .. وهي صفات المؤمنين الأصيلة : يؤمنون بالغيب ، لأن الله لا تدركه الأبصار سبحانه ، إنما يؤمن به الإنسان إيماناً بالغيب ، ويقيمون الصلاة التي هي صلة القلب المؤمن بالله ، ويزكون أموالهم بأداء حق الله فيها [1] .. ولكن التعبير هنا يضيف إضافة تتناسب مع قوله تعالى فيما سبق : « يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله .. » فهو لا يقول هنا : أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة .. إنما يشير إلى إيتاء الزكاة عن طريق غير مباشر حين يقول : « ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه » وكأن المعنى هكذا : إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه . لأن الله غني عن زكاة العباد ، إنما يتزكى الإنسان لنفسه رجاء المثوبة من عند الله .

« وإلى الله المصير » .

فالإنسان صائر إلى الله بأعماله التي عملها في الدنيا ، وهناك يتلقى جزاءه على تلك الأعمال : إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

وبمناسبة العمل في الدنيا ، الذي يصير به الإنسان إلى الله في الآخرة يقول : « وما يستوي الأعمى والبصير » .. الأعمى الذي عميت بصيرته عن طريق الحق ، لا يستوي مع البصير الذي رأى الطريق فاتبعه ابتغاء مرضاة الله :

« وما يستوي الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور » .

وكما لا يستوي الأعمى والبصير كذلك لا تستوي الظلمات ولا النور ، ولا الظل

---

(١) انظر نفس الصفات في أول سورة البقرة .

ولا الحرور .. وكلها أشياء حسية مشاهدة قريبة إلى البديهة .. ولكن المشبه بها وهو الكفر والإيمان يغيب على الحس المغلق والبصيرة المطموسة ، فلا تتبين أن الكفر هو العمى وهو الظلمات وهو الحر اللافح ، ولا تتبين كذلك أن الإيمان هو البصر وهو النور وهو الظل الظليل .. لأن تلك البصائر المطموسة ترى الأشياء مقلوبة ، فترى ذلك هذا ، وهذا ذاك .. ويخيل إليها أن الإيمان هو القيد ، وهو التعب والمشقة ، وهو الخسران ؛ وأن الكفر هو الطلاقة وهو اليسر وهو المكسب المضمون !

« وما يستوي الأحياء ولا الأموات .. » .

وتلك بديهية حسية كذلك . ولكن المقصود من ورائها ، الذي لا تدركه الفطر المنكوسة أن الإيمان هو الحياة الحقة .. حياة القلوب والنفوس والأرواح . وأن الكفر هو الموت .. موت الشعور وموت القلوب وتبلد الإحساس ..

« إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور » .

فأما « الأحياء » الذين يستجيبون للحق فإن الله يُسْمِعُهم الحق فيستجيبون له ، وأما « الأموات » الذين « في القبور » ولو كانوا في عداد الأحياء بأجسادهم دون أرواحهم التي قتلها الكفر .. أما هؤلاء فلن تستطيع أن تُسْمِعَهم مهما دعوتهم ! لأن الموتى لا يسمعون.

ويستوقفنا هنا التعبير : « إن **الله** يُسْمِع من يشاء » « وما **أنت** بمسمع من في القبور » !

إن الرسول صلى الله عليه وسلم هو المبلغ في الحالتين ، حالة الذين يستجيبون والذين لا يستجيبون ، وهو في الحالتين مبلغ عن الله وليس من عند نفسه .. ولكن التعبير يقول إن الله هو الذي يفتح قلوب المؤمنين للحق فيستجيبون للرسول صلى الله عليه وسلم ، وذلك معنى « إن الله يسمع من يشاء » وأما الذين انطمست بصيرتهم فإن الله يحجب قلوبهم عن الحق ، فمهما دعاهم الرسول صلى الله عليه وسلم فهم لا يستجيبون . وفي الحالين فإن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يملك لأحد الهدى أو الضلال :

« إن أنت إلا نذير » ..

فليست مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم أن يفتح قلوب الناس للهدى .. فهذا من شأن الله سبحانه وتعالى « يُسْمِع من يشاء » أما الرسل عليهم صلوات الله وسلامه فمهمتهم الإنذار فحسب .. مهمتهم التبليغ عن الله :

« إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ، وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » .

وهذا إعلان رباني بأن الرسول صلى الله عليه وسلم مرسل من عند ربه « بالحق » .. في وجه المكذبين بالوحي والرسالة . وإعلان كذلك بأن الرسول صلى الله عليه وسلم ليس بدعاً من الرسل ، ولا العرب المكذبون بدع من الأمم ! فما من أمة إلا خلا فيها نذير . فليس إرسال الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم أمراً جديداً ولا غريباً في تاريخ البشرية حتى يعجبوا له كل هذا العجب ويكذبوه كل هذا التكذيب .

« وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم : جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير » .

فليس هؤلاء إذن أول المكذبين ! كل أمة قبلهم قد كذبت رسولها ! فلا تأس عليهم ، ولا تعجب من أمرهم ! ولا تحسبن أنهم يكذبون لنقص في البيان أو الحجة والبرهان ! فقد حدث التكذيب ممن قبلهم مع أن رسلهم جاءتهم بالبيان الكافي وبالكتب المنزلة من عند الله .. فالتكذيب إذن حالة مرضية غير قابلة للشفاء ! ولن يشفيها على أي حال إرسال آية كما يزعم المكذبون ! إنما الأَوْلَى أن يواجهوا بالنذير ! وهم يعرفون صدق النذير فقد أصاب الأمم المكذبة من قبل :

« ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير ؟ »

إنه معروف فلا يحتاج إلى بيان .. إنه المحق الشامل والتدمير !

ونقف وقفتين سريعتين مع السياق :

« إن أنت إلا **نذير** . إنا أرسلناك بالحق بشيراً **ونذيراً** ، وإن من أمة إلا خلا فيها **نذير** » .

إن مهمة الرسل هي البشارة والإنذار معا . وواضح ذلك من قوله تعالى « إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً » ولكن قبل ذلك يقول له : « إن أنت إلا نذير » وبعد ذلك يقول : « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » .. وواضح تغليب النذير هنا ، وهو أحد وجهي الرسالة ، لمناسبة ذلك للتكذيب الذي يصر عليه المشركون من ناحية ، وللإنذار الوارد في الآية من بعد : « ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان **نكير** ؟ »

والوقفة الثانية عند « ثم » في الآية الأخيرة : « **ثم** أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير ؟ »

إن لها أمثلة أخرى في القرآن : « فأمليت للذين كفروا **ثم** أخذتهم فكيف كان عقاب ؟ » [1] « فأمليت للكافرين **ثم** أخذتهم فكيف كان نكير ؟ » [2] .. وإن لها لدلالة ! إن الله لا يأخذ المكذبين لتوهم بمجرد أن يكذبوا كما يتمنى المؤمنون وهم واقعون في قبضة الطغاة يعذبونهم في فترة الابتلاء ! كلا ! إنه على العكس من ذلك **يملي** للظالمين ، فيزدادون عتواً وتشتد وطأتهم على المؤمنين !

وما ذلك عن قِلىً من الله للمؤمنين ولا تَخَلٍ عنهم ! ولا هو كذلك عن حب للظالمين ونصرٍ لهم وهُمْ على الباطل ، كما يزعم الظالمون تحدياً للمؤمنين وهم يعذبونهم ! يقولون لهم : لو كنتم على الحق ما نصرنا الله عليكم !

---

(١) سورة الرعد [٣٢] .

(٢) سورة الحج [٤٤] .

إنما هو يملي لهم سبحانه ليفعلوا ذلك وليقولوا ذلك ! ثم يأخذهم بغتة وهم في قمة السلطة وقمة التحدي ! « فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء ! حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين »[١] وكذلك « ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم . ألا ساء ما يزرون »[٢] .

أما المعذبون في الأرض ـ لهم الله ـ فإنما يمحصهم الله للحق في الحياة الدنيا بهذا الابتلاء .. ثم « يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب »[٣] .

* * *

وبعد أن يفعل النذير فعله في نفوس المستمعين ، يعود بهم إلى آية من آيات الله المعجزات ـ رداً على طلبهم المتكرر للآية ـ ولكنه في هذه المرة كأنما لا يوجه الخطاب إليهم هم ، وإن كانوا في الحقيقة ممن يوجّه الخطاب إليهم .. إنما يغضي عنهم ويتحدث حديثاً مفصلاً عن المؤمنين :

« ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك . إنما يخشى الله من عباده العلماء . إن الله عزيز غفور » .

« ألم تر .. » الحديث موجه إلى الجميع ، مكذبين ومؤمنين .. ولكن الآية تنتهي بذكر المؤمنين وحدهم ، لأنهم هم الذين يدركون دلالة هذه الآية فيزدادون لربهم طاعة وعبادة وخشية ..

والآية هي **الاختلاف** الواضح في الأشياء التي خلقها الله في الكون ، **والتنوع** الملحوظ في الكائنات ذات النوع الواحد !

« ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمراتٍ مختلفاً ألوانها ؟ » .

تذكرنا بالإشارة المماثلة في سورة الرعد : « وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوانٌ وغير صنوانٍ يسقى بماء واحدٍ ونفضل بعضها على بعض في الأكل . إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون »[٤] ولكن لكل إشارة طعماً وجواً خاصاً وإن تشابهت الإشارات في الظاهر[٥] .

---

(١) سورة الأنعام [٤٤ – ٤٥] .

(٢) سورة النحل [٢٥] .

(٣) سورة الزمر [١٠] .

(٤) سورة الرعد [٤] .

(٥) انظر الفصل التالي « ظاهرة التكرار في القرآن » .

التنوع الأول المشار إليه هو في الثمرات المختلفة الألوان وهي تسقى بالماء الواحد النازل من السماء .

والتنوع الثاني في الجبال : « ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود » .

والتنوع الثالث في الناس والدواب والأنعام : « ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك » .

فهذه أنواع الكائنات الثلاثة : الجماد والنبات والحيوان [ومعه الإنسان] ، والاختلاف حادث فيها جميعاً ، بمشيئة الله وقدره وقدرته .. فما يمكن إلا للإله القادر سبحانه أن يحدث هذا التنويع العجيب في **جميع** الكائنات ..

وهذه الظاهرة ملحوظة ولا شك .. ولكنها من أشد ما يتبلد عليه الحس نتيجة الإلف والعادة والتكرار .. وإن كل واحدة منها لمما يهز الوجدان المتفتح هزاً ، ويتوجه به توجهاً إلى الله الخالق القادر المعجز القدرة ..

وقفة واحدة عند الثمرات المختلفة الألوان كفيلة بأن يخشع الوجدان لله .. فما هذه القدرة المعجزة التي تنبت النبات بهذا التنوع الأخاذ .. كل نبات له لون ، ولا يكاد يلتقي لونان اثنان منها على تعددها الذي يفوق الحصر ! حتى « الخضرة » التي نصف بها النبات ما هي خضرة واحدة ! إنما ظلال مختلفة متباينة من الخضرة .. أما « الثمرات » فحدث عن اختلاف ألوانها ما شاء لك الحديث ! واستخدم أدق الألفاظ المعبرة عن الألوان وظلال الألوان .. فمتى تفرغ من الوصف ؟ وهذا لون واحد من ألوان التنوع والاختلاف ..؟ !

ووقفة واحدة عند الجبال المتباينة المتداخلة الألوان تذهل الإنسان عجباً ! يا لله ! ما هذه الدقة العجيبة في التلوين ؟ و كيف تأتّى للصخرة الواحدة أن تتداخل فيها الألوان وتتباين بهذه الصورة ؟ وهل هي صخور تلك أم معارض ألوان ؟ ! وإنها لهكذا منذ ملايين السنين بوقفتها الشامخة هذه وتعدد ألوانها .. حتى من قبل أن يوجد الإنسان !

ووقفة واحدة عند ألوان البشر المختلفة ، وألوان الدواب والأنعام المختلفة ، حرية بأن تثير العجب والدهشة في قلب الإنسان : هذا الأصفر والأحمر والأبيض والأسود والأسمر .. كلهم بشر ! كلهم من نوع واحد ! ويلتقون بألوانهم المختلفة هذه فيأخذك التقاؤهم وتنوعهم في آن ! كلهم بشر .. تلك نقطة الالتقاء .. وبعد ذلك كل منهم عالمٌ وحده ! تماماً كالجبال التي منها جدد بيض وحمر وغرابيب سود .. وكالثمرات المختلفة الألوان .. وكذلك عالم الدواب والأنعام .

ألا إنه للإعجاز في الخلق .. ألا إنها للقدرة القادرة التي تبدع على غير مثال ..

ولقد كان الوجدان البشري حرياً ألا يتبلد على هذه المعجزة أبداً ! فهي ـ وحدها ـ

لو ظل الإنسان حياته كلها يتأملها ، لملأت حياته كلها تأملاً وعجباً .. ثم لا ينفد العجب والتأمل ولو نفدت الحياة !

ولكن البشر مع الأسف يمرون على هذه الظاهرة المذهلة متبلدين .. بل إنهم كذلك ليكفرون !

« إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ » !

إنهم هم الذين تنفعل وجداناتهم بهذه الظاهرة المعجزة ، فيتلقونها بكل شحنتها ، ويدركون دلالتها : إنه الله الخالق المبدع المصور .. فتخشع قلوبهم لذلك الإله القادر ، ويخشونه كما ينبغي لجلاله وعظمته .. فيغفر الله لهم وهو العزيز القادر :

« إن الله عزيز غفور » ..

وقبل أن نمضي مع السياق في الحديث المفصل عن أولئك الذين يخشون ربهم ، نقف وقفتين مع هذه المجموعة من الآيات :

إن المقصود هو لفت الحس البشري إلى ظاهرة التنوع في الخلق ، التي يتبلد عليها الحس بحكم الإلف والعادة .. ولكن السياق لا يكتفي بلفت النظر ـ بالحديث المباشر ـ إلى ظاهرة التنوع هذه ، وإنما يلفت النظر إليها عن طريق أسلوب التعبير ذاته بطريقة معجبة ومعجزة في آن ! اقرأ الآيتين مرة أخرى ثم قف عند هذه الظاهرة اللغوية :

« مختلفاً ألوانها » .

« مختلفٌ ألوانها » .

« مختلفٌ ألوانه » .

أرأيت ؟! إن الاختلاف والتنوع يُعَبّر عنه بتنويع العبارة اللغوية الواحدة ثلاث مرات ، مع كل نوع من أنواع الخلق الثلاثة : الجماد والنبات والحيوان ! وهي عبارة واحدة في معناها العام ، ولكنها تأخذ شكلاً ـ إعرابياً ـ جديداً في كل مرة ، كما أن النبات كله واحد في المعنى العام ، ويختلف لونه في كل مرة ، والجبال كلها واحد في المعنى العام ، ويختلف لونها في كل مرة ، والناس والدواب والأنعام كل منها واحد في المعنى العام ، وتتخذ شكلاً مختلفاً في كل مرة !

أرأيت إلى الإبداع في التعبير ؟ ألا إنه الإعجاز !

والوقفة الثانية عند كلمة « العلماء » : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » ..

فمن كثرة تداولنا لكلمة العلم والعلماء في عصرنا الحاضر ، يخطر في بالنا ـ بلا تدبر ـ أن المقصود هم العلماء بمعنى رجال العلوم .. من أطباء ومهندسين وعلماء حياة .. الخ خاصة وأن الظاهرة المذكورة هنا هي من الظواهر « العلمية » التي يشتغل بها أولئك «العلماء».

ثم ننظر حولنا في الجاهلية المعاصرة فنرى الكثرة الغالبة من هؤلاء أقرب إلى الإلحاد والكفر منهم إلى الإيمان !

فينبغي أولاً أن نرجع إلى دلالة التعبير القرآني ..

العلماء هم « الذين يعلمون » وهم « أولو الألباب » الذين وصفهم القرآن في أكثر من موضع ، ومن أقربها ــ في دراستنا هذه ــ سورة الرعد :

« أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ؟ إنما يتذكر أولو الألباب ، الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق . والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة . أولئك لهم عقبى الدار »[1] .

هؤلاء هم « العلماء » الذين يقصدهم القرآن ، ويصفهم هنا بأنهم هم ــ من بين عباد الله ــ الذين يخشون الله .

بل إن السياق هنا ليصفهم في الآية التالية مباشرة : « إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور » .. فهؤلاء هم العلماء وتلك صفاتهم أو أعمالهم التي تعطيهم صفة العلماء ..

حقيقة إن من نسميهم في اصطلاحنا الحاضر « علماء » بمعنى رجال العلوم هم أحرى أن يدركوا عظمة الخلق وإعجازه .. ولقد آمن بعض هؤلاء بالفعل ــ بعد إلحاد ــ لما تكشف لهم في بحوثهم العلمية أن هذه المعجزات الدقيقة في بناء الذرة أو الخلية الحية لا يمكن أن تحدث اتفاقاً ، وأنه لا بد لها من موجد عظيم القدرة دقيق العلم ..

هذا كله حقيقة .. ولكن يظل للتعبير القرآني دلالته القرآنية .. ويظل معنى « العلماء » أي الذين يعلمون حقيقة الألوهية على المنهج الإيماني .. فتتحول المعرفة عندهم إلى مشاعر وجدانية وسلوك عملي .. ويمكن أن يدخل في مفهومها رجال العلم هؤلاء ، إذا تفتحت بصيرتهم لقدرة الله المعجزة فعلموا من حقيقة الألوهية ما يجعلهم أشد خشية لله وأشد امتثالاً لأمره .. وبهذه الصفة وحدها يصبحون « علماء » لا بتخصصاتهم العلمية التي تزيغ قلوب أكثرهم بدلاً من أن تردها إلى الله ، لأن القاعدة الجاهلية التي يقيمون عليها حياتهم تجعلهم أكثر بعداً من الله كلما تعلموا شيئاً جديداً من كون الله ! !

ونعود إلى السياق يفصل أحوال « العلماء » الذين هم من بين عباد الله أكثرهم خشية لله :

« إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور ، ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ، إنه غفور شكور . والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقاً لما بين يديه . إن الله بعباده لخبير بصير . ثم أورثنا

---

(١) سورة الرعد [١٩ – ٢٢] .

الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله . ذلك هو الفضل الكبير : جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير . وقالوا : الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ، الذي أحلنا دار المقامة من فضله ، لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب».

« إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور » ..

الذين يتلون كتاب الله فيتدبرونه ، فينتج من هذا التدبر عمل سلوكي محسوس ، فيقيمون الصلاة وينفقون مما رزقهم الله سراً وعلانية .. أولئك يرجون عند ربهم تجارة رابحة أبداً .. « لن » تبور ، لأن الله هو الذي ضمنها وضمن ربحها :

« ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله . إنه غفور شكور » .

إنه إله كريم يجزي الحسنة بعشر أمثالها : « ويزيدهم من فضله » ثم إنه إله غفور ، يتجاوز عن السيئات ويغفر صغائر الذنوب ، ويغفر كبائرها كذلك لمن يتوب عنها .. وهو كذلك إله شكور ! والشكر بطبيعة الحال ليس ذا صورة واحدة عند العبد والرب ! فالشكر من الله هو الجزاء الحسن الذي يجزي به عبده المؤمن الصالح .. ولكن اللفظ يلقي ظله في النفس مع ذلك ! ولله المثل الأعلى ..

وهذا « الكتاب » الذي يتلوه عباد الله الصالحون هو الحق الموحى من عند الله ، المصدق لما نزل من قبله من الكتب ، نزله الله لمهمة معينة في حياة البشر .. فهو خبير بعباده ، بصير بأحوالهم ، يعلم ما يصلح لهم ويصلحهم ، ويعلم أنهم في حاجة إلى هذا الكتاب لينير لهم سبيلهم .. فأنزله عليهم :

« والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقاً لما بين يديه . إن الله بعباده لخبير بصير » .

ولقد اختار الله هذه الأمة ـ لحكمة يعلمها ـ لتكون هي الوارثة « للكتاب » .. والكتاب هنا بمعناه العام ، أي « الكتاب المنزل من عند الله » وبهذا المعنى يكون اليهود قد تلقوا « الكتاب » من قبل ، ثم ورث النصارى « الكتاب » والآن ترثه هذه الأمة :

« ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ... » .

وإذا كان الظلم هنا بمعنى الكفر ، فهذا التقسيم الثلاثي يماثل ما جاء في سورة الواقعة : « وكنتم أزواجاً ثلاثة ، فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة ، والسابقون السابقون ، أولئك المقربون »[1] فيكون الظالمون هم أصحاب المشأمة ،

(١) سورة الواقعة [٧ – ١١] .

والمقتصدون هم أصحاب الميمنة ، والسابقون هم السابقون ..

أما إذا كان هذا تقسيماً ثلاثياً داخل دائرة المؤمنين فيكون هذا تقسيماً انفردت به هذه السورة ، ويكون الظالمون هم العصاة الذين زادت سيئاتهم على حسناتهم ، والمقتصدون هم الذين لهم سيئات ولكن حسناتهم غطت عليها ، أما السابقون بالخيرات فأولئك الذين استقاموا على الطريق بفضل الله :

« ... ذلك هو الفضل الكبير . جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير . وقالوا : الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ، الذي أحلنا دار المقامة من فضله ، لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب».

وواضح أن النعيم هنا حسي ومعنوي في ذات الوقت . ففيه أساور الذهب واللؤلؤ والحرير ، وفيه الشعور بنعمة الله وفضله إذ أذهب عنهم الحزن ، وإذ أحلهم « دار المقامة » لا يمسهم فيها تعب كبير ولا صغير .. ومع اجتماع نوعي النعيم ، الحسي والمعنوي ، فإن الإنسان يلمح هنا أن النعيم المعنوي هو الأغلب ..

« وقالوا : الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن » .. إنهم يحسون بنعمة « إذهاب الحزن » وهي نعمة معنوية دون شك ، تطلق ألسنتهم بشكر الله على نعمائه « إن ربنا لغفور شكور » وفي قولهم « إن ربنا .. » تلمح إحساسهم بتلك الصلة الروحية بينهم وبين الله التي يتقربون بها إلى الله ويتحببون بها إليه .. بالإضافة إلى أنهم يصفون الله سبحانه وتعالى بنفس الصفات التي وصف بها نفسه من قبل : « ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ، إنه **غفور شكور** » وهذا التطابق في الوصف ملحوظ ومقصود ، فكأنما أهل الجنة أولئك يعرفون الله بذات الصفات التي يعرّف بها نفسه سبحانه ، وذلك من شدة صلتهم الروحية به .. ثم هم يمضون في تعداد نعم الله فيقولون : « الذي أحلنا دار المقامة من فضله » فتحس مرة أخرى بالنعيم الروحي ، فهم هنا فرحون مغتبطون بأن الله أحلهم « دار المقامة » وفي التسمية ذاتها إشعار بنعيم الروح .. فهنا الإقامة الدائمة الهنية الرضية التي لا يمسهم فيها نصب ولا أبسط التعب وهو اللغوب !

وفي الجانب الآخر من هذا المتاع الحسي والروحي الشامل الغامر الرضيّ الهنيّ .. نجد الكفار « يصطرخون » في نار جهنم :

« والذين كفروا لهم نار جهنم ، لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ، كذلك نجزي كل كفور . وهم يصطرخون فيها : ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل !.. » .

إنه عذاب حسي ومعنوي في ذات الوقت ، في مقابل المتاع الحسي والمعنوي هناك ..

فهذه « نار جهنم » .. عذاب حسي . ولكنْ في داخله كذلك عذاب معنوي « لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها » .. ثم هم « يصطرخون فيها » ..

والاصطراخ يوحي بمعنى أكبر من الصراخ ذاته ! فهم يصرخون ثم تتداخل أصوات صراخهم ويختلط بعضها ببعض ، وذلك أنكى ، وأوجع .. فهم ليسوا في حالة يستطيعون فيها تنظيم أصواتهم !

ويأتيهم الرد في النهاية .. ولكنه لا يأتي سريعاً .. لأن « الاصطراخ » معناه أنهم صرخوا وصرخوا وصرخوا دون أن يتلقوا إجابة على صراخهم .. وفي هذا إهمال لهم وهو عذاب معنوي بجانب العذاب الحسي .. فإذا أتاهم الرد في النهاية فهل هو استجابة لطلبهم الذي طلبوه : « ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل ! » ؟ كلا ! إنه رد لا يقل تعذيباً عن العذاب الحسي :

« .. أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ؟ وجاءكم النذير ؟! فذوقوا فما للظالمين من نصير ! » .

ونتصور بخيالنا أن الجواب جاء مذهلاً ومسكتاً ! وأن الصراخ قد كف لحظة .. حتى يؤججه العذاب من جديد !

ومن هناك .. من مشهد العذاب يوم القيامة .. يحدثهم هنا في الدنيا ، كأنه تتمة الحديث هناك !

« إن الله عالم غيب السماوات والأرض ، إنه عليم بذات الصدور . هو الذي جعلكم خلائف في الأرض ، فمن كفر فعليه كفره . ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا ، ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا » .

إن من معجزات التعبير القرآني هذا الوصل بين عالم الدنيا وعالم الآخرة في سياق واحد ، لإحداث تأثير معين في نفوس السامعين . فقد كان منذ هنيهة يصف حال الكفار وهم يصطرخون في نار جهنم ، يطلبون الخروج منها ويتعهدون بألا يعودوا لما كانوا يفعلون من قبل ، فيجيئهم الرد بالتبكيت والتيئيس الكامل : لقد أضعتم فرصتكم ! مددنا لكم في أعماركم بالقدر الذي يكفي للتذكر والتدبر ، وجاءكم نذير ينذركم فكذبتموه .. « فذوقوا ! فما للظالمين من نصير ! » ثم يستمر الحديث يحدثهم هنا في الدنيا .. هم هم الذين أورد وصفهم في جهنم من قبل لحظات ! لكأنما يرفع أمامهم مرآة عجيبة الصنع ، تريهم صور أنفسهم في ذلك المستقبل البعيد ، فيرون أنفسهم في نار جهنم يصطرخون ويرد عليهم بذلك الرد الموجع .. ثم ينزل المرآة فجأة ليحدثهم عن واقعهم الحاضر ، ولكن بعد أن يكون وجدانهم قد اهتز بما رأوه في المرآة من قبل ، فيتلقون الكلام بهزة الانفعال :

« إن الله عالم غيب السماوات والأرض ، إنه عليم بذات الصدور » فهو يعلم ما في قلوبكم ، وبمقتضى علمه ذلك يحكم عليكم الحكم الأخير يوم القيامة . « هو الذي جعلكم خلائف في الأرض » استخلفكم بعد قوم آخرين ، وأعطاكم فرصتكم في الحياة

والعمل .. « فمن كفر فعليه كفره » .. من اختار الكفر فعليه مغبة اختياره .. « ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا ، ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا » .. وقد رأوا منذ هنيهة عاقبة الكفر وتأكدوا من مقت الله وغضبه ومن الخسران الذي يعانيه أهل النار .. ثم يخاطبهم مرة أخيرة ، بعد أن هز وجدانهم بمنظرهم في نار جهنم ، وبالانذار بالخسارة والمقت :

« قل : أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله ! أروني ماذا خلقوا من الأرض ! أم لهم شرك في السماوات ؟! أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه ؟! بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غرورا » !

« قل : أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله ؟ » .

أرأيتم ماذا هم ؟ أرأيتم ما هي حقيقتهم ؟ أرأيتم ماذا في طوقهم ، وماذا يملكون من نفع أو ضر لكم ؟

« أروني ماذا خلقوا من الأرض » ..

هذه هي الأرض أمامكم ، جوبوها كلها بحثاً عن شيء واحد خلقه أولئك الشركاء !

« أم لهم شرك في السماوات » ؟!

وما كان العرب المشركون يزعمون أن أولئك الشركاء قد خلقوا مع الله شيئاً في السماوات ولا في الأرض .. فالسؤال ليس مقصوداً بمعناه .. إنما هو سؤال للسخرية بأفهامهم ، ولإيقاظهم للحقيقة التي يغفل عنها حسهم .. فما داموا يعرفون أن الشركاء لم يخلقوا مع الله شيئاً ، أفلا يدعوهم ذلك إلى نبذ هذا الشرك المضحك وإفراد الله بالألوهية ؟

« أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه ؟! » .

وذلك استمرار في السخرية بهم .. فهم يعرفون أنه لم ينزل عليهم كتاب من قبل ! إنما يوقظهم إلى أن أي قول يقوله البشر في أمر الألوهية ينبغي أن يكون مستنداً إلى كتاب منزل ، وأنه ليس للبشر أن يخبطوا في هذا الأمر من تلقاء أنفسهم فيضلوا ..

« بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غرورا ! » .

تلك هي الحقيقة النهائية للأمر ! إن الظالمين يتخبطون ، ويمنون أنفسهم بالأماني الفارغة : أنهم هم الذين على الحق ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم هو « الصابئ » عن الحق ! !

ثم يثني السياق بآية من آيات الله المعجزة .. ولكنها تحمل نذيراً خفياً في طياتها !

« إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا . ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده . إنه كان حليماً غفورا » .

إنها آية لمن يريد الآية المعجزة ، ويعلق إيمانه عليها ! آية يغفل عنها الحس المتبلد بسبب العادة والإلف .. يرى السماوات والأرض قائمة كل صباح وكل مساء ، فيحسب

ذلك « من طبائع الأشياء ! » ويرده إلى أسباب ظاهرة من « قوى الطبيعة ! » أو يغفل عنه نهائياً فلا يحس دلالته على الإطلاق ! ولكنها آية ككل آيات الله المعجزة .. فما الذي يحفظ السماوات والأرض ويعطيهما « استمرار الوجود » إلا مشيئة الله وقدره وقدرته ؟! ولئن زالتا ـ بمشيئة الله وقدره وقدرته ـ فمن ذا الذي يملك في هذا الكون كله أن يبقيهما وقد أزالهما الله ؟!

ألا يذكرك ذلك بالآية في مطلع السورة : « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ؟ وهو العزيز الحكيم » ؟ بلى ! إنه نفس الجو في مبدإ السورة وفي ختامها !

وفي الآية كما قلنا إنذار خفي ، بأن الله يملك ـ إذا شاء ـ أن يزيل السماوات والأرض بمن عليها ، من أولئك الكفار المكذبين . ثم إشعار برحمة الله وحلمه عليهم إذ لم يفعل ! « إنه كان حليماً غفورا » .

* * *

ثم يختتم السياق بحديث أخير عن أولئك المكذبين يأتي معه النذير الأخير :

« وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ! فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا : استكباراً في الأرض ومكر السيّئ ، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله . فهل ينظرون إلا سنة الأولين ؟ فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنّة الله تحويلا . أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة ؟! وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض ، إنه كان عليماً قديرا . ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى . فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا » .

لقد أقسموا بالله جهد أيمانهم من قبل لئن بعث فيهم نبي ليكونن أهدى من اليهود الذين عصوا رسولهم موسى عليه السلام ، وعاندوه ، وخرجوا على طاعته .. ثم عاشوا ما عاشوا يعصون الله ورسوله ..

كانت أمنية يتمنونها للتباهي على اليهود فحسب ! فلما جاءهم النذير الذي تمنوه ما زادهم إلا نفورا ؛ استكبروا على الإيمان ، وكذبوا الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومكروا المكر السيئ بالتكاتف على الكفر والتكذيب وتعذيب المؤمنين واضطهادهم وإيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم بكل وسائل الإيذاء ! فماذا ينتظرون من وراء ذلك ؟ إن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله ، فينقلب عليهم في النهاية بالدمار والخسران .. كذلك مضت سنة الأولين ، ودمر الله على المكذبين لكل رسول أرسله من قبل . وهي سنّة جارية لا تتبدل ولا تتحول .. لأن سنّة الله هكذا ، ليس من شأنها التبديل أو التحويل .. أو لم يسيروا في

الأرض فينظروا كيف كان عاقبة قوم صالح وقوم هود وقوم لوط وقوم شعيب .. وغيرهم وغيرهم .. وقد كان هؤلاء أقرب الناس إليهم في جزيرة العرب ، وهم يمرون عليهم في سفرهم صباح مساء .. أو لا يرون أن أولئك الأقوام : عاد وثمود وغيرهم كانوا أشد منهم قوة ؟ فإذا كان الأقوياء قد أهلكوا ، فما بالهم هم ؟! هل يستعصون هم على الهلاك ؟ « وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض » فضلاً عن أن يعجزه أولئك الحفنة من المكذبين ! « إنه كان عليماً قديرا » وقد مر من آيات علمه وقدرته ما مر في السورة .. ومن كان هذا شأنه من العلم والقدرة فلن يغلبه شرذمة من كفار قريش !

وإنهم ليستعجلون بالعذاب ! ويتحدون الرسول صلى الله عليه وسلم إن كان صادقاً أن ينزل عليهم حجارة من السماء ! « وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ! »[1] « ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات .. »[2] .

فهنا يقول لهم : « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ! ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى . فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا » .

كما قال لهم في سورة النحل : « ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ! ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى . فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون»[3].

وفي الحالتين أدخلهم في زمرة الدواب ! وإن كان اللفظ ـ لغوياً ـ يشمل كل ما دب على الأرض ، بما في ذلك الإنسان ! ولكن العرف جرى على استعمال « الدواب » للحيوان .. فهنا يدخلهم في زمرة الحيوان لإصرارهم على الكفر والتكذيب ..

وهذه هي النهاية للمكذبين ، الذين يصرون على التكذيب بعد ذلك البيان المفصل المعجز المبين !

* * *

تلك نماذج ثلاثة من السور المكية .. يتبين منها :

أولاً : كيف أن لكل سورة جواً خاصاً وتخصصاً معيناً .. رغم تشابه العرض أحياناً ورغم وحدة الموضوع ..

ثانياً : كيف أن كل سورة هي وحدة متكاملة مترابطة في سياق واحد متصل من بدئها إلى نهايتها مهما حوت من موضوعات ..

---

(١) سورة الأنفال [٣٢] .

(٢) سورة الرعد [٦] .

(٣) سورة النحل [٦١] .

ثالثاً : أن القرآن « على الطبيعة » ليس كذلك التقسيم العقلي المُعَنْوَن الذي قدمناه في أول الكتاب ، وقلنا مراراً إننا نصنعه لضرورة البحث .. وإنما هو كيان حيّ مترابط ، حيويته في نسقه الخاص ، الذي يمتزج فيه البشير بالنذير ، بمشاهد القيامة ، بالحياة الدنيا ، بمشاهد الكون ، بصفات الألوهية والربوبية ، بأحوال المؤمنين والمكذبين .. الخ .. الخ .. وأن القرآن ينبغي أن يقرأ هكذا « على الطبيعة » ليعطي تأثيره الحقيقي .. وإن كنا نحتاج بين الحين والحين ـ لضرورة البحث والتوضيح ـ أن نضع التقاسيم ونصنع العناوين !

ظاهرة التكرار في القرآن

من الظواهر التي تلفت النظر في القرآن ظاهرة التكرار . وقد تكون أشد وضوحاً في السور المكية منها في السور المدنية . ولكن السور المدنية كذلك لا تخلو من التكرار .

وقد تحدث « الذين لا يعلمون » من المستشرقين وتلامذتهم من « المثقفين » في هذه الظاهرة ما شاء لهم الحديث .

وحين ننظر إلى القرآن على أنه كتاب التربية لهذه الأمة ، وللبشرية كلها التي ينبغي أن تدخل في دين الله ، تزول عنا غرابة هذه الظاهرة ، وتصبح بعض حكمتها على الأقل مفهومة لدينا .

إن التربية ليست قولة تقال مرة وتنتهي !

وكل من مارس التربية مع صغير أو كبير يعلم إلى أي مدى يحتاج من يتلقى التربية إلى « التذكير » الدائم حتى يستقيم على الأمر المطلوب . ومن ثم يستطيع أن يقدر الهدف التربوي من عملية التكرار في القرآن :

« وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » [1] .

« إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد » [2] .

« الٓمٓصٓ . كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين » [3] .

« فذكر إن نفعت الذكرى ، سيذّكر من يخشى » [4] .

وهكذا يتضح أن التكرار لا يأتي اعتباطاً ، إنما يأتي لهدف مقصود .

أضف إلى ذلك أن القرآن قد نزل على مدى ثلاثة وعشرين عاماً متطاولة ، فكان المدى بعيداً بين نزول الآية وشبيهتها إلى حدٍّ قد يبلغ عدة سنوات .

---

(١) سورة الذاريات [٥٥] .
(٢) سورة قٓ [٣٧] .
(٣) سورة الأعراف [١ – ٢] .
(٤) سورة الأعلى [٩ – ١٠] .

ولكن الذي نريد الإشارة إليه هنا هو أننا حتى حين نتلوه مجمّعاً على صورته في المصحف ، وحتى حين نتلوه متقارباً لا يفصل زمن كبير بين الآية وشبيهتها ، فإننا لا نجد فيه تكراراً حقيقياً بالمعنى المفهوم من اللفظ ، إنما نجد ظاهرة أخرى في الحقيقة تستحق منا النظر من حيث هي جمال فنيّ في التعبير ، ومن حيث هي لون من التأثير الوجداني فريد.

* * *

قليل جداً من الآيات أو من العبارات هي التي وردت بنصها أكثر من مرة في القرآن ، لأمر مقصود .

جاءت هذه الآية في موضعين من القرآن ، في سورة التوبة [آية ٧٣] وفي سورة التحريم [آية ٩] للتذكير وشحذ الهمة لمقاتلة الكفار والمنافقين :

« يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ، ومأواهم جهنم وبئس المصير » .

وجاءت حكاية قول الكفار : « ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » في أكثر من موضع : في سورة النمل [٧١] وفي سورة يس [٤٨] وفي سورة الملك [٢٥] كما جاءت في صيغة أخرى في سورة السجدة [٢٨] : « ويقولون متى هذه الفتح إن كنتم صادقين » .

كما جاءت حكاية قولهم كذلك في طلب الآية في أكثر من موضع : « ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه » أو : « لولا نزّل عليه آية من ربه » أو : « وقال الذين كفروا ... » .

والمقصود من هذا التكرار الإشعار بأنهم يكثرون من ترديد هذه الأقوال ويلحون في التحدّي وفي طلب الآية ..

وفيما عدا هذا القليل النادر الذي يكرر بلفظه لهدف مقصود ، نجد أن الظاهرة الحقيقية ليست هي « التكرار » وإنما هي « التنويع » !

* * *

ولبيان هذه الظاهرة نحتاج أن نتحدث قليلاً في « اللفظ » و« المعنى » و« الموضوع » و« الأسلوب » .

إن أي محاولة لتصور اللفظ منفصلاً عن المعنى ، أو المعنى منفصلاً عن الأسلوب هي محاولة خاطئة منذ البدء . ولقد تقتضينا ضرورات البحث العلمي أن نتحدث عن الأمور في هذه الصورة المجزأة المنفصلة الأجزاء . أما في عالم الواقع فلا يمكن أن يوجد هذا التجزّؤ ولا ذلك الانفصال .

ولتوضيح الأمر نضرب مثالاً من وجه الإنسان .

إن كل وجه بشري مكون من عينين وشفتين وأنف وأذنين .. الخ . فإذا كان هذا

« الموضوع » بالنسبة للوجه ، فإن « الأسلوب » هو اجتماع هذه الأعضاء على نحو معين من التناسق يعطيها « شكلاً » معيناً ذا ملامح محددة . فهل يمكن في أية لحظة أن نتصور وجه فلان من الناس على أنه مجرد عينين وشفتين وأنف وأذنين .. الخ ، أم نتصوره دائماً على أنه تلك « الملامح » الناشئة من اجتماع هذه الأعضاء على النحو المعين ، حتى وإن تحدثنا أحياناً عن صفات خاصة بكل عضو من الأعضاء ؟

وكذلك الأمر في التعبير بالألفاظ . المعاني المجردة ـ أي المعاني الذهنية لكل لفظ بمفرده أو لمجموع العبارة ـ هي الأعضاء أو العناصر التي يتكون منها من الموضوع . ولكنها ـ مجردةً ـ ليست هي التي تعطينا المعنى المقصود في الحقيقة ، أو ليست هي التي تعطينا « التأثير » الحقيقي . إنما الذي يعطي المعنى الحقيقي أو « التأثير » هو اجتماع هذه المعاني على نحو معين من التناسق يعطيها ملامح محددة .

وإذا كان الأمر كذلك في الكلام بصفة عامة فهو كذلك في القرآن بصورة أدق .. وخاصة حين نتحدث عن ظاهرة التكرار في القرآن .

ففيما عدا النصوص النادرة التي أشرنا إليها لا يوجد نصان **متماثلان** في القرآن كله ! إنما يوجد **تشابه فقط دون تماثل** . تشابه كذلك الذي قد يوجد بين الإخوة أو الأقارب ، ولكنه ليس **تكراراً** بحال من الأحوال . إنه مثل ثمار الجنة : « لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا : هذا الذي رزقنا من قبل ! وأتوا به متشابهاً »[1] . فهم حين يتناولون الثمرة لأول وهلة يقولون : هذا الذي رزقنا من قبل ! فإذا تذوقوه عرفوا أنه مختلف عنه ، يشبهه ولكنه لا يماثله ! ومن ثم يعيشون في مذاقات متجددة على الدوام وإن بدت لأول وهلة مكررة .

وكذلك الحياة مع القرآن . إنها تعطي مذاقات متجددة على الدوام وإن بدت لأول وهلة مكررة .. وذلك في حدود ظاهرة التكرار التي نتناولها في هذا الفصل ، ولسنا نتحدث بشيء هنا عن المذاقات المتجددة التي يجدها الإنسان مع **المعنى الواحد** كلما فتح الله عليه بإحساس جديد أو تصور جديد ، أو قبس من النور العلوي جديد .. فذلك أمر آخر لا ينتهي ولا ينفد ما دامت الحياة !

* * *

أكثر الموضوعات تكراراً وتنوعاً في ذات الوقت هي موضوعات العقيدة بمفرداتها الستة التي ذكرناها في أول الكتاب : الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، والملائكة والكتاب والنبيين والقدر خيره وشره ، وقصص الأنبياء ، وقصة آدم والشيطان ، وأخلاقيات الإيمان .

---

(١) سورة البقرة [٢٥] .

وذلك في السور المكية والمدنية على السواء[1] . أما في السور المدنية خاصة فالموضوع المتكرر ـ إلى جانب العقيدة ـ هو موضوع الجهاد في سبيل الله ، وكل ما يدور حوله من جميع نواحيه . أما التشريعات فهي بطبيعتها لا تحتاج إلى تكرار ، ويكفي الأمر بها مرة واحدة . إنما الذي كان في حاجة إلى تكرار الحديث فيه هو وجوب الطاعة لله . وقد تم ذلك في فترة التربية في مكة حتى استقرت قاعدته تماماً ، ولم يعد الأمر في حاجة إلا لأن يعرف المؤمنون ماذا أَمَرَ ربهم فيستجيبون .. مع التذكير الخفيف بين الحين والحين[2] .

ولا يحتاج الأمر ـ ولا يتسع المجال هنا كذلك ـ لبسط أمثلة لكل موضوع من موضوعات القرآن التي يتكرر ذكرها ، لنتبين كيف تعرض في كل مرة بصورة جديدة وإن اتحد الموضوع .

إنما نكتفي أولاً بتقرير هذه القاعدة العامة : أن كل سورة من سور القرآن على إطلاقها لها شخصيتها المتميزة وجوّها الخاص . وكل نص من نصوص القرآن ـ وإن بدا متشابهاً ـ فإنه يأخذ جو السورة التي يرد فيها ، ومن ثم تكون له ملامحه الخاصة في كل مرة .

أحياناً تتقدم كلمة أو تتأخر كلمة ! [بذاتها أو مع تغيير في ملامحها] :

« وعد الله الذين آمنوا **منكم** وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض .... »[3] .

« وعدا الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات **منهم** مغفرة وأجراً عظيما »[4] .

أحياناً يتغير حرف واحد !

« .. وترى الفلك **مواخر فيه ولتبتغوا** من فضله ولعلكم تشكرون »[5] .

« .. وترى الفلك **فيه مواخر لتبتغوا** من فضله ولعلكم تشكرون »[6] .

المهم ألا تجيء الملامح ذاتها مرتين ! إنما يحدث في كل مرة نوع من التغيير !

فإذا اتضحت لنا هذه القاعدة العامة فلنجتزئ بعد ذلك ببعض النماذج من القصة ، ومن آيات الله في الكون ، ومن مشاهد القيامة ، تزيد الأمر في حسِّنا وضوحاً .

* * *

في سورة الأعراف وسورة هود وسورة الشعراء ترد مجموعة من القصص مكررة الموضوع ، هي قصص نوح وهود وصالح وشعيب مع أقوامهم المكذبين . وذات القصة

---

(١) قلنا من قبل إن حديث العقيدة لا ينقطع في السور المدنية .

(٢) سنتحدث في الفصل التالي عن السور المدنية وموضوعاتها .

(٣) سورة النور [٥٥] .

(٤) سورة الفتح [٢٩] .

(٥) سورة النحل [١٤] .

(٦) سورة فاطر [١٢] .

ـ بالنسبة لكل واحد من هؤلاء الأنبياء ـ ترد في كل من السور الثلاث ، بما يوهم لأول وهلة أن هناك تكراراً في المفردات وفي المجموع . ونريد هنا أن ننظر في هذه المجموعات من القصص من زاويتين :

أولاً : طريقة التنويع في عرض المجموعة المتشابهة من القصص في كل سورة على حدتها ، مع إبراز التشابه ـ بل الوحدة ـ في موضوعها جميعاً .

ثانياً : طريقة التنويع في عرض القصة الواحدة من سورة إلى سورة باختلاف الجوّ الخاص بكل سورة .

فمن مقاصد إيراد هذا اللون من القصص كما أسلفنا من قبل إبراز حقيقة معينة ، هي أن كل الرسل قد جاءوا بكلمة واحدة من عند الله : لا إله إلا الله . وبقضية واحدة يبلغونها للناس : اعبدوا الله ما لكم من إله غيره .

ومن مقاصده كذلك إبراز حقيقة أخرى : أن كل الأقوام قد كذبت رسلها ولم تستجب لما بلغها به الرسل من عند الله .

ومن مقاصده أيضاً بيان أن الله نجّى رسله في النهاية مع الذين آمنوا معهم ، ودمر على المكذبين .

فكيف تأتي هذه المعاني كلها في القصص القرآني ؟

نجد في السور الثلاث التي أشرنا إليها نسقاً معيناً يجري فيها جميعاً هو توحيد الكلمة التي ينطق بها النبي المرسل إلى قومه . ففي سورة الأعراف وسورة هود نجد كل نبيّ ينطق بهذه العبارة : « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » . أما في سورة الشعراء فتجيء هذه العبارة المكررة على لسان كل رسول : « .. إني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر ، إن أجريَ إلا على رب العالمين » .

وهنا نجد أن تكرار النص على لسان كل رسول أمر مقصود لذاته ، لإبراز ذلك المعنى الذي أشرنا إليه ، وهو أن كل الرسل قد جاءوا بكلمة واحدة وقضية واحدة ، وأن دين الله واحد على مدار الأجيال ، وإن اختلفت الأقوام في المكان والزمان والأحوال .

ولكن التنويع أمر مقصود كذلك ! لأن منزل هذا الكتاب سبحانه يعلم طبيعة المخلوق البشري ، ورغبته في التنويع !

ومن ثم تجمع القصة بين التكرار المطلوب والتنويع المرغوب ، فتوحد الصيغة التي ينطق بها الرسول وتنوع ما يأتي بعدها من الحديث !

خذ سورة الأعراف :

« لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه **فقال** : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . **إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم** »[٥٩] .

« وإلى عاد أخاهم هودا **قال** : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، **أفلا تتقون ؟** » [٦٥] .

« وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، **قد جاءتكم بينة من ربكم : هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم** » [٧٣] .

« وإلى مدين أخاهم شعيباً قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم . **فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ، ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين** »[٨٥] .

فتتوحد الدعوة في كل مرة ويختلف الأسلوب !

وكذلك الأمر في رد « الملأ » على كل رسول :

فمع نوح : « قال الملأ من قومه : إنا لنراك في ضلال مبين » [٦٠] .

ومع هود : «قال الملأ **الذين كفروا** من قومه : إنا لنراك **في سفاهة** وإنا لنظنك من الكاذبين » [٦٦] .

ومع صالح : « قال الملأ **الذين استكبروا** من قومه للذين استضعفوا ، لمن آمن منهم : **أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه !** » [٧٥] .

ومع شعيب : « قال الملأ الذين استكبروا من قومه : لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا » [٨٨] .

فيتوحد موقف التكذيب في كل مرة ويتنوع أسلوب التكذيب !

وكذلك في التعقيب على كل قصة :

فمع نوح : « فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ، إنهم كانوا قوماً عمين » [٦٤] .

ومع هود : « فأنجيناه والذين معه **برحمة منا ، وقطعنا دابر** الذين كذبوا بآياتنا **وما كانوا مؤمنين** » [٧٢] .

ومع صالح : « فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين . فتولى عنهم وقال : يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين » [٧٨ – ٧٩] .

ومع شعيب : « فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين . **الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها . الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين** . فتولى عنهم وقال : يا قوم لقد أبلغتكم **رسالات** ربي ونصحت لكم ، **فكيف آسى على قوم كافرين ؟** » [٩١–٩٣] .

فيتوحد التدمير في كل مرة ، ويتنوع الأسلوب !

ومثل هذا تجده في سورة هود وفي سورة الشعراء .

غير أن هناك تنويعاً آخر بين السور الثلاث أدق وألطف !

فمع أن القصص هي هي في السور الثلاث ، بما يبدو منه لأول وهلة أنها **مكررة** فيها جميعاً ، إلا أنها تجيء في كل مرة بصيغة مختلفة تماماً ـ في مجموعها ـ عن صورتها في كل من السورتين الأخريين . ذلك أن كل سورة تركز على جانب معين ، وتعرض ذات القصة لهدف مختلف ! ومع أن التوحيد قائم في هيكل القصة في السور جميعاً : الرسول ـ كل رسول ـ يأتي بالكلمة الواحدة والقضية الواحدة ، والملأ ـ كل ملأ في كل جاهلية ـ يكذبون الرسول ويصدون عنه ويتوعدونه ، وفي النهاية ينجّي الله رسوله والذين آمنوا معه ويدمر على الكافرين .. مع وجود هذا التوحيد المقصود في هيكل القصة العام في السور الثلاث ، إلا أن « المقادير » المأخوذة من كل موضوع تختلف في كل سورة عن الأخرى باختلاف الهدف من إيرادها ، ونقطة التركيز فيها !

فقد جاء عن هدف إيراد القصص في سورة الأعراف قوله تعالى : « تلك القرى نقص عليك من أنبائها ، ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل ، كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين ، وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين » [١٠١ – ١٠٢] .

وجاء في سورة هود : « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ، فاصبر إن العاقبة للمتقين » [٤٩] .

وكذلك : « ذلك من أنباء القرى نقصه عليك ، منها قائم وحصيد . وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ، فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك ، وما زادوهم غير تتبيب . وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد » [١٠٠ – ١٠٢] .

وكذلك : « وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » [١٢٠] .

أما في سورة الشعراء فقد كان التركيز على « الآية » المتضمنة في كل قصة : « إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين » .

وتبعاً لاختلاف الهدف من إيراد القصة اختلف طولها « ومقاديرها » واختلفت كذلك ملامحها ، وإن كانت قصة واحدة في النهاية !

ففي الأعراف تأتي القصة مختصرة بالقياس إلى سورة هود ، ويأتي التركيز أكثر على دعوة الرسول ، فيفصّل الحديث فيها ، أما التكذيب فيأتي مجملاً . لأن المقصود في القصة أن المكذبين يصرون على تكذيبهم **مهما جاء به الرسول من بينات** . فتفصّل البينات التي يأتي بها الرسول ، ويعرض موقف التكذيب جامداً مصراً لا حركة فيه !

وفي هود ـ بالنسبة للأغراض المتعددة من إيراد القصة ـ تأتي القصة بتفصيل طويل ملحوظ [تستغرق مجموعة القصص أربع صفحات في سورة الأعراف ، وسبع صفحات

في سورة هود] لأن التفصيل أدعى إلى إثبات صحة الوحي : « ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا » . ويأتي التفصيل في دعوة الرسل وفي ردود أقوامهم عليهم سواء ، ويبدو الفارق الملحوظ بينها وبين سورة الأعراف في هذه النقطة ، لأن بيان طول المراء والمجادلة والصد والتكذيب في أقوام من سبق من الرسل أدعى إلى تثبيت قلب الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، حين يرون أن موقف قريش ليس بدعاً من الجاهليات السابقة : « وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » . ثم يأتي تركيز أشد على نهاية المكذبين ، أكثر تفصيلاً مما جاء في سورة الأعراف ، لأن ذلك أدعى إلى بيان أخذ ربك للقرى وهي ظالمة : « إن أخذه أليم شديد » .

أما في سورة الشعراء فتأتي القصة مختصرة غاية الاختصار [تستغرق ثلاث صفحات] ويمر السياق مراً سريعاً على تفصيلاتها ، في فقرات قصار كأنما هي وقفات سريعة عند المعالم البارزة فيها ، لأن المقصود في النهاية هو عرض « الآية » المتضمنة في كل قصة ، وليست تفصيلات القصة مطلوبة هنا ، لأنها لا تضيف كثيراً إلى « الآية » وإنما تكفي اللمسات السريعة القوية التأثير !

وقد كان يجزئنا في ذلك قصة نوح في السور الثلاث . فقد استغرقت في سورة الأعراف سبعة أسطر تحوي ستاً وسبعين كلمة ، واستغرقت في سورة هود صفحتين كاملتين وبضعة أسطر ! واستغرقت في سورة الشعراء عشرة أسطر تحوي واحدة وتسعين كلمة منها تسع وعشرون كلمة استغرقها النص المكرر الذي يأتي على لسان كل رسول ..

ولكنا نأخذ مثالاً واحداً آخر زيادة في البيان :

« وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ؟ قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين . قال : يا قوم ليس بي سفاهة ، ولكني رسول من رب العالمين ، أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين . أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ؟ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة ، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون . قالوا : أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ؟ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ! قال : قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب . أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزّل الله بها من سلطان ؟ فانتظروا إني معكم من المنتظرين ! فأنجيناه والذين معه برحمة منا ، وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين » [الأعراف : ٦٥ – ٧٢] .

« وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، إن أنتم إلا مفترون . يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجري إلا على الذي فطرني أفلا تعقلون ؟ ويا قوم

استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ، ولا تتولوا مجرمين . قالوا : يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين ! إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ! قال : إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه ، فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون . إني توكلت على الله ربي وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إن ربي على صراط مستقيم . فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ، ويستخلف ربي قوماً غيركم ولا تضرونه شيئاً ، إن ربي على كل شيء حفيظ . ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ . وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد . وأُتْبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة . ألا إن عاداً كفروا ربهم ، ألا بعداً لعاد قوم هود ! » [هود : ٥٠ — ٦٠] .

« كذبت عاد المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون ؟ إني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين . أتبنون بكل ريع آية تعبثون ؟ وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ؟ وإذا بطشتم بطشتم جبارين ؟ فاتقوا الله وأطيعون ، واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون ، أمدكم بأنعام وبنين ، وجنات وعيون ، إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قالوا : سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين ! إن هذا إلا خلق الأولين ! وما نحن بمعذبين ! فكذبوه فأهلكناهم ! إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك لهو العزيز الرحيم » [الشعراء : ١٢٣—١٤٠] .

وواضح ـ فيما أعتقد ـ كيف تختلف سمات القصة الواحدة وملامحها الذاتية ما بين سورة وسورة ، وإن كان الهيكل العام للقصة واحداً في السور الثلاث .. ولكن العبرة ليست بالهيكل العام ، إنما بطريقة السرد ، والهدف من السرد ، ومواطن التركيز !

* * *

وقصة موسى وفرعون ، أو قصة بني إسرائيل عامة ، من أكثر القصص تكراراً في القرآن كله . وكان ذلك لهدفين :

الأول : هو ذكر ما كان يلقى بنو إسرائيل من عذاب في ظل فرعون وصبرهم على العذاب الطويل الأمد .. تأسية للمسلمين في مكة ، حيث كانوا يلقون العذاب والاضطهاد من قريش .. فتكون قصة بني إسرائيل عزاء لهم أنهم ليسوا وحدهم في هذا العذاب والاضطهاد .

ويدخل في هذا الهدف كذلك ـ وإن كانت له سِمَتُه الخاصة ـ موقف السحرة حين آمنوا ، فهددهم فرعون بالتقتيل والتعذيب والصلب في جذوع النخل ، فاستعلوا بالإيمان ، وارتفعت أرواحهم فوق كل ما يملك فرعون من جبروت ، واستسلموا للمصير

البشع الذي هددهم به فرعون دون أن يفرطوا في عقيدتهم ، بل دون أن يداوروا بها ويداروها في داخل أنفسهم .. وإنما أعلنوها عالية ، وتحدوا بها كل سلطان الأرض الجائر ، رضاء بنعمة الإسلام ، وبما عند الله من جزاء .. وكان تكرار هذا المشهد للمسلمين في محنتهم مما يشجعهم على احتمال الأذى ، ويرتفع بأرواحهم فوق الكيد الذي تكيده قريش .. فيستعلون بالإيمان ، ويستعلون بالعقيدة ، مطمئنين إلى رضاء الله وجزاء الله ..

والثاني : هو أن بني إسرائيل هم الأمة التي قامت حياتها ــ قبل المسلمين ــ على كتاب منزل من عند الله .. ثم لم يستقيموا على الكتاب المنزل ! بل ظلوا ينحرفون عنه حتى كادوا يخرجون تماماً من ظله ! « **فخلف من بعدهم خَلْفٌ ورثوا الكتاب ، يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون : سيغفر لنا ! وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ! ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ، ودرسوا ما فيه ؟! والدار الآخرة خير للذين يتقون . أفلا تعقلون ؟!** »[1] .

لذلك كثر ورود قصة بني إسرائيل في العهد المكي ثم المدني كذلك ، تحذيراً للمؤمنين ــ الذين تقوم حياتهم على كتاب منزل من عند الله ــ أن ينحرفوا كما انحرف بنو إسرائيل ، ويتهاونوا في كتابهم لقاء عرض الحياة الدنيا كما تهاونت بنو إسرائيل !

لهذا وذاك ــ بالإضافة إلى الأهداف العامة للقصص القرآني ــ كان ورود قصة بني إسرائيل مكرراً في القرآن .. ومع ذلك فلا توجد صورة **مكررة** بمعنى التماثل مع أية صورة أخرى في أثناء هذا القصص المتكرر كله !

وربما كان أقرب « مقطعين » إلى التماثل هما المقطعان المتشابهان في سورة الأعراف وسورة الشعراء ، والمقطعان المتشابهان في سورة النمل وسورة القصص . وفضلاً على كون المقطعين المتشابهين في كل حالة يردان في تسلسل قصصي مختلف تماماً ، فإنهما هما في ذاتهما متشابهان فقط وليسا متماثلين ! لأن التماثل التام لا يحدث قط في القصص القرآني !

يبدأ التشابه في السرد ما بين سورة الأعراف وسورة الشعراء على هذا النحو :

« **فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ، ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين . قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون ؟ قالوا : أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين ، يأتوك بكل ساحر عليم . وجاء السحرة فرعون قالوا : إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ؟ قال : نعم ! وإنكم لمن المقربين . قالوا : يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين ، قال : ألقوا ! فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم . وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف**

---

(١) سورة الأعراف [١٦٩] .

ما يأفكون . فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون . فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين . وألقى السحرة ساجدين ، قالوا : آمنا برب العالمين ، رب موسى وهرون . قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم ؟ إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها ، فسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين . قالوا : إنا إلى ربنا منقلبون . وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا . ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين » [الأعراف : ١٠٧ – ١٢٦] .

« فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ، ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين . **قال للملأ حوله** : إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم **بسحره** فماذا تأمرون ؟ قالوا : أرجه وأخاه **وابعث** في المدائن حاشرين ، يأتوك بكل **سحار** عليم . فجمع السحرة لميقات يوم معلوم ، وقيل للناس : هل أنتم مجتمعون ، لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ! **فلما جاء** السحرة **قالوا لفرعون** : **أئن** لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ؟ قال : نعم ! وإنكم **إذن** لمن المقربين . **قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون** . فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون . **فألقى** موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون . **فألقي** السحرة ساجدين ، قالوا : آمنا برب العالمين ، رب موسى وهرون . قال : آمنتم **له** قبل أن آذن لكم ؟! **إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلسوف** تعلمون ، لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين ، قالوا : **لا ضير** إنا إلى ربنا منقلبون . إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين » [الشعراء : ٣٢ – ٥١] .

وبمراجعة النصين تبدو فروق واضحة تقع أحياناً في حرف واحد ، أو في لفظة واحدة ، وتقع أحياناً في جمل بأكملها .. وقد أبرزنا بعض الفروق التي قد لا يلحظها القارئ ، ولكنا لم نبرز سائرها لأنها واضحة الاختلاف ، وهذا ـ كما قلنا ـ فضلاً عن اختلاف السياقين ، فقد جاء المقطع الأول في سورة الأعراف في مقدمة قصة طويلة مفصلة عن بني إسرائيل في مصر ، وجاء بعدها قصة الآيات الأخرى التي أظهرها موسى لفرعون : « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدم آيات مفصلات » ثم إغراق فرعون وجيشه ، ثم خروج بني إسرائيل من مصر ، ثم مواعدة الله لموسى ، ودك الجبل به ، وتنزيل الألواح عليه ، وعبادة بني إسرائيل للعجل من بعده وعودة موسى غضبان آسفاً ، وأخذه برأس أخيه .. ثم اختيار سبعين رجلاً لميقات الله وأخذ الرجفة لهم .. وقصة السبت .. إلى أن قال : « فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب ... » .

أما في « الشعراء » فتنتهي القصة عند خروج بني إسرائيل وإغراق فرعون ، وأن هذه آية لمن أراد الآية ...

ومن هنا يصبح ذلك التشابه في المقطعين المتشابهين تشابهاً جزئياً بالنسبة للموضوع

كله ، فضلاً على كونه ليس **تماثلاً** على الإطلاق .

وكذلك المقطعان المتقاربان في سورتي النمل والقصص :

« إذ قال موسى لأهله إني آنست ناراً سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون . فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها ، وسبحان الله رب العالمين . يا موسى : إنه أنا الله العزيز الحكيم . وألق عصاك ، فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب . يا موسى لا تخف ، إني لا يخاف لديَّ المرسلون ، إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء فإني غفور رحيم ، وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوماً فاسقين » [النمل : ٧ - ١٢] .

« فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً قال لأهله امكثوا إني آنست ناراً **لعلي** آتيكم منها بخبر أو **جذوة من النار** لعلكم تصطلون . فلما **أتاها** نودي **من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة** أن يا موسى : **إني** أنا الله **رب العالمين** ، **وأن** ألق عصاك ، فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب يا موسى **أقبل** ولا تخف **إنك من الآمنين** . **اسلك** يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء **واضمم إليك جناحك من الرهب** : فذانك **برهانان** من ربك إلى فرعون **وملئه** إنهم كانوا قوماً فاسقين » [القصص : ٢٩ - ٣٢] .

وذلك فضلاً على اختلاف السياقين في السرد . في سورة النمل تبدأ القصة من الآيات التي أوردناها وتنتهي بعد آيتين اثنتين ، ذكر فيهما تكذيب قوم فرعون وكيف كان عاقبتهم ، وفي سورة القصص تستمر القصة ـ التي بدأت قبل ذلك بكثير ، وذكرت مولد موسى وقصة إلقائه في اليم وعودته إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ـ تستمر فتذكر جدال فرعون له واستكباره هو وجنوده في الأرض بغير الحق حتى إغراقهم في عشر آيات أخر بعد النص الذي أوردناه ...

وتلك هي أشد المواضع تشابهاً في قصص القرآن كله .. وقد رأينا بوضوح أنها تتشابه ولا تتماثل .. مثل ثمار الجنة !

* * *

من أكثر الموضوعات وروداً في القرآن الحديث عن آيات الله في الكون في معرض الحديث عن قضية الألوهية .. وفي السور المكية بصفة خاصة ترد هذه الإشارات بكثرة ملحوظة قد توهم لأول وهلة بوجود التكرار بمعنى التماثل !

ومع ذلك فظاهرة التنوع ـ مع التكرار ـ ربما كانت أظهر في هذه الإشارات الكونية منها في القصص القرآني !

ويطول بنا الحديث لو مضينا نتتبع أشكال التنويع المختلفة التي يتبعها السياق القرآني في هذه الموضوعات [1] .

ولكنا نكتفي بمثال واحد لعله يغنينا ــ بوضوحه ــ عن مزيد من الأمثلة في هذا المجال .

في سورتي « الأنعام » و« يٓس » حديث عن آيات الله في الكون ، في معرض الرد على المكذبين الذين يطلبون تنزيل آية حسية ، ويعلقون إيمانهم على نزول هذه الآية .. و« الموجودات » في السورتين تكاد تكون واحدة : الشمس والقمر والنجوم والماء النازل من السماء فينبت به الزرع ، وخلق الإنسان من التقاء ذكر وأنثى ... ومع ذلك فما أبعد الفرق بين « الجو » الذي تحشد فيه هذه الآيات وتلك ، وما أشد تأثير هذا الجو في طريقة العرض في السياقين !

« إن الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ، ذلكم الله فأنى تؤفكون ؟ فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسباناً ، ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع . قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء ، فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه . انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه . إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » [الأنعام : ٩٥ – ٩٩] .

« وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون . وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ، ليأكلوا من ثمره ــ وما عملته أيديهم ــ أفلا يشكرون ؟ سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ! وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ! والشمس تجري لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ! لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكلٌّ في فلك يسبحون » [يٓس : ٣٣ – ٤٠] .

هل أحسست بالفرق بين جو هذه الآيات وتلك ؟

عد إليها مرة أخرى وعاود تلاوتها ..

أرأيت إلى النغمة الهادئة اللطيفة الهادية في آيات سورة الأنعام ، والنغمة الغاضبة العنيفة المتوعدة في سورة يٓس ؟!

خذ أولاً سورة يٓس !

---

(١) راجع إن شئت كتاب « التصوير الفني في القرآن » .

« وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب **وفجرنا** فيها من العيون » .

« ليأكلوا من ثمره ـ **وما عملته أيديهم** ـ **أفلا يشكرون ؟** »

« سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم **ومما لا يعلمون** ».

« وآية لهم الليل **نسلخ** منه النهار **فإذا هم مظلمون** » .

« والشمس **تجري** لمستقر لها ... »

« والقمر قدرناه منازل حتى عاد **كالعرجون القديم** » .

« لا الشمس **ينبغي لها** أن تدرك القمر ، **ولا الليل سابق النهار** . وكل في فلك يسبحون » .

إن الجو في سورة « يس » مشحون بالغضب على الكفار من أول السورة إلى آخرها ، وبالوعيد والتأنيب والتنديد :

« لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون . إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون » [٧-٩] .

« يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون . ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون ؟ وإن كل لما جميع لدينا محضرون » [٣٠-٣٢].

« وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون . وخلقنا لهم من مثله ما يركبون . وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون » [٤١-٤٣] .

« ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يَخِصِّمون ، فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون » [٤٩-٥٠] .

« وامتازوا اليوم أيها المجرمون ! ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ؟ وأن اعبدوني : هذا صراط مستقيم ؟ ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون ؟ هذه جهنم التي كنتم توعدون . اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون . اليوم نختم على أفواههم ، وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون . ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون ! ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون » [٥٩-٦٧] .

وفي هذا الجو الغاضب الشديد الغضب ترد الآيات الكونية رداً على المكذبين . وآية لهم .. وآية لهم .. وآية لهم ..

ولأنها تجيء في جو مشحون بالغضب والعنف فهي تأخذ نفس الجو الذي ترد فيه ! فالعيون فجرناها .. بما في لفظ التفجير من إيحاء العنف . والتنبيه إلى أن الثمر من عند الله وليس من عمل أيديهم يأتي حاداً عنيفاً في الآية : « ليأكلوا من ثمره ، وما عملته أيديهم » ثم يأتي التعقيب حاداً عنيفاً كذلك : « أفلا يشكرون ؟! » والأزواج مما تنبت

الأرض ومن أنفسهم « ومما لا يعلمون » . ويبدو من السياق أنه لا توجد أية إمكانية لهم ليخرجوا من جهلهم هذا و « يعلموا » شيئاً مما لا يعلمون ! إنما تلقى « مما لا يعلمون » في وجوههم كالقذيفة مثبتة عليهم جهلهم فحسب ، دون رغبة في تعليمهم ! والليل **يسلخ** سلخاً من النهار ! بينما يرد في جميع المواضع الأخرى « يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل » للدلالة على تلك الحركة الوئيدة المتداخلة ! أما هنا فهي عملية سلخ حادة عنيفة يتبعها الظلام مفاجئاً ! « فإذا هم مظلمون ! » والشمس في حالة حركة عنيفة « تجري » والقمر يظل حتى تكون آخر صورة له هي العرجون القديم الكالح اليابس الذي لا ينبض بالحياة ! والشمس والقمر في سباق **لا ينبغي** أن يدرك فيه أحدهما الآخر وكذلك الليل والنهار .. سباق يوحي بالجهد ولا ينبض بالأمل .. لأنه لا يدرك غايته ! !

تلك هي « الآيات الكونية » في سورة يّس ، فكيف هي في سورة الأنعام ؟!

إنها وديعة هادئة لطيفة ، لا شد فيها ولا عنف ولا ضجيج !

إن الحديث موجه للمكذبين نعم ، ولكنه موجه كذلك للمؤمنين ، ولهذا أثره الملحوظ في « تلطيف » الجو وجعله أقرب إلى التعليم والهداية منه إلى التأنيب والتنديد ..

ربما كانت أعنف لفظة في السياق كله هي كلمة « فالق » : « إن الله فالق الحب والنوى ... » « فالق الإصباح ... » ولكن أين هذه من التفجير والسلخ ، والجو المشدود هناك ؟

ثم إن فلق الحب والنوى ، وفلق الإصباح عمليات هينة لطيفة خاصة وأنها تتم في بطء شديد وتدرج .. ثم انظر إلى « وجعل الليل سكناً » وكم توحي للنفس بالسكينة والهدوء . والشمس والقمر هنا « حسبان » لا يجري بينهما ذلك السباق المجهد الذي يجري هناك . والنجوم « لتهتدوا » بها .. فالجو العام جو هداية في الظلمات ! ثم التعبير عن التزاوج « بالمستقر » في رحم الأنثى و « المستودع » في صلب الذكر . انظر كم يوحي إليك لفظا المستقر والمستودع بالسكينة والاستقرار ! ثم هذه اللوحة البديعة من النبات « فأخرجنا منه **خضراً** .. » ولفظة خضر توحي بالطراوة من جهة ، وهي مريحة للأعصاب كذلك من جهة أخرى ، فالحس البشري يحب الخضرة ويرتاح إليها . والنخل من طلعها قنوان « دانية » توحي بالرحمة المتنزلة في ذلك الدنو .. وجنات الأعناب .. والزيتون والرمان ..

إنها لوحة رائعة من الخضرة والنداوة والعذوبة والظل الظليل واليسر البادي في كل شيء .. ولأنها « لوحة » معروضة للنظر .. للتأثر الوجداني « بالجمال » .. لذلك لا يقول هنا « كلوا من ثمره » كما يقول في موضع تالٍ من السورة ، إنما يقول : « **انظروا** إلى ثمره إذا أثمر وينعه » . نعم ، « انظروا » .. فهنا مجال للنظر ، وللاستمتاع بالجمال ، في ظل الإيمان بالله : « إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » .

أرأيت إلى فارق الجوّ بين السورتين كيف كان أثـره في طريقة عرض الآيات الكونية المتشابهة هنا وهناك ؟!

إنه هكذا التنويع في القرآن .. الذي يخيل للناس أنه تكرار !

* * *

ومشاهد القيامة كذلك من أكثر الموضوعات تكراراً في القرآن ، وفي السور المكية بصفة خاصة .

وما نحتاج إلى حديث مفصّل عنها بعد النماذج التي عرضناها من قبل من القصة وآيات الله في الكون [1] . ولكننا نقرر حقيقة عامة بشأنها : أنه لا يوجد مشهدان اثنان من مشاهد القيامة في القرآن كله مكررين بمعنى التكرار ! إنما تجري عليها قاعدة التشابه دون التماثل ، وقاعدة التنويع .

ونسرد فقط نموذجين من مشاهد القيامة يتبدى فيهما ذلك التنويع :

« إذا وقعت الواقعة . ليس لوقعتها كاذبة . خافضة رافعة . إذا رجّـت الأرض رجّا ، وبسّت الجبال بسًّا ، فكانت هباء منبثًّا . وكنتم أزواجاً ثلاثة : فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة ، والسابقون السابقون : أولئك المقربون ، في جنات النعيم . ثلة من الأولين وقليل من الآخرين . على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين ، يطوف عليهم ولدان مخلدون ، بأكواب وأباريق وكأسٍ من معين ، لا يصدعون عنها ولا ينزفون ، وفاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون ، وحور عين ، كأمثال اللؤلؤ المكنون ، جزاء بما كانوا يعملون . لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً ، إلا قيلاً : سلاماً سلاماً . وأصحاب اليمين ، ما أصحاب اليمين ؟ في سدر مخضود ، وطلح منضود ، وظل ممدود ، وماء مسكوب ، وفاكهة كثيرة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة ، وفرش مرفوعة . إنا أنشأناهن إنشاء ، فجعلناهن أبكاراً ، عرباً أتراباً ، لأصحاب اليمين : ثلة من الأولين وثلة من الآخرين . وأصحاب الشمال ، ما أصحاب الشمال ؟ في سموم وحميم ، وظلٍ من يحموم ، لا بارد ولا كريم ! إنهم كانوا قبل ذلك مترفين . وكانوا يصرون على الحنث العظيم . وكانوا يقولون : أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ؟ أو آباؤنا الأولون ؟! قل : إن الأولين والآخرين ، لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم . ثم إنكم أيها الضالون المكذبون ، لآكلون من شجرٍ من زقوم ، فمالئون منها البطون ، فشاربون عليه من الحميم ، فشاربون شرب الهيم . هذا نزلهم يوم الدين ! » [سورة الواقعة : ١-٥٦] .

---

(١) راجع إن شئت « مشاهد القيامة في القرآن » .

« فإذا نفخ في الصور نفخةٌ واحدة ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكةً واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء فهي يومئذ واهية . والملك على أرجائها ، ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية . يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية . فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول : هاؤم اقرأوا كتابيه ! إني ظننت أنّي ملاقٍ حسابيه . فهو في عيشة راضية ، في جنة عالية ، قطوفها دانية ، كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية . وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول : يا ليتني لم أوت كتابيه ! ولم أدر ما حسابيه ! يا ليتها كانت القاضية ! ما أغنى عنّي ماليه ! هلك عني سلطانيه ! خذوه فغلّوه ! ثم الجحيم صلّوه ! ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه ! إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ، ولا يحض على طعام المسكين ، فليس له اليوم ها هنا حميم ، ولا طعام إلا من غسلين ، لا يأكله إلا الخاطئون » [سورة الحاقة : ١٣–٣٧] .

* * *

إن التنويع لا التكرار هو الظاهرة الحقيقية في القرآن ..

وإنه لمن إعجاز هذا الكتاب أن يعرض الموضوعات التي يكرر ذكرها للتذكير والتربية والتوجيه ، بهذا القدر المعجز من التنويع بحيث لا تتكرر صورتان متماثلتان أبداً في القرآن كله ، على كثرة المواضع التي يرد فيها كل موضوع !

وإن في ذلك لحكمة بالغة بالنسبة لكتاب نزل لكي يقرأ على الدوام ، ولكي تكون تلاوته الدائمة جزءاً من العبادة التي يتقرب بها العباد إلى الله !

وإن التنويع ذاته لجمال .. فوق أنه يذهب عن النفس الملال !

« الله نزّل أحسن الحديث كتاباً **متشابهاً** ، مثاني تقشعرُ منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله . ذلك هدى الله يهدي به من يشاء . ومن يضلل الله فما له من هاد »[1] .

---

(١) سورة الزمر [٢٣] .

القرآن في العهد المدني

كانت الفترة السابقة ــ في مكة ــ فترة تربية وإعداد ..

تربية بالعقيدة ، وإعداد لحمل الأمانة الكبرى التي لم تحملها أمة أخرى من قبل ، وهي تحقيق منهج الله في واقع الأرض ، والقيام في الوقت ذاته بقيادة البشرية قيادة راشدة مهتدية بنور الله : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »[1] « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً »[2] .

فأما التربية فكانت قد آتت ثمارها بالفعل في نفوس الفئة المختارة التي رباها على عينه رسول الله صلى الله عليه وسلم خلال ثلاثة عشر عاماً في مكة ..

كانت « لا إله إلا الله » قد تعمقت في نفوسهم حتى أصبحت واقعهم الذي يعيشونه ، وزادهم الذي يتقوّتون به . وعرفوا ــ إلى درجة اليقين ــ معنى الألوهية الحقة ، ومعنى العبودية الحقة لله .

لم تعد الأرباب الزائفة تخطر في مشاعرهم ، أو تمارس سلطانها عليهم ..

لا الأصنام التي يعبدها المشركون عبادة حسية ، فيسجدون لها ويقدمون القرابين إليها .

ولا « القبيلة » التي يقول عنها شاعرهم :

وهل أنا إلا من « غزية » إن غوت غويت ، وإن ترشد « غزية » أرشد !

ولا عرف الآباء والأجداد الذي يلتزمون به من دون الله ، ويطيعونه في المخالفة عن أمر الله : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ! »[3]

ولا الهوى الذي يتخذونه إلهاً فيعميهم ويصمهم عن الحق : « أرأيت من اتخذ إلهه هواه ؟! »[4]

---

(١) سورة آل عمران [١١٠] .

(٢) سورة البقرة [١٤٣] .

(٣) سورة لقمان [٢١] .

(٤) سورة الفرقان [٤٣] .

إنما هو إله واحد ، لا شريك له في الخلق ، ولا شريك له في الأمر : « ألا له الخلق والأمر » [1] .

ولهذا الإله الواحد تتجه نفوسهم بالعبادة والطاعة ، وبالرجاء والخشية ؛ ويتمثلون صفاته التي عرّفهم بها نفسه في كتابه وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ، فتتعمق هذه الصفات في نفوسهم وتحيط بكل جنباتها ، فتشكل مشاعرهم نحو الله وتحددها . فإذا عرفوا أنه « هو الرزاق ذو القوة المتين » لم يتوقعوا الرزق من غيره ، ولم يتطلعوا إلى غيره ليرزقهم . وإذا عرفوا أنه هو الضار النافع ، وهو المحيي المميت ، لم تعد في قلوبهم خشية من غيره أن يضرهم ، ولا تطلع إلى غيره أن ينفعهم ؛ ولم تعد قريش أو غيرها من أهل الأرض جميعاً هي التي تملك أمرهم ، أو تملك شيئاً من أمرهم .. إنما هو الله .. وما دام هو الله ــ وحده لا شريك له ــ فهو إذن الذي يُعبد ، وهو إذن الذي يطاع . وتصبح عبادته وطاعته ــ في حسهم ــ هي الحياة . تصبح هي الواقع الذي يمارسونه ، وهي المشاعر التي تجيش في خواطرهم ، وهي الفكر الذي يخطر على عقولهم .. وهي الأمر الذي يستحق أن يعاش حقاً ، وتعاش من أجله الحياة في هذه الأرض ..

وتنفسح الحياة في حسهم حين تصبح هي عبادة الله ..

لقد كانت من قبل شيئاً تافهاً مزرياً لا يستحق أن يعاش .

كانت خواء لا يملؤه شيء في الحقيقة ..

مجالس اللهو والشراب من جهة ، والحرب والغارات في إطار الحمية الجاهلية من جهة أخرى :

ألا أيهذا الزاجري أحضرَ الوغى وأن أشهد اللذات .. هل أنت مخلدي ؟ !

ثم الواقع القريب المحصور فيما تدركه الحواس ، حتى في العبادة المشوهة ، فضلاً عن مصالح الأرض اللاصقة بالتراب !

ومن هناك رفعتهم « لا إله إلا الله » ..

رفعتهم من واقع الحس القريب في العبادة إلى الله الذي لا تدركه الأبصار ..

ورفعتهم من واقع الأرض المحدود إلى واقع الصورة المتكاملة التي يكملها اليوم الآخر الذي لا تحده الحدود ..

ورفعتهم من مصالح الأرض القريبة ومجالس اللهو وغارات الجاهلية إلى أن يعيشوا « للعقيدة » يعطونها فكرهم ومشاعرهم وجهدهم ، ويحتملون في سبيلها الأذى والحرمان

---

(١) سورة الأعراف [٥٤] .

والتشريد والتعذيب ، راضية نفوسهم بلا إله إلا الله !

لقد كانوا في الحقيقة يعيشون مولداً جديداً بلا إله إلا الله لم يكونوا يعرفونه من قبل ، فلما عرفوه وتذوقوه ، أصبح بالنسبة إليهم هو الحياة ...

* * *

تلك كانت فترة التربية التي عاشوها في مكة ، يطوّف بهم القرآن في آيات الله في الكون .. في الدقة المعجزة والضخامة المعجزة .. في الحياة والموت .. في عجائب الرزق .. في تدبير الكون .. في علم الله الشامل للغيب .. في قدرته التي لا تحد .. في معجزاته التي أيد بها أنبياءه .. في إملائه للكفار ثم تدميره عليهم .. في مشاهد القيامة بنعيمها وعذابها وحشرها وحسابها .. في قصة آدم والشيطان .. في الجن والملائكة .. في أخلاقيات لا إله إلا الله .. أو ـ باختصار ـ يطوّف بهم في حديث « العقيدة » وما يتصل بها من موضوعات ..

ومن خلال التربية بالعقيدة كان يتم الإعداد ..

لقد كانت هذه الأمة ـ كما قلنا ـ تعدّ لحمل الأمانة الكبرى التي لم تحملها أمة من قبل ..

فهل كان يمكن أن تُعَدَّ لها دون أن يتعمق في قلوبها معنى لا إله إلا الله ، ودون أن تتربى على التجرد لله ؟!

وكيف إذن تقوم بحمل الأمانة ، وهي أمانة ذات تكاليف في النفس والمال ، كما أنها ذات تكاليف في الفكر والعمل والشعور ؟!

وهل كان يمكن لها ـ قبل أن تتربي تلك التربية الفذة بلا إله إلا الله ـ أن تبقى على مستواها الرفيع ذلك حين تمكّن في الأرض ؟

إن السلطان في الأرض يغري بالطغيان .. ولقد أغرى بالطغيان أجيالاً لا حصر لها من أجيال البشرية ! فمن أين كان يتأتى لهذه الأمة أن تقدم نماذجها الرفيعة في تحقيق العدل الرباني في الأرض لو لم تترب تلك التربية الفذة بلا إله إلا الله ؟

بل من أين لها ـ كان ـ أن تحقق معنى « الأمة » ، وهو معنى ضخم لم يتحقق في واقع الأرض إلا على يدي هذه الأمة التي قامت على عقيدة في الله ، فارتبطت فيها قلوب البشر على هذه العقيدة ، فذابت الأجناس واللغات والشعوب والقبائل لتكون أمة واحدة لا مثيل لها من قبل ولا من بعد في تاريخ تلك « الأمم » الزائفة التي التقت على اللون والجنس ، أو اللغة والأرض ، أو « المصالح » الأرضية المشتركة التي تمثل النزاع في الحقيقة أكثر مما تمثل الوفاق واللقاء !

ومن أين لها ـ كان ـ أن تعطي تلك النماذج الفريدة من الوفاء بالعهد ، ومن الصدق ، ومن معاملة الأمم المفتوحة معاملة « أخلاقية » لا تقوم على السلب والنهب والسيطرة والتحكم ،

إنما تقوم على إعطاء النموذج المحبب الذي يقود ـ في رفق ـ إلى التخلي عن الجاهلية الوثنية والدخول في طاعة الله ..

ومن أين لها ـ باختصار ـ أن تكتب ذلك التاريخ الفذ الذي كتبته في واقع الأرض في كل مجال من مجالات الحياة ، في سياسة المال والحكم ، في بطولات الحرب والسلم ، في الحضارة والعلم ، في الانسياح السريع في الأرض على غير مثال مسبوق من قبل ولا ملحوق .. ؟!

ألا إنها العقيدة هي الركيزة التي قام عليها ذلك البناء كله ، وما كان يتأتى ـ من غيرها ـ أن يقوم .

* * *

وحين علم الله من قلوب هذه الفئة التي تربت بلا إله إلا الله على عين رسول الله صلى الله عليه وسلم .. حين علم منها أنها تجردت لله وأخلصت له ، وأصبح الله ورسوله أحب إليها مما سواهما .. عندئذ نقلها النقلة الثانية الهائلة لتقوم بدورها المطلوب ..

كانت النقلة الأولى نقلة العقيدة .. من الأرباب المتفرقة إلى لا إله إلا الله ..

والنقلة الثانية كانت من فترة الابتلاء والتمحيص ، من فترة الاستضعاف والتشريد ، إلى التمكين في الأرض والاستخلاف .

وكما كان القرآن ـ وتعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم ـ هو أداة النقلة الأولى من الكفر إلى الإيمان ، فكذلك كان هو أداة النقلة الثانية إلى التمكين والاستخلاف .. فكيف كان الكتاب هو الموجّه والمربي في فترة التمكين ؟ وفي أي الموضوعات كان يتحدث القرآن ؟

* * *

تتحدث السور المدنية عن العقيدة كما أشرنا من قبل . ولكن حديث العقيدة هنا لا يأخذ المساحة التي كان يأخذها في السور المكية لأنه هناك كان للتأسيس ، وهو هنا للتذكير . لقد تأسست العقيدة بالفعل في فترة التربية العقيدية في مكة ، واليوم يقوم مجتمع مسلم ودولة مسلمة في المدينة ، تحتاج إلى تنظيمات وتشريعات ، وتحتاج إلى جهاد لحمايتها من أعدائها بادئ ذي بدء ، ثم لنشر الإسلام في الأرض فيما بعد . ومن ثم يحتل هذان الموضوعان الجديدان معظم المساحة في السور المدنية : التنظيمات والتشريعات ، والجهاد في سبيل الله .

ولكن الذي يسترعي النظر أن حديث العقيدة لم ينقطع ليبدأ الحديث عن هذين الموضوعين . بل استمر على ذات النمط المكي ـ وإن كان في حيز أقل ـ فتحدث عن الألوهية ، واليوم الآخر ، والملائكة والكتاب والنبيين والقدر خيره وشره ، وقصص الأنبياء ، وقصة آدم والشيطان ، وأخلاقيات لا إله إلا الله . وتحدث في كل واحد من

هذه الموضوعات عن مفرداته جميعاً كما كان يتحدث القرآن في مكة . فتحدث في الألوهية عن الكون بضخامته المعجزة ودقته المعجزة ، وعن الموت والحياة ، وعن حدوث الأحداث وجريانها ، وعن الضعف البشري في مقابل القدرة التي لا يعجزها شيء ، وعن علم الغيب . وتحدث في اليوم الآخر عن البعث والحساب والثواب والعقاب ... الخ .. الخ ..

كما أن هناك ما يسترعي النظر أكثر من ذلك : أن الموضوعين الجديدين اللذين استغرقا أكبر مساحة من السور المدنية ، وهما التشريعات والتنظيمات ، والجهاد في سبيل الله ، لم يعالجا كموضوعين قائمين بذاتهما ، وإنما عولجا **من خلال العقيدة** ، **وانبثاقاً منها** ! ! وهذا هو العنصر الأهم في الموضوع كله ! فليس في هذا الدين عقيدة منفصلة وتشريعات وتنظيمات منفصلة ! ولا عبادات منفصلة ومعاملات منفصلة ! وإنما كله وحدة ، وكله « عبادة » بالمعنى الشامل للعبادة ، الذي تتضمنه الآية : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون »[1] وتفسره الآية : « قل : إن صلاتي ونسكي ، ومحياي ومماتي لله رب العالمين »[2] .

وقد يكون اتصال الجهاد في سبيل الله بالعقيدة أمراً طبيعياً في حس كثير من الناس لا يسترعي الانتباه . ولكن اتصال التشريعات والتنظيمات بالعقيدة ، بل انبثاقها منها ، هو الذي يسترعي الانتباه حقاً ويحتاج إلى شيء من البيان .

لقد درجنا في أيامنا الأخيرة ـ وبسبب العدوى الوافدة إلينا من الغرب ـ أن نتحدث عن الإسلام **كنظام** . نظام سياسي واقتصادي واجتماعي .. الخ . ولا شك أن في الإسلام تنظيمات سياسية واقتصادية واجتماعية وتربوية وأخلاقية .. الخ . ولكن الحديث عن أي تنظيم أو نظام إسلامي بمعزل عن العقيدة إنما يفقده روحه ، ويحوله ـ كأي نظام آخر ـ إلى نظام تقوم عليه « الدولة » وتحرسه تنظيماتها ولا زيادة !

وليس الأمر كذلك في الإسلام !

حقيقة إن النظم الإسلامية ، السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية .. الخ . متميزة في ذاتها ، لأنها من صنع الله . فهي خالية من عيوب القصور البشري ، والهوى البشري ، والنظرة البشرية الجزئية ، التي ترى شيئاً وتغفل عن أشياء وترى مصلحة الجيل الواحد ولا ترى مصلحة كل الأجيال ، بل ترى زاوية واحدة من الشيء الواحد ولا ترى الزوايا كلها مجتمعة في آن ..

ولكن هذه المزية ـ على ضخامتها ـ ليست المزية **الوحيدة** في النظام الإسلامي ..

---

(١) سورة الذاريات [٥٦]

(٢) سورة الأنعام [١٦٢] .

والوقوف عندها ، تفكيراً أو تنفيذاً ، يفقد النظام أهم خصائصه ، وهي قيامه على العقيدة وانبثاقه منها ..

ولتقدير أهمية هذا الأمر ، الذي فقد أهميته في نظر كثير من « المثقفين » المحدثين بسبب تلك العدوى الوافدة من الغرب ، نضرب أولاً مثالاً من الحاضر الغربي مقارناً بالواقع الإسلامي ، ثم نشير إلى حقيقة تاريخية هامة ذات دلالة لا ينبغي أن تغيب عن الأذهان ..

فأما المثال من الحاضر فهو مسألة الخمر ..

في أمريكا قانون يمنع السكر . وهو لا يمنع شرب الخمر ولكنه يمنع السكر فقط ! ولا يمنعه انبعاثاً من « روح إنسانية » تقدر قيمة الكيان البشري والمكانة الرفيعة التي خلقه الله عليها لكي يقوم بمهمة الخلافة الراشدة في الأرض ، مما يتنافى مع حالة الخدر و « الهروب » التي يسعى الشاربون إلى الوصول إليها .. كلا ! إنما يمنعه لأسباب مادية اقتصادية بحتة ! فالسكر يؤدي إلى زيادة حوادث الطريق ، فيعطل الإنتاج ! ! ويحدث خسائر اقتصادية ! !

أياً يكن الأمر فهناك « قانون » يمنع السكر ! وهناك « توعية » مستمرة ضد هذه الجريمة ! وهناك « عقوبة » على ارتكابها !

فماذا كانت النتيجة ؟!

فلنسألهم هم .. فإن تقاريرهم السنوية تجيب !

إن جريمة السكر آخذة في الازدياد المستمر ، رغم وجود القانون والتوعية والعقوبة !

أما في الإسلام فقد حدث شيء آخر ..

حين نزلت آية التحريم : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ؟»[1] أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم منادياً ينادي في طرقات المدينة : أيها الناس ! ألا إن الخمر قد حرمت !

فقط ! ..

هذا هو كل الإجراء الذي تم !

فماذا كانت النتيجة ؟!

---

(١) سورة المائدة [٩٠ – ٩١] .

كانت النتيجة أن من كان في بيته زق أو دن من الخمر أراقه .. دونما شرطة ولا تحقيق ولا محاكمة !

بل أكثر من ذلك ، وأعجب من ذلك .. أن من كان **في فمه** شربة من الخمر أراقها ! ولم يقل لنفسه : أشرب هذه لأنها في فمي بالفعل ، ثم امتنع بعد ذلك ! ذلك أن الله هو الذي حرم الخمر ، وهو يتعامل مع الله !

وذلك هو الفارق بين النظام الذي يقوم على العقيدة وينبثق منها ، والنظام الذي تقوم عليه « الدولة » وتحرسه تنظيماتها .

وفي الإسلام دولة تقوم على النظام ، وتشريع يحرسه .. ولكن ذلك ليس هو الإجراء الأول ، بل هو الإجراء الأخير : « يزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » .. فالوازع الأول هو القرآن ، والوازع الأخير هو السلطان !

تلك شهادة الحاضر الغربي مقارناً بالواقع الإسلامي ، وهي غنية عن البيان ..

أما شهادة التاريخ ، ذات الدلالة الهامة ، فهي أن الإسلام قد بقي حتى اليوم في الأرض لأنه عقيدة ، ونظام قائم على عقيدة ، وليس لمجرد أنه نظام !

لو أنه مجرد نظام لتفتت بمجرد أن تفتت « الدولة » أو بالكثير حين ألغيت الدولة !

ولكنه باق حتى اليوم ، ينبعث في حركات بعث متتالية متواصلة ، لأنه عقيدة لا لأنه نظام .. أو لأنه عقيدة ينبثق منها نظام ..

وقد حاول أعداؤه في الحروب الصليبية الأولى أن يحطموه كنظام ، أو كدولة حامية للنظام .. ولكنهم أدركوا أنهم فشلوا .. فعادوا في الحروب الصليبية الحديثة يحاولون أن يحطموه كعقيدة ، ليضمنوا ألا تقوم الدولة ولا يقوم النظام .. ومن بين حربهم له كعقيدة أن يقولوا للمسلمين ـ « المثقفين » منهم بصفة خاصة ـ إن العقيدة لم يعد لها اعتبار في هذا العصر الذي نعيش فيه ! وإن المهم ليس هو العقيدة إنما هو النظام !

فإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا : إن الديمقراطية ليست نظاماً فحسب وإنما هي عقيدة ! وإن الشيوعية ليست نظاماً فحسب وإنما هي عقيدة [أو « فلسفة » كما يقولون !] يحاولون أن يسندوا نظمهم الجاهلية بشيء يشبه العقيدة .. فإذا تحدثوا عن الإسلام أهملوا العقيدة وتحدثوا عن النظام .. ثم قالوا إن النظام الإسلامي غير قابل للتطبيق في القرن العشرين !

إنها الحرب بكل وسائل الحرب .. ولن ننتظر من الأعداء غير الحرب .. والله هو الذي يقول :

« ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم .. » [1]

---

(١) سورة البقرة [١٢٠] .

« ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا .. » [1]

إنما نحن ينبغي أن نعرف ديننا على حقيقته ، ولا نتلقى حقائق ديننا من أعداء هذا الدين !

إن العقيدة في هذا الدين هي الدافع لكل شيء فيه : هي الدافع لإقامة « النظام » بكل مزاياه الربانية التي لا توجد في أنظمة البشر ومناهجهم . وهي الدافع لحماية هذا النظام الرباني من أعدائه الذين لا يرغبون في رؤيته قائماً في الأرض . وهي الدافع لنشر الدعوة ، وللجهاد لكي تكون كلمة الله هي العليا في كل الأرض . وهي الدافع للتخلق بالأخلاق الربانية التي ينبغي أن يكون عليها المسلم . وهي الدافع للتعلم . وهي الدافع لعمارة الأرض على الطريقة الربانية المستنيرة الراشدة ، التي تنشئ حضارة « إنسانية » شاملة ، لا مادية ولا حيوانية ولا آلية متجردة عن الإنسانية ..

وحين تضعف العقيدة أو تنهار .. ينهار هذا كله ..

وحين تكون العقيدة قوية فإنها هي تنشئ هذا كله .. كما حدث مع الأمة المسلمة الأولى ، التي لم تكن من قبل أمة علم ولا حضارة ولا نظام ، فدفعها الإسلام إلى إنشاء أكبر حركة علمية وقتئذ ، وما زال تراثها – وهو المنهج التجريبي – هو الذي تقوم عليه الحركة العلمية اليوم ؛ وإنشاء أكبر حركة حضارية وقتئذ ، تبدو إلى جوارها الحضارة المادية الجاهلية المعاصرة الخاوية من الروح نكسة بشرية تعمل حثيثاً على تدمير مقومات « الإنسان » ، كما أنشأت تلك الأمة دولة نظامية مترامية الأطراف تحكم كلها بشريعة الله على مستوى الدولة « الأم » ، لا كما تصنع « الامبراطوريات » ، تخص نفسها بتشريعات لا تنفذها في بقية « المستعمرات » ..

لذلك يحرص القرآن على ترسيخ هذه العقيدة وتقويتها ، وجعل كل التنظيمات والتشريعات والتوجيهات مرتبطة بها ومنبثقة عنها ، بقدر ما يحرص أعداء الإسلام على قتل هذه العقيدة وطمس معالمها !

* * *

في السور المدنية نجد ربطاً كاملاً بين « العقيدة » و « الشريعة » يُلْفَتُ النظر إليه لفتاً مباشراً كما تحمله الإشارات والتلميحات ..

يلفت النظر إليه لفتاً مباشراً في مثل قوله تعالى : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » [2] وقوله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم

---

(١) سورة البقرة [٢١٧] .

(٢) سورة المائدة [٤٤] .

ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » [1] وقوله تعالى : « ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ، ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين . وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون ، وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين ! أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ؟! بل أولئك هم الظالمون . إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا : سمعنا وأطعنا . وأولئك هم المفلحون » [2] .

ومفهوم هذه الآيات كلها أن المدلول الحقيقي للإيمان هو التحاكم إلى شريعة الله . وأن الإدعاء بالإيمان مع رفض التحاكم إلى شريعة الله أو عدم التسليم لها في داخل النفس هو ادعاء كاذب مردود على أصحابه . فالمحك الحقيقي للإيمان هو تحكيم الشريعة والتحاكم إليها وبغير ذلك فهي دعوى كاذبة لا يؤخذ بها في الأرض ولا يؤخذ بها في السماء .

وأما الإشارات والإيحاءات فربما كان أبرزها الآية الثالثة من سورة المائدة ، فقد نزلت أول مرة على هذه الصورة :

« حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم ، وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق ... فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم » .

وكلها كما هو واضح تشريعات بشأن ما يحل وما يحرم من اللحوم ، مع بيان حكم المضطر من شدة الجوع ..

ثم نزلت بعرفات في حجة الوداع تكملة الآية : « اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون . اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » .

ولكن الذي يلفت النظر أن التكملة لم توضع في نهاية الآية **بعد** ما كان نزل منها من قبل ، **بل في وسطها !**

« حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم ، وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق . **اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون . اليوم**

(١) سورة النساء [٦٥] .
(٢) سورة النور [٤٧ – ٥١] .

أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً . فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم » .

ووضع التكملة على هذه الصورة ذو دلالة واضحة .. هي صلة هذا الدين الذي أكمل ، والنعمة التي أتمت ، والإسلام الذي رضيه الله ديناً للمسلمين .. صلة ذلك كله بالشريعة وأحكامها ، بحيث يوحي السياق أن الشريعة وأحكامها هي هذا الدين ، وهذه النعمة ، وذلك الإسلام !

وثمت مثال آخر من سورة البقرة ذو دلالة مماثلة :

فمن الآية ٢٢٦ يتحدث السياق بصورة متصلة عن الطلاق وأحكامه : « للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم ، وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم ... »

ويستمر السياق في ذكر أحكام الطلاق حتى آية ٢٣٧ : « وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم ، إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح ، وأن تعفوا أقرب للتقوى . ولا تنسوا الفضل بينكم ، إن الله بما تعملون بصير » .

وفجأة .. قبل أن تنتهي أحكام الطلاق تأتي هاتان الآيتان [٢٣٨-٢٣٩] : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين . فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً ، فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون » .

ثم يعود السياق بعدها مباشرة إلى إكمال أحكام الطلاق : « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم ، متاعاً إلى الحول غير إخراج ، فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف . والله عزيز حكيم . وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين . كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون »[٢٤٠-٢٤٢] .

ولا يمكن أن يمر الإنسان بالسياق على هذا النحو دون أن يقف ليتفكر في دلالة هذا الحديث عن الصلاة في وسط أحكام الطلاق ، وما بقيت إلا ثلاث آيات فقط وينتهي الحديث المتصل عن الطلاق الذي استغرق خمس عشرة آية ..

إن هناك قصداً ولا شك من وضع هاتين الآيتين في وسط تلك الآيات ..

إنه إيحاء بأن هذا الدين لا فاصل فيه بين الشريعة والشعيرة .. كلاهما سواء .. كلاهما من « هذا الدين » !

والأمثلة كثيرة ، تجيء بإذن الله في أثناء عرض نماذج من السور المدنية .. ولكن هذين المثالين واضحا الدلالة فيما أشرنا إليه : أن هذا الدين كل متكامل ، لا تنفصل فيه العقيدة عن الشريعة عن الشعيرة ، ولا يمكن أن يجتزأ ببعض منه عن بعض ، لأن

الله يندد بالذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض : « أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب ، وما الله بغافل عما تعملون » [١] .

* * *

هل هذا شيء « مفاجئ » في السور المدنية لم يكن موجوداً في السور المكية ، أو لم تكن له مقدمات هناك ؟!

كلا ! لا شيء فيه جديد ، إلا التشريعات ذاتها والتنظيمات ، التي نزلت لتنظيم المجتمع الجديد والدولة الإسلامية الجديدة . أما المبدأ ذاته .. مبدأ أنّ لا إله إلا الله معناها اتباع ما أنزل الله ، وأن الإيمان هو الطاعة والاتباع .. هذا لا جديد فيه على الإطلاق . بل كان ما نزل من القرآن في مكة كله تقريراً له وتوكيداً لحقيقته !

أليس في سورة الأنعام ـ المكية ـ هذه الآية : « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه . وإنه لفسق . وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم . **وإن أطعتموهم إنكم لمشركون !** » [١٢١] فيربط بين الشرك وبين الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه ؟

أليس فيها كذلك هذه الآية : « سيقول الذين أشركوا : لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا **ولا حرمنا** من شيء ، كذلك **كذّب** الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ! قل : هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون » [١٤٨] فيربط بين الشرك والتكذيب وبين التحريم بغير إذن من الله ، أي الحكم بغير ما أنزل الله ؟

أليس في سورة الأعراف ـ المكية ـ هذه الآية : « اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم **ولا تتبعوا من دونه أولياء** ، قليلاً ما تذكرون » [٣] . فيربط بين اتباع الأولياء ـ أي الشرك ـ وبين عدم اتباع ما أنزل الله ؟

أليس في سورة النحل المكية هذه الآية : « وقال الذين أشركوا : لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء . كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين » [٣٥] ففصّل الشرك بأنه التوجه بشعائر التعبد لغير الله ، والتحريم بغير إذن من الله ، أي التشريع بغير شرع الله ؟

أليس في سورة لقمان المكية هذه الآية : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ! أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ؟ » [٢١] فجعل اتباع ما أنزل الله في جانب ، واتباع عرف الآباء والأجداد واتباع الشيطان وعذاب السعير كله في الجانب الآخر ؟

---

(١) سورة البقرة [٨٥] .

كلا ! ما جد في العهد المدني إلا « تفصيل » ما أنزل الله .. أما « اتباع » ما أنزل الله فقد كان مقرراً من قبل في العهد المكي على أنه هو العقيدة ، وهو معنى لا إله إلا الله !

فحين يقول في العهد المدني ـ وهو بصدد الحديث عن التشريع السماوي ـ « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون »[1] وحين يقول : « أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ؟ »[2] وحين يقول « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما »[3] لا تكون هذه حقائق جديدة نشأت في العهد المدني ، إنما هي توكيد لقاعدة إيمانية أصيلة ، أسست ورسخت في العهد المكى ، واستقرت في نفوس المؤمنين بحيث لم تعد في حاجة إلى بيان !

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه الآيات كلها نزلت في حق المنافقين ، الذين يزعمون أنهم آمنوا ثم يرفضون التحاكم إلى شريعة الله ! « ألم تر إلى الذين **يزعمون** أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا إن يكفروا به ؟ ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً ، وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت **المنافقين** يصدون عنك صدوداً »[4] .

أما المؤمنون فقد كان من المسلمات عندهم أن نطقهم بشهادة لا إله إلا الله هو تعهد منهم باتباع ما أنزل الله ، والتحاكم إلى شريعة الله ، وإلا فهو النفاق إذن وليس الإسلام .. والمنافقون في الدرك الأسفل من النار !

* * *

في السور المدنية ـ كما قلنا ـ نجد موضوعين جديدين هما التشريعات والتنظيمات ، والجهاد في سبيل الله .

فأما التشريعات والتنظيمات فقد شملت كل جوانب الحياة الإنسانية ، السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، والتربوية ، والخلقية ؛ وأما الجهاد في سبيل الله ـ أو ما نستطيع أن نطلق عليه « معركة لا إله إلا الله » ـ فقد شمل الحديث عنه : تحديد أعداء لا إله إلا الله ، الذين لا يرغبون في إقامة حكم الله في الأرض ، ويتربصون الدوائر للقضاء على الإسلام ، وهم : اليهود والنصارى والمشركون والمنافقون . والأعمال التي يقومون بها لمحاولة تفريق الصف المسلم وتعويق الدعوة وخلخلة بناء المجتمع الإسلامي

---

(١) سورة المائدة [٤٤] .

(٢) سورة المائدة [٥٠] .

(٣) سورة النساء [٦٥] .

(٤) سورة النساء [٦٠ – ٦١] .

مع عناية خاصة بما نسميه اليوم « المخطط الصليبي الصهيوني » وخاصة الجانب اليهودي منه . كما تضمن بيان واجب المسلمين إزاء هذه المخططات الشريرة ، من عدم موالاة اليهود والنصارى أو المشركين والمنافقين ، والحذر من مؤامراتهم ضد الإسلام ، ثم قتال أهل الكتاب « حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون »[1] وقتال المشركين كافة .. وشمل كذلك دعوة متكررة لعدم التراخي في الجهاد ، والحذر من فتنة المتاع الأرضي المخذل عن الجهاد ، كما شمل التحبيب المتكرر في الجهاد وبيان أثره في الدنيا وجزائه في الآخرة ...

وإن كنا قد تحدثنا حديثاً مفصلاً عن موضوعات السور المكية قبل إعطاء نماذج منها ، فإننا نكتفي هنا بهذه الإشارة الموجزة إلى موضوعات السور المدنية لأن النماذج هنا تتحدث حديثاً تفصيلياً مباشراً عن هذه الموضوعات ..

وقد اخترنا أن نستعرض سورة البقرة استعراضاً سريعاً يعطي فكرة عامة عنها ، مع الوقوف عند مواضع قليلة فيها ، ثم استعراض سورة آل عمران وسورة النساء بشيء من التفصيل . والمقصد الأول على أي حال هو مجرد إعطاء « نماذج » للتوضيح قد تعين القارئ على تبين بعض المفاهيم العامة . أما الدقائق والتفصيلات فليس مكانها هذا الكتاب إنما يرجع إليها في كتب التفسير ، خاصة وأننا لن نتعرض للموضوعات الفقهية ، وهي كثيرة جداً في السور المدنية ، لأنها ليست مقصدنا من هذه الدراسة ، إنما مقصدنا فقط بيان الموضوعات التي يتناولها القرآن ، والطريقة التي يتناول بها هذه الموضوعات .

---

(١) سورة التوبة [٢٩] .

نَمَاذِج مِنَ السُّوَرِ المَدَنِيَّة

سُورَةُ البَقَرَة

سورة البقرة هي أول ما نزل من القرآن في المدينة ، وهي أطول السور القرآنية جميعاً إذ تستغرق أكثر من جزءين من أجزاء القرآن ، وفيها حشد من الموضوعات المتنوعة أكثر مما حوته أية سورة أخرى من سور القرآن ..

ولأول وهلة يبدو هذا الحشد مجرد انتقال من موضوع إلى موضوع بغير نظام ! وذلك الذي يقوله الذين لا يعلمون ، من المستشرقين وتلامذتهم « المثقفين » ! ولكن هذه السورة رغم طولها ذلك ، ورغم هذا الحشد المتنوع من الموضوعات ، ذات « تنسيق » دقيق في بنائها ، يربط هذا الحشد المتنوع كله في رباط محكم ، بحيث يصبح له ـ على تنوعه ـ أهداف واضحة محددة ، و « شخصية » موحدة !

ولا نستطيع هنا في تلك اللمحة السريعة أن نستعرض كل موضوعات السورة ، وإن كنا سنقف وقفات سريعة عند بعضها . ولكنا نقول كلمة موجزة عن هذا « التنسيق » الدقيق الذي يقوم عليه بناء السورة :

القسم الأول من السورة يستغرقه الحديث عن بني إسرائيل . ومن أهم دواعي ذلك سببان رئيسيان ، أولهما أن بني إسرائيل هم الأمة التي قامت حياتها على كتاب منزل من عند الله ، ثم ظلوا يبتعدون عن كتابهم تدريجياً ، حتى خرجوا منه خروجاً كاملاً في النهاية . والمسلمون في بدء إقامة دولتهم ومجتمعهم على أساس من الكتاب المنزل ، يُوَجَّهون ألا يفعلوا ما فعله بنو إسرائيل من قبل ، بل يتمسكوا بكتابهم ويحافظوا عليه لكيلا يحل عليهم غضب الله الذي حل ببني إسرائيل .

أما السبب الآخر فهو الكيد المستمر من اليهود للدولة الإسلامية الناشئة ، ومحاولة تقويضها قبل أن تتمكن في الأرض ، بدافع حسدهم لهذه الأمة المهتدية والتواء طبيعتهم عن الاهتداء : « ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم » [1] « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق » [2] .. فكان القرآن يعرّف المسلمين

---

(١) سورة البقرة [١٠٥] .

(٢) سورة البقرة [١٠٩] .

بتاريخ بني إسرائيل الماضي كله ليعرفوا عدوهم على حقيقته ، ليتوقعوا منه الشر الدائم فيحذروه ، ولكيلا يقوم بينهم وبينه أي لون من ألوان الولاء ، إذ كان المنافقون وعلى رأسهم عبد الله بن أبيّ يتخذون من اليهود أنصاراً وأولياء يلقون إليهم بالمودة ...

أما القسم الثاني من السورة فهو موجه إلى المؤمنين : ينظم حياتهم الجديدة بالتنظيمات والتشريعات اللازمة ، ويرد على تساؤلاتهم في حياتهم الجديدة ، ويحدد موقفهم من العدو الثاني وهو المشركون الذين كانوا قد أخذوا في مناوأة الدولة الجديدة ، ويضع بصفة عامة قواعد الدولة الجديدة والمجتمع الجديد ..

فلننظر كيف دخل السياق إلى الحديث عن بني إسرائيل ، ثم كيف انتقل من بني إسرائيل إلى الأمة المؤمنة ليضع لها دستور حياتها الجديدة .. فإن في هذين الموضعين بالذات تبدو « الهندسة » الدقيقة في بناء السورة ، وتعطينا فكرة كذلك عن البناء كله ..

لم يبدأ الحديث مباشرة عن بني إسرائيل .. بل بدأ بما يناسب افتتاح عهد جديد في حياة المسلمين ، وهو قيام المجتمع المسلم والدولة المسلمة ، بعد ثلاثة عشر عاماً من الاضطهاد والتشريد والملاحقة المضنية من قريش ، زعيمة الجاهلية في الجزيرة العربية ..

لقد بدأ عهد التمكين في الأرض ــ وإن كان الأعداء بعد يحيطون بالدولة الجديدة ويسعون إلى الإطاحة بها قبل أن يتم لها التمكين ــ وبدأت الجماعة الإسلامية تأخذ سمات « الوراثة » .. وراثة العهد الرباني ، والقيام بالأمانة الكبرى التي كان يعدّهم لها طوال هذه السنوات في مكة ، وهي إقامة حكم الله في الأرض ، وأن يكون « الدين » في الأرض لله ..

وبما يناسب افتتاح هذا العهد الجديد ، كان افتتاح هذه السورة التي نزلت لإبراز ملامح هذه الأمة التي أخذت الآن في التكوين :

« آلـمّ . ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون » .

هكذا تفتتح أول سورة تحدد سمات الأمة الجديدة .. التي كتب الله لها أن تكون « خير أمة أخرجت للناس » وأن تكون هي الحاملة للرسالة الأخيرة ، التي تقرر في علم الله أن تظل باقية في الأرض إلى يوم القيامة [1] .

« آلـمّ ، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » ..

وقد سبق الكلام عن مثل هذه الحروف التي تفتتح بها بعض السور القرآنية ، إشارة ــ والله أعلم ــ إلى أن الكتاب المنزل هو من ذات هذه الأحرف التي ينطق بها البشر ، ولكنه نسيج آخر غير الكلام الذي يتحدث به البشر ..

---

(١) « لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة » أخرجه مسلم .

« ذلك الكتاب » المكون من هذه الأحرف ، هو الكتاب المنزل من عند الله لا ريب في حقيقة تنزيله ولا في أنه هو بالذات المنزل من عند الله لهداية المتقين المؤمنين بالله وبصدق هذا الكتاب .

ونلاحظ بادئ ذي بدء أن السياق يقرر الحقيقة وينتهي من تقريرها في هذه الكلمات القلائل ، لأنه لم يعد يرد على المكذبين والمجادلين الذين يجادلون في صدق الوحي والرسالة وفي أن الكتاب منزل من عند الله .. إنه يخاطب المؤمنين اليوم مباشرة ، بعد أن تميزوا عن الكفار في مجتمعهم الجديد القائم بذاته ، وصار الكلام والتوجيه لهم خاصة ، وإن كان يحدثهم ــ في السورة ــ عن المشركين والمنافقين واليهود والنصارى .. ولكنه يحدثهم ليعلّمهم ، ويعرفهم بأحوال هذه الفئات ومواقفها ، لا ليجادلها جدالاً مفصلاً في صحة الوحي والكتاب ..

السياق إذن يقرر الحقيقة في هذه العبارة الموجزة ثم يمضي إلى تقرير سمات « المتقين » هؤلاء ، الذين هم هذه الأمة الجديدة الآخذة في التكوين . وهو تقرير وتوجيه في ذات الوقت . تقرير لسمات هذه الأمة كما هي في علم الله وتقديره ، وتوجيه للأمة كذلك أن تلتزم بهذه الصفات ، لأنها هي الصفات المطلوبة في « المتقين » .

« الذين يؤمنون بالغيب .. »

تلك هي الصفة الأولى للمؤمنين .. والصفة الكبرى لهم كذلك ..

إن الإيمان بالغيب لهو من الصفات التي كرم الله بها بني آدم .. فلم يَشأْ لهم سبحانه أن تكون حياتهم محصورة في دائرة ما تدركه الحواس فحسب ، بل شاء لهم ــ فضلاً منه وكرماً ــ أن تكون حياتهم أوسع من ذلك وأرحب ، وأن تكون في أرواحهم القدرة على الإيمان بما لا تدركه الحواس [وإن كانت تستطيع أن تدرك آثاره] وأن تستطيع الاتصال بالله مباشرة ، عن غير طريق الحس ، لتقبس من نوره ، وتعود أرحب وأصفى وأشفّ ، وأقدر على القيام بالمهمة الكبرى التي خلق الله من أجلها الإنسان !

ومن عجب أن الجاهلية الحديثة تريد أن تطمس هذه النافذة المضيئة في روح الإنسان ، فتروح تعيب عليه أن يؤمن بالغيب ، وتقول : هذه خرافة ورجعية وتخلف .. وإن الإنسان « الحديث » ينبغي أن يؤمن بالعلم ، ولا يؤمن بالغيبيات ! !

عجباً ! أيمنّ الله على الإنسان بجناحين ، يحلق بأحدهما في عالم العلم ، ويحلق بالآخر في عالم الغيب .. أو يحلق بهما معاً في هذا العالم وذاك .. ثم نقول للإنسان : قصّ أحد جناحيك وألْقِ به عنك لأنه لا حاجة لك به ، واجثم على الأرض عاجزاً عن التحليق بجناح واحد .. لكي تصبح « إنساناً حديثاً » يليق بالقرن العشرين ؟!

لا جرم أنه بهذه الصورة يصبح بالفعل لائقاً بجاهلية القرن العشرين !

وماذا يكسب الإنسان حين يطمس روحه ويحصر نفسه في دائرة ما تدركه الحواس ؟!
يزداد علماً ؟! وهل يمنع الإيمان بالغيب من الإيمان بالعلم والبحث والدراسة والتجريب ؟
ومن الذي توصل إلى المنهج التجريبي في البحث العلمي ؟ أليسوا هم أولئك المؤمنين بالغيب ، الذين حققوا كرامة « الإنسان » كاملة ، لأنهم حققوا كيان « الإنسان » كله ، بحسه وروحه سواء ؟!
ألا ما أبأس هذه الجاهلية التي تعيّر الإنسان بأنه يؤمن بالغيب .. لتطمس روحه وتحجبها عن الله !
وإن وضع هذه الصفة في مقدمة صفات « المتقين » لا تجيء اعتباطاً .. فكيف « يتقون » إن لم يؤمنوا بالله وهو غيب ، وبالوحي وهو غيب ، وباليوم الآخر وهو غيب ، وبالثواب والعقاب وهو غيب ؟!
إن قاعدة حياة المؤمن الرئيسية هي إيمانه بالغيب ، الذي يتم عن طريقه إيمانه بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين والقدر خيره وشره .. ويتقرر عن طريقه خط سلوكه كله في الحياة الدنيا ، وخط مشاعره ، وخط تفكيره ..
« الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون » .
إن الإيمان ينبغي أن يأخذ في حياة المؤمن صورة عملية محسوسة . ينبغي أن ينعكس في صورة سلوك عملي . والإيمان بالغيب ، الذي يتضمن الإيمان بالله واليوم الآخر ، ينبغي أن تصاحبه إقامة الصلاة لأنها هي الصلة الروحية بين العبد وربه ، والفرصة التي تقبس فيها الروح من نور الله . كما ينبغي أن يصاحبه الإنفاق من رزق الله ..
« والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون » .
وقد سبق أن أشرنا إلى أن الإيمان بالكتب السابقة والرسل السابقين يوسع « انتماء » المؤمن بدلاً من أن يحصره في نطاق معين ، فيرحب بذلك أفقه وتعمق جذوره في الأرض ، فضلاً على كونه ضرورة عقيدية : أن يعرف أن الله لم يترك عباده سدى منذ بدء الخليقة ، إنما أرسل لهم دائماً من يعلمهم حقيقة الألوهية وحقيقة الربوبية وحقيقة العبادة ..
ثم أشرنا كذلك إلى المعنى الخاص بالنسبة لهذه الأمة بالذات ..
إنها الأمة الخاتمة ، والأمة المقدر لها في علم الله أن تكون هي الرائدة والمشرفة على البشرية : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » [1] .
والأمة التي هذه مهمتها ، والمقدر لها أن تكون هي الوارثة لعهد الله ، ينبغي أن يتسع صدرها لأصحاب الرسالات السابقة ، الذين قدر الله أن يكونوا في ذمتها ، وأن

---

(١) سورة البقرة [١٤٣] .

يكون ذلك عن طريق الإيمان بتلك الرسالات ، حتى وإن كان أصحابها قد مرقوا منها وحرفوها !

إن الأمم السابقة لم يتسع صدر بعضها لبعض ، لأنها كفرت برسالات بعضها بعضاً : « وقالت اليهود ليست النصارى على شيء ، وقالت النصارى ليست اليهود على شيء ، وهم يتلون الكتاب ! »[1] ولذلك قام بينهم من التعصب الديني والاضطهاد الديني ما سجله التاريخ ..

أما هذه الأمة التي يراد لها أن تكون هي الشاهدة على البشرية ، والتي سينضوي تحت حكمها من اليهود والنصارى ما قدر الله ، فلا ينبغي لها ذلك التعصب الديني ، ولا ينبغي أن يصدر عنها اضطهاد ديني ، وهي التي أنشئت لتكون النموذج لكل البشرية : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »[2]

إنما تكون أمة متسامحة ، يتسع صدرها للآخرين ــ رغم انحرافاتهم وتحريفاتهم ــ ما لم يقوموا بحربها والعدوان عليها : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم . إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم . ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون »[3] .

لذلك يبرز السياق في مفتتح السورة التي تحدد سمات الأمة المؤمنة وتعدها للقيام برسالتها ، صفة الإيمان « بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك » لأنها من مقومات هذه الأمة ، ومن معيناتها للقيام برسالتها العالمية التي تعدّ لها منذ هذه اللحظة ..

« .. وبالآخرة هم يوقنون » .

والإيمان بالآخرة داخل ضمن الإيمان بالغيب ، ولكن السياق يبرزه ليعطيه أهمية خاصة .. فقد سبق أن بينا أن الإيمان بالآخرة هو الطريق الذي يعلم الله سبحانه وهو اللطيف الخبير أنه يعين الإنسان على الاستقامة في الدنيا ، والالتزام بحدود الله .

وهذه الأمة ــ ذات الرسالة العالمية ــ في حاجة شديدة إلى الإيمان بالآخرة ، ليستقيم سلوكها ، لا لنفسها فحسب ، بل لتعطي النموذج للحياة الإنسانية النظيفة المعتدلة القائمة بالقسط .. لذلك فهي حاجة أن يبلغ الإيمان بالآخرة عندها درجة اليقين الذي لا يهتز ولا يشوبه الشك « وبالآخرة هم **يوقنون** » .

« أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون » .

---

(١) سورة البقرة [١١٣] .

(٢) سورة آل عمران [١١٠] .

(٣) سورة الممتحنة [٨ - ٩] .

أولئك الذين هذه صفاتهم وهذه سماتهم ، هم « على هدى من ربهم » .. فكذلك يفعل الهدى الرباني في نفوس الناس ومشاعرهم ، وكذلك يصوغها تلك الصياغة الربانية المعجبة التي تشف وتضيء ، والتي تسير مستقيمة على الأرض وروحها المجنحة تحلق في السماء ..

« وأولئك هم المفلحون » .

المفلحون في كل جوانب الفلاح ومجالاته .. فقد كتب الله لمن تكون هذه صفاتهم وسماتهم ، الذين اهتدوا بالهدي الرباني فصاغ نفوسهم ومشاعرهم على هذا النحو ، أن يكونوا هم المفلحين في الدنيا والآخرة جميعاً ..

فأما في الدنيا فقد أُهِّلوا بهذه الصفات للفلاح .. فإن الإنسان حين يكون على هذه الصورة ، تكون مكوناته الفطرية قد وضعت في أفضل أوضاعها ، ويكون كما خلقه الله « في أحسن تقويم » ولذلك يكون الفلاح هو ثمرة جهده ، وثمرة انطلاقه في هذه الأرض ، يقوم بعمارتها على الهدي الرباني ، وينشئ فيها الحكومة الراشدة التي تحكم بما أنزل الله ، ويقيم العدل الرباني في الأرض ، ويقيم النظافة الخلقية والشعورية والفكرية والسلوكية .. فتتم صورة الفلاح كاملة في الأرض ، خاصة والله قد وعد الذين هذه حالهم بالتمكين في الأرض والاستخلاف : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً » [1] .

أما الفلاح في الآخرة فقد تكفل به الله سبحانه وتعالى للمؤمنين : أن يدخلهم الجنة والنعيم المقيم .. وبذلك يجتمع لهم الفلاح كله : فلاح الدنيا وفلاح الآخرة ، فلا جرم يقول : « وأولئك هم المفلحون » .

ولقد شهدت هذه الأمة « الفلاح » في واقعها التاريخي حين كانت مستوفية لهذه الصفات التي أوردها السياق بالفعل ، فكان في يدها القوة والمال والسلطان ، والعلم والحضارة والعمران .. وكانت الشعلة المضيئة للبشرية كلها لحين من الزمان ..

* * *

بعد هذا الاستفتاح الذي حدد فيه سمات المؤمنين وأوصافهم ، يتحدث عن غير المؤمنين وسماتهم وأوصافهم .

والتقسيم الغالب في القرآن هو تقسيم الناس إلى مؤمنين وكافرين . وكان كذلك الحال في العهد المكى كله . ولكن هنا ــ في المجتمع المدني ــ بدأت تظهر فئة جديدة من البشر ،

---

(١) سورة النور [٥٥] .

هي ليست فئة « ثالثة » غير المؤمنين والكافرين ، فإنه لا توجد فئة غير هاتين : « خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن »[1] ولكنها فئة متميزة داخل فريق الكافرين ، وهي فئة المنافقين .

هذا التقسيم الثلاثي إلى مؤمنين وكافرين ومنافقين [وهم أشد كفراً] يجيء في مقدمة سورة البقرة ليصف حال المجتمع الذي يحيط بالدولة الناشئة . فالكفار من مشركي العرب جانب ، والمنافقون من يهود المدينة الذين زعموا الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم وهم يضمرون الكفر به والحقد عليه ويعملون بكل وسائلهم الخسيسة لمحاولة اجتثاث الإسلام من المدينة ، جانب آخر [ولم يكن بعد قد برز المنافقون من أهل المدينة من العرب وعلى رأسهم عبد الله بن أبيّ بصورة حادة ، ولكنهم كانوا موجودين ، وكانوا يوالون اليهود ويدبرون معهم في الخفاء للقضاء على المسلمين !]

وكما يحيط هؤلاء وهؤلاء بالمسلمين في عالم الواقع ، فإنهم يحيطون بهم كذلك في سياق السورة !

« إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم » .

وفي آيتين اثنتين انتهى من وصف الكفار الصرحاء ، الذين وقفوا موقف الكفر الواضح في قولهم وفي سلوكهم وفي تدابيرهم ..

أما الكفار المنافقون فيستغرق وصفهم ثماني آيات كاملة ، ثم يستمر الحديث في تمثيل حالهم خمس آيات أخرى ، فكأنما تحدث عنهم السياق ثلاث عشرة آية متوالية !

هذه العناية بإبراز صفات المنافقين لها أسباب محلية في مجتمع المدينة ، وأسباب دائمة لا تقف عند مجتمع معين .

فقد كان موقف اليهود ـ في صورة المنافقين ـ جديداً على المسلمين ، سواء منهم المهاجرون الجديدون تماماً على هذا المجتمع ، أو الأنصار ، أهل المدينة القدامى ، الذين كانوا يعرفون اليهود ويتعاملون معهم ، ولكن في غير صورة المنافقين التي لبسها اليهود بعد حلول الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة . لذلك كان الأمر في حاجة إلى كشف وتنبيه مفصل لأحوالهم وسماتهم وسلوكهم ، حتى يحذرهم المؤمنون ويأمنوا كيدهم ..

أما السبب الدائم فهو أن المنافقين دائماً ـ وفي كل مجتمع ـ أخطر من الأعداء الصرحاء . فهؤلاء يكشفون لك موقفهم فتعرفهم ، وتتعامل معهم على أساس موقفهم المكشوف ، سواء قاتلتهم أو هادنتهم .. أما المنافقون ، الذين يظهرون لك الولاء وهم

(١) سورة التغابن [٢] .

يكيدون لك في الخفاء فهؤلاء أخطر وأصعب في التعامل معهم . فإن عاملتهم على أنهم أعداء راحوا يتباكون ويقولون عنك إنك تضطهد المخلصين الموالين ! وإن أمنت لهم جروك إلى المكيدة ! وذلك فضلاً على صعوبة كشفهم وتحديد أشخاصهم بسبب سلوكهم الملتوي ، الذي يظهر الصداقة ويبطن العداء ..

ولذلك فالسياق يضع العلامات الحمراء عليهم حتى يتجنبهم السائر في الطريق !

« ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون . وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا : إنما نحن مصلحون ! ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون . وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء ؟! ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ! وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا : إنا معكم إنما نحن مستهزئون ! الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون . أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين . مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون . صم بكم عمي فهم لا يرجعون . أو كصيّب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف أبصارهم ، كلما أضاء لهم مشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا . ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم . إن الله على كل شيء قدير » .

بعد ذلك يتجه السياق إلى الفريق الأول من الكفار يخاطبهم ، يدعوهم إلى الإيمان ، ومراجعة أنفسهم ليتبينوا موقفهم غير المنطقي وغير القائم على برهان ، وإن كان الحديث إليهم يأتي في صورة حديث موجه إلى « الناس » :

« يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم ، لعلكم تتقون . الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون . وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ــ ولن تفعلوا ــ فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة ، أعدت للكافرين » .

ثم يتحدث ــ للمقارنة ــ عن مصير المؤمنين :

« وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل ، وأتوا به متشابهاً ، ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون » .

ثم يعود إلى مخاطبة الكفار بمناسبة مثل ضربه الله من قبل [1] فقال الكافرون : ماذا أراد الله بهذا مثلاً ؟ هل يليق أن يضرب الله مثلاً بذبابة ؟

« إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما : بعوضة فما فوقها ! فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا فيقولون : ماذا أراد الله بهذا مثلاً ؟! يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين ، الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض . أولئك هم الخاسرون » .

إن المؤمنين يعلمون أن كل ما يقوله الله هو الحق . ويعلمون أن الله لا يضرب المثل إلا بالحق . أما الكافرون المطموسو البصيرة فلا يدركون فيم ضرب الله المثل ، وينظرون إلى الشكل دون الجوهر ، فيقولون : هل من المعقول أن يضرب الله مثلاً بالذبابة الحقيرة ؟ ! ولا يستطيعون أن يدركوا أن معجزة الخلق في الذبابة هي معجزة الخلق في كل شيء ، ولكنه ـ من أجل تعليمهم ـ ضرب لهم مثلاً بأحقر كائن في نظرهم ، ثم تحداهم أن يخلقوا مثله إن استطاعوا ، وهم لا شك لا يستطيعون !

ويواصل السياق الحديث إلى الكفار :

« كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ، ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون ؟ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم » .

حديث عن العقيدة . عن قدرة الله على الإحياء والإماتة ، وقدرته على الخلق ، وعلمه بكل الخلق .. على ذات الطريقة المتبعة في السور المكية !

وبمناسبة خلق السماوات والأرض ، وخلق ما في الأرض جميعاً للإنسان : « هو الذي خلق **لكم** ما في الأرض جميعاً » يتحدث عن خلق الإنسان ذاته .. وتجيء القصة في موضعها لتحقق عدة أهداف في وقت واحد !

« وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة . قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال إني أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ! إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ! فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس

---

(١) قيل إن الإشارة هي للمثل المضروب في سورة الحج [٧٣] : « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له : إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه . ضعف الطالب والمطلوب ! »

أبى واستكبر وكان من الكافرين . وقلنا : يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه . وقلنا : اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين . فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، إنه هو التواب الرحيم . قلنا : اهبطوا منها جميعاً ، فإما يأتينكم مني هدىً فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

تلك هي القصة الكاملة لخلق آدم وقصته مع الشيطان .. وهي لا تأتي في السور المدنية إلا في هذا الموضع من سورة البقرة . وقد تحدثنا عنها من قبل في باب مستقل فلا نحتاج إلى إعادة الحديث عنها في هذا المكان .. ولكن لنا معها في هذا السياق وقفات !

إنها أولاً : تلخص تلخيصاً وافياً **كل** ما جاء حول القصة في القرآن في العهد المكي مع إغفال بعض التفصيلات .. فإذا تذكرنا أن هذه هي السورة الأولى في المدينة ، وأنها نزلت لتحدد سمات المجتمع المسلم وتعطيه مقوماته الضرورية ، أمكن لنا أن ندرك قيمة هذا التلخيص في مفتتح العهد المدني .. إنه تذكرة بالدرس أو الدروس المستفادة من القصة ، قبل أن يبدأ التطبيق العملي لهذه الدروس !

لقد كانت القصة تورد في أماكن متفرقة من القرآن في العهد المكي بوصفها درساً في العقيدة !

والآن تلخص القصة وتقدم للتنبيه على أننا هؤلاء قد بدأنا مرحلة التنفيذ .. فخذوا حذركم ! احفظوا الدرس جيداً .. وإياكم أن تقعوا عند الامتحان !

هذه واحدة ..

والثانية عند كلمة « خليفة » : « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة » ..

إن هذا هو الموضع الوحيد في القرآن كله الذي تذكر فيه الخلافة في الأرض مرتبطة بخلق آدم .

جاء في سورة صٓ : « يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله . إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب »[1] ولكنه لا يحمل نفس المعنى المتضمن في قوله تعالى : « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة » ..

لقد كان ذكر القصة من قبل يأتي في العهد المكي ، والمسلمون مشردون في الأرض

---

(١) سورة صٓ [٢٦] .

لم يمكّنوا بعد . والآن ترد القصة في العهد المدني .. بعد أن قامت الدولة المسلمة وبدأت تتمكن في الأرض .. فهل لذلك علاقة بذكر الاستخلاف في هذا الموضع ؟!

ربما .. والله أعلم ! فهنا بعد أن استقر المسلمون في الأرض ، أصبح من المناسب أن يذكر لهم أن أباهم آدم خلق ليكون خليفة في الأرض . وهم ـ اليوم ـ هم ورثة الاستخلاف ، المطلوب منهم أن يقيموا الخلافة **الراشدة** في الأرض !

كذلك يذكر هنا لأول مرة ـ على كثرة ما ذكر من قبل من قصة آدم في السور المكية ـ قصة تعليم آدم الأسماء كلها :

« وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم . قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم . فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ؟ »

فهل هناك توجيه معين هنا من ذكر هذه القصة في مفتتح السورة المدنية الأولى التي جاءت لتحدد سمات المجتمع الإسلامي ؟

مرة أخرى نقول : ربما ! والله أعلم !

إن هذه الأمة التي بدأ استخلافها في الأرض مقدر لها في علم الله أن تكون هي المهيمنة على حياة البشرية فترة مديدة من الزمن . ومقدر لها كذلك أن تكون هي الأمة « العالمة » في الأرض في تلك الفترة من الزمن ، وأن تنشئ الحركة العلمية التي تعيش عليها البشرية قروناً أخرى فيما بعد .. فهل لذلك علاقة بذكر تعلم آدم للأسماء كلها ؟!

ثم يجئ في ختام القصة هذا التوجيه : « قلنا اهبطوا منها جميعاً ، فإما يأتينكم مني هدىً فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

ولقد ورد مثل هذا الختام من قبل في العهد المكى في سورة طه : « قال : اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو ، فإما يأتينكم مني هدىً فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال : رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً ؟ قال : كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى ، وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى »[1].

هناك كان يتحدث عن المصير في الآخرة فحسب .. كان حديثاً في العقيدة ..

ولكن الختام هنا ـ ولو أنه يتحدث عن المصير في الآخرة ، ويتحدث حديث

---

(١) سورة طه [١٢٣ - ١٢٧] .

العقيدة ـ إلا أنه يخدم أغراضاً أخرى !

إنه سيتحدث بعد هذا مباشرة عن بني إسرائيل : « يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ، **وأوفوا بعهدي** أوف بعهدكم وإياي فارهبون » .

ومن قبل تحدث عن الكفار الصرحاء : « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ، ثم يميتكم ، ثم يحييكم ، ثم إليه ترجعون . هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم » .

وتأتي القصة بين هذين الحديثين عن الكفار الصرحاء ، والكفار المنافقين من بني إسرائيل .. فما صلة القصة بهذا وذاك .. وما موضع الختام بين هذا وذاك ؟!

إن القصة كلها ـ بختامها ـ تخدم ـ كما قلنا ـ أغراضاً شتى ..

لقد بدأت السورة بوصف سمات المؤمنين ، للتقرير ـ كما قلنا ـ وللتوجيه ..

ثم راحت تعرّف المؤمنين بعدوّيهم المحيطين بهم في ذلك الوقت : المشركين ، وهم الكفار الصرحاء ، وبني إسرائيل وهم الكفار المنافقون .

ثم .. لكي يبين لماذا وجد هذا الوضع .. وضع وجود مؤمنين وكفار ، أَوْرَدَ قصة الإنسان الأول ـ آدم ـ الذي هؤلاء نسله : المؤمنون منهم والكفار كذلك .. وأورد فيها الموعظة الخاصة بفتنة الشيطان لآدم وإخراجه من الجنة .. ثم جاء ختام القصة ليقول إن الله عهد إلى آدم أنه سيرسل للناس « هدىً » فمن تبعه فأولئك هم الناجون ، ومن كفر به فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ..

هذا إذن هو منشأ وجود الكفار والمؤمنين في الأرض ...

هبوط آدم من الجنة ، وإرسال الهدى من عند الله ، فيتبعه بعض بني آدم ويكفر به آخرون ..

وإذن فقد جاءت القصة لتفسر وجود المؤمنين ، وهم الذين اتبعوا الهدي الرباني ، والكفار بِشِقَّيهم ، وهم الذين لم يتبعوه ..

ثم إنها تجئ كذلك مدخلاً للحديث المطول المفصل عن بني إسرائيل ، الذي جاء هنا لتعريف المؤمنين بعدوهم الجديد الذي برز في المدينة .. ومن ختام القصة يأتي المدخل إلى بني إسرائيل ! إن ختام القصة يتحدث عن **عهد** الله لآدم ، وجزاء من يفي بالعهد وجزاء من يخيس به .

وبمناسبة عهد الله لآدم يجيء ذكر عهد الله لبني إسرائيل .. إنه نفس العهد المبذول لآدم : إن أطاعوا واستقاموا على الطريق فلهم التمكين والاستخلاف في الأرض ، والجنة يوم القيامة .. وإن عصوا فلهم الضياع هنا وهناك ..

ومن هذه النقطة : نقطة العهد ، يبدأ ذلك الحديث المفصل المطول عن بني إسرائيل ،

يبين في كل خطوة كيف أنهم خانوا العهد ، وكيف أنهم لم يستقيموا مرة واحدة في تاريخهم كله على عهد واحد بذلوه ! !

« يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم ، وإياي فارهبون . وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ، ولا تكونوا أول كافر به ، ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ، وإياي فاتقون .... »

* * *

ولن نتتبع السياق بالتفصيل ..

إنما نقول فقط إن السياق قد لخص في الآيات التالية [من ٤٢ إلى ١٢٣] تاريخ بني إسرائيل الأسود كله ! كفرهم وكذبهم والتواءهم وقتلهم الأنبياء بغير حق ، وتبجحهم مع الله سبحانه وتعالى ، واستهتارهم بكل العهود والمواثيق ، وتحايلهم ومكرهم وخداعهم..

وينتهي الحديث الموجه إليهم طيلة هذه الآيات كلها بهذا الإنذار الأخير :

« يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين . واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون »[١] .

ثم بعد ذلك سيبدأ الحديث يوجَّه إلى المؤمنين ، ينظم لهم شئون حياتهم في المجتمع الجديد ..

فكيف انتقل من الحديث إلى بني إسرائيل إلى الحديث إلى المؤمنين ؟

لقد أتى السياق بوصلة بديعة تصل بين الحديثين ، وتفرق في ذات الوقت بين الأمتين !

إن الأمتين تنتهيان في النسب إلى إبراهيم عليه السلام .. فهو الجد المشترك لليهود عن طريق إسحاق ، وللعرب عن طريق اسماعيل ، وهما ابنا إبراهيم عليه السلام ..

ولقد أعطى الله إبراهيم العهد .. فجعله للناس إماماً .. وسأل إبراهيم ربه : هل يسري هذا العهد إلى ذريتي ؟

« وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ، قال : إني جاعلك للناس إماماً . قال : ومن ذريتي ؟ قال : لا ينال عهدي الظالمين » .

وإذن فقد نُبِّهَ إبراهيم عليه السلام أن العهد له ثم لذريته **إن استقاموا على العهد** ، فإن ظلموا فلا عهد لهم عند الله ..

---

(١) جاء هذا الإنذار ذاته بتنويع طفيف في عبارته في مبدأ الحديث إلى بني إسرائيل [٤٧ - ٤٨] « يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين . واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون » . فكأنما بدأ الحديث بالإنذار وختم به !

ومضى العهد في ذرية إبراهيم عن طريق اسحق ويعقوب [الذي هو إسرائيل] ثم في بني إسرائيل [أي بني يعقوب] حتى خرجوا عن العهد تماماً .. فانتقل العهد منهم إلى هذه الأمة الجديدة ، وهي من ذرية إبراهيم كذلك ـ عن طريق إسماعيل ـ ولكنها أمة مؤمنة مهتدية ، ولذلك أورثها الله العهد والكتاب . وها هو ذا سبحانه يبدأ في التمكين لها في الأرض ..

تلك هي القصة التي تحويها ـ صراحة وضمناً ـ تلك الوصلة البديعة التي تصل بين الحديثين ، وتفرق في ذات الوقت بين الأمتين ! فتعلن انتهاء استخلاف بني إسرائيل في الأرض ـ لأنهم ظلموا ـ وبدء استخلاف الأمة الجديدة لأنهم مهتدون ...

« وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات فأتمهن ، قال : إني جاعلك للناس إماماً . قال : ومن ذريتي ؟! قال : لا ينال عهدي الظالمين . وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً ، واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى . وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود . وإذ قال إبراهيم : رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات ، من آمن منهم بالله واليوم الآخر ، قال : ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير . وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل : ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا ، وتب علينا ، إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم . ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ؟! ولقد اصطفيناه في الدنيا ، وإنه في الآخرة لمن الصالحين ، إذ قال له ربه أسلم ، قال : أسلمت لرب العالمين . ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب : يا بَنِيّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون . أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوبَ الموت إذ قال لبنيه : ما تعبدون من بعدي ؟ قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق : إلهاً واحداً ونحن له مسلمون . تلك أمة قد خلت ، لها ما كسبت ، ولكم ما كسبتم ، ولا تسألون عما كانوا يعملون » ...

لقد كان آخر الحديث إلى بني إسرائيل ـ كما رأينا ـ هو ذلك الإنذار الأخير لهم أنهم إن لم يستقيموا فلا مفر لهم من الجزاء الصارم يوم الجزاء ..

ولقد كان ذلك في الحقيقة إرهاصاً بنفض اليد منهم ، لأنهم ـ على ضوء ما مر من تاريخهم في السرد المفصل السابق ـ لا ينتظر منهم أن يستجيبوا لذلك النذير . إنما المعنى الحقيقي للنذير أنه : قد أنذرناكم بما فيه الكفاية ، فاليوم نعلنكم أن دوركم في الاستخلاف قد انتهى وأننا عهدنا إلى أمة أخرى ، هي أحق منكم بالعهد والولاية والاستخلاف ..!

ثم كأنما يعرض السياق مؤهلات الأمة الجديدة للاستخلاف ، أو « وثيقة العهد » التي تستحق بموجبها الاستخلاف !

إنها وثيقة قديمة في التاريخ ! فهذه الأمة لم تولد اليوم في الحقيقة ! إنما ولدت من عهد قديم جداً ! هو ذات العهد الذي ولدت فيه أمة بني إسرائيل ! ولكنها كانت بذرة كامنة في الأرض تنتظر دورها حين يجيء دورها المقدر في علم الله ..

إن الأمر يرجع في الماضي السحيق إلى إبراهيم نفسه ، الذي يدعي بنو إسرائيل أنهم ـ وحدهم ـ ورثة عهده .. وإلى أبد الآبدين !

فالآن يكشف السياق ـ في أنسب لحظة ـ عن هذه الوثيقة التاريخية الهامة ، التي تُنْتَزَع بموجبها الخلافة من بني إسرائيل وتعطى للأمة الجديدة !

« وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن . قال : إني جاعلك للناس إماماً ، قال : ومن ذريتي ؟ قال : لا ينال عهدي الظالمين ! »

لقد وقع لإبراهيم ذلك الابتلاء الهائل حين أمر بذبح ابنه الحبيب إسماعيل ، فاستجاب لأمر الله هو وإسماعيل و « أسلما » لهذا الأمر الذي ترتج له القلوب : « فلما أسلما ، وتله للجبين ، وناديناه أن يا إبراهيم ، قد صدقت الرؤيا ، إنا كذلك نجزي المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم . وتركنا عليه في الآخرين . سلام على إبراهيم . كذلك نجزي المحسنين ، إنه من عبادنا المؤمنين »[1] .

ولما تم الابتلاء على هذه الصورة الرهيبة الرائعة ، واجتاز إبراهيم الابتلاء مستقر القلب بالإيمان والتسليم الكامل لله ، اصطفاه الله للإمامة ، جزاء على هذه الدرجة الرائعة من التجرد لله : « قال إني جاعلك للناس إماماً » ..

و بمشاعر البشر ، التي لا تفارق البشر حتى وهم أنبياء تطلع إبراهيم أن تكون الإمامة من حظ ذريته من بعده : « قال ومن ذريتي ؟! » إنه سؤال مهذب لطيف ، ولكنه يحمل في طياته تلك اللهفة التي يحسها الآباء على مصير أبنائهم ، والرغبة المتطلعة إلى المكانة الرفيعة لهم في الأرض .

ولكن الرد الرباني يأتي حاسماً لا يجامل أحداً ولو كان هو إبراهيم الخليل ، ولو كان في لحظة التكريم والتقريب : « قال : لا ينال عهدي الظالمين » . ولعل في ذلك إيذاناً بأنه سيكون من ذرية إبراهيم ظالمون .. وأن العهد سينزع منهم .

« وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً ، واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى . وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود » .

---

(١) سورة الصافات [١٠٣ - ١١١] .

إن « البيت » الذي تستند إليه الأمة الجديدة ويرتبط تاريخهم به ، قديم في التاريخ ، ومرتبط ارتباطاً قوياً بإبراهيم ، الذي يريد بنو إسرائيل أن « يستوعبوه » لهم وحدهم ، ويزعموا أن كل ما يختص بإبراهيم فهو شأنهم وحدهم !

ولقد جعل الله البيت مثابة للناس وأمناً .. يثوب إليه الناس فيؤَمِّنهم من فزعهم ، سواء فزع الدنيا أو فزع الآخرة ، وأمر أن يتخذ مقام إبراهيم مصلى ، تعظيماً لإبراهيم ورفعاً لشأنه .. وإن البيت كله لمصلى .. ولكن مقام إبراهيم مكان متميز في البيت ، والصلاة فيه ذات شأن خاص ..

وبهذه المناسبة يذكر أن الأمر الرباني كان قد صدر لإبراهيم وإسماعيل أن يطهرا البيت للطائفين والعاكفين والركع السجود ..

ويدعو إبراهيم ربه في بيته المعظم أن يمن على البلد الذي يحوي هذا البيت ، ولكنه الآن قد وعى الدرس الذي تلقاه وهو يطلب العهد لذريته !

« وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات **من آمن منهم بالله واليوم الآخر** ... »

لقد تعلم إبراهيم عليه السلام .. فلم يعد يطلب من الله لكل ذريته ! إنما لمن آمن منهم بالله واليوم الآخر .. ولكن أمر الرزق في الحياة الدنيا من ثمرات الأرض شيء غير ولاية العهد ! إن الله يبذل الدنيا لمن أراد ! « كُلاًّ نمد : هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ! وما كان عطاء ربك محظوراً ! »[1] .. فلا بأس على إبراهيم أن يطلب الرزق والثمرات لمن آمن ومن لم يؤمن ! ولكنه إذ لم يفعل ، ملتزماً بالتوجيه الرباني السابق . فإن الله يُعْلِمه بهذه الحقيقة :

« ... قال : ومن كفر فأمتعه قليلاً ، ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ! »

إن الله يعلن إبراهيم أنه استجاب دعاءه ، وأنه لن يقصر رزق الثمرات على المؤمنين وحدهم ، ولكنه سيعطيه كذلك لمن كفر ، ولكنه « متاع قليل » .. ثم مأواهم جهنم وبئس المصير .. ولفظة « أضطره » تلفت الحس وتثير الخيال ليتتبعها ! إن الكافر لن يكون بطبيعة الحال مقبلاً على النار ذاهباً إليها باختياره ! ولكن الله **سيضطره** اضطراراً إليها ! ويرتسم في الخيال صورة الذي يريد أن يفر يبحث عن مهرب هنا أو مهرب هناك فإذا بقوة هائلة تقبض عليه قبضاً ثم تدفعه دفعاً لا يملك مقاومته .. حتى تذهب به إلى حيث يلقى في عذاب النار !

ثم يأتي هذا الدعاء الخاشع المطوّل ، الذي يدعو به إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعان قواعد البيت :

---

(١) سورة الإسراء [٢٠] .

« وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل : ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا ، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم » .

« وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل .. » ولا يقول السياق : يقولان ربنا تقبل منا .. وإنما يجئ مباشرة : « ربنا تقبل منا .. » إن كلمة « يقولان » مقدرة في السياق . ولكن تقديرها وعدم إظهارها في السياق يعطي المعنى قوة كبيرة بتأثير المفاجأة التي يعمل الخيال لمواجهتها . فالخيال يتتبعهما أولاً وهما يرفعان القواعد من البيت ، وفجأة يُسْمَعُ صوتهما يدعوان : « ربنا تقبل منا .. » فتكون هذه المفاجأة أدعى للالتفات لهذا الدعاء ومتابعته !

« ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم » تسمع دعاءنا وتعلم إخلاص قلوبنا فتقبل منا ..

« ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك .. »

إن التأدب الواجب مع الله يقتضي منهما أن يرفعا أمر إسلامهما إلى الله .. إنهما مسلمان بالفعل ، وقد مرا منذ قريب بتجربة هائلة وابتلاء مبين . ولكنهما لا ينسبان لأنفسهما ذلك الإسلام في الحاضر ولا في المستقبل . إنما يدعوهما الأدب مع ربهما أن يقولا : « ربنا واجعلنا مسلمين لك .. » ثم تدركهما عواطف البشر الفطرية نحو الذرية المرتقبة فيقولان : « ومن ذريتنا أمة مسلمة لك .. » ولقد علم إبراهيم من قبل أن العهد لن يكون إلا للذرية المسلمة إذ قال الله له : « لا ينال عهدي الظالمين » فهو يدعو أن تكون من ذريته أمة مسلمة ليستمر فيها العهد ولا ينزع منها ، وكذلك يدعو إسماعيل .. ولكن السياق حين يقول « أمة **مسلمة** » يعد أذهاننا لمعرفة تلك الأمة التي يشير إليها ؛ حتى إذا قال فيما بعد « ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم .. » تحددت الأمة وتعينت .. إنها هذه الأمة التي صارت تعرف باسم الأمة المسلمة والتي رسولها هو رسول الإسلام **صلى الله عليه وسلم** ..

« .. ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا ، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم » .

إن إبراهيم وإسماعيل يدعوان الله أن يريهما كيف يعبدانه .. « وأرنا مناسكنا » والمناسك تشمل شعائر التعبد جميعاً . ولكنها أخذت معنى اصطلاحياً فصارت تطلق على مناسك الحج خاصة ! ومناسك الحج متعلقة تعلقاً واضحاً بإبراهيم وإسماعيل بالذات ، فكان من التناسق « الفني » أن يجيء ذكر المناسك على لسان إبراهيم واسماعيل !

« وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم » .

ومن التناسق الفني البديع كذلك هذه المدات الطويلة ، التي تعطي جو الإطالة في الدعاء ذاته ! « تقبل **منّا** إنك أنت السميع العليم » « .. ومن **ذريتنا** أمة مسلمة لك .. » « وتب **علينا** إنك أنت التواب الرحيم » حتى إذا حان انتهاء الدعاء قال « ... ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم » بغير مد كالسابق ، إشعاراً بانتهاء الدعاء ! !

« ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم . إنك أنت العزيز الحكيم » ..

هذه هي الوثيقة التاريخية الهامة التي يعلمها بنو إسرائيل جيداً ولكنهم يخفونها لأن إعلانها ليس في صالحهم ! إن الرسول صلى الله عليه وسلم هو دعاء إبراهيم وإسماعيل ! ولقد دعا إبراهيم وإسماعيل ربهما أن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة ويبعث فيها رسولاً منها .. وها قد آن أوان هذه الدعوة التي استجيبت من فورها ، ولكنها ظلت في قدر الله وعلمه حتى آن أوانها المقدور ..

وإذن فهذه الأمة قديمة ، مسجلة وموثقة على لسان إبراهيم نفسه ، الذي يزعم بنو إسرائيل أنهم هم وحدهم المختصون بكل تراثه ! ومسجلة وموثقة كذلك على لسان إسماعيل بن إبراهيم وفي حضور إبراهيم عليه السلام وبموافقته ومصادقته ! فلا مجال لبني إسرائيل أن يقوموا بأي تشكيك في وثاقة هذه الأمة وصدق رسولها صلى الله عليه وسلم بعد إعلان هذه الوثيقة الخطيرة ..

ثم إن هذه الوثيقة تعلن الآن بالذات ، لا قبل ذلك .. في اللحظة المناسبة لإعلان قيام الأمة المسلمة والدولة المسلمة ، ونزع الخلافة والسلطان من الذرية الظالمة تحقيقاً لوعد الله من قبل : « قال : لا ينال عهدي الظالمين » ..

وفي الوقت نفسه كذلك تعلن الأسباب التي دعت إلى نزع الخلافة والسلطان من تلك الذرية الظالمة ..

« ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ؟!»

إن ملة إبراهيم هي هذه التي يحملها محمد صلى الله عليه وسلم ويسير على هداها : « قل : إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين »[1] « ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين »[2] .. فمن رغب عن الدخول في ملة محمد صلى الله عليه وسلم فقد رغب عن ملة إبراهيم ، وهي الهدى وهي الحق الذي لا يرغب عنه إلا من كان سفيهاً لا يحسن الإدراك ولا يحسن التقدير ..

---

(١) سورة الأنعام [١٦١] .

(٢) سورة النحل [١٢٣] .

والتعبير يقول : « إلا من سفه نفسَه ! » يعني لم يحسن التقدير لنفسه .. ولكنه يوحي بمعنى : من أَخْسَرَ نفسه .. أو من أهلك نفسه .. فيؤدي المعنيين في آن واحد : لم يحسن التقدير لنفسه فأوردها موارد الخسران والهلاك ..

ثم كأنما يشرح ملة إبراهيم التي يَسْفُهُ من يرغب عنها :

« .. ولقد اصطفيناه في الدنيا ، وإنه في الآخرة لمن الصالحين ، إذ قال له ربه أسلم ، قال : أسلمت لرب العالمين » .

هذه هي ملة إبراهيم : المسارعة إلى الإسلام لرب العالمين . فالسياق يوحي أنه بمجرد أن « قال له ربه : أسلم ، قال : أسلمت » ومن أجل هذه المسارعة إلى الإسلام فقد اصطفاه ربه في الدنيا والآخرة .. فمن يرغب عن هذه الملة المؤدية إلى هذا الخير إلا من سفه نفسه ؟!

ثم إن الوثيقة الهامة التي تنشر اليوم تحوي سراً خطيراً يدين بني إسرائيل ويؤهل لنزع السلطان والخلافة منهم !

« ووصى بها إبراهيم بنيه **ويعقوب** : يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم **مسلمون** ! أم كنتم شهداء إذ حضر **يعقوب** الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي ؟ قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم **وإسماعيل** وإسحق ، إلهاً واحداً ونحن له مسلمون » .

إن هذه الوصية الخطيرة هي إدانة كلها لبني إسرائيل الذين يرفضون الإسلام مع محمد صلى الله عليه وسلم .. لقد وصاهم أبوهم يعقوب ألا يموتوا إلا وهم مسلمون . ومؤدى ذلك أن يتبعوا الإسلام حيثما وجد ويعتنقوه ليموتوا عليه . والإسلام اليوم مع محمد صلى الله عليه وسلم وعلى يده ، فالعمل بوصية أبيهم يعقوب يستدعي أن يتبعوا رسول الإسلام ، الذي يحمل ملة إبراهيم ويسير على هداها .. ثم إن أبناء يعقوب المباشرين وهم الأسباط الاثنا عشر جدود بني إسرائيل قد تعهدوا أن يعبدوا إلهاً واحداً هو إله إبراهيم **وإسماعيل** وإسحق .. وذكر إسماعيل هنا بالذات على لسان الأسباط له دلالته إزاء إنكار بني إسرائيل لفرع إسماعيل كله ، ورفضهم الإسلام على يد محمد صلى الله عليه وسلم لأنه من نسل إسماعيل وليس من نسل إسحق ! لقد تعهد الأسباط أن يعبدوا إله إبراهيم وإسماعيل وإسحق ، إلهاً واحداً .. هو الله سبحانه وتعالى . وإله إبراهيم هو بطبيعة الحال إله إسماعيل وهو إله إسحق .. ولكن اليهود بموقفهم كأنما يزعمون أن إله إبراهيم هو إله إسحق فحسب ، وليس إله إسماعيل ! ! وأنهم في حل ألا يعبدوا إله إسماعيل الذي هو إله محمد صلى الله عليه وسلم ! ! اكتفاء ـ في وهمهم ـ بعبادة إله إبراهيم وإله إسحق !

ومن هنا تجيء أهمية ذكر إسماعيل في تعهد أبناء يعقوب ، أن يعبدوا إله إبراهيم

وإسماعيل وإسحق « إلهاً واحداً ونحن له مسلمون » فلا حجة لهم اليوم أن ينكروا فرع إسماعيل ، والنبي المبعوث من فرع إسماعيل صلى الله عليه وسلم ..

ثم تجيء « المفاصلة » بين الأمتين على أثر إعلان تلك الوثيقة الهامة :

« تلك أمة قد خلت ، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم . ولا تسألون عما كانوا يعملون » .

لقد انتهت صفحة تلك الأمة وبدأت صفحة جديدة لأمة جديدة .. هي التي سيتناولها السياق منذ هذه اللحظة ويوجه إليها البيان !

« وقالوا : كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ! قل : بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . قولوا : آمنا بالله وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتي موسى وعيسى ، وما أوتي النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم . صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون . قل : أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ؟ ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، ونحن له مخلصون . أم تقولون : إن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى ؟ قل : أأنتم أعلم أم الله ؟ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ؟ وما الله بغافل عما تعملون . تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ، ولا تسألون عما كانوا يعملون » .

إن الحديث متصل من حيث الموضوع ، ولكنه يوجَّه الآن للمؤمنين :

« وقالوا : كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ! قل : بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » .

رغم ما سبق إعلانه من وصية يعقوب لبنيه فإن اليهود والنصارى يقولون للمسلمين : كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ! ويوجَّه الرسول صلى الله عليه وسلم أن يرد عليهم رداً باتًّا حاسماً : « قل : بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » .. فإن كنتم تزعمون أنكم على ملة إبراهيم فها هو ذا المحك .. أنا على ملة إبراهيم ، وأنا أدعو إلى ملة إبراهيم ، الذي كان مستقيماً إلى الله ، وما كان من المشركين .. فما موقفكم من هذه الدعوة المستقيمة التي لا عوج فيها ولا اضطراب ؟ ثم يوجّه المؤمنون كذلك أن يردوا على هذه الدعوى :

« قولوا : آمنا بالله وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتي موسى وعيسى ، وما أوتي النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون » .

إنها إجابة تقرر حقيقة .. وتقطع الطريق على كل جدل فارغ .. وتعلن في ذات الوقت هذه السمة الخاصة التي تتميز بها تلك الأمة المهيمنة ، ذات الدعوة العالمية ..

تقرر حقيقة إذ تقرر أن هذه الأمة قد آمنت بالله وما أنزل إليها على محمد صلى الله

عليه وسلم ، وما أنزل على الأنبياء جميعاً من قبل ، فالأنبياء جميعاً جاءوا بكلمة واحدة وقضية واحدة : لا إله إلا الله .. اعبدوا الله ما لكم من إله غيره .. وهذه الأمة مؤمنة بهذه الكلمة وهذه القضية ، ومؤمنة بكل من جاء بها من الأنبياء والرسل من قبل ، لا تفرق بين أحد منهم ، وهي مسلمة لله الذي دعا إليه كل هؤلاء ..

وتقطع الطريق على الجدل الفارغ إذ تقرر أن هذه الأمة مؤمنة بإبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى وبما أنزل إليهم .. فماذا يريد المجادلون أن يقولوا أكثر من ذلك ؟ إن كل ما يقوله كل فريق منهم داخل في هذا الإقرار .. فماذا بقي لهم ؟! إنما هم الذين يكذب بعضهم بعضاً ، ويؤمنون ببعض الأنبياء ويكفرون ببعض .. فليرجعوا إلى أنفسهم ويصلحوا أحوالهم ! أما المؤمنون فما هم في حاجة إلى دعاواهم الفارغة ، فهم مؤمنون ابتداء ــ وحقيقةً ــ بما يزعم كل فريق منهم أنه مؤمن به ، مجرد زعم لا رصيد له من الواقع ! ولو كانوا هم مؤمنين حقاً بما يزعمون أنهم مؤمنون به ، لأدى بهم ذلك إلى الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذي يقول نفس ما قالوه ، ويعرض نفس ما عرضوه ، فضلاً على أنه يحمل ملة إبراهيم ويسير على هداها ، وهي التي يزعم كل فريق أنه ممثلها الأوحد !

ثم إنها تعلن تلك السمة الخاصة التي تتميز بها هذه الأمة .. إنها لا تحمل في صدرها حرجاً من رسول سابق ، ولا تنكر كتاباً من الكتب المنزلة .. وبينما يتصارع كل فريق منهم ، يثبت كتابه ورسوله وينفي كتاب الآخرين ورسولهم ، تجيء هذه الأمة في اطمئنان الإيمان وأصالة الإيمان ، تعلن أنها مؤمنة بالرسل جميعاً والكتب المنزلة جميعاً .. وأنها لا تحمل في صدرها غلاً لأحد ولا حرجاً من أحد ! إنها السمة التي تؤهلها لدورها العظيم في الأرض ، الذي يعلم الله أنه سيكون من نتائجه دخول يهود ونصارى في ذمة المسلمين ، فيعاملونهم بالتسامح الذي يليق بالأمة الخاتمة ، والأمة الرائدة التي بيدها مشعل النور لكل البشرية !

ويستمر السياق يخاطب المؤمنين :

« فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا .. » وهو احتمال ضعيف بعد الذي مر من بيان سلوكهم !

« وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم » شقاق مع الله ، وشقاق ما بين كل فرقة وفرقة ، وشقاق في داخل كل فرقة ! والله متكفل سبحانه بأن يكفي رسوله شرورهم وكيدهم ، وهو السميع العليم .

« صبغة الله . ومن أحسن من الله صبغة ؟ ونحن له عابدون » ..

إننا نحن ــ هذه الأمة المسلمة ــ صبغة الله ! إننا من صنع الله سبحانه وتعالى ، على عينه ، وعلى منهجه الرباني .. ومن أحسن من الله صبغة ؟! هل هناك وجه للمقارنة بين هذه الأمة التي صنعها الله لتؤدي تلك الرسالة الخاتمة ، وفتات تلك الأمم التي اختفت

صبغة الله منها بانحرافها عن الطريق ؟

« ونحن له عابدون » أما أنتم ... ؟!

« قل : أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ؟! »

إن بني إسرائيل يقولون دائماً « إله بني إسرائيل ! » كأنما هو إلههم وحدهم ! والنصارى يقولون : « الرب إلهنا ! » ويقولون ـ نستغفر الله ـ « أبانا الذي في السماوات .. » ثم ينكر هؤلاء وهؤلاء أنه ـ سبحانه ـ إله أحد غيرهم ! فهنا يرد عليهم :

« قل : أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ؟! » فيقرر عقيدة هذه الأمة الصافية : أن الله رب الجميع ..

« ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم » .. والحكم في النهاية بالأعمال ، وليس بالدعاوى التي يدعيها كل فريق : « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ! قل : فلم يعذبكم بذنوبكم ؟ بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ؛ ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما وإليه المصير »[1].

« ونحن له مخلصون » .. أما أنتم فلتنظروا في أعمالكم ، ولتنظروا في قلوبكم ، لتروا مدى إخلاصكم الحقيقي لله ، الذي تزعمون أنه إلهكم وحدكم دون بقية العالمين !

« أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى؟»

تلك دعوى كل فريق ، التي يحاول بها أن « يستحوذ » على هذا الفريق من الأنبياء ليزعم أن العهد ماض فيه وحده !

« قل : أأنتم أعلم أم الله » ؟

والله يقول إن هؤلاء لم يكونوا هوداً ولا نصارى ، فإنما جاء اليهود من بعد ، والنصارى من بعد ، فكيف كان السابقون هوداً أو نصارى ، قبل أن يوجد اليهود ويوجد النصارى ؟

« ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله » .. والشهادة عندهم من الله أن هؤلاء جميعاً أنبياء ورسل أمر اليهود والنصارى أن يؤمنوا بهم ، ثم أن يؤمنوا بكل من جاء مصدقاً لدعوتهم : « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه . قال : أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري ؟ قالوا : أقررنا ! قال : فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين »[2].

وهذه هي الشهادة التي يكتمونها لأنها تلزمهم بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وهم لا يريدون .. « حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق »[3].

---

(١) سورة المائدة [١٨] .

(٢) سورة آل عمران [٨١] .

(٣) سورة البقرة [١٠٩] .

وهنا يجيء التهديد :

« وما الله بغافل عما تعملون » .

ثم يختم السياق مرة أخرى بصيغة المفاصلة التي تفصل بين الأمتين ، وتعلن انتهاء عهد الأمة الأولى ليبدأ عهد الأمة الثانية :

« تلك أمة قد خلت ، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ، ولا تسألون عما كانوا يعملون ».

* * *

يمضي السياق من هنا إلى نهاية السورة ينظم للمسلمين حياتهم الجديدة في المدينة ، فيحدثهم في سياق متصل عن تحويل القبلة وموقف اليهود من هذا الأمر ، وعن المشركين الذين يرفضون الإيمان . وعن المعنى الحقيقي « للبر » الذي هو حقيقة الإيمان . وعن القصاص . وعن الوصية . وعن الصيام . وعن الحج . وعن القتال في سبيل الله . ويرد على تساؤلاتهم بشأن الخمر والميسر ، وبشأن ما يجب عليهم في الإنفاق ، وبشأن اليتامى ، وبشأن المحيض . ثم يتحدث عن الأيمان ، ويمين الإيلاء ، وعن الطلاق في بيان مفصل مستفيض ، وعن الإنفاق في سبيل الله ، وعن الربا ، وعن الدَّيْن والتجارة والشهادة في الدين والشهادة في البيع والشراء .. ثم يختم السورة بتقرير صورة الإيمان الذي آمنه الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون ، وبالدعاء أن يعفي هذه الأمة مما وقع فيه مَنْ قبلها جزاء ما وقع منهم من انحراف ...

جولة طويلة جداً ، وموضوعات شتى .. ولكنها يربطها كلها ذلك الرباط المحكم .. أنها معالم الطريق الذي تسير فيه الأمة الجديدة لتقوم برسالتها الضخمة في إقامة الخلافة الراشدة في الأرض ..

وقد لا يكون هناك ارتباط مباشر أو تسلسل معين بين الجزئيات التي يحويها هذا القسم من السورة كما هو موجود في السور الأخرى الأكثر تخصصاً .. وليس من المفروض في أي دستور عام ينظم حياة الناس أن يوجد فيه تسلسل معين .. إذ أن أي تسلسل كأي تسلسل في هذا المجال ! فمطالب الحياة البشرية متعددة ومتداخلة . ونحن نقول مثلاً في تفكيرنا المبوب المقسم : هذه سياسة . وهذا اقتصاد . وهذا اجتماع .. الخ . ولكن هل يوجد حقيقة تخصص كامل في أي موضوع يقطع صلته تماماً بغيره من الموضوعات أم إنها في حقيقة الأمر متداخلة ومترابطة بأكثر من رباط ؟

إذن ما الرباط الذي يربط هذه الجزئيات جميعاً ؟

إنه يربطها رباطان ..

الأول كما قلنا أنها جميعاً معالم في طريق الأمة تهتدي بها في سيرها نحو غايتها ، وضرورات حيوية لها لكي تتبين الطريق .

والثاني أنها كلها منبثقة من العقيدة .. فالعقيدة هي الشريان الذي يغذيها جميعاً ويمنحها دلالتها ..

في شأن تحويل القبلة يقول : « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ؟ قل : **لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم** » .

وعن المشركين يقول : « وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون . ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله . والذين آمنوا أشد حباً لله . ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب ... »

وعن القصاص يقول : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى : الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى . فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان . **ذلك تخفيف من ربكم ورحمة** . فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم » .

وعن الصيام يقول : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم **لعلكم تتقون** » .

وعن الحج يقول : « الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج . **وما تفعلوا من خير يعلمه الله** . وتزودوا فإن خير الزاد التقوى . **واتقون يا أولي الألباب** » .

وعن القتال يقول : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم **والله يعلم وأنتم لا تعلمون** » .

وعن المحيض : « ويسألونك عن المحيض قل : هو أذىً فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن ، فإذا تطهرن **فأتوهن من حيث أمركم الله . إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين** » .

وعن الطلاق : « الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان . ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله ، فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به . **تلك حدود الله فلا تعتدوها ، ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون** » .

وعن الإنفاق : « الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية **فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** » .

وعن الربا : « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ، ذلك بأنهم قالوا : إنما البيع مثل الربا ، وأحل الله البيع وحرم الربا . **فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله . ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** » وهكذا .. وهكذا في كل التوجيهات والتنظيمات والتشريعات ..

* * *

قلنا إننا لن نتتبع موضوعات السورة بالتفصيل ، فهي أكثر وأطول من أن يستوعبها بحثنا هذا المجمل .. ولكننا نقف وقفات عند بعض المواضع في السياق ..

« وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » .

إن هذه الأمة ليست مكلفة أن تعيش لذاتها فحسب ، ولا في حدود ذاتها فحسب ! إنها مكلفة بمهمة أخرى هي قيادة البشرية .

« لتكونوا شهداء على الناس » ..

والأمة القائدة الرائدة ينبغي أن تكون لها مواصفات غير الأمم العادية التي تعيش لذاتها فحسب ، وفي حدود ذاتها فحسب !

« وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ... »

والوسط في لغة العرب المخاطبين بهذا القرآن أول مرة تحمل معاني كثيرة . فالوسط هو الأفضل . والوسط هو المعتدل . والوسط هو المستوى . والوسط هو المتوسط بين الأطراف ..

وكل هذه المعاني توفرت في تلك الأمة القائدة الرائدة ، لتكون شهيدة على الناس .

فطبيعة الإسلام هي « التوازن » .. والتوازن بمعناه الإسلامي هو المعين على « التوسط » .

ومن ثم كانت هذه الأمة لا مادية بحتة كمادية الجاهلية المعاصرة اليوم ولا روحانية بحتة كالجاهليات التي تطهر الروح بكبت الجسد وتحقيره وتعذيبه وإهمال مطالبه ، وبالتالي إهمال الحياة الدنيا كلها وإهمال عمارة الأرض ..

إنما هي أمة تأخذ بجانب من المادة وجانب من الروح . وتصل ما بين المادة والروح ولا تجعلهما في موقف الخصام والصراع ، لا يحقق أحدهما وجوده إلا بمحو الآخر وإغلاق السبيل إليه !

وأمة تعمل للدنيا والآخرة في سياق واحد ، « بموازنة » بسيطة ، تجعل العمل عبادة والعبادة عملاً كذلك ! فتقوم بعمارة الأرض في ظل الله والعقيدة ، لا بمعزل عن الله والعقيدة ، وتقوم بشعائر التعبد لصلاح الدنيا وصلاح الآخرة في ذات الوقت !

في سياستها توازن بين سلطة الحاكم وسلطة الأمة فلا يطغى أحدهما على الآخر .

الحاكم له السمع والطاعة في المعروف والأمة لها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصح لولي الأمر .

في اقتصادها توازن بين الملكية الفردية ومصالح المجموع ، وبين المغانم والمغارم في المجتمع .

في اجتماعها توازن بين الفرد والجماعة فلا يطغى الفرد فيحطم الجماعة ، ولا تطغى الجماعة فتحطم الفرد .

في تربيتها توازن بين إطلاق الدوافع الفطرية بلا ضابط فتنقلب شهوات مدمرة ، وبين كبت هذه الدوافع وتعطيل الحياة بالرهبانية . فتقيم « ضوابط » تضبط منطلق الشهوات وتنظف مجراها دون أن تكبتها من منبعها ..

في فكرها توازن بين « العلم » و « الإيمان » فلا يطغيها العلم العقلي أو المادي فتنكر الوحي . ولا يمنعها إيمانها بالوحي أن تتعلم وتجرب وتنقب وتجتهد حيثما كان مجال لكل ذاك . ولذلك أقامت حركتها العلمية الكبرى في غير صراع مع العقيدة كجاهلية اليوم ، بل في ظل العقيدة ومنبثقة منها ، مهتدية بهدي الرسول صلى الله عليه وسلم : « طلب العلم **فريضة** » ..

وهكذا كانت هذه الأمة « وسطاً » في كل مجال من مجالات الحياة ، وبكل معنى من معاني الوسط .. لتكون القائدة لكل البشرية ..

واليوم يجد المسلمون أنفسهم في ذيل القافلة ، يلهثون وراءها وهي تسبقهم على الدوام ..

نعم .. لأنهم تخلوا عن تعاليم دينهم ففقدوا مكان القيادة الذي أهلهم الله له ، بل فقدوا مقومات وجودهم حتى في حدود ذواتهم !

ولا سبيل لهم إلى الحياة الكريمة التي وعدهم الله بها إلا أن يعودوا لهذا الدين .. يتفهمونه .. ويطبقونه .. ويعيشونه .. عندئذ يتغير الحال .. « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »[1].

* * *

« ليس البرَّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس . أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

---

(١) سورة الرعد [١١] .

نص شامل من أقوى النصوص المبينة لحقيقة « البر » الذي هو الإيمان ..

إن المسألة ليست أداء آلياً لشعائر التعبد .. فما أبأسها هذه من عبادة !

إنها أمور اعتقادية داخل القلب وسلوك عملي في واقع الحياة ..

إيمان شعوري بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين .. وانفاق في سبيل الله .. وإقامة للصلاة .. ووفاء بالعهد .. وصبر في البأساء والضراء وحين البأس .. « أولئك الذين صدقوا **وأولئك هم المتقون** » .

إن التقوى ليست خفض الهامات تظاهراً بالخشوع .. كذلك الذي ضربه عمر رضي الله عنه بالدرة وقال له : أمتّ علينا ديننا أماتك الله !

إنما هي هكذا كما حددها كتاب الله !

والخشوع في الصلاة من التقوى ولا شك ! « قد أفلح المؤمنون ، الذين هم في صلاتهم خاشعون »[1]..

ولكن دين الله ليس أجزاء ينتقي الإنسان منها ما يروق له ويهمل سائرها ثم يدعي التقوى والإيمان !

وإن هناك أقواماً يقومون بتربية روحية لأنفسهم ولأتباعهم ، لا شك في جمالها ، ولا شك في أنها من الإسلام ومن الإيمان . ولكن ما غايتها ؟ وما قيمتها حين ينكرون على أنفسهم وعلى غيرهم الجهاد في سبيل الله ، والسعي لإقامة حكم الله في الأرض ، ولتكون كلمة الله هي العليا ؟

وإن واقع المسلمين في أي عصر من عصور التاريخ ليحدده بالضبط كم يأخذون من دين الله وكم يدعون ! فبقدر ما يأخذون معناه الشامل المتكامل ، ويعيشون به في واقع الأرض يكون تمكنهم في الأرض وقيامهم برسالتهم الربانية العالمية . وبقدر ما يقطعون هذه الدين أجزاء ، وبقدر خوائهم من المعنى الشامل الكامل **في المشاعر وفي السلوك** ، يكون انكماشهم وتضاؤلهم ..

وهم اليوم في الذل الذي يرون ..

فلينظروا لأنفسهم أين هم من دين الله الشامل المتكامل .. وليسألوا أنفسهم عن مدى استحقاقهم لأن يكونوا مسلمين !

* * *

« يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين » .

إنها دعوة للمسلمين أن يدخلوا في « السلم » كافة .. والسلم هو السلام .. وهو

---

(١) سورة المؤمنون [١ - ٢] .

هنا الإسلام .. لأنه هو الذي يتمثل فيه السلام الكامل في داخل النفس ، حين تصطلح كلها بعضها مع بعض وتنتظم كلها في طريق واحد وغاية واحدة .. هو الطريق إلى الله ..

إنه « الاطمئنان » الذي أشارت إليه سورة الرعد : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله . ألا بذكر الله تطمئن القلوب »[1] .

وإنها « النفس المطمئنة » التي أشارت إليها سورة الفجر : « يا أيتها النفس المطمئنة ، ارجعي إلى ربك راضية مرضية ، فادخلي في عبادي ، وادخلي جنتي »[2] .

ولا يتأتى هذا الاطمئنان وهذا السلم إلا حين تنضوي النفس **كافة** في داخل إطار الإسلام ! حين تكون كل جزئية من جزئيات النفس ، وكل جانب من جوانبها قد استسلم **بكامله** لله .. ولم يعد للشيطان قدرة على مناوشته وجذبه خارج إطار الإيمان !

لذلك فهو يخاطب المؤمنين هنا ولا يخاطب « الناس » ..

المؤمنون هم الذين يستطيعون ـ ولو بالجهد ـ أن يدخلوا في السلم **كافة** ؛ بكافة ما في أنفسهم من مشاعر وخواطر وتطلعات وآمال وآلام ، وبكافة ما يصدر عنهم من سلوك ..

إنها مهمة ليست هينة .. ولكنها ـ عندما يصل المؤمن إليها بعد الجهد ـ تستحق ما بذل فيها من جهد ، ثم إن لها جزاء ليس كالجزاء !

« إن الذين قالوا ربنا الله **ثم استقاموا** ، تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا ، وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة . ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ، ولكم فيها ما تدعون ، نزلاً من غفور رحيم »[3] .

* * *

« أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه : متى نصر الله ؟ ألا إن نصر الله قريب » .

إنه الابتلاء .. سنة الله مع المؤمنين : « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا : آمنا ، وهم لا يفتنون ؟ ! ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين »[4]

هل هو ضرورة « ملحة » إلى هذا الحد ؟! هذا العذاب الذي يلقاه المؤمنون في

---

(١) سورة الرعد [٢٨] .

(٢) سورة الفجر [٢٧ – ٣٠] .

(٣) سورة فصلت [٣٠ – ٣٢] .

(٤) سورة العنكبوت [٢ – ٣] .

الدنيا ، وخاصة في الجولة الأولى ، جولة الإنشاء ؟ أما كان من الممكن أن يتفاداه المؤمنون ، وتمر حياتهم في سلام ؟!

لو علم الله أن ذلك هو الخير ما ضنّ بالخير على عباده المؤمنين !

ولكن الله هو الذي يعلم من خلق ، وهو اللطيف الخبير ..

إنه يعلم سبحانه أن النفوس لا تستقيم على الحق ، ولا تستقيم للحق ، ولا تتجرد لله إلا بعد ذلك التمحيص الذي يتم بالابتلاء !

إن طبيعة النفس البشرية هكذا ! إذا سلمت وأمنت ترهلت ودب العطب إليها !

إن النفس كالجسم ! وحين لا يقوم الجسم بتدريبات عنيفة يترهل ويفسد ، ويعجز بعد قليل حتى عن أبسط الجهد ! وحين يقوم بالتدريبات الشاقة – وهي شاقة قبل أن يتعودها ، فإذا تعودها ذهبت مشقتها ! – فإنه يكون أخف وأنشط وأرشق .. وأقدر على احتمال الجهد دون أن يصيبه الجهد !

والنفوس التي تعد لعظائم الأمور لا بد أن تعد لاحتمال الجهد دون أن يصيبها الجهد .. والطريق إلى ذلك هو التدريبات الشاقة ، التي تصل في مشقتها أحياناً إلى حد أن يقول الرسول والذين معه – من شدة الزلزلة – « متى نصر الله ! »

ثم يمن الله على عباده ويرفع عنهم الجهد ويرفع عنهم الابتلاء .. ولكن أرواحهم تكون قد أصبحت أخف وأنشط وأرشق .. ونفوسهم أقدر على احتمال الجهد دون أن يصيبها الجهد ..

ثم إن الابتلاء هو انتزاع الإنسان من متاع الحياة الدنيا .. سواء كان هذا المتاع هو الطعام والشراب والملبس والمسكن والمال والعشيرة والأهل .. أو كان هو المكانة المرموقة .. أو كان هو الأمن والسلامة والاطمئنان على الحياة ..

والإنسان في أمنه يحسب أن هذه الأمور هي مقومات الحياة .. وأنه لو فقدها فقد فقد مقومات حياته !

وهو بهذه الصورة لا يصلح لعظائم الأمور ! لا يصلح لحمل الأمانة الكبرى .. فضلاً عن الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله ..

ولو ترك الإنسان لنفسه فلن ينخلع من أمنه وراحته ، وماله وأهله وعشيرته ..

فيأتي الابتلاء فينزعه نزعاً من هذه الأمور كلها أو بعضها ..

ويشعر في بادئ الأمر دون شك بالمشقة ..

ثم تمر فترة المحنة ، وقد حرم مما حرم منه . ومع ذلك فهو لم يفقد « مقومات » حياته ! بل إنه على العكس قد استشعر لوجوده طعماً لم يكن يستشعره من قبل ، وصار يتذوق قيماً ومشاعر وأعمالاً سلوكية لم يكن يتذوقها من قبل ..

لقد صار إنساناً آخر أرفع وأعلى مما كان قبل .. وزادت حياته ثراء ورحابة وعمقاً ..
فإذا عاد للأمن بعد انتهاء المحنة ، فلا يستغرقه متاع الأرض ، لأنه جرب بالفعل أنه ليس أرفع ولا أجمل ما في حياة الإنسان ..
وإن ذهب للقاء ربه .. فذلك الشهيد .. وتلك أقصى مراتب الحياة !
ثم إن الإنسان عرضة ـ وهو مستمتع بالمتاع الأرضي ـ ان ينسى الآخرة أو يتضاءل حجمها في حسه !
إن المعنويات كالحسيات في كيان الإنسان ...
قرب أصبعك من عينك تجده قد حجب عنك ـ على ضآلة حجمه ـ مساحة هائلة من الفضاء .. وأَبْعِدْهُ عنك يَبْدُ لك في حجمه الطبيعي . ويظهر لك ما خلفه مما كان حجبه عنك ..
وكذلك حين يقترب الإنسان من متاع الأرض حتى يلتصق به ، فإنه يحجب عنه متاع الآخرة .. ويحتاج أن يبتعد أو يُبْعَدَ عن هذا المتاع فترة ، ليراه على حقيقته ، صغيراً ضئيلاً في الحقيقة ، ويرى ما كان يحجبه من نعيم أكبر وأمتع وأعظم وأخلد ..
لكل ذلك فإن الله يوجب الابتلاء على عباده المؤمنين .. لأنه يحبهم وليس لأنهم ـ عنده ـ غير جديرين بالمتاع !

* * *

« كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .
إنها طريقة الإسلام الواقعية في التربية ..
إنه لا ينكر عليهم كرههم للقتال ! ولا يفرض عليهم فرضاً أن يتجردوا من مشاعرهم البشرية الفطرية !
ولكنه إذ يقر هذه المشاعر الفطرية من حيث المبدأ ، لا يتركها على حالها دون رفع أو تطهير أو توجيه .. إنه فقط لا يستنكرها منهم لكي لا يوقعهم في شد عصبي بين واقعهم وما ينبغي أن يكونوا عليه . ولكنه يوجهها بما يؤدي إلى رفعها وتطهيرها والصعود بها إلى القمة المطلوبة ..
وكذلك فعل بأمر القتال .. يقرهم على أنه « كره » لهم .. ثم يوجههم إلى أنه ليس كل شيء يكرهونه يكون شراً .. فقد يكرهونه ويكون فيه الخير ، وقد يحبونه فيكون فيه الشر .. ومن هذا الخيط يجذبهم إلى أعلى فيستجيبون طائعين .. ويصلون إلى قمة لا مثيل لها في التضحية والفداء !

* * *

« يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر . فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً ، لا يقدرون على شيء مما كسبوا . والله لا يهدي القوم الكافرين . ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين ، فإن لم يصبها وابل فطل . والله بما تعملون بصير » .

إن للقرآن عناية كبيرة بما نسميه « مشاهد الطبيعة » ..

وهو لا يستخدمها فقط في توجيه الحس البشري لآيات الله في الكون ، وهو الغرض الأساسي الذي ترد فيه مشاهد الطبيعة .. إنما يستخدمها في مجالات أخرى تبدو « فنية » بحتة !

وهو هنا يستخدم مشاهد الطبيعة لتمثيل حالتين « نفسيتين » هما الإنفاق رئاء الناس والإنفاق ابتغاء مرضاة الله ..

وفي ذلك درس لمن أراد أن يسأل : هل للإسلام صلة بالفن ؟ أو : هل يجوز للمسلم أن ينشغل بالفن ؟!

إن الجمال التعبيري جزء من كتاب الدعوة الأعظم .. فحين يستخدم المسلم الفن للدعوة فهو في نطاق الإسلام لم يغادره ..

ولكنه الفن النظيف الملتزم بالتزامات الإسلام [1] !

* * *

والآن نأتي إلى ختام السورة :

« آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » .

ألا ترى هناك شبهاً بين الافتتاح والخاتمة ؟

« الٓمٓ . ذلك الكتاب لا ريب فيه . هدى للمتقين . الذين يؤمنون **بالغيب** ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . **والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك** وبالآخرة هم يوقنون » .

إنه وهو يختم السورة يلخص مرة أخرى سمات هذه الأمة المميزة ، التي تؤهلها للخلافة الراشدة في الأرض .

« لا يكلف الله نفساً إلا وسعها . لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت . ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا . ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا

(١) انظر « منهج الفن الإسلامي » .

ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » .

« لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » .

وسواء كان هذا تقريراً ربانياً لحقيقة ربانية ، أو كان جزءاً من الدعاء معناه : ربنا لا تكلفنا فوق وسعنا .. فإنه تقرير لحقيقة أن التكاليف التي فرضها الله في هذا الدين هي في وسع النفس البشرية ، وليست خارجة عن احتمالها ..

ثم يُلْهَمُ المؤمنون أن يدعوا بهذا الدعاء الخاشع الجامع الجميل :

« ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا » .. وقد استجاب الله للدعاء الذي ألهم به عباده . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه »[1] .

« ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا » .. والإشارة إلى بني إسرائيل الذين فرضت عليهم القيود بسبب عدوانهم في السبت وبسبب كفرهم وانحرافهم.. وهنا يبدو التناسق بين بدء السورة وختامها . ففي أولها تحدث عن بني إسرائيل ليوجه المسلمين إلى انحرافاتهم لكي لا يقعوا في مثلها .. فالآن تختم السورة بدعاء المؤمنين ألا يصيبهم مثل ما أصاب بني إسرائيل من قبل ..

« ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به » وهو دعاء طبيعي من كل نفس بشرية في الوجود . ولكنه هنا ليس تهرباً من التكاليف ! فقد سبق أن التكاليف التي فرضها الله في هذا الدين ليست خارجة عن وسع البشر .. إنما هو دعاء للتخفيف من الابتلاء وليس للتهرب من التكليف !

« فانصرنا على القوم الكافرين » .. الذين جاء في سياق السورة أنهم لا يكفون عن قتال المؤمنين !

---

(١) أخرجه ابن ماجه

سورة آل عمران

بسم الله الرحمن الرحيم

« الۤمۤ . الله لا إله إلا هو الحي القيوم . نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه ، وأنزل التوراة والإنجيل ، من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان . إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد ، والله عزيز ذو انتقام . إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء . هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم . هو الذي أنزل عليك الكتاب : منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله . وما يعلم تأويله إلا الله . والراسخون في العلم يقولون : آمنا به ، كلٌّ من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولو الألباب . ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب . ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه . إن الله لا يخلف الميعاد . إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك هم وقود النار . كدأب آل فرعون والذين من قبلهم ، كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم ، والله شديد العقاب . قل للذين كفروا : ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد . قد كان لكم آية في فئتين التقتا : فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة ، يرونهم مثليهم رأي العين ، والله يؤيد بنصره من يشاء . إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار » .

* * *

هذه السورة ، على طولها ، فهي ثالث سور القرآن من حيث الطول ، مشغولة بموضوع واحد من البدء إلى النهاية ، هو معركة لا إله إلا الله ! إن هذه المعركة ـ بكل ميادينها وكل وسائلها ، الحسي منها والمعنوي ، والمادي منها والروحي ـ ذات أهمية بالغة في حس الإسلام . إنها معركة الوجود كله بالنسبة للقلب المؤمن ، الذي امتلأ بحقيقة لا إله إلا الله .

إن هذا القلب الذي أقر بلا إله إلا الله ، واستقرت فيه حقيقة الألوهية وحقيقة الربوبية وحقيقة العبودية ، لا يمكن أن يهدأ أو يستقر كما تستقر القلوب الخاوية .. إلا أن يرى هذه الحقيقة الربانية قد استقرت وتمكنت في الأرض . وإنه لواجد للا إله إلا الله أعداء كثيرين في الأرض ، يحاربونها لكي لا تستقر ! يحاربونها بكل وسائل

الحرب ، الحسية والمعنوية ، والمادية والروحية . يحاربونها بالمال والسلاح ، ويحاربونها بالدعاية المغرضة ، ويحاربونها بالتشكيك في قيمها وأصولها ، ويحاربونها بمحاولة زلزلة المؤمنين بها وزحزحتهم عن عقيدتهم ، ويحاربونها بالتظاهر باتباعها ثم الرجوع عنها لعل المؤمنين بها يرجعون عنها .. وهكذا لا يتركون وسيلة واحدة من وسائل الحرب إلا اتبعوها .. لأنهم يكرهونها ، ولأنهم يحسدون أهلها عليها في ذات الوقت ، ولأنها تسعى إلى استرداد السلطة المغتصبة من أيديهم وردها إلى صاحبها الحقيقي وهو الله سبحانه وتعالى ، ولأنها تدعو إلى التطهر والنظافة وهم يكرهون تكاليف التطهر والنظافة .. إلى أسباب كثيرة تدعوهم إلى كراهيتها ومحاربتها ..

فماذا يفعل المؤمن إزاء هذا كله ؟!

إن هذه السورة كلها متخصصة في هذا الموضوع !

إنها تحدث المؤمن عن طبيعة المعركة ومجالاتها ، وعن أعداء لا إله إلا الله ودوافعهم لهذه العداوة ، وعن الوسائل التي يتخذونها ضده وضد دعوته ، وعن واجبه هو إزاء ذلك كله .. حديثاً مستفيضاً يستغرق مائتي آية كاملة هي كل آيات السورة .. ويجول به جولات واسعة ما بين الدنيا والآخرة .. ما بين المتاع المقعد عن الجهاد في الدنيا والمتاع المكافئ على الجهاد في الآخرة .. ما بين اليهود والنصارى والمشركين والمنافقين وهم الأعداء الأربعة الذين يكرهون الإسلام ويحاربونه .. ما بين معركة الجدل ومعركة السلاح .. ما بين النصر والهزيمة .. ما بين القضاء والقدر ومسئولية البشر .. ما بين الفرار من المعركة والاستشهاد في سبيل الله .. ما بين المنفقين في سبيل الله والباخلين بما آتاهم الله من فضله .. ما بين قصص الماضي وقصص الحاضر .. وما بين الأرض والسماء !

* * *

« الـمّ . الله لا إله إلا هو الحى القيوم . نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه ، وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان . إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد ، والله عزيز ذو انتقام » .

بدء يشبه في بعض جوانبه بدء بعض السور المكية ، ولكنا نلاحظ بعض الفروق . فهنا يذكر التوراة والإنجيل باسميهما ؛ وكان في السور المكية يذكر ما نزل من الكتاب من قبل مجملاً بغير تفصيل . وذكر التوراة والإنجيل هنا مقصود بالذات بمناسبة الحديث عن اليهود والنصارى وموقفهما من الإسلام .. ثم إن هذا الافتتاح « العقيدي » تترتب عليه هنا نتائج معينة ، تتصل بمعركة لا إله إلا الله ؛ فهو لا يذكر لتأسيس العقيدة فقط ، كما كان الحال في السور المكية ، إنما لأمور تتصل بالعقيدة في حياة الأمة الجديدة وتترتب عليها ..

إن الآيات الأولى من السورة في الحقيقة ، إلى قوله تعالى : « إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار » هي تلخيص وافٍ للموضوع الرئيسي للسورة . فالمقدمة هنا تشير إلى ما ستتناوله السورة من موضوعات ، وكل إشارة فيها متصلة بجزء من صلب الموضوع .

« الٓمٓ . الله لا إله إلا هو الحي القيوم » .

تلك هي القضية الرئيسية في السورة وفي القرآن كله .. قضية لا إله إلا الله . والتي سنجد أن السورة كلها تدور حولها من شتى جوانبها . فمجيئها في افتتاح السورة إشعار بأنها هي الموضوع الذي تتناوله السورة بالتفصيل .

« نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان ... »

نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً للتوراة والإنجيل . وهو الذي قد أنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس ، وهو الذي ينزل الفرقان اليوم لذات الغرض وهو هداية الناس .. فما بال اليهود والنصارى لا يؤمنون بالكتاب الذي نزل مصدقاً لما معهم ، وما بالهم يريدون أن ينكروا على الله سبحانه أن ينزل كتاباً جديداً بعد التوراة والإنجيل ، بينما هو مصدق لما فيهما فضلاً على أنه ليس من حق بشر أن يعترض على الله سبحانه وتعالى أن ينزل كتاباً جديداً حين يشاء ..

إن هذا كله لا يذكر صراحة في افتتاح السورة ، وإنما يذكر في أثنائها بتفصيل وتوضيح . ولكنا نريد أن نبين أن الإشارة الواردة في افتتاح السورة هي إشارة دالة .. كأنما يذكر رءوس الموضوعات كلها في مقدمة السورة ليتناولها بالشرح والتفصيل فيما بعد .

ثم يجئ ذكر الفئة الثالثة التي تعارض « لا إله إلا الله » وتحاربها :

« إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد ، والله عزيز ذو انتقام » .

و « الذين كفروا » تشمل في الواقع كل المعارضين للا إله إلا الله ، المحاربين لها ، أي أنها تشمل اليهود والنصارى والمشركين والمنافقين ، ولكنها ــ اصطلاحاً ــ ترد في وصف مشركي مكة الذين لم يكونوا قد أسلموا بعد ، وتجئ الفئات الأخرى بأسمائها الخاصة أو بأفعالها . وهذه الإشارة إلى الذين كفروا في مقدمة السورة تعني أن الحديث المفصل سيتناولهم ..

وإذ يضع هذا التهديد : « والله عزيز ذو انتقام » يسترسل السياق في الحديث عن الألوهية ، قضية السورة الرئيسية :

« إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء . هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم » .

فهو إذ يهددهم بأن الله سينتقم منهم لقاء كفرهم ، يعلمهم أنه ــ سبحانه ــ لا يخفى

عليه شيء من أعمالهم ، لأنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء . وهو العليم بهم ، لا منذ هذه اللحظة الراهنة بل منذ كانوا أجنة في الأرحام .. فهو الذي يصور البشر في أرحام أمهاتهم كيف يشاء .. ومرة أخرى يقرر القضية الرئيسية في السورة : « لا إله إلا هو » ويكرر وصفه لله سبحانه بأنه عزيز .. قوي . مضافاً إليه وصفه بأنه حكيم . وحكيم ترد في القرآن بمعنييها : حكيم من الحكمة ، وحكيم من الحكم . وكلاهما مناسب للسياق .

« هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات . فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله . وما يعلم تأويله إلا الله . والراسخون في العلم يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولو الألباب » .

هو ـ العزيز الحكيم سبحانه ـ أنزل عليك هذا الكتاب منه آيات محكمات ، هي المتصلة بحقيقة لا إله إلا الله .. والمتصلة بالأحكام الشرعية والتنظيمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والخلقية والتربوية .. وأخر متشابهات كالأحرف الموجودة في أوائل السور وحقيقة الاستواء على العرش .. الخ . فأما « الذين في قلوبهم زيغ » .. وهؤلاء هم الفرقة الرابعة من معارضي لا إله إلا الله ومحاربيها ، وهم المنافقون ، يجيء ذكرهم هنا في ملخص السورة لا باسمهم وإنما بفعلهم .. ويجيء ذكرهم إشارة إلى أن السورة ستتناول الحديث عنهم تفصيلاً كما ستتناول اليهود والنصارى والمشركين .. أما « الذين في قلوبهم زيغ » هؤلاء فيتتبعون هذه المتشابهات ليؤولوها تأويلاً يشكك المؤمنين في عقيدتهم « ابتغاء الفتنة » .. وما يعلم تأويلها الحقيقي إلا الله . وما أنزلها إلا ليعلم الذين يؤمنون بالغيب ويسلمون لله إيماناً وتصديقاً ، والذين تزيغ قلوبهم فيتخذونها مادة للفتنة . أما « الراسخون في العلم » أي في الإيمان فيقولون : « آمنا به » لأنه آت من عند الله « كل من عند ربنا » فالله الذي أنزل المحكم هو الذي أنزل المتشابه ، وكما آمنوا بالمحكم لأنه آت من عند الله ، فهم كذلك يؤمنون بالمتشابه لأنه من ذات المصدر ، الذي يؤمنون بكل ما يجيء من عنده . « وما يذكر إلا أولو الألباب » .. فأصحاب البصائر المتفتحة هم الذين يذكرون الحقيقة فيؤمنون . وهذه العبارة ربما تكون استمراراً لكلام الراسخين في العلم ، وربما تكون من خطاب الله المباشر ، ويستوي ـ كما ذكرنا من قبل ـ أن تكون هذه أو هذه . وإن كان الراجح أن تكون استمراراً لكلامهم ، فإنهم يعودون بعد ذلك فيسترسلون في الحديث :

« ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب . ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه . إن الله لا يخلف الميعاد » .

إنهم يدعون الله ويتضرعون إليه ألا يزيغ قلوبهم كأولئك المنافقين ، وأن يتم فضله عليهم بعد إذ هداهم فيثبتهم على الإيمان ، وأن يرحمهم بهذا الإيمان الثابت منة منه وفضلاً فإنه وهاب .. والتعبير : « وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب » فيه تطلع إلى كرم الله السابغ أن يهب لهم هذه الرحمة .. وأن تكون واسعة شاملة تتناسب مع كرم المنعم « الوهاب » .

« ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه ... » إنهم يعلنون إيمانهم الراسخ بهذا اليوم الذي يجمع فيه الناس ، وكأنما يقدمون هذا الإقرار مؤهلاً لطلب رحمة الله بهم في ذلك اليوم ، والإنعام عليهم بنعيم الجنة التي وعدهم بها« إن الله لا يخلف الميعاد ».

ثم يعود إلى الذين كفروا بمناسبة يوم الجمع الذي لا ريب فيه ، وبمناسبة النعيم الذي يناله المؤمنون :

« إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً . وأولئك هم وقود النار . كدأب آل فرعون والذين من قبلهم : كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم ، والله شديد العقاب » .

إنهم يعتزون اعتزازاً باطلاً بأموالهم وأولادهم يظنونها تحميهم من عذاب الله ! « وقالوا : نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين ! »[1] فهنا يقول لهم إن أموالهم وأولادهم لن تغني عنهم من الله شيئاً ، ولن تحول بينهم وبين مصيرهم الذي ينتظرهم عنده . ثم يرسم لهم صورة مؤلمة « وأولئك هم وقود النار ! » إنه لا يقول إنهم سيعذبون في جهنم ، ولا إن نار جهنم ستحرقهم .. فالخيال يمكن أن يتوقع هذه الصورة وتلك . أما أن يكونوا هم الوقود الذي تشعل به النار فهي صورة تفاجئ الخيال وتهز الوجدان والمشاعر حين يتصور الإنسان النار وهي تلتهم هذا الوقود الحي !

ثم يهددهم بأنهم ليسوا أقوى من فرعون ومن قبله .. وهم يعرفون مصيرهم ، فأولى لهم أن يعتبروا بذلك المصير ..

« قل للذين كفروا ستغلبون ، وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد » .

والخطاب هنا موجه لليهود الذين أعجبهم ولا شك هزيمة المسلمين في أحد ! وانتشت نفوسهم التي كان النصر الساحق في بدر قد كبتها وأثقلها . وكانوا قد قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم : لا يغرنك أنك انتصرت على بعض رجال من قريش لا خبرة لهم بالحرب. إنما حين تلقانا غداً تعلم أنّا نحن الناس ! فهنا يقول للرسول صلى الله عليه وسلم أن ينذرهم بأنهم سيغلبون ، ثم يحشرون يوم القيامة إلى جهنم ، ويذكرهم بما كان من أمر

---

(١) سورة سبأ [٣٥] .

المشركين في بدر ، وأن الله الذي نصر المسلمين يومئذ وهم قلة ، على الكفار الذين كانوا يبدون في نظر المسلمين مثليهم مع أنهم كانوا ثلاثة أضعافهم في الحقيقة ، هو الذي يؤيد المؤمنين ويمحق الكفار ، وإذاً فلا مطمع لهم في النصر ، ما دام الله هو الذي يتولى المعركة ويقرر مصائرها ، وليس البشر من هنا أو هناك !

« قد كان لكم آية في فئتين التقتا ، فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة ، يرونهم مثليهم رأي العين ، والله يؤيد بنصره من يشاء ، إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ».

وإذ يتحدث عن الفئة الكافرة فإنه يتحدث عن دوافع كفرهم ، التي تصدهم عن الإيمان :

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث . ذلك متاع الحياة الدنيا ،والله عنده حسن المآب ».

هذا هو سر ابتعادهم عن الإسلام .. يريدون متاع الحياة الدنيا بغير حد .. ويرون أن الإسلام سيحرمهم من ذلك المتاع !

« زين للناس حب الشهوات .. »

والتعبير موحٍ بتعمق هذه الشهوات في كيان الإنسان . فهو لا يقول : زينت للناس الشهوات ، بل يقول : « زين للناس حب الشهوات .. » والشهوات محببة إلى النفس بذاتها ، فإذا زُين هذا الحب كذلك ، فهو إذن حب واغل في الأعماق ..

ثم يعدد تلك الشهوات : « .. من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث .. »

إنه بالفعل يجمع في هذا السياق كل الشهوات المحببة إلى النفس .. أو كل « الدوافع الفطرية » في الإنسان . ثم يعلن أنها مزينة للناس .

وبناء الفعل للمجهول هنا يستوقف النظر كثيراً ..

إنه لا يقول ــ كما يقول في مواضع أخرى ــ زين لهم الشيطان أعمالهم ..

وقد قال سيدنا عمر لما نزلت هذه الآية : « والآن **يا رب** إذ زينتها لنا ! » قيل فنزلت الآية التالية : « قل : أؤنبئكم بخير من ذلكم ؟ »

إنه مما لا شك فيه أن هذه « حقيقة واقعة » بالنسبة للإنسان : أن هذه الشهوات عميقة في حسه ، واغلة في أعماقه .

ومما لا شك فيه كذلك أن الله هو خالق هذه الفطرة البشرية ، وهو الذي أودع فيها ــ لحكمة يريدها ــ هذه الدوافع الفطرية ، وجعلها قوية دافعة دفاقة ..

إن الله جعل الإنسان خليفة في الأرض ، وكلفه بعمارتها . وما كُلِّفَ أحد بهذه العمارة إلا الإنسان ، وما أهّل أحد لعمارتها غيره .. وإن هذه الدوافع ــ بكل قوتها ــ

لهي من بين المؤهلات التي أهّل بها الإنسان للقيام بعمارة الأرض . فهي التي تدفعه للإنتاج وللإنشاء ، وللتعمير وللتصنيع . ولولا عمق هذه الدوافع الفطرية وقوتها لقعدت صعاب كثيرة دون الإنسان وعمارة الأرض ، ولبقي حياته كلها محصوراً في نطاق ضيق من الأرض ، ونطاق ضيق من الحياة ..

وإذن فقد كان لحكمة عليا أن تكون هذه الدوافع بهذه القوة في كيان الإنسان ..

ولكن الله العليم الحكيم ، الذي أودع الفطرة تلك الدوافع القوية ، لم يدعها تعمل وحدها .. والله يعلم سبحانه أنها إن عملت وحدها فسوف تعطب الإنسان وتدمره .. وإنما جعل معها ضوابط تضبط انطلاقها ، وجعل هذه الضوابط فطرية كذلك كما أن الدوافع فطرية . وجعلها محكومة بقوة الإنسان المريدة الواعية التي اكتسبها من النفخة العلوية في قبضة الطين : « إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين ، فإذا سويته **ونفخت فيه من روحي** ، فقعوا له ساجدين »[1] « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها »[2] .

فالإنسان إذن بفطرته مشتمل على دوافع فطرية وضوابط فطرية . وفي حالة التوازن بين هذه وتلك فإن الإنسان يكون كما خلقه الله « في أحسن تقويم » . أما حين تغلب الدوافع الفطرية فتنقلب إلى شهوات مدمرة فهنا ينقلب الإنسان « أسفل سافلين » : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين ، إلا الذين آمنوا ... »[3]

وهذا هو المجال الذي يعمل فيه الشيطان : تزيين هذه الشهوات بقدر زائد عن الحد ، وتخذيل الضوابط عن العمل وتخديرها ، حتى تخف قبضتها فيتسنى للشهوات أن تنطلق بلا ضابط !

ومن هنا يأتي الفعل « زيّن » مبنياً للمجهول ليتسع للمعنيين معاً في ذات الوقت !

ففي صورتها الطبيعية الملتزمة بحدود الله ، هي مزينة من عند الله .. وفي صورتها الفاحشة ، غير الملتزمة بحدود الله ، هي مزينة من عند الشيطان .

والتلميح هنا إلى المعنى الثاني ، لأنها هنا تصد الناس عن الإيمان ، وإن كان هذا لا ينفي المعنى الأول الذي فهمه عمر رضي الله عنه . لذلك يقول فقط إن هذا متاع الحياة الدنيا ، دون أن يضع متاع الحياة الدنيا في موضع الذم ، بل يقول فقط إن الله عنده ما هو خير منه :

---

(١) سورة صّ [٧١ - ٧٢] .
(٢) سورة الشمس [٧ - ١٠] .
(٣) سورة التين [٤ - ٦] .

« .. ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده **حسن** المآب . قل : أؤنبئكم بخير من ذلكم ؟ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد الذين يقولون : ربنا إننا آمنا ، فاغفر لنا ذنوبنا ، وقنا عذاب النار . الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار » .

إن الله اللطيف الخبير ، الذي خلق ويعلم من خلق ، يعلم أنه لا يوجد علاج لطغيان الشهوات على كيان الإنسان إلا الإيمان بالآخرة !

فحينما تكون الحياة في حس الناس هي الحياة الدنيا وحدها ، ولا بعث ولا حساب ، ولا حياة بعد الموت ، فهي إذن فرصة واحدة إن ضاعت فلن تعود . فرصة هذا العمر المحدود ، الذي ينقضي يوماً بعد يوم .. وكل يوم ينقضي لا يعود ! وإذن فمن الحتم عليهم أن يملأوا كل لحظة بأكبر قدر من المتاع في طوق أيديهم قبل أن تذهب تلك الفرصة الواحدة المحدودة ! ولذلك يتكالب الناس على المتاع في الجاهلية التي لا تؤمن باليوم الآخر ، ويؤدي بهم التكالب إلى الصراع ..

أما حين يكون هناك إيمان باليوم الآخر ، وبنعيم دائم للمتقين ، ومتاع خالد لا ينفد ، فهنا تخف حدة الشهوة ، ويخف وزن المتاع الأرضي في حس الإنسان ، فلا يصبح ذلك الثقل المرهق الذي يثقل الناس إلى الأرض حتى يلصقوا بالطين ! ويستطيعون عندئذ أن يكتفوا منه بالقدر المعقول الذي أباحه الله ويلتزموا بحدوده . بل يستطيعون أن يتخففوا منه أكثر حين يدعو داعٍ إلى الجهاد ، فيحرم الإنسان حتى من النعيم المباح ..

لذلك فهو يقول هنا بعدما قرر غلبة حب الشهوات على الناس : « قل : أؤنبئكم بخير من ذلكم ؟» ثم يعرض النعيم الأخاذ الذي أعده الله للمتقين ، الذين يأخذون من متاع الدنيا بالنصيب المباح الطاهر الحلال الذي حددته حدود الله ، ويمتنعون عن المتاع الزائد على تلك الحدود :

« للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وأزواج مطهرة ورضوان من الله .. »

جنات خالدة بدلاً من هذا النعيم الذاهب الزائل . وأزواج مطهرة بدلاً من شهوات الجنس الدنسة التي تتعلق بالمحرمات .. وأهم من ذلك كله وأجمل ، وأشف وأصفى : « ورضوان من الله » .. وأي نعيم أكبر من ذلك الرضوان ؟! فللجسد متاعه .. والروح متاعها الرضوان .

« .. والله بصير بالعباد الذين يقولون : ربنا إننا آمنا ، فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار » .

إن الله بصير بعباده هؤلاء الذين سيدخلهم الجنة ، عليم بأحوالهم وأعمالهم . إنهم

هم الذين يقولون : « ربنا إننا آمنا » فيقرون بإيمانهم بالله ، ثم يتطلعون إلى مغفرته : « فاغفر لنا ذنوبنا » ويستجيرون من عذاب النار : « وقنا عذاب النار » .

ولكن الله البصير بعباده لا يدخلهم الجنة ويمنحهم الخلود والرضوان لمجرد أنهم **قالوا** ذلك .. وإنما لأنهم مع هذه المشاعر الإيمانية الفياضة **يعملون** :

« الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار » .

وإنها لصورة شفيفة للمؤمنين ، صورة تجذب القلوب إليها بجمالها وشفافيتها وتطهرها وارتفاعها ..

هؤلاء يستحقون رضوان الله حقاً .. فقد أهّلوا أنفسهم بمشاعرهم الإيمانية وسلوكهم الإيماني لذلك الرضوان .

أما أولئك الذين غلبت عليهم شهواتهم فإنهم لا يؤمنون ؛ ويصرون على الشرك الآثم وهم في غفلة يعمهون . لذلك يعلن إليهم حقيقة الألوهية :

« شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم » .

إنها حقيقة شهد بها الله ذاته ، سبحانه وتعالى . وأي شيء أكبر شهادة من الله ؟ والملائكة كذلك يشهدون ، وأولو العلم من البشر ، الذين آمنوا بالله ورسوله .. كل أولئك يشهدون أنه سبحانه إله واحد لا إله إلا هو قائماً بالقسط .. يقيم هذا الكون كله بالقسط والحق . ولذلك نزل الكتاب بالحق . وهو يحاسب الناس على أعمالهم يوم القيامة بالحق ..

فماذا بقي لهم بعد هذه الشهادة من الله والملائكة وأولي العلم ؟ ألا فليمضوا في عمايتهم ، فلن يغيروا من ملك الله شيئاً :

« .. لا إله إلا هو العزيز الحكيم » .

فهو قوي عزيز لا يغلبه أحد من أولئك المجادلين بغير الحق ..

ونلاحظ أنه كرر في الآية الواحدة قوله : « لا إله إلا هو » وأن هذه هي المرة الرابعة منذ بدء السورة ، ونحن ما نزال في أوائلها . وفي ذلك إشعار بالأهمية القصوى لهذه القضية ، قضية الألوهية ، التي هي محور السورة كلها ، ومحور المعركة الدائرة من جانب الكارهين والمعارضين .

وإذ تحدث عن فريق المشركين وعن دوافعهم التي تدفعهم للصد عن سبيل الإيمان ، والإصرار على الشرك ، فهو يتحدث كذلك عن فرقة أخرى من الكارهين والمعارضين ، أولئك هم اليهود .

« إن الدين عند الله الإسلام . وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم

العلم بغياً بينهم . ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب . فإن حاجّوك فقل : أسلمت وجهي لله ومن اتبعنِ ، وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين : أأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد . إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم . أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين . ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون . ذلك بأنهم قالوا : لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات ! وغرّهم في دينهم ما كانوا يفترون . فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ، ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ؟ »

« إن الدين عند الله الإسلام »

والإسلام هو دين الأنبياء جميعاً من لدن آدم إلى محمد صلى الله عليه وسلم .. وكل نبي دعا إلى الإسلام ، بمعنى إسلام الوجه لله .. ولكن لفظة الإسلام قد صار لها معنى اصطلاحي ، هو دين محمد صلى الله عليه وسلم والذين معه . وهو معنى لا يتعارض مع المعنى السابق ولكنه تخصيص له . كأنما معناه إن الذين على دين الإسلام ــ الآن بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ــ هم المؤمنون بهذا الرسول وحدهم في الأرض كلها دون غيرهم من الناس . وقد كان أتباع كل رسول ــ في وقته ــ مسلمين . فأتباع نوح كانوا مسلمين ، وأتباع هود وصالح ولوط وشعيب كانوا مسلمين ، وأتباع إبراهيم عليه السلام كانوا مسلمين ، وكذلك كان أتباع موسى وعيسى عليهما السلام مسلمين . أما الآن ــ بعد بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ــ فالإسلام هو هذه الرسالة التي بعث بها محمد صلى الله عليه وسلم ، والمسلمون هم أتباع هذا الرسول ..

فحين يقول السياق : « إن الدين عند الله الإسلام » يعبر عن معنيين في آن واحد : إن الدين عند الله منذ خلق آدم إلى أن تقوم الساعة هو أن يسلم الناس وجوههم لله ، ويطيعوه ويتبعوا ما أنزل من عنده . وإن الإسلام الآن هو اتباع هذا الرسول الأخير ، المرسل بالقرآن ، مصدقاً لما بين يديه وخاتماً للرسل والرسالات ..

« .. وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم .. » .

إن كل رسول قد أوصى قومه باتباع من يأتي بعده .. ثم إن موسى وعيسى عليهما السلام قد انبآ قومهما بمبعث الرسول صلى الله عليه وسلم وأمرا قومهما باتباعه عند ظهوره .. فلما « جاءهم العلم » .. لما جاءهم تحقيق ما يعلمون من أمر نبيهم ، وما هو مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل اختلفوا ، بمعنى خالفوا عن الطريق وأبوا أن يطيعوا رسوليهما موسى وعيسى باتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، فخرجوا من الإسلام سواء برفض

الدخول في دين الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو مرسل من عند الله ، فطاعته واجبة بهذا الاعتبار ، أو بمخالفتهم لأمر رسلهم .. ولذلك قدم بقوله : « إن الدين عند الله الإسلام » وثنى بقوله إن أهل الكتاب خالفوا عن طريق الإسلام بعد ما جاءهم تحقيق ما يعلمون من أمر الرسل السابقين « بغياً بينهم » وطغياناً وتجاوزاً للخط السليم .. فهذا إذن هو دافعهم إلى الكفر كما كان دافع المشركين هو حب الشهوات ، ودافع المنافقين الزيغ الذي في قلوبهم .. وهي أسباب متقاربة في النهاية بالنسبة لهم جميعاً ، ولكنها تحمل لوناً من التخصص بالنسبة لكل فريق ..

« .. ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب » .

من يكفر بآيات الله من هذه الفرق جميعاً ، بما فيهم أهل الكتاب ، « فإن الله سريع الحساب » . وقد أشرنا من قبل إلى أنه يستوي أن يكون هذا الحساب في الدنيا أو في الآخرة فهو سريع في كلا الحالين[1] .

« فإن حاجّوك فقل : أسلمت وجهي لله ومن اتبعنِ . وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين : أأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ . والله بصير بالعباد » .

والذين كانوا يحاجّون الرسول صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب في ذلك الوقت كانوا هم اليهود . وإن كان النصارى قد جاءوا يحاجّون بعد ذلك في نفس السورة ، ووجه الرسول صلى الله عليه وسلم أن يرد عليهم بما يشبه ما رد به على اليهود ..

« فإن حاجّوك فقل : أسلمت وجهي لله ومن اتبعن » .. وقد سبق القول بأن الدين عند الله هو الإسلام : إسلام الوجه لله . فها هو ذا الرسول صلى الله عليه وسلم يوجّه أن يقول للذين يحاجونه من أهل الكتاب « أسلمت وجهي لله ومن اتبعن » .. فأما أنا ومن اتبعني فقد أسلمنا ، فما موقفكم أنتم ؟ أأسلمتم ؟

« وقل : للذين أوتوا الكتاب والأميين : أأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا .. »

والخطاب هنا شامل للفريقين جميعاً : أهل الكتاب ومشركي مكة ، الذين يرفضون الإسلام : أأسلمتم ؟ فإن أسلموا ـ وهذا احتمال بعيد بعد ما رأينا من مواقفهم ـ فقد اهتدوا ، وكسبوا الإيمان ..

« وإن تولوا فإنما عليك البلاغ » ..

إنك لست مكلفاً بهداية الناس ، ولا أنت تملك ذلك ـ فالله وحده هو الذي يملك ـ إنما أنت مكلف بالبلاغ ، وهذا الذي تملكه بالفعل . وأمر الخلق بعد ذلك إلى الله :

---

(١) راجع سورة الرعد عند الحديث عن قوله تعالى : « والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب » .

« والله بصير بالعباد » .. يعلم ما في نفوسهم ويحاسبهم بما يعلم من أحوالهم ..

وهذا حال فريق من أولئك العباد ، الذين يقرر السياق أن الله بصير بهم :

« إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ، فبشرهم بعذاب أليم . أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين » .

ومن يكون أولئك غير اليهود ؟! إن أعمالهم هذه من الاشتهار بحيث لا يلزم أن يُسَمَّوْا بأسمائهم ، وإنما تكفي الإشارة لأعمالهم لِيُعْلَمَ من هم ! إنهم أصحاب أسود سجل في تاريخ الأمم التي أرسل إليها رسل وأنبياء ! يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير حق ـ وهل يمكن أن يقتل نبي بحق ؟! إنما التعبير لتفظيع عملهم ذلك ، فالنبي المرسل للناس بالهدى هو آخر من يمكن أن يتجه إليه التفكير بالقتل ، بل إن ذلك لا ينبغي في حق نفس بشرية عادية فكيف بنبي ؟! ـ ولا يكتفون بقتل الأنبياء ، بل كل من قام من الناس يأمر بالعدل كان مصيره القتل على أيديهم ، لأن العدل هو عدوهم الأول خلال تاريخهم كله ! لا لأن العدل يظلمهم ـ وحاشا للعدل أن يظلمهم ـ ولكن لأن شهواتهم الإجرامية الجامحة تصطدم دائماً بالحق والعدل ، وبمن يدعون إلى الحق والعدل من الرسل والأنبياء والناس ، فيكرهون هذا كله ، وينتقمون من الرسل والأنبياء والدعاة إلى العدل من الناس فيقتلونهم جميعاً متى وجدوا الفرصة السانحة لذلك !

« .. فبشرهم بعذاب أليم »

ومن يستحق العذاب الأليم أكثر ممن يكفر بآيات الله ، وأكثر من قتلة الأنبياء والناس ؟!

« أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين » .

حبطت أعمالهم بمعنى أخفقت ولم تأت بالنتيجة المطلوبة .. ولكن أصلها اللغوي من حبطت الدابة أي أكلت عشباً مسموماً فانتفخت فماتت . ولذلك يعبر اللفظ عن شيئين معاً في ذات الوقت : انتفاخ أعمالهم لفترة من الوقت كأنها ناجحة ، ثم إخفاقها في النهاية وبطلان مسعاها .

فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين ..

وسيبدو واقع اليهود في الوقت الحاضر استثناء من هذه الصورة ولا شك . وإلى ذلك تشير السورة فيما بعد [آية ١١٢] : « ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا **إلا بحبل من الله وحبل من الناس** .. » وسنتحدث عنها إن شاء الله في حينها .

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ؟ »

ولو كانوا غير ذوي كتاب فربما كان مفهوماً منهم أن يعرضوا حين يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ، وإن كان غير مقبول ذلك منهم ما دام الكتاب منزلاً من عند الله ، وفيه من البينات ما يثبت ذلك .. فما بال هؤلاء وقد أوتوا نصيباً من الكتاب من قبل ــ وهو التوراة ــ وعرفوا أن الله ينزل كتباً على رسله بالوحي ، ولم يعد الأمر غريباً عليهم ولا مفاجئاً ؟ إن إعراضهم يكون أعجب من إعراض الأميين وأدعى إلى الاستنكار .. لذلك يعجّب السياق منهم بقوله : « ألم تر ... »

ثم نقف عند ملاحظة أخرى .. إن السياق يسمي التوراة « نصيباً من الكتاب » ويسمي القرآن « كتاب الله » ..

والتوراة ــ المنزلة ــ هي كتاب الله ولا شك . وقد قال لهم من قبل في سورة البقرة : « وإذ آتينا موسى **الكتاب والفرقان** لعلكم تهتدون » [1] ولكنها وقتها كانت هي « الكتاب » لأنها يومئذ هي الكتاب المعتمد من السماء .. وهي القدر الذي أنزل من كتاب الله حتى ذلك الحين .

فأما بعد ما أنزل القرآن وتم كتاب الله المنزل ، فقد أصبح القرآن هو « كتاب الله » ، لأنه هو المصدق لما نزل من الكتاب والمهيمن عليه كما قال في سورة المائدة : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه » [2] وأصبحت التوراة « نصيباً من الكتاب » .

ثم إن الإنسان ليلمح معنى معيناً في تسمية ما عند اليهود « نصيباً من الكتاب » .. ذلك أن اليهود شديدو الاعتزاز بما في يدهم من التوراة ــ بصرف النظر عن تحريفها ــ فكأنما يريد السياق أن يطامن من اعتزازهم الباطل هذا ، حيث يزعمون أنهم هم وحدهم الأمة ذات الكتاب في كل الأرض .. ويسمون غيرهم « الأميين » أو « الأمميين » .. فيقول لهم إن ما في أيديهم ليس إلا « نصيباً من الكتاب » ! إنما « الكتاب » الكامل الشامل هو هذا القرآن الذي يُدْعَوْنَ إليه ليحكم بينهم فيعرضون ..

ولماذا يعرضون ؟! إنه سبب ساذج مضحك .. ولكن كم من المضحكات الساذجة يدخل في كيان الأمم ويصبح جزءاً من مكوناتها !

« ذلك بأنهم قالوا : لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات ! ! وغرّهم في دينهم ما كانوا يفترون ! »

إنهم شعب الله المختار .. المدلل .. الذي ليس في الأرض أمة ذات كتاب غيره !

---

(١) سورة البقرة [٥٣] .

(٢) سورة المائدة [٤٨] .

ومن ثم فإن لهم أن يكفروا بآيات الله ، ويقتلوا النبيين بغير حق ، ويقتلوا الذين يأمرون بالقسط من الناس ، ويكذبوا أنبياء الله ، ويرفضوا الدخول في الإسلام .. ثم لا ينالهم على ذلك كله إلا أن تمسهم النار أياماً معدودات ! ! يخرجون بعدها ليرثوا النعيم الخالد الذي لا يزول !

وهي سذاجة مضحكة ولا شك .. فإن الله قد قرر أن من يكفر به وبرسله ، ويريد أن يفرق بينه وبين رسله ، أو بينهم بعضهم وبعض ، فجزاؤه جهنم خالداً فيها : « إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً ، **أولئك هم الكافرون حقاً** ، وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً » [1] .

وهبها أياماً معدودات كما يزعمون ! من ذا الذي يعرض نفسه ــ عامداً ــ لأيام معدودات من النار والغمسة الواحدة في النار تنسي الإنسان كل نعيم الأرض ؟! : « يؤتى بأشد أهل الأرض شقاء يوم القيامة فيغمس غمسة في النعيم ثم يقال له : هل رأيت شقاء قط ؟ يقول : لا يارب ! ويؤتى بأشد أهل الأرض نعيماً يوم القيامة فيغمس غمسة في النار ثم يقال له : هل رأيت نعيماً قط : يقول : لا يا رب ! » [2] أو كما قال عليه الصلاة والسلام . فمن ذا الذي يعرض نفسه عامداً لأيام في النار لقاء أي ثمن على الإطلاق ، إذا كانت الغمسة الواحدة فيها بهذا الهول ؟!

« فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ، ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ؟ »

يومئذ سيعلمون أنها ليست أياماً معدودات .. إنما هي العذاب المهين الذي لا يطيقه أحد على الإطلاق !

* * *

« قل : اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء . بيدك الخير إنك على كل شيء قدير . تولج الليل في النهار ، وتولج النهار في الليل ، وتخرج الحيّ من الميت ، وتخرج الميت من الحيّ ، وترزق من تشاء بغير حساب » .

آيتان من آيات العقيدة تأتيان في وسط السياق كأنما تقطعانه ! فقبلها كان يتحدث عن اليهود ، ويجيء من بعد : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ،

---

(١) سورة النساء [١٥٠ – ١٥١] .

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد .

ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء ، إلا أن تتقوا منهم تقاة ... » فما الصلة بين ما قبل وما بعد ، وما صلة الآيتين المعترضتين بهذا وذاك ؟!

الحقيقة أن هناك صلة عميقة جداً ، وأن السياق مستمر بغير فاصل على الإطلاق ، كما سنتبين من شرح الآيتين ..

إن الآيتين دعاء في صورة تقرير واقع ، أو ـ إن شئت ـ تقرير واقع في صورة دعاء !

« قل : اللهم مالك الملك ، تؤتي الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء .. »

إنه دعاء لأنه مصدر بكلمة « اللهم » وهي نداء لله سبحانه وتعالى . ولكن الآيتين بعد ذلك لا تحملان دعاء مباشراً . إنما دعاء متضمناً خلال تقرير هذا الواقع الرباني : أن الله سبحانه وتعالى هو مالك الملك ، الذي يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء ، ويعز من يشاء ويذل من يشاء ، والذي بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، والذي يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ، ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويرزق من يشاء بغير حساب .. كأنما يقول : يا الله الذي تملك كل هذا وتملكه وحدك دون شريك .. آتنا الملك ولا تنزعه منا ، وأعزنا ولا تذلنا ، وآتنا مما بيدك من الخير ، وارزقنا بغير حساب ..

وهذا الدعاء ـ بهذه الصورة التي تقرر حقيقة ربانية ـ يأتي بعد وصف حال اليهود ، ووصف أعمالهم التي استوجبت سحب العهد والاستخلاف منهم ، فكأنما الدعاء يقول : يا رب ، يا من نزعت الملك من اليهود جزاء على ما فعلوه ، وأذللتهم في الأرض ، وآتيتنا العهد ومكنت لنا في الأرض ، اللهم لا تنزع العهد والتمكين منا ، وأعزنا بعزتك إنك على كل شيء قدير ..

وهذه هي الصلة الوثيقة بين هذا الدعاء الخاشع وبين السياق قبله ..

ولنا وقفات مع هذا الدعاء قبل أن ننتقل منه إلى ما بعده ، ونبين صلته بما بعده ..

إنه دعاء خاشع جداً لا يملك الإنسان أن يمر به دون أن يخشع قلبه لجلال الله وعظمته ، سبحانه المعز المذل ..

إن عملية الملك والعزة في الأرض ، وانتقالها من يد إلى يد ، من أكبر الأمور إثارة للاهتمام في حياة البشر .. وهم يتابعونها متابعة تكاد تكون يومية .. فينظرون كل يوم في ميزان القوى : هل تغير أم هو على ما كان عليه بالأمس . ومن أشد الأمور تأثيراً في نفوس الناس وهزاً لمشاعرهم أن يصحوا فإذا ملك قد زال ، وتأسس ملك غيره ، وعزة قد هوت فانتقلت إلى ذل ، وقام مكانها عزٌ غيره ..

وعلى هذا الوتر الحساس ، الشديد التأثر ، يوقع القرآن هذا الدعاء الخاشع الذي يمس اهتمامات البشرية وتأثراتها مساً مباشراً :

« قل : اللهم مالك الملك : تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء .. »

فتربط القلب البشري ربطاً بمالك الملك ، الذي هو الصانع لهذه الأحداث كلها ، الفعال لما يريد .. وهذا البدء : « مالك الملك » تذكر القلب البشري – إن كان نسي ، وكثيراً ما ينسى – بالقوة الحقيقية التي تحرك الأحداث في حياة الناس . إن الأحداث لا تحدث من تلقاء ذاتها ، ولا للأسباب الظاهرة التي يكل الناس إليها في غفلتهم تفسير الأحداث وحركتها .. إنما تحدث بإرادة من مالك الملك ، الفعال لما يريد ..

ولا ينفي ذلك أن توجد الأسباب ، ولا ينفي أن تكون لله سنن يجريها في الأرض ويجري بها الأحداث ، ولا ينفي أن الله سبحانه – رحمة منه بعباده – قد بيّن لهم هذه السنن وحثهم على تدبرها لكيلا يقعوا في حتميتها التي لا تحابي أحداً ولا تتخلف من أجل أحد .. كل هذا وارد وموجود .. ولكن يبقى بعد ذلك كله أن المرجع الأول والأخير في أحداث الكون كلها هو إرادة الله ومشيئته .. ولا يحدث في الكون إلا ما يريده الله ..

وحين يربط القرآن القلب البشري بمالك الملك على هذه الصورة ، ومن هذا الوتر الحساس الشديد التأثر ، فإنما يوجهه أن يتطلع إلى الله وحده .. لا إلى أي قوة في السماوات والأرض غير الله .. لذلك يبدأ بهذا النداء : « قل : اللهم مالك الملك ... » فهذا هو الذي ينادَى ، وهذا الذي يدعي ، وهذا الذي تتطلع القلوب إليه لا إلى سواه .. لأنه هو الذي يؤتي الملك وينزعه وهو الذي يعز ويذل .. فمن شاء شيئاً من هذا لنفسه أو لغيره ، [العزة لنفسه والذل لعدوه] فليتطلع إلى مالك الملك وحده دون سواه ..

وليس معنى هذا ألا يأخذ بالأسباب !

هذه قضية مختلفة تمام الاختلاف .. ولن يكون عاملاً بأمر الله إن لم يأخذ بالأسباب ، لأن الله هو الذي يأمره بذلك : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم .. »[1]

إنما المقصود فقط هو ألا يركن لغير الله ، ولا يتطلع لغير الله .. لأن أحداً غير الله لا يصنع الأحداث ، أو يؤتي الملك أو ينزع الملك أو يعطي العزة أو يعطي الذل .. فيعمل ، ويأخذ بالأسباب كما أمره الله ، ثم يتطلع إلى الله وحده ولا يتطلع إلى سواه ..

« .. بيدك الخير إنك على كل شيء قدير » .

---

(١) سورة الأنفال [٦٠] .

فمن أراد الخير ، من أي أنواع الخير ، فليتوجه إلى الذي هو على كل شيء قدير .. لأنه هو وحده سبحانه الذي يملك أن يعطي الخير المطلوب ... .

« تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل ، وتخرج الحيّ من الميت ، وتخرج الميت من الحيّ ، وترزق من تشاء بغير حساب » .

إنها آيات القدرة الربانية .. فهو مالك الملك الذي يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء .. وهو القادر الذي ترى قدرته في إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل ، وإخراج الحيّ من الميت كما يخرج النبات من البذرة التي لا قدرة لها على النمو والحركة ، وإخراج الميت من الحيّ في حالة موت الكائن الحي فتموت خلاياه كلها ومكوناته الحية ، وبسط الرزق لمن يشاء كما يشاء ..

نعم إنها آيات القدرة ، يمر الحس عليها متبلداً بتأثير الإلف والعادة فلا يتدبر هذه الآيات ولا يعطيها دلالتها الحقة ، فيلفته السياق إليها ، ليتلقى شحنتها الكاملة ويدرك دلالتها ..

ولكن .. إنها آيات مختارة في هذا الموضع بالذات !

فحركة الليل والنهار هي ذاتها حركة الأحداث ! وهي التي تستوعب في داخلها الملك الذي يأتي والملك الذي يروح ، والعز الذي يأتي والعز الذي يروح ! فهي ليست مجرد آية من آيات القدرة ، ولكنها الآية الشديدة الارتباط بحبل الأحداث ، الذي تمسك به يد القدرة الإلهية ، فتحرك به الأحداث في أثناء ولوج الليل في النهار وولوج النهار في الليل .. أما خروج الحيّ من الميت وخروج الميت من الحيّ فهو خط موازٍ كذلك ومقارب لخروج العز من الذل وخروج الذل من العز ، وذهاب الملك ومجيئه .. فالصورة كلها متلاحمة الأجزاء متناسقة الخطوط والألوان ..

« .. وترزق من تشاء بغير حساب » .

فمن تطلع إلى الرزق .. والرزق ليس كله مالاً ولا طعاماً ولا كساء .. فالملك رزق ، والعز رزق .. فمن تطلع إلى شيء من هذا كله فليتوجه بتطلعه إلى الله .. ولا يتوجه لأحد سواه ..

لعلنا الآن فهمنا ، أو أحسسنا ، بالصلة بين هذا الدعاء الخاشع الذي يملك أقطار النفس ، وبين ما يجيء بعده !

« لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء ـ إلا أن تتقوا منهم تقاة ـ ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير » ..

إن الدعاء يوجه القلب البشري للارتباط بالله ، لا يطلب العزة من أحد سواه ..

والآن يقول السياق للمؤمنين : لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين تبغون

عندهم العزة .. فالعزة عند الله ، ويمنحها الله ، ولا يمنحها أحد سواه !

هل تبينت الآن صلة السياق ؟!

إن المنافقين كانوا يلجئون إلى اليهود ، يقولون نبتغي عندهم العزة .. وكان عبد الله ابن أُبيّ رأس المنافقين يبرر بذلك اتصالاته مع اليهود . فالسياق يحذر المؤمنين أن يصنعوا ذلك الذي يصنعه المنافقون . ويقدم لهذا التوجيه بذلك الدعاء الخاشع المؤثر الأخاذ .. فإذا جاء التوجيه جاء والقلب ينبض بهذا المعنى بحرارة ، والوجدان ينفعل به والمشاعر تتحرك ، فيكون ذلك أدعى إلى الاستجابة من مجيء التوجيه بغير هذه التقدمة الحية النابضة المنفعلة المتأثرة ..

وهكذا صارت التوجيهات العقيدية في السور المدنية لا تجيء لتأسيس العقيدة ـ فقد تأسست وتوطدت ـ إنما تجيء ـ بجانب التذكير ـ لينبثق منها توجيهات سياسية واقتصادية واجتماعية ، وتقام عليها تنظيمات في كل هذه الجوانب ، فتكون أرسخ وأثبت ، وتكون أدوم وأبقى . . .

ولكن السياق لا يقول : لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون الله ! بل يقول : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون **المؤمنين** » ..

ولا تعارض بين المعنيين !

فإن الله يمنح العزة من عنده للمؤمنين ، حين يكون ولاؤهم بعضهم لبعض ، وصفّهم متماسكاً ، وقلوبهم مترابطة .. فحين يتخذ المؤمنون المؤمنين أولياء ، فذلك مما يؤهلهم للعزة الربانية ، والله يقول : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين »[1] أما حين يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين فإنهم لا يستحقون بذلك العزة الربانية التي يمنحها للمؤمنين المستقيمين على أمره ..

« .. إلا أن تتقوا منهم تقاة » .

فعندئذ يمكن أن تصنعوا ما تتقون به شرهم ، حاشا ولاء القلب ، وحاشا كشف أسرار المسلمين لهم ، وحاشا التناصر معهم ضد المؤمنين ! فهذه ليست تقية إنما ولاء .. وليست تمرير أزمة إنما ميل ومحبة !

ولأن هذا الباب ـ باب التقاة ـ يمكن أن ينفذ منه الشيطان بسهولة يزين للضعفاء ومرضى القلوب أن يركنوا إلى أعداء الله قال بعدها مباشرة :

« ويحذركم الله نفسه . وإلى الله المصير » .

يحذركم في الدنيا أن تتخذوا هذا الباب تكأة ، وتستسهلوا هذه الكبيرة ـ وهي

---

(١) سورة المنافقون [٨] .

موالاة أعداء الله ــ وينذركم أن إليه المصير ، فيجازيكم على ما فعلتم في الدنيا ، فلا تحسبوا أن ترتكبوا هذه الكبيرة في الأرض ــ مخادعين أنفسكم أو مخادعين الناس ــ ثم تنجوا من عذاب الله في الآخرة .

« قل : إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله . ويعلم ما في السماوات وما في الأرض . والله على كل شيء قدير . يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً . ويحذركم الله نفسه ، والله رءوف بالعباد .. »

استمرار في التحذير ..

« قل : إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله » .

فلا تحسبوا أنكم تستطيعون أن تخفوا عن الله شيئاً مما تخفونه عن الناس أو تبدونه . والحديث متصل حول النقطة ذاتها ، وهي اتخاذ الكافرين أولياء .. مما يشعر بأهميتها البالغة .. وما من شك في أهميتها القصوى في حياة المسلمين . فما أُتِيَ المسلمون في نكباتهم الكبرى إلا من هذا الباب .. كذلك كانت نكبتهم الكبرى في الأندلس ، حين اتخذ المؤمنون الكافرين من الصليبيين أولياء من دون إخوانهم المؤمنين ، وتحالفوا معهم ضد بعضهم البعض فوقعت النكبة الأليمة .. وكذلك كانت نكبتهم الثانية في فلسطين ، التي مهد لها من الأصل اتخاذ المؤمنين الكافرين من الصليبيين المحدثين أولياء من دون إخوانهم المؤمنين إذ تحالفوا معهم ضد الدولة المسلمة فسقطوا وسقطت وذهبت فلسطين ..

من أجل ذلك يشدد السياق جداً في التحذير ..

« قل : إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله . ويعلم ما في السماوات وما في الأرض » .

فعلمه ليس مقصوراً على ما في صدوركم مما تخفونه أو تبدون . ولكنه يعلم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً ، فأين تهربون منه ؟

« والله على كل شيء قدير » ..

فهو يحاسبكم ــ بقدرته التي لا تحد ــ ويجزيكم الجزاء الذي يوافق أعمالكم .

« يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً . وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً .. »

في ذلك اليوم الذي تُحْضَر فيه الأعمال كلها خيرها وشرها .. فأما الخير فأهلاً به .. وأما السوء فتود كل نفس لو يُبْعَدُ عنها ويُخْفَى فلا يطلع عليه أحد ، ولا يوضع في الميزان .. ولكن هيهات أن تفر منه أو يُبْعَدَ عنها .. إنه ملازم لها حتى يتم الحساب والجزاء ..

« ويحذركم الله نفسه . والله رءوف بالعباد » .

مرة ثانية يجيء التحذير على تلك الكبيرة المنكرة .. التي حرك لها القلب من قبل بذلك الدعاء الخاشع ، ويحرك لها القلبَ الآن بالتحذير ..

ولكن التحذير الثاني يبدو غريباً لأول وهلة .. إذ تصحبه هذه العبارة : « والله رءوف بالعباد » ..

كيف يكون تحذيراً .. ثم تكون رأفة ؟

بلى ! إن التحذير من الرأفة ! فالله سبحانه وتعالى لا يأخذ الناس ولا يجازيهم قبل أن يعظهم ويبين لهم . ومن رأفته بهم يعطيهم ذلك التحذير ، ليتجنبوا الوقوع في المحظور !

« قل : إن كنتم تحبون الله فاتبعوني ، يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم . والله غفور رحيم . قل : أطيعوا الله والرسول ، فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين » .

إنه الإعلان الأخير للذين يقعون في هذه الكبيرة .. الذين يزعمون في ذات الوقت ـ هم وأولياؤهم من اليهود ـ أنهم يحبون الله !

« قل : إن كنتم تحبون الله فاتبعوني .. »

إن أمارة الحب الحقيقية هي هذه ! .. اتبعوني ! فالحب ليس دعوى تقال باللسان ، إنما ينبغي أن يصحبها عمل دال عليها ، وينبغي ألا يصحبها عمل مضاد لها ! وأنتم تزعمون أنكم تحبون الله .. فإن كان كذلك فاتبعوني . فهذه هي علامة الحب الحقيقي ؛ وحين ذلك سيحبكم الله .. .

« .. فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ، والله غفور رحيم » ..

إن الله ـ سبحانه ـ واسع المغفرة .. إنه يبذلها بذلاً لمن يتبعون طريقه .. فيغفر لهم عثراتهم في أثناء الطريق .. وهو يحبب الناس في مغفرته ، ويدعوهم أن يتعرضوا لها بأن يتبعوا الرسول صلى الله عليه وسلم ويطيعوه :

« قل : أطيعوا الله والرسول ، فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين » .

هكذا باختصار حاسم قوي تلخَّص قضية الإيمان كلها ..

إن الإيمان ليس مجرد دعوى .. ولن يكون . إنما هو الطاعة لله والرسول . وللطاعة دلالتها وطرائقها .. فإن تولوا عن طاعة الله ورسوله ، فألف دعوى من دعاواهم لا تعطيهم صفة الإيمان ولا الإسلام ..

« فإن الله لا يحب الكافرين » ..

* * *

الآن وقد أخذ جولة مع اليهود وأوليائهم من المنافقين ، يأخذ جولة أخرى مع النصارى ، ليست منقطعة الصلة عن بني إسرائيل . فإن عيسى عليه السلام قد بعث أصلاً إلى بني إسرائيل ، فلما أحس منهم الكفر قال : من أنصاري إلى الله ، فاتبعه الحواريون وقالوا نحن أنصار الله فصاروا هم وأتباعهم هم النصارى ..

ومن ثم يأتي بقصة عيسى عليه السلام وصلة بين بني إسرائيل والنصارى .. كما

يأتي بالقصة لأنها هي موضع فتنة النصارى إذ ألهوا عيسى عليه السلام لأنه ولد من غير أب .. فلذلك يروي القصة من أولها ، وعلى حقيقتها ، ليبين للنصارى موضع فتنتهم ، وأنهم مضوا فيها على غير الحق .. وذلك كله بمناسبة مجيء وفد نجران من النصارى لمحاجة الرسول صلى الله عليه وسلم في أمر عيسى عليه السلام .

« إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ، ذرية بعضها من بعض . والله سميع عليم ، إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبل مني ، إنك أنت السميع العليم . فلما وضعتها قالت : رب إني وضعتها أنثى ــ والله أعلم بما وضعت ــ وليس الذكر كالأنثى ، وإني سميتها مريم ، وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم . فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً ، وكفّلها زكريا ، كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً ، قال : يا مريم أنى لك هذا ؟! قالت هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ! هنالك دعا زكريا ربه ، قال : رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء . فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى ، مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين . قال : رب أنّى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر ! قال : كذلك الله يفعل ما يشاء ! قال : رب اجعل لي آية ! قال : آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار . وإذ قالت الملائكة : يا مريم إن الله اصطفاك ، وطهرك ، واصطفاك على نساء العالمين . يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين . ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم إذ يختصمون ، إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين ، ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين . قالت : رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر ؟! قال : كذلك الله يخلق ما يشاء ، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ! ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم : أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، وأبرئ الأكمه والأبرص ، وأحيي الموتى بإذن الله ، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين . ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم ، وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون . إن الله ربي وربكم فاعبدوه . هذا صراط مستقيم » .

إن قصة عيسى عليه السلام ، سواء هنا أو في سورة مريم المكية ، من أجمل القصص وأشدها تأثيراً في النفس . وهي تأتي مفصلة في هذين الموضعين في القرآن ، ولا تأتي في

غيرهما إلا إشارات عابرة ، كالذي جاء في سورة النساء ، وسورة المائدة ، وسورة الأنبياء ، وسورة الزخرف ...

ولن نقف عند القصة آية آية كما فعلنا ببقية السياق ، فالقصة غنية بذاتها ، مؤثرة بذاتها . إنما نقف مع السياق وقفات ..

إنه يبدأ القصة من أولها ، لتكون بتمامها حاضرة بين يدي الجدل الذي يجادله النصارى مع الرسول صلى الله عليه وسلم بشأن عيسى عليه السلام .. ولكن البدء في الحقيقة يأتي من أول آدم ! حتى يصل ـ عبر نوح وآل إبراهيم ـ إلى آل عمران الذين ولد فيهم عيسى !

وهذا البدء ـ منذ أول الخليقة ـ يؤدي هنا غرضين اثنين ..

فالغرض الأول هو بيان خط الاصطفاء الرباني من أول آدم عليه السلام حتى يصل إلى آل عمران .. بما يمهد للنفس أن تتلقى أنباء الاصطفاء في آل عمران بانتباه وتشوف .. إذ أنه اصطفاء عريق جداً يرجع إلى بدء الخليقة ، ويمضي خلال التاريخ ، بقدر من الله ، حتى يصل إلى آل عمران .. ويجيء هذا كله تمهيداً لاصطفاء مريم ، ذلك الاصطفاء الفريد في التاريخ كله ، ثم اصطفاء ولدها عيسى عليه السلام ... .

أما الغرض الثاني فبيان أن المعجزة في عيسى عليه السلام ليست مفردة في التاريخ ! فقد سبقتها معجزة خلق آدم على ذات المستوى من الإعجاز .. وبغير أب في الحالتين . وقد نص السياق على ذلك نصاً بعد إكمال القصة ، عند بدء الجدل مع النصارى حيث يقول : [آية ٥٩] « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له : كن فيكون ! »

ثم تأتي قصة امرأة عمران حين نذرت ما في بطنها لله .. على عادة أهل تلك الفترة إذ كانوا ينذرون أبناءهم للمعابد تقرباً لله ، فيعيش الولد في المعبد يتلو ويتعبد ولا يقرب الحياة الدنيا ! وتلك « عقدة » القصة ، فقد ولدت أنثى ولم تلد ذكراً كما كانت تتمنى .. والأنثى لا يمكن أن توهب للمعبد كما يوهب الذكر .. إلا أن الله من عليها ، وتقبل منها هبتها ، وقبل أن توهب للمعبد بدلاً من الذكر الذي كانت تتمناه !

وهنا نقف مع امرأة عمران تدعو وهي تكاد تجزم ـ بمشاعرها ـ من شدة التمني ، أن يكون ما في بطنها ذكراً فتهبه للمعبد . ونستطيع أن نتصور الصدمة والمفاجأة حين وضعتها أنثى فتنادي ربها : رب إني وضعتها أنثى ... وليس الذكر كالأنثى ! لقد كان الإنسان يتصور أن تقول : وليست الأنثى كالذكر ! فيكون الكلام منطقياً مع الواقع ! ولكن امتلاء خيالها بالولد الذكر الذي كانت ترجوه هو الذي يجعلها تقدم الذكر على الأنثى ، كأنها تقول : وليس الذكر الذي تمنيته لأهبه للمعبد ، كالأنثى التي وضعتها ولا يمكن أن توهب للمعبد !

ولكن الله يتقبل منها هبتها ويوحي لزكريا أن يكفلها ..

وهنا وقفة مع زكريا ..

إن كفالته لهذه الصغيرة المباركة ، التي يفيض الله عليها من رزقه ، وهو المحروم من الذرية ، قد حرك في نفسه ذلك الهاتف القوي ، العميق العميق في الفطرة ، بحيث لا تنجو منه نفس بشرية ، ولو كانت نفس نبي .. ذلك هو الحنين إلى الذرية ..

« هنالك دعا زكريا ربه ، قال : رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء » ..

ترى ذلك العمق في « هنالك » ..

إنه لا يقول : هنا دعا زكريا ربه .. والمناسبة حاضرة مع الصغيرة في المحراب ..

ولا يقول : هناك دعا زكريا ربه .. فيبعدنا عنه شيئاً ما ، لنترقبه من بعيد وهو هناك في المحراب يدعو ربه ..

إنما يقول : « هنالك دعا زكريا ربه ... »

إن « هنالك » تحمل كل العمق الشعوري في قلب زكريا نحو الذرية .. وكل اللهفة الموغلة في حناياه !

هنالك .. هنالك في الأعماق !

إنها ليست تعبيراً عن البعد المكاني .. فالمكان أمامنا قريب ، ونحن معه نشاهد مريم ، والرزق يفيض عليها من عند الله ، وزكريا واقف إزاءها .

ولكنها تعبير عن المناسبة التي تحرك فيها وجدان زكريا .. ومن هنا تأخذ شحنتها الحقيقية لا من مدلولها المكاني الحسّي ، بل من مدلولها النفسي الشعوري الذي أبرز مكنون صدر زكريا ، الموغل في أعماقه .. هنالك في أعماق الشعور !

وإنه لإعجاز .. أن يتحكم حرف واحد في المعنى ، فيعطيه كل هذا العمق .. وكل هذا التأثير !

ووقفة أخرى معه وهو ينبأ بمولد يحيى فلا يصدق ! وهو الذي كان يتمنى وهو مصدق !

فحين كان يتطلع إلى الله ، كان موقناً ـ في أعماقه ـ بأنه يتطلع إلى القدير الذي لا يعجزه شيء ! ولكن لما تحققت الأمنية البعيدة لم يستطع وجدانه أن يصدقها لأنها كانت بعيدة بعيدة .. « هنالك » في أقصى الخيال !

ثم يترك زكريا في مفاجأته وفي فرحته ليعود إلى مريم صاحبة القصة الأصلية ، والملائكة تبشرها باصطفائها ـ بمعنى اختيارها ـ وتطهيرها ، واصطفائها ـ بمعنى تفضيلها ـ

على نساء العالمين . وإن كان تكرار لفظ الاصطفاء ـ مع اختلاف المعنى ـ تأكيداً لمعنى الاصطفاء في كل حال .

ثم .. قبل أن يذكر البشارة الثانية بحمل عيسى ، يُقْطَعُ السياق بآية :

« ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك . وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم إذ يختصمون » .

إن هذه الآية تؤدي مهمة عقيدية .. هي إثبات الوحي للرسول صلى الله عليه وسلم ، فهو لم يكن حاضراً هذه القصة ولا كان يعلم تفصيلاتها ، فهي إذن من أنباء الغيب الموحاة إليه ..

ولكنها تؤدي كذلك مهمة « فنية » فهي تتيح فاصلاً زمنياً بين بشارة الملائكة لمريم بالاصطفاء ، وبشارتهم لها بحمل عيسى عليه السلام .. اللتين يفصل بينهما فاصل زمني في الواقع .. يملأه السياق هنا ـ فنياً ـ بالحديث في موضوع آخر ، وإن كان وثيق الصلة بالقصة .. فإذا عاد إلى السرد كان الخيال مهيئاً للحدث الجديد ، فقد مر من الزمن ما يهيئ لحدث جديد !

وذلك من دقائق التعبير القرآني .. وقصة مريم هنا وفي سورة مريم مليئة باللطائف الفنية الدقيقة ، التي تهيئ جواً شعورياً معيناً يتناسب مع تلك القصة الفريدة في حياة البشرية !

وتجئ البشارة الثانية بمفاجأة حادة لمريم .. أشد من مفاجأة زكريا بمولد غلام له ..

ومما يلفت النظر أن القصة في الموضعين اللذين وردت فيهما ، وهما سورة آل عمران وسورة مريم ، قد جمعت بين قصة ولادة الغلام لزكريا وولادة الغلام لمريم .. ذلك أن المعجزة فيهما من نوع متقارب ، وإن لم تكن واحدة في الحالين . ففي حالة زكريا يولد له ولد بغير الإمكانيات المعتادة في عالم البشر ، فالعاقر لا تلد ، واحتمال النسل للشيخ الذي بلغ من الكبر عتيا احتمال ضئيل في ذاته ، فإذا كانت الزوجة عاقراً فهو مستحيل بطبيعة الحال .. ومن ثم تكون المعجزة في حالة هذا الشيخ الكبير والزوج العاقر هي معجزة « كن فيكون » ولكن مع وجود أساس يمكن « إصلاحه » كما جاء في وصف القصة في سورة الأنبياء : « وزكريا إذ نادى ربه : رب لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين ، فاستجبنا له ووهبنا له يحيى **وأصلحنا** له زوجه . إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين » [1].

أما معجزة ولادة عيسى بغير أب فهي معجزة « كن فيكون » ولكن بغير الأدوات

---

(١) سورة الأنبياء [٨٩ – ٩٠] .

المعتادة في حياة البشر أصلاً .. ولذلك نجد السياق يقول حين عجب زكريا : « قال : رب أنّى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر ؟! قال : كذلك الله **يفعل** ما يشاء » أما حين عجبت مريم : « قالت : رب أنّى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر ؟! قال : كذلك الله **يخلق** ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » .

وثمت وقفة « فنية » أخرى في سياق القصة :

« قالت : رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر ؟! قال : كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له : كن فيكون . ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم ... »

هل هو استمرار للحوار مع مريم ؟! استمرار لوحي الله لها : إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، ويعلمه الكتاب والحكمة ؟ أي أنه إنباء لمريم بأن عيسى سيولد بمشيئة الله التي تقول للشيء كن فيكون ، وسيعلمه ربه الكتاب والحكمة .. وسيرسله رسولاً إلى بني إسرائيل .. كل ذلك في المستقبل ؟ أم إن الحوار انتهى عند قوله تعالى « .. فإنما يقول له كن فيكون » وهذا إخبار عن الماضي ، أنه قد ولد بالفعل ، وعلمه ربه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، ثم أرسله رسولاً إلى بني إسرائيل ، وها هو ذا في لحظة الكلام هذه يقول لبني إسرائيل : إني قد جئتكم بآية من ربكم ... ؟

إنه هذه وتلك !

فهو إنباء لمريم بالمستقبل . وهو تحقيق للإنباء .. فقد وقع بالفعل .. وها هي ذي الحلقة الأخيرة من الإنباء تتحقق أمام أعيننا في الحاضر !

لو أن السينما هي التي تصور .. وصورت لنا هذا التداخل بين المستقبل والماضي والحاضر .. فصورت لنا الإنباء في لحظة الإيحاء به على أنه مستقبل ، ثم عادت فعرضت ما تحقق منه بالفعل ، ثم وضعتنا أمام الحلقة الحاضرة فأعطتنا تفصيلاتها لنعيش معها خطوة خطوة .. لو أن السينما هي التي تصنع ذلك لقلنا إنها براعة تأخذ بالألباب ! .. وهذه مجرد ألفاظ .. لا صور تتحرك .. وألفاظ قليلة معدودة .. تعطينا كل هذه الذخيرة من الصور والمشاعر وحركة الأحداث !

ثم ..

« ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم : أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، وأبرئ الأكمه والأبرص ، وأحيي الموتى بإذن الله ، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم . إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين » .

ألم تلحظ شيئاً معيناً في السياق في أثناء سرد الآيات التي جاء بها عيسى لبني إسرائيل ؟!

ألم تلحظ أن الآيتين بالذات ، اللتين فتن بهما النصارى فألهوا عيسى من أجلهما ، وهما خلق الطير من الطين وإحياء الموتى ، قد نص السياق بشأنهما نصاً أنهما يتمان بإذن الله ؟! بينما لم يذكر ذلك بشأن الآيتين الأخريين وهما إبراء الأكمه والأبرص وإنباؤهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم ، وإن كانت الآيات كلها تم بإذن الله ، ولكن المقصود إبراز هاتين الآيتين بالذات .

لقد جاءت قصة هذه الآيات نفسها مرة أخرى في سورة المائدة ، وهناك نص على أنها كلها تم بإذن الله [ليتم التنويع الذي أشرنا إليه من قبل !] ولكنه كذلك ميز هاتين الآيتين بالذات وهما خلق الطير من الطين وإحياء الموتى ، عن إبراء الأكمه والأبرص ! « إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك . إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلاً ، وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل **وإذ** تخلق من الطين كهيئة الطير فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني ، وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني ، **وإذ** تخرج الموتى بإذني ... » [1]

وأخيراً يبرز السياق هذه الحقيقة في نهاية القصة : « إن الله **ربي وربكم** فاعبدوه . هذا صراط مستقيم » فيسجل قول عيسى عليه السلام أن الله هو ربه وربهم .. لكي لا تكون هناك شبهة على الإطلاق أن عيسى قد ادعى بنوته لله !

* * *

« فلما أحس عيسى منهم الكفر قال : من أنصاري إلى الله ؟ قال الحواريون : نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون . ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين . ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين . إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ، ثم إليّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون . فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين . وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم . والله لا يحب الظالمين » .

هذه تكملة القصة ، وهي مفرق الطريق كذلك بين بني إسرائيل وبين النصارى .. فقد كفر بنو إسرائيل بعيسى عليه السلام ، واتبعه الحواريون وهم **أفراد قلائل** ، ومكر بنو إسرائيل مكرهم ليقدموا عيسى عليه السلام للمحاكمة التي تؤدي إلى صلبه باعتباره خارجاً على الدولة الرومانية ومثيراً للفتن والقلاقل ! ومكر الله – **أي دبّر** – وهو خير الماكرين ، فأنقذ رسوله من كيد بني إسرائيل ، فرفعه إليه ..

---

(١) سورة المائدة [١١٠] .

وليس بنا هنا أن نخوض في قضايا هذه الآية : « إني **متوفيك** ، **ورافعك إليَّ** ، **ومطهرك من الذين كفروا** .. » فإن ذلك كله لا يدخل في نطاق هذا البحث ، الذي يتناول رءوس الموضوعات في القرآن .. إنما نسير مع القصة حتى نهايتها ، فنجد وعداً من الله بجعل الذين اتبعوا عيسى فوق الذين كفروا به إلى يوم القيامة ، ووعيداً بتعذيب الذين كفروا في الدنيا والآخرة ..

ثم تنتهي القصة بهذا التعقيب ، الذي ينتقل السياق بعده إلى معركة الجدل مع النصارى :

« ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم » .

وللتعقيب صلة بهذا الجدل ، فكأنما هو توثيق من الله سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ، ومنحه التفويض الذي يتكلم بموجبه في القضية ! ذلك أنه يتكلم باسم الله ، وبوحي من الله ..

« إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن ، فيكون » ..

هكذا بهذه البساطة يفصل في قضية الألوهية المزعومة لعيسى .. لا عجب ولا غرابة ولا ضرورة على الإطلاق لوضع الأساطير ! إن الله يخلق بتوجه المشيئة للخلق . يقول للشيء كن . فيكون . وحادثة عيسى ليست هي الوحيدة في تاريخ البشرية ، فقد سبقتها حادثة خلق آدم ، وهي ادعى للعجب من خلق عيسى . فقد خلق عيسى على **أي** حال من كيان بشري وهو مريم ، ولكن آدم خلق من تراب .. وخلق إنسان حيّ من التراب الميت **أعجب** من خلق كيان آدمي حيّ من كيان آدمي حيّ وإن كان على غير الصورة المعهودة ..

وعلى الرغم من كون خلق آدم من تراب **أعجب** في حسنا من خلق عيسى بغير أب ، إلا أن السياق يوحد بينهما بالقياس إلى الله سبحانه وتعالى : « إن مثل عيسى **عند الله** كمثل آدم .. » وهذا هو المقصود . إذ أنه بالقياس إلى الله سبحانه وتعالى يستوي الصغير في حسنا والكبير ، والعجيب وغير العجيب ، لأن مرده كله إلى توجه المشيئة ، أن يقول له كن ، فيكون .

« الحق من ربك فلا تكن من الممترين » .

وما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من الممترين في يوم من الأيام ، إنما يوجه الخطاب إلى الناس من خلال توجيهه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهم المقصودون من قوله تعالى : « فلا تكن من الممترين » .

« فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل : تعالوا ندع أبناءنا ، **وأبناءكم** ، ونساءنا ونساءكم . **وأنفسنا** وأنفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » .

وتلك هي المباهلة الشهيرة التي تقول شهادة التاريخ إن وفد نجران الذي جاء يجادل في أمر عيسى قد توقف عندها وانسحب من المناقشة ! والدلالة النفسية لذلك واضحة ! إن هذه الأساطير التي وضعتها الكنيسة حول عيسى عليه السلام تبلغ عند أتباعه مبلغ الاعتقاد ، ولكنها لا تصل إلى درجة اليقين . ومن ثم فإنهم حين ووجهوا بالمباهلة على يد نبي مرسل أحجموا وخافوا ، وإن لم يتنازلوا عن اعتقادهم مع ذلك !

« إن هذا لهو القصص الحق . وما من إله إلا الله . وإن الله لهو العزيز الحكيم » .

إن قصة عيسى كما رواها القرآن هي القصص الحق . ومنها يتبين أن عيسى بشر خلقه الله كما خلق آدم وليس إلهاً ولا شبه إله . وما من إله إلا الله وحده لا شريك له في ألوهيته . وإن الله لهو العزيز الحكيم القادر الذي يفعل كل شيء بقدرته ..

« فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين » .

وبمقتضى علمه بهم يحاسبهم يوم القيامة .

وكأنما يوجه الخطاب إليهم قبل أن يتولوا ! ..

« قل : يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم : ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله . فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

تعالوا إلى كلمة فاصلة بيننا وبينكم . كلمة مستقيمة نلتقي عندها أو نفترق عندها : ألا نعبد إلا الله وحده دون شريك ، وألا ننشئ من بيننا آلهة نعبدها من دون الله .. وهي كلمة حق لا يملك أحد مستقيم الفطرة ألا يوافق عليها . فإن تولوا ، فاطلبوا منهم ـ قبل التولي ـ أن يشهدوا شهادة واحدة : أنكم مسلمون لله وحده دون شريك !

وهم بطبيعة الحال لن يعطوا هذه الشهادة لأنها ليست في صالحهم ! ولكنها طريقة لإعلان المسلمين عن موقفهم من القضية وهي أنهم مسلمون لله لا يشركون به شيئاً ، ولا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله ..

« يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده ؟ أفلا تعقلون ! ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم . فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ؟ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ! ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين . إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه ، وهذا النبي والذين آمنوا . والله ولي المؤمنين » .

إن أهل الكتاب ـ بفرقتيهم ، اليهود والنصارى ـ يزعمون ملكية إبراهيم عليه السلام وحدهم دون شريك . اليهود يقولون إنه كان يهودياً ، والنصارى يقولون إنه كان نصرانياً .. وكلاهما يقول إن المسلمين لا صلة لهم بإبراهيم ولا يحق لهم أن ينتسبوا إليه ! !

والقرآن يحاجّهم في هذه القضية بمنطق بسيط واضح . وإن كان الهوى يعمي بصيرتهم عن المنطق فلا يصيخون له ! كيف يكون إبراهيم يهودياً أو نصرانياً إذا كانت التوراة التي سمي اليهود يهوداً بسببها ، والإنجيل الذي سمي النصارى نصارى بسببه ، لم ينزلا إلا بعد إبراهيم بفترة طويلة من الزمان ؟! كيف يخضع إبراهيم لتسمية لاحقة لم تكن موجودة في وقته ؟! إنما يكون حنيفاً مسلماً ، لأن كل أنبياء الله وكل الذين اتبعوهم كانوا مسلمين ، بمعنى إسلام الوجه لله ، واتباع ما أنزل الله .

ثم يفصل القرآن في هذا النزاع الجدلي الذي يثيره اليهود والنصارى حول إبراهيم فيحدد من هم أولى الناس به . إنهم ليسوا اليهود لأنهم لم يحافظوا على العهد ، بل ظلموا . وقد نبه الله إبراهيم إلى ذلك حين طلب العهد لذريته فقال : « لا ينال عهدي الظالمين » . وإنهم ليسوا النصارى كذلك ، الذين يخالفون خط الإسلام الذي كان عليه إبراهيم ، بدعواهم في تأليه عيسى عليه السلام .. إنما هم أتباعه المباشرون الذين آمنوا به في وقته على استقامة ، وهذا النبي الذي جاء بالإسلام والذين آمنوا معه بهذا الإسلام .. والله ولي المؤمنين في هذه المعركة ، يسندهم بكلمة الحق . أما الضالون فلا ولي لهم من دون الله ..

« ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون » .

إن أهل الكتاب يمتلئون حقداً على المسلمين . وكأنما المسلمون قد سلبوهم سلطانهم وعهدهم ، وليسوا هم الذين انحرفوا عن العهد فسحبت منهم الخلافة ! وبدلاً من أن يستقيموا على دين الله ، فيدخلوا في هذا الاستخلاف الجديد فإنهم يحقدون ويسعون إلى الكيد . ومن الكيد أن يحاولوا تضليلكم .. وما يشعرون أنهم حين يحاولون جذبكم بعيداً عن الخط المستقيم فإنهم هم أنفسهم الذين يضلون لأنهم يزدادون بعداً عن هذا الخط المستقيم ! .. ويتوجه الخطاب إليهم ينبههم إلى سوء عملهم :

« يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ؟ يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ؟! »

إن المخاطبين في هذه السياق هم اليهود .. وتلك أعمالهم ووسائلهم ! يكفرون وهم يعرفون الحق . ويلبسون الحق بالباطل وهم يعلمون بعملية التزييف والتلبيس التي يقومون بها عن قصد ..

« وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون ، ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ! »

إنها هي الوسائل التي يستخدمها أهل الكتاب حتى هذه اللحظة !

إن مخططات أعداء الإسلام ومكائدهم لمشروحة ومفصلة في كتاب الله منذ أربعة

عشر قرناً ! ما تغير إلا بعض وسائلها ، ولكنها في جوهرها لم تتغير ، وكثير من وسائلها كذلك لم يتغير !

إن هذا الذي تذكره الآية لهو ذاته الذي يتخذه المستشرقون اليوم من نصارى ويهود .. يبدأون بشيء من المديح للإسلام ولرسول الإسلام صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا اطمأن القارئ المسلم أنه في جوٍ صديق ، وألقى سلاح اليقظة ، دسوا له السم في العسل وهو مخدر بذلك المديح الذي لا يتوقع صدوره من أعداء الإسلام ، فيظن أنهم مخلصون ! فإذا بذروا له الشبهات في الطريق ، راح يتشكك في دينه وكأنه يقول : لا بد أن ما يقولونه حق لم أكن منتبهاً إليه ، فنبهني ذلك الكاتب « العالم » المخلص النزيه ! ! وبذلك تتربى أجيال من « المثقفين » يأخذون دينهم من أولئك المستشرقين ، ولا يلتفتون إلى تحذير الله لهم منذ أربعة عشر قرناً وتبيانه لهذه الوسائل الخبيثة المسمومة : « آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار » أي تظاهروا أمامهم بالإيمان في أول الأمر « واكفروا آخره لعلهم يرجعون ! » يرجعون معكم ! فيرجعون عن إيمانهم ! « ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم » فهي مخادعة للمؤمنين فقط دون تحول حقيقي عما يعتقدون !

« .. قل إن الهدى هدى الله . أن يؤتى أحد مثلما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم ! قل : إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم . يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

إن الآية تروي حواراً من الجانبين ، فيه كلام من جانب أهل الكتاب ، ورد من جانب الرسول صلى الله عليه وسلم يوجَّه إلى الرد به عليهم .

ولو كتبناها في صورة حوار متبادل لصار الحوار هكذا :

يقول أهل الكتاب بعضهم لبعض : « آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون ، ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم » .

فيقول لهم الرسول صلى الله عليه وسلم : « إن الهدى هدى الله » .

ويقول أهل الكتاب بعضهم لبعض : « أن يؤتى أحد مثلما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم ! »

فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ... »

إنهم يزعمون أنهم على الحق ، ويريدون في الوقت ذاته ألا يؤتى هذا الحق أحد سواهم ! فالخير ـ إن كان ما عندهم خيراً ! ـ ينبغي أن يكون مقصوراً عليهم . ولا يحق لأحد من البشر أن يهتدي سواهم ! فهم يعملون على تضليل المؤمنين خشية « أن يؤتى أحد مثلما أوتيتم » فتنكسر القاعدة اليهودية وهي أنه لا خير إلا لليهود وحدهم ، والشر لبقية الأميين !

هذه واحدة . أما الأخرى فهي خشية محاجة المسلمين لليهود عند الله لو كشفوا ما عندهم من حق ولم يداروا عليه بالتضليل ! كما جاء في سورة البقرة من قبل : « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا ! وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا : أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم ؟ أفلا تعقلون ! »[1] وهي عقلية عجيبة تظن أن الله لن يحاسبهم إلا إذا تمسك عليهم المؤمنون بشيء ، وشهدوا به عند الله ضدهم ! ولذلك رد عليهم في سورة البقرة بقوله : « أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ؟! »[2]

والرسول صلى الله عليه وسلم يوجّه أن يرد عليهم بأن الهدى هدى الله وليس ما عندهم هم مما يعلنون أو يكتمون . وأن الفضل بيد الله لا بيدهم هم ، يؤتيه من يشاء غير متوقف على رغبتهم !

« ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً ! ذلك بأنهم قالوا : ليس علينا في الأميين سبيل . ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » .

وقد يكون هذان الفريقان من اليهود . أو يكون الفريق الأول من النصارى والثاني من اليهود . لكن المؤكد في كل حال أن الفريق الثاني من اليهود ، لأنهم هم الذين يقولون « ليس علينا في الأميين سبيل » فهم كانوا يسمون العرب أميين يعني أمة بغير كتاب ، باعتبارهم هم أهل الكتاب . وما زالوا بالنسبة للبشرية كلها يزعمون أنهم وحدهم أصحاب الكتاب الحق ، وأن الآخرين كتبهم مزيفة فهم أميون كذلك ! أو « أمميون » كما يسميهم التلمود ، أي من الأمم الأخرى غير اليهود . وهؤلاء الأميون ، أو الأمميون ، لا حساب لهم عند اليهود . إنهم مجرد أدوات يستخدمونها للوصول إلى أغراضهم أو كما يقول لهم التلمود : دواب يستخدمها شعب الله المختار ! .. لذلك يحق لليهود أن يسلبوهم وينهبوهم ويسرقوهم بل أن يشربوا دماءهم في وحشية أو يعجنوا بها خبزاً « مقدساً ! » ويأكلوه !

« ذلك بأنهم قالوا : ليس علينا في الأميين سبيل ! ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون . بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين » .

يزعمون أن الله صرح لهم بذلك في حق الأميين ! وهذا كذب يفترونه على الله وهم يعلمون أنه افتراء . والله يقول : إنه يحب المتقين الذين يوفون بعهدهم ، ولا يحب من يخيس بالعهد :

---

(١) سورة البقرة [٧٦] .

(٢) سورة البقرة [٧٧] .

« إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ، ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » .

هذا هو عقاب الله على الأمر الذي زعموا أنه صرح لهم فيه ! إن الله يحرمهم من الجنة ، ولا يكلمهم ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم . ثم يدخلهم العذاب الأليم . وليس وراء ذلك بغض من الله لشيء أو لأحد على الإطلاق !

ثم يتحول إلى الفريق الآخر من أهل الكتاب وهم النصارى :

« وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ، ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون . ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً . أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ؟! »

إنهم يقولون كلاماً يزعمون أنه من عند الله وما هو من عند الله . يقولون إن عيسى ابن الله ! وإنه أمرهم أن يعبدوه ويقيموا الصلاة له ! والقرآن يقول إن هذا لا يمكن أن يكون أصلاً ! « ما كان لبشر .. » أي لا يتأتى أصلاً لأي بشر على الإطلاق « أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة » فيعلمه الحق ويرسله به « ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ! » إنما يقول لهم « كونوا ربانيين » مستقيمين على أمر الله « بما كنتم تعلّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون » فتعليم الكتاب وتدريسه لا بد أن يفيء بالإنسان إلى الحق ولا يدفعه إلى الضلال ! ولا يتأتى لبشر ينعم الله عليه بهذه النعم أن يأمركم بأن تتخذوا جبريل عليه السلام رباً وعيسى عليه السلام رباً .. وإلا فهو يأمركم بالكفر بعد إسلامكم .. بدلاً من أن يأمركم بالإسلام !

« وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه . قال : أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري ؟ قالوا أقررنا ! قال : فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » .

لقد أخذ الله ميثاقاً على النبيين ، يبلغونه لأتباعهم فيصبح ميثاقاً عليهم كما هو ميثاق على أنبيائهم أنه : بالذي آتيتكم من كتاب وحكمة (أي قَسَماً بما آتيتكم من الكتاب والحكمة) فحين يجيئكم رسول مصدق لما معكم فعليكم أن تؤمنوا به وتنصروه . ثم شدد الله على النبيين في الميثاق : « قال : أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري ؟ » أي أنه أكد عليهم بكل وسائل التوكيد ، ووثق الرباط وأحكمه بكل وسائل الإحكام ، فلما قالوا « أقررنا » لم ينته الأمر عند هذا الحد . بل أشهدهم مرة أخرى . « قال : فاشهدوا وأنا معكم من

الشاهدين » .. وذلك كله لكي لا يتفلت واحد من أتباع الرسل فيقول : ما علمنا ! أو يقول : ما أمرنا ! .

وبمقتضى هذا الميثاق فقد أخذ على موسى وعيسى عليهما السلام عهداً أن يؤمنا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وبلغ كل منهما أتباعه بمجيء الرسول صلى الله عليه وسلم وأعطاهم اسمه وصفته ومكان مبعثه ، وأمرهم عند ظهوره أن يتبعوه :

« فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » .

ولا حجة لهم في توليهم بعد هذا الميثاق المشدد ، والبلاغ المؤكد ..

« أفغير دين الله يبغون ؟ وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون » .

ماذا يريدون بعصيانهم وإبائهم الدخول في دين الرسول الجديد صلى الله عليه وسلم ؟ أيبغون ديناً آخر غير دين الله ؟ إن الدين عند الله الإسلام . وهو ليس دين البشر وحدهم ، فقد أسلم لله من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً .. فما بال هذه الحفنة الآبقة من البشر لا تؤمن ؟ وما مصيرهم في تصورهم ؟ أيستطيعون أن يهربوا من لقاء الله ؟ إن كل من في السماوات والأرض عائدون إليه « وإليه يرجعون » .

ألا فليعلن المسلمون موقفهم وليس عليهم أن يتولى من تولى :

« قل : آمنا بالله وما أُنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » .

نفس الصيغة ــ مع التنويع المعهود في القرآن ــ التي أمر المسلمون أن يقولوها لليهود في سورة البقرة وهم يفاصلونهم [1] .

« ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين » .

الإسلام بمعنى إسلام الوجه لله ، الذي يفضي إلى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والدخول معه في دينه ، وهو دين الإسلام . ومن يبتغ غير ذلك ديناً يصنعه هو من عند نفسه ، غير الإسلام ، فلن يقبل منه . ويكون في الآخرة من الخاسرين .

« كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات ؟ والله لا يهدي القوم الظالمين . أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون » .

والمقصود بهذه الآيات كلها هم اليهود الذين أظهروا الإسلام بالرسول صلى الله

---

(١) « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى ، وما أوتي النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » [سورة البقرة : ١٣٦] .

عليه وسلم وشهدوا أنه هو الرسول الحق الذي يجدون صفته في التوراة ، ثم انقلبوا كافرين مرة أخرى .. فأولئك خالدون في نار جهنم ، وليس أمرهم أمر أيام معدودات في النار كما يزعمون . والسياق يصور النار كأنها هي لعنة الله والملائكة والناس أجمعين مصبوبة عليهم من كل جانب !

« إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم » يقبل توبة العبد التائب مهما كان من ماضيه ! أما الذين يصرون على الكفر فهؤلاء الذين لا يغفر الله لهم ، لأنهم أغلقوا باب المغفرة في وجوه أنفسهم !

« إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم ، وأولئك هم الضالون . إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به . أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين » .

و بمناسبة الحديث عن اليهود ، يتحدث عن الإنفاق . ذلك أن اليهود مشهورون بالشح : يبخلون و يأمرون الناس بالبخل . ثم يزعمون أنهم هم المقربون عند الله ! كلا !

« لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون . وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم » .

ويستمر السياق مع اليهود في جولة ثانية من مفترياتهم . فقد حرّم الله عليهم بعض الأطعمة بسبب عصيانهم وكفرهم : « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ، ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ، ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون » [1] ولكنهم ينكرون ذلك ، وينكرون أن هذا التحريم كان عقوبة من الله لهم : « فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين » [2] .

وهم هنا كذلك يصرون على كذبهم ، فيرد القرآن عليهم :

« كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة . قل : فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين . فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون . قل : صدق الله . فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » .

إن جادلوا في أمر العقوبة التي حرم عليهم فيها ما حرم من الطعام ـ وهم يجادلون ـ فقل لهم : هاتوا التوراة فاتلوها إن كنتم صادقين . وهم كانوا يخشون مثل هذا الطلب حين يطلبه الرسول صلى الله عليه وسلم منهم ، لأنهم يعلمون أنه موحى إليه ، وأنه سيعرف

---

(١) سورة الأنعام [١٤٦] .

(٢) سورة الأنعام [١٤٧] .

الموضع الذي يستشهد به من الكتاب الذي بين أيديهم . ثم إن كشف هذه الأسرار يفضحهم لأنهم يحتفظون بأسرار التوراة لا يذيعونها ، ويزورون أي كلام من عندهم ويقولون هذا حكم التوراة !

لذلك فهو لا ينتظر أن يجيئوا بالتوراة ويتلوها ! بل يقول لهم : « صدق الله » وينهي الجدل معهم . ولكنه قبل أن ينهي الجدل يقول لهم : إن كنتم تزعمون أنكم أتباع إبراهيم حقاً « فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » .

و بمناسبة إبراهيم يتحدث عن الكعبة وعن الحج ، فهما شديدا الارتباط بحياة إبراهيم عليه السلام :

« إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدىً للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ، ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين . »

وأهل الكتاب من اليهود أول من يكفر !

« قل : يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون ! قل : يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء ! وما الله بغافل عما تعملون » .

لم ؟! لأنهم هكذا ! لا يحبون الاستقامة ولا يصبرون عليها ! ولا يحبون من يستقيم عليها !

وهنا يحدث المؤمنين عن كيد اليهود لهم ، الذي كادوا يقعون فيه فيرتدون عن الإسلام ويعودون إلى الكفر ! ذلك حين قام شياطين اليهود بإثارة الأوس والخزرج بما كان بينهما من عداوة وصراع قبل الإسلام !

ذلك أن اليهود كانوا يعيشون من قبل على تأجيج الصراعات والأحقاد بين الأوس والخزرج ، لكيلا يأتلفوا فيصبحوا قوة موحدة فيتفوقوا بقوتهم الموحدة على اليهود . وكذلك لتقوم بينهم الحرب فيسارعوا إلى شراء السلاح من اليهود ، تجار السلاح منذ كانوا ! فلما جاء الإسلام آخى بين الأوس والخزرج فما عادوا ينقسمون ، وبطلت أحلام اليهود وكذلك منافعهم .. فآذاهم ذلك ! فقام شياطينهم يذكرونهما بما كان بينهما من العداوة والبغضاء في الجاهلية ، ويهيجون إحداهما على الأخرى حتى تنادوا للقتال بالفعل ! لولا أن خرج إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم مسرعاً يعظهم ويردهم إلى ربهم ويقول لهم : لا تعودوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض !

« يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين . وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ؟! ومن يعتصم بالله

فقد هدي إلى صراط مستقيم . يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ! واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا . واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها . كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » .

إنه توجيه مؤثر . وعتاب مؤثر . ونداء مؤثر لهذه الجماعة من المؤمنين على شفا الوقوع في المكيدة التي دبرها أولئك الشياطين ، وعلى شفا الوقوع خارج الطريق ! طريق الإيمان !

كيف تكفرون وأنتم تسمعون آيات الله تتلى عليكم ؟ كيف تكفرون ورسول الله صلى الله عليه وسلم موجود فيكم ، يعظكم ويعلمكم ويصل قلوبكم بالله ؟! كيف تستمعون إلى إثارة الأعداء وأنتم تعلمون أنهم أعداء ؟!

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته » .. وأنتم أولى الناس أن تتقوا ! وإلا فمن يتقيه إن لم يتقه المؤمنون ؟

« ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » إنه نهي عن الموت على غير الإسلام ! ولما كان الموت غيباً لا يعلم أحد موعده ، فالسبيل الوحيد إذن لتنفيذ هذه الوصية أن يظل الإنسان متمسكاً بالإسلام ، حتى إذا جاءه الموت كان محققاً للشرط المطلوب ..

« واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا .. » إن اعتصام كل منهم بحبل الله ، هو الذي يجمعهم ! فحبل الله واحد ، وطريقه واحد .. فإن اتجه كل مؤمن إليه ، واعتصم به ، فقد التقوا جميعاً هناك !

وحبل الله هو دينه ، وهداه الواصل إليه .. ولكن السياق يجسمه في صورة الحبل الممتد الذي تمسك به الأيدي لتنجو ..

ثم يذكرهم بنعمة الله الكبرى عليهم إذ ألف بين قلوبهم بعد عداء طال في الجاهلية .. فأصبحوا بهذه النعمة إخواناً متحابين . وكانوا على شفا حفرة من النار ـ بضلالهم قبل اعتناقهم الإسلام ـ فأنقذهم منها بإرسال الرسول صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق :

« واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها .. »

ويجسم التعبير الموقف : « كنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » فيتخيل الإنسان قوماً مشرفين على الهاوية ، ولكنها هاوية من نار .. وفي اللحظة التي يهمون أن يقعوا فيها تمتد اليد الرحيمة فتنقذهم ..

« .. كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » .

كذلك .. بتذكيركم بنعمة الله ، وتحذيركم من عدوكم ، ودعوتكم إلى الاعتصام بحبل الله ..

« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . وأولئك هم المفلحون » .

لتكون منكم أمة هذه صفاتها : يدعون إلى الخير ـ وهو الإيمان ـ ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون .

« ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات . وأولئك لهم عذاب عظيم » .

لا تكونوا كاليهود الذين سبق توعيتكم بشأنهم ، وبيان انحرافاتهم ..

وهذا التحذير من أن يصبحوا مثل هؤلاء بالذات ، يأتي في مكانه هنا بعد ما كاد فريق من المؤمنين يستمع إلى كيدهم فيرتد عن الإسلام .. فهو إذ يذكرهم بانحرافات هؤلاء ، يحقرهم في ذات الوقت ، ليعلم المؤمنون أن طريقهم غير طريقهم ، فلا يعودوا للإصغاء إليهم ..

« .. وأولئك لهم عذاب عظيم ، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه . فأما الذين اسودت وجوههم : أكفرتم بعد إيمانكم ؟ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون » .

أولئك الذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات ـ بدلاً من أن يستقيموا على الطريق وتتفتح قلوبهم للبينات ـ لهم عذاب عظيم في ذلك اليوم المشهود الذي تبيض فيه وجوه بالعمل الصالح والطمأنينة التي يسكبها الله في قلوبهم ، وبإشراقة الإيمان على وجوههم ، وتسود وجوه بالعمل الشرير والفزع الذي يستولي عليهم ، وبظلمة الكفر تنضح على وجوههم . فأما الذين اسودت وجوههم فيوجه إليهم هذا السؤال المفزع ، لأن نتيجته مفزعة : « أكفرتم بعد إيمانكم ؟ » وما ينتظر منهم إجابة فالإجابة معروفة ، بل يقال لهم على التو : « فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » . وأما الذين ابيضت وجوههم « ففي رحمة الله » وكفى بها نعيماً في ذلك اليوم العصيب و « هم فيها خالدون » ..

يستوقف النظر أنه قال : « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه » . فقدم الذين ابيضت وجوههم . ومع ذلك فعند الحساب قدم الذين اسودت وجوههم .. كأنما عجل لهم الحساب فالعقاب جزاء على كفرهم ..

إنها على أي حال ليست المرة الأولى في السورة ! فمن قبل قال بالنسبة للذين اتبعوا عيسى والذين كفروا به : « .. وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إليَّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون . **فأما الذين كفروا** فأعذبهم عذاباً

شديداً في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين . وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم . والله لا يحب الظالمين » [٥٥-٥٧]

فهو إذن نسق متبع في السورة ، وليس مرة عابرة .. إنه يعجل لهم العذاب .. والمقصود في الموضعين واحد : هو اليهود !

« تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق . وما الله يريد ظلماً للعالمين . ولله ما في السماوات وما في الأرض . وإلى الله ترجع الأمور » .

تلك .. من تعذيب الذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات ، ومن رحمة الله التي يخلد فيها الذين آمنوا واستقاموا على طريق الله ، تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق . وإن الله لا يريد ظلماً لأحد من العالمين . إنما هم الذين يظلمون أنفسهم بتنكب الطريق فيصيبهم الجزاء الحق . ولا شيء يذهب هباء ، ولا أحد يهرب من جزائه ! فإن لله ما في السماوات وما في الأرض .. والأمر كله مرجعه إليه ..

« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » ..

ذلك هو التقرير الرباني بشأن هذه الأمة .. إنها خير أمة في تاريخ البشرية كله .. حتى تاريخ الأمم المؤمنة من قبل ! إنها الأمة الخاتمة ، كما أن رسولها صلى الله عليه وسلم هو الرسول الخاتم . وهي الأمة الراشدة التي حملت الأمانة والبشرية في سن الرشد .. وحملتها على نحو غير مسبوق وغير ملحوق في تاريخ الأرض كله .. الأمة التي حققت وجود الإنسان في وضعه الأسمى كما خلقه الله : « في أحسن تقويم » .. ووازنت في حياتها بين مقومات الحياة الإنسانية كلها ، فلم تهمل جانباً منها ، ولم تدع جانباً منها يطغى على الآخر ..

وهي خير أمة « أخرجت للناس » فما لنفسها أخرجت ! وما لتؤدي دوراً ذاتياً خلقت .. إنما لتؤدي دورها للبشرية كلها ، بأن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله .. وتقدم الإيمان لكل البشرية ! [1]

« .. ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم . منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » .

لو آمن أهل الكتاب الذين سبق الحديث عنهم وعن انحرافاتهم ، لكان خيراً لهم . ولكن قلة قليلة منهم هي التي آمنت بالرسول صلى الله عليه وسلم «وأكثرهم الفاسقون» .

ثم يوجّه الحديث للأمة المؤمنة ــ خير أمة أخرجت للناس ــ ألا يخشوا بأس اليهود :

(١) راجع في عرض سورة البقرة الكلام عن « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » .

« لن يضروكم إلا أذى ! وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون » ..

إنه لا يقول : لن يضروكم ! كلا ! إنما يحدد نوع الضرر الذي يمكن أن يصيبوا به المؤمنين « إلا أذى ! » ولا يقول : لن يقاتلوكم ! إنما يحدد نهاية المعركة إذا حدث القتال : « يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون » .

« لن يضروكم إلا أذى » .. والأذى ليس هو المهم في حياة المؤمن . إنما المهم هو عقيدته . فما دامت عقيدته باقية راسخة لم يصبها أذى ، فلا عليه أن يصيبه هو الأذى في سبيلها ! واليهود لن يكفوا عن توجيه الأذى إليكم . ولكنهم لن يضروا عقيدتكم فلا تبالوا بالأذى الذي يصيبكم أنتم .. ثم إن قاتلوكم فنتيجة المعركة معروفة ومضمونة « يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون » ..

وهذا كله بطبيعة الحال حين كانت الأمة الإسلامية هي خير أمة بالفعل ، لأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله .. فأما حين تصير إلى ما صارت إليه ، لا يربطها بالإسلام إلا الاسم .. فمن أين يتحقق لها وعد الله ؟!

ثم تجيء هذه الآية العجيبة في حق اليهود .. التي تتحقق بعد ثلاثة عشر قرناً من نزولها ، وفي أوسع مجالاتها وأوسع معانيها !

« ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا **إلا بحبل من الله وحبل من الناس** ، وباءوا بغضب من الله ، وضربت عليهم المسكنة . ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ... »

إن الذلة مضروبة عليهم أبداً ، وحيثما وجدوا : « وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب » [1] .

ولكن هناك فترات استثنائية : « **إلا** بحبل من الله وحبل من الناس » .

والحبل هو المدد .. فتلك الفترات الاستثنائية تتم بمدد من الله .. فإنه لا يتم في الكون إلا ما يريده الله .. ومدد كذلك من الناس .

واليهود اليوم في قمة فترتهم الاستثنائية التي لم يصلوا لمثلها في تاريخهم كله .. بحبل من الله وحبل من الناس .

فكيف تم ذلك ولماذا تم ؟!

وليس هذا سؤالاً لله سبحانه وتعالى فيما يفعل ، فإنه ـ سبحانه ـ لا يُسْأَل عما يفعل ..

---

(١) سورة الأعراف [١٦٧] .

وإنما الله سبحانه له سنن يجري بها الأمور في الأرض . وقد أمرنا بتدبر هذه السنن لكي لا نقع في حتميتها .. وقد وقعنا !

إن البشرية اليوم قد بعدت عن الله ما لم تبعد في تاريخها كله .. وتبجحت بالكفر ما لم تتبجح في تاريخها كله .. ومن هنا فهي معرضة للسنة الربانية التي يقول عنها : « قل : هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم ، **أو يلبسكم شيعا ، ويذيق بعضكم بأس بعض** »[1] وقد شاءت إرادته سبحانه ـ ولا يسأل عما يفعل ـ أن يلبس البشرية شيعاً ، وأن يذيقها بأس اليهود ـ وهم شر خلقه ـ خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين ! فهذا العالم الذي نعيش فيه ـ بأفكاره بأخلاقياته بسياساته باقتصادياته بانحرافاته ـ هو من صنع اليهود .. فكيف تم لهم ذلك ؟

« بحبل من الله ، وحبل من الناس » ..

وقد يظن بعض الناس أن الحبل من الناس معناه سند أمريكا وروسيا لليهود !

كلا ! إن الأمر أوسع من ذلك بكثير .. إنه مدد **كل الناس** إلا من عصم الله !

واليهود ذوو عبقرية شريرة ولا شك .. ولكنهم بشر ! ليسوا آلهة ولا أشباه آلهة ..

وهذه القوة المدمرة الشريرة التي في أيديهم اليوم يوجهون بها البشرية إلى الدمار ليست من صنع عبقريتهم الشريرة بقدر ما هي من صنع « الناس » ..

إن التلمود يقول لليهود : « إن الأمميين هم الحمير الذين خلقهم الله ليركبهم شعب الله المختار » ولذلك فهم يسعون جاهدين منذ قرون طويلة إلى « استحمار » الأمميين . فكيف يستحمرونهم ؟ بنزع عقائدهم ونزع أخلاقهم .. فهنا يتحول « الإنسان » إلى ذلك « الحمار » المعد للركوب !

« مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار ! »[2] أي أن الأمة التي لها كتاب ولا تطبق كتابها في واقع حياتها هي مثل الحمار ..

وقد تعب اليهود قروناً طويلة في محاولة إفساد البشرية لأن الناس كانوا على بقية من التمسك بالدين والعقيدة والأخلاق ..

ولكنهم منذ القرن الماضي ، وعلى « هدى » الجاهلية التي ترفع أوربا رايتها ، أخذوا يتهاوون مسارعين ، بعيداً عن الدين والأخلاق .. وهنا وجد الشياطين فرصتهم الذهبية ! وجدوا حميراً معدة للركوب .. فركبوا كما يأمرهم التلمود !

إن اليهود أنشأوا بيوت الزينة وبيوت الأزياء .. ليكسبوا منها كسبين في آن واحد .

---

(١) سورة الأنعام [٦٥] .

(٢) سورة الجمعة [٥] .

الكسب المادي الفاحش . والكسب الآخر هو إفساد الأمميين بإفساد المرأة وإخراجها إلى الطريق فتنة هائجة مائجة تفتن الرجل وتفتن نفسها معه ..

وانساق « الأمميون » .. لأنهم كانوا بلا عقيدة ولا أخلاق ! وتدفق المكسب إلى اليهود : المكسب المادي وإفساد أخلاق الأمميين سواء !

واليهود هم الذين أنشأوا السينما ! ليفسدوا بها الأولاد والبنات في كل الأرض ، ويكسبوا من وراء ذلك الأموال ..

وهكذا .. وهكذا .. فيما نرى من مفاسد اليوم على وجه الأرض .. وجدوا الحمير جاهزة فركبوها .. وتدفق « المدد » من الناس .. لا من روسيا وأمريكا وحدهما كما يفهم البعض .. ولكن من **كل الناس** إلا من عصم الله !

وبالأموال التي كسبوها من الحمير .. وبالفساد الذي أفشوه في الحمير .. صارت لهم تلك السيطرة البشعة على مقدرات الناس ، خاصة في هذا القرن العشرين ..

ولم تكن العبقرية اليهودية الجبارة التي يتخيلها الناس .. إنما كان تخلي الناس عن دينهم وأخلاقهم هو السبب فيما وصلوا إليه من سلطان .

وقد كان ذلك كله لأن الأمة التي أخرجها الله للناس لتكون خير أمة ، قد كفّت عن الوجود ! وكفّت عن أداء رسالتها للبشرية !

فيوم كانت تؤدي رسالتها للبشرية وتمسك هي في يدها الزمام ، كان اتجاه البشرية كلها إلى الصعود ، حتى الذين لم يدخلوا في الإسلام . . .

فأما حين تخلفت وتخلت .. فلا بد أن تتولى الجاهلية قيادة البشرية .. وذلك الذي حدث بالفعل .. فحدث الانهيار العقيدي والأخلاقي الذي يحول الناس إلى حمير .. فأسرع « شعب الله المختار ! » يركب الحمير ..

ولن يتغير وضع اليهود في الأرض ، حتى يعود « الناس » إلى الله .. حتى يكفوا عن استحمار أنفسهم لشعب الله المختار ..

إن « المؤمن » لا يستطيع الشيطان أن يسيطر عليه ، ولا أعوان الشيطان وأولياؤه : « إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ! »[1]

ويوم يعود الناس إلى الله فلن يجد الشيطان سبيلاً إليهم ، ولن يستطيع أولياء الشيطان كذلك أن يسيطروا عليهم ويركبوهم !

---

(١) سورة النحل [٩٩ – ١٠٠] .

ويوم يعود الناس إلى الله .. فسوف ينحسر دور الشياطين في الأرض ويعودون إلى حالتهم الدائمة : « ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا » وتزول تلك الفترة الاستثنائية التي تعانيها البشرية اليوم بما أجرمت في حق الله !

* * *

« ليسوا سواء . من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات . وأولئك من الصالحين . وما يفعلوا من خير فلن يكفروه . والله عليم بالمتقين » .

ليس كل أهل الكتاب سواء [وذلك كان وقت نزول هذه الآيات بالطبع] فنهم فئة قليلة آمنت بالرسول صلى الله عليه وسلم . فأولئك الذين يشير إليهم السياق هنا . يقومون بالليل متعبدين ، ويؤمنون بكل ما يؤمن به المؤمنون . فهؤلاء لهم أجرهم عند الله ولا يخفى أمرهم على الله . أما الباقون فهم مصرون على كفرهم لا يغيرون موقفهم :

« إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً . وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته . وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون » .

إن الذين كفروا كلهم ــ من أهل الكتاب أو المشركين ــ لن تغني عنهم أموالهم التي يكتنزونها ولا أولادهم الذين يباهون بهم .. لن تغني عنهم من الله شيئاً . ولن تمنع عنهم النار التي هم أصحابها ! والتي هم خالدون فيها . وكل ما ينفقون في هذه الحياة ضائع عليهم ، بل حسرة عليهم ، لأنه يزيدهم إثماً كلما أنفقوا ! إذ ينفقون في الباطل وفي الصد عن سبيل الله . والسياق يمثل لإنفاقهم بصورة ريح صرصر عاتية تهلك حرث القوم الذين ظلموا أنفسهم ، وهو تشبيه يستوقف الإنسان ليتأمله . وهو أشد تأثيراً في النفس من المعنى الذهني المجرد ، كأن يقول : إن ما ينفقون وبال عليهم . لأن الخيال هنا يتتبع الريح المدمرة وهي تهلك ، ويتخيلها وقد أتت على الزرع الناضر الذي كان يرجى منه الثمر فإذا هو حطام . وكذلك حال هؤلاء الكفار : يهلكون أعمالهم ويهلكون أنفسهم ولا يكسبون إلا البوار .

وإذا كان هذا هو حالهم فما ينبغي للمؤمنين أن يتخذوا بطانة منهم ، خاصة وهم لا ينطوون إلا على الحقد والضغينة ولا يتمنون للمسلمين إلا العنت والخبال :

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ، ودوا ما عنتم . قد بدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفي صدورهم أكبر . قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون » .

إنه التحذير الرباني الذي نزل على المؤمنين منذ أربعة عشر قرناً ، وما زال قائم الدلالة في حياتهم كأنما يتنزل اللحظة !

لا تتخذوا بطانة من قوم غيركم ــ أي غير مسلمين ــ لا يألون جهداً في بث الخبال في صفوفكم . وأقصى ما يتمنونه أن يثيروا لكم المتاعب والمصاعب . يظهر في حديثهم الحقد الذي تنطوي نفوسهم عليه . ولكن ما يخفون من الحقد والضغينة أكبر .. ثم يختم التحذير بما يتضمن التهديد : « قد بينا لكم الآيات **إن كنتم تعقلون** » وهي كلمة قاسية حين توجه إلى المؤمنين . والمقصود بها التحذير الشديد ، وإيقاظ المسلمين من الغفلة التي تصيب بعضهم ، فيحسبون أن أحداً من أهل الكتاب يمكن أن يصفو لهم ، ويخلصهم النصيحة !!

وما أحوج « المسلمين » اليوم إلى تدبر ذلك التحذير ، وهم يغرقون إلى أذقانهم في الغفلة ، فيحسبون أن أحداً من أهل الكتاب أو من غيرهم من المشركين يمكن أن يعاونهم ! أو يسندهم في حربهم لإسرائيل ! أو يتمنى لهم النصر عليهم ! أو يحب أن يراهم في غير الذل والمهانة والعنت والمشقة !! وهذا غير العملاء المأجورين الذين يروّجون لمثل هذه « الصداقات » المباركات ، ويمنون الشعوب بالخير العميم الذي سيأتي من ورائها .. وما يأتي من ورائها إلا ما أخبرنا به كتاب الله منذ أربعة عشر قرناً من الزمان !

« ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم ! وتؤمنون بالكتاب كله ، وإذا لقوكم قالوا آمنا ! وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ . قل : موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور . إن تمسسكم حسنة تسؤهم ، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ، وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً . إن الله بما يعملون محيط » .

كأنما يتنزل التنزيل في هذه اللحظة !

« ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم ! »

ويتظاهرون بحبكم !

« وتؤمنون بالكتاب كله ، وإذا لقوكم قالوا : آمنا ! »

هذه هي التي تغير مظهرها ! فهم اليوم لا يقولون آمنا .. لأنهم اليوم لا يخشون بأس « المسلمين » !

كانوا من قبل يتملقون المسلمين ، ويتظاهرون أمامهم بالإيمان وهم يكيدون لهم في الخفاء . أما اليوم فهم يكيدون في الخفاء وفي العلانية ، ثم لا يحتاجون أن يقولوا أمام « المسلمين » آمنا ، لأنهم لا يجدون أمامهم ذلك النوع من المسلمين الذي كانوا يحتاجون إلى تملقه ومنافقته ، بل يصل بهم التبجح اليوم أن يقولوا لأولئك « المسلمين » اتركوا عقائدكم وتعالوا آمنوا بما لدينا ! .. وذلك ما أصاب أولئك « المسلمين » جزاء

تخليهم عن إسلامهم وتمسحهم بأعدائهم : أن فقدوا احترام هؤلاء الأعداء وكسبوا استخفافهم بهم وتجرؤهم عليهم ..

« .. وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ . قل موتوا بغيظكم . إن الله عليم بذات الصدور » .

وما زالوا إلى اليوم يعضون الأنامل من الغيظ .. ولكن لا من تلك الملايين العديدة ممن يحملون أسماء المسلمين ، فهؤلاء لا يغيظونهم في شيء ، ولا يخيفونهم ـ الآن ـ في شيء . ولكنهم يعضون الأنامل من الغيظ من حركات البعث الإسلامي القائمة في كل مكان في العالم الإسلامي . هذه هي التي تغيظهم حقاً وتحنقهم ، ويقيمون المؤتمرات السرية والعلنية ليتدارسوا كيفية القضاء عليها وإبادتها !

لقد كانوا منّوا أنفسهم أن المسألة قد انتهت ! وأن هذا الإسلام قد ذهب إلى غير رجعة ! وأن الثمرة قد أصبحت وشيكة الوقوع في أيديهم .. ولكن قيام حركات البعث هذه أخذ يشككهم في تحقيق أمنيتهم القديمة في القضاء على الإسلام . ومن ثم يحنقون عليها ويعضون الأنامل من الغيظ منها ، ويتواصون بضربها بأقصى درجات العنف لعلها تبيد وتفنى .. ويستخدمون أبشع أنواع التعذيب للقضاء على القائم منها ، والتنفير من الانخراط في سلكها .. ولكنهم مع ذلك لا يصلون إلى غرضهم منها لأن الله هو الذي يريد لدينه أن يبقى ! وليس البشر هم المحكمين في أمر الله !

« إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها » ..

فأما هذه فباقية إلى هذه الساعة .. وإلى أن تقوم الساعة !

إنهم رغم اطمئنانهم لحاضر « المسلمين » أنهم أصبحوا بغير قوة يُخْشَى منها .. فهم ـ كما يعترف كتابهم ـ لا يستطيعون نسيان الماضي ، ولا يطمئنون للمستقبل ! لذلك فما زالوا يتمنون للمسلمين السوء ، ويستاءون من أي حسنة تلحقهم !

يقول المستشرق الكندي « ولفرد كانتول سميث » في كتابه « الإسلام في التاريخ الحديث Islam in Modern History » ص ١١٢ : « إن أوربا لا تستطيع أن تنسى الفزع الذي ظلت تزاوله خمسة قرون متوالية ، والإسلام يغزوها من الشرق والغرب والجنوب ، ويقتطع في كل يوم جزءاً من أجمل أجزاء الإمبراطورية الرومانية ويكاد يستولي على العاصمة ذاتها ... ذلك الفزع لا يدانيه شيء في العصر الحديث ولا حتى فزع أوربا من استيلاء الشيوعية على تشيكوسلوفاكيا في سنة ١٩٤٦ ! »

ويقول المستشرق الأمريكي « ونثروب » في مقدمة كتابه « السيف المقدس The Sacred Sword » بعد أن لخص تاريخ المسلمين بأنهم غزوا أوربا واستولوا على أجزاء منها وصنعوا كذا وكذا .. ولكنهم اليوم أصبحوا بلا قوة ، وأصبحوا خاضعين لأوربا ..

يقول : « ولكن ما حدث مرة يمكن أن يحدث مرة أخرى ! وإن الشعلة التي أشعلها محمد (صلى الله عليه وسلم) في قلوب أتباعه لهي شعلة غير قابلة للانطفاء ! »

لذلك ما زالوا ـ بدافع الصليبية المتوارثة ، وبدافع الخوف من المستقبل ـ يتمنون للمسلمين السوء ، ويستاءون لما يلحقهم من خير !

« وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً . إن الله بما يعملون محيط » ..

ونعم .. كان هذا الوعد متحققاً طالما كان الشرط متحققاً .. « إن تصبروا وتتقوا » .. فأما وقد تغير حال المسلمين ، فلم يعودوا **يتقون** ، لأنهم لا يقيمون دينهم ولا يتبعون ما أنزل عليهم من ربهم .. فقد صار الكيد يضر ، ويمعن في الإضرار ! ولن يتغير الحال إلا إذا تغير وضع المسلمين : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ! »[1]

* * *

« وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال . والله سميع عليم ، إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما . وعلى الله فليتوكل المؤمنون . ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة . فاتقوا الله لعلكم تشكرون . إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ؟ بلى ! إن تصبروا وتتقوا ، ويأتوكم من فورهم هذا ، يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين . وما جعله الله إلا بشرى لكم ، ولتطمئن قلوبكم به ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ، ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين ـ ليس لك من الأمر شيء ـ أو يتوب عليهم ، أو يعذبهم فإنهم ظالمون . ولله ما في السماوات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم » .

و بمناسبة الحديث عن تكفل الله بأمر المؤمنين إن صبروا واتقوا يذكر حادثتين كانت كفالة الله للمؤمنين هي التي حالت دون فشلهم فيهما وأدت إلى كشف الضرر عنهما : حين همت طائفتان من المؤمنين أن تفشلا والرسول صلى الله عليه وسلم يهيئ المؤمنين للمعركة في أحد ، فأدركتهما ولاية الله فاستقام الأمر ، وذلك حين همت بنو حارثه وبنو سلمة أن ترجعا مع عبد الله بن أبيّ ، حين انحاز بثلث الجيش عائداً إلى المدينة ، ممتنعاً عن الخروج مع الرسول صلى الله عليه وسلم . وحين نصر الله المؤمنين ببدر وهم ضعفاء قليلو العدد قليلو العدة لا يتصور أحد أن ينتصروا على ثلاثة أضعافهم في العدد وأكثر من ذلك أضعافاً في العدة . ولكن الله أنزل ملائكته يحاربون مع المؤمنين ويدفعون الكفار ويقتّلونهم .. وما جعل الله ذلك إلا بشرى للمؤمنين لتطمئن قلوبهم .. فالبشر دائماً ،

---

(١) سورة الرعد [١١] .

ولو كانوا مؤمنين ــ بل لو كانوا أنبياء ــ يحبون أن يروا الدليل الملموس لتطمئن قلوبهم .. ألم تر إلى إبراهيم عليه السلام وهو نبي يخاطب ربه فيقول : « رب أرني كيف تحيي الموتى ! قال : أوَلم تؤمن ؟ قال : بلى ! ولكن ليطمئن قلبي ! »[1] والله يعلم ذلك من قلوب البشر وهو اللطيف الخبير ، فيمد المؤمنين بالدليل الملموس ؛ بالملائكة يرونهم رأي العين يقاتلون إلى جوارهم لتطمئن قلوبهم بتحقيق وعد الله بالنصر . ولكن النصر هو من عند الله بصرف النظر عن نزول الملائكة أو عدم نزولهم .. والسياق يلفت نظر المؤمنين إلى هذه الحقيقة : « وما جعله الله إلا بشرى لكم ، ولتطمئن قلوبكم به . وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » .. وقد كتب الله هذا النصر لحكمة يريدها سبحانه « ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين » .. « أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون » ويأتي بين هذه وتلك قوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : « ليس لك من الأمر شيء » فليس للرسول صلى الله عليه وسلم شأن بنهاية المعركة ولا نتائجها ! إن هذا من شأن الله وحده ــ سبحانه ــ هو الذي كتب النصر ، وهو الذي حدد أهدافه ونتائجه .. إليه يرجع الأمر كله ، وهو الذي يدبر الأمر كله ، وهو الذي يدبر الأمر وحده بما يشاء سبحانه .

ثم إنه يطمع الكفار في الرحمة والمغفرة إن تابوا وآمنوا ، فهو يقدم المغفرة ويختم بها كذلك : « ولله ما في السماوات وما في الأرض ، **يغفر** لمن يشاء ويعذب من يشاء ، والله غفور رحيم » ..

وفي جو المعركة والقتال ينهي المؤمنين عن الربا ، ويوجههم إلى المسارعة إلى المغفرة ، والإنفاق في سبيل الله ، وكظم الغيظ ، والعفو عن الناس ، والاستغفار للذنوب :

« يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة ، واتقوا الله لعلكم تفلحون ، واتقوا النار التي أعدت للكافرين ، وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون ، وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين ، الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين ، والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ــ ومن يغفر الذنوب إلا الله ــ ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ، أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين » .

وقد يبدو هذا لأول وهلة انتقالاً مفاجئاً في السياق !

ولكن التتبع الدقيق للسياق يبيّن غير ذلك !

لقد كان الحديث قبلها مباشرة عن معركة بدر التي انتصر فيها المسلمون ذلك النصر

---

(١) سورة البقرة [٢٦٠] .

الفريد في التاريخ ، والحديث بعدها يتناول معركة أحد ، التي انتصر المسلمون في أولها ، ثم أصابتهم الهزيمة لما خالفوا عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وهو حديث مفصل مطول يستغرق من آية ١٣٩ إلى آية ١٧٩ أو ١٨٠ ، ويمضي أشواطاً بعيدة في داخل المعركة وفيما حولها من شئون .. فما بال هذه التوجيهات الخلقية والروحية تعترض السياق ؟

كلا ! إنها من صميم السياق .. من صميم الحديث عن المعركة !

إن الإعداد الروحي والخلقي والنفسي للمعركة لا يقل أهمية بحال عن الإعداد الحربي لها سواء بالتدريب على السلاح أو بإعداد السلاح ذاته .. بل إن هذا الإعداد الروحي والخلقي والنفسي لهو صاحب التأثير الأول والأقوى ، وتأتي بعد ذلك العوامل الأخرى .. على كل أهميتها !

وهذه الآيات التي تبدو معترضة في السياق ، تتحدث عن هذا الإعداد المعنوي للمعركة ، أو عن بعض جوانبه ، ثم يستمر السياق ، وهو يشير إلى معركة أحد فيتحدث عن جوانبه الأخرى ..

« يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة ، واتقوا الله لعلكم تفلحون . واتقوا النار التي أعدت للكافرين . وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون » .

فأما علاقة الربا بالإعداد للمعركة فهي أن الربا يثير الضغائن في النفوس فلا يجعل القلوب صافية مترابطة متلاحمة كما ينبغى لها أن تكون وهي تستعد للمعركة لمواجهة العدو !

وقد يبدو لنا اليوم هذا الكلام نظرياً وخيالياً ! فها هم أولاء « الحلفاء » قد انتصروا في الحرب الماضية وهم يقيمون حياتهم كلها على الربا .. والغرب كله يقيم حياته على الربا ، وهو الذي يملك القوة المادية الكبرى في الأرض .. ولا يمنعهم الربا من أسباب القوة ولا من النصر !

وذلك حق ولكنه يخفي حقاً أكبر منه !

في النظرة القريبة يبدو الغرب غاية في القوة متمكناً من النصر .. ولكن عند إنعام النظر يبدو متفسخاً في طريقه للانهيار !

هذه واحدة .. أما الأخرى فهي أن الله لا يعامل المؤمنين كما يعامل الكافرين ! إنه ينصر الكافرين ـ بباطلهم ـ بمقدار ما اجتهدوا فيه وأخذوا بالأسباب ، لأنه يعجل لهم نصيبهم في الحياة الدنيا ، وما لهم في الآخرة من خلاق ! : « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها **نوف اليهم أعمالهم فيها ، وهم فيها لا يبخسون** ! أولئك الذين ليس لهم

في الآخرة إلا النار ، وحبط ما صنعوا فيها ، وباطل ما كانوا يعملون »[1] .

أما المؤمنون فإن الله لا ينصرهم باجتهادهم وهم على الباطل ! لا ينصرهم إذا اتخذوا ذات السبل التي يتخذها الكفار فينتصرون ! ذلك أنه ـ سبحانه ـ يريدهم ولا يريد أن يفتنهم ! ولو نصرهم وهم على باطل لفتنهم فكفروا ! إنما ينصرهم حين يتخذون الأسباب **على طريقه** ، ملتزمين بأوامره ..

فإذا نصر الله « الحلفاء » أو غيرهم وهم يأكلون الربا أضعافاً مضاعفة فذلك حق ، ولكنه لا يعني أنه سينصر المسلمين وهم يتعاطون الربا ويتبعون غير ما أنزل الله ويخالفون عن أمره ! إنما ينصرهم فقط حين يستقيمون على أمره ويتبعون هداه !

ثم نمر مراً سريعاً بقضية الأضعاف المضاعفة التي يزعم بعض المجادلين أنها هي وحدها المحرمة ، وأن الربا بكميات قليلة لا يشمله النص بالتحريم ! ! وهو جهل وهوى في ذات الوقت . فكل من يعرف شيئاً عن حساب الربا ـ وهو ما يعرف في الحساب باسم الربح المركب ـ يعرف أن الكميات القليلة تتحول بمضي الزمن تلقائياً إلى أضعاف مضاعفة .. ثم إن نصوص القرآن صريحة في هذا الشأن : « فلكم **رءوس أموالكم** لا تظلمون ولا تظلمون »[2] .

« وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون » ..

وهو توجيه عام ، قد يكون وارداً بشأن الربا الذي سبق الحديث عنه ، ولكنه يشمل بصيغته كل طاعة ..

« وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين » .

سارعوا ! لا تتوانوا ! إن الأمر لا يصلح فيه التكاسل والتقاعس .. إنما يحتاج إلى همة ونشاط في السعي .. ومع سعة الجنة الهائلة فإن الوصول إليها يحتاج إلى سعي .. وهذا هو الذي يدعو للمسارعة فيه ..

« .. أعدت للمتقين ، الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس . والله يحب المحسنين » .

ووصف المتقين بأنهم الذين ينفقون مما رزقهم الله يرد كثيراً في القرآن بين صفات أخرى . أما وصفهم بأنهم الكاظمون الغيظ والعافون عن الناس فوصف يكاد ينفرد به هذا الموضع . نعم جاء التحبيب في العفو في أكثر من موضع . أما وصف المتقين به بجانب

---

(١) سورة هود [١٥ – ١٦] .

(٢) سورة البقرة [٢٧٩] .

كظم الغيظ فهو الذي نقول إن هذا الموضع يكاد ينفرد به .. ونحن ننظر إليه في ضوء الإعداد النفسي للمعركة ، فنرى قيمته ودلالته . إن الأمة لا تنتصر وبعضها يحمل الأحقاد والأغلال لبعض .. كما وُصِفَ اليهود في سورة الحشر : « تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى »[1] . إنما تنتصر وهي متلاحمة القلوب بالمودة . وهنا يجيء كظم الغيظ والعفو عن الناس كأداة للمودة وربط القلوب . وليس معنى كظم الغيظ حفظه في القلب فيتحول إلى ضغينة ! فخير من ذلك ألا يكظم أصلاً وأن يترك يتفجر ! إنما المقصود ضبطه إلى أن يهدأ ، وتصريفه في هدوء ، حتى ينتهي بالعفو عن المسيء ! وهذا أدعى إلى المودة بين الناس . فإنك حين تطلق لغضبك العنان وأنت مستثار ، تريد الثأر لنفسك ، فإنك غالباً ما تؤلم أخاك وتجرحه ، وأنت تبرر ذلك في غضبك بأنه أساء إليك فمن حقك أن تسيء إليه ! .. ثم يهدأ غضبك أنت ، ويبقى ما أثرته في نفس أخيك ! فإذا استطعت أن تضبط هذا الغضب فلا يتفجر ، فسيتضاءل حجمه في نفسك من تلقاء نفسه ، حتى يصبح في طوقك أن تعفو عنه وأنت مستريح الخاطر .. ولا تكون قد أحدثت في نفس أخيك الإساءة التي تحتاج في محوها إلى جهد !

وفي ضوء الإعداد للمعركة تكون هذه وسيلة هائلة لارتباط القلوب وتلاحمها ، ومرشحاً من مرشحات النصر .. وقد كان كذلك المسلمون ، يدخلون المعركة متصافية قلوبهم .. فيتفرغون بكل مشاعرهم للمعركة .. وينتصرون ..

« والله يحب المحسنين ، والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ــ ومن يغفر الذنوب إلا الله ؟ ــ ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ونعم أجر العاملين » .

إن السياق هنا يستوقفنا وقفات ..

فالواو في « والذين إذا فعلوا فاحشة » قد تكون عطفاً : « والله يحب المحسنين والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم .. » ويمكن أن تكون استئنافاً . فتكون « والله يحب المحسنين » إتماماً للكلام السابق ويبدأ بعدها كلام جديد .. وأنا أميل إلى الأولى وإن كانت الثانية هي ظاهر النص ..

ثم إن الحديث عن مغفرة الله الواسعة التي تتسع للذين « فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم » تجيء بعد دعوة المؤمنين أن يعفو بعضهم عن بعض . فكأنما يقول لهم : انظروا

---

(١) سورة الحشر [١٤] .

إلى مغفرة الله الواسعة كيف تتسع حتى للفاحشة وظلم النفس .. ألا يغفر بعضكم لبعض في صغائر الأمور ؟!

ثم هذه الرحمة الشاملة من الله سبحانه لعباده حتى وهم يخطئون ! ويخطئون الخطأ الضخم .. ما داموا لا يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون . وما داموا يذكرون الله فيستغفرون لذنوبهم .. وأعجب ما في هذه الرحمة أن يقول : « أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها . **ونعم أجر العاملين** » إنه يعتبرهم من العاملين .. أولئك المخطئين الذين فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم !! نعم .. إن العمل هو التوبة . هو الاستغفار . هو مجاهدة النفس لكي لا تعود إلى المعصية .. هذا هو العمل الذي من أجله أنعم الله عليهم بالجنة وسماهم العاملين !

وهذا كله يجيء في معرض الحديث عن المعركة .. فما دلالته ؟

إن القرآن ـ وهو يعد المسلمين للمعركة ـ يريد أن يصفي نفوسهم تماماً لكي يخلصوا لمعركة الجهاد في سبيل الله لا يعطلهم شيء على الإطلاق ! لا تعطلهم الأضغان التي يثيرها الربا . ولا تعطلهم الأضغان التي تثيرها النزاعات الصغيرة بين البشر . ولا يعطلها الإحساس بالذنب ! وإن الإحساس بالذنب من أكبر المعوقات عن الاقتحام .. إنه قيد يغل النفس فلا تنطلق .. وثقل يدفعها إلى التخاذل والانكسار !

وفي سبيل تصفية نفوسهم من كل معوق ، يخلصهم كذلك من الإحساس بالذنب ، بفتح باب المغفرة على مصراعيه ، للذاكرين والمستغفرين ! فيا لها من رحمة ! .. ويا لها من تربية ! .. ويا له من إعداد شامل للمعركة لا يفوته شيء !

وقبل أن يستمر السياق في عرض جوانب أخرى من الإعداد الروحي للمعركة يقول :

« قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » .

وهذا التوجيه قد يكون موجهاً للمؤمنين ، كما قال لهم من قبل « واتقوا النار التي أعدت للكافرين » فيكون أمراً بالاستقامة على طريق الله ، عن طريق الإشارة إلى عاقبة المكذبين لكي يتجنبها المؤمنون . وقد يكون موجهاً إلى الكفار الذين فرحوا بانتصارهم في أحد ، التي سيتحول السياق إلى الحديث عنها ، فيكون معناه : لا تفرحوا لهذا النصر العارض ، فقد خلت من قبلكم سنن لا تتخلف . وهذه السنن تؤكد أن النهاية بالنسبة للمكذبين هي الدمار والهلاك ، مهما أحرزوا من جولات منتصرة قبل اللحظة الحاسمة . وقد يكون شاملاً للفريقين معاً : « هذا بيان للناس » غير المؤمنين « وهدى وموعظة للمتقين » ..

ثم يتحدث عن هزيمة أحد التي أصابت المسلمين بسبب مخالفتهم لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نبيهم وقائدهم في المعركة ، حديثاً مستفيضاً متعدد الجوانب والإشارات واللمحات .. وكله في سبيل الإعداد الروحي والنفسي والخلقي للمعركة :

« ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله . وتلك الأيام نداولها بين الناس . وليعلم الله الذين آمنوا ، ويتخذ منكم شهداء . والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين . أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ؟! »

« ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين »

لا تهنوا بسبب الهزيمة التي لحقتكم في أحد ، ولا تحزنوا .. فالحزن شعور مُقْعِدْ .. يفتت العزيمة ويقعد الهمة .. وأنتم الأعلون ـ رغم هزيمتكم ـ **إن كنتم مؤمنين** ! فالاستعلاء ليس بالنصر في المعركة . وليس بالقوة العسكرية أو المادية .. الاستعلاء بالإيمان ! بالشعور بأنكم مهتدون إلى الحق الرباني وسائرون على هداه . هذا هو مصدر استعلاء المؤمن ، ولو مرت به هزيمة عابرة .. فالهزيمة لا تمس مصدر استعلائه وهو الإيمان ..

ولقد وعى المسلمون هذا الدرس منذ نزلت عليهم هذه الآية فما عادوا يستمدون الاستعلاء من غير الإيمان . وما عادت هزيمة عابرة ، أو نقص في العدد أو العدة يُذْهِبُ عنهم استعلاءهم .. ما داموا مؤمنين !

في الحروب الصليبية الأولى مرت عليهم هزائم متكررة ، بسبب ما كانوا عليه في مبدإ الأمر من تفرق وانشغال عن الجهاد ، حتى قيض الله للأمة القائد المؤمن صلاح الدين ، الذي راح يذكي العقيدة في النفوس ، ويقول للناس : لقد هزمتم بسبب بعدكم عن الله ، ولن تنتصروا حتى تعودوا إلى الله .. فعادوا .. وانتصروا .. فقد كانت جذوة الإيمان ما تزال كامنة في القلوب وإن علاها شيء من الرماد ..

وعلى الرغم من هذه الهزائم المتكررة في مبدإ الأمر .. وعلى الرغم من أن الصليبيين تمكنوا من إقامة دولة في الشام استمرت مائتي عام .. فلم يتخل عن المؤمنين استعلاؤهم .. ولا أحسّوا ـ رغم هزيمتهم ـ أن الصليبيين خير منهم ! بل كانوا يحتقرون فسادهم الخلقي وتحللهم ، ويحتقرون نمط حياتهم كله .. ذلك أنهم كانوا يستعلون بالإيمان .. أو ببقية الإيمان .. فيعرفون أن طريقهم هو الأفضل ولو كانوا مهزومين !

كذلك حين غلبهم التتار وأزالوا دولتهم في المشرق ، حتى قيض الله للأمة القائد المؤمن قطز .. الذي صاح صيحته المشهورة : وا إسلاماه ! وانتصر على التتار في موقعة عين جالوت .. كذلك لم يتخلوا يومئذ عن استعلائهم بالإيمان .. أو ببقية الإيمان .. ولم يحسوا أن التتار خير منهم بسبب انتصارهم على المؤمنين . بل كانوا يحسون ـ في

أمرّ لحظات الهزيمة ـ أنهم هم الأفضل لأنهم مؤمنون !

في الحروب الصليبية الحديثة فقط ، أحس المسلمون لأول مرة بالهزيمة الروحية .. وبأن الصليبيين المنتصرين خير منهم ! ذلك أن جذوة الإيمان كانت قد خبت في قلوبهم كثيراً خلال قرون متوالية ، وتحولت إلى مظاهر خاوية من الروح . عند ذلك زايل المسلمين استعلاؤهم ، لأن عنصر الاستعلاء الحقيقي كان قد زايل القلوب ! وانبهر المسلمون ـ لأول مرة في تاريخهم ـ بما عند أعدائهم فراحوا ينقلون عنهم .. لم ينقلوا « العلوم » كما نقلوا مرة من قبل في مبدإ حياتهم ـ ولا ضير ـ ولم ينقلوا « التنظيمات » النافعة كما فعلوا مرة من قبل في مبدإ حياتهم ـ ولا ضير ـ إنما نقلوا « النظم » ونقلوا التصورات والمفاهيم والمعايير الخلقية والسلوكية .. وتركوا ما عندهم من ذلك كله في كتاب الله وسنة رسوله .. وسيظلون في غمرتهم تلك سادرين حتى تستيقظ في قلوبهم جذوة الإيمان من جديد .. فيحسوا بالاستعلاء من جديد ، ويعرفوا أن ما عندهم خير مما عند أعدائهم ، مهما كان من قوة أعدائهم المادية في الوقت الحاضر .. وينقلوا العلوم فقط والتنظيمات التي يحتاجون إليها ، ولا ينقلوا النظم والتصورات والمفاهيم والمعايير..

« إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله . وتلك الأيام نداولها بين الناس ؛ وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء . والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذي آمنوا ويمحق الكافرين » .

يشير إلى ما أصاب « القوم » من قبل في موقعة بدر . فلئن كان قد أصابكم قرح في أحد ، فقد أصابهم قرح مثله في بدر . وتلك الأيام من نصر وهزيمة يداولها الله بين الناس .. فلا يظل المنتصر منتصراً أبداً ، ولا المهزوم مهزوماً أبداً لحكمة يريدها هو سبحانه .. وقد بيّن هنا بعض حكمته من هذه الشدائد التي تصيب المؤمنين : « وليعلم الله الذين آمنوا » وعلم الله سابق في الأزل ، فهو لا يعلم الحدث عند وقوعه ، وإنما هو معلوم عند الله منذ الأزل ، منذ قدره الله سبحانه وتعالى . إنما المقصود بروز هذه الحقيقة حتى تعلم في عالم الناس . أي ليكشف الله للناس عن المؤمنين ، « ويتخذ منكم شهداء » .. فهذا هدف من أهداف المحنة : أن يتخذ الله من المؤمنين شهداء . وسواء كان الشهداء بمعنى الذين استشهدوا في سبيل الله وهو الأقرب ، أو بمعنى الذين ثبتوا على الإيمان فأصبحوا بذلك شاهدين على صدق هذا الدين .. أو هما معاً .. فإن من أهداف المحنة أن يبرز الله رجالاً مؤمنين يثبتون على الإيمان وقت الشدة ـ سواء قتلوا أو بقوا ـ لا يفرطون في عقيدتهم ، ولا يشترون بها ثمناً ولو كان الثمن هو حياتهم .. لأن هؤلاء « الشهداء » هم قوة لهذا الدين ، ونماذج تحتذيها الأجيال من المؤمنين ـ بالإضافة إلى منزلتهم الخاصة عند الله ، التي سيتحدث السياق عنها في موضعين تاليين ـ فحين

يكون اتخاذ الشهداء هدفاً ربانياً فهو لصالح هذا الدين ، ولصالح هذه الصفوة الممتازة التي يختارها الله من بين عباده فيخصها برحمته ومغفرته ونعيمه ورضوانه .. وكذلك يبرز الخير العميم من خلال هذا الضر الذي يتأذى منه الناس ، ويودون لو لم يكن قد حدث ! ..

« وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين »

والتمحيص لا يتم إلا من خلال الابتلاء الشديد ! هكذا اقتضت حكمة الله ! وقد سبق الحديث من قبل عن الابتلاء والتمحيص[1] . ولكن هنا يزيد السياق « ويمحق الكافرين » .. ومتى يقول ذلك ؟ والمسلمون منهزمون في المعركة ! يقول لهم إن من حكمة هذا الابتلاء بالهزيمة تمحيص المؤمنين ، وتخليصهم من بعض ما علق بنفوسهم من أوشاب ، وتجريد نفوسهم لله وللحق وللجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله .. ثم يمحق الكافرين ، بأولئك المؤمنين الذين محصوا في المحنة ، فصلبت نفوسهم وصفت أرواحهم وتجردوا لله .

وظاهر أن السياق يرتب أحد الأمرين بعد الآخر ، ويرتبه على الآخر .. يأتي التمحيص للمؤمنين أولاً ثم يأتي المحق للكافرين بعد ذلك . ومحق الكافرين يأتي نتيجة لتمحيص المؤمنين .. فلا بد أن يحدث التمحيص ليحدث المحق .. وتلك كلها من أهداف الابتلاء ، الذي يظنه الناس شراً كله .. فإذا فيه كل ذلك الخير !

« أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ؟! »

وهو سؤال إنكاري يفيد أنه **لا يمكن** أن تدخلوا الجنة قبل أن يبرز الله الذين جاهدوا منكم والذين صبروا بحيث يعرف جهادهم وصبرهم . ولا يتم ذلك إلا بالامتحان والابتلاء .. الذي يتميز فيه المجاهدون والصابرون .

« ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه . فقد رأيتموه وأنتم تنظرون . وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟! ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ، وسيجزي الله الشاكرين . وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً . ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين » .

من هنا يبدأ عتاب حاد للمؤمنين بشأن موقفهم في أحد ..

لقد عصوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فغادروا جبل الرماة قبل أن تنتهي المعركة ، وقبل أن يتلقوا أمراً من القائد صلى الله عليه وسلم بمغادرة المكان الذي أمرهم ألا يغادروه . فانتهز المشركون الفرصة وكروا على المؤمنين على حين غرة منهم فأحدثوا ارتباكاً شديداً في صفوفهم .. وسرت إشاعة بأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قتل ،

---

(١) راجع سورة البقرة عند الحديث عن آية « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم .. » .

فزادهم ذلك ارتباكاً ؛ وفي هزة المفاجأة رأى بعضهم أنه لم يعد هناك إذن ما يدعوهم للاستمرار في القتال ما دام الرسول صلى الله عليه وسلم قد قتل !

فهنا يعاتبهم على هذا الموقف عتاباً شديداً بقدر عظم المخالفة أو المخالفات التي وقعت منهم :

« ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه . فقد رأيتموه وأنتم تنظرون ! »

كنتم تتمنون الموت في سبيل الله . فماذا حدث حين رأيتم الموت أمام أعينكم ؟!

لقد ارتدوا على أعقابهم ! حقيقة إنهم لم يرتدوا ارتداد خيانة .. إنما ارتداد اضطراب ومفاجأة .. ولكن الوحي يتنزل بالتشديد عليهم لكي لا يعودوا لمثلها .. والله يعلم صدق قلوبهم وعدم وقوع الخيانة منهم . ولذلك عفا عنهم كما سيجيء في السورة . ولكن يبقى أنهم ارتكبوا خطأ بارتدادهم هذا ـ ولو عن غير خيانة وتخلٍ ـ وهو خطأ ما كان ينبغي أن يحدث .. لذلك لا يتساهل الوحي معهم ! إنما يلقنهم درساً حاداً عنيفاً .. حتى إذا استقر الدرس في أخلادهم ، واهتزت له نفوسهم ، وعلم الله ذلك منهم ، خبّرهم بأنه عفا عنهم ! فجاء العفو الرباني ـ بعد العتاب الشديد والدرس العنيف ـ بلسماً للجراح ، ومقوياً للعزائم ، وباعثاً للنفوس ..

« ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه . فقد رأيتموه وأنتم تنظرون » .

إن الإنسان قد يتمنى الموت ـ صادقاً ـ ثم يهتز حين يجابهه بالفعل فينقلب على عقبيه .. لا لأنه لم يقدر معنى الموت .. وإنما لأنه رسم في خياله صورة معينة للموت ، وأعد نفسه لها . فإذا جاءه الموت من طريق آخر غير الذي تصوره وأعد نفسه له اضطرب للمفاجأة !

وهذا هو الذي حدث للمؤمنين في أحد . لقد خرجوا صادقي النية للجهاد في سبيل الله ، وللموت في سبيل الله . ولكنهم تصوروا أنفسهم يقاتلون الأعداء وجهاً لوجه ـ على تمكن ـ فيَقتلون ويُقتلون ! وكذلك فعلوا في الجولة الأولى من المعركة وكان النصر حليفهم .. فلما حدثت المفاجأة غير المتوقعة ، وفاجأهم الموت من غير الطريق الذي رسموه لأنفسهم وأعدوا أنفسهم للقائه .. أصابهم الارتباك ففروا .. ومع علم الله سبحانه وتعالى أنهم لم يفروا خيانة ولا تخلياً فإنه يشدد عليهم لأن هذا الذي حدث ما كان ينبغي له أن يحدث !

« وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟! »

وحين ننظر إلى الموقف بمنطقنا نحن البشري فإننا نرى أن الذين اهتزوا حين سمعوا إشاعة مقتل الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا معذورين ! فإن زعيماً عادياً أو قائداً

عادياً يمكن أن يكون غيابه عن أتباعه بالموت أو القتل ـ وخاصة في أثناء المعركة ـ سبباً في اهتزازهم واضطرابهم .. فما بال حين يكون هذا الزعيم والقائد هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أعظم من حملت الأرض في تاريخها كله ؟ وما بال حين يكون أتباعه ممتلئي النفوس به كما لم يحدث قط لزعيم أو قائد في تاريخ البشرية كله ؟!

كيف يُحْدِثُ الفراغ المفاجئ في نفوسهم ؟!

إنه لموقف لا يصمد له إلا أولو العزم من البشر .. وقليل ما هم !

بل إن الهزة ـ حين وقعت فعلاً بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ قد هزت حتى أولي العزم .. وعلى رأسهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه !

ومع ذلك فإن التربية القرآنية تريد أن ترفع المسلمين إلى أعلى ما في طاقة البشر أن يرتفعوا إليه ! لا بالقسر .. فالقسر هنا لا يمكن أن يثمر .. ولكن بالتربية .. بالتوجيه .. بمخاطبة الوجدان والمشاعر ..

وقد يكون التوجيه حاداً .. كما هو في هذا الموضع .. ولكنه مؤثر ، ومن أجل ذلك مثمر ..

إنه لا يريد ـ هنا ـ أن يقرهم على « الضعف البشري » كما يقرهم عليه في مواطن أخرى [« كتب عليكم القتال وهو كره لكم »] لأن الموقف هنا دقيق وحاسم في وسط المعركة القائمة بالفعل . ولا يكون لإقرار الضعف البشري نتيجة إلا المزيد من الخلخلة في الصف والمزيد من الانفلات ..

إنما هنا ينبغي التوجيه للعزيمة .. فهذا هو التوجيه الذي يرد النفوس من انفلاتها ، ويذكرها بواجبها فتتماسك ، ولا تسمح للصدمة أن تذهلها عن واجبها .. فتحدث الصدمة ، نعم ، لا محالة ، ولكن تبقى العزيمة والتماسك كما حدث يوم وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بالفعل .

لذلك كانت هذه اللهجة الحادة :

« وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ! وسيجزي الله الشاكرين . وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ! ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها . وسنجزي الشاكرين ! »

ونلاحظ هذا التكرار في « وسيجزي الله الشاكرين » « وسنجزي الشاكرين » .. إنه تهديد خفي ! خاصة بعد قوله « ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً » وقوله « ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ! » إن معنى التهديد الخفي أنه إن تخليتم فإن الله ينفض يده منكم ، ويدعكم لشأنكم ، ثم يصطفي المستقيمين منكم على أمره ، أو يستبدل

قوماً غيركم ويأتي بقوم آخرين شاكرين لله .. أي طائعين منيبين متقين مستقيمين ، فيخصهم بالأجر والثواب دونكم ! كما قال في سورة المائدة : « يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم »[1] .

ثم يضع أمامهم صورة للمجاهدين الصابرين لكي يروا الفرق بين ما فعلوه وما كان ينبغي عليهم أن يفعلوه . وهي صورة شفيفة عميقة التأثير :

« وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا . والله يحب الصابرين . وما كان قولهم إلا أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا ، وإسرافنا في أمرنا ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين . فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة . والله يحب المحسنين » .

« وكأين من نبي .. »

وهي صيغة تفيد التكثير .. ومعناها : كثير هم الأنبياء الذين قاتل معهم المقاتلون من أتباعهم فما وهنوا ..

إنهم ليسوا إذن أمثلة عابرة في التاريخ ، بل كثرة .. ومن ثم يبدو سلوك الذين انفضوا عن الرسول صلى الله عليه وسلم في الموقعة سلوكاً شاذاً بالنسبة للكثرة من أتباع الرسل ! وسلوكاً ما كان ينبغي أن يحدث !

ثم هذه الصورة الجميلة لأولئك الثابتين في القتال مع أنبيائهم : « فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله ، وما ضعفوا ، وما استكانوا .. » إن هذا التفصيل في موقفهم يوحى بالحفاوة الربانية بهم ، والرضى عنهم ، والإشادة بهم .. وذلك كله في موقف العتاب للمؤمنين ! ثم هذا التفصيل مقصود لغرض آخر تربوي توجيهي .. ذلك أنه يرفع الصورة أمام المؤمنين ليتملوها ، ليكونوا مثلها .. ومن ثم فإن كثرة التفاصيل في الصورة معين على تدبر الدرس ووعيه ، والإفادة منه في المستقبل . وهذا التعقيب « والله يحب الصابرين » هو كذلك توجيه تربوي ، معناه : كونوا صابرين ــ مثل هؤلاء ــ ليحبكم الله ..

واستمراراً لإعطاء التفصيلات في الصورة يأتي : «وما كان قولهم إلا أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا ، وإسرافنا في أمرنا ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين » .. فيحقق ذلك أهدافاً كثيرة في آن واحد ..

---

(١) سورة المائدة [٥٤] .

إنها وصف للسلوك الواجب والمستحب في مثل هذا الموقف .. يكمل الصورة الشفيفة لأولئك المقاتلين الصابرين .

وتوجيه للمؤمنين في ذات الوقت أن يستغفروا لذنوبهم وأن يكون دعاؤهم أن يثبت الله أقدامهم لكي لا تزل كما زلت ، وأن ينصرهم على القوم الكافرين ، فلا تحل بهم الهزيمة كما حلت ..

ثم هنا لفتة في « وإسرافنا في أمرنا ! »

إنه في مكان آخر [سورة البقرة : ٢٥٠] يقول : « ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا : ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين » .

ولكنه هنا ــ والمؤمنون قد أسرفوا في أمرهم في وقعة أحد ــ يوجههم ــ من خلال هذه الصورة التي يرفعها أمامهم ــ بما ينبغي عليهم أن يفعلوه لكي يستقيموا على الأمر ، فيضيف في اللوحة هذه العبارة : « ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا » ليقرأها المؤمنون في اللوحة ويجعلوها في دعائهم ! وهي لفتة دقيقة إلى نفوس المؤمنين وما يعتمل في داخلها ، ثم توجيه لهم بما ينبغي عليهم ليخرجوا من موقفهم ! .

ثم تجيء نتيجة هذا الدعاء ، وثمرة هذا الموقف المتجرد لله : « فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة . والله يحب المحسنين » .

وواضح بطبيعة الحال التفرقة في التعبير بين ثواب الدنيا **وحسن** ثواب الآخرة .. فثواب الآخرة هو الأحسن والأفضل ، حتى حين يكون ثواب الدنيا ممنوحاً من الله لعباده رضاءً عنهم ، ومكافأة لهم على استقامة موقفهم ! وذلك لكي تظل قلوب المؤمنين معلقة بثواب الآخرة أبداً ، لا تنشغل عنه بثواب الدنيا ولو كان من فضل الله ورحمته ، لا استدراجاً ولا فتنة !

وواضح كذلك أن هذا العرض المفصل في وصف « المكافأة » التي أعطيت للمقاتلين الصابرين ، هي توجيه تربوي لحفز همم المؤمنين أن يكونوا بحيث يستحقون مثل هذه المكافأة السخية من فضل الله !

* * *

« يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين . بل الله مولاكم وهو خير الناصرين . سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين » .

يجيء هذا التحذير للمؤمنين من إطاعة الذين كفروا ، لأن الكفار في المدينة ــ سواء من قبائل العرب التي لم تسلم بعد أو من اليهود ــ ومعهم المنافقون الذين يلوذون بهم ، قد استغلوا جو الهزيمة في أحد ليثبطوا المؤمنين عن القتال ويحذروهم عواقبه ، من أنهم لن

يستطيعوا الانتصار على أعدائهم ، ولن يصيبهم من القتال إلا الخسارة ! فهو يحذرهم أن يستمعوا لهذه الأقاويل ، وهم في حالة انكسارهم عرضة لأن تؤثر فيهم تلك الدعاية المسمومة .. ويجابههم بنهاية الاستماع للكفار والطاعة لتوجيهاتهم .. إنها الكفر ! وذلك لكي يوقظهم إلى أنها ليست مسألة صغيرة ولا هينة . إنها الارتداد عن الإسلام . وإنها هي الخسارة الحقيقية . وليست خسائر المعركة هي الخسارة !

« بل الله مولاكم وهو خير الناصرين » .

وكأن السياق يقول : لا تطيعوا الذين كفروا ولا تتولوهم .. بل الله مولاكم .

ويحتمل السياق كذلك معنى آخر : لا تصدقوا قول القائلين لكم ـ ليخذّلوكم ـ أن الله قد تخلى عنكم بعد بدر ، وترككم للهزيمة .. بل الله مولاكم ، وهو خير الناصرين .

ثم يقوي قلوب المؤمنين لكي لا تؤثر فيها تلك الدعاية المسمومة التي يوجهها إليهم الكفار والمنافقون ، مستغلين جو الهزيمة :

« سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب .. »

إن جو الهزيمة دائماً يكبّر قوة العدو عن حجمها الطبيعي فتبدو ضخمة ، وتبدو قوة المنهزم أمامها صغيرة .. لذلك يطمئن السياق المؤمنين بأن الكفار لن ينتصروا عليهم في المواجهة القادمة ، بل سيلقي الله في قلوبهم الرعب ، لسبب أصيل في سنة الله :

« سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً » ..

فهذا إذن خط أصيل في سنة الله ، أن ينهزم المشركون **بالرعب** حين تواجههم الفئة المؤمنة ولو كانت أقل منهم عدداً وعدة .. وأن يكون هذا الرعب هو الجزاء الدنيوي على إشراكهم بالله ما لم ينزل به سلطاناً .. أما في الآخرة فجزاء آخر :

« .. ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين » ..

ولقد كانت هذه السنة متحققة بالفعل في أول المعركة .. لأنها سنّة جارية ما دامت الفئة المؤمنة قد وجدت ، وتربت على الإيمان وثبتت عليه ، ومحصت قلوبها .. فعندئذ يجيء محق الكافرين : « وليمحص الله الذين آمنوا ويمحقَ الكافرين » [1] ولا تتخلف هذه السنة أبداً إلا **لمخالفة** تقوم بها الفئة المؤمنة فيصيبها جزاء المخالفة :

« ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه . حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة . ثم صرفكم عنهم ليبتليكم . ولقد عفا عنكم . والله ذو فضل على المؤمنين » .

صدقكم الله وعده .. وجرت السنة على خطها الأصيل ، فانتصرتم عليهم لأنكم

---

(١) سورة آل عمران [١٤١] .

أنتم الفئة المؤمنة وهم المشركون الذين أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً .. وكان الانتصار في صورة اجتثاث للكفار (إذ تحسّونهم : أي تجتثونهم) بإذن الله وتقديره وحسب سنته .. حتى إذا وقعت منكم المخالفة ، فتنازعتم وعصيتم .. ومتى ؟! « من بعد ما أراكم ما تحبون » وهو النصر .. فعندئذ وقع جزاء المخالفة وهو الهزيمة ..

« .. منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة » .

قال بعض الصحابة لما نزلت هذه الآية : ما كنا نعلم أن منا من يريد الدنيا حتى نزلت هذه الآية !

وليست إرادة الدنيا هنا بمعناها الذي يرد في شأن الكفار ، إذ تصدهم عن الإيمان بالله ، ولا بمعناها الذي يرد في شأن المنافقين ، إذ تصدهم عن الجهاد في سبيل الله . إنما هي إشارة للمقاتلين على جبل الرماة الذين نزلوا من الجبل مخالفين لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم خوفاً على نصيبهم من الغنيمة .. فهنا يجسم السياق مخالفتهم ليبرزها أمام أعينهم لكي يستفظعوها ، فلا يعودوا لمثلها أبداً . والتعبير مع ذلك يذكر حقيقة واقعة : أنهم من أجل الغنائم ، وهي من أمور الدنيا ، وقعوا في المخالفة . ولكن يجيء إيحاء التجسيم والتفظيع من أن السياق القرآني دائماً يلصق إرادة الدنيا بالكفار والمنافقين ، بوصفها هي التي تصدهم عن الإيمان أو الجهاد .. فإذا رأى المؤمنون أنفسهم في هذا الشريط الهائل الذي يديره أمامهم متضمناً أحداث المعركة لكي يروا صورة أنفسهم فيها .. إذا رأوا أنفسهم يوصفون بذات الوصف الذي يوصف به الكفار والمنافقون ـ وإن كان بمعنى آخر ـ فزعوا من تشابه الوصف وتشابه الصورة ، فلم يعودوا يرتكبون ما تسبب عنه وصفهم بهذه الصفة الرهيبة ، وابتعدوا جهدهم عن هذا الطريق حتى لا ينالهم أي وصف يوصف به الكفار والمنافقون !

« ثم صرفكم عنهم ليبتليكم .. »

في مبدإ الأمر صرفكم إليهم تجتثونهم من جذورهم ، تحقيقاً لسنة الله الجارية بعد قيام الفئة المؤمنة في الأرض .. والآن صرفكم **عنهم** .. لأنكم خالفتم .. فلم يعد قتالكم موجهاً إليهم ، ولا مؤدياً إلى اجتثاثهم ! وذلك ليبتليكم بمخالفتكم ..

« ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين » ..

إن الله لم ينفض يده من الفئة المؤمنة جزاء مخالفتها ! إنه يعلم صدق قلوبهم ، وصدق توجههم .. وإنما هي زلة عارضة أصابتهم حين جنحوا لأمر من أمور الدنيا ، تضخمت قيمته في حسهم أكثر مما ينبغي ، فأنستهم ـ لحظة ـ أنهم جاءوا لقيمة أكبر وأهم ، هى إعلاء كلمة الله في الأرض . وهي الجهاد في سبيل الله . وهي الجنة ...

ومن أجل هذه الزلة ابتلاهم بالهزيمة ، ليتيقظوا إلى نتيجة مخالفتهم ، ونتيجة

الاهتزازة العارضة التي أصابتهم .. ولكنه ـ أبداً ـ لم ينفض يده منهم .. إنما عفا عنهم .. والله ذو فضل على المؤمنين .. عفا عنهم في النهاية حين علم أن قلوبهم قد صفت وصغت ، وزالت عنها تلك الاهتزازة العارضة فعادت إلى نبضها الأصيل !

* * *

ثم يأخذ في عرض صورة دقيقة لما حدث في المعركة ، كأنها المرآة يرون أنفسهم فيها ، أو كأنها شريط للأحداث يعرض عليهم ليروا أنفسهم فيه !

إنها طريقة من طرق التربية بالغة التأثير ..

ولقد اهتدت بعض طرائق التربية المعاصرة إلى شيء شبيه بذلك لمعالجة بعض العادات السيئة التي تصبح « لازمة » عند بعض الأفراد لا يستطيعون الخلاص منها ، فيؤخذ لهم ـ دون أن يلحظوا ـ شريط من الصور وهم يأتون هذه العادات السيئة ، ثم يعرض الشريط على صاحبه وهو جالس بمفرده ، حتى لا تجرح كرامته بالعلانية والتشهير .. فيشاهد نفسه « متفرجاً » فينفر من الصورة التي يراها أمامه ، ويحس أن الناس « المتفرجين » ينفرون منها ولهم الحق في ذلك ! فيدفعه ذلك إلى إبطال العادة السيئة التي تلازمه ، سواء كانت حركة عصبية غير واعية ، أو وضع الإبهام في الفم ، أو قرض الأظافر أو ما شابه ذلك من الحركات والعادات !

والقرآن يسبق بهذه الطريقة الناجعة في التربية ..

إن الإنسان لا يرى نفسه على حقيقتها أبداً ! ولا يرى كيف تكون صورة العمل الذي يأتيه ولا تأثيره عند الآخرين .. إلا أن يعرض عليه شريط بأعماله ، يراه في موضع المتفرج ، فيراه على حقيقته !

وهنا يعرض السياق صورة دقيقة معبرة متحركة ، ترسمها الألفاظ في دقة معجزة ، فتسجل فيها حال المؤمنين وقت المعركة .. ثم تعرض الصورة على المؤمنين فيرون أنفسهم فيها ، ويرون الصورة الحقيقية لفعلهم .. فينفرون من الصورة ، فلا يعودون لمثلها أبداً !

« إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم . فأثابكم غماً بغم لكي لا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم ، والله خبير بما تعملون . ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم ، وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ، ظن الجاهلية ، يقولون : هل لنا من الأمر من شيء ؟! قل : إن الأمر كله لله . يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك ، يقولون : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا ! قل : لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم . وليبتلي الله ما في صدوركم ، وليمحص ما في قلوبكم . والله عليم بذات الصدور » .

« إذ تصعدون ولا تلوون على أحد .. »

كلمات قليلة تعطي صورة كاملة للاضطراب والخلل الذي وقع في صف المسلمين حين فوجئوا بهجوم العدو المباغت .. إذ يصعدون في الجبل منفلتين لا يلتفتون لأحد ولا لشيء ، ولا يتوقفون ليتبينوا ، ولا يتمهلون ليفكروا !

« والرسول يدعوكم في أخراكم .. »

ولكنهم في اضطرابهم لا يتبينون صوت الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا يستجيبون للصوت الذي يناديهم .. لقد انفرط العقد وانفلتت كل حبة وحدها في حركتها الذاتية لا تستجيب لحركة الأخرى ولا تتوجه إليها !

« فأثابكم غماً بغمٍّ لكي لا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم . والله خبير بما تعملون » .

ولا يحدد السياق هنا الغم الأول الذي أثابهم به الغم الثاني .. لذلك اختلف المفسرون في تفسيره . هل هو موت الشهداء السبعين في أحد مقابل عدم قتل أسرى المشركين في بدر والاكتفاء بأسرهم ، والذي نزل بشأنه في سورة الأنفال : « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم »[1] أم هو الغم الذي أحدثوه في نفس الرسول صلى الله عليه وسلم بفرارهم عنه ، وإصابته بما أصابه يومئذ من جراح وآلام ، فأثابهم به الغمّ الذي أصابهم من الهول والاضطراب والهزيمة ..؟

وأيّاً يكن الأمر فقد أحس المؤمنون بغمٍّ شامل ثقيل يغشى نفوسهم بعد أن انجلت المعركة ... والسياق يقرر أن الله قد أثابهم هذا الغم لكي لا يحزنوا على ما فاتهم ولا ما أصابهم .. أي لكي يصرفهم عن الحزن على ما فات .. وقد يكون المقصود لفت نظر المؤمنين إلى أن تداول النصر والهزيمة هو من سنن الله الجارية فلا ينبغي أن يحزنوا إذا أصابتهم هذه السنّة ، بل ينبغي أن يتعلموا منها الدرس فيعدّوا عدة النصر ليطمعوا في عون الله لهم .

« ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم .. »

وتلك كانت المرحلة الأخيرة في علاج نفوسهم برحمة غامرة من عند الله .. إذ يغشيهم النعاس وهم آمنون .. وما أشد ما يتغير الجو النفسي بعد لحظة نعاس ! ! إن هذه اللحظة ـ وقد تكون قصيرة ـ كأنما تعيد تشكيل النفس من داخلها ، فتمسح تماماً كل أثر للحظة السابقة ويصحو الإنسان بمشاعر مختلفة تماماً كأنه قادم من عالم جديد غير الذي كان فيه منذ لحظات ! وتلك رحمة الله أحاطت بقلوب المؤمنين المستسلمين لله ،

---

(١) سورة الأنفال [٦٧ – ٦٨] .

المسلّمين قلوبهم له ، المطمئنين في رحابه .. مسحت على شجونهم وآلامهم ، فاستيقظوا بأرواح مطمئنة ونفوس صافية . . .

أما الطائفة الأخرى فإنها لم تنعم بهذه الرحمة السابغة لأن قلوبها لم تخلص بعد لله : « وطائفة قد أهمتهم أنفسهم .. »

وما دامت أنفسهم ما زالت هي محور اهتمامهم ، فإنهم إذن لم يَخْلُصُوا لهذه العقيدة بعد !

إنه لا يتم الخلوص لله ولدين الله ، حتى يكون الإنسان قد أسلم نفسه **كلها** لله : « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم **كافة** ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين »[1] .. ادخلوا جميعاً ، **وبكافة** أنفسكم ، كما أشرنا من قبل[2] .

وحين يسلم الإنسان نفسه كلها لله لا تعود نفسه هي التي تهمه ، إنما يكون دين الله هو الذي يهمه . وتكون نفسه مستسلمة لقدر الله ، راضية بما يصيبها في سبيل الله ، مدركة في ذات الوقت أن هناك حكمة وراء قدر الله سواء عرفها الإنسان لوقتها أم لم يعرفها ..

والاستسلام لقدر الله ليس معناه الاستسلام للهزيمة أو للمرض أو للفقر أو للظلم الذي يقع على الإنسان في الأرض من الجبارين والطغاة ، وليس معناه العجز والقعود أو ما يفهم الناس من لفظ « الاستسلام » من السلبية الكاملة تجاه الأحداث[3] .

إنما معناه الرضى النفسي بما يأتي من عند الله ـ بعد أن أدى الإنسان واجبه جهاداً وعملاً وتوكلاً على الله وأخذاً بالأسباب ـ ثم العودة في ذات الوقت إلى الجهاد والعمل والتوكل على الله والأخذ بالأسباب من جديد ، انتظاراً لقدر من الله جديد ، ورجاءً في قدر من الله جديد .. وبذلك لا تحطم الهزيمة روح الإنسان ، ولا يحطم المرض روح الإنسان ، ولا يحطم الظلم روح الإنسان .. لأن في حس الإنسان المؤمن أن هذا ابتلاء من الله له ، له عليه الثواب الضخم حين يصبر عليه ولا ييأس من رحمة الله . وفي الوقت ذاته لا يقعد عن مجاهدة الهزيمة أو المرض أو الفقر أو الظلم .. الخ لأن الله أمره بمجاهدته ، ولأنه ـ دائماً ـ يطمع في عون الله له كلما جاهد في أمر من الأمور .

فالاستسلام لقدر الله إذن ـ كما أشرنا من قبل ـ هو صونٌ للطاقة أن تتحطم وتتبدد إزاء الأحداث ، وهو حافز إلى معاودة الجهد والعمل بنفس راضية مطمئنة متطلعة إلى قدر الله ..

---

(١) سورة البقرة [٢٠٨] .

(٢) راجع الحديث عن هذه الآية في سورة البقرة .

(٣) راجع الكلام عن القضاء والقدر في الفصل الأول .

وحين يصل الإنسان إلى هذه المرتبة من الإيمان لا تعود نفسه هي التي تهمه إنما يكون دين الله ، ولا يعود ما أصابه في سبيل الله هو شغله الشاغل ، إنما يكون التهيؤ للعمل من جديد في سبيل الله .

وهي مرتبة عالية ولا شك .. ولا تجيء لكل الناس دفعة واحدة ومن أول خطوة في الطريق ! وإنها لفي حاجة إلى مجاهدة طويلة للنفس وأهوائها وهواتفها وجواذبها حتى تَخْلص إلى الله !

ولكنها ـ حين يصل الإنسان إليها ـ مرتبة شفيفة وضيئة جميلة .. تستحق كل ما يبذل فيها من الجهد .. ويكفي جزاء على الجهد رضوان الله !

والإسلام لا يقتلع الناس من الأرض اقتلاعاً ليقذف بهم إلى تلك القمة الرفيعة السامقة . ولا يجذبهم جذباً يقطّع أوصالهم !

ولكنه ـ وهو الرحمة كلها ، والهدى الرباني الرفيق ـ يأخذ بأيدي الناس خطوة خطوة على المرتقى حتى يصلوا إلى هناك .. فإذا وصلوا ـ بعون الله وتوفيقه ـ زين لهم البقاء هناك وحببه : « إن الذين قالوا ربنا الله **ثم استقاموا** تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا ، وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ، ولكم فيها ما تدعون ، نزلاً من غفور رحيم »[1] .. ثم إذا زلوا مرة لم يطردهم من رحمته ، إنما عاونهم على الصعود من جديد : « ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين » ..

أما الذين ما زالوا في السفح ، فأولئك الذين أهمتهم أنفسهم لأنهم لم يَخْلُصُوا لله بعد ، فلم يستطيعوا أن يستسلموا لقدر الله !

« .. وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، يقولون : هل لنا من الأمر من شيء ؟! قل : إن الأمر كله لله ! »

أولئك لم تمر الهزيمة سهلة في نفوسهم .. والهزيمة لا تمر سهلة في نفس أحد على الإطلاق . ولكن فريقاً يأسى لما أصاب دين الله . وفريقاً يأسى لما أصابه هو شخصياً من خسائر في صورة قتل وجراح ! وشتان ما بين أسى وأسى ، وما بين شعور وشعور !

ثم يتوب الفريق الأول إلى الله فيستسلم لقدره ـ بمعنى الرضاء النفسي والطمأنينة ـ ويحشد طاقته لجولة جديدة في المعركة ، ويظل الفريق الثاني يتقلب في حسرته لا يثوب ، لأن محور حسرته هو شخصه ، وهو خسارته الشخصية .. فلا يستطيع أن يدرك الأمور على حقيقتها ، ويظن بالله غير الحق ، ظن الجاهلية ، فيتساءل : « هل لنا من الأمر

---

(١) سورة فصلت [٣٠ - ٣٢] .

من شيء ؟! » ذلك أنهم يظنون أنهم قد أصابهم ما أصابهم لأنه لم يؤخذ برأيهم في البقاء في المدينة وعدم الخروج منها .. وأنه لو أخذ برأيهم ما قتلوا في هذا المكان !

وقبل أن يعرض تفصيل ما في نفوسهم يرد سريعاً على تساؤلهم ، فيقول : « قل : إن الأمر كله لله » تصحيحاً لظنهم بالله غير الحق ، ظن الجاهلية ، أنه يمكن أن يكون مع الله شيء أو أحد له من الأمر شيء ! ثم يعود بعد تفصيل ما يدور في نفوسهم ، وإظهاره من الخفاء الذي يحيطونه به في أنفسهم .. يعود فيرد مرة ثانية ، فيؤكد ذلك المعنى ، أنه لا أحد له من الأمر شيء على الإطلاق ، وأن الأمور تقع بقدر من الله لا بتدبير العبيد من هنا أو من هناك !

« .. وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ، ظن الجاهلية ، يقولون : هل لنا من الأمر من شيء ؟ **قل : إن الأمر كله لله !** يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك ، يقولون : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا ! قل : لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ! ... »

تعبير عجيب ، يضع النفس البشرية إزاء قدر الله في موضع حاسم لا فرار منه !

إن فلاناً من الناس لا يقتل لأنه أُخْرِجَ من بيته أو من بلده بغير رأيٍ منه ! ولا يقتل لأنه ذهب أو أُخِذَ إلى ميدان القتال ! ولا لأي سبب من تلك الأسباب الظاهرة التي يسند الناس في الجاهلية إليها سبب القتل ! ثم إنه لم يكن ليرد القتل عنه أن يؤخذ رأيه في الخروج أو البقاء ! ولا في الذهاب إلى ميدان القتال أو البقاء في البيت !

« .. قل : لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ! »

انظر كلمة « برز » .. إنهم هم الذين يبرزون إلى مضاجعهم ، كأنما بإرادة منهم .. ولا إرادة لهم في الحقيقة ! إنما القدر الذي كتب عليهم القتل هو الذي يكتب عليهم البروز لملاقاته ، مدفوعين دفعاً لتلك الملاقاة لا يملكون لها رداً ولا تحويلاً !

هكذا ..

يُقْتَل الناس لأن القتل كتب عليهم ، لا لأنهم في هذا المكان أو ذاك ، ولا في هذا الوضع أو ذاك .. ويقتلون في الزمان والمكان الذي كتب عليهم القتل فيه ، لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ! وليس الذهاب إلى ميدان القتال هو الذي يقتلهم ، لأنهم لو كانوا في بيوتهم في اللحظة التي كتب عليهم فيها القتل لتحركوا وبرزوا لكي يلاقوا القتل في تلك اللحظة المحددة .. لأنهم يتحركون بقدر مقدور لا يتوقف على ملابسة من الملابسات !

وتصور الأمر على حقيقته في هذه الصورة يغير الأمور تغييراً أساسياً في داخل النفس .

إن الناس ـ في غفلتهم ـ يتصورون أن القتال ـ في ذاته ـ هو الذي يقتل الناس ! ويغفلون عن قدر الله الذي أوجد فريقاً من الناس يقتتلون في ذلك المكان والزمان ليموت

فريق منهم ! وحين يتعلقون بالسبب الظاهري وينسون ما وراءه من قضاء الله وقدره ، يحسبون أنهم يستطيعون أن يفروا من الموت إن استطاعوا أن يفروا من القتال ! ولذلك يجبنون عن الجهاد في سبيل الله فراراً ـ في ظنهم ـ من الموت ، واتقاءً له ! ولو أدركوا الأمر على حقيقته ، وعلموا أنهم يموتون في اللحظة التي يموتون فيها لأن الموت قد كتب عليهم في تلك اللحظة ، لا لأي سبب آخر ، ولا يموتون في غيرها لأن الموت لا يكون قد كتب عليهم بعد ، ولو كانوا في ميدان القتال .. عندئذ يدركون أن قتلهم لا يتوقف على جهادهم في سبيل الله ، فقد يجاهدون ثم لا يقتلون إن لم يكتب لهم القتل والشهادة .. وأن فرارهم لا يؤمِّن لهم البقاء إن كان القتل قد كتب عليهم ، لأنهم عندئذ سيبرزون إلى مضاجعهم ولو كانوا في بيوتهم ..

وعندئذ لا يجبنون عن القتال ولا يتقاعسون عنه !

وعندئذ كذلك لا تقعدهم الهزيمة أو الخسارة ولا تحطم أرواحهم ولا تبدد طاقتهم !

إنما تستسلم نفوسهم لقدر الله ، ويقومون من وقعتهم بروح جديدة وعزيمة غير مثخنة بالجراح !

وذلك هو الدرس الذي يوجههم القرآن إليه من خلال السياق ..

ثم يعلمهم حكمة الابتلاء بالهزيمة :

« وليبتلي الله ما في صدوركم ، وليمحص ما في قلوبكم ،والله عليم بذات الصدور ».

إن قدر الله ـ بالنصر أو بالهزيمة ـ لا يجري عبثاً .. ففضلاً على كونه يجري حسب سنن ربانية معينة ، فإنه في كل مرة يقع تكون معه حكمته الربانية ، سواء عرفها البشر في حينها أو لم يعرفوها . وهو هنا يعرفهم حكمة تلك الهزيمة التي وقعت : إنها اختبار لما في الصدور ، يتبين منه الذين أسلموا نفوسهم وقلوبهم لله والذين ما زالت تهمهم أنفسهم . وتمحيص للذين آمنوا ، بتثبيتهم على الإيمان في كل حالة من أحوالهم ، منتصرين أو منهزمين ، وتوجيه قلوبهم لله دائماً ، يرجون رحمته ويخافون عذابه .. وذلك هو الكسب الحقيقي لهم في نهاية المطاف .. والله عليم بذات الصدور !

وتعليق القلوب بالله ، في كل حالة من حالات الإنسان في حياته على الأرض ، هو ـ كما علمنا من السور المكية ـ من الأمور المتعلقة بالعقيدة . ولكن أمور العقيدة التي كانت تؤسس ـ صرفاً ـ في الفترة المكية ، تأتي الآن قاعدة تنبني فوقها أشياء .. لقد تم « تأسيس » العقيدة وترسيخها في العهد المكي . والآن يأتي التذكير بالعقيدة لتبنى عليه أمور في واقع الجماعة المسلمة . فمرة يأتي توجيه سياسي ، ومرة يأتي توجيه اجتماعي ، ومرة يأتي توجيه اقتصادي .. وهنا يأتي توجيه للجهاد في سبيل الله .. كلها تأتي مؤسسة على

العقيدة ، التي هي الأساس الأول الذي يقوم عليه كل شيء في هذا الدين ، وكل شيء في حياة المؤمنين بهذا الدين .

وهنالك كذلك ملاحظة أخرى ..

كانت العقيدة في الفترة المكية تؤسس تأسيساً شعورياً وجدانياً [وعقلياً كذلك بطبيعة الحال] أما هنا في العهد المدني ، فبالإضافة إلى الخط الشعوري الوجداني [والعقلي] فإن تثبيت العقيدة وترسيخها يأتي من خلال « الدروس » .. الدروس العملية والدروس التربوية .. كما هو واضح هنا من الدروس التربوية الموجهة من خلال المعركة وما حدث فيها .. ونموذج منها هذا الدرس عن القضاء والقدر ، وأنه هو الذي يقرر مصاير الناس ، وليست الأسباب الظاهرة من قتال أو بعدٍ عن القتال .. ويكون المقصود من هذه الدروس العملية والتربوية هو تحويل العقيدة إلى « أعمال » .. أعمال واقعية في حياة الناس .

ولا شك أن تحويل العقيدة إلى « أعمال » كان ظاهرة بارزة في السور المكية من قبل .. ولكنها ـ بحكم ظروف التربية الأولى لجماعة مؤمنة في مجتمع جاهلي ـ كانت بعد أعمالاً « أخلاقية » ذات صبغة « فردية » غالبة ، وهي اليوم ذات صبغة « جماعية » غالبة من جهة ، ومن جهة أخرى فإن المعنى « الأخلاقي » قد نما فيها نمواً ظاهراً ، فصار أخلاقيات سياسية ، وأخلاقيات اجتماعية ، وأخلاقيات اقتصادية ، وأخلاقيات قتالية .. وهكذا .

وذلك أمر طبيعي مع نمو الجماعة وبدء تمكينها في الأرض ، وبدء ممارستها للحياة الواقعية في ظل الإيمان .. ولكنه كذلك دروس تربوية نافعة في حياة كل إنسان !

* * *

« إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا . ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم » .

وتلك حقيقة نفسية عميقة يكشف عنها القرآن في هذه الصورة التقريرية الموحية .

إن الإنسان يتردد في لقاء الموت في سبيل الله حين تكون نفسه كلها أو بعضها غير خالصة لله تماماً في تلك اللحظة .. إما لشيء من الشهوات يشدها إلى الأرض ، أو لخطيئة لم تخلص النفس من آثارها تماماً بالتوبة إلى الله . وعندئذ تكون فرصة الشيطان ، يجذب الإنسان منها بعيداً عن الطاعة الأعلى والأرفع والأعظم من كل الطاعات ، وهي الموت في سبيل الله .. والتعبير القرآني يقول : « إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا » كأنما يريد الإنسان أن يرتفع فيجيء الشيطان فيجذبه إلى أسفل ليزل ويقع بدلاً من أن يستقيم ويرتفع .. وهو يجذبه من الموضع الذي يعلم أنه ـ في تلك اللحظة ـ غير خالص تماماً لله ، لأنه يعلم جيداً أنه لا يستطيع أن يمكّن يده من موضع في النفس خالص لله ! وهذا يلقي أضواء جديدة على النص القرآني الذي مررنا به من قبل : « والذين إذا فعلوا فاحشة

أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ـ ومن يغفر الذنوب إلا الله ـ ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ونعم أجر العاملين » .. فقد قلنا من قبل إنه ـ في سبيل إعداد المؤمنين للمعركة ـ يخلّصهم من كل قيد يعوق انطلاقهم ، ومن بين تلك القيود الإحساس بالذنب .. والآن نرى أن الشيطان يتصدى للنفوس الخاطئة التي لم تخلص بعد من خطيئتها بذكر الله والاستغفار والتوبة ، فيجذبها من نقطة ضعفها هذه ، فتتولى حين يلتقي الجمعان . فكان فتح باب الاستغفار والتوبة إذن لتقوية النفوس إزاء تصدي الشيطان لها في كربات القتال ، حتى لا يجد الموضع الذي يمكّن يده منه فيستزل الإنسان ويقعده عن الصعود والارتفاع ..

« ... ولقد عفا الله عنهم . إن الله غفور حليم » .

عفا عنهم ـ سبحانه ـ لأنه يعلم أنها زلة عابرة بينما القلوب عامرة .. والصفح ذاته لون من ألوان التربية يُخجل النفس الكريمة من أن تعود إلى ما يستوجب العتاب !

* * *

ثم يعود السياق إلى القضية التي تحدث عنها من قبل بشأن الطائفة الذين أهمتهم أنفسهم فراحوا يفكرون فيما حدث في المعركة من خسائر ، فقالوا : « لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا » والذين وصف موقفهم هناك بأنهم « يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية » والذين رد عليهم مرتين في ذات الآية : « قل : إن الأمر كله لله » .. « قل : لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم » ..

يعود السياق إلى القضية ليحذر المؤمنين من أن ينزلقوا في مثل هذا التفكير فينتهوا إلى حيث ينتهي الكفار :

« يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزًّى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ، ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم . والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير . ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون . ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون » .

وعودة السياق إلى القضية مرة أخرى يوحي ولا شك بالأهمية القصوى التي لهذه القضية في حياة الأمة المكلفة بإعلاء كلمة الله في الأرض ، وإقامة المظلة الربانية التي يستظل بها الناس ، فيفيئون في ظلها إلى الحق والعدل الربانيين .

إن إقامة ذلك كله لا تجيء بغير جهاد ولا قتال .. وإنما لا بد ـ ما دام هناك في الأرض من يكره الحق والعدل الربانيين ، ويكره أن تكون كلمة الله هي العليا ، ويكره أن يرد الحكم لصاحبه سبحانه وتعالى ويصر على اغتصابه ليتجبر في الأرض بهواه ـ

لا بد ما دام ذلك كله قائماً في الأرض ، من أن يقع الجهاد والقتال ، وأن يموت في سبيل الله أناس فيصبحوا شهداء لله ..

وما لم تنطلق النفس ـ في هذه القضية ـ من كل إسار يحجزها أو هاجس سوء يقعدها ، فلن يوجد الجند الذين يكونون « جند الله » في الأرض ، والذين يأخذون على عاتقهم أن يكونوا ستاراً لقدر الله في الأرض ..

وإن الله لن يعجزه أن يعلي كلمته في الأرض بغير أولئك الجنود .. فهو يقول للشيء « كن فيكون » .. ولكن هكذا اقتضت حكمته ـ سبحانه ـ أن تكون الأمور في الأرض سارية من خلال تصرفات البشر وفي الوجهة التي يوجهون جهودهم إليها ، فإذا وجهوها نحو الخير يكون الخير في الأرض ، وإن وجهوها نحو الشر فإنه كذلك يكون : « ظهر الفساد في البر والبحر **بما كسبت أيدي الناس** ... » [1] وذلك « ليبلوكم أيكم أحسن عملاً » [2] وكذلك : « وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً » [3] .

وما دام الجهاد والقتال والتعرض للموت في سبيل الله هو الأداة التي لا غناء عنها لإقامة الحق والعدل الرباني في الأرض ، فلا بد إذن أن تَخْلُصَ هذه القضية تماماً في نفوس المؤمنين ، حتى لا يحجزهم حاجز عن القتال في سبيل الله .

وفي سبيل تخليص نفوس المؤمنين مما قد يلم بها في هذا الشأن يأتي عرض القضية مكرراً في السورة من زوايا و « لقطات » مختلفة .

يأتي مرة في قوله تعالى : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » .. إلى أن يقول : « وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم **شهداء** .. »

ومرة في قوله تعالى : « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله .. » إلى قوله : « وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا... »

ومرة في الرد على الذين أهمتهم أنفسهم : « قل : لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم .. »

وهذه المرة التي يحذر فيها المؤمنين أن يقعوا فيما يقع فيه الكفار ..

ثم مرة ثانية بعد ذلك وهو يتحدث عن المنافقين : « الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا : لو أطاعونا ما قتلوا ! قل : فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين » .

ومرة وهو يتحدث عن الشهداء : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون .. »

---

(١) سورة الروم [٤١] .

(٢) سورة الملك [٢] .

(٣) سورة الأنفال [١٧] .

ومرة حيث يقول : « لتبلون في أموالكم وأنفسكم .. »

ومرة حيث يقول : « فاستجاب لهم ربهم : أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو انثى ، بعضكم من بعض . فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم ، وأوذوا في سبيلي ، وقاتلوا وقتلوا ، لأكفرن عنهم سيئاتهم .. » .

وفي كل مرة يتناول القضية من زاوية جديدة ليؤكد المعنى ذاته ، وليربط على قلوب المؤمنين ..

* * *

« يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا ... »

ومجرد التهديد بأن يكونوا كالذين كفروا كفيل بأن يفعل فعله في نفوس المؤمنين . فليس شيء أكره إلى قلوبهم من أن يكونوا كالذين كفروا في أي شأن من شئونهم .. ومن هنا يهزهم هذا التهديد أو التحذير هزاً عميقاً فينفرهم من أن يقعوا فيه .

« يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزًى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ، ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم .. »

إن الذين كفروا إذا ضرب إخوانهم في الأرض أو خرجوا للقتال ثم أصابهم الموت يتصورون أن خروجهم ذلك هو الذي قتلهم ، وأنهم لو كانوا باقين في ديارهم وبين أهلهم ما ماتوا وما قتلوا ! ذلك أنهم ينظرون إلى الأسباب الظاهرة فيحسبونها هي التي تفعل ، فيتصورون أنهم يستطيعون أن يتحاشوها بعدم التعرض لها ! وينسون المحرك الحقيقي للأحداث وهو قدر الله ، لأن بصيرتهم المطموسة لا ترى إلا ما يدركه العقل أو ما تدركه الحواس [وهو ذات الشيء الذي تقع فيه الجاهلية المعاصرة !] فيرون – بذلك المنطق المطموس – أنه ما دام الذهاب إلى القتال هو الذي أدى إلى القتل ، فعدم الذهاب إلى القتال إذن هو السبيل إلى النجاة من القتل !

ذلك ظن الذين كفروا .. !

أما الحقيقة الكامنة وراء ذلك – وهي التي يراها المؤمن وحده لأن بصيرته انفتحت على الحقيقة بنور الله – فهي أن الله قد قدّر لفلان من الناس أن يقتل ، فخرج إلى حيث يقتل ! ولو كان في بيته لبرز إلى مضجعه كما ذكرت الآية من قبل ..

ليس الذهاب إلى القتال إذن هو الذي يقتل ! إنما هو الأداة التي قدرها الله ليتم بها القتل المقدر من قبل في الزمان والمكان المحددين في علم الله وتقديره ..

وهو ليس الأداة الوحيدة ولا الحتمية ! وإنما هو أصبح كذلك بالنسبة لفلان من الناس لأن قدر الله قد اقتضى ذلك .. وإلا فإن الله قادر على تنفيذ قدره بأية صورة . وذلك هو معنى : « قل : لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ! »

ولكن الذين كفروا ، إذ لا يرون هذه الحقيقة لانطماس بصائرهم ، تمتلئ قلوبهم

حسرة على ما ضاع منهم لظنهم أنه كان يمكن التصرف في الأمر على صورة أخرى !
« لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ! »

والتعبير القرآني يقول : « .. **ليجعل** الله ذلك حسرة في قلوبهم » واللام ـ كما يقول النحاة ـ لام التعليل .. كأنما ذلك هدف مقصود : أن تمتلئ قلوبهم حسرة على ما يضيع منهم . فهو لا يقول : إنهم لانطماس بصيرتهم تمتلئ قلوبهم حسرة ، بل يقول إنهم يقولون قولتهم هذه : « لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا » ليجعلها الله حسرة في قلوبهم ! فهي إذن عقوبة ربانية مقصودة لأولئك الذين يرفضون الهدى الرباني .. تمتلئ قلوبهم حسرة في الدنيا على ما يضيع منهم ، ولهم في الآخرة عذاب أليم .

« .. والله يحيي ويميت » .

تلك هي الحقيقة الكبرى وراء الأسباب الظاهرة التي يتعلق بها الناس يحسبونها هي التي تفعل ، فيذهبون معها ويجيئون ، يحاولون محاورتها ومداورتها ليكسبوا أكبر كسب من ورائها ويخسروا أقل خسران ! فتضيع حياتهم كلها في هذه المحاولة العابثة ، وتضيع الحياة الأخرى كذلك نتيجة الضلال !

وهنا يخطر على القلب خاطر قد يحتاج إلى بيان ..

أو ليس المؤمنون مكلفين أن يأخذوا بالأسباب ؟

أو ليسوا محاسبين ـ في الدنيا والآخرة ـ إن قعدوا عن الأخذ بها ؟

أو ليسوا يؤمرون بالخروج للقتال كسبب من أسباب النصر لا يتم النصر إلا به ، وأن يعدوا لعدو الله وعدوهم ما استطاعوا من قوة ، كسبب من أسباب النصر لا يتم النصر إلا به ؟!

بلى .. ولكن المؤمن يأخذ بالأسباب دون أن يتعلق قلبه بالأسباب !

وقد تبدو المسألة صعبة التصور أو صعبة التحقيق في داخل النفس !

ولكنها في القلب المؤمن ، الذي يمارس الإيمان على هدى وبصيرة ، مسألة سهلة لا تعقيد فيها ولا تعارض ولا اضطراب !

إنه يأخذ بأسباب معينة **لأن الله أمره بها** ، ولأن الله أخبره أو ألهمه أن النتائج ـ في عالم البشر ـ تتم عن طريق اتخاذ هذه الأسباب .. ولكنه يؤمن ـ في الوقت ذاته ـ أن النتائج لا تتم تلقائياً **وبصورة حتمية** نتيجة اتخاذ تلك الأسباب ، وإنما لأن الله هو الذي يرتبها على تلك الأسباب ، ولو شاء لرتبها على أسباب أخرى من عنده ! ولو شاء كذلك لرتب على ذات الأسباب نتائج أخرى غير التي عرفها الناس وتوقعوها ! وأنه إذا كانت رحمة الله قد اقتضت تثبيت السنن الكونية ليستطيع الناس أن يتعاملوا معها ، ويرتبوا حياتهم عليها ، تأدية لدور الخلافة المطلوب في الأرض ، وإعانة من الله على تأدية ذلك الدور .. فليس معنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى مقيد بتلك السنن **بصورة حتمية** ! ولا

أن هذه هي السنن **الوحيدة** التي يدبر الله بها شئون الكون . وإنما مشيئته طليقة وإرادته حرة يفعل كيف يشاء . . .

ومن هنا يتوازن في قلب المؤمن وفي حياته الواقعة أخذه بالأسباب وتعلق قلبه بالله لا بتلك الأسباب ! فيعمل في عالم الواقع كأشد ما يعمل من يسمونهم « أهل الدنيا » من ناحية الأخذ بالأسباب ، ومع ذلك يظل قلبه دائماً معلقاً بالله وحده ، ينتظر منه وحده الخير . ويتقبل قدره إن جاء على غير ما ينتظر وما يحب .. ولا يمتلئ قلبه بالحسرات ! ولا يفتن في حالتيه : لا يفتن بالأسباب إن نجح سعيه في الحياة الدنيا فيتعبدها من دون الله . ولا يفتن في حالة الفشل فييأس من رحمة الله !

« .. والله بما تعملون بصير »

يعلم حقيقة الدوافع في قلوبكم ، وحقيقة الأعمال ، فيحاسبكم بمقتضى علمه سبحانه بهذه الحقيقة .

« ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون . ولئن متّم أو قتلتم لإلى الله تحشرون » .

إن الناس ينفرون من أن يقتلوا في سبيل الله ، ويفضلون ــ إذا لم يكن من الموت بدّ ــ أن يموتوا ولا يقتلوا ! وكأنهم يتوهمون في دخيلة أنفسهم أنهم إن فروا من القتل فستطول أعمارهم ولا يموتون الآن ! ولا يدور في خلدهم أنهم إن عاشوا فعلاً فترة من الوقت بعد فرارهم من القتال فلأن الكتاب المؤجل لم يحن موعده بعد ، لا لأنهم فروا من القتال ! وأنه لو كان الموعد قد حان فسيان أن يكونوا هنا أو هناك أو في أي مكان !

والقرآن يعرض القضية للمؤمنين من زاوية أخرى مختلفة تماماً .. إن الكسب الحقيقي ليس عدد الأيام التي تعاش على الأرض مهما طالت .. إنما هو المغفرة من الله والرحمة .. ذلك « خير مما يجمعون » في أيامهم التي يعيشونها على الأرض ، طالت أو قصرت .. فإذا استقر في قلب المؤمن أن هذا هو الكسب الحقيقي لم يعد همه أن تطول أيامه على الأرض ، ولا أن يسعى في إطالتها بتجنب ما يُتَوَهم أنه يتسبب في قصرها ، من جهاد في سبيل الله وقتال ! .. بل أصبح همه أن يسعى إلى المغفرة والرحمة حيث كانت .. فإذا وجد أن الجهاد والقتال في سبيل الله هو أوسع أبواب المغفرة والرحمة صار سعيه متجهاً إلى هناك ..

ثم يعرض القرآن القضية من زاوية ثانية متممة لتلك .. فما الفرق في النهاية بين الموت والقتل ؟ هل يذهب الموتى أو المقتولون إلى أحد غير الله سبحانه وتعالى في نهاية المطاف ؟ أو ليس الحشر إليه وحده سبحانه ، يستوي في ذلك من مات تلك الموتة التي يحرص عليها أكثر الناس ، ومن مات قتيلاً في سبيل الله ؟! فإذا كان الحشر واحداً ، وكله

إلى الله .. فهل هناك فرق حقيقي بين هذه الموتة وتلك .. إلا المغفرة من الله والرحمة والرضوان ؟!

من هذه الزوايا المختلفة يعرض الأمر على المؤمنين ، لتستقر القضية في نفوسهم تماماً ، ولتَخْلُص نفوسهم في هذا الأمر لله كما تخلص في جميع الأمور ..

ومن ثم يوجه الحديث للرسول صلى الله عليه وسلم ـ وقد فعل الدرس فعله في نفوس المؤمنين ـ أن يعفو عنهم ويستغفر لهم ويشاورهم في الأمر :

« فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضوا من حولك . فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم في الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله . إن الله يحب المتوكلين » .

وفي هذه الآية الواحدة مجموعة كاملة من الدروس ..

فهو إذ يوجه الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعفو عن المؤمنين يذكره ابتداء برحمة الله التي جعلته صلى الله عليه وسلم ليناً عطوفاً رفيقاً : « **فبما رحمة من الله** لنت لهم » وأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يكن فظاً غليظاً .. ولو كان كذلك لانفضوا من حوله .

هذا هو الدرس الأول .. أن هذا اللين والرفق والسماحة وسعة الصدر في طباع الرسول صلى الله عليه وسلم إنما كانت برحمة من الله .. إنها جانب من جوانب تهيئة هذه النفس العظيمة للرسالة العظيمة والأمانة الكبرى ..

والدرس لنا نحن .. فمن كان في طباعه شيء من اللين والرفق والسماحة وسعة الصدر فلا يغترّ بنفسه ، ولا يحسبن أنه من عند نفسه حصل على هذه الطباع .. إنما هي برحمة الله .. والفضل كله راجع إلى الله .. والشكر على هذه الموهبة واجب لله .. ومن كان في طبعه جفوة وغلظة فليدع الله أن يرحمه بنزعها منه .. وإن الله لمستجيب إن صدقت النية وصدق التوجه إلى الله ..

والدرس الثاني يجئ في هذه العبارة : « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » ..

إنه درس لنا جميعاً ، وللدعاة إلى الله بصفة خاصة ..

فالقرآن يحدث الرسول صلى الله عليه وسلم أنه لو كان فظاً غليظ القلب لانفض الناس من حوله .. هذا وهو يبلغهم رسالة الله .. وينقل إليهم وحياً ليس من عند نفسه ولكنه من عند الله !

إنه لا يكفي إذن أن تكون « المادة » التي نقدمها للناس هي في ذاتها طيبة وقيمة وضرورية ونافعة ! إنما ينبغى أن نقدمها كذلك بطريقة لا تنفر الناس ولا تصرفهم عما فيها من حق وجمال وقيمة ومنفعة !

وليس معنى ذلك أبداً أن نتملق الناس ! فالملق رياء وكذب ورذيلة .. والدعوة التي

تتغلف به دعوة فاشلة في النهاية .

وليس معناه كذلك أن نداري عن الناس نقائصهم وعيوبهم لكي لا يغضبوا منا حين ننبههم إليها . فإننا لا نعالجهم بذلك وإنما نغريهم بالاستمرار فيما هم فيه من انحراف !

وليس معناه كذلك أن نخفي عن الناس تكاليف الدين وتكاليف الدعوة ولا نبرز لهم إلا الجوانب الهينة السهلة ، أو الجوانب التي نحسب أنها يمكن أن تصادف هوىً في نفوسهم حين نعرضها عليهم عرضاً جذاباً يبين حقيقتها ! فإننا بذلك نكون قد كتمنا جانباً مما أنزل الله ، والله يقول للرسول صلى الله عليه وسلم : « يا أيها الرسول بلِّغ ما أنزل إليك من ربك **وإن لم تفعل فما بلغت رسالته** »[1] فكتمان جزء ولو ضيئل مما أنزل الله يمحو التبليغ كله ويلغيه !

كلا ! ليس معنى ذلك شيئاً من هذا كله .. إنما معناه فقط أننا ونحن ننبه الناس إلى ما فيهم من نقص وانحراف ، وحين نعرض عليهم الحق كاملاً بلا مداراة ولا تخفيف ـ من عندنا ـ ولا حذف ، نصنع ذلك كله بروح المودة والحب ، وبالطريقة التي تتألف قلوبهم لا الطريقة التي تجعلهم يقولون : إنه حتى لو كان هذا هو الحق فلا نريده من وجه فلان !!

وبعض الدعاة ـ بدافع الحماسة لهذا الدين والإخلاص له ـ يقعون في هذا الخطأ إذ يظنون أنه لا بد من الشدة مع الناس والعنف ، ولا بد من رجمهم بالحصى في وجوههم لكي يفيقوا ويتنبهوا من غفلتهم ! وأنه بغير ذلك فلا فائدة ترجى ! ولو كان هذا أسلوباً ناجحاً في الدعوة لكان أولى الناس به هو المصطفى عليه الصلاة والسلام .. ولكن ها هو ذا المصطفى عليه الصلاة والسلام يقال له : « ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضوا من حولك » !

والدرس الثالث في قوله تعالى : « فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، **وشاورهم في الأمر** .. »

فأما أن يُطْلَبَ من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعفو عنهم ، على الرغم مما أصابه بسبب معصيتهم له من جراح وآلام وما أنزلوه بنفسه الكريمة من غم .. فأمر قد لا نستغربه في جانب الرسول صلى الله عليه وسلم . وهو النفس العظيمة ، أعظم نفس في تاريخ البشرية كله .. وهذا العفو ـ على عُسْره ـ قمة من القمم النفسية البشرية .. ومن أولى بها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

وأما أن يطلب منه أن يستغفر لهم بعد كل ما فعلوه فقمة أخرى ، أعسر في المرتقى .. ولكنها ليست عسيرة على تلك النفس السامقة الشامخة التي تتمثل فيها الأسوة والقدوة

---

(١) سورة المائدة [٦٧] .

لكل البشر في كل التاريخ منذ مبعثه صلى الله عليه وسلم إلى أن تقوم الساعة ..

وأما أن يطلب منه أن **يشاورهم في الأمر** .. فهذه مسألة أخرى لا تتصل بشخص الرسول صلى الله عليه وسلم ونفسه الرفيعة .. إنها مسألة من صلب **هذا الدين** ، غير متعلقة بشخص من الأشخاص .

فلو جاء هذا الأمر بالمشاورة في ساعة رخاء ونصر أو في ساعة طاعة من المؤمنين وتلبية للأمر . فربما حسبنا أنها « مكافأة » للمؤمنين على انتصارهم وطاعتهم واستقامتهم .. أما أن يجيء الأمر في ساعة الشدة والهزيمة ، وفي ساعة المعصية وما ترتب عليها .. بل يجيء على أثر مشاورة كانت الأغلبية التي أشارت فيها غير موفقة في مشورتها ، إذ أشارت بالخروج من المدينة لملاقاة العدو ، بينما كانت الأقلية التي لم يؤخذ برأيها هي الأصوب نظراً والأكثر خبرة ، وهي التي أشارت بالبقاء في داخل المدينة حتى يهاجمها العدو ، فذلك أدعى للنصر عليه .

أن يجيء الأمر بعد ذلك كله للرسول صلى الله عليه وسلم أن يشاورهم في الأمر فهو ذو دلالة واضحة على أن الشورى أصل من الأصول العميقة جداً في بنية هذا الدين[1] !

وذلك درس لنا ونحن نبني أمتنا !

ما أكثر ما يحتج طغاة في الأرض بأن أمتهم لا تصلح للشورى في موقفها الراهن ، ولذلك فلا ينبغي أن تعطى حرية إبداء الرأي ، وأنه ينبغي أن تنضج الأمة أولاً ــ على أيديهم ــ أي بالسياط والحديد والنار ــ لكي تصبح مؤهلة بعد ذلك للشورى !

وما أكثر ما يحتج طغاة في الأرض بأن شعوبهم تخوض صراعاً مع العدو . وأنه لا يمكن إعطاء حق الشورى والمعركة دائرة ، لأن ذلك يضيع النصر ! وأنه لا بد من الخضوع لإرادة الزعيم في تلك الفترة الحرجة ــ وإن أخطأ ! ــ لأن ذلك أدعى لتكتيل الجهود وتوحيد الصف وتوحيد الكلمة ! !

والله يقول غير ذلك ..

يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم ــ وهو المؤيد بالوحي ، وهو أولى الناس على الإطلاق بألا يستشير أحداً من الناس ! ــ يقول له والمعركة دائرة ، والصراع مع العدو على أشده . صراع حياة أو موت ، بل يقول له على أثر معصية أمته لأوامره ، وتسبب هذه المعصية في الهزيمة بعد النصر ، وفي الخسائر المؤلمة لنفوس المؤمنين ونفس الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل يقول له على أثر مشورة غير موفقة مهدت في الحقيقة لجانب

---

(١) الشورى ــ بطبيعة الحال ــ تكون فيما لم يرد فيه نص .

من جوانب الهزيمة حين وقعت المعصية .. يقول له في هذه الظروف كلها التي لا يمكن أن يحتج أحد بأسوأ منها : « .. وشاورهم في الأمر » !

والدرس الرابع أو الرابع والخامس معاً في قوله تعالى : « فإذا عزمت فتوكل على الله . إن الله يحب المتوكلين » .

إن المشاورة واجبة وضرورية في مرحلة معينة من الإعداد .. فإذا تمت فهنا تجيء مرحلة العزيمة . ولا يجوز ـ بعد أن تتخذ العزيمة ـ أن يعود القائد إلى المشاورة ! وإلا لانت عزائم الجند وانفرطت مشاعرهم فلم يعودوا يحسنون التوجه للأمر بالعزيمة والإصرار الضروريين لإنجاز أي أمر من الأمور سواء كان هو المعركة أو غيرها من شئون الحياة ..

والعزيمة ليست موقفاً « نفسياً » خالصاً وإن كان منبعها ولا شك في داخل النفس .. وإنما هي كذلك إعداد .. واتخاذ للأسباب .. وإلا فما قيمة العزيمة التي لا تعد لها العدة ولا تتخذ لها الأسباب ؟ كيف تَنْفُذ ؟ !

فإنما يوحي تعبير « فإذا عزمت » بعدة معانٍ معاً : فإذا عقدت النية .. وأعددت العدة .. واتخذت الاسباب .. فتوكل على الله ..

وهنا يأتي الدرس الأخير ..

إن العزيمة وإعداد العدة واتخاذ الأسباب كلها ضرورية وواجبة للنصر ، ولإنجاز كل شأن من شئون الحياة ، ولكن حيث ينتهي هنا عمل الناس في الجاهلية ، فإن الأمر لا ينتهي في نفس المؤمن عند هذه النقطة ، إنما يتوجه قلب المؤمن ـ **بعد هذا الإعداد كله** ـ إلى الله ، راجياً منه أن يُنْجِحَ مسعاه ، وموقناً أن الله هو الذي ينجح المسعى وليست هي الأسباب !

وهذا هو التوكل الحق على الله ، **مع اتخاذ الأسباب** .. وليس هو التواكل بغير اتخاذ الأسباب !

وتعميقاً لمعنى التوكل تأتي الآية التالية :

« إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده ؟ وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

إن النصر من عند الله كما قال من قبل في السورة : « وما النصر إلا من عند الله » . واتخاذ الأسباب للنصر ضرورة واجبة . ولكن النصر ذاته هو من عند الله . هو الذي يقدره ، وهو الذي يرتبه على الأسباب . ومن ثم فإن المؤمن حين يفرغ من اتخاذ الأسباب يودع الأمر كله ، بما في ذلك أسبابه التي اتخذها ، في يد الله ، وينتظر منه وحده سبحانه أن يأتي بالنصر من عنده . فإن كان النصر مقدراً فلا غالب لمن قدر الله له النصر . وإن يكن الخذلان هو المقدر فمن ذا الذي يملك أن يأتي بالنصر ؟ !

والآية ـ هنا ـ لا تتحدث عن الأسباب ومكانها من النصر أو الخذلان ـ وإن كان القرآن في غير هذا الموضع يتحدث عن وجوب النفرة ووجوب إعداد القوة ـ لأن المجال هنا هو مجال تحرير القلب المؤمن من **الاعتماد** على الأسباب الظاهرة أو الظن بأنها هي الفاعلة في الأمر .. وتخليص ذلك القلب من التطلع لشيء أو لأحد غير الله سبحانه . لذلك يذكر السياق تلك الحقيقة الربانية العليا ، وهي أن النصر من عند الله وحده ، ومرتبط بقدره وحده دون سواه .. فينبغي إذن أن يتوكل عليه المؤمنون لأنه هو وحده سبحانه الذي يقرر الأمر ..

ولكن ذكر التوكل وتكراره والتوكيد عليه ليس معناه الدعوة إلى التواكل وعدم الأخذ بالأسباب فقد سبق قوله تعالى : « فإذا عزمت .. » والعزيمة كما قلنا تتضمن تهيئة الأسباب .

* * *

ثم يتحدث عن جانب آخر من جوانب المعركة هو جانب الغنائم وما ينبغي تجاهها من إظهارها وعدم إخفاء شيء منها صغر أو كبر :

« وما كان لنبي أن يغل ، ومن يغلل يأت بما غلّ يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون . أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ؟ هم درجات عند الله ، والله بصير بما يعملون » .

ومناسبة ذكر النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث عن الغلول أن قوماً من المنافقين زعموا أن غنائم بدر قد اختفى بعضها ، وذكروا الرسول صلى الله عليه وسلم فيمن غل الغنائم !! فهنا يقرر استحالة حدوث ذلك من أصله ! « وما كان لنبي أن يغل » أي أن ذلك لا يتأتى أصلاً ولا يمكن أن يحدث !

ثم ـ بهذه المناسبة ـ يذكر حكم من يغل شيئاً هو من حق الله أو حق الجماعة المسلمة : « ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة » فهو يلازمه في يوم الحساب شاهداً عليه .. « ثم توفى كل نفس ما كسبت » فتأخذ حسابها الذي تستحقه بالحق « وهم لا يظلمون » .

ويرغّب في اتباع رضوان الله ، والاستعلاء على ذلك الهاتف الهابط الذي يدعو النفس إلى الغلول :

« أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » .

كلا ! إنهم لا يستوون أبدا !

« هم درجات عند الله . والله بصير بما يعملون » .

ويختم هذه الفقرة التي بدأت بتوجيه الحديث إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أن

يعفو عن المؤمنين ويستغفر لهم ويشاورهم في الأمر ، والتي تحدثت عن الغلول فنفت عن الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتأتى منه الغلول أصلاً ، وهو المربي الهادي الذي يعلم المؤمنين الأمانة ويرفع نفوسهم عن الدنايا ، ويزكيها أن تهبط إلى مستوى الجاهلية التي خرجت منها ..

يختم هذه الفقرة بتقرير تلك الحقيقة الهائلة :

« لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » .

وأي منة على المؤمنين – وعلى البشرية كلها – أعظم من هذه المنة الربانية ببعث الرسول صلى الله عليه وسلم هادياً ومبشراً ونذيرا .. ومعلماً ومربياً يأخذ بيد البشرية إلى آفاقها العليا ، معطياً من نفسه القدوة ، ومعطياً من نفسه الرحمة والحب والصبر على الأذى وسعة الصدر ؟ !

إنها لمنة على البشرية كلها ، ولكنها على المؤمنين أعظم ، فالرسول صلى الله عليه وسلم « من أنفسهم » .. وإنه لشرف لهم أي شرف أن تكون منهم تلك الشخصية العظيمة ، أعظم شخصية في تاريخ البشرية كله ..

ويفصل المنة تفصيلا : « بعث فيهم رسولاً من أنفسهم » « يتلو عليهم آياته » « ويزكيهم » « ويعلمهم الكتات والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » ..

إنها المنة العظمى .. منة الإيمان والهدى بعد الشرك والضلال . منة العلم الحق بعد الجاهلية . منة التزكية بعد فساد المشاعر ودنس النفوس .. المنة التي تؤهل للفلاح في الدنيا والآخرة .. وتؤدي إلى رِضوان الله ..

* * *

ثم ينتقل إلى زاوية جديدة من زوايا الرؤية في قضية المعركة التي تناولها من قبل من زوايا مختلفة .. ليزيد القضية وضوحاً في نفوس المؤمنين ، ويزيدهم بصراً بالأحداث التي يقابلونها في طريقهم ، ليسيروا في الطريق على بصيرة ، وليعلموا ما خفى عليهم من حكمة الأحداث :

« أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا ؟ ! قل : هو من عند أنفسكم . إن الله على كل شيء قدير . وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله ، وليعلم المؤمنين ، وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا ، قالوا : لو نعلم قتالاً لاتبعناكم ! هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان ، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون . الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا : لو أطاعونا ما قتلوا ! قل : فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ! »

وأول ما يلفتنا هو الصلة الوثيقة بين هذه الآيات والآية السابقة عليها في السياق : « .. ويعلمهم الكتاب **والحكمة** وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » .. إن هذه الآيات كلها تعليم « للحكمة » . وعلى ذلك نرى أنه على الرغم من أن هذه زاوية جديدة في عرض القضية إلا أنها تتصل اتصالاً مباشراً بما قبلها في السياق ..

لقد ذهل المسلمون للهزيمة فقالوا : « أنى هذا » ! كيف حدث ـ ونحن المسلمون المجاهدون في سبيل الله ـ أن نهزم وينتصر الكفار ، وهم على الباطل ، معاندون لدين الله ، كارهون للهدى ، مصرون على الضلال ؟ !

وكأنما كان النصر الباهر المعجز في بدر قد أدخل في رُوعهم أنهم سينتصرون أبداً في كل معركة يخوضونها مع الكفار ، لمجرد أنهم هم المسلمون والكفار هم الكفار ! مهما خالفوا أو انحرفوا أو عصوا أو تقاعسوا .. ما داموا هم المسلمين ! ! فلما هزموا صدمتهم الهزيمة صدمة بالغة وهزتهم حتى قالوا : أنى هذا ؟ ! فيرد عليهم السياق مباشرة : « قل : هو من عند أنفسكم ! »

إنه لا يكفي أن يكون المسلمون هم المسلمين والكفار هم الكفار ! ليس هذا ـ بمفرده ـ هو الذي يقرر مصير المعركة ! إنما هو عنصر مؤهل للنصر **إذا** استوفى المسلمون المؤهلات الأخرى اللازمة للنصر .. ومن بينها اتخاذ الأسباب ، وعدم معصية الله ورسوله .. فأما إذا خالف المسلمون هذه الشروط فلن يقيهم كونهم مسلمين من النتائج الحتمية لأعمالهم . لأن هذه النتائج تسير وفق سنن ربانية ثابتة لا تتغير من أجل أحد من الخلق ، ولا تحابي أحداً من الخلق .. ولو كان من المسلمين !

وإنما نسي المسلمون هذه الحقيقة أو لم يجعلوا بالهم إليها ، وظنوا أن مجرد كونهم مسلمين هو الذي يؤهلهم للنصر . لأن النصر الحاسم الباهر في بدر يكاد أن يكون قد تم بغير أدوات ! فقد كان المسلمون ثلث عدد الكفار ، وكانت خيلهم وعدتهم لا تقاس شيئاً إلى جانب خيل الكفار وعدتهم .. ومن هنا ظن المسلمون حين انتصروا مع هذه الفوارق الشاسعة في العدد والعدة أن النصر يجيء فقط من كونهم مسلمين ! ومن كون عدوهم هو الكفار !

ولم تكن تلك بطبيعة الحال هي الحقيقة ! إنما كانت عنصراً واحداً مؤهلاً للنصر **إذا** وجدت الأسباب الأخرى .. وقد وجدت تلك الأسباب بالفعل . وجد منها التوكل الكامل على الله . ووجد منها الطاعة الكاملة لله ورسوله . ووجد منها اتخاذ الأسباب المادية المتاحة بين يدي المسلمين يومئذ واستخدامها إلى أقصى طاقتها .. وعندئذ انتصر المسلمون رغم قلة عددهم وعدتهم . لا استثناء من سنة الله . بل تحقيقاً لسنة الله ! « قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله : **كم** من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله . والله

مع الصابرين » [1] فهي إذن سنة ربانية إلا تكن دائمة الوقوع في كل حالة فهي على الأقل كثيرة الحدوث ، كما يفهم من تعبير « كم من .. » وهو للتكثير .

وحقيقة إن عنصراً خارقاً قد تدخل في معركة بدر ، وهو قتال الملائكة مع المؤمنين . ولكن هذا لم يكن إلا على سبيل البشرى والتطمين كما جاء في هذه السورة : « وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به ، **وما النصر إلا من عند الله** العزيز الحكيم » [2] . ثم إن تنزل الملائكة على المؤمنين ليس حادثاً واحداً فريداً في تاريخهم لا يتكرر ، فقد جاء في معركة الخندق قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً **وجنوداً** لم **تروها** وكان الله بما تعملون بصيرا » [3] وقال عن صلح الحديبية في سورة الفتح : « هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ، **ولله جنود السماوات والأرض** ، وكان الله عليماً حكيما » [4] كما أن المؤمنين عرضة لتنزل الملائكة عليهم **دائماً** إذا وصلت نفوسهم إلى الشفافية التي يستقبلون فيها الملائكة : « إن الذين قالوا ربنا الله **ثم استقاموا** تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون . **نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة** . ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ، ولكم فيها ما تدعون ، نزلاً من غفور رحيم » [5] .

لم يكن إذن مجرد كون المسلمين مسلمين هو الذي جعلهم يتصورون ذلك النصر الباهر الحاسم في بدر كما دخل في رُوعهم ، فجعلهم يذهلون للهزيمة في أحد ، ويقولون : أنى هذا ؟ ! إنما كان ـ بالإضافة إلى كونهم مسلمين ـ أخذهم بالأسباب والشروط التي تؤهل لنصر الله . فآتاهم الله النصر . فأما حين خالفوا وعصوا فما كان يمكن أن تجاملهم سنة الله أو تحابيهم لمجرد كونهم مسلمين !

« .. قل : هو من عند أنفسكم . إن الله على كل شيء قدير » .

هو بسبب عملكم وتصرفكم في أثناء المعركة . والله على كل شيء قدير ، ومن بين آيات قدرته سبحانه أن يغير النصر الذي كان في أول المعركة إلى هزيمة ، ترتيباً على معصيتكم ومخالفتكم لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم ..

ذلك درس من « الحكمة » التي يعلمها الله للمؤمنين .. ونحن أحوج إلى تعلم هذه

---

(١) سورة البقرة [٢٤٩] .

(٢) سورة آل عمران [١٢٦] .

(٣) سورة الأحزاب [٩] .

(٤) سورة الفتح [٤] .

(٥) سورة فصلت [٣٠ - ٣٢] .

الحكمة والتوكيد عليها . فإننا كثيراً ما نسأل أنفسنا : كيف انهزمنا وتغلب الكفار علينا ؟ أو لسنا نحن المسلمين ؟ ! أو ليسوا هم الكافرين ؟ ! فأنى هذا ؟ !

وحين نتعلم من هذا الدرس أن مجرد كوننا مسلمين وكونهم كافرين لا يؤدي بذاته إلى النصر ، فلعلنا أن نراجع أنفسنا ونتخذ الأسباب !

ثم يمضي تعليم « الحكمة » شوطاً آخر فيبين لهم ما كان وراء قدر الله بالهزيمة ، التي هي في وقت معاً « من عند أنفسكم » و « بإذن الله » !

« وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله ، وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا ... »

فهو إذن قدر مقدور من ورائه حكمة ..

وفي القلب المؤمن المطمئن بالإيمان يلتقي الخيطان بلا تعارض ولا تناقض ولا اختلاف : القدر المقدور من عند الله ، ومسئولية الإنسان عما يقوم به من أعمال .. لا المسئولية تنفي أن ما وقع بالفعل هو قدر من قدر الله . ولا القدر المقدور ينفي مسئولية الإنسان عن أخطائه التي يدخل في نطاق الإمكانيات الممنوحة له أن يتلافاها ..

الهزيمة وقعت نتيجة المخالفة والعصيان .. « من عند أنفسكم » .

والهزيمة قدر قدره الله لحكمة يريدها فهي إذن واقعة بإذن الله ..

والحكمة ـ التي يعلمهم إياها من وراء الهزيمة ـ هي تبيّن المؤمنين ، وتبين المنافقين الذين قيل لهم « تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا : لو نعلم قتالاً لاتبعناكم ! » وما كان للمنافقين أن يتميزوا وتتضح حقيقة موقفهم إلا بشدة كهذه الشدة التي أصابت المؤمنين .. وفي تبين حقيقة موقفهم خير لا شك فيه ، ليحذر المؤمنون ألاعيبهم ومكائدهم ولا يتخذوهم أولياء ..

ويصف صورة المنافقين وحقيقتهم :

« .. هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان . يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم . والله أعلم بما يكتمون » .

إنهم يقولون بأفواههم : لو نعلم قتالاً لاتبعناكم . أما ما في قلوبهم فهو أنهم لا يريدون القتال أصلاً ، ولو تيقنوا من القتال لفروا منه ! فهم يخذّلون إخوانهم عن القتال بالقعود ـ وهو قدوة سيئة في ساعة المعركة ـ وبالأفواه كذلك :

« الذين قالوا لإخوانهم ـ وقعدوا ـ لو أطاعونا ما قتلوا ! »

وهو قولة مخذّلة .. تخذل من في قلبه أدنى قدر من التردد ، فيرجح القعود عنده على الإقدام .. لذلك يرد عليهم في الحال :

« قل : فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين » .

إنها ذات القضية التي عرضها من قبل حين قال من قال : « لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا » فرد عليهم : « قل : لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم

القتل إلى مضاجعهم » وحين حكى قول الكفار : « لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا » وعقب عليها : « ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيي ويميت » .

إنها ذات القضية وإن كانت من مدخل آخر : « قل : فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين » .

إن الموت هو نهاية الأحياء على الأرض .. فهل يستطيعون أن يهربوا من ذلك المصير مهما قعدوا عن القتال ومهما خذّلوا من إخوانهم ؟ !

وما داموا ـ بطبيعة الحال ـ لا يستطيعون ، فإن جهدهم كله الذي يجهدونه في اتقاء القتل جهد ضائع لا ثمرة له في نهاية المطاف !

ثم ينتقل إلى جانب جديد من جوانب القضية .. ذلك هو الحديث عن الشهداء الذين يستشهدون في المعركة ..

إنه ـ حقيقة ـ يُقْتَل ناس في المعركة .. كما يذكر المنافقون .

ولكن .. بصرف النظر عن كونهم قتلوا بقضاء من الله وقدر . لا بسبب الأسباب الظاهرة ، وبصرف النظر عن كونهم كانوا لا بد سيقتلون ما دام قد كتب عليهم القتل ، ولو كانوا في بيوتهم ..

بصرف النظر عن هذا كله .. فهل ماتوا حقيقة حين قتلوا في سبيل الله ؟ !

« ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين » .

يا لها من صورة وضيئة شفيفة رفيعة عالية ..

هل تحس أنهم ماتوا وأنت تنظر في هذه الصورة الوضيئة ؟ !

بل هل تصدق أنهم ماتوا ؟ !

كلا ! إنهم لم يموتوا أبداً ، ولا يموتون أبدا !

أحياء عند ربهم .. وأحياء في الأرض كذلك !

كل الناس يموتون ، فتذهب ذكراهم بعد فترة تطول أو تقصر ، بمجرد أن يذهب الجيل الذي كان يعاصرهم من الناس .. فهل يذهب ذكر الشهداء من الأرض ؟ !

هل ذهب ذكر حمزة ؟ وعمر ؟ وعثمان ؟ وعلي ؟ والحسين ؟ وألوف وألوف غيرهم من الشهداء ؟

هل ذهب ذكر المواقف التي استشهدوا فيها ، والبطولات التي سجلوها ؟ !

أم إنها باقية للأجيال .. لكل الأجيال .. تتملاها كأنما هى حاضرة اللحظة ؟ !

كلا ! لا يموت الشهداء أبدا !

ويذهب الطغاة فيموتون ! ويتحولون ـ على الأكثر ـ إلى أسطر باهتة في كتب التاريخ !

ولكن الشهداء الذين قتلهم أولئك الطغاة لا يذهبون .. لأنهم لا يموتون ! ويظلون ذكرى حية في قلوب الأجيال ، لأنهم أحياء عند ربهم يرزقون ، ولأنهم قدموا ـ في سبيل الله ـ عملاً باقياً لا يموت !

* * *

وتجيء اللمسة الأخيرة في صورة المعركة ...

لقد كانت الدروس الماضية عتاباً شديداً للمؤمنين على تخليهم يوم أحد من بعد ما أراهم ما يحبون .. وكان التوجيه يعنف أحياناً ويلطف أحياناً حين يذكر العفو عن المؤمنين بعد عصيانهم ..

ولكنه هنا في تلك اللمسة الأخيرة يشيد بهم ، بعد أن وعوا ذلك الدرس الهائل كله وصغت له قلوبهم :

« الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح ، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم . الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ! فزادهم إيماناً ! وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم » .

إنها صورة رائعة للمؤمنين !

لقد قاموا من وهدتهم ..

لقد غُسِلَتْ نفوسهم مما أصابها من وعثاء المعصية والتفرق والانفلات .. وعادوا إلى الصورة التي ينبغي أن يكونوا عليها ..

إنها الصورة المقابلة تماماً لصورتهم السابقة : « إذ تصعدون ولا تلوون على أحد ، والرسول يدعوكم في أخراكم .. ! »

إنها صورة الثبات والتجمع والصمود والعزيمة والطاعة والتوكل الكامل على الله ..

استجابوا لله والرسول .. من بعد ما أصابهم القرح .. فقد كان من لمسات التربية الملهمة أن قام بهم الرسول صلى الله عليه وسلم يقاتل بهم الكفار على آثار المعركة السابقة وهم ما يزالون بجراحهم مثخنين !

إنها لمحة تربوية هائلة .. فلو استقرت الهزيمة في قلوبهم ، فلربما أورثتهم الرعب من عدوهم ، فلا يعودون يقتحمون عليه بسهولة فيما بعد . أما حين يجمعهم قائدهم الملهم صلى الله عليه وسلم فيسير بهم للقتال فإنهم ينفضون من قلوبهم آثار الخوف ، ويتشجعون على الاقتحام ، فتزول العقبة ، ولا تترك الهزيمة آثارها السيئة في النفوس ..

ولقد خوّفهم الناس ! قالوا لهم : « إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ! » ولكنهم

وقد غسلت نفوسهم من أوضارها ، وعادت فخلصت إلى الله كاملة ، لم يعد لهذا التحذير أثره في نفوسهم .. بل صار أثره زيادة في الإيمان وزيادة في التوكل وزيادة في العزيمة على الاقتحام : « فزادهم إيماناً ، وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » .

ولقد فوجئ الكفار بذلك ففروا !

لم يصدقوا أن فلول الأمس الموزعة المتفرقة المضطربة التي انطلقت لا تلوي على شيء ، يمكن أن تتجمع اليوم لتقاتلهم .. وهي مثخنة بالجراح ! وأرهبتهم هذه العزيمة الفائقة فخشوا إن التحموا بهم أن ينقلب الأمر عليهم فيذهب ما أحرزوه من النصر ، وتنقلب آثاره هزيمة .. فرضوا من الغنيمة بالإياب ! وكان ذلك بقدر من الله ، وبفضل من الله :

« فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء » « واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم » .

إنه التوجيه الحكيم من القائد الملهم صلى الله عليه وسلم ، وإنه الإنعام والفضل من الله ..

ثم هو توجيه تربوي من الله سبحانه وتعالى لا يفوتنا أن نقف وقفة عنده ..

إن الله ـ المربي ـ سبحانه لم يشأ أن تكون آخر صورة للمؤمنين في شريط الأحداث الذي سجله لهم هي صورة الهزيمة وصورة المعصية وصورة الخذلان !

لقد أنعم عليهم ـ في ختام المعركة ـ فلم يمسسهم سوء .. ثم أنعم عليهم في توجيهه التربوي في قرآنه المنزل أن تكون صورتهم الأخيرة هي صورة التجمع بعد الفرقة ، والصمود بعد الخذلان ، والطاعة بعد المعصية ، والإشادة بعد العتاب !

إنه توجيه تربوي لنا .. علينا أن نتبعه ونحن نربي إخوتنا وأبناءنا ..

فليكن العتاب قاسياً حيث ينبغي أن تكون الشدة .. ولكن ختام الدرس ينبغي أن يكون بشرى بالرجوع إلى الطريق .. فذلك أفعل في تقويم النفوس واستحياء القلوب !

* * *

إن الله ذو فضل عظيم على المؤمنين : ثبّتهم ، ومنَّ عليهم ، وأخرجهم من وهدتهم التي سقطوا فيها ، فعادوا إلى الطريق القويم ، أصلب عوداً ، وأقوى عزيمة ، وأشد توكلاً على الله .. أما الشيطان فيريد أن يلعب دوراً مضاداً في حياة البشرية !

« إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافونِ إن كنتم مؤمنين . ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر إنهم لن يضروا الله شيئاً . يريد الله ألا يجعل لهم حظاً في الآخرة ولهم عذاب عظيم . إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئاً ولهم عذاب أليم . ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم . إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين » .

« إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه .. »

إن الشيطان له أولياء وهو يخوّف الناس من أوليائه هؤلاء ليخضعوا لهم ويرهبوهم ، فيتمكن بذلك أولياء الشيطان من نشر الفساد والشر في الأرض ، في ظل رهبة الناس لهم وخشيتهم منهم .. والناس - حين لا يركنون إلى الله ولا يتوكلون عليه التوكل الحق - يصبحون فريسة لأولياء الشيطان ، يخوّفونهم على أمنهم وسلامتهم ، وعلى أموالهم وأولادهم ، وعلى مكانتهم ومصالحهم في الأرض .. فيخافون .

والمؤمنون هم القوة التي تتصدى في الأرض لأولياء الشيطان تنزع السلطان المغتصب من أيديهم لترده إلى الله سبحانه وتعالى بتحكيم شريعته العادلة في الأرض .. فينبغي إذن أن يكونوا غير بقية « الناس » .. ينبغي ألا يقعوا في رهبة أولياء الشيطان ، وإلا أكلهم الشيطان فيمن يأكل ..

« إنما ذلكم الشيطان يخوّف أولياءه ، فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين » ..

إن دورهم في الأرض متوقف على هذه النقطة : ألا يخافوا أولياء الشيطان ، إنما يخافوا الله .. والخوف يستوجب الطاعة . فحين يخافون الله فسيطيعون أوامره ، فيقيمون حكمه في الأرض . إما إن خافوا أولياء الشيطان فسيطيعون أوامرهم فيقيمون حكم الشيطان في الأرض .. لذلك يؤكد عليهم : « فلا تخافوهم وخافون **إن كنتم مؤمنين** » .

ثم يتوجه بالحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يواسيه ويسري عنه في شأن الكفار الذين « يسارعون في الكفر » ويجتهدون فيه ، بدلاً من أن يسارعوا إلى الإيمان ويجتهدوا فيه . يواسيه بأن يقول له إنهم لن يضروا الله شيئا ! وهذا يكشف عن أن الشغل الشاغل للرسول صلى الله عليه وسلم هو أمر هذا الدين ، ورغبته الملحّة صلى الله عليه وسلم أن يؤمن الناس كلهم ويصبحوا مسلمين لله .. فالله سبحانه وتعالى يطمئنه أنهم لن يضروا الله شيئاً بكفرهم ، ولذلك فلا يحتاج الأمر إلى كل هذا الأسى من قلب الرسول صلى الله عليه وسلم . إنما إرادة الله من وراء ذلك أن يحرمهم من حظ الآخرة :

« ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر ، إنهم لن يضروا الله شيئاً . يريد الله ألا يجعل لهم حظاً في الآخرة ولهم عذاب عظيم » .

ويكرر هذا المعنى مرة ثانية في الآية التالية ، زيادة في التسرية عن قلب الرسول صلى الله عليه وسلم :

« إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئاً ، ولهم عذاب أليم » .

ثم يوجه الحديث إلى الكفار لينذرهم .. وإن كان الحديث في الحقيقة يتضمن توجيهاً إلى المؤمنين في نقطة كثيراً ما تثور في نفوسهم وهم يواجهون الباطل المنتفش في معركة ينتصر فيها الباطل على أصحاب الحق المؤمنين !

« ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم » ..

لا يحسبن الذين كفروا أن إملاء الله لهم هو خير لهم ..

وكثيراً ما يغتر أصحاب الباطل بالنصر المؤقت الذي يحرزونه على المؤمنين ، وخاصة في مراحل الدعوة الأولى ، فتحدثهم نفوسهم الخبيثة المطموسة بأنهم خير من المؤمنين ولذلك ينتصرون عليهم ! وأن الباطل الذي هم عليه خير من الحق الرباني ! فهو هنا يكشف لهم ـ وللمؤمنين في ذات الوقت ـ عن أن إملاء الله لهم ، ونصرهم على المؤمنين ، ليس خيراً لهم في حقيقة الأمر :

« .. إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ، ولهم عذاب مهين » ..

تلك هي الحكمة الربانية من هذا الإملاء .. أن يزدادوا إثماً : « ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ، ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ، ألا ساء ما يزرون » [1] .

وفي ذات الوقت تكون فترة تربية وتمحيص للمؤمنين كما مر في سياق السورة من قبل : « وليمحص الله الذين آمنوا » فهي فترة يتم فيها أمران في وقت واحد : يزداد الكافرون كفراً ويزداد المؤمنون إيماناً ، ليتم قدر الله بعد ذلك بمحق الكافرين وقد استحقوه بتمامه ، ونصر المؤمنين وقد استحقوه بتمامه !

ثم هدف آخر يكشف عنه السياق :

« ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ، وما كان الله ليطلعكم على الغيب . ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء ، فآمنو بالله ورسله ، وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم » .

إنه لا بد من فترة ابتلاء ـ تتم بالإملاء للكافرين ـ يتميز فيها الخبيث من الطيب ، لأن الأمور لا تستقيم إذا ظل الخبيث مختلطاً بالطيب ، متوارياً فيه ، غير ظاهر ولا متميز . لا تستقيم حال الجماعة على هذه الصورة ، والخبيث كالسوس ينخر في داخلها ؛ ولا يستقيم حمل الأمانة على الصورة المطلوبة اللائقة بالجماعة الربانية ، لأن الخبيث سيعوجّ في الطريق ، ويعوّق خطوات الجماعة المؤمنة عن إقامة الحق ، وقد يعجزها عن ذلك ألبتة ؛ ولا يستقيم أمر الجهاد في سبيل الله ، لأن الخبيث سيظل يخذّل ويعوّق ويدعو إلى القعود عن الجهاد ويسعى إلى خلخلة الصف ..

كلا .. لا تستقيم الأمور إلا إذا تميز الطيب من الخبيث . وليس للتميز إلا أحد طريقين : أن يوجد الابتلاء الذي يكشف خبايا النفوس ، أو يطلعنا الله على الغيب فيقول لنا منذ البدء إن هذا طيب وهذا خبيث . وقد اقتضت حكمته سبحانه ألا يطلع الخلق

---

(١) سورة النحل [٢٥] .

على الغيب : « وما كان الله ليطلعكم على الغيب » لا غيب الأحداث ولا غيب النفوس . وإنما الطريق الذي اختارته الحكمة الربانية أن يرسل الله من يجتبيه من رسله ، ويدعو الناس إلى الإيمان بالله ورسله ، وإلى الصبر على الإيمان ، والجهاد في سبيل الله ، وعن هذا الطريق يتميز الخبيث من الطيب ، وينكشف ما كان مخبوءاً من غيب النفوس ..

وليس لنا أن نسأل : لماذا اقتضت حكمة الله ذلك .. فالله سبحانه وتعالى لا يُسأل عما يفعل .. ثم إنه قد أخبرنا أن الحياة الدنيا هي فترة الابتلاء لهذا المخلوق البشري : « خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا »[1] والإملاء للكافرين حتى يتميز الخبيث من الطيب هو لون من الابتلاء ، إن يكن شاقاً على النفوس ، فإنما أجره كذلك عظيم .

« .. وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم » .

* * *

والآن وقد انتهى الحديث عن معركة أحد ، بجولاته المتتالية ، ودروسه التربوية العميقة المؤثرة ، يتحدث – عوداً على بدء – عن فريق من المحاربين الدائمين لهذا الدين ، وهم اليهود :

« ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم ، بل هو شر لهم ؛ سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة . ولله ميراث السماوات والأرض ، والله بما تعملون خبير . لقد سمع الله قول الذين قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء . سنكتب ما قالوا ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ، ونقول : ذوقوا عذاب الحريق . ذلك بما قدمت أيديكم ، وأن الله ليس بظلام للعبيد ، الذين قالوا : إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار . قل : قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم ، فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين ؟ فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير » .

لقد جمعوا من صفات السوء والشر ما لم يجتمع في شعب واحد على مدار التاريخ ! من بخل ، وسوء أدب مع الله سبحانه وتعالى ، وقتل للأنبياء ، وتكذيب للرسل ، ومعاندة للحق ..

والسياق هنا يفضحهم ويعدد جرائمهم ويندد بها .. تهديداً لهم ، وتهويناً من شأنهم في نفوس المؤمنين .

« ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم ، بل هو شر لهم .. »

والنص – بصورته هذه – شامل يشمل اليهود وغيرهم ، وإن كانت بقية الآيات

---

(١) سورة الملك [٢] .

خاصة باليهود وحدهم ، لأنهم هم وحدهم الذين صدرت عنهم تلك الأقوال البذيئة في حق الله ، وتلك الأفعال البشعة في حق رسله .

والسياق معطوف على ما قبله : « ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم ... » « ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم .. » فكلا الفريقين يحسب أن ما هو فيه وما يفعله هو الخير ، وكلا الفريقين واقع في الحقيقة في أعظم الشر .

« .. سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة . ولله ميراث السماوات والأرض ، والله بما تعملون خبير » .

فالذي يبخلون به اليوم سيتمثل لهم حملاً ثقيلاً يوم القيامة يطوقهم ويفزعهم فوق ما هم حاملون من أوزار . وهم لن يأخذوا شيئاً معهم مما يكنزون إنما يرثه الله سبحانه وتعالى ، الذي له ميراث السماوات والأرض . فلا هم ينتفعون به بعد موتهم ، ولا هم ناجون من إثمه يوم القيامة . والله خبير بما يعملون ، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، وهو يحاسبهم بما هو عالم به من حالهم .

ثم يسجل على اليهود سجلهم الأسود :

« لقد سمع الله قول الذين قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء ! .. »

وهي قولة وقحة لا تصدر عن قلب به ذرة من الخشية لله ..

« سنكتب ما قالوا ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ، ونقول : ذوقوا عذاب الحريق » .

فذلك هو الجزاء الوحيد لهذه الأنفس المتبجحة المتوقحة على الله ورسله ..

« ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد » .

ثم هم يزعمون أنهم يرفضون الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم إطاعة لأمر الله ! ! !

« الذين قالوا : إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار .. »

وما دام الرسول صلى الله عليه وسلم لم يأتهم بقربان تأكله النار ، فهم ــ بأمر الله ــ لا يؤمنون به ! ! ولكن القرآن يفضح دعواهم :

« قل : قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم ، فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين ؟ ! » .

إن الذين جاءوهم بالبينات وبالقربان الذي تأكله النار كان مصيرهم القتل على أيديهم ! ثم إن سيدنا موسى وعيسى أمراهم أمراً صريحاً أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم حين يبعث ، وأعطياهم صفته ومكان بعثه .. فهي مغالطة إذن ومجرد حجة مفتعلة للتكذيب :

« فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير » .

فليس لنقص في البينات يكذبونك .. وإنما تلك طبيعتهم التي جبلوا عليها فلا غرابة إذن في أن يكذبوك !

* * *

واستمراراً في جو المعركة ، الذي يشغل السورة من أولها إلى آخرها ، ويتغلغل في كل درس فيها يجئ هذا التعقيب :

« كل نفس ذائقة الموت ، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز . وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور . لتبلون في أموالكم وأنفسكم ، ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذىً كثيرا ، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » .

إن المعركة مع أعداء لا إله إلا الله معركة حتمية .. وقد مر نموذج من قبله نماذج أخرى من هؤلاء الأعداء الذين ينبغي قتالهم . فلا يكن إذن خوف الموت حائلاً دون هذا القتال الواجب لأعداء الله :

« كل نفس ذائقة الموت .. »

فالذي يقعد عن القتال لن ينجو من الموت .. وإذن فلا مبرر لهذا القعود . والأجر الحقيقي ليس هو أياماً زائدة في الحياة الدنيا ، أو متاعاً يستمتع به الإنسان في تلك الأيام الزائدة .. ثم يزول !

« وإنما توفون أجوركم يوم القيامة .. »

تلك هي الأجور الحقيقية التي تستحق أن يحرص الإنسان عليها ويسعى إليها سعياً :

« فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » .

هذا هو الفوز الحقيقي .. وهذا هو الذي يستحق أن يحرص الإنسان عليه . أما متاع الحياة الدنيا الزائل الزائف المشوب ، فما يستحق أن يضيع الإنسان من أجله ذلك المتاع الخالد الدائم العظيم الكريم ..

وتستوقفنا في السياق كلمة « زحزح » .. إنها لفظة معبرة .. إنها توحي بالجهد والمشقة التي يتكبدها الإنسان ليبعد عن النار ! وكأنما هي تجذبه إليها جذباً عنيفاً يحتاج إلى كل الجهد « ليزحزح » بعيداً عن جاذبيتها ! وإن الأمر لكذلك : « حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات ! »[1] فإنما هي جاذبية الشهوات هي التي تشد الناس

(١) أخرجه مسلم والترمذي .

شداً إلى النار ، وتحتاج إلى الجهد والمشقة ليبعد الإنسان عن دائرة جذبها وينفلت من إسارها ..

والتعبير كذلك يخيّل أن هناك أيدياً كأنما تجذب الإنسان جذباً شديداً من الناحية الأخرى لتزحزحه عن النار وتدخله الجنة ! فهو لا يتزحزح من تلقاء نفسه ! ولو ترك وحده لاندفع إليها ووقع فيها .. إنما تأتي هذه الأيدي الخيرة فتجذبه لتنجيه من منطقة الجذب الخطرة التي لا يملك نفسه منها .. وإنها لأيدي الهداة من الرسل ، أو أيدي الملائكة الموكلين بالمؤمنين ، أو هي يد الله الرحيمة سبحانه وتعالى تمتد لتنقذ عباده من الوقوع في النار ..

وكأنما كانت تلك الآية مقدمة يأتي بعدها هذا التقرير ، المتصل بموضوع المعركة مع أعداء لا إله إلا الله :

« لتبلون في أموالكم وأنفسكم ، ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً .. »

« لتبلون في أموالكم وأنفسكم .. »

بهذا التأكيد ، الذي يجعلها سنة حتمية من سنن الله لا مفر منها .. وإنما كانت الآية السابقة تمهيداً لكي تتقبل نفوس المؤمنين ذلك الابتلاء بصبر ورضىً ، ولا تأسى على متاع الحياة الدنيا ، الذي تفقده في ذلك الابتلاء ..

« ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً .. »

فالابتلاء ـ بالعدوان ـ والأذى ـ باللسان ـ صادران عن أولئك الأعداء المحددين : الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى ، والذين أشركوا [والفئة الرابعة وهي المنافقون داخلة في هذه الفئات وإن كانت تفرد بالحديث أحياناً] .

هؤلاء هم الأعداء .. كانوا وما يزالون .. ولن يزالوا !

« وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » .

والأمر في حاجة إلى العزيمة لمواجهة ذلك الكيد من أولئك الأعداء ..

ثم يعود إلى إبراز اليهود خاصة من المجموعة المعادية الكائدة :

« وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه . فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلا . فبئس ما يشترون . لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم . ولله ملك السماوات والأرض ، والله على كل شيء قدير » .

لقد أخذ الله ميثاق أهل الكتاب أن يبينوا ما في الكتاب للناس ولا يكتموه .. ولكن ذلك يتنافى مع أطماعهم ودوافعهم الشريرة . فحين يُعرف ما في الكتاب فإن الناس سيستنكرون افتئات أهل الكتاب عليه ، ويقاومونهم .. لذلك كتموه وحرفوه ..

وفي عالم الواقع « نبذوه وراء ظهورهم » ليطلقوا لمطامعهم العنان « واشتروا به ثمناً قليلا » .. وهو قليل ولو كان هو امتلاك كل الأرض والسيطرة على كل مقدراتها لفترة من الزمان ! قليل بالنسبة للجزاء الذي ينتظرهم يوم القيامة جزاء كفرهم ونبذهم لكتاب الله .. « فبئس ما يشترون ! »

وإن من خصالهم الذميمة أن يمنوا بما أتوا ولو كان زيفاً ! وأنهم يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ..

« فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ، ولهم عذاب أليم » .

« ولله ملك السماوات والأرض والله على كل شيء قدير » .

فهم لن يخرجوا ــ بكل أفعالهم ــ من ملك الله الذي له ملك السماوات والأرض . وإنه على كل شيء قدير . ومن قدرته أن يعذبهم العذاب الذي يستحقونه على ما جنت أيديهم من آثام ...

* * *

« إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويتفكرون في خلق السماوات والأرض : ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك ! فقنا عذاب النار . ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته ، وما للظالمين من أنصار . ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا . ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار . ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة . إنك لا تخلف الميعاد . فاستجاب لهم ربهم : أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض . فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي ، وقاتلوا وقتلوا ، لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله ، والله عنده حسن الثواب » .

هذا الدرس الأخير في السورة .. وإنه لمن أعمق الدروس فيها جميعاً .. إنه يحمل خطاً أصيلاً من خطوط الإسلام ، ويبرزه إبرازاً ..

إن الإسلام لا يكتفي من المؤمنين بالتفكر والتدبر والتذكر .. ولا يكتفي منهم بالمشاعر الإيمانية المستكنة داخل القلب .. إنما ينبغي أن يتحول هذا كله إلى سلوك عملي ، وعمل واقعي ..

إنه يبدأ بهذا التقرير : « إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب » . وهذا التقرير متصل في الحقيقة بالآية السابقة : « ولله ملك السماوات والأرض . والله على كل شيء قدير » التي تختم الحديث عن أهل الكتاب ، وما ينتظرهم من عذاب أليم . وتكون في ذات الوقت وصلة في السياق تصل إلى « أولي

الألباب » وموقفهم من هذا الملك الهائل الذي هو ملك الله . وهكذا يكون الحديث عن ملك الله الواسع وقدرته التي لا تحد نذيراً للكفار بأنهم لن يستطيعوا الخروج من ملكه ومن محيط قدرته ولا النجاة من عذابه ، وبشيراً للمؤمنين بأنهم في رحمة الله التي وسعت السماوات والأرض ، وفي محيط قدرته التي تدخلهم الجنة بإذنه ..

وخلق السماوات والأرض ، واختلاف الليل والنهار .. وتلك الآيات الكونية كلها .. ذات وقع عميق على الحس البشري لا يمكن أن ينجو منه .. ولكن فريقاً من البشر يرين على قلوبهم ما يكسبون ، فتنطمس بصائرهم ، فلا يعودون يلتفتون لتوقيعات الكون على قلوبهم ، ولا يتيقظون لدلالتها الهائلة : دلالتها على وحدانية الله وقدرته ، وأنه لا شريك له ، ولا ينبغي أن يتخذ معه أو من دونه شريك !

أما أولو الألباب فإنهم لا يوصدون قلوبهم دون توقيعات الكون ، ولا يشيحون عنها ، بل يتفكرون فيها ويتدبرون ..

إنه يصف أولي الألباب بالصفة التي تميزهم :

« إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ..»

فهم عباد ربانيون .. لا يفترون عن ذكر الله ، في قيامهم وقعودهم وعلى جنوبهم .. أي في جميع أحوالهم وجميع أعمالهم .. قلوبهم متصلة بالله ، متعلقة به ، ترجو رحمته وتخاف عذابه ..

ثم إنهم يتفكرون في خلق السماوات والأرض ، فيهتدون إلى الحقيقة الكبرى : أن الله خلق السماوات والأرض بالحق ، ولم يخلقها باطلاً .. يهتدون إلى ذلك بنور الإيمان الذي ينير أفكارهم فتهتدي .. وإلا فالعقل وحده عرضة لأن يضل .. وكم ضلت عقول وهي تتفكر في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار فقالت إنه باطل وعبث لا حكمة فيه ولا غاية وراءه [انظر الوجوديين مثلاً ! !] ذلك أنهم يتفكرون وهم محرومون من نور الإيمان الذي ينير الطريق للعقل فيهتدي إلى الحكمة والغاية : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ، **ذلك ظن الذين كفروا** ، فويل للذين كفروا من النار »[1] .

إن أولي الألباب يهتدون إلى أن الله لم يخلق هذا باطلاً فيسبحون لله : « سبحانك ! » وإذ يعلمون أن الكون خلق بالحق ، فهم يدركون أنه لا يمكن أن تكون الحياة

(١) سورة ص [٢٧] .

الدنيا هي نهاية المطاف .. وإلا فهو العبث الذي يتنزه عنه الخالق سبحانه ، والباطل الذي نفوه ابتداء عن خلق الله ..

إذن فلا بد أن تكون هناك رجعى إلى الله ، وأن يكون حساب على ما تم في الحياة الدنيا من أعمال : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً ، وأنكم إلينا لا ترجعون ؟ » [1] كلا ! إنما هي الرجعى والحساب ، هي التي تنفي العبث عن خلق الله ، وتتمم الصورة فتستقيم ..

وإذ عرفوا أن هناك رجعى ، وأن هناك ثواباً وعقاباً ، فهم يسارعون إلى الاستغاثة من العذاب : « فقنا عذاب النار » .. ثم يسترسلون في التوسل إلى الله أن يجيرهم من هذه النار : « ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته ، وما للظالمين من أنصار » ...

وكأنما يقدمون بين يدي مولاهم المؤهلات التي تؤهلهم لدخول الجنة والبعد عن النار :

« ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنّا » .

آمنا بمجرد أن سمعنا ! فهذا مدلول العبارة ! أي سارعنا إلى الإيمان ..

ولا يفوتنا ذلك التكرار للفظ الإيمان ومشتقاته : ثلاث مرات في هذه الجملة الواحدة : « ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي **للإيمان** ، أن **آمنوا** بربكم ، **فآمنّا** .. » إن له دلالة نفسية واضحة : إنه من جهة طريقة لتوكيد إيمانهم بتكرار لفظ الإيمان في حديثهم ، ومن جهة أخرى يدل على أن مشاعرهم مشغولة بالإيمان ، ممتلئة به ، بحيث لا يكفيهم أن يذكروه مرة .. ! إنما يعاودون ذكره مرة بعد مرة .. كشأن الإنسان حين يحب شيئاً فيظل يردد ذكره ويتغنى به !

وبما أنهم سارعوا للإيمان بمجرد أن سمعوا المنادي [وهو الرسول صلى الله عليه وسلم] ينادي للإيمان ، فهم يتوجهون إلى الله بالدعاء :

« ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ، وكفر عنا سيئاتنا ، وتوفنا مع الأبرار » .

ثم لا يكفيهم هذا التوجه الحار إلى الله ، بل يشعرون في قلوبهم بمزيد من الرغبة في التقرب إلى الله والتوسل إليه ، فيضيفون :

« ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد » .

إلى هنا ينتهي ذلك الدعاء الحار الذي لا شك في صدوره عن قلوب مؤمنة صادقة الإيمان .. تفكرت وتذكرت وتدبرت ، فهداها التدبر إلى ما اهتدت إليه من الحق ، فتوجهت إلى الله بمشاعر إيمانية صادقة ، وتوسل حار إلى الله .. ولا يفوتنا تكرارهم للفظة « ربنا » في الدعاء .. خمس مرات متتالية ، منها مرتان في آية واحدة .. إن

---

(١) سورة المؤمنون [١١٥] .

دلالته النفسية على حرارة التوجه وصدق الرغبة دلالة لا تخفى ..

« فاستجاب لهم ربهم .. »
نعم ! ولكن متى استجاب ، سبحانه ؟ !

هل استجاب للتفكر وهو تفكر ؟ وللتذكر وهو تذكر ؟ وللتدبر وهو تدبر ؟ وللدعاء الحار وهو دعاء ؟ !

« فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع **عمل عامل** منكم من ذكر أو أنثى ، بعضكم من بعض ... »

إنها لفتة هائلة جداً لا يسع الإنسان أن تفوته دلالتها !

إنه استجاب لهم سبحانه بأنه لا يضيع عمل عامل منهم .. ومعنى ذلك أن ذلك التفكر والتذكر والتدبر ، وتلك المشاعر الإيمانية ــ رغم صدقها الذي لا شك فيه ــ ينبغي أن تتحول كلها إلى عمل .. وعندئذ يستجيب الله سبحانه لذلك الدعاء !

ولأن السورة كلها مشغولة بالمعركة .. معركة لا إله إلا الله .. فهو يضرب مثلاً من « العمل » المطلوب ، يختاره مما يتصل بالمعركة :

« فالذين هاجروا ، وأخرجوا من ديارهم ، وأوذوا في سبيلي ، وقاتلوا وقتلوا ، لأكفرن عنهم سيئاتهم ، ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، ثواباً من عند الله ، والله عنده حسن الثواب » .

لقد كان دعاؤهم : « ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ، وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ، ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة .. »

وهذه هي استجابة دعائهم : إن الذين قاموا بهذه **الأعمال** : « لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ... »

إنه درس هائل جداً .. إن كان قد ورد في سياق الحديث عن المعركة ، واتصل بها ، فإنه يمتد في الحقيقة في كل اتجاه .

إن الإسلام لا يعرف التفكر من أجل التفكر ، ولا التدبر من أجل التدبر .. ولا المشاعر في صورتها الوجدانية الخالصة ولو كانت هي مشاعر الإيمان .. إنما ينبغي أن يتحول ذلك كله إلى **عمل** .. التفكر والتدبر والمشاعر والدعاء .. كلها سواء !

وهو درس وعاه المسلمون الأوائل في كل اتجاه ..

ومن هنا لم تنشأ « الفلسفة » في أجيال الإسلام الصافية الأولى . لأنها تفكرٌ من أجل التفكر ! وإنما جاءت عدوى من اليونان حين بدأ خط الانحراف !

ومن هنا كذلك لم تنشأ « الصوفية » بصورتها السلبية في أجيال الإسلام الصافية الأولى ، لأنها تَذكُّرٌ من أجل التذكر ، وتدبر من أجل التدبر ، ومشاعر من أجل

المشاعر ، ودعاء من أجل الدعاء ! إنما جاءت عدوى من فارس والهند ، ورد فعل لانحراف الترف والفساد !

إنما كان الإسلام في أجياله الصافية الأولى تفكراً وتدبراً وتذكراً ودعاء ومشاعر ، تتحول كلها إلى عمل وسلوك .. في كل اتجاه .. في شعائر التعبد كما هي في الأخلاق ، وفي الجهاد في سبيل الله كما هي في عمارة الأرض ، وفي بناء الأسرة كما هي في بناء المجتمع ..

بل كانت كذلك **في العلم** ! .. والمسلمون هم الذين أنشأوا المنهج التجريبي في البحث العلمي ، من إيحاء الإسلام لهم ، ولم يكن معروفاً من قبل .. وهو هو الذي تقوم عليه الحركة العلمية المعاصرة في أوربا ، بعد أن تعلمته من المسلمين في الأندلس والشمال الإفريقي !

إنها حقيقة الإسلام الكبرى .. التي أنشأت من قبل تلك الأمة التي كانت « خير أمة أخرجت للناس » والتي كتبت ذلك التاريخ الذي لا مثيل له في تاريخ الأمم من قبل ..

وحين انحرف المسلمون عن هذه الحقيقة ــ وبقدر انحرافهم ــ صاروا إلى ما هم فيه اليوم من أحوال !

* * *

« لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد . متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد . لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلاً من عند الله . وما عند الله خير للأبرار » .

الحديث متصل بلا انقطاع ، وإن كان يبدو لأول وهلة أن هناك نقلة مفاجئة في السياق !

لقد كان يقول من قبل : « فالذين هاجروا ، وأخرجوا من ديارهم ، وأوذوا في سبيلي ، وقاتلوا وقتلوا ، لأكفرن عنهم سيئاتهم ، ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، ثواباً من عند الله ، والله عنده حسن الثواب » .

وهنا يهجس الهاجس في القلوب ..

لماذا ؟ ! لماذا يبتلي المؤمنون هذا الابتلاء الشاق ، فيضطرون للهجرة من ديارهم ، أو يُخْرَجون منها ، ويؤذون ، ويخوضون القتال فيموت منهم من يموت .. بينما الذين كفروا يتقلبون في البلاد ، آمنين مطمئنين ، وفوق ذلك مسيطرين ؟ !

هكذا يكون الوضع دائماً قبل التمكين النهائي للمؤمنين ، والتدمير النهائي على الكافرين ..

والبشر بشر .. وفي حدود بشريتهم ، وانطلاقاً منها ، يهجس ذلك الهاجس في القلوب !

فهو هنا يرد على هذا الهاجس البشري ، يزيل الأسى الذي يثيره ذلك الهاجس في القلوب !

« لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد .. »

لا تعطه أهمية أكثر من حقيقته .. ولا يغرنك مظهره عن حقيقته !

إنه – حتى لو دام إلى نهاية أعمارهم ، ولم يؤخذوا بالعذاب قبل موتهم – إنه « متاع قليل » ..

وهل متاع الأرض كله ، ومتاع العمر كله ، إلا قليل ؟ ! ما هو حين يقاس إلى متاع الخلد ؟ ! بـل ما هو حين يقاس إلى شهوات الإنسان ذاته هنا في الأرض ، وهي شهوات ـ حين يطلق لها العنان ـ لا تشبع ولا ترتوي وتظل تتطلع إلى المزيد ؟ !

« .. متاع قليل . ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد » .

كما قال في سورة الشعراء : « أفرأيت إن متعناهم سنين ، ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ؟ ! ما أغنى عنهم ما كانوا يمتّعون ! »[1]

« لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلاً من عند الله . وما عند الله خير للأبرار » .

فشتان بين مصير ومصير .. عذاب قليل في الدنيا ونعيم الخلد في الآخرة .. ومتاع قليل في الدنيا ومأواهم جهنم وبئس المهاد !

وهذه ليست دعوة للرضى بالظلم في الدنيا مقابل نعيم الآخرة ، ولا تمنية بنعيم الآخرة لتخدير الناس في الدنيا ليحتملوا الظلم ولا يثوروا .. كما يقول الجهال في كل الأرض ، الذين يقولون إن الدين أفيون الشعوب !

ونظرة واحدة في السياق تنفي ذلك الخاطر الذي يخطر في عقول الجهال ! فالسياق قبلها مباشرة يقول إن الله سيدخل الجنة أولئك الذين يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ! وإنه لا يكتفي من الناس بالتفكر والتدبر والمشاعر والدعاء .. إنما ينبغي أن يتحول ذلك كله إلى عمل وجهاد في سبيل الله ..

إنما هو طمأنة **لقلوب المجاهدين** ، حتى لا يقعد بهم تمكن الكافرين في الأرض عن الجهاد .. وحتى لا يشغلهم الأسى لوضعهم الشاق في الأرض ، فيحتجز جانباً من طاقتهم التي ينبغي أن توجه كلها للجهاد حتى يتمكن الحق في الأرض ..

* * *

وإذ بدأ السورة بالحديث عن أعداء لا إله إلا الله ، ومن بينهم أهل الكتاب ، وأفاض في الحديث عنهم طوال السورة بأكملها ، فهو يختم السورة بتقرير هذه الحقيقة ،

---

(١) سورة الشعراء [٢٠٥ – ٢٠٧] .

تشجيعاً لآخرين من أهل الكتاب أن يؤمنوا قبل أن يوصد في وجوههم الباب :

« وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً . أولئك لهم أجرهم عند ربهم . إن الله سريع الحساب » .

ثم يجيء الختام الأخير للسورة التي شغلت كلها بالحديث عن المعركة :

« يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

إنه حديث موجه إلى **الجند** .. الجند الذين جندتهم السورة للقتال في سبيل الله .. أن يحتملوا تكاليف المعركة ويصمدوا لها بالصبر والمصابرة والمرابطة **وتقوى الله** .. وتلك هي العدة التي توصل إلى الفلاح : « لعلكم تفلحون » .

* * *

وهكذا تنتهي تلك السورة التي تخصصت في المعركة من جميع جوانبها .. وجالت بالمؤمنين جولات هائلة في محيط الكون وفي داخل أنفسهم . في واقع المعركة وفيما حولها . في قدر الله وتدبيره وسننه التي تجري الحياة بمقتضاها . في الابتلاء وحكمته . في النصر والهزيمة . في الإعداد النفسي والروحي للمعركة . في أعداء لا إله إلا الله ووسائلهم وكيدهم . في اتخاذ الأسباب المهيئة للنصر مع التوكل الكامل على الله ..

إنها دروس تربوية كلها تحتاج منا إلى التدبر العميق لوعيها والإحاطة بها ، لنعيد تربية أنفسنا بمقتضاها ، ونحاول من جديد أن نستوي على الطريق !

« يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

سُورَةُ النِّسَاء

لا نملك هنا ـ في هذا المجال المحدود ـ أن نستعرض سورة النساء بمثل التفصيل الذي عرضنا به سورة آل عمران . فقد كانت سورة آل عمران ـ كما رأينا ـ تعالج موضوعاً واحداً من البدء إلى النهاية هو معركة لا إله إلا الله من جوانبها المختلفة ، كما أنها لا تشتمل على شيء من الأحكام . بينما تحتوي سورة النساء على موضوعات متعددة ، كما تشتمل على مجموعات كثيرة من الأحكام ليس من شأننا التعرض لها هنا وقد قصرنا الهدف الرئيسي من الكتاب على تحديد الموضوعات التي يتناولها القرآن بصفة عامة ، وبيان الطريقة التي يعالج بها القرآن هذه الموضوعات .

لذلك سنكتفي في عرضنا للسورة بالوقوف عند بعض الموضوعات أو القضايا الواردة فيها ، وبالقدر الذي يسمح به المجال .

* * *

تشتمل السورة كما ألمحنا على موضوعات متعددة ، ولكنها مع ذلك مترابطة ، يجمعها محور واحد ، أو إن شئت جملة محاور ، ولكنها متصلة في النهاية برباط واحد .

وقد يتكرر ذكر الموضوع الواحد أكثر من مرة في سياق السورة ، وخاصة الموضوع الذي يتصدر السورة والذي سميت السورة كلها باسمه وهو موضوع « النساء » . ولكنه في الحقيقة ليس الموضوع الوحيد الذي تتكرر الإشارة إليه . وإنما هي ظاهرة عامة في السورة أن يعود الحديث إلى الموضوع الواحد مرة بعد مرة ، كأنما هي دروس متتابعة ، يعلّم الله بها المسلمين أمور دينهم ، جولة بعد جولة في سياق متصل طويل [1] .

ويلفت نظرنا في ذلك السياق المتصل الطويل أمران ، أحدهما سبقت الإشارة إليه في مقدمة هذا القسم من الكتاب ، وفي عرض سورة البقرة وسورة آل عمران ، وهو أن العقيدة في السور المدنية هي محورها الأصيل الذي تنبثق منه كافة التوجيهات والتنظيمات والتشريعات .

والأمر الآخر هو الانتقال ـ الذي قد يبدو مفاجئاً ـ من حديث عن العقيدة ،

---

(١) يستطيع القارئ أن يلاحظ هذه الظاهرة كذلك في سورة المائدة .

إلى حديث عن شعيرة من الشعائر ، إلى حكم شرعي خاص « بالمعاملات » ، إلى توجيه اجتماعي أو سياسي أو اقتصادي أو حربي ...

ولكن هذا الذي قد يبدو لنا مفاجئاً هو أمر له دلالته في السياق القرآني . ذلك أن الانتقال من العقيدة إلى الشعيرة إلى الشريعة إلى التوجيه ليس في الحقيقة انتقالاً من موضوع إلى موضوع آخر مختلف . إنما هو انتقال من جزئية من جزئيات هذا الدين إلى جزئية أخرى منه ، في داخل المحيط العام الذي هو في مجموعه « هذا الدين » . و « الدين » كما يريده الله هو هذه الموضوعات أو هذه الجزئيات جميعاً في وقت واحد . إنه ليس العقيدة وحدها ، ولا الشعيرة وحدها ، ولا الشريعة وحدها ، ولا التوجيه وحده . إنما هو مجموعها جميعاً ، وفي آن واحد . ومن ثم لا يكون السياق قد تحول من مجراه إلى مجرى جديد . إنما يكون فقط قد تقدم من نقطة إلى نقطة أخرى في نسيج واحد متجانس وإن كان متعدد الألوان .

وهذا النسق الخاص من العرض ، الذي ينتقل فيه السياق من نقطة إلى نقطة بلا انفصال ، جدير بأن يكشف لنا عن هذه الحقيقة في هذا الدين ، وهي اتصال موضوعاته وجزئياته اتصالاً عضوياً مترابطاً غير قابل للانفصال .. بالضبط كما يعرضها السياق القرآني ، متصلة – على اختلافها – بلا انقطاع ولا انفصال .

ومن ثم تزول « المفاجأة » في الانتقال ، التي يحسها القارئ الذي يتناول القرآن بغير وعي لهذه الحقيقة ، أو الذي يتناوله وفي حسه صورة معينة من التقسيم « المنطقي » للموضوع .

إننا في تقسيمنا الذهني نبوّب الأشياء ونصنفها ، ثم نعزل كل باب بمفرده ، ونبحث فيه كأنه قائم بذاته . ولا بأس من ذلك في البحث العلمي . أو ربما تكون هذه ضرورةً في هذا النوع من البحث . ولكن الترتيب والتبويب في الحقيقة يتم على حساب قدر من الإحساس بالوحدة الشاملة للموضوع . ونحتاج دائماً إلى إعادة التصوّر ، لنستعيد هذا الإحساس بالوحدة والتجانس في الموضوع . ولكن دين الله شيء آخر ! والله يريد لنا أن نتعرف على ديننا في صورته الشاملة المتصلة المترابطة ، لكي نمارسه كذلك في صورته الشاملة المتصلة المترابطة ، ولكيلا يتجزأ في حسنا وفي ممارستنا إلى موضوعات منفصلة لا يربط بينها رباط !

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيبا » .

هذا هو افتتاح السورة . وهو يحوي عدة إشارات وموضوعات وقضايا تشملها كلها هذه الآية المفردة في مفتتح السياق .

فالآية تحوي أولاً إشارة موجزة إلى الموضوع الرئيسي في السورة وهو علاقات الأسرة والمجتمع ، وذلك بذكر النفس الواحدة التي خلق منها زوجها ، وذكر الرجال الكثيرة والنساء التي تنشأ من لقاء الزوجين ، وذكر الأرحام التي تنشأ من التزاوج بين هذه الرجال الكثيرة والنساء .

وهي تحوي ثانياً إشارة إلى الأساس الذي ينبغي أن تقوم عليه علاقات الأسرة ــ وعلاقات المجتمع كله الناشيء من وجود الرجال والنساء والأطفال ــ وهو تقوى الله ، التي تفتتح بها الآية : « يا أيها الناس اتقوا ربكم .. » ويشار إليها مرة ثانية أثناء الآية : « واتقوا الله الذي تساءلون به .. » وتختم بها الآية في صيغة أخرى : « إن الله كان عليكم رقيباً » .

ثم هي تحوي أخيراً إشارة موجزة ــ ودالّة ــ إلى القضايا الثابتة في حياة البشرية ، التي ينبغي أن تحكم تلك الحياة مهما تغيرت مظاهرها أو « تطورت » كما يحلو للمحدثين أن يعبروا [1] . وهي إشارة تكملها وتشرحها الآيات الأخرى في هذه السورة وفي غيرها من السور ، ولكنها هنا ــ على إيجازها الشديد ــ ذات دلالة واضحة .

وهذه الإشارة بالذات تحتاج إلى شيء من البيان .

فنحن في وقتنا الحاضر بصفة خاصة ــ وبتأثير الداروينية وإيحاءاتها التي جاءتنا

---

(١) من بعد نظرية دارون صارت أوربا تقحم كلمة التطور في كل شيء ، وأخذنا نحن منها هذه الكلمة بطريق العدوى وأقحمناها كذلك في كل شيء مصداقاً لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم : « حتى إن دخلوا جحر ضب دخلتموه » ! وأنا أفضّل أن أستخدم كلمة « التغير » وكلمة « النمو » كلاً في مناسبتها بدلاً من كلمة « التطور » التي تحوي دائماً جراثيم الإيحاءات الداروينية !

مع الغزو الفكري ـ ننظر إلى الحياة كأنها متغيرة أبداً ـ أو متطورة أبداً [1] ـ بحيث لا توجد لها أسس ثابتة ترتكز عليها ، وبحيث يمكن أن تسير في أي اتجاه بلا ضابط ؛ يحكمها عامل التغير أو التطور وحده ، ولا تحكمها أية أسس ثابتة ، توازن على الأقل عامل التغير إن لم نقل تسيطر عليه في الحقيقة وتتحكم فيه [2] .

ولكن هذه الآية التي تفتتح بها سورة النساء ، التي تتناول علاقات الأسرة وعلاقات المجتمع ـ بل علاقات المجتمع البشري الواسع في الحقيقة ـ تردنا إلى تلك الأصول الثابتة التي تحكم هذه العلاقات وتضبط مسارها ، فتتغير مظاهرها ما شاء لها التغير ، وتنمو ما شاء لها النمو ، ولكنها تظل محكومة بتلك الأصول الثابتة لا تنفك منها .

ويلفت نظرنا بادئ ذي بدء أن السورة قد افتتحت بقوله تعالى : « يا أيها الناس .. » فهي خطاب إلى كل الناس ، وليس للمؤمنين وحدهم كما جاء ـ مثلاً ـ في افتتاح سورة المائدة : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ... »

ولهذا الافتتاح دلالته في أن هذه القضايا الثابتة تشمل حياة البشرية كلها ولا تخص مجتمعاً معيناً من مجتمعاتها ، وأن خروج أي مجتمع في الأرض عن مقتضى هذه الأصول الثابتة هو خروج عن النهج المستقيم ، لا بد أن تنشأ عنه اختلالات في هذا المجتمع ؛ وأنه لا يتسنى لمثل ذلك المجتمع أن يبرر انحرافاته بأن له ظروفاً خاصة ، أو بأن « التطور » قد أفضى به إلى ما أفضى إليه ، فالخطاب موجه للناس كافة ، والأصول الثابتة تشمل كل الناس بلا تفريق ..

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم ... »

تلك هي القضية الأولى الثابتة أو الأصل الكبير الثابت الذي يحكم كل حياة البشرية من أول أجيالها إلى آخر أجيالها .

إن للناس رباً عليهم أن يتقوه لأنه هو خالقهم ..

وعلى بساطة العبارة وإيجازها الشديد في سياق الآية فإنها تحوي الأصل الأكبر في دستور الحياة البشرية .

إنها أولاً قضية أزلية وهي كذلك قضية ثابتة .

فالله الخالق حقيقة أزلية ، وخلقه للناس حقيقة تاريخية ثابتة لا يجري عليها تطور ولا تغير ولا تحوير ! لن يجئ تطور ولا تغير يجعل أحداً غير الله هو « الذي خلقكم » . ودعك من تمحلات الداروينية التي تقول « إن الطبيعة تخلق كل شيء ولا حدّ لقدرتها » ! فهي تمحلات غير علمية وغير منطقية ، فإن « دارون » ـ وهو يهرب بهذه العبارة

---

(١) انظر الهامشة في الصفحة السابقة .

(٢) انظر كتاب « التطور والثبات في حياة البشرية » .

من إله الكنيسة الأوربية لظروف لا شأن لنا بها هنا ـ لم يقل لنا بطريقة علمية ما تلك « الطبيعة » التي يتحدث عنها ، ولم يتوقف ـ كما ينبغي للعالم الحق أن يتوقف ـ ليسأل نفسه عن هذه الطبيعة التي يقول عنها إنها غير عاقلة وإنها تخبط خبط عشواء ، كيف خلقت الإنسان العاقل المفكر الذي يخترع الأدوات والآلات كما يخترع الأفكار والنظريات ! وسيظل تحدِّي القرآن له ولغيره قائماً إلى يوم القيامة : « أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ؟ ! »[1] كما سيظل كذلك تحدّي الفطرة التي تتجه تلقائياً إلى الله الخالق ـ حتى وإن ضلت معرفته على حقيقته ـ تصديقاً لقوله تعالى : « وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا ! »[2]

وإذ كانت هذه حقيقة أزلية وقضية ثابتة لا تتغير ، فقد ترتب عليها نتائج هي الأخرى ثابتة لا تتغير . ترتب عليها أن الله هو رب الخلق ، وأن عليهم أن يتقوه ، والتقوى لا تكون إلا بطاعة أوامره ، وقد أمرهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وأن يتحاكموا إلى شريعته وليس إلى أي شريعة سواها . ومن ثم تصبح عبادة الله وتحكيم شريعته أصلاً ثابتاً في حياة البشرية لا يخضع لعامل التغير ، ولا « يتطور » كما يقول التطوريون !

ولقد جاءت في سياق السورة تفصيلات كثيرة لهذا الأصل الكبير ، سنتعرض لها في مكانها ، ولكننا نكتفي هنا بالإشارة إلى قوله تعالى : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً » [آية ٣٦] وإلى قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به .. » إلى قوله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما » [آية ٦٠-٦٥] .

أما القضية الثانية من القضايا التي تشملها الآية الأولى من السورة فهي هذه :

« .. ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة » .

وتلك أيضاً قضية تاريخية وثابتة ، لا يجري عليها تغير ولا تطور ، ويترتب عليها كذلك نتائج ثابتة .

يترتب عليها وحدة البشرية في أصلها ، لأنها كلها منبثقة من نفس واحدة ؛ ووحدتها في معاييرها وقيمها والدستور الذي ينبغي أن تقوم عليه حياتها لأنها شيء واحد في الأصل لا أشياء متعددة أو متغايرة . كما يترتب عليها أن يتعامل البشر فيما بينهم

---

(١) سورة الطور [٣٥] .

(٢) سورة الأعراف [١٧٢] .

على أساس هذه الصلة المشتركة في الأصل الواحد ، وإلى ذلك تشير الآية [٣٦] : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ، إن الله لا يحب من كان مختالاً فخورا » .

غير أن هذه القضية بالذات ـ قضية وحدة الإنسانية في أصلها ، ووجوب قيام العلاقات بينها على أساس الأصل المشترك بينها ـ محكومة هي ذاتها بالقضية الأولى وهي قضية الربوبية والعبودية ، وواجب العباد في تقوى ربهم الذي خلقهم . فقد حدث في تاريخ البشرية انشعاب في هذا الأصل الواحد المشترك ، إذ آمن فريق من البشر بربهم واتقوه ، وكفر فريق آخر وأبى ، فترتب على هذه المشاقة اختلاف في الوجهة والهدف ، واختلاف في العقيدة ، واختلاف في التعامل كذلك . وإلى ذلك تشير آيات كثيرة جداً في السورة هي الآيات التي تتحدث عن المشركين والمنافقين واليهود والنصارى وهي تشغل من السورة حيزاً غير قليل .

والقضية الثالثة الثابتة هي قضية الجنسين :

« خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها » .

ويترتب عليها نتائج ثابتة ..

يترتب عليها وحدة الجنسين في الأصل : « وخلق **منها** .. »

ويترتب عليها المساواة بين الجنسين في القيمة الإنسانية ، وفي العبودية لله ، وفي الأجر على طاعة الله . وإلى ذلك تشير الآية : « ومن يعمل من الصالحات **من ذكر أو أنثى** وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً » [آية ١٢٤] وإن كان توزيع التكاليف بين الجنسين في الحياة الدنيا قد اقتضى الاختلاف في بعض الحقوق والواجبات ، مع عدم الإخلال بمبدإ المساواة في الإنسانية وفي العبودية لله وفي الأجر على طاعة الله ، إنما هو اختلاف اقتضته طبيعة « التنظيم » في داخل الأسرة وهو الذي تشير إليه الآية : « الرجال قوامون على النساء .. » [آية ٣٤] والآية : « يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين » [آية ١١] وسنتحدث عنه في مكانه .

ويترتب عليها كذلك ثبات العلاقات بين الجنسين وعدم خضوعها لعامل التغير ولا التطور . فما دامت أصول هذه العلاقة ثابتة وهي وجود رجل من ناحية وامرأة من ناحية وعلاقة تجاذب بينهما تعبر عنها آية سورة الروم : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها **وجعل بينكم مودة ورحمة** .. »[1] فما الذي يمكن أن يتغير أو يتطور في هذه العلاقة ؟ !

---

(١) سورة الروم [٢١] .

إن اللقاء لا بد أن يتم ـ بحكم الفطرة ـ بين الرجل والمرأة . وليس هناك إلا طريقان اثنان لهذا اللقاء مهما تعددت صوره : إما لقاء مشروع في صورة زواج وإما لقاء غير مشروع في أية صورة من الصور . والله خالق هذه الفطرة وصاحب الأمر في شأنها ـ وفي كل شأن ـ يقبل الصورة الأولى ويدعو إليها ، ولا يقبل الصورة الأخرى بل ينهى عنها ، كما تشير الآية : « محصنين غير مسافحين .. » [آية ٢٤] والآية التالية : « محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان .. » [آية ٢٥] .

ويترتب عليها أخيراً ثبات العلاقات في داخل الأسرة ، وإلى ذلك تشير مجموعة غير قليلة من الآيات ، تتعلق بالمعاشرة بالمعروف ، وبحالة النشوز من الزوجة والنشوز من الزوج ، وبتعدد الزوجات وشروطه ، وتتعلق كذلك بالمواريث .

ثم تشير نهاية الفقرة الأولى من الآية إلى قضية قد تكون امتداداً للقضية الثانية المتعلقة بالنفس الواحدة التي انبثقت منها البشرية أو تفصيلاً لها . وذلك في قوله تعالى : « وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء .. »

إنها قضية « المجتمع » سواء في ذلك المجتمع في صورته الخاصة ، أي مجتمع أمة من الأمم ، أو المجتمع البشري على اتساعه . وهي كذلك قضية ثابتة لأن أركانها وقواعدها ثابتة . ومن ثم ترسم السورة صورة ثابتة للقواعد التي تقوم عليها العلاقات داخل المجتمع ـ وهو هنا المجتمع الإسلامي ـ كما تحدد العلاقة بين المسلمين وأهل الكتاب والمشركين والمنافقين . وهم الفريق الذي لم يدخل في دين الله كما دخل المسلمون ، وإن كان الحيز الذي تستغرقه هذه القضية في هذه السورة مشغولاً بالعلاقات بين المسلمين وغير المسلمين أكثر مما هو مشغول بتنظيم العلاقات داخل المجتمع المسلم ذاته ، الذي تتناوله سور أخرى بالتفصيل .

* * *

وإذا نظرنا إلى الآية الأولى على هذا النحو ، فإنها في الواقع تكون تلخيصاً دقيقاً لكل موضوعات السورة ، كما أن السورة من جهة أخرى تكون كلها مترابطة ترابطاً دقيقاً وإن اختلفت موضوعاتها ، لأنها كلها شرح وتفصيل لتلك القضايا الأربع التي افتتحت بها السورة ، وهي في ذاتها قضايا مترابطة متناسقة متصل بعضها ببعض برباط وثيق .

* * *

من هذه الآية الشاملة الموجزة في مفتتح السورة ينتقل السياق إلى الحديث عن اليتامى عامة ويتامى النساء خاصة . ثم عن مهور النساء ، ثم عن التصرف في أموال السفهاء ، ثم يعود إلى اليتامى وطريقة التصرف في أموالهم ، ثم إلى المواريث وطريقة تقسيم المال الموروث :

« وآتوا اليتامى أموالهم ، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيرا . وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم . ذلك أدنى ألا تعولوا .

« وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ، فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئا .

« ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً ، وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولاً معروفا .

« وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ، ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا . ومن كان غنياً فليستعفف ، ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف . فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم ، وكفى بالله حسيبا .

« للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً . وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفا . وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم ، فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديدا . إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيرا .

« يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ... »

يظهر للوهلة الأولى أن الحديث يشمل فئات بعينها من المجتمع ، هي الفئات الضعيفة أو المستضعفة فيه : اليتامى والنساء بصفة خاصة .

أما اليتامى فيستوصي بهم خيراً في أكثر من موضع في هذه الآيات :

« وآتوا اليتامى أموالهم .. »

« وابتلوا اليتامى .. »

« وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى .. »

« وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا .. »

« إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً .. »

ويتضح من ذلك مدى ما كان يلقاه اليتامى في مجتمع الجاهلية من إهمال وظلم وسوء استغلال ، ومدى اهتمام الإسلام برفع الظلم عنهم ، وإقامة حياتهم على أساس من العدل والتأمين والرعاية ، ووضع الضمانات الكفيلة بذلك من التشريعات والتوجيهات .

ومن خلال الحديث عن اليتامى يتحدث عن فئة منهم هي أشد ضعفاً واستضعافاً ، وهي يتامى النساء . فإذا كان اليتامى جميعاً يلقون سوء الاستغلال في ذلك المجتمع الجاهلي فيتامى النساء يلقين من سوء الاستغلال ما هو أشد وأكثر ظلماً . إذ يطمع

الطامعون في أشخاصهن وأموالهن جميعاً فيلجأ الوصي على اليتيمة إلى فرض نفسه عليها زوجاً ــ رضيت أو كرهت ــ بحكم أنه وليها ويتزوجها كذلك بلا مهر ، فتقع كلها بشخصها ومالها غنيمة باردة بين يديه .

ولما جاء الإسلام ونهى عن الظلم عامة وظلم اليتامى خاصة ، وأخذ يربي قلوب المسلمين على تجنب الظلم في أفعالهم ومشاعرهم ، ويقيم هذه التربية على أساس من تقوى الله (الذي أشارت إليه الآية الأولى في ثلاثة مواضع منها) تحرج المسلمون من زواج اليتيمات اللاتي في وصايتهم خيفة أن يظلموهن ، فجاءت الآية الثالثة في السورة ترفع عنهم الحرج وتدلهم على الطريق :

« وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى [1] فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ، ذلك أدنى ألا تعولوا » .

والآية ــ كما هو واضح ــ تقرر مبدأ تعدد الزوجات إلى أربع ..

ويكثر الحديث عن موضوع تعدد الزوجات في الوقت الحاضر ، في الحملات التي يراد بها فتنة المسلمين عن دينهم ، وتحكيم شرائع أرضية بدلاً من شريعة الله . ولقد تحدثنا في موضع آخر عن هذا الموضوع [2] ، وما بنا من حاجة إلى تكرار القول في مجالنا الحاضر . ولكنا ــ في إيجاز ــ نقف عند بعض النقاط :

أولاً : هل الأصل الذي تشير إليه الآية هو التعدد أو الوحدانية ؟

ظاهر اللفظ هو إباحة التعدد ولا شك . ولكن القيد الوارد في عجز الآية ــ وهو العدل ــ قيد ليس بالهين في الحقيقة ، يدل على ذلك أن الخطاب موجه للعموم : « فإن خفتم ألا تعدلوا .. » أي أن الخوف من عدم العدل وارد بالنسبة للعموم ، وليس بالنسبة لبعض الناس فحسب .

لذلك فإن الآية توحي إليّ كلما قرأتها بأنها مثل كل توجيهات القرآن التربوية الأخرى ، تجعل الإباحة هي الأصل ، ثم تضع من القيود على هذه الإباحة ما يضيّق مجالها إلى الحد الذي تستقيم به الحياة في أفقها الأعلى :

« وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » [3] .

« ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل » [4] .

« والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن

---

(١) أي في اليتيمات اللاتي في وصايتكم .

(٢) انظر كتاب « شبهات حول الإسلام » فصل « الإسلام والمرأة » .

(٣) سورة الأعراف [٣١] .

(٤) سورة الإسراء [٣٣] .

غير متبرجات بزينة ، وأن يستعففن خير لهن »[1] .

فالتوجيه في اعتقادي هو إلى الوحدانية ، وإن كان التعدد مباحاً بكل تأكيد .

ثانياً : أن التعدد **لا بد** أن يحدث في المجتمع السوي لجملة أسباب ، من أهمها أن عدد النساء أكبر دائماً من عدد الرجال حتى في حالات السلم ، ولكن الفرق يزداد في حالات الحرب ، لأنها ـ دائماً ـ تقتل من الرجال أكثر مما تقتل من النساء ، والحرب الحديثة التي تنشر الدمار على الجميع محاربين وغير محاربين ليست استثناء من ذلك ، لأن التركيز في القتل ما زال منصباً على الجيوش المحاربة ومعظمها من الرجال . ونتيجة ذلك أنه إن لم يكن التعدد مباحاً ومشروعاً فستظل مجموعة من الإناث لا ينلن حقهن الفطري أبداً ، أو لا ينلنه إلا عن طريق غير مشروع ، وفي كلتا الحالتين لا يكون المجتمع « سوياً » بمقاييس الفطرة السليمة .

ثالثاً : أن الجاهلية المعاصرة التي تستنكر تعدد الزوجات لا تستنكر الصداقات غير المشروعة ، بل تدعو إليها وتيسّر لها ! ولقد شهدت بنفسي في المدينة الجامعية بباريس كيف حُظِرَ على أحد الطلاب أن يستصحب زوجته معه في المسكن الجامعي فاضطر إلى إخلائه ، بينما تبيح إدارة المدينة للطلاب أن يستصحبوا ما شاءوا من الصديقات يبتن معهم في البيوت الجامعية بغير حرج على الإطلاق ! [ونفس الحق ممنوح بالطبع للطالبات !]

إنه المسخ الذي لا تفسير له إلا الجاهلية ! الجاهلية التي تتعمد أن تتنكب النظافة حيثما واجهتها ، وتصر على الدنس والقذارة حيثما وجدت سبيلاً إليها !

« أخرجوهم من قريتكم ، إنهم أناس يتطهرون ! »[2]

« وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغيّ يتخذوه سبيلاً .. »[3]

وهذا الدنس الذي تمارسه الجاهلية ليس هو الذي يستطيع أن يرتفع إلى رؤية النظافة الحسية والشعورية في شريعة الله ، وليس هو الذي تأخذه البشرية بديلاً من شريعة الله !

* * *

قضية أخرى تلفت نظرنا في سياق هذه الآيات :

« ولا تؤتوا السفهاء **أموالكم التي جعل الله لكم قياماً** » .

---

(١) سورة النور [٦٠] .

(٢) سورة الأعراف [٨٢] .

(٣) سورة الأعراف [١٤٦] .

قد يبدو لأول وهلة أن المقصود في الآية هو ألا تعطوا **أموالكم** للسفهاء (إن كانوا من مستحقيها بالوراثة مثلاً) ولكن الحكم في الحقيقة يسري على ما في أيدي السفهاء من **أموالهم** التي يملكونها بالفعل ، وهنا موضع الدلالة في الآية . إنه لم يقل : ولا تؤتوا السفهاء أموالهم .. وإنما قال : « ولا تؤتوا السفهاء **أموالكم** » حتى وإن كانت هي أموالهم في الحقيقة ، ولكن حق التصرف فيها يرجع - في حالة السفه - إلى الجماعة المسلمة ، لأن التصرف في المال حق لصاحب المال في حالة حسن القيام عليه ، أما إذا أساء استعماله فهو ملك له لا يزال ، ولكن حق التصرف فيه ينتزع منه ويعطى للجماعة المسلمة فتصبح هي صاحبة الحق الأول فيه .

وفي هذا يبدو لون من التوازن الإسلامي في مقابل الجاهليات عن يمين وعن شمال !

فإحدى الجاهليتين تعطي حق التصرف في المال للفرد أيًّا كان سلوكه فيه ، وأيًّا كانت الأضرار التي يمكن أن تنتج عن تصرفه في حق الجماعة .

وأما الجاهلية الأخرى فتحرم الفرد أصلاً من حق التصرف بل من الملك ذاته بحجة أنه متى مَلَكَ فسوف يسيء التصرف في حق الجماعة !

والنظام الرباني المتوازن لا يحرم الفرد من الملك ولا من حق التصرف السليم فيما يملك ، لأن ذلك أدعى إلى تنشيط الحافز الفردي للعمل والإنتاج وعمارة الأرض ، وفي الوقت ذاته يعطي الجماعة المسلمة حق التصرف في المال إذا سفه مالكه أي لم يحسن التصرف فيه ، ويضع في حسابه أن هذا السفه يضرّ بمصالح الجماعة فيقول : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم **التي جعل الله لكم قياما** » أي جعل حياتكم تقوم عليها ، فيقرر - مع رد حق التصرف في مال السفيه إلى الجماعة - أن مصالح الجماعة مرتبطة بحسن القيام على هذا المال .

وتبين بقية الآية ما يجب على الجماعة في سلوكها نحو صاحب المال الذي سفه فأخذت الجماعة عنه حق التصرف في ماله :

« وارزقوهم فيها واكسوهم ، وقولوا لهم قولاً معروفا » .

فليست المسألة إذن انتقاماً تصبه الجماعة على رأس ذلك السفيه ! وإنما هو تقويم ورعاية للمصالح الفردية والجماعية في آن واحد . فالجماعة تتصرف في المال على النحو الذي كان ينبغي على صاحبه في حالته السوية أن يتصرف به ، وتصون له ماله من الضياع لأن ضياعه لا يخصه وحده ، وإنما يخص الجماعة التي ترتبط مصالحها في مجموعها بهذا المال وحسن القيام عليه .

ويلفت نظرنا كذلك هذا التعبير : « وارزقوهم **فيها** .. » مقابل قوله تعالى بالنسبة لمن يحضر القسمة من أولي القربى واليتامى والمساكين في الآية الثامنة : « فارزقوهم **منه** .. » .

فالأولى توحي باستمرار الإنفاق عليهم من مالهم الذي تولت الجماعة بنفسها حق التصرف فيه ، بينما الثانية مرة واحدة وتنتهي عند تقسيم المال بالميراث .

وهكذا يقرر القرآن في آية واحدة موجزة : أهمية العامل الاقتصادي في حياة الجماعة ، وطريقة التصرف في المال بما يحفظ حق الفرد وحق الجماعة ويوازن بينهما في آن واحد . . وذلك من الإعجاز .

* * *

من بين ما تشتمل عليه هذه الآيات كذلك تقرير حق الميراث للرجل والمرأة على السواء :

« للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قلّ منه أو كثر نصيباً مفروضاً » .

وقد كانت الجاهلية العربية لا تورّث النساء أصلاً ، فجاء الإسلام فقرر للمرأة هذا الحق ونصّ عليه نصًّا مشدداً : « **مما قلّ منه أو كثر نصيباً مفروضاً** » . ولم يكن ذلك لأنه قد ثارت في ذلك المجتمع الجاهلي « قضيةٌ » للمرأة ولا مطالبةٌ منها « بحقوق المرأة » ! وإنما لأن هذا هو العدل الرباني الذي يريده الله ، ويمنحه لعباده رجالاً ونساء دون أن يطالبوا به ، ويبذلوا في سبيل المطالبة به أرواحهم وأعراضهم وأخلاقهم وإنسانيتهم ! وقد تقرر هذا الحق منذ أنزلت هذه الآية وضمنته المحاكم التي تحكم بشريعة الله ، دون أن يحتاج الأمر إلى « حركة نسائية » واحدة مما تعجّ به الجاهليات لاستخلاص الحقوق ، ويبذل فيها ما يبذل مما يعرفه الرجال والنساء على السواء !

أما توزيع المال الموروث فقد بيّنته الآيتان الحادية عشرة والثانية عشرة من السورة بالإضافة إلى الآية الأخيرة [١٧٦] التي تضمنت مزيداً من البيان بشأن « الكلالة » .

وليس من شأننا هنا أن نتعرض للأحكام الواردة في السورة فذلك أمر خارج عن هدف الكتاب . ولكنا نقف وقفة قصيرة عند نسبة التوزيع في المال الموروث : « للذكر مثل حظ الأنثيين » .

لقد ثارت في الجاهلية المعاصرة منذ الثورة الصناعية « قضية » للمرأة نشأت من أن هذه الجاهلية شغّلت النساء في المصانع (لأمرٍ يراد !) ثم أعطتهن نصف الأجر الذي تعطيه للعمال من الرجال . ومن هنا قام النساء بالمطالبة بالمساواة في الأجر ؛ ومن ثم بدأت القضية التي اتسعت ــ أو وُسِّعت ــ لتصل إلى المساواة في كل شيء ، وفي حق الفساد بصفة خاصة . أي « حق » المرأة في أن تهب نفسها لمن تشاء وفي أي صورة تشاء ![1]

وشتان بين هذا الأمر وذاك .

---

(١) راجع إن شئت كتاب « معركة التقاليد » أو كتاب « التطور والثبات » وراجع في ذات الوقت « بروتوكولات حكماء صهيون » !

إن الإسلام يعطي المرأة نصف الرجل في المال **الموروث فحسب** ، الذي لم يبذل فيه جهد ، وعلى أساس واضح هو أن الرجل يأخذ نصيب الضعف **ويكلف بالإنفاق** ، ومن بين من تجب النفقة منه عليهم المرأة التي يتزوجها والأم والأخت التي لا عائل لها . أما المرأة فتأخذ نصف الرجل **ولا تكلف بالإنفاق** على أحد إلا نفسها في الأحوال العادية . ومن ثم فهو حق مقابل تكليف .

أما المال المكتسب ـ الذي ثارت من أجله قضية المرأة في الجاهلية المعاصرة ـ فإن الإسلام لم يتعرض له على الإطلاق ولم ينتقص من حق المرأة كاملاً فيه ، لأنه جهد بشري مبذول ، وحين يتعادل الجهد يتعادل الجزاء . ومن أجل ذلك لم تثر للمرأة قضية في شأن المال المكتسب في ظل الإسلام لأنه لا قضية ! بينما المرأة العاملة في انجلترا ما تزال **إلى هذه اللحظة** تأخذ أجراً أقل من زميلها الذي يعمل معها في نفس المكان .

* * *

أما قضية المساواة المطلقة فقد ثارت بالفعل في نفوس بعض المسلمات المؤمنات ؛ ولكنها كانت على أفق أعلى بكثير من الأفق الذي تثار فيه في الجاهلية المعاصرة ، والذي يعني في خلاصته حق المساواة في الفساد !

ثارت بشأن المساواة في الأجر في الشهادة ، والمساواة في الميراث ، وإلى ذلك تشير الآية [٣٢] :

« ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض : للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن . واسألوا الله من فضله . إن الله كان بكل شيء عليماً » .

روى ابن أبي حاتم وابن جرير وابن مردويه والحاكم في مستدركه ، من حديث الثوري ، عن أبي نجيح ، عن مجاهد ، قال : قالت أم سلمة : يا رسول الله ، لا نقاتل فنستشهد ، ولا نقطع الميراث .. فنزلت الآية .. ثم أنزل الله : « أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى .. »

وقال السدي في الآية : إن رجالاً قالوا : إنا نريد أن يكون لنا من الأجر الضعف على أجر النساء كما لنا في السهام سهمان ! وقالت النساء : إنا نريد أن يكون لنا أجر مثل أجر الشهداء ، فإننا لا نستطيع أن نقاتل ، ولو كتب علينا القتال لقاتلنا ! فأبى الله ذلك ، ولكن قال لهم : سلوني من فضلي . قال : ليس بعرض الدنيا ...

ومع اختلاف الروايات بشأن نزول الآية ، فإنها تذكر نوعاً من التنافس على « الحقوق والواجبات » بين الرجال والنساء ، ولكنه على أي حال يختلف في هدفه ومستواه عن قضية المساواة في الجاهلية المعاصرة .

ومن ناحية أخرى تذكر الآية أن الله لم يستجب لذلك التنافس ـ أو ذلك التمنّي

كما تسميه الآية ـ حتى وإن كان في بعض الروايات يرتفع إلى الأفق الأعلى .. إلى تمني الشهادة في سبيل الله للفوز بالأجر في الآخرة ، وإنما قال لهم : « واسألوا الله من فضله .. »

إن الله ـ من رحمته ـ لم يجعل الأجر عنده وقفاً على نوع معين من العمل يتاح لأحد الجنسين ولا يتاح للآخر . إنما الأجر على الوفاء بالتكليف أياً كان التكليف : « للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن » .

فكل من الجنسين خلقه الله لمهمة معينة يؤديها في الأرض ، ووهب له المواهب اللازمة لهذه المهمة ثم كلفه تكاليفها . ومن بين تكاليف الرجال ـ أو في القمة منها ـ الجهاد في سبيل الله ، الذي يؤدي في بعض الأحوال إلى الشهادة . ومن بين تكاليف النساء ـ أو في القمة منها ـ رعاية البيت وتربية النشء على الإسلام وعلى طاعة الله .

ثم إن الله يعطي أعلى درجات الأجر لكل من الرجل والمرأة في ميدانه الأصيل : الرجل على استشهاده في سبيل الله ، والمرأة على حسن قيامها ببيتها وزوجها وأولادها . ومن ثم فلا ضرورة للمرأة أن تقوم بعمل الرجل لتحصل على أجره ، إنما هي تحصل على ذلك الأجر ـ وهو الجنة ـ من خلال عملها الخاص وتكاليفها الخاصة ، مع المحافظة على توزيع الاختصاصات في المجتمع ، وعدم الإخلال بمهمة من مهامه الأصيلة كما تفعل الجاهلية المعاصرة حين تفسد الأسرة والمجتمع والأخلاق بل تفسد الفطرة من حيث هي فطرة ، بدعوى المساواة بين الجنسين .

والتعقيب في الآية يشير إلى ذلك : « واسألوا الله من فضله ، **إن الله كان بكل شيء عليما** » .

فهو ـ سبحانه ـ يعلم كيف يستقيم حال المجتمع البشري حين يقوم كل جنس من الجنسين بتكاليف وظيفته الفطرية ، وكيف يختل حاله ويضطرب حين يأخذ أحد الجنسين مكان الآخر .

لذلك يأبى ـ سبحانه ـ تلك الفوضى التي تنشأ من ذلك « التمني » فضلاً على تحقيق ذلك التمني في عالم الواقع . ويوجه الناس ـ رجالاً ونساء ـ أن يسألوا الله من فضله ، وهو معطيهم من فضله حين يتطلعون إلى ذلك الفضل من وجهه الصحيح .

ولئن كان الناس قد تمنوا ، فقد ردّ القرآن عليهم ينهاهم عن ذلك التمني ، فانتهوا عنه لأنهم كانوا مسلمين ، يسعون إلى طاعة الله ومرضاته ، ويحكمون رغباتهم الخاصة ـ أو حتى أهواءهم ـ بأوامر الله وتوجيهاته ، فتستقيم نفوسهم على الطريق . فما أتعس نساءً جاهليات يطالبن اليوم ـ ويطالب لهن رجال جاهليون ـ بالمساواة في الميراث ، ويقال لهم ـ وهم يحملون أسماء مسلمة ـ إن الله يأبى ذلك فيقولون : ولكنا نحن نريد ! ما أتعسهم .. وما أصبرهم على النار !

* * *

« .. وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً . وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً ... »

نقف عند هاتين الآيتين وقفتين سريعتين :

الأولى عند قوله تعالى : «وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً» .

والتوجيه في الآية واضح لا يحتاج منّا إلى بيان .. ولكنا نقول فقط إن الإسلام كلٌّ متكامل ، لا يؤخذ منه جزء ويترك جزء . ولا يركَّز فيه على جانب ويهمل منه جانب آخر . فإذا كان الإسلام قد أوجب على المرأة أن تطيع زوجها ، فإن هذا الواجب يقابله واجب آخر من جانب الرجل هو المعاشرة بالمعروف . وبهذا يتوازن الأمر ، وتتوازن الحقوق والواجبات ، ويكون التطبيق الصحيح للإسلام . فأما حين يستبد الرجل بحقه ولا يؤدي ما عليه من واجب ، فإنه يكون فيه من الجاهلية بقدر ما يحيد عن أوامر الإسلام . وقد كان في واقع المجتمع الإسلامي في العصور الأخيرة خاصة من ارتد إلى سلوك الجاهلية في هذا الجانب وبعد عن طريق الإسلام . واستغل أعداء الإسلام من داخله وخارجه هذا الوضع ليثيروا قضية للمرأة ، ينفخون فيها لينفذوا من طريقها إلى تحطيم التقاليد الإسلامية والمفاهيم الإسلامية ، وفي النهاية يحطمون هذا المجتمع جملة ، لكيلا يبقى على وجه الأرض دين ، ولا يبقى هذا الدين بالذات ..

وكون المرأة كانت تعاني وضعاً مجحفاً في المجتمعات الإسلامية المتأخرة [1] حقيقة لا شك فيها ، يحمل وزرها أولئك الرجال الذين انتكسوا إلى الجاهلية في معاملتهم لنسائهم . ولكن الذين أثاروا « القضية » كانوا يقولون كلمة حق يراد بها باطل . وكان وراءهم مَنْ وراءهم من أعداء الإسلام يدفعونهم لا لتصحيح الأوضاع في المجتمع ، وإنما لتدميره والقضاء عليه . وقد رأينا في عالم الواقع كيف صارت « القضية » وأيّ شيء أدت إليه ! والعلاج الصحيح دائماً هو دين الله ، بشرط أن يؤخذ كله كما أنزله الله ، بكل توجيهاته في كل اتجاه ! والتوكيد على معاشرة المرأة بالمعروف واضح في النص شديد الوضوح ، يؤكده التعقيب في الآية : « فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيرا » . وهو توجيه مزدوج ، للاستمرار في المعاشرة بالمعروف حتى مع الكراهية إن حدثت ، والاستمرار كذلك في الإبقاء على رباط

---

(١) نقصد المتأخرة في الزمن . ونقصد كذلك في ذات الوقت أنها متأخرة عن الفهم الإسلامي والتطبيق الإسلامي الصحيح . والمجتمع الإسلامي إما أن يطبق الإسلام الصحيح فيكون متقدماً ومتحضراً ، وإما أن يحيد عنه فيتأخر ويتخلف في كل جانب .

الزوجية وعدم فصمها عند أدنى تحول في مشاعر القلوب .

والوقفة الثانية عند قوله تعالى : « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج ... »

إنني ألمح في النص إيحاء معيناً : أن مكان الزوجية لا ينبغي أن يترك خالياً لأي سبب من الأسباب !

لقد كانت الآية السابقة تتحدث عن الكره وما يمكن أن ينتج عنه من انفصال . وكانت التوصية في الآية ألّا يسارع الرجل إلى فصم رباط الزوجية عند أول بادرة من تحول المشاعر ، فعسى أن يكره شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيرا . والآية الثانية تشير إلى الحالة التي يتم فيها الانفصال في نهاية المطاف رغم التوصية ورغم الحرص .. فماذا تكون النتائج ؟ هل يحدث الانفصام ويظل المكان خاوياً ؟

هذا الذي توحي الآية بأنه **لا ينبغي** أن يحدث !

إن الوحدة الحية التي يقيم عليها الإسلام بناء مجتمعه هي الأسرة . والإسلام شديد الحرص على الأسرة لأهدافٍ ومعانٍ لا تخفى . ليس أقلها تهيئة الاستجابة النظيفة لدوافع الفطرة لكي لا تتحول إلى طريق الفاحشة . وليس أقلها تهيئة المحضن الطبيعي لتربية النشئ تهيئة إسلامية سليمة . ومن بينها كذلك تهيئة المدد البشري الدائم لهذا المجتمع الذي يحوطه الأعداء من كل جانب يريدون القضاء عليه ، والذي يعيش في جهاد دائم في سبيل الله لنشر دعوته وإقامة حكم الله في الأرض : «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله »[1] .

من أجل ذلك فإن الإسلام لا يستريح لتعطيل وظيفة الأسرة في المجتمع الإسلامي . ولذلك يعطي الإيحاء بأن هذا المكان لن يظل خاوياً إذا حدث الخلاف الذي يؤدي للانفصال ، وإنما يُملأ المكان على التوّ . فتستخدم الآية لفظ « استبدال » لتوحي بأنه أمر يتم في الحال ! خرجت من « وظيفة » الأسرة زوجة لأن التفاهم معها أصبح متعذراً ، ولم تعد الرابطة تؤدي مهمتها : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً **لتسكنوا إليها** ، وجعل بينكم **مودة ورحمة** »[2] ..

حدث ذلك رغم الحرص والصبر ، إذن فلتأخذ «الوظيفة» زوجة جديدة تملأ الفراغ ، ولا تعود الوظيفة معطلة لسبب من الأسباب .

وهكذا كانت نظرة المجتمع الإسلامي الأول على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنسبة للرجل والمرأة على السواء . وقد رأينا كيف يسعى عمر رضي الله عنه في

---

(١) سورة الأنفال [٣٩] .

(٢) سورة الروم [٢١] .

جدية كاملة إلى تزويج ابنته حفصة ، فيعرض الأمر على أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما ، شعوراً منه بأن هناك وظيفةً معطلة في المجتمع ينبغي أن تأخذ وضعها الطبيعي في الحال .

* * *

« الرجال قوامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض و بما أنفقوا من أموالهم . فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله . واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن . فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً ، إن الله كان علياً كبيراً » .

في معرض عناية الإسلام بالأسرة ، وتنظيمه تنظيماً دقيقاً لكل علاقاتها لكي تؤدي وظيفتها الحيوية في المجتمع .. يجئ ذكر القوامة ، ويحدَّد من يقوم بها في الأسرة .

إنه ــ بادئ ذي بدء ــ لا بد من قوامة وإلا انفرط عقد الأسرة وساءت فيها الأحوال ولم تعد تؤدي وظيفتها .

وإذ تقرر ذلك فقد بقيت قضية الجانب الذي توكل إليه القوامة : أهو الرجل أم المرأة ؟

والقضية في صورتها الإسلامية ليست منافسة ولا تسابقاً بين الجنسين كما تثيرها الجاهلية المعاصرة . فما أوجد الله الجنسين ليقوم بينهما الصراع والشقاق ، وإنما ليوجد السكن والسكينة وتوجد المودة والرحمة كما أشارت الآية التي ذكرناها آنفاً من سورة الروم [٢١] : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » .

إنما القضية هي تكاليف يكلف بها الأصلح في جميع الأحوال .

فأي الجنسين أصلح أن « يكلف » بالقوامة ويقوم بتبعاتها ؟

لقد تحدثت في كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام » عن هذه القضية بما يغنيني عن إعادة الحديث في هذا الموضع [١] . ولكني أضيف كلمة سريعة بشأن أمر جدّ في حياة الجاهلية المعاصرة ما بين ذلك الكتاب الأول وهذا الكتاب .

لقد كثر المنحرفون والمنحرفات من الأولاد والبنات في المجتمع الغربي ، وكثر كذلك الشذوذ . ونشطت المؤتمرات « العلمية » تبحث هذه الظاهرة الخطيرة ، وقام علماء النفس وعلماء الاجتماع وعلماء الجريمة وعلماء القانون وعلماء ... بالدراسة والتشخيص . وأخيراً قالوا إن هناك عوامل كثيرة أدت إلى هذه الظاهرة المرضية المزعجة ، وإن من بين الأسباب المهمة في هذا الشأن غياب سيطرة الأب من جو الأسرة نتيجة

---

(١) فصل « المشكلة الجنسية » .

ممارسة المرأة لحريتها وتطلعها الشديد إلى المساواة مع الرجل !

ولا نحتاج نحن أن نعلق على هذا الأمر بأكثر من أن هذا هو قانون الفطرة كما خلقها الله ! وأن هذا القانون حين يخالَفُ اتباعاً للهوى والشهوات تنتج عنه في حياة البشرية تلك الأمراض وتلك الانحرافات . وأن الإسلام ــ في هذا الأمر ، وفي كل أمر ــ هو دين الفطرة القويمة كما خلقها الله :

« فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله . ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » [1] .

ولكن أمراً آخر يستوقفنا في النص : « وبما أنفقوا من أموالهم .. »

إن هذا النص يستوقفنا بصفة خاصة بعد أن « تحررت » المرأة اقتصادياً وصارت تنفق أو تشارك في الإنفاق ، ثم رفضت قوامة الرجل عليها ، وكان من وراء ذلك ما كان من فساد الأجيال ..

هل كان من أجل ذلك تكليف الرجل بالإنفاق وعدم تكليف المرأة ؟ !

إننا ندرك ولا شك أن الإسلام قد أعفى المرأة من البحث عن الرزق ، ولم يضع عليها شيئاً من التكاليف المالية في الأحوال العادية لكي تتفرغ لشئون الأسرة غير مشغولة الأعصاب بالعمل أو الإنفاق . ولكن تجربة الجاهلية المعاصرة تشد انتباهنا شدًّا إلى النتائج التي تترتب على قيام المرأة بالإنفاق ، بحيث لا نستطيع أن نغفل هذه الزاوية من الموضوع .

وليس المعنى هو أن المرأة ينبغي أن تحرم من الملك لكي « تخضع » للرجل كما يقول التفسير المادي للتاريخ بشأن وضع المرأة في المجتمع الزراعي ..

كلا ! إن الإسلام لا يحرم المرأة من الملك ، ولا من التصرف بأهلية كاملة فيما تملك ، وهو الحق الذي ظلت الجاهلية الأوربية تحرم المرأة منه إلى عهد قريب جداً في هذا القرن العشرين !

المسألة أن الإسلام لم يكلفها بالإنفاق مهما كانت أموالها الخاصة [2] ، وكلف الرجل وحده بالإنفاق . وتجربة القرن العشرين تقول لنا إن المرأة حين تشعر أنها مكلفة بالإنفاق يضطرب نظام الأسرة وتضيع الأجيال !

ثم تبين الآية صورة الحياة داخل الأسرة في نطاق الفطرة السوية :

« .. فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله » .

إن الصالحات ترضي نفوسهن وتستريح إلى وضع الفطرة السوية ، فيجدن كيانهن

---

(١) سوره الروم [٣٠] .

(٢) إلا إذا أنفقت متطوعة بغير تكليف .

كاملاً في حياة الأسرة بوضعها الذي يحدده دين الفطرة ، بإلقاء تبعة القوامة على الرجل وقيامه بأعبائها المالية والنفسية على السواء . وإن المعاشرة بالمعروف لهي جزء من هذه التبعة ولا شك . فليست القوامة تجبراً وغطرسة ، ولا فرضاً للإرادة بالحق وبالباطل كما يمارسها بعض الرجال بمشاعر جاهلية بحتة . فالمسلم السوي يمارس السلطة بشعور التبعة لا بشعور الاستعلاء[1] . ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو الأسوة والقدوة في كل خلق إسلامي ، وهو ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي يقول : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي »[2] .

والآية تصف الصالحات بأنهن قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله . فتبرز خير الصفات التي تتحلى بها الزوجة الصالحة ، والتي تقوم عليها في الوقت ذاته الأسرة المسلمة . فهذا القنوت لله هو الباب الحقيقي الذي تدخل منه السكينة إلى البيت ، وتتحقق به الآية الربانية : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً **لتسكنوا إليها** ، وجعل بينكم مودة ورحمة »[3] ذلك أن النفس القانتة لله نفس رضية سخية مسالمة مستقيمة للحق غير محبة للمشاكل ولا النزاعات .

وأما الحفظ للغيب « بما حفظ الله » الذي يشمل حفظ العرض وحفظ المال وحفظ أسرار الزوجية وأسرار الأسرة فهو التكملة التي تثبت أركان السلام في البيت ، وتكمل الصورة الوضيئة للزوجة الصالحة والأسرة الهانئة السعيدة التي يحرص الإسلام على أن تكون هي بنية المجتمع كله ، فيكون مجتمعاً سليماً مترابطاً تنشأ منه أمة مترابطة .

أما الزوجة الناشز فلها وضع آخر ..

« واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن ، واهجروهن في المضاجع ، واضربوهن . فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ... »

إن الأسرة لا تؤدي وظيفتها الحيوية في حالة وجود النشوز من الرجل أو المرأة سواء . لا هي تعطى السكن والسكينة ، ولا هي تحقق معنى المودة والرحمة ، ولا هي تعطي الجو الطبيعي لتربية النشء على النسق الإسلامي السليم . ولا بد إذن من إجراء يزيل هذا النشوز ويصلح أمره . وهذه الآية [٣٤] تتحدث عن العلاج في حالة نشوز الزوجة ، بينما تتحدث آية [١٢٨] عن نشوز الزوج .

أولى درجات الإصلاح هي الموعظة ، وأمرها واضح لا يحتاج إلى بيان .

ولكن الموعظة قد لا تفلح . ومعنى ذلك أن الميل إلى النشوز أكبر قدراً من أن

---

(١) تحمل الآية في الحقيقة نهياً صريحاً عن البغي بالسلطة : « فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً » ونهياً ضمنياً عن الاستعلاء في قوله تعالى : « إن الله كان علياً كبيراً » .

(٢) أخرجه ابن ماجه

(٣) سورة الروم [٢١] .

تكفي فيه الموعظة ، ولا بد من إجراء آخر أفعل من الأول وأبلغ تأثيراً . وهنا يأتي الأمر الرباني : « واهجروهن في المضاجع .. » .

والله أعلم بمن خلق .. إن قوماً قد يخيل إليهم أنه ما دام التأديب بالضرب قد ورد في الآية ، فقد كان الطبيعي أن يأتي دوره بعد الموعظة ، ويكون الهجر في المضاجع عقوبة أخيرة !

ولكن الترتيب في الآية مقصود : الموعظة أولاً ، ثم الهجر في المضاجع ، ثم الضرب (وقد بيّن الرسول صلى الله عليه وسلم صورته ، فأمر بأن يكون ضرباً غير مبرح ، وأن يتقى فيه الوجه) .

إن الله العليم بمن خلق يعلم أن بعض النساء قد يدعوهن إلى النشوز اعتزازهن بجمالهن وجاذبيتهن ، وشعورهن بمدى تأثيرها على رجالهن ! فتتدلل الزوجة وتنشز عن أمر زوجها اتكالاً على ما لها من رصيد من الجاذبية هو – في ظنها – لا يقاوم !

وهنا يأتي العلاج من نوع الداء : « واهجروهن في المضاجع » ليعلمن أن الأمر جد ، وأن هذا الرصيد الذي ينشزن به لا فاعلية له في موقف الجد . وذلك يكفي لأن تعتدل المائلة التي أمالها الدلال !

وفي الأخير يأتي العقاب البدني لمن لم تصلحها الموعظة ولا الهجر في المضجع .. إنه إذن نشوز حاد يحتاج إلى تأديب من نوعه . يحتاج إلى الشعور بأن هناك « سلطة » تملك التأديب وتمارسه بالفعل ! ومن النفوس من لا يصلح شأنه إلا على هذا النحو .

وليست المسألة مجرد ممارسة الرجل لسلطانه ، واستعلائه على المرأة كما يتصورها الجاهليون المعاصرون وهم يقرأون هذه الآية . إنها تربية وإصلاح . إصلاح لأمر المجتمع كله مبتدئاً بالفرد وبالأسرة .

وإن الله لهو المربي – سبحانه – الذي ينظر من سماواته إلى المجتمع البشري كله ، ويضع القواعد والتوجيهات التي يعلم سبحانه أنها تؤدي إلى استقامته وصلاحه . فهو لا يضع هذه التوجيهات لإرضاء غرور الرجل ولا لإذلال المرأة ! فليس أحدهما أقرب إليه من الآخر إلا بالتقوى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله اتقاكم »[1] .

إنما يضع الله هذه التوجيهات ليصبح كل شيء في مكانه في هذه الخلية ذات الأهمية الحيوية في بناء المجتمع ، ليتكون منها ومن مثلها في النهاية مجتمع صالح يقوم بدور الخلافة في الأرض دون معوق ، وينطلق في عمارة الأرض بمقتضى المنهج الرباني ،

---

(١) سورة الحجرات [١٣] .

ويربي في الوقت ذاته جيلاً قادماً يتابع السير في الطريق القويم .

* * *

« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ... »

لأول وهلة يبدو كأن هناك انتقالاً مفاجئاً في السياق !

لقد ظل السياق يعالج أمور المجتمع بلا انقطاع من بعد الآية الأولى التي تشير إلى موضوعات السورة الرئيسية ، فتحدث عن اليتامى واليتيمات خاصة ، وعن مهور النساء ، وعن السفهاء وأموالهم ، ثم عن اليتامى عوداً على بدء ، ثم عن الميراث وأنصبته ، ثم عن الذين يأتون الفاحشة من النساء والرجال ، وعن منهج التعامل في داخل الأسرة ، ثم عن المحرمات من النساء وعمن يحل منهن ، ثم عن الطريقة السليمة لتداول المال في المجتمع المسلم وعن النهي عن قتل النفس ، ثم النهي عن تمني ما فضل الله به بعض الخلق على بعض ، ثم عن القوامة والنشوز وطريق الإصلاح بين الزوجين عند خشية الشقاق .

ثم ــ فجأة فيما يبدو لأول وهلة ــ يقول : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً .. »

ولكن المفاجأة غير قائمة في الواقع كما بيّنا من قبل . ولنعد إلى أول السياق :

« يا أيها الناس **اتقوا ربكم** الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ، **واتقوا الله** الذي تساءلون به والأرحام ، **إن الله كان عليكم رقيباً** » .

... « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً » .

هل تحس ــ على هذا النحو ــ أن هناك مفاجأة في السياق ؟ !

حقيقة أن الآيتين ليستا متواليتين ، وأن بين الأولى والثانية أربعاً وثلاثين آية كاملة شغلت كلها بالموضوعات التي ذكرناها آنفاً . ولكن هناك معنى يبرز من خلال جريان السياق على هذا النحو ، يتضح لنا حين نعود إلى السياق مرة أخرى لنرى أن هذه الآيات الأربع والثلاثين قد وضعت في هذا الإطار : «يا أيها الناس اتقوا ربكم ...» «واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً .. » فكأنما الإطار المحيط بها ، وبكل ما تحويه من أحكام وتوجيهات ، هو تقوى الله وعبادة الله وحده دون شريك ، أو قل إنه الخيط الذي ينتظمها جميعاً من أولها إلى آخرها ، فهي جميعاً مشمولة به ، وهي معلقة به كذلك .

ونريد أن نبرز هنا بعض نقاط .

الأولى : أن هذا الخيط الذي ينتظم الأحكام والتشريعات والتوجيهات هو خيط العقيدة : « اتقوا ربكم » .. « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا » . إنه الأساس الذي يقوم عليه المجتمع الإسلامي ، وتقوم عليه كل حياة الفرد المسلم . وإن بدء هذه المجموعة

من التوجيهات والتشريعات الاجتماعية بتوجيه عقيدي ثم اختتامها بتوجيه عقيدي آخر لهو واضح الدلالة في أن العقيدة هي البدء وهي النهاية وهي الأساس الذي يقوم عليه كل البناء .

الثانية : أن في الإسلام ولا شك نظماً وتنظيمات اجتماعية واقتصادية وسياسية تشمل حيزاً غير قليل من القرآن وحيزاً أكبر من السنة ، ولكن الإسلام مع ذلك ليس « نظاماً » بالمعنى المفهوم في « النظام » الديمقراطي أو الشيوعي أو الـ ...

إنه عقيدة أولاً ، ونظام بعد ذلك منبثق من العقيدة . وذلك واضح من بدء التنظيمات المشار إليها بذكر العقيدة ثم اختتامها بذكر العقيدة . فهذا تذكير وتوكيد بأن « النظام » ليس هو الأساس ، إنما العقيدة هي الأساس . وتلك مزية النظام الإسلامي على غيره من النظم الجاهلية ولو حققت للناس بعض النفع في المدى القريب ..

إن بعض الشباب المتحمس لنشر الدعوة الإسلامية في الغرب ، والذي يغريه أن الفراغ الذي يعانيه الغرب اليوم يجعله أكثر تقبلاً للإسلام من ذي قبل .. ليلح في أن يكون طريق الدعوة الإسلامية في الغرب هو بيان مزايا « النظام » الإسلامي دون الحديث عن العقيدة بادئ ذي بدء ، لأن الغرب مغرم بالنظم والتنظيمات ، وإذا لم نحدثه عن «النظام» الإسلامى فلن يقتنع بدعوتنا ..

نعم ! ولكن المزية الأولى في هذا النظام الإسلامي أنه قائم على العقيدة ! فكيف نغفل هذه المزية ثم نزعم أننا نريد أن نتحدث عن مزايا النظام ؟ !

إن القول بأن الغرب ليس على استعداد للكلام في العقيدة أو الدخول من باب العقيدة ليس صحيحاً أولاً ، بدليل من دخل منهم في البوذية ـ وهي « عقيدة » أياً كان لونها ، وليست نظاماً على الإطلاق ! ـ ومن يستجيب منهم إلى دعوة « كريشنا » وغيرها من الدعوات [1] ! ثم إنه إن كان صحيحاً ثانياً فليس هذا مبرراً لأن نلوي عنق الإسلام ليوافق انحرافهم ، تأليفاً لقلوبهم لكي يدخلوا الإسلام ! إن باب الإسلام هو العقيدة ، ومن لم يدخل من هذا الباب وإنما دخل من باب « الإعجاب » بالنظام فهو عرضة لأن تفتنه « النظم » في أية لحظة فيرتد عن الطريق !

وأوربا لا تنقصها النظم ـ من حيث هي نظم ـ ولا التنظيمات من حيث هي تنظيمات . إنما تنقصها العقيدة التي ترد إلى روحها الأمن والطمأنينة بادئ ذي بدء وترد عنها القلق والضياع الذي يفتت حياتها ، ثم تردها عن اعتناق النظم الجاهلية التي

---

(١) يلفت النظر في شوارع لندن شباب من الإنجليز حليقو الرأس إلا من خصلة شعر واحدة يدعون إلى اتّباع « كريشنا » بوصفه « ديناً » جديداً يدخلون فيه .

تمارسها فتؤدي بها إلى الخلل والاضطراب ، وذلك حين تقتنع ـ عقيدةً ـ بأن البشر لا ينبغي لهم أن يشرعوا من عند أنفسهم ، إنما يشرع لهم الله ، وأنه من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ..

فالعقيدة أولاً ، والعقيدة آخراً ، والعقيدة هي الأساس .. بالضبط كما يتضح من هذا النص القرآني في سورة النساء [1] .

ولا نحتاج أن نبين هنا ـ فقد بينا في مواضع أخرى ـ كيف يكون النظام القائم على العقيدة آكد في حياة الناس من النظام الذي هو مجرد نظام ، ويكفي مثلاً لذلك حيرة « النظام » الأمريكي في مسألة الخمر مقارنةً بما حدث عند تحريم الخمر في المدينة ، وحيرة ذلك النظام في قضية التفرقة العنصرية وكيف كان وضع بلال رضي الله عنه وأمثاله في المجتمع الإسلامي !

والثالثة : التي أشرنا إليها في مقدمة الحديث عن هذه السورة ، وهي أن الانتقال من الحديث عن العقيدة إلى الحديث عن الشريعة ، أو من الحديث عن الشريعة إلى الحديث عن العقيدة ليس انتقالاً مفاجئاً كما يبدو لنا عند أول وهلة ، وليس انتقالاً من موضوع إلى موضوع آخر مختلف عنه . إنما هو انتقال من بيان جانب من هذا الدين إلى بيان جانب آخر من ذات الدين . وهو في الوقت ذاته إشارة إلى أن هذا الدين كله سواء : العقيدة والشعيرة والشريعة والتوجيه ، فالانتقال من واحد من هذه الجوانب إلى جانب آخر هو انتقال من نقطة إلى نقطة أخرى في **ذات الموضوع** ، وهو تعليم من الله لعباده وتعريف بالحقيقة الشاملة لهذا الدين .

* * *

وتزداد حقيقة الترابط بين العقيدة وبين روابط الحياة وعلاقات المجتمع وضوحاً حين نستكمل قراءة النص :

« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم . إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً » .

فالتوجيه الأول توجيه عقيدي بحت ، يشتمل على هذا الأمر بعبادة الله وحده دون شريك . ولكن يرتبط به مباشرة في ذات النص ذلك التوجيه بالإحسان للوالدين ولذي القربى واليتامى والمساكين . ولهذا نظائر في آيات أخرى من القرآن في العهد

---

(١) وفي كثير من النصوص القرآنية الأخرى بطبيعة الحال .

المكي والمدني سواء ، وإن كان النص هنا يزيد الإشارة إلى الجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب ..

هذا الارتباط مقصود ولا شك وواضح الدلالة كذلك من ناحيتين:

الأولى : أن التوجيهات المنظمة لعلاقات المجتمع المسلم ـ من جميع نواحيها ـ تأتي منبثقة من العقيدة ، كما أسلفنا .

والثانية : أن الرابطة التي تربط الناس في المجتمع المسلم **هي رابطة العقيدة** . فالجميع يلتقون من خلال لا إله إلا الله التي يؤمنون بها فيعملون بمقتضاها . ومن إيمانهم بلا إله إلا الله تتجمع قلوبهم ويتوحد اتجاهها ، فتنشأ بينهم رابطة المحبة والمودة التي يأمر بها الإسلام .

وإنه لا شيء في الوجود يجمِّع القلوب أقوى من العقيدة .

كل رابطة غيرها .. من جنس أو لون أو لغة أو مصالح مشتركة أو أماني مشتركة أو تاريخ مشترك .. إلى آخر تلك الروابط التي يقيم الناس وجودهم وتجمعهم عليها في الجاهلية ، عرضة لأن تتفتت وتتشتت . ولكن رابطة العقيدة في الله هي الأثبت والأقوى والأدوم ، لأنها أعمق في القلب ، ولأنها لا تطلب شيئاً في المقابل ؛ إنما تأتي تلقائية من إيمان كل مسلم بلا إله إلا الله ، ومن ممارسته التلقائية لمقتضيات لا إله إلا الله . وواضح أن النص يجعل إقامة هذه العلاقات مع الوالدين وذوي القربى واليتامى والمساكين والجار وابن السبيل والرقيق من مقتضيات لا إله إلا الله ، لأنها تأتي مباشرة في أعقاب الأمر الرباني : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا » .. فتعطي الإيحاء بأن الإيمان بالله وحده بغير شريك لا بد أن يعقبه قيام العلاقات بين المؤمنين بلا إله إلا الله على درجة الإحسان التي يشير النص إليها . وإذا كانت الآية هنا قد خصت بالذكر فئات معينة من المجتمع ، فذلك أولاً متناسق مع جو السورة التي تعنى عناية خاصة بالفئات الضعيفة أو المستضعفة في المجتمع بالإضافة إلى تنظيم العلاقات بين أولي القربى ؛ وهو ثانياً لا ينفي أن هذه العلاقة ذاتها مطلوبة على مستوى المجتمع الإسلامي كله ، فإن الله يقول في سورة الحجرات [١٠] : « إنما المؤمنون إخوة » فيبين لنا نوع العلاقة التي ينبغي أن تشمل كل المؤمنين بلا إله إلا الله .

وأخيراً يلفت نظرنا التعقيب الأخير في الآية : « إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً » .

إنه تعقيب يجيء متوسطاً ـ بطريقة فنية لافتة للنظر ـ بين معنيين ، يُربَط كل منهما من ناحية بهذا التعقيب ، فيتصل بالمعنيين معاً في ذات الوقت ، ويعطي كلاً منهما اتجاهه !

« وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخورا » .

« إن الله لا يحب من كان مختالاً فخورا ، الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ، ويكتمون ما آتاهم الله من فضله . وأعتدنا للكافرين عذاباً مهينا » .

فأما السياق الأول فهو يوصي بالإحسان إلى ابن السبيل وما ملكت أيمانكم ، مع من سبق ذكرهم في الآية . وإذ كان وجود هؤلاء عرضة لإثارة الكبر والخيلاء في نفوس بعض الناس ، فيحس الشخص ذو المال أو الجاه بالاستعلاء على ابن السبيل ، ويحس مالك الرقيق بالخيلاء نحو رقيقه فيسيء إليه ، فإن التوجيه القرآني يأتي بالتنفير من هذا الخلق الذميم والنهي الضمني عنه ، ذلك أنه ما دام الله سبحانه وتعالى لا يحب من كان مختالاً فخورا فإن المؤمن الذي يعبد الله ولا يشرك به شيئاً لا بد أن يبتعد عن الوضع الذي لا يرضى الله عنه ، فيبتعد عن الخيلاء والفخر ، ويحسن إلى الناس بغير خيلاء .

وأما السياق الثاني فهو يتحدث عن فئتين من البشر مختلفتين تماماً ــ هما اليهود والمشركون ! ــ ولكنه يفتتح الحديث عنهما بأن الله لا يحب من كان مختالاً فخورا (التي رُبطت من قبل بالإحسان إلى ابن السبيل وما ملكت أيمانكم) ثم يستمر فيصف هاتين الفئتين المختالتين الفخورتين بما نفهم منه أن المقصود بها هم اليهود والمشركون :

« الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ، ويكتمون ما آتاهم الله من فضله ، وأعتدنا للكافرين عذاباً مهينا » وهؤلاء هم اليهود .

« والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا » . وهؤلاء هم المشركون من قريش خاصة .

وكلاهما يشترك في صفة واحدة أنهم مختالون فخورون ، هؤلاء بكِتابهم وبأنهم ــ فيما يزعمون ــ شعب الله المختار ، وهؤلاء بأموالهم التي يختالون بها على الناس ، وينفقون منها ــ حين ينفقون ــ رئاء الناس .

وهكذا يعمل النص : « إن الله لا يحب من كان مختالاً فخورا » على « جبهتين » مختلفتين في وقت واحد إن جاز لنا التعبير ؛ مرة ينفر من الاستعلاء على المستضعفين في المجتمع الإسلامي ، ومرة ينفر من اليهود والمشركين .

ومرة أخرى قد تبدو لنا النقلة مفاجئة .. ولكننا نعود إلى السياق لنرى الارتباط .

لقد بدأ السياق بدعوة المؤمنين إلى عبادة الله وحده دون شريك : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً » ووجههم بعد ذلك إلى العمل بمقتضيات لا إله إلا الله ومن بينها الإحسان إلى الفئات المذكورة في السياق . حتى إذا جاء إلى ابن السبيل والرقيق نفّر من الاستعلاء عليهم ، لأنه مخالف لمقتضى لا إله إلا الله التي يؤمن بها المؤمنون . ومن ثم انتقل إلى فئتين من البشر لا تؤمنان بلا إله إلا الله ومن ثم لا تعملان بمقتضاها ، وهما اليهود والمشركون . وهكذا يكون السياق كله مستمراً في الحقيقة ، ومنطلقاً من عبارته الأولى أو قضيته الرئيسية : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا » .

ولكي تتأكد من اتصال السياق ، وانطلاقه من قضيته الرئيسية تلك ، فاقرأ الآيات التاليات :

« وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله ؟ وكان الله بهم عليما . إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ، ويؤت من لدنه أجراً عظيماً . فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ؟ يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ؛ ولا يكتمون الله حديثا » .

وهكذا يكون المنطلق كله هو قضية لا إله إلا الله ، يوجِّه المؤمنون للإيمان بها والعمل بمقتضاها ، ويندد بالذين لا يؤمنون بها ولا يعملون بمقتضاها من أي فريق كان .

ومن هنا يبدأ السياق يتحدث عن أعداء لا إله إلا الله من يهود ونصارى ومشركين ومنافقين ، ويستغرق ذلك جزءاً كبيراً من السورة كما سيجيء .

* * *

آية واحدة تتعلق بشعيرة الصلاة والغسل والتيمم ، ثم يتوجه السياق فترة غير قصيرة إلى اليهود .

« يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً إلى عابري سبيل حتى تغتسلوا . وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم . إن الله كان عفوًّا غفورا » .

كانت هذه مرحلة في طريق التحريم النهائي للخمر ، التي كانت ما تزال عالقة بقلوب بعض المؤمنين ومنهم عمر رضي الله عنه ، وقد علم الله أن أموراً كهذه تحتاج إلى تدرج طويل حتى تمحى من النفوس ومن واقع المجتمع . ونلحظ في طريقة الإسلام في معالجة النفس البشرية وتقويمها أن هناك أموراً يطلب التحول فيها في التو بلا إمهال وأموراً أخرى تستغرق سنوات من التحول حتى تصل إلى غايتها . وذلك حسب طبيعة هذه الأشياء في النفس والطريقة التي يتم بها التحول . فمسألة الإيمان بالله الواحد دون شريك من الأمور التي لا إمهال فيها ولا تدرج . لا لأنها قاعدة كل شيء فحسب ، ولا لأنها الأساس الذي تنبني عليه وتستمد منه كافة التوجيهات والتنظيمات فحسب ، ولكن كذلك لأن التحول فيها يتم في لحظة ! والتدرج فيها غير ممكن ! إنها حق أو ضلال . رؤية أو عماية . أبيض أو أسود . ولقد يستغرق التفكير في الأمر فترة من الزمن تطول أو تقصر . وقد تمتد سنوات كما حدث مع عمرو بن العاص . ولكن الهداية تحدث في لحظة واحدة حاسمة يتبين فيها الحق فينتهي الضلال . لحظة تنقشع فيها العماية فتتم الرؤية . لحظة يرى فيها الإنسان الأبيض فيتحول عن الأسود .

لذلك لا يتدرج القرآن مع الناس في قضية الألوهية ! ولا يقبل منهم أنصاف الحلول ، لأنه لا توجد في القضية أنصاف حلول ! : « فلا تطع **المكذبين** . ودوا لو تدهن فيدهنون » ! [1] إنهم في مداهنتهم ما زالوا في منطقة العماية لا في منطقة الرؤية ، ولو تمت الرؤية لما عادوا يداهنون !

أما الخمر فأمرها مختلف . إنها عادة نفسية وجسدية وفردية واجتماعية ، ولها اتصال وثيق بالكيان العصبي للإنسان . وليس معنى هذا أن الإقلاع الفوري عنها غير ممكن . بل هو ممكن بغير شك . ولكن قلة من البشر من يقدر عليه . والغالبية تحتاج إلى التدرج حتى تستطيع أن تصل إليه . التدرج في المقدار ، والتدرج في الزمن المخصص للشراب ، والتدرج في العادات الفردية والاجتماعية . وقد اقتضت الحكمة الربانية أن يتم التحول على عدة مراحل ، استغرقت في مجموعها عدة سنوات . وكانت المرحلة التي تشير إليها الآية هنا هي التدرج في الزمن بتحريمها في أوقات الصلاة ، وذلك يضيق الفترة المتاحة ، لأن المقصود ليس الشرب ذاته وإنما أثره ومفعوله وهو السكر : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم **سكارى حتى تعلموا ما تقولون** » وهذا الوعي في الصلاة لا يتأتى إذا كان الشرب قد تم منذ قريب . فلا يستطيع الإنسان أن يشرب في الصباح ويكون صاحياً واعياً في صلاة الظهر ، أو يشرب في الظهر ويصلي العصر على وعي ، أو يشرب في العصر ويؤدي صلاة المغرب أو العشاء كما ينبغي . لذلك فقد حصرت الآية فترة الشراب في الحقيقة فيما بعد صلاة العشاء إلى النوم .. وتلك كانت مرحلة على الطريق .

ثم تجيء في الآية أحكام خاصة بالجنابة والغسل ورخصة المرض والسفر وحالة عدم وجود الماء والتيمم ، لا نتعرض لها هنا لأن هذا ليس مجالنا كما أسلفنا .

إنما نشير إشارة ــ مكررة ــ إلى هذا الانتقال من الحديث عن اليهود والمشركين إلى الحديث عن هذه الشعائر ، ثم العودة بعدها إلى حديث مفصل عن اليهود .. إنه أمر مألوف في القرآن على القاعدة التي أشرنا إليها من قبل .

* * *

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل . والله أعلم بأعدائكم ، وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيرا . من الذين هادوا ... »

يتحدث السياق في آيات متواليات عن اليهود ، معرِّفاً بأحوالهم وطباعهم حيناً ،

---

(١) سورة القلم [٨ – ٩] .

مهدداً لهم حيناً ، كاشفاً عن دخائل أنفسهم ودوافعهم الخبيثة الشريرة لحرب المسلمين والتأليب عليهم .

والسور المدنية الطويلة لا تخلو من حديث عن أعداء لا إله إلا الله المحاربين للمسلمين المناوئين لدعوة الله بفئاتهم الأربع : اليهود والنصارى والمشركين والمنافقين . جاء الحديث عنهم في سورة البقرة وسورة آل عمران ويجيء هنا في سورة النساء ويجيء كذلك في سورة المائدة ، على اختلاف في النسب المخصصة لكل منهم ونوع الحديث الموجه إليهم وموضوعه . ولكنهم دائماً هناك .

وحين نقرأ هذه السور على أنها تسجيل لأحداث بعينها في تاريخ الدعوة فقد يخيل إلينا أنه حديث الماضي ، المحدد بتلك الأحداث .. ولكن الحقيقة ليست كذلك .

إن هذا التوكيد الشديد في القرآن على أعداء لا إله إلا الله وكيدهم للإسلام ـ واليهود منهم خاصة ـ ليس شأناً من شئون الماضي ، في الوقت الذي كانت تقع فيه أحداث معينة في تاريخ الدعوة يتنزل بشأنها القرآن ، إنما هو حديث الحاضر والمستقبل ، وحديث الزمن كله إلى أن تقوم الساعة :

« **ولا يزالون** يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ... »[1]

« **ولن ترضى** عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم »[2] .

لذلك ينبغي أن نأخذ هذا الحديث عن تلك الفئات الأربع على أنه حديث الساعة ، الموجه إلينا شخصياً في اللحظة التي نعيش فيها الآن .

ولا يتسع المجال هنا لاستعراض الآيات تفصيلاً ولكنا نقف عند إشارة القرآن إلى حسد اليهود وحقدهم :

« أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ؟ »

وذلك بعد قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم ؟ ! »

إن مشكلة اليهود ـ ومشكلة البشرية الدائمة معهم ـ أنهم يحسبون أنهم أفضل أهل الأرض في جميع المجالات وعلى جميع المستويات ! ومن ثم يرون أنهم ـ وحدهم ـ هم الجديرون بكل خير في الأرض ، وأن كل خير يناله أحد غيرهم هو منتزع منهم شخصياً ولا بد من حرمانه منه ! ومن ثم لا يستطيعون أن يعيشوا مع البشرية في سلام !

ولكن حقدهم الأكبر ـ كما يقرر القرآن ـ هو الموجه ضد المسلمين والإسلام .

---

(١) سورة البقرة [٢١٧] .

(٢) سورة البقرة [١٢٠] .

ومن ثم فإن صراعهم مع الإسلام لا يزول حتى تقوم الساعة وينتهي الصراع في الأرض . وهذا الذي ينبهنا القرآن إليه بالحديث المفصل عنهم في أكثر من سورة من سور الكتاب .

* * *

التعقيب الأخير على الآيات الواردة بشأن اليهود تعقيب لا تملك النفس أن تفر من تأثيره :

« إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب . إن الله كان عزيزاً حكيما » .

إنه نص عام يشمل كل من يكفر بآيات الله ، وإن كان قد جاء بمناسبة ذكر من كفر بما أنزل الله على آل إبراهيم .

« أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ؟ فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيما . فمنهم من آمن به ومنهم من صدّ عنه ، وكفى بجهنم سعيرا . إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً ... »

والنص يثير الرهبة والفزع في كل نفس تملك الحس .

إن أقسى ما يصيب الإنسان في الأرض من الألم هو ألم الحرق بالنار . ولكنه في الأرض ـ على كل ما فيه من ألم يفوق الطاقة ـ هيّن هيّن بالنسبة لذلك العذاب الذي تصفه الآية في الآخرة .

فكم يقضي الإنسان في الأرض شاعراً بعذاب الحريق ؟

لحظة ؟

هبها لحظات تمتد إلى أيام .. ثم لا بد أن يشفى أو يموت .

وهو جلد واحد ، وأعصاب واحدة في هذا الجلد . فإن احترق فقد انتهت المسألة وانتهى العذاب ..

فما بال هذا العذاب الذي لا ينتهي ولا يقف عند حد ؟

ما باله لا ينتهي حتى حين يحترق الجلد كله بما فيه من أعصاب الحس التي تنقل الإحساس بالعذاب ؟

كلا ! إن صاحبه لا يجد الراحة قط ، لأنه لا يشفى ولا يموت . وإنما يحترق جلده ـ بكل ما في ذلك من عذاب يفوق الطاقة ـ فإذا له في ذات اللحظة جلد جديد بأعصاب جديدة تنقل الإحساس بالعذاب !

« بدلناهم جلوداً غيرها **ليذوقوا العذاب** » .

ويظل الخيال يتصور الاحتراق الدائم الذي لا يتوقف ، والعذاب الدائم الذي لا يكف .. وإن كان في الحقيقة لا يستطيع أن يمضي في تصوره إلا لحظات .. فمجرد التصور شيء فوق الطاقة .. فكيف بالعذاب !

وفي المقابل تماماً تأتي تلك الصورة الرخية الهنية المورفة .

« والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ، لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلاً ظليلا » .

فمن ذا الذي يترك هذا الظل الوارف ويذهب إلى الحريق ؟!

* * *

من هذا الحديث عن اليهود وكيدهم للمؤمنين ، يتوجه الحديث إلى المؤمنين يرسم لهم دستور حياتهم على المنهج الرباني ، ثم يعود إلى اليهود مرة أخرى بشأن صفة أخرى من صفاتهم أو ثوب آخر مما يلبسونه من ثياب ، هو ثوب المنافقين ، ليقرر في النهاية حقيقة الإيمان .

« إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعما يعظكم به . إن الله كان سميعاً بصيرا . يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم . فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . ذلك خيرٌ وأحسن تأويلا .

« ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيدا . وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا . فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا . أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم ، فأعرض عنهم ، وعظهم ، وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً . وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله . ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيما . فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما » .

« إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ... »

نص شامل يشتمل على معان كثيرة ويحتاج منا إلى التفات .

إنه أولاً توجيه عقيدي . فإن أولى الأمانات التي ينبغي أن تؤدى إلى أهلها هي الأمانة الكبرى نحو الله : الإيمان به وحده دون شريك ، ثم إفراده بالحاكمية ، الذي ستتحدث عنه بقية الآيات .

وهو ـ من هذه الزاوية ـ يلفتنا إلى أمر معين في سياق السورة التي جاءت لتنظم علاقات المجتمع الإسلامي وتقرر جانباً من أنواع المعاملات فيه .

بدأت السورة بالأمر بتقوى الله :

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث

منهما رجالاً كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيبا » .

وجاءت على أثر ذلك مجموعة من التوجيهات ، أعقبها هذا النص :

« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً .. »

ومضى السياق شوطاً مع علاقات أعداء لا إله إلا الله بالإسلام والمسلمين ، جاء بعده هذا النص :

« إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ... »

وستجيء بعد ذلك مجموعة من التوجيهات والتنظيمات والأحكام والتشريعات يعقبها هذا النص :

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين . إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا . يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ... »

إنها « محطات تقوية » على الطريق .

فكلما مضى السياق شوطاً مع التوجيهات المنظمة لعلاقات المجتمع الإسلامي جاءت شحنة جديدة من التوجيه العقيدي تؤدي أكثر من مهمة في الوقت الواحد :

تربط القلب البشري بالله وتذكره به ، وذلك هو الرباط الذي تستقيم به الحياة في الأرض ، وتستقيم به حياة ذلك القلب ، فينظف ويطهر ويصلح ، ويتوازن مع ثقلة الأرض وجذب الشهوات .

ومن جانب آخر تربط تلك التوجيهات ذاتها بالعقيدة . فلا تصبح مجرد أوامر تؤدى ، ولا تنظيمات تقام .. وإنما تصبح عبادة يتقرب بها الإنسان إلى الله ، ويبتغي من تأديتها رضاه . فلا يصبح الحافز إلى أدائها مصلحة قريبة إن توقفت توقف هو عن الأداء ، ولا خوفاً من سطوة الدولة أو مطاردة القانون بالعقاب . إنما يصبح الحافز أعمق من ذلك وأوثق : يصبح ثواب الآخرة ومرضاة الله . ومن ثم يصبر على التكاليف ولا يضيق بها ، ولا يتحايل على القيام بها في أضيق نطاق ممكن ، بل يحاول أن يؤديها على مستوى الإحسان الذي لا يقف عند الحد الأدنى ، وإنما يتطلع دائماً إلى المثال .

وهكذا تؤدي تلك الإشارات الموزعة في ثنايا السورة مهمتها بتجديد شحنة العقيدة كلما مضى الإنسان شوطاً على الطريق ، فتعينه على حمل ما حمّل من التكاليف من جهة ، وتمده من جهة أخرى بزاد جديد يتلقى به مزيداً من التكاليف .

* * *

« إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ... »

نص يشمل كل أمانة على الإطلاق ..

والأمانة التي تتعلق بها سائر الأمانات هي تلك المتعلقة بحق الله على العباد : أن يعبدوه وحده بلا شريك ، ويتحاكموا إلى شريعته وحدها ويتخذوا منهج الله وحده منهج حياة .

فإذا تم ذلك فقد تم تلقائياً تأدية الأمانات كلها إلى أهلها ، ذلك أن منهج الله قد حدد بوضوح طبيعة تلك الأمانات وحدودها ، كما حدد كذلك « أهلها » الذين تؤدى إليهم . فإذا ما راعى الإنسان الأمانة الكبرى وردها إلى أهلها ـ وهو الله سبحانه ـ فإنه سيستشعر تقوى الله (وهو التوجيه الذي بدأت به السورة كلها) وسيراعي حقوق الآخرين عليه ، سواء كانوا من أولي القربى أو اليتامى والمساكين وابن السبيل .. الخ ، الذين أشارت إليهم الآية : «واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى ... » أو كانت الزوجة ، التي أشارت إليها الآية : « وعاشروهن بالمعروف .. » ، أو كان الناس جميعاً الذين تشملهم ضمناً هذه الآية : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط[1] شهداء لله .. » فهذه كلها أمانات ، وهؤلاء الذين تذكرهم الآيات هم أهلها الذين ينبغي أن تؤدى إليهم .

ثم إن الأمانات كلها ـ وفي مقدمتها الأمانة الكبرى نحو الله ، وهي عبادته وحده دون شريك ـ لا يتم أداؤها إلا بالتحاكم إلى ما أنزل الله . لأن التحاكم إلى ما أنزل الله هو التطبيق العملي للعبودية لله وحده من جهة ، وللعدل الرباني الذي يعطي كل ذي حق حقه من جهة أخرى .

وهذا المعنى ستفصله الآيات التالية تفصيلاً وتؤكد عليه تأكيداً . ولكننا نجد في الآية التي نحن بصددها إشارة دالة ، هي الأمر الموجه للمؤمنين أن يحكموا بين الناس بالعدل :

« إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » .

فالحكم بين الناس بالعدل هو واحد من الأمانات الكبرى التي ينبغي أن تؤدى إلى أهلها ـ وهم هنا « الناس » جميعاً ـ يبرزها السياق لأهميتها البالغة في حياة الأمة المسلمة المكلفة بتطبيق العدل الرباني على مستوى البشرية كافة لا في محيط ذاتها فحسب ، ويبرزها كذلك لأنها تنير الطريق لكيفية أداء هذه الأمة لأماناتها . فإن العدل الذي تأمر الآية بتطبيقه بين الناس ليس شيئاً آخر غير شريعة الله . والحكم بالعدل في حقيقته هو الحكم بما أنزل الله .

---

(١) أي في حق الناس جميعاً لأن الآية مطلقة لم تحدد أصحاب الحق في القسط ، إنما أشارت إلى أداء الحق للناس « ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » .

هذه الإشارة الدالة تفصلها وتؤكدها الآيات التالية كما سنرى . ولكنا ـ قبل الانتقال إلى تلك الآيات ـ نقف عند التعبير الوارد بعد الإشارة السابقة لأنه تعبير لا يملك الإنسان أن يمر به دون أن يتدبره ويتملاه :

« ... وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل . إن الله نعمّا يعظكم به » .

الأصل اللغوي لكلمة نعمّا هو : نعم ما . إن الله نعم ما يعظكم به .

والذي يلفت النظر ـ من الوجهة البلاغية ـ هو تركيب المبتدأ (اسم إن) والخبر في الجملة . فالذي يرد على الذهن أن يقول التعبير : إن الله يعظكم بما هو خير . أو : إن ما يعظكم به الله هو الخير . أو : إن ما يعظكم به الله نعم هو . أو نعمّا هو ..

ولكن التعبير القرآني لا يقول شيئاً من هذا الذي يرد على الذهن ، إنما يقول : « إن الله نعمّا يعظكم به » فيجعل لفظ الجلالة هو المبتدأ (اسم إن) ويجعل الجملة « نعمّا يعظكم به » هي الخبر للفظ الجلالة . وفي هذا ما فيه من التوكيد على الأهبة البالغة لما يعظ به الله (وهو تأدية الأمانات إلى أهلها والحكم بين الناس بالعدل) حتى ليصبح خبراً مباشراً للفظ الجلالة . والخبر في الأصل البلاغي هو ما يتم به فهم المعنى ويتضح به وصف المبتدأ في الذهن !

ثم تأتي أولى الآيات المفصلة لما جاء في الآية السابقة :

« يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم . فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . ذلك خير وأحسن تأويلا » .

إن هذا هو الطريق لتأدية الأمانات إلى أهلها وللحكم بين الناس بالعدل . فإنما يتم ذلك ابتداء بطاعة الله وطاعة رسوله وأولي الأمر من المسلمين . ثم برد الأمر المتنازع عليه إلى الله والرسول .

وفي الآية جملة إشارات تحتاج إلى وقفة عندها للبيان .

الأولى أن طاعة الله وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم واجبة بالذات وفي كل ما أمر به الله ورسوله . بينما طاعة أولي الأمر ليست واجبة بذاتها ، إنما هي ملحقة بطاعة الله ورسوله . يدل على ذلك أن الفعل « أطيعوا » ورد مع لفظ الجلالة ومع الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يرد مع أولي الأمر . لم يقل السياق : أطيعوا الله واطيعوا الرسول **وأطيعوا** أولي الأمر منكم . وإلا لوجبت طاعتهم في كل ما يأمرون به بوصفهم سلطة تطاع لذاتها . ولكن السياق بيّن أن طاعة الله واجبة لذاتها لأن الله سبحانه وتعالى هو صاحب السلطة التي ينبغي أن تطاع (أي صاحب الحاكمية كما سيرد في الآيات التالية) وأن طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم واجبة لذاتها لأنه المبلغ عن الله سبحانه وتعالى

الذي لا ينطق عن الهوى : « وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحي »[1] والذي أمر الله (صاحب السلطة وصاحب الحاكمية) بطاعته طاعة مطلقة في كل ما يأمر به ، وذلك في أكثر من آية من هذه السورة ومن غيرها . فقد جاء في هذه السورة [آية ٦٤] : « وما أرسلنا من رسول **إلا ليطاع** بإذن الله » وجاء فيها أيضاً [آية ٨٠] : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » . وجاء في سورة الحشر [٧] : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » .

أما طاعة أولي الأمر فبما أنها ـ في سياق الآية ـ ملحقة بطاعة الله ورسوله فهي ـ عقلاً ـ في حدود ما أمر به الله ورسوله ، أي في حدود طاعتهم هم لما أمر به الله ورسوله . ولكن الأمر ليس متروكاً للاستنباط العقلي إنما هو منصوص عليه نصاً صريحاً في القسم الثاني من الآية : « فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول » فهما ـ وحدهما ـ المرجع الذي يرجع إليه في كل الأمور .

والوقفة الثانية عند قوله تعالى : « وأولي الأمر **منكم** » .

فأولو الأمر ليسوا هم أي ناس يقومون بالحكم على المسلمين ، أو ينصّبون أنفسهم ليكونوا حكاماً . إنما هم ـ ضرورةً ـ ينبغي أن يكونوا **من** المسلمين . من الجماعة المسلمة . من المؤمنين . لأن الخطاب أصلاً هو للذين آمنوا ، ثم يقول لهم : « وأولي الأمر **منكم** » . فحين يتولى أمر المسلمين بالجبر والغصب قوم غير مؤمنين ، لا يحكمون بما أنزل الله ، فإن الله لا يأمر بطاعتهم على الإطلاق . بل هو سبحانه يأمر بعدم طاعتهم ، حين يأمر برد الأمر المتنازع فيه إلى الله ورسوله ، أي إلى ما أنزل الله .

وفي هذه النقطة يجيء التفصيل والتوكيد في الآيات التالية ليحدد بالضبط من هم « المؤمنون » ومتى يكونون مؤمنين ، أي متى يكونون « منكم » وتكون طاعتهم واجبة ، لا على إطلاقها ، ولكن في حدود ما أنزل الله[2] .

ولكن الذي ينبغي توكيده هنا أن الجهالة قد وصلت « بالمسلمين » في عصرهم الحاضر إلى أن يطيعوا المتسلطين عليهم الذين لا يحكمون بما أنزل الله زعماً بأن الله هو الذي أمرهم بذلك !

« وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ! ! قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ! أتقولون على الله ما لا تعلمون ؟ ! »[3]

---

(١) سورة النجم [٣ ـ ٤] .

(٢) هذا فيما ورد فيه نص من الله ورسوله . أما المتروك بلا نص فعلى الناس السمع والطاعة فيما يجتهد فيه ولي الأمر المسلم الذي يطبق شريعة الله بشرط ألا يخالف نصاً ولا قاعدة عامة من قواعد التشريع .

(٣) سورة الأعراف [٢٨] .

ومن أجل فِعْلهم ذلك فقد تحولوا إلى الغثاء الذي تحدث عنه الرسول صلى الله عليه وسلم : « يوشك أن تداعي عليكم الأمم كما تداعي الأكلة إلى قصعتها . قالوا : أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ ! قال : بل أنتم كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل » .

ولن يعودوا إلى عزتهم ومكانهم في الأرض حتى يعلموا حدود ما أنزل الله ، ويعرفوا من يطيعون ومن لا يطيعون .

والوقفة الثالثة عند قوله تعالى : « فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » .

وهو تعبير حاسم لا يرد كثيراً في القرآن بالنسبة للمؤمنين ، إنما أكثر وروده بالنسبة لمن يدعون الإيمان . ولكنه حيثما ورد خطاباً للمؤمنين ـ كما هو في هذا النص ـ فهو يشمل معنيين في آن واحد . المعنى الأول أن الأمر الوارد في النص هو حقيقة الإيمان ، لا يتأتى الإيمان ولا يتحقق إلا به . والمعنى الثاني هو التهديد الخفي للمؤمنين ـ إن خالفوا هذا الأمر ـ بأنهم عندئذ يخرجون من دائرة الإيمان ولا يعودون مؤمنين !

* * *

« ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ؟ ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيدا » .

الحديث هنا عن اليهود الذين يتظاهرون بالإسلام لغاية في نفوسهم ، وهم لم يؤمنوا في حقيقة الأمر . فهم هنا يعرضون بصفة أصيلة من صفاتهم وهي النفاق . ولا يشير السياق نصاً على أنهم اليهود ، ولكن يفهم ذلك من السياق ، ومن الإشارة إلى أنهم يزعمون أنهم يؤمنون بما أنزل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وما أنزل من قبله .

والروايات تقول إن هذه الآيات نزلت في يهودي ادعى الإسلام ثم سأل الرسول صلى الله عليه وسلم في أمر من الأمور فأفتاه الرسول صلى الله عليه وسلم فلم يعجبه حكمه ، ومضى يسأل عن حكم آخر يكون أقرب إلى هواه !

والنص على أي حال عام ، يشمل هذا اليهودي وكل حالة مماثلة ، يدعي فيها الإسلام شخصٌ ما ، ثم يعرض عن حكم الله ورسوله ويبحث عن حكم آخر بحجة من الحجج التي يتلمسها الزائغون عن حكم الله .

والآية تسجل عليهم أربعة أشياء : أنهم يدّعون الإيمان بما أنزل الله ، وأنهم مع ذلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت (والطاغوت هو كل شيء أو سلطة أو حكم أو عرف تكون له الحاكمية من دون الله) وأنهم أمروا أن يكفروا بالطاغوت ، وأن الشيطان يريد أن يضلهم ضلالاً بعيدا .

وبهذا تكون الآية قد حددت وضعهم ــ أو وصفهم ــ تحديداً دقيقاً يرشح للحكم الأخير الذي سيصدر عليهم بأنهم ليسوا مؤمنين ، وأنهم لا يؤمنون حتى يتحاكموا إلى شريعة الله .

فالآية تقرر أنهم **يزعمون** الإيمان ، ولكنها في هذا الموضع لا تحيل إلى علم الله بما في قلوبهم [1] ، وإنما تحيل إلى عمل ظاهر هو إرادتهم أن يتحاكموا إلى الطاغوت . ومن ثم تقرر مبدأ عقيدياً واضحاً لا لبس فيه : هو أن كل من يرغب في حكم الطاغوت ــ وهو كل حكم غير حكم الله ــ فهو ليس مؤمناً ولو زعم ذلك . وحقيقة أن « الإرادة » التي تتحدث عنها الآية هنا بشأن ذلك اليهودي كانت بعمل ظاهر هو بحثه عن حكم آخر غير حكم الله . ولكن هذا أمر يدخل في اختصاص الدولة المسلمة أي التي تحكم بما أنزل الله ــ حين توجد ــ لتحكم عليه بالردة وتقيم عليه حد الردة . ولكن الذي يدخل في اختصاص الدعاة اليوم ــ حتى تقوم الدولة المسلمة التي تحكم بما أنزل الله ــ أن يبينوا للناس هذه الحقيقة : أن التحول من الحكم بما أنزل الله إلى حكم الطاغوت يخرج الناس من الإيمان ولو زعموا أنهم مؤمنون ، وأن من رضي بحكم الطاغوت ــ وهو كل حكم غير حكم الله ــ فقد خرج من دائرة الإيمان .

وحين نصل إلى الآية الفاصلة [٦٥] سيكون هذا الأمر قد تقرر حاسماً كحد السيف . ولكنا نقول هنا إن الآية الأولى من السياق قد مهدت تمهيداً واضحاً لهذا الحكم ، إن لم تكن قد قررته بالفعل .

« وقد أمروا أن يكفروا به » .

فهناك أمر صريح من الله للناس أن يكفروا بالطاغوت .

« ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت » [2] .

فكيف يصنع الناس بهذا الأمر ؟ وأنّى لهم أن يتفلتوا منه ويلتمسوا لذلك المعاذير ؟ !

« وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا . فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقا ؟ ! »

ذلك شأن المنافقين وتلك علامتهم . في السلم والأمن يظهرون الصدود والإعراض فإذا أصابهم السوء نتيجة تصرفهم عادوا يتلمسون المعاذير ويدعون أنهم إنما أرادوا الإحسان والتوفيق !

« أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم .. »

---

(١) سيأتي هذا فيما بعد في آية [٦٣] .

(٢) سورة النحل [٣٦] .

ولا يعني النص بطبيعة الحال أن أولئك فقط هم الذين يعلم الله ما في قلوبهم فإن الله يعلم ما في قلوب الناس جميعاً . ولكن التعبير يؤدي معنىً بلاغياً آخر مؤداه أن أولئك ـ مهما حاولوا الاستخفاء بحقيقتهم عن الناس ، ومهما تظاهروا بالإيمان ـ فإن الله يعلم دخيلة أنفسهم فلا يستطيعون أن يخدعوه .

« فأعرض عنهم ، وعظهم ، وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً » .

ولم يكن الأمر بقتالهم قد نزل بعد ، فيوجّه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الإعراض عنهم ووعظهم ليرجعوا عن غيهم ويستقيموا على أمر الله . ولكن التعبير في قوله تعالى : « وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغا » يحمل نغمة حادة تشبه النذير .

« وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله » .

إن الرسل لا يرسلون من عند الله ليكونوا وعاظاً كخطباء المساجد ! وتلك صورتهم في حس الجاهلية المعاصرة ! إنما يرسل الرسول **ليطاع** . فأمره أمر ، وليس مجرد نصيحة يأخذ بها من يأخذ ويتركها من يترك ثم يمضي ناجياً من عقاب الله !

والحديث هنا ليس عن « سلطة » النبي أو الرسول ، إنما عن الغاية من إرساله . فكثير من الأنبياء لم يكونوا حكاماً ذوي سلطة كما كان النبي صلى الله عليه وسلم ، ولكن هذا لا يغيِّر شيئاً في الموقف . إنهم كلهم أرسلوا ليطاعوا . أي أرسلوا بأوامر من عند الله واجبة الطاعة ، سواء أطاعها الناس بالفعل أم لم يطيعوها ، وسواء كان النبي المرسل ذا دولة وذا سلطة يعاقب بها الخارجين على أوامر الله أم ترك عقابهم لله في الآخرة . المهم في جميع الأحوال أن كلام الرسل ، الذي يبلغونه من عند الله ، ليس مجرد نصائح لترجيه الفراغ ! أو « لتهذيب النفوس » بالمعنى الذي يستخدم في كتابات الجاهليين ! فإنما تهذب النفوس بالطاعة الفعلية لأوامر الله لا باتباع الهوى والشهوات !

« ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيما » .

فالله جل وعلا لا يغلق بابه دون أحد من المستغفرين مهما كانت جريمته ، ما دام يتوب عنها ويطلب الغفران .

ولكن هؤلاء لا يفعلون !

« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما » .

تلك هي الآية الحاسمة كحد السيف التي تقرر خلاصة الموقف كله بالنسبة لأولئك الذين يزعمون الإيمان .

إن المحك الحقيقي للإيمان كامن في **تحكيم شريعة الله** ، والرضى بحكم الله ورسوله .. وإلا فلا إيمان .

إنه ليس **مجرد** النطق بشهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . وليس القيام ببعض شعائر التعبد كذلك ! إنما هو **بالإضافة إلى ذلك** التحاكم إلى شريعة الله .

فأما النطق بالشهادة وحده بغير التحاكم إلى شريعة الله ، فالله يقول فيه :

« ويقولون آمنا بالله وبالرسول **وأطعنا** ، ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك ، **وما أولئك بالمؤمنين** . وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون . وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين . أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا ؟ أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ؟! بل أولئك هم الظالمون . إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ، وأولئك هم المفلحون »[1] .

فيبين بياناً حاسماً أن النطق بالشهادة ـ **حتى مع دعوى الطاعة** ـ لا يعطي الإنسان صفة الإيمان إلا إذا تحاكم إلى شريعة الله ، وأن التحاكم إلى ما أنزل الله هو المحك الحقيقي للإيمان .

وأما القيام ببعض شعائر التعبد فالله يقول فيه ، في سورة النساء ذاتها [آية ١٤٢] :

« إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، **وإذا قاموا إلى الصلاة** قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً » .

وحقيقة إن المنافقين ـ في الأرض ـ يعاملون معاملة المسلمين ويترك أمرهم إلى الله . ولكن ذلك بشرط واحد هو أن يقبلوا التحاكم إلى شريعة الله ، ولا يعرضوا عن حكم الله ، ولا يرغبوا إلى حكم غير حكم الله . وإلا فإنهم يعاملون معاملة الكفار الصرحاء ، كما عامل سيدنا عمر رضي الله عنه ذلك اليهودي الذي حكم له رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعواه ، فراح يسأل عن حكم آخر غير حكم الله !

إن الآية كما قلنا صريحة وحاسمة كحد السيف ، وإجماع الفقهاء والمفسرين على أنها آية محكمة لا تحتمل التأويل . وقرارها ـ الذي لا يقبل الجدل ـ أن الناس لا يؤمنون حتى يحكِّموا شريعة الله . ذلك هو الحد الأدنى الذي يعطيهم صفة الإسلام . أما الإيمان الحقيقي فلا يتم بمجرد الإذعان لحكم الله ، إنما هو كما تقرره الآية ببيان واضح :

« .. ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما » .

ذلك إيمان القلب الذي لا يعلم حقيقته إلا الله المطلع على خفايا القلوب . أما

---

(١) سورة النور [٤٧ – ٥١] .

العلامة الظاهرة التي يمنح بها الناس في عالم الظاهر سمة الإسلام واسمه فهي الإذعان لحكم الله .

* * *

ننتقل مع السياق إلى جولة أخرى بعد بضع آيات مضت تعقيباً على أحوال أهل الكتاب الذين يزعمون الإيمان ثم يعرضون عن التحاكم إلى شريعة الله ، وعن الصورة المقابلة ، صورة الطاعة لله والرسول :

« ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً . ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما » .

ينتقل السياق بعد ذلك إلى توجيه المؤمنين للقتال ، وبيان مواقف مختلفة لطوائف مختلفة في المجتمع الإسلامي بشأن القتال ، وبشأن قضاء الله وقدره ، وبشأن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبشأن تلقي الأنباء وإذاعتها .. طوائف تشمل المؤمنين الصادقي الإيمان والمؤمنين الضعاف الإيمان والمنافقين ..

والملحوظ في الآيات بصفة عامة أنها تتعلق « بتجنيد » الجماعة المسلمة للقتال ، أو ما نسميه بلغتنا المعاصرة عملية التعبئة العامة ، وهي تعبئة روحية وعقيدية كما هي تنظيمية وحربية .

« يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثُبات أو انفروا جميعاً » .

وهذا توجيه تنظيمي يتعلق بطبيعة المعركة يومئذ ، ويقضي بأن يقاتل المسلمون في جماعات صغيرة أو في صفٍ متجمع ولا يقاتلوا فرادى حتى لا يتصيدهم الذين كفروا ، وأن يأخذوا حذرهم من الأعداء . وهو توجيه لازم لتلك المعركة ولكل معركة مهما تغيرت وسائل القتال . وهو مصدَّر بالنداء « يا أيها الذين آمنوا .. » وفي هذا التصدير تذكير للجماعة المؤمنة بما يميِّزها ــ وهو الإيمان ــ وتذكير لها بمهمتها ورسالتها ، وهي التحرك ــ في جميع المجالات ــ بمقتضى ذلك الإيمان .

وحين يكون هناك توجيه تشريعي أو أخلاقي مصدَّراً بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا » فقد لا نلتفت كثيراً لدلالة النداء ، لأن « الإيمان » يرتبط في أذهاننا ارتباطاً « منطقياً » مع توجيهات الأخلاق وتشريعات الأحكام التي لا يلتزم بتنفيذها إلا المؤمنون . ولكنا حين نجد ذلك النداء يتصدر كذلك التوجيهات الاجتماعية والتنظيمات السياسية والحربية ، فينبغي أن نلتفت إلى تلك الدلالة ، وهي التذكير الدائم للمؤمنين بوضعهم المتميز وبالرسالة التي يقومون بأدائها في **كل** اتجاه ، وفي كل جزئية من جزئيات الحياة . فهم جماعة ــ وهم أمة ــ متميزة في سلوكها كله ، وفي طريقة تفكيرها وطريقة شعورها وطريقة تعاملها عن كل أمم الأرض ، بوصفها الأمة المؤمنة التي يصفها الله سبحانه بهذا الوصف الذي يحدد وضعها ويحدد مهمتها كذلك :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس : تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » [1] .

« وإن منكم لمن ليبطئن ، فإن أصابتكم مصيبة قال : قد أنعم الله عليَّ إذ لم أكن معهم شهيدا . ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن ـ كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ـ يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً » !

وصف دقيق لحالة نفسية تنبع منها حركات وتصرفات !

« وإن منكم لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ .. »

والتعبير من الوجهة البلاغية دقيق التصوير لعملية الإبطاء . فلو قال ـ حتى مع التوكيد ـ وإن منكم لمن يبطئ ، لتغيَّرت الصورة وتغير وقعها في الحس إلى حد كبير ، لأن التعبير يصبح « أسرع » كثيراً من وضعه في النص ، ومن ثم لا يكون بذات الدرجة من الدقة في تصوير حالة الإبطاء . ولكنه بصياغته في النص يعطي الصورة كاملة باللفظ والمعنى جميعاً . فإنك حين تقرأ النص لا تملك أن تسرع في نطقه ، لأن الحركات المتتابعة تستوقفك وتحدد من سرعتك ! وذلك من الإعجاز ! وإنك لتكاد ـ على نغمة التعبير ـ أن تجسم في خيالك صورة ذلك الشخص الخائف المتردد الذي يتثاقل في خطوه ويتثاقل حتى يتوقف ! وتتباعد المسافة بينه وبين الصف كلما تباطأ ، حتى ينصرف المقاتلون ويبقى هو وحده قائماً ، فيتنفس الصعداء ، ثم ينصرف فرحاً بتخلّصه من الورطة ! فإذا جاءت الأنباء بوقوع القتل في صفوف المسلمين حمد لنفسه ما فعل وفرح به ، وصاح في نفسه : « قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيداً ! » أما إن عاد المسلمون مظفرين يحملون الغنيمة والنصر ، فعندئذ يتحسر على أن فرصة آمنة غانمة قد فاتته ، وضاع عليه نصيبه منها ! فقد كان يملك أن يذهب مع من ذهب ثم يعود دون أن يصيبه الأذى ، ويصبح في صف المقاتلين المجاهدين ، ويفوز بالغنيمة كذلك !

إنه في كلتا الحالتين لا يفكر إلا في نفسه ، ولا يرتفع تفكيره عن ذاته ، لأن الإيمان الذي يشغله عن ذاته إلى ما هو أعظم وأرفع ، لم يتعمق في داخله بعد .

ولكنا نلمح في النص ـ إلى جانب التعبير المصوِّر الدقيق ـ توجيهاً تربوياً معيناً .. إن النص في صورته هذه لا يحدد أشخاصاً بأعيانهم ، إنما يصف حالة قائمة في الصف . والخطاب يوجّه للجميع ، أقوياء وضعفاء : « وإن **منكم** .. » دون أن يشار بالأصبع إلى شخص معين ويقال له : أنت تفعل كذا ! وهذه الطريقة تدع المجال مفتوحاً لمن

(١) سورة آل عمران [١١٠] .

تنطبق عليه هذه الصفة أن يرجع عنها ويعدِّل موقفه ويستقيم على السلوك المطلوب ، ما دام لم يشهّر به بما يجرِّح موقفه ! وهي الطريقة التي كان يستخدمها الرسول صلى الله عليه وسلم في خطابه لمجموع الناس ، فلا يقول إن فلاناً صنع كذا ، إنما يقول : ما بال أقوام يفعلون كذا .. فيعلم المقصود بالحديث أن الحديث موجه إليه دون أن يعرف بقية الناس بالضرورة أنه هو بالذات ، فييسر له ذلك طريق العودة إلى السلوك القويم . وهو توجيه لازم لنا في تربية الصغار والكبار على السواء !

« فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة . ومن يقاتل في سبيل الله فيُقْتَل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيما » .

إنه التوجيه للسلوك المطلوب ، بعد الإشارة السابقة لمن يُبَطِّئون ليتخلفوا عن القتال . وهو توجيه يلمس العقدة الحقيقية في الموقف . فلماذا يبطّئ من يبطّئ ؟ السبب الخفيّ في الحقيقة هو الحرص على متاع الحياة الدنيا أو على شيء معين من ذلك المتاع . فهنا يصف الذين يقاتلون في سبيل الله بأنهم الذين « يشرون الحياة الدنيا بالآخرة » أي يبيعون متاع الحياة الدنيا ليشتروا به النعيم الحقيقي الخالد في الآخرة .

وحين نعود إلى التوجيه التربوي نجد الصورة على هذا الوضع : فالخطاب يوجه إلى الجميع كما قلنا ، بما فيهم الضعفاء والأقوياء ، ثم يصف أفعال الضعفاء دون أن يشير إليهم بأعيانهم ليتيح لهم فرصة العودة ، ثم بعد ذلك يهملهم ! يهملهم ليشعروا بالإثم — فيما بينهم وبين أنفسهم — ويتوجه بالخطاب إلى الفئة القوية المستقيمة ، أو بالأحرى إلى الصفة المطلوبة التي ينبغي أن يتصف بها الصف المسلم كله ، وهي بيع الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن ثم الإقبال على القتال في سبيل الله . وهو توجيه مقصود به أولئك الذين أُهْمِلُوا أيضاً ، ليتحولوا من موقفهم إلى الموقف المرغوب ! ولكنهم لا يُذكرون بأعيانهم ! إنما يوجَّه الخطاب إليهم ضمناً ليستمع منهم من يريد أن يستمع فيستقيم ! إنه تنديد بالموقف الأول دون تجريح لأشخاص بأعيانهم ، وإشادة بالموقف الآخر للتشجيع !

ثم يلفت نظرنا في الآية تقديم القتل على الغَلَبة والنصر : « ومن يقاتل في سبيل الله فيُقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » . وكان المتوقع — مادام المقام مقام الاستحثاث والتشجيع — أن يذكر النصر أولاً : ومن يقاتل في سبيل الله فيَغْلِبْ .. ثم يؤخر ذكر القتل ، الذي تنفر منه النفوس قبل أن يتملكها الإيمان الحق وتخلص كلها لله ، حتى لا يكون ذكره دافعاً إلى تردد من يتردد ! ولكن التوجيه الربّاني الحكيم يأتي على غير ذلك ، ويسبق ذكر القتل هنا بالذات على الغلبة والنصر !

إنها التربية على الأفق الأعلى .. أفق العزيمة .. وأفق التجرد والخلوص لله !

إنه لا يغري بالنصر لاستحثاث المتثاقلين ، حتى إذا كانت الهزيمة من نصيب المسلمين نكص منهم من ينكص على عقبيه !

إنما يضع المسألة في وضعها النفسي - والتربوي - الصحيح . إن المنطلق الحقيقي للقتال ينبغي أن يكون هو التجرد الكامل لله ، وبيع الحياة الدنيا كلها - حتى بما فيها رغبة النصر ، ورغبة التمكين في الأرض - لتشتري بها الحياة الأخرى ، ويشتري بها رضوان الله .

وفي واقعية كاملة يقول الإسلام للذين يربيهم إنكم ذاهبون للقتال في سبيل الله ، ومعرضون أن تموتوا هناك .

وذلك أفعل في تربيتهم - على الأفق الأعلى - من ذكر النصر مسبّقاً لتشجيع الهمم واستحثاث المتثاقلين ! فإن الذي يذهب ليموت لن يتغيَّر موقفه حين يمنّ الله عليه بالنصر ، ولكن الذي يذهب للنصر والغنيمة يتغيّر موقفه كثيراً حين تحدث الهزيمة !

والله أعلم بطبيعة النفوس ، وبالتوجيه الذي يُصْلِحُ النفوس !

« وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً » .

هنا يجيء الاستحثاث في مكانه ، بعد توضيح القاعدة الشعورية وتمكينها . وهو ليس استحثاثاً بمغنم شخصي يناله المقاتلون ! إنه استحثاث بقيمة من القيم العليا التي تتجه إليها النفوس العالية على الأفق الأعلى ، وهي نصرة المستضعفين والمظلومين .

ويلفت نظرنا في النص تعبيران .

الأول هو قوله تعالى : « وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين ... »

إن القتال كله في الإسلام إنما يكون في سبيل الله ، ولا شيء غير سبيل الله ، وهذا هو العنوان الدائم له في القرآن والحديث :

« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة **ويكون الدين كله لله** » [1] .

« من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » [2] .

فعطف المستضعفين في النص على سبيل الله : « في سبيل الله والمستضعفين » ليس تثنية للسبيل ولا لوجهة القتال ، فإنما هو سبيل واحد ووجهة واحدة . إنما هي إشارة إلى أن

---

(١) سورة الأنفال [٣٩] .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم

القتال لإنقاذ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان من المسلمين هو قتال في سبيل الله . وإشارة من الجانب الآخر إلى أن سبيل الله لا يؤمّن حتى يستنقذ المستضعفون من الرجال والنساء والولدان من المسلمين في أيّ بقعة من بقاع الأرض .

والتعبير الثاني هو قوله تعالى حكاية عن قول أولئك المستضعفين : « ربنا أخرجنا من هذه القرية **الظالم أهلها** .. » .

إن القرية المشار إليها هي مكة المكرمة .

وواضح أن التعبير لم يقل : ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالمة ..

وفي غير هذا الموضع بالذات يصف القرآن القرية ذاتها بالظلم :

« فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة .. » [1]

« وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة .. » [2]

« وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا ... » [3]

ولكن هذه القرية ـ مكة ـ تكرّم فلا يقال لها القرية الظالمة ! إنما يقال لها : « القرية الظالم أهلها » فيختص أهلها ـ وقتئذ ـ بالظلم ، وتبقى هي مكرمة كما شاء لها الله !

« الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت . فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ».

بالنسبة للذين آمنوا هو تقرير حقيقة وتوجيه في ذات الوقت !

تقرير حقيقة أن الذين آمنوا ـ حيثما قاتلوا ـ فهم يقاتلون في سبيل الله . سواء كان قتالهم لاستنقاذ المستضعفين المظلومين كما هي المناسبة هنا ، أو هي دفع عدوان الكفار كما يجيء في مناسبات كثيرة ، أو هي إزالة القوى التي تقف في سبيل الدعوة ممثلة في حكومات جاهلية ونظم جاهلية وجيوش تحمي هذه الحكومات والنظم ، مع عدم إكراه الناس على الدخول في الإسلام ، ومع إقامة شريعة الله والتمكين لها في الأرض : « حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » .. فكل ذلك في سبيل الله ، وهو السبيل لتأمين سبيل الله . فهذه طمأنة لقلوب المسلمين ـ وهم يقاتلون في أيّ هذه السبل ولأيٍّ من هذه الغايات ـ أنهم يقاتلون في سبيل الله ، والله مولاهم في قتالهم هذا فيهب لهم الشهادة أو النصر بما هو سابق في علمه وتقديره ، ويهب لهم في جميع الحالات نعيم الجنة والرضوان .

---

(١) سورة الحج [٤٥] .

(٢) سورة الحج [٤٨] .

(٣) سورة الكهف [٥٩] .

وفي الوقت ذاته هو توجيه للمؤمنين أن قتالهم **ينبغي** أن يكون دائماً في سبيل الله ، فإنه لا يُقبل منهم قتال في غير هذا السبيل ، ولا يجوز لهم أن يقاتلوا تحت أي راية غير راية الإسلام ، أو لهدف غير أهداف الإسلام .

وأما بالنسبة للذين كفروا فهو تقرير حقيقة وبيان في ذات الوقت لهذه الحقيقة .

تقرير حقيقة أنهم حيثما قاتلوا فهم يقاتلون في سبيل الطاغوت ، سواء كانوا يقاتلون الإسلام والمسلمين ـ وهذا ظاهر ـ أو كانوا يقاتل بعضهم بعضا . فما يقاتلون وما يتقاتلون إلا مخالفين عن أمر الله ! فما داموا قد كفروا بالله ورسوله ابتداء فلا يمكن أن يقاتلوا في سبيل الله ! وكل قتال في غير سبيل الله ، أي في غير سبيل الإسلام ، فهو في سبيل الطاغوت أيًّا كان الشعار الذي يرفع له واللافتة التي توضع عليه . ولقد استحدثت الجاهلية المعاصرة ألواناً شتى من الشعارات واللافتات لتقاتل تحتها وتبرر ما يقع من القتل والدمار والتخريب ، الذي يقع كله لحساب فئة محدودة من الناس ، ويروح في سبيله من يروح من بقية الناس ! فمرة قالت في سبيل « الحرية » ، ومرة قالت في سبيل « الديمقراطية » ، ومرة قالت في سبيل « القيم الإنسانية ! » وكلها شعارات زائفة تخفي ما وراءها من مصالح أرضية بحتة ، وصراع على تلك المصالح وحشي ! ومرة قالت في سبيل « القومية » ومرة في سبيل « الوطنية » ولعل من أصدقها جميعاً قولهم « في سبيل التراب الوطني ! » ألا ما أتفه التراب ، وأولئك الذين يقاتلون من أجل التراب !

كلها في سبيل الطاغوت .. والطاغوت هو كل شيء يتوجه إليه الناس بالعبادة والطاعة من دون الله !

والسياق يقرر هذه الحقيقة ، ويبينها كذلك . يبينها للفريقين في آن واحد . للكافرين ليعرفوا حقيقتهم وحقيقة أهدافهم ، فلعل منهم مخدوعين إن عرفوا الحقيقة يثوبون . وللمؤمنين ليطمئنهم إلى أن طريقهم هو الحق وطريق أعدائهم هو الباطل ، ليكمل ذلك بهذا التوجيه :

« فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا » .

وذلك لكي لا يرهبوا أعداءهم ، ولكي ينطلقوا في القتال ـ بعد إعداد العدة كما أمر الله ـ مطمئنين إلى صلابة القاعدة التي يقفون عليها ، وتهاوي القاعدة التي يقف عليها أعداؤهم . فضلاً عن ضلال أولئك الأعداء لأنهم « أولياء الشيطان » . ومطمئنين كذلك ـ إن أعدوا العدة كما أمرهم الله ـ إلى أن الله هو مولاهم وهو ناصرهم . لأن كيد الشيطان مهما تجبر فهو ضعيف بالقياس إلى كيد الله .

ثم ينتقل السياق ـ في إطار الموضوع ذاته وهو موضوع القتال ـ إلى فئة من الناس كانت متحمسة للقتال في مكة حيث كان الأمر الرباني هو « كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » فلما كتب عليهم القتال إذا هذه الفئة تتقاعس وتتثاقل :

« ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ، وقالوا : ربنا لم كتبت علينا القتال ؟ ! لولا أخرتنا إلى أجل قريب ؟! قل : متاع الدنيا قليل . والآخرة خير لمن اتقى . ولا تظلمون فتيلا » .

والظاهر من السياق أنها فئة من المؤمنين لا من المنافقين ، ولكنها فئة ضعيفة الإيمان . ربما كانت تدفعها لطلب القتال في مكة دوافع الحمية التي كانت من صفات العرب في جاهليتهم ، وكانت بقية منها ما تزال باقية في نفوسهم . أو ربما كانت على إلف بذلك القتال الفردي الذي كان يجري في الجاهلية من قبل . وأيًّا كانت أسباب حماستهم للقتال يومئذ ، فإنهم حين انتقلوا إلى المدينة وأمنوا على أنفسهم وعلى عقيدتهم لم تعد عندهم حماسة للقتال ! بل ركنوا إلى متاع الحياة الدنيا يحرصون عليه ويخافون أن يضيّعه عليهم القتال !

والسياق يعجّب من حالهم باديء ذي بدء : « ألم تر إلى الذين قيل لهم كفّوا أيديكم .. »

ثم يصور حالتهم الراهنة من داخل نفوسهم : « فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية » .

ويحكي قولهم في تعبير مصور : « وقالوا : ربنا لم كتبت علينا القتال ؟ ! لولا أخرتنا إلى أجل قريب ؟ ! » .

ثم يرد عليهم بما يكشف العلة الحقيقية لهذا الموقف المتقاعس المتثاقل المتلهف على تأجيل القتال ولو إلى أجل قريب : « قل : متاع الدنيا قليل . والآخرة خير لمن اتقى . ولا تظلمون فتيلا » .

إن العلة كلها كامنة في متاع الأرض المستحوذ على حسهم ، يريدون أن يستزيدوا منه إلى آخر قطرة متاحة ! ويتلهفون على كل لحظة يمكن أن يضيفوها إليه ، ويتمنون على الله أن يمهلهم فيه أطول وقت قبل أن يفقدوه أو يتعرضوا لفقدانه .

والقرآن يرد عليهم في عبارات ثلاث حاسمات :

« قل : متاع الدنيا قليل » « والآخرة خير لمن اتقى » « ولا تظلمون فتيلا » .

متاع الدنيا قليل مهما بدا للحس المتطلع أنه كثير ! قليل بالقياس إلى متاع الآخرة بل إنه قليل في حس المتطلع إليه في الحياة الدنيا . فما من أحد ممن ينقطعون للحياة الدنيا يحس بالاستكفاء بما بين يديه من المتاع ! إنما يبحث دائماً عن المزيد . ويحس أن المتاع الذي يتمناه ، والذي لم يستحوذ عليه ، أكبر مما بين يديه وأشهى وأمتع ! وهكذا يحس بقلة المتاع مهما غرق فيه ! وذلك فضلاً عن أنه دائماً متاع مشوب .. مشوب على الأقل بالخوف على ضياعه والقلق الدائم من الحرمان منه ! وهذا إن صفا للإنسان في الأرض متاع خالص من المنغصات !

والآخرة – لمن اتقى – خير من ذلك المتاع الأرضي الزائل الزائف الذي يحرص عليه الناس في الأرض ! خير من كل وجهة تخطر على البال . خير في نوعه وفي صفائه وفي شفافيته وفي خلوده وفي الطمأنينة فيه والطمأنينة على دوامه وعدم انقطاعه ، وخير في الإحساس بالقرب من الله ، والتمتع برضوان الله . وخير في الإحساس بأنها المستقر الأخير بعد رحلة التعب والعذاب !

ولا ظلم عند الله . إن كل متاع يحرم منه الإنسان في الأرض – من أجل سبيل الله – لا يضيع ! إنها ليست خسارة يتحسر عليها الإنسان . بل هي – بميزان الربح والخسارة – كسب أي كسب . الحسنة بعشر أمثالها .. إلى سبعمائة ضعف ! والجهاد في سبيل الله – بالذات – هو أكبر الأشياء أجراً عند الله . ومن ثم فلا ظلم ولا خسارة على الإطلاق .

ولكن ...

هل هي – كما يحسب الجاهلون حين يقرأون مثل هذه الآيات – دعوة إلى ترك الحياة الدنيا والانصراف عنها إلى الآخرة ؟ أو – كما يحسب من هم أشد منهم جهلاً – دعوة إلى الرضى بالظلم والعذاب في الدنيا ، مع التمنية بنعيم الآخرة ؟ أو بعبارة أخرى كما قال ماركس : الدين أفيون الشعوب ؟ !

كلا ! لا شيء من ذلك على الإطلاق .

إنما الأمر كما بيّناه من قبل في عرض سورة آل عمران . إن الدنيا لا تذم في القرآن إلا في موضعين اثنين : حين يكون متاع الدنيا هو الذي يصد الإنسان عن الإيمان أو حين يكون هو الذي يصده عن الجهاد في سبيل الله . عندئذ يكون متاعاً حراماً على صاحبه ، ثم إنه يورده مورد الهلاك في الآخرة . أما فيما عدا ذلك فتوصية القرآن الصريحة هي :

« قل : من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » [1] .

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » [2] .

« هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » [3] .

ثم إن الإسلام يأمر المسلمين بأن يعدوا ما استطاعوا من قوة لأعداء الله . فكيف يتم إعداد القوة إذا انصرف الناس عن عمارة الأرض ؟ وكيف تتم إطاعة أمر الله ؟

---

(١) سورة الأعراف [٣٢] .

(٢) سورة القصص [٧٧] .

(٣) سورة هود [٦١] .

كلا ! إنما الذي ينهى عنه الإسلام هو **الفتنة** بمتاع الأرض التي تبعد الإنسان عن الإيمان أو عن الجهاد .. عندئذ تصبح الدنيا جيفة كما يصفها الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويصبح طلابها – أي الذين يطلبونها على حساب الآخرة وينسلخون بها عن الإيمان أو عن الجهاد – كلاباً كالكلاب !

أما الرضى بالظلم في الحياة الدنيا وتخدير المشاعر عن دفعه بالتمنية بنعيم الآخرة فهذه السورة ترد رداً حاسماً عليه في آيات سيجيء ذكرها في السياق :

« إن الذين توفّاهم الملائكة **ظالمي أنفسهم** قالوا : فيم كنتم ؟ ! قالوا : كنا مستضعفين في الأرض ! قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ **فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا** » !

ونعود الآن إلى السياق ، فنجد الحديث مستمراً إلى أولئك الذين يقولون « ربنا لم كتبت علينا القتال ؟ لولا أخرتنا إلى أجل قريب ! »

لقد قال لهم من قبل إن متاع الدنيا الذي يحرصون عليه ويتركون الجهاد من أجله أو يتمنون تأجيله ، هو متاع قليل . والآن يخبرهم أنه – على قلته – منتهٍ إلى نهاية حتمية :

« أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة » !

وتلك حقيقة يدركها الناس جميعاً لأنهم يرونها رأي العين . ولكنهم مع ذلك ينسونها ! تلهيهم لحظة المتاع فينسون نهايته . أو يتغافلون عنها ويحسبون أنها بعيد ! لن تجيء الآن ! لن تجيء حتى يشبعوا من هذا المتاع المتاح بين أيديهم اللحظة ! ولكنهم في الحقيقة لا يشبعون ! ثم تأتيهم النهاية التي يفزعون منها ويتمنون – في خيالهم – ألا تكون !

والنص يوقظهم يقظة حاسمة إلى الحقيقة ، ويجسِّمها لهم تجسيما لا يدع لهم مفراً من مواجهتها ، ليستقر في حسهم تماماً أن متاع الدنيا قليل ، حتى لا يتحسروا عليه حين يذهب بعضه أو كله في الجهاد في سبيل الله !

أما بقية الآية فربما كانت تتعلق بطائفة أخرى من الطوائف الموجودة داخل الصف المسلم ، هي فريق المنافقين الذين قال عنهم – هم أو أمثالهم – في أحد : « وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون : هل لنا من الأمر من شيء ؟ قل : إن الأمر كله لله . يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك ، يقولون : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا . قل : لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ... » [1]

أما هنا فيقول عنهم :

---

(١) سورة آل عمران [١٥٤] .

« .. وإن تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله . وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ! قل : كلٌّ من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ؟ ! »

والواقع أن الآية لا تقول من هم على وجه التحديد . هل هم نفس الفئة الأولى التي تقول : « ربنا لم كتبت علينا القتال ؟ لولا أخرتنا إلى أجل قريب ! » أم فئة أخرى ، وهو الأرجح ؟

ولكن ورود الحديث عن الطائفتين ـ على ترجيح أنهما طائفتان مختلفتان ـ في سياق آية واحدة له دلالة . فإن الطائفتين تشتركان في سمة واحدة ، هي كراهية القتال ، واعتباره « سيئة » يتعرضون لها بغير موجب ! فأما الطائفة الأولى فتطلب التأجيل فقط ! وأما الطائفة الثانية فترى أن ما يتعرضون له من السيئات ـ وأولها القتال ـ هو بسبب وجود الرسول صلى الله عليه وسلم بين ظهرانيهم ، أو بسبب أوامره وتعليماته وتحركاته ! ! ولولا ذلك لأراحهم الله من هذه السيئات !

وكما رد على هذه الطائفة ـ أو مثلها ـ في سورة آل عمران ببيان الحقيقة الكبرى وراء الأحداث العارضة ، وهي قدر الله ومشيئته ، فكذلك يرد هنا على هذه الطائفة ببيان هذه الحقيقة الكبرى ، لأن المشكلة في الحالين واحدة وإن اختلف الموضوع المباشر الذي أثار المشكلة هنا وهناك . فهناك كان الظن الجاهلي بالله أن ما وقع من القتل في صفوف المسلمين كان سببه عدم الأخذ برأي تلك الطائفة التي رأت البقاء في المدينة حتى يأتي العدو ، وعدم الخروج إليه خارج حدود المدينة . فرد عليهم بأن السبب الحقيقي هو قدر الله من وراء الأحداث ، وأنهم لو كانوا في بيوتهم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم . وهنا كان الظن الجاهلي أن ما يصيبهم من خير (وهو الخير الدنيوي بحسب تقديرهم وتصورهم) فهو وحده الذي من عند الله . أما ما يصيبهم من شر (وهو الضر الدنيوي بحسب تقديرهم وتصورهم) فهو بسبب وجود الرسول صلى الله عليه وسلم بينهم أو بسبب تصرفه في أمر من الأمور ! وهنا كذلك يرد عليهم بذات الحقيقة التي رد بها على أمثالهم هناك : « قل كلٌّ من عند الله . فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ؟! »

إنه لا يحدث في هذا الكون العريض كله إلا ما يقدره الله . فما يصيب الناس من حسنة أو سيئة (سواء بالتقدير الأرضي النفعي ، أو بالتقدير الحقيقي الذي يضع الله مقاييسه) هو من عند الله ، لا من عند الرسول صلى الله عليه وسلم ولا من عند أي بشر آخر . وتلك حقيقة ينبغي أن تتضح وتستقر في الأفكار والمشاعر لكي يطمئن الإيمان في القلوب ، ولكي ينطلق الناس في حياتهم الأرضية الانطلاقة السوية التي يمارسون فيها نشاطهم كله بغير قلق ولا حيرة ولا تخبط .

وإن تلك الحقيقة ـ كما أسلفنا في عرض سورة آل عمران ـ لا تمنع البشر من اتخاذ الأسباب ، بل إن الإسلام يوجب ذلك على المؤمنين ، ولكنها تمنع عنهم القلق الذي يصيبهم حين لا يركنون إلى الله الذي بيده مقاليد كل شيء ، وحين ينسبون شيئاً من الأحداث لغير تقدير الله !

والآية تندد بأولئك الذين يظنون هذا الظن الجاهلي وتصمهم بأنهم لا يفقهون شيئاً على الاطلاق : « فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ؟! » ذلك أنه إن غابت عنهم هذه الحقيقة الكبرى فلا شيء يستطيعون إدراكه بعد ذلك .

ولكن الآية التالية تحمل معنى قد يبدو لأول وهلة متعارضاً مع ما قررته هذه الآية ، ولا تعارض في الحقيقة :

« ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك . وأرسلناك للناس رسولاً وكفى بالله شهيدا » .

إن الحقيقة الواردة في هذه الآية ليست هي المقالة التي عابها على أولئك الجاهليين ، ولا تتصل بها أي اتصال . إنها حقيقة قائمة على قاعدة أخرى مختلفة .

هناك كانت قاعدة القضية أنهم ينسبون ما يصيبهم من الخير إلى الله وما يصيبهم من الشر إلى شخص الرسول صلى الله عليه وسلم ، تطيراً منهم به عليه الصلاة والسلام ، أو تجريحاً لقيادته ، أو تنفيراً للناس منه ، أو كل ذلك في آن واحد .. فصحح لهم قاعدة تفكيرهم بأنه لا يحدث في الكون إلا ما يقدره الله ، فكل شيء مما يصيب البشر في الدنيا أو الآخرة مرده تقدير الله ومشيئته .

أما قاعدة القضية هنا فمختلفة . إنها بيان لأسباب ما يصيب الناس من حسنة ومن سيئة (بالمقاييس الربانية هذه المرة لا بمقاييس البشر النفعية) . وهذا البيان يقول إن الله وضع للناس منهجاً للحياة يتحقق به الخير الحقيقي في الدنيا والآخرة . والخير بالمقاييس الربانية قد لا يكون متطابقاً في كل حالة مع النفع في التقدير البشري ، كما يقول القرآن : « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم . وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم **والله يعلم وأنتم لا تعلمون** »[1] . فالله العليم الحكيم هو الذي يعلم ـ على وجه اليقين ـ أين يكمن الخير وأين يكمن الشر في حياة الفرد والجماعة على السواء ، وفي الحياة الدنيا والآخرة على السواء . وبمقتضى علمه ذلك وضع للناس ذلك المنهج الذي يتحقق به خير الدنيا والآخرة . فمن اتبع هذا المنهج فقد وقع له الخير المنزل من عند الله . وأما من خالف وابتعد فقد وقع له الشر (بالمقياس الرباني) في الدنيا والآخرة ، ويكون

---

(١) سورة البقرة [٢١٦] .

هذا الشر بسبب من عند نفسه ، لعدم اتباعه المنهج الرباني الذي يتحقق به الخير . ومن هنا تكون الحسنة ـ بالمعنى الوارد هنا ـ من عند الله ، وتكون السيئة ـ بمعناها هنا ـ من عند الناس ، على قاعدة أخرى لا تختلط بالقاعدة الواردة في الآية السابقة ، التي تردّ الأمور كلها إلى مشيئة الله وقدره ، ولا تتعارض معها كذلك ، لأن من أصابه الخير ـ بمعنى أنه اهتدى ـ ومن أصابه الشر ـ بمعنى أنه ضل ـ كلاهما واقع في مشيئة الله !

ولا نتعرض هنا لقضية الجبر والاختيار لأنها قضية لا يحلها العقل ولكن يحلها الإيمان ! ولذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « إذا ذكر القدر فأمسكوا »[1] فإنه لا يعلم كيف تسير الأمور في قدر الله بلا تعارض بين مشيئة الله ومسئولية الإنسان إلا الله ، أو أحد على مستوى علم الله ، والله « ليس كمثله شيء »[2] ومن ثم يظل هذا من اختصاص الله سبحانه ، تحاول الأفهام إدراكه ولكنها لا تدركه إلا بالإيمان !

والحديث في الآية موجه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم : « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك » ولكن المقصود به ليس شخص الرسول صلى الله عليه وسلم وحده ، وإنما هو للبشر كافة ، يبين لهم أصل القضية ، وأن المنهج الرباني منزل من عند الله لخيرهم فإن اهتدوا حصل لهم ذلك الخير ، وإن ضلوا ـ من عند أنفسهم ـ وقع لهم الشر .

ثم يمضي السياق موجَّهاً إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومقصوداً به البيان للناس كافة في ذات الوقت :

« .. وأرسلناك للناس رسولا ، وكفى بالله شهيدا » .

إن مقتضى مشيئة الله أن يتيح للناس الخير ممثلاً في منهج منزل من عند الله . واقتضت مشيئته كذلك أن تكون الوسيلة لإبلاغ الناس بهذا المنهج هي إرسال الرسول صلى الله عليه وسلم . فكأن السياق يقول : يا أيها الناس : أردنا لكم الخير فنزلنا لكم منهجاً يحقق ذلك الخير ، وأرسلنا رسولاً يبلغكم إياه ، ونحن شهود على إرساله رسولاً إليكم ، وكفى بالله شهيدا .

أما الحديث بعد ذلك فموجّه في أوله إلى الناس مباشرة ، وبقيته للرسول صلى الله عليه وسلم :

« من يطع الرسول فقد أطاع الله . ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا » .

---

(١) أخرجه الطبراني

(٢) سورة الشورى [١١] .

إن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يبلغ عن ربه بالحق ، فطاعته هي طاعة الله في الحقيقة ، لأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يأمر الناس وينهاهم من عند نفسه ، ولكن تبليغاً عن الله عز وجل . ذلك هو المحصَّل الذهني لمعنى الآية . ولكن التعبير في الآية يعطي معنى نفسياً عميق التأثير ، وهو الإيحاء بالتوقير الشديد للرسول صلى الله عليه وسلم ، لأن طاعته هى طاعة الله ، وطاعته هي الطريق الذي ينال به الإنسان رضوان الله

« ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا » .

إن مهمة الرسول ـ كل رسول ، صلوات الله عليهم جميعاً ـ هي التبليغ عن الله فحسب . ولا سلطان للرسول صلى الله عليه وسلم على قلوب الناس . إنه لا يملك أن يضع الإيمان في قلب أحد ، ولا أن يكره أحداً على الإيمان . فالهداية من اختصاص الله وحده :

« إنك لا تهدي من أحببت ، ولكن الله يهدي من يشاء ، وهو أعلم بالمهتدين » [1].

« أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟ ! وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ، ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون » [2] .

وإن الرسول الحاكم ـ كما كان الرسول صلى الله عليه وسلم ـ ليملك سلطاناً ينفذ به أحكام الله على الناس ، ولكن هذا شيء مختلف تماماً عن السلطان على القلوب ، الذي يجعلها تهتدي إلى الحق . إن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يملك أن ينفذ حد الردة على المرتد ، ويملك أن يقاتل الكافر .. ولكنه لا يملك أن يهدي هذا ولا ذاك . ولا يملك ذلك بشر على الإطلاق .

ثم يستمر السياق يتحدث عن هذه الطائفة بعينها أو طائفة أخرى من الطوائف الموجودة داخل الصف المسلم :

« ويقولون طاعة ، فإذا برزوا من عندك بيّت طائفة منهم غير الذي تقول . والله يكتب ما يبيِّتون . فأعرض عنهم وتوكل على الله ، وكفى بالله وكيلا » .

قد تكون هذه الطائفة من منافقي اليهود ، أو تكون من منافقي العرب المسلمين ظاهراً كفرقة عبد الله بن أبيّ ، ولكنها فرقة منافقة على وجه التأكيد ، تتظاهر في حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم بالطاعة ، فإذا خرجت من عنده عقدت النية على المخالفة ، وتآمرت ضد الرسول صلى الله عليه وسلم وضد الإسلام والمسلمين .

---

(١) سورة القصص [٥٦] .

(٢) سورة يونس [٩٩ – ١٠٠] .

والآية تطمئن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه لن يصيبه من أذاهم شيء ، وأنهم آخذون جزاءهم عند الله . فالله يكتب ما يبيّتون ويسجله عليهم ليحاسبهم به في الدنيا أو الآخرة أو فيهما جميعاً . ثم يوجّه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الإعراض عنهم وعدم الاهتمام بشأنهم ، والتوكل على الله . وكفى به وكيلاً قادراً على كف أذاهم وحماية الرسول صلى الله عليه وسلم منه .

ولكن ما لهؤلاء القوم يصنعون ذلك ؟ ما لهم لا يخلصون قلوبهم للإسلام ولرسول الإسلام صلى الله عليه وسلم ؟ أهم في شك من رسالته ، ومن الكتاب المنزل عليه ؟ !

« أفلا يتدبرون القرآن ؟ ! ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا » .

نعم ! إنهم ولا شك ــ وكل أمثالهم منذ أربعة عشر قرناً ، سواء كانوا من الكفار الصرحاء أو من المنافقين ــ لا يتدبرون القرآن ! ولو تدبروه بعقول وقلوب مفتوحة لعلموا أنه من عند الله ، وأنه لا يمكن أن يكون من عند غير الله !

ولكنهم كما يقول عنهم في سورة القتال : « أفلا يتدبرون القرآن ؟ أم على قلوب أقفالها ؟ ! »[1]

إن بشراً في الأرض كلها لا يتأتى له أن يخرج كتاباً كهذا الكتاب ، المعجز على جميع المستويات وفي جميع الاتجاهات . والذين يتعرضون للتأليف هم أدرى بهذه الحقيقة ، كما كان العرب العالمون بأسرار البلاغة أدرى بحقيقة الإعجاز البلاغي للقرآن .

والآية تقرر أنه لو كان القرآن من عند غير الله ــ أي من صنع البشر ــ لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا . وأول ما يرد على الذهن بشأن « الاختلاف » هو التناقض . وواضح أن القرآن لا يحوي اختلافاً بهذا المعنى . فوجهته موحدة وواضحة . وجهته هي بيان قضية الألوهية للناس ، لكي يعبدوا الله وحده دون شريك .

ولكن الاختلاف في الحقيقة أوسع من التناقض . إنه يمكن أن يمتد إلى جميع المستويات بلا استثناء . وهنا يتبدى إعجاز القرآن على ذات المستوى الذي يتبدى به الإعجاز البلاغي .. بلا اختلاف !

إن القرآن في المقام الأول كتاب تربية وتوجيه . وهو الذي أنشأ هذه الأمة التي وصفها خالقها هذا الوصف : « كنتم خير أمة أخرجت للناس »[2] .

وهو ــ من هذه الوجهة ــ يتناول **كل** ميادين التربية الرئيسية في حياة « الإنسان »

---

(١) سورة محمد (سورة القتال) [٢٤] .

(٢) سورة آل عمران [١١٠] .

على مستوى واحد من توجيه الاهتمام ، وعلى مستوى واحد من « الإتقان » [1] والإحكام .. بلا اختلاف !

في تربية الروح ، وفي تربية العقل ، وفي تربية الجسد .. وفي التربية السياسية والاجتماعية والأخلاقية .. الخ ، تجد ذات الدرجة من الإحكام ، كما تجد وحدة التوجيه نحو إنشاء « الإنسان الصالح » على جميع المستويات .. بلا اختلاف ! على نسق لا مثيل له في مناهج البشر التي تعنى بجانب وتهمل جانباً آخر ، وتركز على جانب على حساب جانب آخر [2] !

والقرآن ينشئ مجتمعاً متوازناً من أفراد متوازنين ، بلا اختلاف في التوجيه بالنسبة للفرد وبالنسبة للمجتمع ، على نسق لا مثيل له في كل ما يصنع البشر من نظم ومناهج ، تبرز كيان الفرد لتفتت تماسك المجتمع ، أو تبرز كيان المجتمع لتسحق كيان الفرد !

والقرآن ينشئ فرداً وجماعة توازن بين مطالب الجسد ومطالب الروح ، وبين الدنيا والآخرة بلا اختلاف ! على نسق لا مثيل له في كل « الحضارات » الجاهلية التي تبرز عالم الجسد لتطمس عالم الروح ، أو تبرز عالم الروح لتحتقر الجسد وتستقذره وتذله !

وهكذا .. في أي مجال وعلى أي مستوى تدبرت هذا القرآن وجدت أنه يحوي توجيهاً موحداً .. **بلا اختلاف** ! وعلى درجة معجزة **في كل جانب** ، ثم على درجة أشد إعجازاً في اجتماع **كل الجوانب** .. وبلا اختلاف فيما بين توجيه لجانب وتوجيه لجانب آخر ..

ولقد قمت بدراسة متواضعة بقدر ما فتح الله عليّ في « منهج التربية الإسلامية » وفي « دراسات في النفس الإنسانية » وفي « منهج الفن الإسلامي » فأذهلني هذا الإعجاز في كل جانب قمت بدراسته ، كما أذهلني اتحاد المستوى ـ بلا اختلاف ـ في كل من الموضوعات الثلاثة ، وكذلك الوحدة التي تشمل كل موضوع تعرض له القرآن .

وجهدي المتواضع قد تناول جوانب محدودة من القرآن ، وكثيرون على مدار التاريخ الإسلامي قد أبرزوا جوانب من عظمة هذا الكتاب المعجز ، وما زال المجال مفتوحاً لمزيد من الدراسة في كل اتجاه ، فهذا الكتاب هو كما وصفه الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا تنفد عجائبه » وما يملك أحد أن « يتدبره » دون أن يرى لوناً من الإعجاز فيه .. « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا » .

---

(١) « صنع الله الذي أتقن كل شيء » سورة النمل [٨٨] .

(٢) انظر ـ إن شئت ـ كتاب « منهج التربية الإسلامية » .

ولكن هؤلاء الذين تشير إليهم الآية ـ وأمثالهم في البشرية منذ أربعة عشر قرناً ـ لا يتدبرونه بغير شك . إنما يقرأونه ـ إن قرأوه ـ بقلوب مريضة وعقول مطموسة فلا يتبين له ما فيه من الحق الذي لا اختلاف فيه .

ثم يعرج السياق على طائفة أخرى من طوائف المجتمع المسلم قد لا تكون منافقة بالضرورة ولا ضعيفة الإيمان ، ولكنها بغير شك ضعيفة « التنظيم » غير محكمة الالتزام :

« وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به . ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم . ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا » .

هذه الفئة ضعيفة الركيزة من الناحية التنظيمية . فإذا سمعوا إشاعةً مطمئنة أو مزعجة أذاعوا بها ـ أي نشروها ـ دون تثبت ولا تحفظ ، ودون تدبر لآثار إطلاق هذه الإشاعة في الصف المسلم . فقد تكون الإشاعة المطمئنة ـ على غير حقيقة ـ ضارة بتماسك الصف كالإشاعة المزعجة سواء . فتصور قوماً على أهبة الاستعداد للقاء العدو ، جئت إليهم فقلت لهم إن العدو قد انصرف ولم يعد هناك احتمال للقتال . فماذا تفعل هذه الكلمة في نفوسهم ؟ لا شك أن كثيراً منهم ستتراخى عضلاته وأعصابه ، ويُلقي عنه حالة التأهب التي كان عليها ، وقليل هم الذين سيظلون على حالهم من التأهب والعزم . فحين تكون تلك إشاعة لا رصيد لها من الواقع فكم تفعل من الضرر إذا فاجأهم العدو بعد ذلك على غرة ؟

وكذلك الإشاعة التي تهول في تقدير الخطر بأكثر من حقيقته ؛ إنها تنشر التخاذل في الصف .. فليس كل الناس من أولي العزم !

وقد تكون هذه الفئة من الناس التي تسارع في إذاعة الأخبار حسنة النية فيما تفعل ، لا تقصد الإساءة ولا إشاعة الخلخلة والاضطراب في الصف . ولكنها تؤدي إلى هذه النتيجة بالفعل وإن لم تقصد . ولو أنهم بدلاً من استنباط الخبر ـ أي بذل الجهد في الحصول عليه ـ ردّوه إلى قيادتهم ـ إلى الرسول صلى الله عليه وسلم في حياته وإلى أولي الأمر منهم ـ لعلموه ، أي لعرفوا حقيقته ، دون حاجة إلى الاستنباط ، ودون وقوع في الإشاعات . ولكانوا حينئذ أضبط تنظيماً وأجدر بأن يكونوا أعضاء نافعين في المجتمع الإسلامي .

« ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا » .

فرعاية الله للصف المسلم هي وحدها التي تحول دون حدوث الآثار الضارة التي يمكن أن تحدث من هذا الاختلال ، كما أنها هي التي تحول دون زيغ المسلمين عن دينهم الحق واتباع الشيطان .

وإلى هنا ينتهي الحديث عن تلك الطوائف الزائغة في المجتمع . ويلفت النظر أن السياق يتحدث عنها متلاحقة كأنها طائفة واحدة قد صدرت عنها كل هذه المخالفات ! فهو لا يقول : منهم من يقول كذا ، ومنهم من يفعل كذا ... إنما يتتابع الحديث عنهم هكذا :

« وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال ، لولا أخرتنا إلى أجل قريب ؟ ! » « وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ... » « ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذي تقول ... » « وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به .. »

ونحن نعلم ــ من السياق ــ أنهم طوائف مختلفة لا طائفة واحدة . ولكنا إذا تدبرنا الأمر يتضح لنا أنهم ــ كلهم ــ ذوو موقف واحد أو متشابه في القضية الرئيسية المعروضة في هذا السياق ، وهي القتال ، التي بدأت بقوله تعالى : « فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة » فمواقفهم كلهم هي إلى التقاعس أو التخذيل أقرب .. فربما كان هذا هو الذي جمعهم في خيط واحد كأنهم طائفة واحدة !

ومن ثم يجيء التعقيب الأخير :

« فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك ، وحرض المؤمنين . عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا ، والله أشد بأساً وأشد تنكيلا » .

فهذا هو التوجيه الأخير ، بعد بيان الطوائف المخذّلة في الصف ، يوجّه الأمر للرسول صلى الله عليه وسلم أن يقاتل بنفسه ــ فيعطي بذلك القدوة الواقعية في هذا المجال وفي كل مجال ــ وأن يحرض المؤمنين ، وهم الطائفة الصافية الخالصة من تلك الأوشاب التي وصفها السياق من قبل في تلك الطوائف الزائغة .. ثم الله غالب على أمره ، وهو القادر على أن يكف بأس الذين كفروا ، وأن ينكل بهم تنكيلاً ..

ويلحق بهذا الأمر بيان بوضع كل من الفئتين : المستقيمة على أمر الله والفئة الزائغة ، كل بحسب عمله ، وأن الله سيجازي هذه وتلك بحسب أعمالها :

« من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ، ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها ، وكان الله على كل شيء مقيتاً » .

والنص عام يشمل كل شفاعة حسنة وكل شفاعة سيئة . ولكن مناسبته هنا في السياق أن الذي يشفع شفاعة حسنة يكون مؤداها تحريض المؤمنين على قتال أعدائهم يكون له الجزاء الحسن عند الله ، والذي يشفع شفاعة سيئة (بمعنى يسعى مسعاة سوء) تكون نتيجتها تخذيل الصف وإشاعة الخلخلة والاضطراب فيه فإن له عند الله ما يناسبه

من الجزاء « جزاء سيئة بمثلها » [1] .

فكأن الآية تلخص الموقفين المتقابلين للمؤمنين المقاتلين من جهة والمخذلين بشتى صنوفهم من جهة ، وتبين نهاية كل فريق .

ثم يختتم هذا السياق الحاشد كله ، الدائر من أوله إلى آخره حول القتال والجهاد بآية قد تبدو عجيبة في موضعها :

« وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها . إن الله كان على كل شيء حسيباً».

لكأنما هي نغمة السلام بعد انتهاء القتال ! أو هي تقرير للقاعدة الأساسية في حياة الإسلام : إنه يسعى إلى السلام أبدا . ويسعى إلى الحرب والقتال كوسيلة لإقرار السلام فحسب ، لا من أجل القتال ذاته . ولكنه **السلام** الذي يرضاه الله سبحانه وليس أي سلام . السلام الذي لا تكون فيه فتنة ، ويكون الدين فيه كله لله :

« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله » [2] .

وعندئذ فقط يجيء السلام .

* * *

يتطرق السياق من بيان هذه الفئات المختلفة في **داخل** المجتمع المسلم ، إلى بيان الموقف المحدد الذي ينبغي أن يتخذه المسلمون إزاء الفئات المختلفة **خارج** المجتمع ، من منافقين خارج أرض الدولة وهي يومئذ دولة المدينة ، وكفار محالفين لقوم بينهم وبين المسلمين ميثاق ، ومحايدين لا يريدون أن يدخلوا في حرب مع المسلمين ولا حرب مع قومهم الذين هم على دينهم ، ومتلاعبين يظهرون الإسلام إذا جاءوا إلى المسلمين ويرتدون إلى الكفر إذا رجعوا إلى الكفار ليأمنوا هؤلاء وهؤلاء ! وبمناسبة القتال والقتل يذكر حكم القتل الخطأ والقتل العمد فيما يقع بين المسلمين بعضهم وبعض ، وبين المسلمين وغيرهم من هذه الأقوام السالفة الذكر .

ويخرج عن مجالنا هنا أن نتعرض لهذه الأحكام . ولكنا نذكر فقط أمرين :

الأول : أن هذه الأحكام أو التوجيهات كلها ، وهي سياسية وعسكرية وعقابية ، قد بدئت كلها بتوجيه عقيدي :

« الله لا إله إلا هو ، ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ، ومن أصدق من الله حديثا ؟ » .

إنه رباط آخر من الرباطات المنبثة في السورة أو محطة من محطات التقوية ، تبث شحنة جديدة من المشاعر الإيمانية ، كلما مضى الإنسان شوطاً مع السورة وشوطاً

---

(١) سورة يونس [٢٧] .

(٢) سورة الأنفال [٣٩] .

مع التكاليف ، ليتقبل التكاليف بالرضى ، وتقوى نفسه على احتمال تبعاتها ما دامت عبادة تؤدى إلى الله . الله الذي لا إله إلا هو ، والذي سيجمع الناس إلى يوم القيامة لا ريب فيه ، فيجازيهم بما عملوا في الحياة الدنيا .

والثاني : أن هذه الأحكام تشكل ما يمكن تسميته بلغتنا الحاضرة « القانون الدولي الإسلامي » . وقد أنشأ الإسلام قانونه الدولي هذا قبل أربعة عشر قرناً والبشرية لا تعرف إلا شريعة الغاب ، وما زالت في الحقيقة لا تعرف إلا شريعة الغاب ، وإن كانت تداري أهواءها وشهواتها وعدواناتها تحت شعارات مختلفة وتنظيمات مختلفة آخرها عصبة الأمم التي هلكت وجمعية الأمم المتحدة التي هي حية كميتة ، تقوى على الضعيف وتخنع للقوي وتميلها الشهوات فتحكم على الأمر الواحد حكمين مختلفين إن صدر من هنا وإن صدر من هناك !

أما الإسلام فيحترم مواثيقه ، ويربي أهله على احترام المواثيق ، متفرداً بذلك في كل التاريخ .

* * *

ما زال السياق يتحدث في موضوع واحد شامل متصل هو موضوع القتال والجهاد في سبيل الله . ومن ثم تأتي هذه الآيات ـ بعد مجموعة الأحكام السابقة ـ تحث على الجهاد :

« لا يستوي القاعدون من المؤمنين ـ غير أولي الضرر ـ والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم . فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكلاًّ وعد الله الحسنى . وفضّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما ، درجات منه ومغفرة ورحمة ، وكان الله غفوراً رحيما » .

ومن هذا الحث على الجهاد عامة يتحدث عن نوع خاص من الجهاد كان مطلوباً يومئذ بالنسبة للظروف القائمة وقتذاك وهو الهجرة من مكة ـ دار الكفر يومئذ ـ إلى المدينة دار الإسلام . ولكن المعنى الذي يشتمل عليه هذا التوجيه عام وشامل وغير مقيّد بتلك الظروف الخاصة :

« إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين في الأرض ! قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا . إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفوًّا غفورا » .

إن القرآن يسميهم « ظالمي أنفسهم » أولئك الذين يقعدون عن هذا اللون من الجهاد ـ وهو الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام ـ وهم قادرون عليه ، ويعرضون أنفسهم لأن يفتنوا عن دينهم ، وأن يعجزوا عن إقامة هذا الدين في أنفسهم وفي حياتهم ،

ويتعللون في هذا كله بأنهم مستضعفون لا يملكون شيئاً !

ويصور النص موقفهم عندما تتوفاهم الملائكة ، يستجوبونهم : « فيم كنتم ؟ » ماذا كنتم تعملون ؟ فيم قضيتم حياتكم ؟ لماذا رضيتم بالفتنة وقعدتم فيها ؟ فيعتذرون عن هذا كله بقولهم : « كنا مستضعفين في الأرض » ويحسبون أنها حجة مقبولة تفتح لهم الطريق وتعطيهم جواز المرور بلا حساب ! ولكن الملائكة يوبخونهم : « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ » ثم يعقب النص ببيان جزائهم يوم القيامة : « فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا » .

والسياق كما قلنا يتعرض لحالة كانت قائمة يومئذ ، وهي حالة الفتنة في مكة ، ووجوب الهجرة إلى أرض الإسلام للقادرين على ذلك ، ويتوعد القاعدين هناك بنار جهنم ، بعد أن يسميهم « ظالمي أنفسهم » لأنهم رضوا بالظلم في الدنيا وأوردوا أنفسهم موارد الهلاك في الآخرة .

ولكن القضية في جوهرها أعم من هذا الظرف الخاص . إن الإسلام لا يقبل من أحد على الإطلاق ـ ما دام قادراً ـ أن يرضى بالظلم ويقعد فيه ، مدعياً أنه مستضعف لا يقدر على عمل شيء . إنما يفرض عليه الجهاد لرد هذا الظلم . ونوع الجهاد الذي يشير إليه السياق هو الهجرة إلى دار الإسلام الآمنة المطمئنة التي تقام فيها شريعة الله ومن ثم لا يكون فيها ظلم (والظلم في اعتبار الإسلام هو مخالفة شريعة الله) ولكنه ليس الجهاد الوحيد الذي يخلّص من الظلم . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « لا هجرة بعد الفتح (فتح مكة) ولكن جهاد ونية »[1] والظروف العالمية اليوم ، وظروف الأرض الإسلامية بخاصة تختلف كثيراً عن الحالة الأولى التي استوجبت الهجرة من مكة إلى المدينة ، وعن الحالة الثانية التي قال فيها الرسول صلى الله عليه وسلم « لا هجرة بعد الفتح » . ولكن لا يختلف الأمر من حيث وجوب مجاهدة الظلم الناشئ من عدم تطبيق شريعة الله ، وعدم الرضى به والاعتذار بقولة : كنا مستضعفين في الأرض .. !

إن هذا الدين أبعد شيء عن أن يكون أفيوناً للشعوب ! أبعد شيء عن تخدير الناس للرضى بالظلم في الحياة الدنيا وتمنيتهم بنعيم الآخرة إذا هم رضوا بالظلم في هذه الحياة ! فإنه يتوعد من يصنع ذلك بما يتوعد به الكفار !

« إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان .. »

المستضعفين حقيقة ، لا الذين يدّعون الاستضعاف وهم قادرون ، حرصاً على أمنهم وسلامتهم ، أو حرصاً على أموالهم وأهليهم ، أو حرصاً على مكانتهم وجاههم .

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم

والنص يعطي صورة دقيقة لأولئك المستضعفين حقيقة : « لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا » . فهم يبحثون عن السبيل فلا يجدون ، ويبحثون عن الحيلة فلا يستطيعون ، وهو وضع نفسي وشعوري يختلف تماماً عن حالة الاستكانة والرضى ، حرصاً على شيء من متاع الأرض .

« فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفوّاً غفورا » .

فهو يعلم حقيقة ما في قلوبهم ، ويعلم حقيقة ضعفهم وعدم قدرتهم ، فيتفضل عليهم بالعفو ..

ولكن هؤلاء لا ينتهي أمرهم على هذا الوضع . فالجماعة المؤمنة مكلفة باستنقاذهم مما هم فيه ، مما لا يقدرون هم على مواجهته . ونرجع إلى الآيات الأولى :

« فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة . ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيما . وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيرا » .

وهكذا تتلاقى النصوص من هنا ومن هنا تضع الصورة الصحيحة للأمر كله من جميع نواحيه ، وتضع العلاج كذلك للوضع كله من جميع نواحيه .

« ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة . ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله . وكان الله غفوراً رحيما » .

يستمر السياق ليشجع على الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام ، بعد أن ندد من قبل بالقاعدين وهم قادرون ، فيواجه المخاوف التي تدور في النفس بشأن الهجرة : ألا يجد رزقه ميسراً في المهجر .. أو أن يدركه الموت في الطريق .

فأما المخافة الأولى فالسياق يبث الطمأنينة بشأنها ، فيطمئن المهاجرين في سبيل الله أنهم سيجدون في الأرص سعة وبسطة . والله هو الكفيل ، ما دامت الهجرة في سبيل الله .

وأما المخافة الأخرى فإن الله يجزل العطاء فيها : « فقد وقع أجره على الله » « وكان الله غفوراً رحيما » فهو يغفر له ذنوبه ويأجره أجراً كاملاً على الرحلة التي قام بها في سبيل الله ..

وهكذا تحاط الرحلة المخوفة بكل الضمانات التي تيسرها في النفس ، وتجعل الإنسان الذي أخلص قلبه لله يقبل عليها بلا إبطاء ..

* * *

وبمناسبة الهجرة ــ وهذه الرحلة التي تحوطها المخاوف ــ يأتي حكم صلاة الخوف وبيان الصورة التي تؤدى بها . وهناك خلاف بين الفقهاء في بيان تلك الصورة لا نتعرض

له هنا لأنه خارج عن مجالنا ، ولكنا نقف عند المعنى الذي يوحي به السياق ، وهو الأهمية العظمى للصلاة في حساب الإسلام ، حتى إن الخوف من الأعداء وفتنتهم لا يحول دون أداء الصلاة في أوقاتها . إنما تقصر الصلاة فقط لمواجهة الموقف ، ويقسم المؤمنون أنفسهم قسمين : أحدهما يصلي ويقف الآخر مستعداً بسلاحه للحراسة ، ثم يتبادل الفريقان أماكنهما حتى تتم الصلاة . ولكن شيئاً على الإطلاق لا يحول دون الصلاة في صورة من صور أدائها التي فصلتها السنة النبوية .

ثم يجيء التوجيه بعد بيان حكم هذه الصلاة ، صلاة الخوف :

« فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم . فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة . إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً » .

إن الصلاة هي الصلة بين القلب البشري وبين الله ، فلا يكون الخوف المحيط بالإنسان مانعاً لأدائها ! فإنما يحتاج الإنسان في لحظة الخوف إلى ذكر الله : « ألا بذكر الله تطمئن القلوب »[1] . ومن هنا يجيء النص على ذكر الله بعد قضاء الصلاة ، امتداداً لتلك الصلة الروحية التي تصل ما بين العبد وربه في أحرج الأوقات .

وأخيراً يجيء التعقيب الذي يلخص الموقف كله تلخيصاً دقيقاً بشأن المؤمنين وأعدائهم :

« ولا تهنوا في ابتغاء القوم . إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله ما لا يرجون . وكان الله عليماً حكيماً » .

لقد بدأ الحديث عن القتال منذ قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا خدوا حذركم فانفروا ثُبَاتٍ أو انفروا جميعاً . » وظل السياق متصلاً في موضوع القتال فشمل دعوة المؤمنين الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة إلى القتال في سبيل الله ولاستنقاذ المستضعفين من المؤمنين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً ، ويدعون ربهم أن يجعل لهم من لدنه ولياً ونصيراً ، وشمل مواقف الفئات الزائغة كلها التي تخذّل نفسها أو غيرها عن القتال في داخل المجتمع المسلم ، ثم مواقف الفئات الأخرى خارج المجتمع المسلم مع تحديد موقف المسلمين من كل منها ، وشمل حكم القتل الخطأ والقتل العمد ، ثم بيان فضل المجاهدين على القاعدين ، وبيان وضع الذين يرضون بالقعود في دار الكفر حرصاً على مصالحهم الأرضية حتى تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ، ومأواهم جهنم وساءت مصيراً ، والترغيب في الهجرة ، وبيان حكم صلاة الخوف .. كل هذا في سياق متصل تُسْلِمُ كل نقطة منه للأخرى .

والآن يختم هذا السياق المتصل بهذه الآية الدقيقة التي تلخص الموقف كله .

---

(١) سورة الرعد [٢٨] .

« ولا تهنوا في ابتغاء القوم .. »

إنها الدعوة للقتال الدائم حتى يُكَفَّ بأس الكافرين ويُدْفَعَ أذاهم عن الإسلام والمسلمين وهي دعوة للأجيال جميعاً وإن كان الحديث في الآية كان موجهاً للمقاتلين يومئذ من المسلمين في ذلك الجيل . ولأن الله يعلم أنه جهاد طويل لا يَكُفّ ، فقد حثهم بهذه العبارة : « ولا تهنوا في ابتغاء القوم .. » وهي عبارة موحية بطول الطريق ، وتَعَرض الناس فيه للوهن ما لم يشدوا على عزائمهم ، ويتذكروا الهدف من القتال كله ، ويتذكروا كذلك وضع كل من الفريقين فيه . لذلك يقول لهم :

« ولا تهنوا في ابتغاء القوم . إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون . **وترجون من الله ما لا يرجون ...**»

بهذا الحسم والوضوح في التعبير يتلخص الموقف كله .

الشوط طويل يحتاج إلى العزيمة ، والناس فيه عرضة لآلام يتحملونها وتضحيات ثمينة يتكبدونها . نعم ، ولكن الفريق الآخر – فريق الكفار – يتألم كذلك كما يتألم المؤمنون . فليست الآلام والتضحيات وقفاً على المؤمنين وحدهم . ولا شك أنه مما يشجعك على القتال أن تعلم أنك قد أحدثت في عدوك جراحاً وخسائر في الأموال والأرواح ، وأنك لست وحدك الذي تتألم ، بل إنك تؤلم عدوّك في ذات الوقت .

ثم يجيء الفارق الأعظم : أنتم تتألمون وعدوكم يتألم ، ولكن شتان بين ألم وألم . هذا ألم ذاهب إلى الجنة ، حيث تغسل الجراحات ويمسح الألم ويزول العذاب ، ويعوض عن ذلك كله بنعيم خالد شهي شفيف جميل لا ينضب ولا ينتهي ولا يزول . وذلك ألم ذاهب إلى جهنم ! ليزدادوا عذاباً فوق العذاب ، وليبقوا هناك : « لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها » [1] فما أبعد الشقة بين هذين الفريقين المتقابلين المتلاحمين في القتال !

وإذ ينتهي بهذا التعقيب حديث القتال فإن الحديث عن المنافقين لما يصل إلى نهايته بعد !

لقد كان الحديث عن القتال وارداً في الحقيقة في داخل إطار الحديث عن المنافقين ! ولقد بدأت الإشارة إليهم في قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به . ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً » [آية ٦٠] وجاء الحديث عن القتال في داخل ذلك الإطار [آية ٧١] : « يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا

---

(١) سورة فاطر [٣٦] .

جميعاً » حتى جاء التعقيب الأخير بشأن القتال [آية ١٠٤] : « ولا تهنوا في ابتغاء القوم . إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله ما لا يرجون » . ثم يعود السياق إلى قصة من قصص المنافقين ذات دلالة خاصة بالنسبة للإسلام وللمسلمين ولمنهج التربية الإسلامية وللجاهليات كلها خلال التاريخ :

« إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله . ولا تكن للخائنين خصيماً . واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيماً . ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ، إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً . يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيّتون ما لا يرضى من القول ، وكان الله بما يعملون محيطاً . ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا ، فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة ، أم من يكون عليهم وكيلاً . ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ، ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه ، وكان الله عليماً حكيماً . ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً . ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم ، وما يضرونك من شيء . وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيماً » .

تقول القصة إن نفراً من الأنصار غزوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض غزواته فسرقت لأحدهم درع فحامت الشبهة حول رجل من الأنصار ، فأتى صاحب الدرع رسول الله صلى الله عليه وسلم واتهم السارق (في رواية أنه طعمة بن أبيرق، وفي رواية أخرى أنه بشير بن أبيرق ، وهو منافق كان يقول الشعر في ذم الصحابة وينسبه إلى غيره !) فلما رأى السارق ذلك عمد إلى الدرع فألقاها في بيت رجل يهودي يسمى زيد ابن السمين ووجّه قَوْمَه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا نبي الله ، إن صاحبنا بريء، وإن الذي سرق الدرع فلان (اليهودي) فاعذر صاحبنا على رءوس الناس ، وجادل عنه ، فإنه إن لم يعصمه الله بك يهلك . فلما عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الدرع وجدت في بيت اليهودي قام فبرأ ابن أبيرق وعذره على رءوس الناس ، فنزلت هذه الآيات ...

إنها حادثة فذة في تاريخ البشرية ، وليست حادثاً عارضاً يُنْسَى !

لقد كان اليهود ـ وما زالوا ـ على موقفهم المعروف من الإسلام ، لا يتركون فرصة واحدة تمر دون إيذاء للإسلام والمسلمين .

ولقد كانوا في المدينة قد فعلوا كل ما في وسعهم للحيلولة دون قيام هذا الدين وتمكّنه في الأرض .

حاولوا قتل الرسول صلى الله عليه وسلم مرتين : مرة بإلقاء الحجر عليه (لولا أن الوحي أخبره فترك المكان من قبل) ومرة بدس السم له في ذراع الشاة .

وحاولوا التشكيك في صدق الوحي المنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم .
وحاولوا التشكيك في أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم وصدقه وأمانته وعدله .
وحاولوا تفريق صفوف المسلمين ، وإشاعة البغضاء بينهم كما حدث يوم أثاروا الأوس والخزرج بعضهم على بعض .
ونشروا الأراجيف بمختلف أنواعها لخلخلة الصف المسلم وزلزلته .
وتحالفوا مع المنافقين وتآمروا معهم على محاولة القضاء على الإسلام .
وتحالفوا مع المشركين ، واستعدوهم لقتال المسلمين .
وارتكبوا كل خيانة ممكنة ، وأبدوا كل ضغينة وبغضاء ..
ثم .. ؟
ثم تتنزل هذه الآيات التسع [١٠٥ - ١١٣] لتبرئة واحد من هؤلاء اليهود اتهم ظلماً بسرقة درع لواحد من المسلمين !
يا لله ! إنه الإسلام ! الإسلام وحده في تاريخ البشرية كله ...
وغير الإسلام لم يكن ضميره ليتحرك لتبرئة متهم ينتمي إلى قوم بينه وبينهم كل ذلك العداء ..
ولقد شهدنا في الجاهلية المعاصرة ـ وهي التي تزعم أنها قمة التاريخ البشري في تمثل معاني العدل والإخاء والمساواة ! ـ كيف تنحاز المحاكم كلها والقضاة كلهم حين تكون القضية المعروضة خصومة بين واحد من المسلمين وواحد من غير المسلمين ! يستوي في ذلك المحاكم الخاصة والمحاكم العامة وهيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن ! هذا كله والإسلام لا يعتدي ، ولكنه دائماً معتدى عليه ، والمسلمون اليوم هم المطاردون المشردون الذين تسلب أموالهم وأراضيهم وتزهق دماؤهم بلا حساب ، فكيف لو كان المسلمون يكيدون وكيف لو كانوا يعتدون ويتآمرون ؟!
ألا إنها القمة السامقة التي لا يقيمها ابتداءً إلا الإسلام ، ولا يرقاها إلا المسلمون في كل التاريخ !
لقد كانت كل الظروف « مشجعة » على اتهام ذلك اليهودي وتبرئة ذلك المنافق الذي ينتمي ولو شكلاً إلى الإسلام !
فالعداوة بين المسلمين واليهود قائمة في المدينة .
وكيد اليهود للمسلمين قائم واضح للعيان ، ويمكن أن يكون جزءا من هذا الكيد سرقة آلة من آلات الحرب من واحد من المسلمين !
وتوجيه التهمة لواحد من المسلمين (وإن كان منافقاً) يضرّ بسمعة المسلمين كلهم وهم في هذه الحرب الضارية ، في الخارج مع قريش وحلفائها ، وفي الداخل مع اليهود والمنافقين ، ويمكن أن يستغله الأعداء في التجريح والتشويه .

لذلك فإن أي أحد غير الإسلام والمسلمين كان قميناً أن يصدّق على الدعوى حتى لو ثبت العكس ، ويمضي في تجاهل الأمر ، وإلصاق التهمة باليهودي ، والتستر على الفاعل الأصلي .

ولكنه يومئذ لن يكون هو الإسلام ، ولن يكونوا هم المسلمين !

فما جاء الإسلام ليتستر على انحرافات البشرية أو يتسامح مع شيء منها ! وما جاء ليجاري الجاهليات فيما تقع فيه من انحراف !

لقد جاء لينشئ « الإنسان الصالح » في الأرض .

الإنسان الذي يمارس بشريته كاملة على الأرض ، ولكن في أفقها الأعلى الذي يحقق للفطرة السوية كيانها الكامل « في أحسن تقويم » :

« لقد خلقنا الإنسان **في أحسن تقويم** ، ثم رددناه أسفل سافلين ، **إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات** .. »[1]

جاء لينشئ الصورة الصحيحة للبشرية كما ينبغي أن تكون ، في واقعية مثالية ، تأخذ الكائن البشري كما هو ، وترفعه إلى أعلى ما يطيق ، بغير عسر ولا مشقة ، خطوة خطوة حتى يرتقي القمة السامقة ، ويشرف على البشرية من هناك ، ليهديها إلى الطريق :

« وكذلك جعلناكم أمة وسطاً **لتكونوا شهداء على الناس** ويكون الرسول عليكم شهيداً .. »[2]

والاستمرار في اتهام اليهودي الفرد ـ رغم كل الظروف المواتية والمشجعة على اتهامه ـ كان يحدث ثغرة في هذا البناء الشاهق الذي ينشئه الإسلام ، لا للمسلمين وحدهم ، ولكن لكل البشرية .

وفي سبيل تبرئة ذلك البناء الشاهق من تلك الثغرة ، نزلت هذه الأيات التسع تبرئ ذلك اليهودي البريء من هذه التهمة ، وإن كان ينتمي إلى قوم لا يعرفون البراءة ولا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة ، ويتقربون إلى الله ـ في زعمهم ! ـ بسفك دماء المسلمين ووضعها في عجينة « مقدسة » يتبركون بأكلها في عيد الفصح !!

إنها ليست حادثاً عارضاً يمر فَيُنْسَى ..

إنها درس هائل في التربية على الأفق الأعلى ، لا يقدّمه إلا الإسلام ، ولا يقدر عليه إلا المسلمون .

ودرس في التطبيق العملي للعدل الرباني ، الذي لم تعرفه أمة في التاريخ ، إلا الأمة التي رباها القرآن .

* * *

---

(۱) سورة التين [٤ – ٦] .

(۲) سورة البقرة [١٤٣] .

ولقد كفر ذلك المنافق الذي كشفته هذه الأيات التسع ، وانضم إلى المشركين ! وما كان الإسلام ليتألف قلبه لأنه يحمل اسماً مسلماً ، على حساب العدل الرباني الذي يريد إقامته في الأرض نبراساً لكل البشرية . وإنما نزلت فيه هاتان الآيتان :

« ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً . إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء . ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً » .

لقد ذهب ابن أبيرق مع الشيطان .. وبقي ذلك المثل الفذ درساً وعاه المسلمون وحفظوه ، لتتعلمه البشرية منهم يوم تفيء إلى رشدها وتحب أن تعرف الطريق !

* * *

ومن هذا الذي ارتد إلى الشرك يلتفت السياق إلى المشركين وما كانوا ـ يومئذ ـ يعبدون :

« إن يدعون من دونه إلا إناثاً ، وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً ، لعنه الله . وقال : لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً . ولأضلنهم ، ولأمنينهم ، ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ، ولآمرنهم فليغيرُنَّ خلق الله . ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً . يعدهم ويمنيهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا . أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصاً » .

لقد تغيرت ولا شك بعض مظاهر العبادة ، فلم يعد هناك تلك « الإناث » التي كان العرب في شركهم يعبدونها . ولكن عبادة الشيطان ذاتها لم تتغير . وحلت محل « الإناث » القديمة أوثان أخرى : الدولة ، والزعيم ، والمذهب ، والحزب ، والعلم ، والتقدم ، والإنتاج ، والحضارة ، والتطور ، والمجتمع ، والوطن ، والقومية ، والعالمية ، والإنسانية ، والعقلانية ، و« المودة » ، والجنس ، والحرية الشخصية .. ....

عشرات من « الإناث » الجديدة غير تلك الإناث الساذجة البسيطة التي كان يعبدها العرب في الجاهلية ، تُضْفَى عليها القداسات الزائفة ، وتعبد من دون الله ، ويطاع أمرها في مخالفة أمر الله ، وفي تغيير خلق الله ...

ما تغيرت إلا مظاهر العبادة ..

« تطوّرت » ! ...

ولكن الجوهر لم يتغير .. إنه عبادة الشيطان .

ويلفت نظرنا في الآية تلك الخطوات المتتابعة التي يستحوذ بها الشيطان على عباده :

« ولأضلنهم . ولأمنينهم . ولآمرنهم .. »

هذا التتابع الدقيق الذي تصوره الآية لا يُذكر اعتباطاً . إنه يصور الخطوات المتدرجة التي يتم بها فساد البشرية على أيدي الشيطان ..

فالمرحلة الأولى هي الإضلال ، بمعنى الإبعاد عن الطريق المستقيم ، وبمعنى التعمية على السالكين . فهكذا يصنع شياطين الجن والإنس مع البشرية . يبعدونها عن الطريق المستقيم ، طريق الله ، مع التعمية عليها في مبدإ الأمر وإيهامها أنها مازالت تسلك الطريق الصحيح ! فإذا بعدوا بالفعل تجيء التمنية بأن الطريق الجديد أشهى ثمرة وأروح وأجمل وأحسن عاقبة من طريق الله ! فإذا فعلت التمنية فعلها وأسرع « الحمير »[1] في الجري يركبهم الشيطان ، فقد ملك أمرهم إذن وتمكن .. وهنا تجيء مرحلة الأمر من الشيطان والإذعان من الدابة التي يركبها الشيطان ! ثلاث مراحل متتابعة تكتمل بعدها العبادة ، ويستشرى بعدها الفساد .

« يعدهم ويمنيهم . وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ! »

وهل هو إلا الغرور ذلك الذي وقعت فيه الجاهلية المعاصرة حتى هنا في الدنيا قبل أن تصل إلى مصيرها في الآخرة ؟!

هذا القلق والضياع والحيرة والاضطراب والجنون والانتحار والانحراف والشذوذ والخمر والمخدرات و....

هل هو شيء غير هذا الغرور الذي أوقعهم فيه معبودهم الذي عبدوه من دون الله ، وتبجحوا بعبادته وتحدّوا به الله !

« أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصاً . »

وفي المقابل الكامل لذلك نجد المؤمنين عباد الله :

« والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ابداً ، وعد الله حقاً ، ومن أصدق من الله قيلاً ؟ »

فالجنات مقابل جهنم . والخلود هنا مقابل الخلود هناك . وهنا وعد الله وهناك وعد الشيطان . هنا وعد الصدق ، وهناك وعد الغرور .

* * *

وإن الله في وعده الصادق هذا لا يحابي أحداً من خلقه . إنه يجزي به المؤمنين حقاً . والإيمان ليس بالتمني :

« ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب ! من يعمل سوءًا يُجْزَ به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً . ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً » .

---

(١) يقول التلمود لليهود : إن الأميين هم « الحمير » الذين خلقهم الله ليركبهم شعب الله المختار ! !

ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ، ولكن ما وقر في القلب وصدّقة العمل ..

وهذا الجزاء الضخم الذي يعده الله لعباده ، وهو نعيم الجنة ورضوانها ، لا يمنحه الله لأيٍّ كان لمجرد أن « يتمنى » وهو قاعد عن العمل ، وأمنيته في اتجاه وعمله وسلوكه في اتجاه آخر !

إن هذا الدين جاد . وهو دين ممارسة عملية في واقع الأرض ، لا دين شعارات ترفع في الهواء .

ولقد مر بنا الدرس في الآيات الأخيرة من سورة آل عمران : « إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب » التي جاء في ختامها : « فاستجاب لهم ربهم أني **لا أضيع عمل عامل** منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض ... » وهنا يعود الدرس ليلقن للمسلمين من جديد .

إنه بغير التطبيق العملي لا يقوم « واقع » لهذا الدين .

ولن يقوم هذا الواقع بالتمني . فالتمني ـ وحده ـ لا ينشئ شيئاً على الإطلاق . ولقد أنشأ المسلمون الأوائل ذلك الواقع الضخم الذي أنشأوه بالتطبيق العملي لمبادئ هذا الدين وقيمه وأوامره وتعليماته وشرائعه وتوجيهاته . ثم لما حوّل المسلمون دينهم إلى التمني ، صاروا إلى ذلك الغثاء الذي تحدث عنه الرسول صلى الله عليه وسلم منذ أربعة عشر قرناً من الزمان . ولن يعودوا إلى وضعهم ومكانتهم التي خلقهم الله من أجلها حتى يكفوا عن ممارسة الإسلام بالتمني ويعودوا إلى ممارسته في الواقع الملموس .

والجزاء في الآخرة حاسم صريح : « من يعمل سوءًا يُجْزَ به ، ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً » .

إنما يجد الجزاء الحسن من يعمل الصالحات وهو مؤمن .. وذلك هو « الدين » .

« ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً ؟ واتخذ الله إبراهيم خليلاً . ولله ما في السماوات وما في الأرض ، وكان الله بكل شيء محيطاً » .

فإنما هو التسليم الكامل لله واتباع ملة إبراهيم ، وهي هي ملة محمد صلى الله عليه وسلم ، إنما يردد القرآن ذكر الصلة بين دين محمد صلى الله عليه وسلم ودين إبراهيم لأن مشركي قريش من ناحية وأهل الكتاب من يهود ونصارى من ناحية أخرى كلهم يدّعون أنهم على دين إبراهيم ! فكأن القرآن يقول لهم : من كان على ملة إبراهيم فليدخل في دين محمد صلى الله عليه وسلم .

والتعقيب الأخير أن الله له ما في السماوات وما في الأرض وهو محيط بكل شيء ، فهو محيط بما يفعله المشركون وما يفعله أهل الكتاب .

* * *

ينتقل السياق نقلة تبدو لنا مفاجئة ، فيعود إلى موضوع من الموضوعات الرئيسية في السورة : موضوع النساء وعلاقات الأسرة .

« ويستفتونك في النساء ... »

فيذكر يتامى النساء اللواتي تحدث عنهن في الآية الثانية من أول السورة . وعن نشوز الزوج وطريق الإصلاح ..

وما بنا أن نتعرض للموضوع في مجالنا هذا . ولكنا نقول فقط إن النقلة ليست مفاجئة تماماً كما تبدو لنا لأول وهلة . فقد سبق قبلها : « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ؟ » ومن إسلام الوجه ، والتسليم لله في كل أمر جاء هذا الاستفتاء من المسلمين للرسول صلى الله عليه وسلم . فقد توقفوا عن المضي في أي شأن من شئونهم حتى يسألوا الرسول صلى الله عليه وسلم عن أوامر الله لهم في هذا الشأن ، وكيف يريدهم الله سبحانه وتعالى أن يتصرفوا فيه . فهذا الاستفتاء قبل التصرف في الأمر هو التطبيق العملي لإسلام الوجه لله الذي ذكر في الآية السابقة القريبة . ومن ثم فلا انفصال ولا انقطاع في السياق . وذلك فضلاً عن الملاحظة التي أشرنا إليها من قبل، وهي أن هذا الدين كله وحدة ، وكله سواء : العقيدة والشعيرة والشريعة والتوجيه ..

والحديث في أمر النشوز وطرق الإصلاح تتكرر فيه الإشارة إلى التقوى أكثر من مرة :

« وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً ، والصلح خير . وأحضرت الأنفس الشح . وإن **تحسنوا وتتقوا** فإن الله كان بما تعملون خبيراً . ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ، فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة . **وإن تصلحوا وتتقوا** فإن الله كان غفوراً رحيماً. وإن يتفرقا يُغنِ الله كلاً من سعته . وكان الله واسعاً حكيماً ولله ما في السماوات وما في الأرض ، ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم **أن اتقوا الله** ... »

وفي تلك الأمور الدقيقة التي تمس ما بين الزوجين فإن التقوى هي الضمان الأول للعدل والإحسان المطلوبين في الموقف ، ثم تجيء الأمور كلها بعد ذلك . ولذلك يشدد السياق في الأمر بالتقوى ، ويصل الأمر إلى حد التهديد :

« .. وإن تكفروا فإن لله ما في السماوات وما في الأرض ، وكان الله غنياً حميداً . ولله ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً ، إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين . وكان الله على **ذلك قديراً** » .

ويجيء التعقيب الأخير يبيّن ما يحدو الناس إلى عدم التقوى ، وهو الرغبة في متاع الدنيا ، ويبين العلاج :

« من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة ، وكان الله سميعاً بصيراً » .

فلا يجرمنكم ثواب الدنيا ألا تتقوا ! ذلك أن التقوى تضمن لكم ثواب الدنيا والآخرة معاً . والله سميع بصير يراقب أعمالكم ويجزيكم عليها .

* * *

نحن الآن في أواخر السورة ، وهذا الجزء الأخير منها يتناول بالحديث أهل الكتاب بشقّيهم : اليهود والنصارى ، والمنافقين بشقيهم : من ادعى الإسلام من اليهود ومن ادعى الإسلام من العرب . ويتناولهم بما يشبه الإنذار لهم ، والمفاصلة معهم . ولذلك نجد نغمة الحديث بصفة عامة أشد مما ورد في السورة من قبل بشأن هذه الطوائف جميعاً .

وعلى أبواب هذا الحديث عن تلك الطوائف التي لا تؤمن بلا إله إلا الله نجد آيتين ذواتي دلالة خاصة موجهتين إلى الأمة المسلمة :

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا . وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً . يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزّل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل . ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً » .

إن الآيتين معاً ، ثم كلاًّ منهما على حدة ، تُعِدّ هذه الأمة إعداداً خاصاً للمهمة الكبرى التي نيطت بها:

« كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » [1]

« وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » [2] .

إنها أمة متميزة . والقرآن في توجيهاته كلها يؤكد هذا التميز ويؤكد عليه . فهو يقرره على أنه حقيقة واقعة : « كنتم خير أمة » وهو كذلك يوجّه إليه توجيهاً دائماً ليتعمق معناه في حس الأمة المسلمة ولتقوم بتكاليفه بالفعل . فهو ليس تميزاً أجوف . ليس شعاراً يرفع . وليس مجرد أمانيّ تجول في الخاطر : « ليس بأمانيّكم .. » إنما هو واقع محدد السمات ، له تكاليف في النفس والمال . في المشاعر والسلوك . في تكوين الفرد وتكوين المجتمع .. في كل اتجاه .

وهو ليس كذلك تميزاً عنصرياً متلبساً بالدين كالذي يدعيه بنو إسرائيل ، ليستعبدوا

---

(١) سورة آل عمران [١١٠] .

(٢) سورة البقرة [١٤٣] .

به الأمم ويتخذوها دوابّ يركبونها كما يقول لهم التلمود . ولا تميزاً عنصرياً قومياً كالذي كانت تدعيه ألمانيا النازية لتستعبد به شعوب الأرض ..

كلا ! إنه تميّز خالص بالعقيدة ، وبالتطبيق الواقعي لهذه العقيدة وتحمل تكاليفها وتبعاتها . تميّز مفتوح ، يدخل فيه كل من أراد الدخول من شعوب الأرض وأجناسها وألوانها ولغاتها وعناصرها وقومياتها ، لا يجدون حاجزاً يحول دونهم ، ويصبحون جميعاً مسلمين ، ويتوجه إليهم ذات النداء : « يا أيها الذين آمنوا .. »

وذلك نسق غير مكرر في التاريخ ..

فهذه « الأمة » وحدها في التاريخ البشري كله هي التي استوعبت الأجناس واللغات والألوان على مستوى واحد وبلا حواجز ، وأطلقت عليهم جميعاً لقباً واحداً : « مسلمين » .

« ألا فضل لعربي على أعجمي ... إلا بالتقوى »[1] .

وكل التجمعات البشرية الأخرى في التاريخ ، قديمه وحديثه سواء ، لم تكوّن « أمة » بهذا المعنى ، لا فرق في ذلك بين التجمع الروماني الشهير ، والتجمع البريطاني في الكومنولث ، والتجمع الروسي في الاتحاد السوفيتي ، والتجمع الأمريكي في الولايات المتحدة ، أو غيرها من التجمعات التي عرفتها البشرية .. كلها فشلت في تحقيق معنى « الأمة » لسبب واحد رئيسي ، أنها لم تقم على العقيدة في الله ، الذي يستوي في العبودية له الحاكم والمحكوم ، والبلد الفاتح والبلد المفتوح ، ويصبحون كلهم ـ بمجرد إسلامهم ـ إخوة في الله . وإخوة في الدين ، حتى وإن كانوا من قبل من الأعداء المحاربين :

« كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ؟ إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم . إن الله يحب المتقين . كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاً ولا ذمة ؟ يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم ، وأكثرهم فاسقون . اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً فصدوا عن سبيله . إنهم ساء مـا كانوا يعملون . لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة ، وأولئك هم المعتدون . فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة **فإخوانكم في الدين** ونفصل الآيات لقوم يعلمون »[2] .

إنها أمة العقيدة ، لا أمة الجنس ولا اللون ولا اللغة ولا الأرض ولا القوم .. العقيدة الخالصة في الله الواحد ، المطبقة في واقع الأرض . وكان القرآن كما قلنا هو كتاب التربية لهذه الأمة . هو الذي أنشأها ابتداء ، وهو الذي رباها ووجهها .

وهاتان الآيتان في الجزء الأخير من السورة هما جانب من هذه التربية وهذا التوجيه :

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده .

(٢) سورة التوبة [٧ ـ ١١] .

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ... »

إنه الإعداد على الأفق الأعلى لتقوم هذه الأمة بمهمتها ..

فمن مهمتها إقامة العدل الرباني في الأرض . لها ولكل البشرية .

وإقامة العدل الرباني في الأرض تحتاج إلى تربية خاصة وإعداد خاص . فالبشر ـ إن لم يقوّموا ـ عرضة دائماً للميل مع الأهواء . والتجرد للحق ، الحق الذي لا تُميل ميزانه قرابة ولا مودة ولا مصلحة ، ولا بغض ولا حسد ولا نزاع ، هو قمة التكوين البشري في أعلى آفاقه ، ولكنه لا يجيء اعتباطاً بغير التربية والإعداد والتوجيه .

والذي صنعه الإسلام مع الجيل الأول لم يكن « وعظاً وإرشاداً » بالمعنى المتداول اليوم في الخطب والأحاديث الدينية . إنما كان تعهداً وتربية . ولقد كان الدرس المتعلق باليهودي الذي نزلت الآيات لتبرئته من تهمة ظالمة ، نموذجاً واقعياً لذلك اللون من التعهد والتربية الذي أنشأ هذه الأمة وأعدها لمهمتها .

وهذه الآية هي استمرار لذات التوجيه :

« كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله » .

فما تصلح هذه الأمة لمهمتها الكبرى وهي ريادة البشرية وقيادتها إلى طريق الخير بغير هذه الصفة تميّز سلوكها وتعاملها : أن تكون قوّامة بالقسط ، شاهدة لله ، لا لمصلحة ولا لهوى ولا لانتهاز فرصة .

والتعبير يستخدم ما يسمى في البلاغة صيغة المبالغة[1] : « قوامين » أي شديدي القيام أو كثيري القيام . وللتعبير دلالته ولا شك . فليس المطلوب أن تقوم هذه الأمة بالقسط مرة أو مرات متناثرة ! إنما تظل تقوم به حتى يصبح ذلك عادة لها لصيقة بها ، وجزءا من بنيتها لا ينفصل عنها .

ولما كان الإنسان عرضة لأن تنفصل عنه هذه الصفة ـ ولو تربى عليها فترة من الوقت ـ حين يوجد جذب شديد من أحد الجوانب ، فقد جاءت في الآية تقويات لهذا الرباط وتحذيرات من انفصاله .

« شهداء لله » .

فهذا تذكير بأن الأمر كله يتم لله ، لا للمصالح والمنافع ، ولا رئاء الناس ، ولا

(١) لي تحفظ على هذه التسمية لا فيما يتعلق بالقرآن فقط بل في الكلام العادي أيضاً ، فالمقصود بها عادة شدة القيام بالفعل وليس المبالغة فيه والمبالغة توحي بتجاوز القصد ، وليس هذا قصد المتكلم في أغلب الأحوال !

رئاء النفس أيضاً ! فقد يكون الدافع إلى العدل حب الثناء من الناس ، أو حبّ الثناء من النفس ! أي الشعور بالبطولة أو بالتميّز للقيام بعمل معين ! وكل ذلك ـ فضلاً عن انحرافه العقيدي والنفسي ـ عرضة لأن يذهب به أي تحول يحدث من النفس أو الناس ! ولكن المطلوب في التوجيه الصحيح أن يكون هذا الأمر لله وحده . وبذلك يستقيم الأمر عقيدياً ونفسياً في آن واحد .

« ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين .. »

فهذا تحذير من أشد مناطق الجذب التي يتعرض لها الإنسان فيصبح عرضة لأن تنفصل عنه حاسة العدل إن لم تكن وثيقة الرباط بالنفس .

ثم تحذير مما نسميه في لغتنا الحاضرة « الانتهازية » أو « الوصولية » أي **ممالأة** ذوي السلطان أو الجاه والنفوذ للحصول على مصلحة منهم !

« إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما » .

فلا الغنى ولا الفقر له دخل بميزان العدل ! ولا يتغير انضباط الميزان بتغيّر الموزون له !

تحذير شبيه بذلك التحذير في سورة النحل : « ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم **أن تكون أمة هي أربى من امة** . إنما يبلوكم الله به ، وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون »[1]

« فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا» .

فالهوى ـ بشتى أنواعه وصوره ـ هو الذي يحيد بالناس عن العدل . والآية تنبه المؤمنين إلى نقطة الضعف هذه في الكيان البشري ليلتفتوا اليها ويقوّوها ، لكي يَقْوَوْا على حمل الأمانة ، وهي تبعة ثقيلة فزعت منها السماوات والأرض والجبال وحملها الإنسان .

وهذا التوجيه الذي توجَّه به الأمة المسلمة يذكرنا بما وجِّه به نبي الله داود : « يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله . إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب »[2]

ثم يستمر السياق يحذرهم بنغمة ترتفع إلى درجة الإنذار !

« وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ».

وهكذا تعد الأمة المسلمة للقيام بحمل الأمانة لا لنفسها فحسب ، بل للبشرية

---

(١) سورة النحل [٩٢] .

(٢) سورة صٓ [٢٦] .

كافة . تحمل ميزان العدل الرباني وتطبقه في واقع الأرض بصورة لا مثيل لها في التاريخ .

تطبقه فتبرئ ذلك اليهودي الذي سرق الدرع برغم كل الخصومة والعداوة التي تشنها يهود .

وتطبقه على ابن عمرو بن العاص حين فاز عليه شاب قبطي في سباق الخيل فضربه بالعصا وقال له : خذها وأنا ابن الأكرمين ، فيشكو والد الشاب القبطي إلى عمر بن الخطاب في المدينة ، فيعطي عمر العصا لوالد الشاب ويقول له : اضرب ابن الأكرمين ! ويلتفت إلى عمرو فيقول له : يا عمرو ! متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً !

وتطبقه حين يجد عليّ كرّم الله وجهه درعه المفقودة عند يهودي فلا ينتزعها منه بسلطة الخلافة وهو يعلم يقيناً أنها درعه ، إنما يشكوه لقاضيه شريح ، حتى إذا أنكر اليهودي يلتفت القاضي لأمير المؤمنين ويقول له : يا أمير المؤمنين هل من بينة ؟ ! فيبتسم عليّ كرم الله وجهه ويقول : صدق شريح ! ما لي بينة ! ! فيقضي شريح بالدرع لليهودي !

وتطبقه مئات المرات وآلافها على مدار القرون ، على نحو لم تعرفه البشرية قط ، ولا تستطيع أن تعرفه حتى تعرف الله ، وتتربى على أخلاق لا إله إلا الله ، فتكون قوامة بالقسط ، شهيدة لله ! .

وتجيء الآية الثانية استمراراً لهذه التهيئة التي تُهَيأ لها الأمة الفريدة في التاريخ :

« يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ، والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل .. »

إن محور الارتكاز كله في قيام هذه الأمة بمهمتها هو الإيمان بالله . ومن ثم يؤكد عليه النص تأكيداً :

« يا أيها الذين آمنوا آمنوا ... »

والتوكيد يلفت النظر ولا شك . فهؤلاء الذين يطلب إليهم أن يؤمنوا هم مؤمنون بالفعل بنص النداء الذي يوجه إليهم ! ولو كان الكلام : يا أيها الذين كفروا آمنوا .. أو يا أهل الكتاب آمنوا ، لما كان في التعبير ما يلفت النظر ، فهم قوم غير مؤمنين يدعون إلى الإيمان . أما أن يدعى المؤمنون بالفعل ليؤمنوا فشيء يلفت النظر بكل تأكيد !

إن المطلوب بلا شك ليس تحصيل حاصل لما هو كائن بالفعل . إنما المطلوب هو التمسك بهذا الإيمان القائم في النفوس ، والاستزادة منه ، والعمل على تنميته على الدوام لكي لا ينقص ولا يتأرجح .

ثم إن هنالك تفصيلاً لقواعد الإيمان وأركانه ، مقصوداً هنا بالذات ، في إعلان المفاصلة بين هذه الأمة وغيرها من الأمم :

« .. آمنوا بالله ورسوله ، والكتاب الذي نزل على رسوله ، والكتاب الذي أنزل من قبل .. »

فليس المطلوب إيماناً مبهماً بالله .. فالوثني والمشرك يؤمنون بوجود الله . وقد كان العرب في جاهليتهم وثنيين ومشركين ، وكانوا مع ذلك يعرفون أن الله موجود ، ويسمونه رب الأرباب ، ويقسمون به فيقولون : ورب الكعبة ! ويعرفون أنه خالقهم وخالق السماوات والأرض ، ومدبر الأمر في السماوات والأرض !

« ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله ! » [1]

« ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ! » [2]

« قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون : لله ! » [3]

ومع ذلك فقد كانوا كفاراً كما وصفهم الله عزّ وجلّ صاحب الأمر في السماوات والأرض ومعطي الأشياء أسماءها الحق . إنما الإيمان المطلوب ينبغي أن يكون كما حدده الله : الإيمان بالله ، وبالرسول صلى الله عليه وسلم ، وبالكتاب الذي نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم حاوياً كل مقتضيات الإيمان وشروطه . والكتاب الذي أنزل من قبل على الرسل السابقين . ويشرح الأمر في تفصيل أدق في الجزء الأخير من الآية :

« .. ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً ».

وهذه الأركان المذكورة في الجزء الأخير من الآية ليست شيئاً آخر مغايراً لما ورد في صدر الآية بوصفه متطلبات الإيمان ، إنما هي تفصيل لما جاء في « الكتاب الذي نَزَّل على رسوله » ، فهذا كله وارد فيه .

وبذلك يتحدد الإيمان على وجه الدقة ، ولا يتميع حتى يدخل فيه الوثني والمشرك وكل من هبّ ودبّ بحجة أنه يعرف الله في قلبه ، ويتعبده بصورة من صور التعبد !

إنه الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين (والقدر خيره وشره كما جاء في حديث : « هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم » [4] وهو ما ورد تفصيله في « الكتاب الذي نَزَّل على رسوله ») .

والإيمان بالله معناه عبادته ، ومعناه طاعته ، ومعناه تحكيم شريعة كما جاء في سياق السورة ..

فالآية إذن تحدد على وجه الدقة معنى الإيمان المطلوب من البشر ليتصفوا بصفة الإيمان ، في ذات الوقت الذي تشكّل فيه رباطاً من تلك الرباطات الإيمانية المنبثة في

---

(١) سورة لقمان [٢٥] .

(٢) سورة الزخرف [٨٧] .

(٣) سورة المؤمنون [٨٨ – ٨٩] .

(٤) رواه الشيخان « قال وما الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره » .

ثنايا السورة ، ومحطة تقوية تعطي شحنة جديدة من الإيمان تعين على احتمال التكاليف .

وهي كذلك إيذان بالمفاصلة مع الفئات الزائغة عن الإيمان ، يمهّد له بالجزء الأخير من الآية :

« ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً » .

ومن هنا تشتد النغمة تقريباً حتى آخر السورة :

« إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً . بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً ... »

حتى ينتهي السياق بشأنهم عند قوله تعالى : « إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً . إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله ، فأولئك مع المؤمنين ، وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً » .

ونقف وقفات سريعة عند بعض هذه الآيات :

« وقد نَزَّل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره . إنكم إذن مثلهم . إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً .. »

إنه تحذير شديد للمؤمنين أن يقعدوا مع الكافرين والمنافقين وهم يكفرون بآيات الله ويستهزئون بها ، حتى ليقول لهم « إنكم إذن مثلهم » .

نعم ! إنه يحذرهم وهم في أول خطوة في الطريق ، لأن نهاية الطريق هي الكفر الحقيقي الذي لا شك فيه .

إن الحس ليتبلد على الأمر المكرور !

وما لم يحسم الإنسان أمره منذ الخطوة الأولى على المنزلق ويرجعْ عنه ، فإنه عرضة لمزيد من الانزلاق يصل به إلى الهاوية .

كذلك يحدث في حياة الفرد ، وحياة الجماعة ، وحياة الأمة ..

والقرآن يحدثنا : « لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . **كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه** . لبئس ما كانوا يفعلون »[1] . والرسول صلى الله عليه وسلم يحدثنا عن هذا الأمر ذاته : أن أول ما بدأ الفساد في بني إسرائيل أن أحدهم كان يلقّى صاحبه الذي كان يعيب عليه فعله بالأمس فيجده على حاله من المنكر فلا يمنعه ذلك أن يكون جليسه وأكيله وشريبه فلعنهم الله .

---

(١) سورة المائدة [٧٨ – ٧٩] .

وإذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجباً في المجتمع الذي يملك الإنسان فيه أمره ، ويملك أن يوجه إلى أخيه الأمر والنهي ، فإن الحالة التي نزلت فيها هذه الآية لم يكن المسلمون فيها قد تمكنوا إلى الحد الذي يجعلهم يستطيعون منع أولئك الكفار والمنافقين من التعالن بالكفر بآيات الله والاستهزاء بها . لذلك كان المطلوب من المؤمنين فقط ألا يقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره . وهو أقل ما يجب على المؤمن في هذه الحالة . فإن لم يفعله ـ رهبة أو مجاملة أو لأي سبب من الأسباب ـ فقد وضع قدمه على المنزلق الذي يؤدي إلى الكفر الصريح .

وقفة ثانية أشرنا إليها من قبل ولا بأس من العودة إليها هنا في مكانها ، وهي أن مجرد القيام ببعض شعائر التعبد ـ في ذاته ـ لا يعطي الناس صفة الإيمان ولا صفة الإسلام فالآية هنا تقول عن المنافقين :

« إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم . **وإذا قاموا إلى الصلاة** قاموا كسالى يراءون الناس ، ولا يذكرون الله إلا قليلاً ».

فالمحك الحقيقي للإيمان ـ الذي ينقصهم ـ هو التحاكم إلى شريعة الله ، والرضى بها ، والتسليم ، كما جاء في الآية [٦٥] من قبل :

« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » .

وإذا لم يفعلوا ذلك فهم منافقون ، وإن تظاهروا بالإسلام وأدوا بعض شعائر التعبد أو حتى كلها مع المؤمنين ! لأن النصوص صريحة في أن الذين يعطيهم صفة الإيمان ليس هو القيام بشعائر التعبد ، إنما التحاكم والرضى والتسليم .

ولا يتعارض مع هذا حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : « إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان » فمن البديهي أن يكون هذا الرجل الذي يطلب الرسول صلى الله عليه وسلم له الشهادة بالإيمان ، مسلّما لحكم الله ورسوله ، مذعناً له . وإلا فلن يشهد له الرسول صلى الله عليه وسلم بالإيمان ، ولن يطلب من أحد من المؤمنين أن يشهد له بالإيمان !

والوقفة الأخيرة مع الآية التي تختم الحديث عن المنافقين ، الذين قال عنهم في الآية السابقة لها مباشرة إنهم في الدرك الأسفل من النار : « إلا الذين تابوا ، وأصلحوا ، واعتصموا بالله ، وأخلصوا دينهم لله ، فأولئك **مع** المؤمنين ... »

انظر كم شرطاً من الشروط فرضها السياق عليهم : تابوا ، وأصلحوا ، واعتصموا بالله ، وأخلصوا دينهم لله ..

ثم بعد ذلك كله لم يقل : فأولئك **من** المؤمنين ! إنما قال : « فأولئك **مع** المؤمنين » !

بينما قال عن الكفار الصرحاء في سورة التوبة : « فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين .. » [1]

ذلك أن النفاق أسوأ بكثير من الكفر الصريح . والكافر الصريح مستقيم الطبع ولكن على قاعدة منحرفة . فإذا قوّمت له القاعدة التي يقف عليها استقام أمره كله . أما المنافق فذو تركيبة نفسية سيئة غاية في السوء ، لذلك يحتاج إلى إصلاح كثير وطويل حتى يستقيم .. ومن هنا كانت هذه الشروط كلها .. ثم هذه النتيجة في نهاية المطاف !

* * *

ثلاث آيات هنا تفصل في السياق بين الحديث السابق عن المنافقين ، والحديث اللاحق عن أهل الكتاب ، في موضوعين مختلفين :

« ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ؟ وكان الله شاكراً عليماً » .

« لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم . وكان الله سميعاً عليماً . إن تبدوا خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفوّاً قديراً » .

فأما الآية الأولى فقد جاءت بعد الحديث المفصل عن المنافقين ، وبعد الوعد لهم بأن يكونوا مع المؤمنين إن تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله . وهي أحرى بـأن تكون تعقيباً ختامياً للحديث عن المنافقين . كأنما يقول السياق : إنهم إن تابوا فإن الله لن يعذبهم ، فما يفعل الله بعذابهم إن شكروا وآمنوا ؟!

ومع ذلك فالنص عام ، والخطاب فيه كأنه موجه إلى الناس جميعاً : « ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ؟ »

وإنه لتعبير موحٍ عجيب ..

فإن الله لا يحب ابتداءً تعذيب الناس ! فماذا يفعل بعذابهم ؟

إنما يعذبهم لأنهم يكفرون . وحين يكفرون فإنهم يخرجون على العبودية الواجبة في حق الله ، يخرجون على ناموس الكون كله ، العابد لمولاه ، ثم يحدث الفساد في الأرض نتيجة ذلك الكفر ، واتخاذ شرائع ومناهج من صنع البشر بدلاً من شريعة الله ..

أما إن شكروا وآمنوا .. فما يفعل الله بعذابهم ؟ بل يقول : «وكان الله شاكراً عليماً » .

والشكر من الله ليس بطبيعة الحال كالشكر من العبد . فكل الأفعال والصفات تختلف بالقياس إلى الله عنها بالقياس إلى العبد . والشكر من الله هو الرضى على عبده ، وما يصاحب الرضى من الثواب . ومع ذلك فإن استخدام لفظ الشكر جزاء على إيمان العبد يلمس قلبه لمسة عميقة ، تعمّق الإيمان وتستحييه ..

---

(١) سورة التوبة [١١] .

أما الآيتان التاليتان فتتحدثان عن كراهية الله عز وجل للجهر بالسوء من القول .. إلا من ظلم .

إنه توجيه من التوجيهات الكثيرة التي تتربى عليها الأمه المسلمة ، والتي ترد في ثنايا السورة . يذكرنا بما جاء في سورة آل عمران :

« وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين ، الذين ينفقون في السراء والضراء **والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس** ، والله يحب المحسنين »[1] .

ولقد قلنا هناك إنه تصفية لنفوس المسلمين كجزء من الإعداد للمعركة .. وهنا نقول كذلك إن المعركة مع أعداء لا إله إلا الله ، من منافقين ومشركين وأهل كتاب ، تحتاج إلى صف متكاتف متساند لا توجد فيه ثغرات . فمن هذه الثغرات ينفذ دائماً أعداء الله . وفي سبيل تصفية النفوس من أضغانها ، وفي سبيل تماسك الصف وإزالة الثغرات يأتي هذا التوجيه :

« لا يحب الله الجهر بالسوء من القول ... »

إن السوء من القول هو مهاجمة الآخرين وسبهم وقذفهم أو غمزهم ولمزهم واتهامهم بالسيئ من الصفات والسيئ من الأعمال . ولا يستقيم حال جماعة ــ ولا أمة ــ تنتشر فيها مقالة السوء بالحق والباطل . ولا بد من قيد على اللسان حتى لا ينفلت بالكلام بغير حق . والقيد لا يكون إلا في الضمير المتصل بالله ، ذي الحساسية لما يحبه الله وما لا يحبه من القول والفعل .

وهذه الأمة تربى على هذه الحساسية تجاه أوامر الله وتوجيهاته . فيكفي أن يقال لها إن الله لا يحب الجهر بالسوء من القول لكي تمتنع عنه وتلتزم بنهي الله عنه .

« إلا من ظلم .. »

هذا الذي يباح له أن يجهر بالسوء من القول . يجهر بأنه مظلوم . وأن فلاناً من الناس هو الذي ظلمه . ولكن الكلام لا يكون هكذا اعتباطاً بغير بينة . فإنما يباح للمظلوم أن يجهر بما أصابه من الظلم ــ مع تقديم البينة عليه ــ لطلب النصفة وإحقاق الحق . « وكان الله سميعاً عليماً » يعلم إن كان هذا الجاهر بالسوء مظلوماً حقاً أو مفترياً على الناس بغير حق .

ومع ذلك .. مع هذه الإباحة .. فليست هذه هي الطريقة المثلى التي يحبها الله ! إن المظلوم يباح له أن ينفس عن ألمه بالجهر بالسوء من القول ، ولكن التوجيه الرباني

---

(١) سورة آل عمران [١٣٣ – ١٣٤] .

الموحي هو العفو والتسامح والارتفاع على الضغينة !

« إن تبدوا خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفوًّا قديراً »

أريت إلى التوجيه اللطيف بعد إباحة الجهر بالسوء ؟! إنه يتحدث عن « الخير » بدلاً من « السوء » ! ويتحدث عنه في جميع صوره : بادياً أو خافياً ! ويخص من الخير العفو عن السوء !

ولكن أي عفو هو ؟ عفو الذليل العاجز الخانع يخنع للظلم ويزعم أنه متسامح ؟!

كلا ! إن هذا أمر لا يحبه الله ورسوله ، ولا يرضى به الإسلام . إنما هو « العفو عند المقدرة » كما يشير إيحاء الآية : « إن الله كان عفوًّا قديراً » .

فهذا هو العفو الذي يحبه الإسلام ، والذي يصفي النفوس حقاً ، ويربط الصف المسلم برباط من الحب يتماسك به في وجه الأعداء .

* * *

ينتقل السياق بعد ذلك إلى فريق آخر من أعداء الإسلام : اليهود .

ويستغرق الحديث المتصل عنهم اثنتى عشرة آية متوالية [١٥٠ - ١٦١] تروي سجلاً كاملاً عن أفاعيل اليهود في تاريخهم المليء بالأفاعيل : فمن قولهم : أرنا الله جهرة وأخذ الصاعقة لهم بظلمهم ، إلى اتخاذ العجل من بعد ما جاءتهم البينات ، إلى أخذ الميثاق الغليظ منهم تحت الصخرة ثم نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق ، وتقولهم على مريم البتول واتهامهم لها بأبشع التهم ، وقولهم إنهم قتلوا المسيح ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبّه لهم ..

ويعقّب على هذا السجل الحافل من المخازي بقوله تعالى :

« فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيبات أحلت لهم ، وبصدهم عن سبيل الله كثيراً . وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل . وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً » .

ولما كان بعض اليهود قد آمن إيماناً صادقاً فهم مستثنون من هذا الحكم :

« لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر ، أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً » .

وبمناسبة أولئك المؤمنين يذكر حقيقة رئيسية في تاريخ الرسل وفي حياة البشرية :

إن ما أوحي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم هو ذاته الذي أوحي إلى النبيين من قبل : لا إله إلا الله . اعبدوا الله ما لكم من إله غيره .. وإنهم كلهم قد بعثهم الله لغاية واحدة : « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » :

« إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده . وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان ، وآتينا داود زبورا . ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليماً . رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل . وكان الله عزيزاً حكيماً » .

إنه وحي واحد للرسل جميعاً ، وغاية واحدة ..

إن الله ـ من رحمته ـ لم يأخذ الناس بميثاق الفطرة وحده :

« وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ! شهدنا ! »[1]

ومن رحمته كذلك أنه لم يكلهم إلى أنفسهم ، وهو يعلم ـ سبحانه ـ أنهم عرضة للهوى والانحراف والضلال وانتكاس الفطرة . إنما أرسل إليهم رسلاً مبشرين ومنذرين « لئلا يكون للناس على الله **حجة** بعد الرسل » .

نعم . إنها رحمة الله ، بعد ما أودع الفطرة أن تتجه إليه سبحانه وتعبده ، وبعدما أعطى الإنسان من أدوات المعرفة ما أعطى : « وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون »[2] ألا يكلهم إلى ذلك وحده ، وألا يعذبهم حتى يبعث إليهم رسولاً ينذرهم ويبشرهم : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً »[3] .

ومن كرمه سبحانه يقول : « لئلا يكون للناس على الله حجة **بعد الرسل** » .. **فكأنما** كانت لهم حجة على الله لو لم يبعث الرسل إليهم رغم إشهـاد الفطرة ورغم إعطاء السمع والأبصار والأفئدة للناس !!

ومع ذلك ينكرون .. ويتبجحون .. ويكفرون .

فأما بالنسبة لبعثة محمد صلى الله عليه وسلم فالله يشهد :

« لكن الله يشهد بما أنزل إليك ، أنزله بعلمه ، والملائكة يشهدون . وكفى بالله شهيداً » .

---

(١) سورة الأعراف [١٧٢] .

(٢) سورة النحل [٧٨] .

(٣) سورة الإسراء [١٥] .

ومن ثم يعنف السياق على المنكرين . ويأخذ اليهود والنصارى في الطريق ، ويوجه الخطاب إلى الناس جميعاً بشأن بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ثم إلى أهل الكتاب ليكفوا عن انحرافاتهم ويؤمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم وبالرسل جميعاً على استقامة :

« يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم ، فآمنوا خيراً لكم . وإن تكفروا فإن لله ما في السماوات والأرض وكان الله عليماً حكيماً . يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق . إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة . انتهوا خيراً لكم . إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد . له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً .. »

ثم يقول لهم إن المسيح الذي يزعمونه رباً وإلهاً لن يستنكف أن يكون عبداً لله ، وكذلك « روح القدس » جبريل ، فما بالهم هم ؟!

« لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون . ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله . وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً » .

ثم يجيء في ختام السورة هذا النداء الرفيق للناس .. للناس جميعاً .. ولنذكر أن النداء في مفتتح السورة كان للناس جميعاً كذلك :

« يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم ، وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً . فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ، ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً » .

إنه ختام الجولة الطويلة مع الناس (فيما عدا آية واحدة هي الختام النهائي للسورة عن موضوع الكلالة) . جولة تناولت الإيمان والمعتقدات ، والأفكار والمشاعر ، والسلوك ودوافعه المختلفة ، ومواقف الطوائف المختلفة من البشر من القضية الرئيسية في حياة الإنسان : قضية الإيمان . قضية لا إله إلا الله ، ومقتضيات لا إله إلا الله . وتناولت بالتربية والتوجيه تلك الأمة المسلمة لتعدها لأمانتها الكبرى تجاه نفسها وتجاه الناس ..

إنه نداء ندي رفيق ، يحبب إلى الناس الإيمان بعد هذه الجولة الطويلة مع المؤمنين والزائغين ..

وإنها لمن المواضع القليلة جداً في القرآن ، التي يذكر فيها جزاء المؤمنين وحدهم ، دون أن يذكر في مقابلها جزاء الكافرين !

إنه نداء للتحبيب .. وليس للإنذار والوعيد !

أما الختام الأخير للسورة فهو رد على فتوى المستفتين عن الكلالة ، وهو موضوع

سبق ذكره في السورة . وإن طلب الفتوى ـ كما قلنا من قبل ـ لهو علامة من علامات الإيمان والتسليم . وإن إعطاء الفتوى لهو بيان ورحمة من رب العالمين : « يبين الله لكم أن تضلوا . والله بكل شيء عليم » .

* * *

والآن وقد استعرضنا هذه السور الثلاث : البقرة وآل عمران والنساء تتضح لنا معالم رئيسية نعود إليها بإيجاز :

أولاً : أن العقيدة ـ بكل موضوعاتها ـ هي العنصر الرئيسي في القرآن كله ، مكية ومدنية سواء . وأنها في السور المدنية هي المجرى الحيّ الذي تستنبت على جانبيه التوجيهات والتشريعات والتنظيمات ، مربوطة كلها برباط العقيدة ومنبثقة منها .

ثانياً : أن السورة وإن طالت وتعددت موضوعاتها ذات وحدة شاملة تربط بين موضوعاتها بصورة ملحوظة .

ثالثاً : أن لكل سورة شخصية متميزة وإن تشابهت الموضوعات أحياناً ، لأن لكل سورة اختصاصاً عاماً من جهة ، ولأن الطريقة التي تعرض بها الموضوعات المتشابهة تتغير من سورة إلى سورة بما يناسب الجو العام لتلك السورة ، ومن ثم لا تتكرر بذاتها على الإطلاق !

كيف نقرأ القرآن

القرآن هو الروح الذي يؤنس المؤمن في رحلته الشاقة في هذه الأرض ، والنور الذي يضيء جوانب روحه ، والمعلم الذي يلقنه ، والهادي الذي يبين له معالم الطريق .

والحياة مع القرآن تثير في النفس عالماً من المشاعر لا يعرفها ولا يتذوقها إلا من يصاحب القرآن بحس متطلع وقلب متفتح . عالم تسبح الروح في جنباته ، ويجول الفكر فيه جولاته ، وتعبّ النفس من فيضه بقدر ما ترتوي أو بقدر ما تطيق !

والحياة مع القرآن هي الحياة مع الله . فالقرآن كتاب الله المنزل وكلامه الموجه إلى « الإنسان » .. إلى نفسه وقلبه وفكره وروحه . وهو كذلك حديث متصل عن الله جل جلاله وجل ثناؤه . يصفه بأسمائه وصفاته وأفعاله . يصفه بقدرته المعجزة . يصفه برحمته الواسعة . يصفه بعلمه الشامل . يصفه بكبريائه وجبروته .. يصفه بكل ما تستطيع النفس البشرية أن تدركه من الصفات .

فحين يعيش الإنسان مع القرآن فهو يعيش مع الله .. سواء حين يحس برحمة الله وفضله الغامر ، الذي اقتضى أن يخاطبه رب العزة من خلال كتابه المنزل ، وهو الذرة الفانية والهباءة المنثورة في هذا الكون الواسع ، التي لا تزن شيئاً في ملك الله العريض هي ولا كوكبها الذي تعيش فيه كله ، لولا هذه الرحمة الواسعة والفضل الغامر ، الذي يتناوله بالرعاية فيرسل إليه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، ويقرئه كتابه المنزل ليهدي به تلك النفس .. تلك الذرة الفانية .. تلك الهباءة المنثورة .. الضائعة لولا فضل الله ..

سواء حين يحس برحمة الله الواسعة تلك ، أو حين يتتبع ذلك الحديث المتصل في القرآن عن الله سبحانه وتعالى من أول سورة إلى آخر سورة .. من الفاتحة إلى المعوذتين .. فهو يعيش مع الله في كل لحظة يعيشها مع القرآن .

من أجل ذلك يوصي الرسول صلى الله عليه وسلم المؤمنين بمداومة التلاوة والذكر ، ويحذّر من الجفوة والقطيعة بين المسلم وكتاب الله ، لكي لا تنقطع تلك الصلة الحية ، ولا ينقطع الرباط الذي يربط القلب المؤمن بالله .

لكي لا يرين الران على القلوب ..

فالنفس البشرية يغشاها ما يغشاها من جرّاء تعرضها الدائم « للتراب » المتناثر في جو الحياة .. سواء هو تراب « الجسد » أو تراب « المادة » وما يدور حولها من الصراع !

وهو تراب يتراكم ويتراكم إن لم يمسحه الإنسان عن نفسه وروحه ، حتى يتغبش صفاء النفس ، وتعتم شفافية الروح ، وتنطمس في النهاية فلا ينفذ منها النور .

والقرآن يمسح عن النفس ذلك الران ، حين يعيش الإنسان فيه مع الله ، فتنطلق الروح من إسارها تقبس من النور العلوي ، وينسرب الحديث المتصل عن الله في أعماق النفس فيشيع فيها النور .

« الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح . المصباح في زجاجة . الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار . نور على نور . يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم »[1] .

* * *

لا غنى للمسلم إذن عن مصاحبة القرآن وتلاوته .

والتلاوة ذاتها عبادة . والقرآن هو الكتاب المتعبد بتلاوته ، الذي يكتب الله لقارئه أجره على كل حرف منه يتلوه .

ولكن كيف نقرأ القرآن ؟

نقرؤه لمجرد التلاوة ؟

نقرؤه لنذكر الآخرة ونذكر الموت ونذكر البعث والجزاء ؟

نقرؤه لنعجب ببلاغته ونطرب لجمال عبارته وألفاظه ؟

نقرؤه لنستخرج منه أبحاثاً ودراسات ؟

نقرؤه لنصوغ منه نظريات سياسية واقتصادية واجتماعية وتربوية ونفسية ؟

نقرؤه لنتخير منه مواعظ أخلاقية نعظ بها أنفسنا أو نعظ بها الناس ؟

فلنصنع من ذلك ما شئنا .. لا ضير .

فأيًّا كان هدف التلاوة فقد كتب الله عليها الأجر ، طالما كان التوجه فيها إلى الله ، والرغبة فيها إلى الله . .

ولكن الأجر يتفاوت ولا شك على قدر ما في التلاوة من **التدبر** الذي أمر به الله ، وعلى قدر ما يؤدي التدبر إلى الغاية المطلوبة منه ، فليس التدبر غاية في ذاته ، إنما هو وسيلة لأمر عظيم يراد :

« فبشر عبادِ ، الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب ... الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً ، مثاني تقشعر منه

---

(١) سورة النور [٣٥]

جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله . **ذلك هدى الله يهدي به من يشاء** .. » [1] .

وذلك هو الأمر العظيم المراد : أن يتحول الاستماع إلى القرآن وتلاوته والتأثر الخاشع به إلى « هدى » .. إلى سلوك ملتزم بما أنزل الله في الكتاب ..

بعبارة أخرى : يتحول إلى منهج حياة .

* * *

إن القرآن هو دليل الرحلة للإنسان في هذه الحياة .

وكما يستصحب المسافر معه دليل الرحلة ليعرف منه من أين يبدأ وأين ينتهي وكيف ينعطف به الطريق ، فكذلك ينبغي للمسلم في رحلته على هذه الأرض أن يستصحب معه دليل رحلته ، قرآنه ، ليعرف من أين يبدأ وأين ينتهي وكيف ينعطف به الطريق .

وكما أن دليل الرحلة يقي المسافر حين يرجع إليه من أن يضل طريقه ، ويوفر عليه جهده أن يضيع بلا طائل وهو يضرب في التيه ، فكذلك القرآن مع المسلم يقيه من أن يضل في حياته الدنيا ما دام يرجع إليه ، ويبين له طبيعة المواقف والقضايا التي تقابله في رحلته على هذا الكوكب ، فيزيل عنه الاضطراب والحيرة ، ويمنع جهده أن يضيع في التيه .

فلننظر بادئ ذي بدء ما الذي يقوله الدليل .

* * *

إنه كما أسلفنا يجيب بادئ ذي بدء على تساؤلات الفطرة الملحة ، التي يتعرض لمواجهتها البشر كلهم على السواء ، مؤمنين كانوا أو كافرين ، مهتدين في الرحلة أو ضائعين ، واعين لورودها في أنفسهم أو غير واعين !

من خالق هذا الكون ؟

من مدبر الكون ومدبر الأحداث ؟

من أين جئنا ؟

إلى أين نذهب بعد الموت ؟

لأي غاية نعيش ؟

على أي منهج نعيش ؟

والإجابة على هذه الأسئلة ــ أيًّا كان نوع الإجابة ــ هي التي تحدد للإنسان منهج الحياة .

فإذا كانت الإجابة كإجابة الشاعر الجاهلي المعاصر « إيليا أبو ماضي » :

---

(١) سورة الزمر [١٧ إلى ٢٣] .

جئت لا أعلم من أين ولكنّي أتيت ..
ولقد أبصرت قدامي طريقاً فمشيت ..

فإنها تمثل ولا شك حيرة الجاهليات كلها وضلالها حين تفقد النور الذي تستضيء به في الطريق ، ثم ترسم منهج حياتها مفصلاً على قدّ هذا الضلال الذي تسير فيه .

والقرآن ـ بادئ ذي بدء ـ يقدم الإجابة الصحيحة على تساؤلات الفطرة ، ويرسم من ثم منهج الحياة الصحيح .

* * *

ويهتم القرآن اهتماماً خاصاً بالسؤال الأول من أسئلة الفطرة : « من خالق هذا الكون » ؟ لأن الله سبحانه وتعالى يعلم أنه سؤال رئيسي ومحوري . وأن الضلالة الكبرى تجيء من الإجابات الضالة على هذا السؤال الأكبر ، وأن الهداية الكبرى تجيء من معرفة الإجابة الصحيحة على هذا السؤال بالذات .

ومن ثم نجد أن قضية الألوهية هي محور القرآن كله وأوسع أبواب الحديث فيه .

ولكن القرآن ـ مع عنايته الفائقة بهذه القضية ـ يرد كذلك على التساؤلات الأخرى : من أين جئنا ، وأين نذهب بعد الموت ، ولأي غاية وعلى أي منهج نعيش .. فيعطي حديثاً مفصلاً عن قضية « الإنسان » بعد الحديث المفصل عن قضية الألوهية .

أو قل إن القضيتين الرئيسيتين هما قضية الألوهية من جهة ، وقضية العبودية من الجهة الأخرى ، التي يشترك فيها الإنسان والكون والحياة .. « كلٌّ له قانتون » [1] ، ويقوم الإنسان بالدور الأكبر فيها والدور الأهم ، لأنه الكائن الذي حُمِّلَ الأمانة بين الكائنات كلها التي أشفقت من حملها والنهوض بها : « إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الإنسان .. » [2] .

* * *

والعقيدة هي موضوع القرآن الأكبر .

وما بنا أن نكرر هنا ما قلناه من قبل على صفحات الكتاب .

ولكنا ـ ونحن نحاول الإجابة على هذا السؤال : كيف نقرأ القرآن ؟ ـ لا بد أن نستصحب في وعينا هذه الحقيقة : أن القرآن لم يهتم هذا الاهتمام كله بقضية العقيدة لأنه كان يواجه العرب المشركين المنكرين للا إله إلا الله . فقد سبق أن قلنا على صفحات

---

(١) سورة الروم [٢٦] .
(٢) سورة الأحزاب [٧٢] .

الكتاب إنه يواجه المؤمنين بذات القضية ، ويهتم ـ بالنسبة إليهم ـ بعرضها والتذكير بها ذات الاهتمام .

إنما يهتم القرآن بالقضية لأنها قضية الحياة بالنسبة للإنسان . ولأن ضلال البشرية في التاريخ كله جاء من خلال انحرافاته المختلفة في هذه القضية . وأن الإنسان عرضة دائماً ، لا في الجزيرة العربية قبل البعثة المحمدية فحسب ، بل الآن وفي كل آن أن ينحرف في تصوره لهذه القضية وفي ممارستها كذلك ، فيقع الاضطراب في حياته بقدر هذا الانحراف .

يجب ـ بإيجاز ـ أن نستصحب في وعينا هذه الحقيقة ونحن نقرأ القرآن : أن هذه القضية ـ قضية الألوهية ـ ليست من قضايا الماضي الذي كان . إنما هي قضية اللحظة وكل لحظـة . إنها قضيتنا نحن ، والخطاب فيها لنا نحن بالذات ، لا لقوم آخرين كانوا ، ولا لقوم غيرنا الآن . ولكن لنا . لكل فرد فينا . لأن كل فرد فينا عرضة لأن ينسى ، وعرضة ـ في كل لحظة ـ أن يضطرب فهمه وممارسته لحقيقة العقيدة حين يصطدم بضغوط الحياة من كل جانب ، وبالعداوات المرصودة للإسلام في كل مكان ، ما لم يستصحب القرآن معه في قلبه وفي فكره ، ويجعله المرجع الذي يرجع إليه في هذا المجال .

بل يجب أن نستصحب في وعينا حقيقة أخرى : أننا نحن ـ الذين نطلق على أنفسنا لقب « المسلمين » في هذا العصر ـ أحوج الناس إلى تدبر القرآن ومصاحبته في هذه القضية بالذات ، بعد أن ضعف وعينا بها ، واستحالت كلمة تقال باللسان والقلب غافل عن مقتضياتها ، وفي مقدمة مقتضياتها التحاكم إلى شريعة الله !

إن هذه القضية اليوم ـ في العالم الإسلامي المعاصر الذي أدركته جاهلية القرن العشرين فأبعدته عن مقتضيات عقيدته ـ هي قضية الساعة ، التي ينبغي أن يركز المسلم اهتمامه عليها ليستقيم له إسلامه بصفته فرداً ، وبصفته بعد ذلك جماعة وأمة .

ومن ثم فبالإضافة إلى السبب الدائم الذي يجعل قضية الألوهية هي قضية كل لحظة في حياة الإنسان ، يوجد سبب إضافي يعانيه العالم الإسلامي المعاصر ، ويوجب على كل منا أن يقرأ القرآن في قضية الألوهية على أنه هو المخاطب بها بالذات ، وليس درس مطالعة (قراءة) يقرأ فيه عن عصر من التاريخ فات .

* * *

والقرآن ـ بعد ـ هو كتاب التربية والتوجيه لهذه الأمة .

إنه هو الذي أنشأ « خير أمة أخرجت للناس » . هو منهج التربية الذي تربى عليه

الرسول صلى الله عليه وسلم وربىّ عليه أمته من بعد . فينبغي لنا أن نقرأ القرآن على هذا الأساس : أنه هو الذي يضع لنا منهج تربيتنا ، وهو الذي يربينا في ذات الوقت .

إن هذا الدين كما قلنا أكثر من مرة في هذا الكتاب ليس شعارات ، وليس مُثُلاً معلقة في الفضاء ، وليس قيماً فكرية تُتَملىّ بالذهن .. ولكنه واقع يعاش . وهذا هو التوجيه «التربوي» الأكبر في القرآن :

« الذين آمنوا **وعملوا الصالحات** .. »

« إنما يتذكر أولو الألباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق .. »

« ليس بأمانيكم ولا أمانيّ أهل الكتاب ... »

« فاستجاب لهم ربهم أنّي لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى .. »

ما من موضع في القرآن يخلو من هذا التوجيه .. أن الإسلام ليس مشاعر إيمانية فحسب ، فضلاً عن أن يكون كلمة تقال باللسان ! ولكنه عمل كذلك بمقتضى الإيمان .

وإذ كان الإسلام كذلك ، فقد تولى القرآن مهمة تربية الأمة الإسلامية لتكون مسلمة بالفعل ، أي تمارس إسلامها في عالم الواقع .

رباهم أولاً بالعقيدة ، من خلال تعريفهم بربهم ، ليعرفوه « كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه » [1] فيعبدوه حق عبادته ، ويوقروه ويطيعوه . ومن خلال التوقير والتعظيم لله ، ومن خلال العبادة والطاعة ، تتربي نفوسهم على أخلاقيات الإسلام .

فحين عرّفهم أن الله سميع بصير . وأنه « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة » [2] وأنه « يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها » [3] وأنه « يعلم السر وأخفى » [4] صارت في قلوبهم تلك الحساسية تجاه رقابة الله لأعمالهم الظاهرة ومشاعرهم الباطنة ، فصاروا يحرصون على نظافة هذه الأعمال والمشاعر ليراها الله نظيفة فيرضى عنها ويثيب عليها أصحابها .

وحين عرّفهم أنه « له مقاليد السماوات والأرض » [5] وأنه « بيده ملكوت كل شيء » [6] لم يعودوا يتطلعون لغيره أن يعينهم في شدة يواجهونها ، أو يغيّر وضعاً من الأوضاع يتألمون

---

(١) من دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٢) سورة المجادلة [٧] .

(٣) سورة سبأ [٢] .

(٤) سورة طه [٧] .

(٥) سورة الزمر [٦٣] .

(٦) سورة يّس [٨٣] .

منه ، إنما يتطلعون إليه وحده في السراء والضراء ، ويصبرون حتى يأتي الأمر من عنده سبحانه ، لأنه لا أمر إلا أمره ولا تغيير إلا بيده . فتربوا على أن يواجهوا الشدائد بالصبر وقلوبهم معلقة بفرج الله .

وحين عرفهم أنه « هو الرزاق ذو القوة المتين » [1] وأنه « يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » [2]. وأنه « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم » [3] لم يعد القلق على الرزق يشغلهم . ولم يعودوا يحسون حين يتعرضون من أجل عقيدتهم لاضطهاد قريش ، أو لغيره من الأحداث ، أن البشر هم الذين يتصرفون في أرزاقهم وأقواتهم وأمنهم وراحتهم ، إنما هو الله سبحانه وتعالى وحده .. لذلك لم تذل قلوبهم لبشر من البشر ، وتعلموا ــ في صورة عملية ــ عزة الإسلام .

كذلك حين عرفهم أن الله هو الذي يحيي ويميت ، وهو الذي يملك أمر الدنيا وأمر الآخرة ، وأنه هو الذي يصرف القلوب ، وأنه يحول بين المرء وقلبه .. تعلقت قلوبهم بالله في السر والعلن ، وأصبح ذكر الله حياً في قلوبهم ، فاستقامت هذه القلوب على أمر الله .

وهكذا كانت العقيدة ، وكان تعريفهم بربهم ، هو أداة التربية الأولى التي رباهم بها القرآن ..

ثم إن القرآن كذلك رباهم بالترغيب والترهيب .

فمن خلال الترغيب في ثواب الله وجنته ورضوانه رباهم على أن يتخلصوا من الشح وينفقوا في سبيل الله ويؤثروا على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ويتخلصوا من الخوف من مواجهة الموت فيقاتلوا في سبيل الله بشجاعة حفظها لهم التاريخ . ويتخلصوا من اللصوق بالأرض وحب الراحة والأمن والاستسلام لعواطف القرابة وجواذب المصالح الأرضية ، ويجعلوا الله ورسوله والجهاد في سبيل الله أحب إليهم وأسبق إلى مشاعرهم .

ومن خلال الترهيب من غضب الله وعذابه رباهم على التخلص من شهواتهم وجَعْلِ قيادها في أيديهم ، سواء شهوة المال أو شهوة الجنس أو شهوة الظلم للآخرين والاستعلاء عليهم أو شهوة الغمز واللمز والتجريح ، أو شهوة الحياة ذاتها إن كانت تعوقهم عن الجهاد في سبيل الله .

---

(١) سورة الذاريات [٥٨] .

(٢) سورة الرعد [٢٦] .

(٣) سورة فاطر [٢] .

ورباهم القرآن كذلك من خلال الأحداث .

رباهم في سورة آل عمران التي نزلت بشأن وقعة أحد ألا يهنوا ولا يحزنوا لأنهم الأعلون ما داموا مؤمنين ، ولو كان قد مسهم القرح في القتال . ورباهم على أن قدر الله هو الذي يقتل من كتب عليه القتل ، وليس الذهاب إلى ميدان القتال هو الذي يقتل ! ورباهم على الطاعة للقيادة بعد أن أنبهم تأنيباً شديداً على معصيتهم للرسول صلى الله عليه وسلم . ورباهم على أن المشاعر الإيمانية والأفكار الإيمانية لا بد أن تتحول إلى عمل في عالم الواقع لكي يستجيب لها الله سبحانه ويثيب عليها ...

ورباهم في سورة النور بمناسبة حادث الإفك على ألا يلوكوا الأعراض بغير بينة ، كما رباهم على أن يصونوا نساءهم من التبرج وأن يغضوا أبصارهم ، وعلى أن يسلموا على أنفسهم عند دخول البيوت وأن يستأذنوا ولا يقتحموا بغير استئذان وإذن ...

ورباهم ورباهم ورباهم حتى صاروا « خير أمة أخرجت للناس » .

والقرآن الذي ربّى هذه الأمة الأولى هو ذاته القرآن الذي نقرؤه اليوم ..

وينبغي ــ ونحن نتلوه ــ أن نستيقن أنه هو منهج التربية وهو المربي الذي يجب أن نتربى على يديه . وأن كل حرف فيه قد جاء للتربية ، سواء دروس العقيدة ، أو قصص الأنبياء ، أو قصة آدم والشيطان ، أو التوجيهات الخلقية أو الاجتماعية أو السياسية أو القتالية أو التنظيمية أو ما يحتويه من الترغيب والترهيب ..

إن هذا كله ليس للإثارة الوجدانية المؤقتة التي تصحب ــ عادةً ــ قراءة النص المحكم المؤثر البليغ .

كلا ! إنه دروس تربية ..

والعقيدة بصفة خاصة ..

إننا ــ بحكم أشياء كثيرة في آن واحد ــ قلما نلتفت إلى العقيدة على أنها تربية ! وكثيراً ما نعتقد أنها موجودة في قلوبنا بما فيه الكفاية ، وأنها في حرز حريز لا خوف عليها ، وأن « أمة محمد بخير ! ! » و...

وهذا الوهم يحول بيننا وبين تناول الدرس التربوي من العرض القرآني للعقيدة ...

إننا حين نقرأ قوله تعالى : « إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » نتصايح : وهل في ذلك شك ؟! وهل من أحد يرزق إلا الله ؟

ولكن هذا الذي نقوله مستوثقين منه في حالة السلم والأمن والاطمئنان على الرزق ، يهتز كثيراً ويتزلزل حين تصاب أرزاقنا أو حين يلوح في الأفق أنها تتعرض لشيء من التضييق .. وعندئذ ننسى ! ويخيلّ إلينا أن فلاناً من البشر هو الذي يملك أرزاقنا ! وأنه هو الذي سيضيّق علينا ، وننسى عزتنا ونروح نتزلف لفلان ألا «يقطع أرزاقنا» ! ثم

نروح نزعم لأنفسنا أننا نأخذ بالأسباب !

لماذا ؟ لأننا لم نتربَّ على هذا النص القرآني .. إنما قرأناه فحسب ، ووعته أذهاننا فحسب ، وحسبناه بديهية يلتقطها الإنسان في لحظة ولا يعود في حاجة إلى مزيد من المعرفة عنها أو التوكيد عليها !

كلا ! إنها تربية ..

ونحتاج ونحن نقرأ النص في القرآن أن « نتربى » عليه كما تربى الجيل الأول من الصحابة رضوان الله عليهم ، حتى يتحول من بديهية ذهنية إلى « عقيدة ». إلى شيء مستقر في القلب . إلى قوة محركة في واقعنا . إلى تصور كامل وسلوك منبثق من ذلك التصور .

والعقيدة هكذا في الإسلام !

إنها ليست فكرة . وليست وجداناً مستكناً في الضمير . ولكنها منهج حياة ، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان واقعية جداً ، شعورية وفكرية وسلوكية وفي كل اتجاه .

وهذا هو الذي ينبغي أن نلّتفت إليه التفاتاً شديداً ونحن نقرأ القرآن ، لكي لا يفوتنا التدبر المطلوب منا ، ولا الآثار المطلوبة من هذا التدبر في واقع السلوك وواقع الحياة .

* * *

ومن أبلغ ما يستخدمه القرآن من أمور العقيدة في تقويم النفوس وتربيتها مشاهد القيامة والحديث عن اليوم الآخر .

وسبق أن قلنا في القسم الأول من الكتاب إن الإيمان باليوم الآخر يأتي في مواضع كثيرة من القرآن مرتبطاً وتالياً مباشرة للإيمان بالله . ونقول هنا مرة أخرى ـ بصدد الحديث عن التوجيه التربوي من خلال العرض القرآني للعقيدة ـ إنه كما يستخدم القرآن قضية الألوهية ـ العقيدية ـ في تربية النفوس وتقويمها ، فإنه كذلك يستخدم قضية اليوم الآخر ـ العقيدية ـ في ذات الهدف . وقد أشرنا إلى ذلك إشارة عابرة في الفقرة السابقة ، والآن نلقي عليها مزيداً من الضوء من ناحية ما ينبغي علينا ونحن نقرأ ذكر الآخرة في القرآن .

إن العرض القرآني لمشاهد القيامة من أشد الأمور تأثيراً في النفس ، لفرط الحيوية في هذا العرض ، وتجسيم القرآن لتلك المشاهد حتى لتتحول في الحس إلى مشهد حاضر يعيشه الإنسان بالفعل ، وتصبح الدنيا بكل ما فيها من واقعية الحاضر كأنها ماضٍ كان وانتهى ولم يعد له وجود .

ولا يملك الإنسان ذو الإحساس العادي فضلاً عن الإحساس المتفتح أن يمر بهذه المشاهد دون أن ينفعل بها وجدانه وتتأثر بها مشاعره .

ولكن ما المطلوب منا ونحن نقرأ مشاهد القيامة ؟

أهو مجرد التأثر الوجداني ، وذكر الموت والنهاية ، والبعث والحساب ، لننصرف عن التعلق بالحياة الدنيا والتكالب عليها ؟

هذا وارد ولا شك. وإن كان توجيه الإسلام هنا ليس الانصراف عن عمارة الأرض ، وليس العزلة عن موكب الحياة ، وليس القعود عن اتخاذ أسباب القوة المادية الأرضية، لأن هذا كله يؤدي إلى ضعف المسلمين في مجموعهم ، وعدم إعداد القوة لأعداء الله كما أمر الله ..

إنما المطلوب بالفعل ألا تستغرقنا الحياة الدنيا فننصرف عن ذكر الآخرة والموت والنهاية ، والبعث والحساب .

ولكن هذا الوجدان وحده لا يكفي ، ولا يفي بكل الغرض الذي جاءت من أجله مشاهد القيامة في القرآن .

إنما ينبغي لنا ــ ونحن نقرأ القرآن ــ ألا نفصل مشاهد القيامة عن السياق الذي وردت فيه ونتأثر بها وحدها كأنها قائمة بذاتها .

إنها تجيء في مناسبات معينة . والمناسبة مقصودة في كل مرة .

فحين تجيء مشاهد العذاب بمناسبة الحديث المباشر عن الكفر يصبح المعنى المقصود هو تهديد الكافرين بنار جهنم ، وهذا واضح .

وحين تجيء إشارة ضمنية كهذه :

« **من كان يريد ثواب الدنيا** فعند الله ثواب الدنيا والآخرة ، وكان الله سميعاً بصيراً . يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما . فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا . **وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً** »[1] .

يكون المعنى التربوي المقصود هو تهديد المؤمنين بغضب الله وعذابه إن نكلوا عن القيام بالقسط والشهادة لله سعياً وراء ثواب الدنيا ــ أي متاع الحياة الدنيا . ويكون هذا توجيها مقصوداً للدنيا والآخرة لا للآخرة وحدها كما يسبق إلى الحس بشأن مشاهد القيامة ! توجيهاً لإقامة الأمور في الدنيا بالقسط ، وتطبيق العدل الرباني الذي كلف الله به الأمة المسلمة .

وحين تجيء إشارة كهذه :

« ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب ، من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من

---

(١) سورة النساء [١٣٤ - ١٣٥] .

دون الله ولياً ولا نصيراً . ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً »[1] .

يكون المعنى التربوي المقصود أن هذا الدين لا يصلح أن يكون أمانيّ إنما هو واقع عملي . وأنه لا يُقبلُ من الناس أن يقولوا آمنا بأفواههم ـ حتى مع توفر حسن النية ـ إنما ينبغي أن يمارسوا هذا الدين في عالم الواقع . وينبغي أن يربوا أنفسهم على نبذ التمني مع القعود والنكول في عالم الواقع ، ويبادروا بالتطبيق الفعلي لما يقولون بأفواههم إنهم مؤمنون به . ويكون هذا كذلك توجيهاً للدنيا والآخرة ، لا للآخرة وحدها . توجيهاً مقصوداً به تحويل هذا الدين إلى واقع ملموس لا إلى شعارات في الكتب وعلى أفواه الخطباء !

وحين تجيء مشاهد النعيم جزاء على الإيمان بالله ـ جملة ـ فأمرها واضح ، وإن كان المعنى التربوي فيها كثيراً ما يفلت منا ، لأننا كثيراً ما نعتبر الإيمان بالتمني إيماناً حقيقياً يؤهل للجنة ! وهذا رغم ورود النص الصريح في الكتاب « ليس بأمانيكم ... »

ولكن حين تجيء هذه المشاهد جزاء على تفصيلات الإيمان فينبغي أن يكون المعنى التربوي حاضراً في أذهاننا .

فحين يجيء هذا النص :

« مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ، في كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم . الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منّاً ولا أذًى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون »[2] .

لا يكون رد الفعل المفترض فينا ونحن نقرأ النص أن نقول : « ما أسعدهم ! ! » ثم نمضي نحن فيما نحن فيه لا نعوّد أنفسنا على الإنفاق والبذل ، كأن المقصود بالنص قوم غيرنا تعرض صورتهم أمامنا لمجرد إثارة الإعجاب ! إنما يكون الدرس التربوي المقصود هو أن نحاول نحن مع أنفسنا . وقد تكون المحاولة شاقة وطويلة الأمد . ولكنّا إن لم نقم بها ، إن قنعنا بالتمني ، فسيظل الدرس التربوي بعيداً عن حسنا ، وتظل قراءتنا للنص هي قراءة العين لا قراءة القلب المفتوح .

كذلك حين نقرأ هذا النص :

« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن . ومن أوفى بعهده من

---

(١) سورة النساء [١٢٣ – ١٢٤] .

(٢) سورة البقرة [٢٦١ – ٢٦٢] .

الله . فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به . وذلك هو الفوز العظيم » [1] .

يكون الدرس التربوي أن نحاول مع أنفسنا أن نقتحم العقبة ، ونوطن أنفسنا على أداء ضريبة الإيمان حين يحين موعدها .

وكذلك حين نقرأ :

« قد أفلح المؤمنون ، الذين هم في صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون . أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس ، هم فيها خالدون » [2] .

فعلينا أن نلتقط الدرس التربوي الوارد في ظل قوله تعالى : « أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » .

إنه لا بد لنا أن نراجع سلوكنا الواقعي على هذا السلوك الموصوف في الآيات ، وأن نظل نقوّم ما نجده بعيداً عن الخط حتى يستقيم .

وهكذا تكون مشاهد القيامة في القرآن ـ بنعيمها وعذابها ـ دروساً تربوية كلها ، ويكون واجبنا ونحن نقرؤها ألا نتأثر بها منفصلة عن سياقها ، لنحاول الانصراف عن متاع الحياة الدنيا ، إنما لنصلح سلوكنا الأرضي ونحن نمارس الحياة !

* * *

كذلك نجد في القرآن بيان السنن الربانية التي يدير الله بها حياة البشر على الأرض .

إن الحياة البشرية لا تمضي اعتباطاً بلا ضابط ولا دليل . إنما تحكمها سنن ثابتة كتلك التي تحكم نواميس الكون . غير أنا كثيراً ما نغفل عن هذه الحقيقة ، لأننا نرى السنن التي يدار بها الكون مطردة واضحة محدودة ، ونرى حياة البشر دائمة التقلب ، فنحسب لأول وهلة أن الكون وحده هو المنضبط الحركة بنواميسه ، أما البشر فأمرهم كما اتفق !

أمر آخر يجعلنا نغفل عن حقيقة وجود النواميس الضابطة في حياة البشر ، هو أن الظاهرة البشرية تستغرق أجيالاً عديدة حتى تتحقق ، وحياتنا محدودة بأعمارنا ، فلا نرى الظاهرة بتمامها ، فلا نلتفت إلى وجودها . وأحياناً تكون المظاهر الخارجية خادعة مغايرة للحقيقة الباطنة ، فيزيدنا هذا الأمر بعداً عن التقاط الحقيقة وإدراك النواميس .

---

(١) سورة التوبة [١١١] .

(٢) سورة المؤمنون [١ - ١١] .

من أجل ذلك وجهنا الله في كتابه المنزل إلى دراسة التاريخ . لأن التاريخ الذي مضى هو تجربة تامة منتهية ، واضحة المعالم من ثم ، وواضحة الدلالة . ثم أمرنا الله أن نتدبر الحاضر على هدى دراسة التاريخ ، فنكمل الصورة - التي لم تتم بعد في حاضرنا الذي نعيشه - على ضوء الصور الماضية المكتملة ، فيتضح لنا ما لم يكمل بعد من معالم صورتنا الحاضرة .

لذلك يكثر في القرآن ورود هذا المعنى في صور شتى : «قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل » [1] .

وهذه الدراسة - وتدبر السنن الربانية التي تجري بها حياة البشر على الأرض في أثناء قراءة القرآن - أمر ضروري وحيوي للمسلم ، لكي يتضح له خط سير البشرية على ضوء المنهج الرباني ، وليرى موقعه هو - في لحظته الحاضرة - من مجرى الأحداث .

فحين يقول لنا القرآن : « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون » [2] .

وحين يقول : « إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » [3] .

وحين يقول : « ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم ، وأرسلنا السماء عليهم مدراراً ، وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين » [4] .

وحين يقول : « ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون . فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ؟! ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون . فلما نسوا ما ذكروا به **فتحنا عليهم أبواب كل شيء** ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . » [5]

وحين يقول : « وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال **مترفوها** إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » [6] .

وحين يقول : «كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون !

---

(١) سورة الروم [٤٢] .
(٢) سورة الروم [٤١] .
(٣) سورة الرعد [١١] .
(٤) سورة الأنعام [٦] .
(٥) سورة الأنعام [٤٢ - ٤٤] .
(٦) سورة الزخرف [٢٣] .

أتواصوا به ؟ بل هم قوم طاغون »[1] .

وحين يقول : « وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في آياتنا . قل الله أسرع مكراً .. »[2]

وحين يقول : « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها **نوفّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون** . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار ، وحبط ما صنعوا فيها ، وباطل ما كانوا يعملون »[3] .

وحين يقول : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون »[4] .

فكل هذه سنن ربانية تجري بها حياة البشر على الأرض في دقة كاملة وانضباط كالنواميس الكونية سواء . وعلى ضوئها نستطيع أن نقرأ الماضي والحاضر والمستقبل ، مع تحفظ بالنسبة للمستقبل أنه غيب لا يعلمه إلا الله ، ولكن يمكن استقراؤه فقط على ضوء سنة الله لأنها حتمية : « سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً »[5] والحتمية هنا حتمية النتائج **حين توجد الأسباب** . ولكن الغيب المستور هو وجود الأسباب كما هي منظورة في اللحظة الحاضرة أم تغيّرها بقدر من الله وبتغيير الناس ما بأنفسهم .. أو قيام الساعة بغتة بما هو مقدر لها في علم الله . ولذلك نقول بالنسبة للمستقبل : إنه إذا استمرت الأمور على ما هي عليه فإن سنة الله تقول كذا ... والعلم عند الله .

أما بالنسبة للماضي والحاضر فالأمر مختلف ، لأنه واقع مشهود لا غيب مستور .

ولنحاول مثلاً أن نرى حاضرنا ـ حاضر البشرية ـ على ضوء السنن الربانية التي تجري بها حياة البشر على الأرض .

إن الحاضر المشهود هو ضعف المسلمين وتخلفهم في كل ميدان من ميادين الحياة . وسيطرة أوربا بقوتها السياسية والعسكرية والمادية والعلمية ، وبكل انحرافاتها الجاهلية في عالم العقيدة والقيم والفكر والسلوك . وسيطرة اليهود بمخططاتهم الشريرة على كل مقدّرات البشرية .

---

(١) سورة الذاريات [٥٢-٥٣] .

(٢) سورة يونس [٢١] .

(٣) سورة هود [١٥ - ١٦] .

(٤) سورة الأعراف [٩٦] .

(٥) سورة الأحزاب [٦٢] .

فهل هذا الواقع وارد في السنن الربانية المذكورة في كتاب الله ، بحيث نستطيع أن نقرأه ونحن نقرأ القرآن ؟

نعم !

فأما بالنسبة للمسلمين فقد بيّن الله لهم :

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، **يعبدونني لا يشركون بي شيئاً** .. » [1]

ويبيّن لكم كذلك من خلال قصة إبراهيم عليه السلام :

« وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ، قال إني جاعلك للناس إماماً ، **قال ومن ذريتي ؟ قال : لا ينال عهدي الظالمين** » [2] .

ومن خلال قصة بني إسرائيل :

« **فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب ، يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا ! وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه** . ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه ؟ والدار الآخرة خير للذين يتقون . أفلا تعقلون ؟! » [3]

ومن خلال قصص كثيرة :

« فهل ينظرون إلا سنة الأولين ؟ فلن تجد لسنة الله تبديلاً ، ولن تجد لسنة الله تحويلاً » [4] .

ومقتضى هذه السنن كلها أن الله قد تكفل للمؤمنين بالاستخلاف والتمكين في الأرض والتأمين مقابل شرط واحد : « يعبدونني لا يشركون بي شيئاً » . وقد تحقق هذا الوعد بالفعل للمسلمين ــ وبصورة تاريخية باهرة ــ طالما كانوا على الشرط الذي اشترطه الله عليهم .

وقد اقتضت سنة الله (الواردة في قصة إبراهيم عليه السلام) أن العهد الرباني لا يُنال بوراثة الدم ، إنما بوراثة العقيدة . أي بالاستمرار في العمل بها في واقع الحياة . فإذا انحرفت الذرية وظلمت فإن الله لا يحابيها لمجرد كونها ذرية قوم مؤمنين ! لا بد أن تكون هي بذاتها مؤمنة بالفعل ليتحقق لها العهد . ولكن عهد الله لا ينال الظالمين ، ولو كانوا من ذرية قوم مؤمنين !

وقد تحققت سنة الله ــ بلا مجاملة ــ مع المسلمين حين انحرفوا عن طريق الله ،

---

(١) سورة النور [٥٥] .

(٢) سورة البقرة [١٢٤] .

(٣) سورة الأعراف [١٦٩] .

(٤) سورة فاطر [٤٣] .

فزال عنهم رويداً رويداً الاستخلاف والتمكين والتأمين ، حتى إذا وصلوا إلى حد أن أن يوصفوا بأنهم « خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا » وهو واقع « المسلمين » اليوم ، فقد زال عنهم تماماً كل استخلاف وتمكين وتأمين ، وصاروا إلى الغثاء الذي تتداعى عليه الأمم لتفتك به كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها ، كما حَدَّث الرسول صلى الله عليه وسلم .

هذا بالنسبة للمسلمين ..

فأما بالنسبة لأوربا فقد تعلمت من المسلمين علومهم وحضارتهم وأبت أن تتخذ دين الله . أرادت الحياة الدنيا وزينتها ، وسعت في سبيل اكتسابها بكل ما وسعها من جهد . ومن ثم انطبقت عليها سنتان من السنن الربانية المذكورة في الكتاب :

« من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها **نوفِّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون** »[1]

« فلما نسوا ما ذكروا به **فتحنا عليهم أبواب كل شيء** .. »[2]

وهذا هو الحاضر المشهود في أوربا اليوم . فقد وفىّ الله لهم أعمالهم في الحياة الدنيا بقدر ما اجتهدوا فيها ، ولم يبخسهم شيئاً منها ، ثم فتح عليهم **أبواب كل شيء**: أبواب القوة والثروة والتمكين والاستعلاء في الأرض !

وبقي لهم الجزء المكمل لهذه السنة ، الوارد في نفس الآية [الأنعام ٤٤] : « فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون » .

وقبل عشر سنوات فقط لم يكن الناس يصدقون أن سنة الله ستنطبق عليهم ! وكانوا يظنون ـ مخدوعين بالظاهر ـ أنهم سيظلون ممكنين في الأرض إلى أبد الآبدين !

واليوم تأتي النذر من كتابهم وزعمائهم أنفسهم ، الذين هم أقل فرحاً بما أوتوا ، يقولون إن الحضارة الأوربية في طريقها إلى الانهيار الحتمي إذا سارت على نفس الخطوات !

ويقتضينا الأمر هنا أن نفرق ـ ونحن ننظر في سنة الله ـ بين فتح وفتح ..

يقول القرآن في الكافرين : « فلما نسوا ما ذكروا به **فتحنا عليهم أبواب كل شيء** » [الأنعام : ٤٤] .

ويقول في المؤمنين : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا **لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض** » [الأعراف : ٩٦] .

فالكافرون يفتح عليهم أبواب كل شيء ـ فتنةً ـ ولكنهم يحرمون « البركة » التي

---

(١) سورة هود [١٥] .

(٢) سورة الأنعام [٤٤] .

بفتح على المؤمنين . وإن الواقع الأوربي اليوم لهو مصداق ذلك . فقد حصلت أوربا على قدر من « كل شيء » لم تحظ به أمة في التاريخ من حيث الحجم ! ومع ذلك فانظر في حياتهم : انظر إلى القلق والحيرة والاضطراب والانتحار والجنون والخمر والمخدرات والانحراف والشذوذ ! وانظر إلى تقريراتهم هم ، التي تقول إن كل هذه آخذة نسبتها في الارتفاع !

ذلك أنهم لا يعرفون الله ، فلا يجدون تلك الطمأنينة التي يجدها المؤمنون : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله . ألا بذكر الله تطمئن القلوب » [1] .

أما اليهود فأمرهم كذلك مذكور في الكتاب .

« ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا **إلا بحبل من الله وحبل من الناس** .. » [2]

وقد أشرنا إلى هذا المعنى من قبل ونحن نستعرض سورة آل عمران . فنلخصه هنا بأن القاعدة الدائمة بالنسبة لهم هي ضرب الذلة عليهم أينما ثقفوا . ثم تجيء فترات استثنائية يمكنون فيها في الأرض بحبل من الله وحبل من الناس . وهو الحال القائم اليوم ، حيث يمدّهم الناس بالمدد حين يقعون في مخططاتهم ، سواء عن طريق بيوت الزينة ، أو بيوت الأزياء ، أو السينما والإذاعة والتليفزيون ، أو جنون الجنس ، أو جنون الكرة .. أو إمدادهم بالأموال المباشرة وبالسلاح .

ولكن .. هل جاء هذا التمكين اعتباطاً ؟!

إنه واقع بقدر من الله ولا شك : « بحبل من الله » . ولكنه يأتي في إطار سنة أخرى شاملة واردة في الكتاب :

« قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم . **أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض** » [3] .

هذا نذير الله للبشر حين يكفرون ..

ولقد كفرت البشرية اليوم كما لم تكفر في التاريخ كله . وتبجحت بالكفر كما لم يحدث قط في التاريخ .

لذلك نفذ الله فيهم سنته ووعيده ، **فجعلهم شيعاً** ، وأذاق بعضهم بأس بعض ، واختار أشد خلقه إفساداً ليذيق البشرية كلها بأسهم جزاء بما كفرت وتبجحت بالكفر .

وقد كان هذا كله لأن الأمة المسلمة تخلت عن طريقها وتخلت عن رسالتها ، لنفسها وللبشرية كافة ، فتسلمت منها الراية أمة جاهلية رفضت أن تذعن لأمر الله

---

(١) سورة الرعد [٢٨] .
(٢) سورة آل عمران [١١٢]
(٣) سورة الأنعام [٦٥] .

ودينه ، وجرّت البشرية كلها وراءها إلى الإلحاد والكفر . وسيظل هذا الأمر قائماً ما قدّر الله له أن يكون ، حتى تعود الأمة المسلمة إلى دينها ورسالتها ... فيتغير وضع البشرية .

وهكذا يجد المسلم في كتابه المنزل بياناً وافياً للصورة العامة لسير الأحداث في عالمه الذي يعيش فيه ، على ضوء السنن الربانية المبينة في الكتاب ، كما يجد بياناً لموقفه هو من الأحداث ، ودوره الذي ينبغي أن يقوم به ، وكأن الكتاب قد أنزل إليه الآن في هذه اللحظة ، وليس منذ أربعة عشر قرناً من الزمان ! وهذا كله بغير أسرار ولا طلاسم ، ولا قراءة « سرية » لرموز خاصة في الكتاب !

* * *

أما العداوات المرصودة في طريق الدعوة ، فإننا نجد حديثاً مستفيضاً عنها في كتاب الله .

إن قسماً كبيراً من السور المدنية قد شغله الحديث عن أعداء لا إله إلا الله بفئاتهم الأربع ، وعن كيدهم ومخططاتهم لحرب الإسلام ، كما بينا من قبل على صفحات الكتاب :

« ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم »[1] .

« ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا »[2] .

ثم نجد حديثاً مستفيضاً في قصص الأنبياء عن كل داعية قام يدعو للا إله إلا الله ، كيف تصدى له « الملأ » الذين يكرهون رد السلطة إلى صاحبها ، وهو الله سبحانه وتعالى ، ليستأثروا هم بها ، ويستعبدوا الناس عن طريقها ، وكيف ظلوا يحاربون الدعوة بغية القضاء عليها وصرف الناس ـ المستعبدين لهم ـ عن اتباعها ، وكيف آذوا أصحابها بكل ما يملكون من صنوف الإيذاء ، حتى إذا صبر أصحاب الدعوة على الابتلاء ، ومحصت قلوبهم وتجردوا لله ، جاء قدر غالب من الله فنصر المؤمنين ودمر على أعداء الدين .

وسيجد المسلم نفسه في وسط الأحداث المعاصرة كأنما يتنزل له القرآن الآن .. يصف له حاله وحال أعدائه ، ويكشف له عن خباياهم ودوافعهم ، ويكشف له عن مخططاتهم كذلك !

إنه هنا ـ في هذا الموضوع بالذات ـ لا يعيش مع القرآن ماضياً مر عليه أربعة عشر قرناً من الزمان . إنما يعيش الحاضر ، بكل خلجاته ، بكل قسماته ، بكل تفصيلاته . إنه يعيش المعركة مع أعداء لا إله إلا الله .. المعركة حاضر يعيشه الآن ، وكلام

---

(١) سورة البقرة [١٢٠] .

(٢) سورة البقرة [٢١٧] .

الله عنها حاضر كذلك ، يواكبها لحظة لحظة ، ويصفها خطوة خطوة ، ويوجه قلب المسلم ومشاعره وأفكاره كأنه خطاب منزّل من الله .. الآن .

فهنا ــ في هذا الموضوع بالذات ــ ينبغي للمسلم وهو يقرأ القرآن أن يكون واعياً لهذه الحقيقة ، وأن يقدرها حق قدرها .

إن القرآن يخاطبه هو شخصياً ، وفي لحظته التي يعيش فيها . وهو حين يخاطبه لا يقص له قصة ماضية عن أشخاص آخرين غيره عاشوا تجربتهم الخاصة ، إنما يقص له قصته هو الشخصية من خلال أشخاص آخرين !

ومن ثم فإن التوجيهات التي يحملها الخطاب هي موجهة له شخصياً ، ليعيها ويستجيب لها ، ويشكل مشاعره وأفكاره وسلوكه بمقتضاها .. وبعبارة أخرى ليتربى على ضوئها ويقوّم خطواته على طريق الله .

* * *

ويحمل القرآن للمسلم قيمه الثابته التي تحكمه في عالمه المتغير .

إن الحياة ــ كما أسلفنا في مقدمة الحديث عن سورة النساء ــ تحتوي جوانب ثابتة وجوانب أخرى متغيرة . وقد حوى كتاب الله بالنسبة للجوانب الثابتة أحكاماً وتوجيهات مفصلة لا تتغير ، ولا ينبغي لها أن تتغير . بينما أورد بالنسبة للمسائل المتغيرة أصولاً عامة ثابتة ، وترك للعقل المؤمن أن يجتهد في استنباط الأحكام التفصيلية المناسبة لحياته في إطار تلك الأصول العامة الثابتة .

ولسنا هنا ــ في عرضنا السريع هذا ــ نتعرض للأحكام . ومجالها كتب الفقه واجتهادات الفقهاء ، وإنما الذي قصدنا إليه هو أن المسلم في كل جيل كان يواجه مجتمعاً غير الذي كان يعيش فيه أسلافه . ولكنه في هذا الجيل بصفة خاصة يواجه مجتمعاً ــ لأول مرة في حياته ــ ليس من صنع الإسلام .

إنه يجد اختلافاً كثيراً في المجتمع الذي يعيش فيه اليوم عن كل المجتمعات التي عاش فيها أسلافه ، لا بسبب التغيّر الطبيعي السوي وحده ، الذي ينبغي أن يحدث في حياة الإنسان ، نتيجة تفاعل قواه مع الكون المادي من حوله ، ولكن لخروج البشرية كلها ، عن طريق الله وعن منهج الله بما فيها المجتمعات التي تحمل اسم الإسلام .

فالأحوال في العالم المعاصر ليست كلها نمواً سوياً ولا « تطوراً » كما يقول التطوريون . إنما هي مفتعلة افتعالاً حسب مخططات شريرة وضعت لإفساد البشرية ، ودُسَّت فيها كثير من المفاسد وقيل للناس إنها « تطور حتمي » وإن عليهم أن يأخذوها بلا معارضة

ولا جدال .. وهُدِّدوا إن هم وقفوا في سبيلها بأن عجلة التطور ستسحقهم ! [1]

والمسلم يواجه هذا العالم أراد أو لم يرد .. يواجهه في مجتمعه هو الذي يعيش فيه ، والذي جذبته جاهلية القرن العشرين أو طغت عليه فأبعدته عن طريق الله ومنهج الله .

وموقف المسلم في هذا العالم « التطوري » أن يفرق بين المتطور (أو المتغير) بطريقة سوية ، وبين المتغير بطريقة مفتعلة ، أو بأسباب جاهلية لا علاقة لها بالإسلام .

ومرجعه في ذلك هو الكتاب . [2]

* * *

وأخيراً يجد المسلم في كتابه منهج الدعوة لهذا الدين ..

ولا نقصد فقط قوله تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » [3] فهذا يبين أسلوب الدعوة وحده . ولكني أقصد موضوع الدعوة وكيفيتها .. وهي مبينة بياناً واضحاً في الكتاب .

فالموضوع الأكبر في القرآن كله كما رأينا هو موضوع العقيدة .. والموضوع الأكبر من موضوعات العقيدة هو الألوهية .

وقد بينا على صفحات الكتاب من قبل أن هذا الوضع ليس سببه مواجهة المشركين من العرب في الجزيرة . إنما هو سبب دائم في حياة البشر على الأرض . وبينا كذلك أن هذا الجيل الحاضر من « المسلمين » قد غشيته غواش كثيرة أفسدت فهمه للعقيدة فلم يعد يعرفها في حقيقتها القرآنية كما أنزلها الله .

فهذا الجيل إذن في حاجة إلى حديث مستفيض في العقيدة وفي قضية الألوهية . في حاجة إلى بيان معنى لا إله إلا الله ، وبيان مقتضيات لا إله إلا الله ، وفي مقدمتها التحاكم إلى شريعة الله .

ولقد يظن هذا الجيل أنه في غنى عن الحديث في لا إله إلا الله ، لأنها مسلّمة من المسلّمات التي لا تحتاج إلى بيان ! ولكن الواقع الذي يعيشه « المسلمون » اليوم يبين أنهم في جهالة بمعنى لا إله إلا الله ، لم يقع فيها أي جيل سابق من المسلمين ، لأنهم يقولون لا إله إلا الله بأفواههم ثم لا يجدون في نفوسهم حرجاً أن يحكموا بشريعة غير شريعة الله .

وهذه جهالة من نوع جديد ونادر في التاريخ كما بينا في صفحات الكتاب .

فحين كان الناس يؤمنون بآلهة متعددة كانوا لا يتحاكمون إلى شريعة الله لأنهم

---

(١) انظر – إن شئت – كتاب « جاهلية القرن العشرين » أو كتاب « التطور والثبات في حياة البشرية » .

(٢) والسنّة بلا شك .

(٣) سورة النحل [١٢٥] .

يشركون بالله اعتقاداً فيشركون به كذلك في الاتباع .

وحين آمن الناس بالله الواحد صاروا يتحاكمون إلى شريعته وحده لأن هذا كان في حسهم من بديهيات لا إله إلا الله .

أما هذا الجيل الذي يقول إنه مؤمن بالله الواحد ثم يتحاكم إلى شرائع الجاهلية وينبذ شريعة الله فهو جيل فريد أو نادر في التاريخ !

وهو من أجل ذلك في أشد الحاجة إلى الحديث في لا إله إلا الله ومقتضيات لا إله إلا الله . وفي أشد الحاجة أن نبدأ الدعوة معه بهذه القضية بالذات ، قبل الحديث عن الصلاة والصوم والزكاة والحج ، وقبل الحديث عن مكارم الأخلاق !

* * *

ثم إن العقيدة كما رأينا في عرضنا السابق ليست فكرة ، وليست وجداناً مستكناً في الضمير . إنما هي تربية وسلوك . ويترتب على ذلك أننا حين ندعو الناس نحتاج إلى **تربيتهم** بالعقيدة ، كما ربيّ القرآن الجيل الأول من المسلمين . فليست المسألة دروساً نظرية تلقى في معنى لا إله إلا الله والتحاكم إلى شريعة الله .

والدروس مطلوبة ولا شك ، ولكنها وحدها لا تنشئ مسلماً يعيش بلا إله إلا الله .

لا بد من التربية بالعقيدة حتى تتحول إلى سلوك واقعي في حياة الناس ، وفي سلوك الدعاة أنفسهم قبل كل الناس ..

وذلك هو المنهج الذي يخدم الدعوة ويعينها على أن تجتاز أزمتها وتصل إلى غايتها . وغايتها البديهية هي إنشاء مجتمع مسلم تحكمه شريعة الله .

والله ولي التوفيق .

الفهرس

مقدمة ٥
القرآن – مكي ومدني ١٨
السور المكية ٢١
الإيمان بالله ٣٢
الإيمان باليوم الآخر ٦٣
الإيمان بالملائكة والكتاب والنبيين . . والقدر خيره وشره ٨٣
قصص الأنبياء ٩٩
آدم والشيطان ١١٢
أخلاقيات لا إله إلا الله ١٣٠
نماذج من السور المكية ١٤٣
سورة الرعد ١٤٨
سورة لقمان ١٩٠
سورة فاطر ٢١٤
ظاهرة التكرار في القرآن ٢٤٥
القرآن في العهد المدني ٢٦٢
نماذج من السور المدنية ٢٧٥
سورة البقرة ٢٧٧
سورة آل عمران ٣٠٩
سورة النساء ٤٠٥
كيف نقرأ القرآن ٤٨٧

كتب للمؤلف

الإنسان بين المادية والإسلام
شبهات حول الإسلام
في النفس والمجتمع
قبسات من الرسول
معركة التقاليد
منهج التربية الإسلامية
هل نحن مسلمون ؟
منهج الفن الإسلامي
دراسات في النفس الإنسانية
التطور والثبات في حياة البشرية
جاهلية القرن العشرين
دراسات قرآنية

كتب تالية

منهج التربية الإسلامية (الجزء الثاني)
كيف نكتب التاريخ الإسلامي
المستشرقون والإسلام
مفاهيم ينبغي أن تصحح

مطابع الشروق - بيروت
ص. ب. : ٨٠٦٤ - ت ٣١٥٨٥٩